



صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الأفريقي

(6)

الدولة العثمانية

عوامل النهوض وأسباب السقوط

تأليف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

الى العلماء العاملين ، والدعاة المخلصين،

وطلاب العلم المجتهدين ، وأبناء الأمة

الغيورين:

أهدي هذا الكتاب سائلاً المولى عز وجل بأسمائه

الحسنى وصفاته العُلا أن يكون خالصاً

لوجهه الكريم

قال تعالى: فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ
أَحَدًا.

(سورة الكهف، آية 110)

μ

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله { يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } (سورة آل عمران : آية 102).

{ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع

الله ورسوله فقد فازاً فوزاً عظيماً} (سورة النساء، الآية 1).

أما بعد؛

يارب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت.

هذا الكتاب السادس (صفحات من التاريخ الاسلامي) يتحدث عن الدولة العثمانية (عوامل النهوض وأسباب السقوط)؛ فيعطي صورة واضحة عن أصول الأتراك، ومتى دخلوا في الاسلام وعن اعمالهم المجيدة عبر التاريخ، ويستل من بطون المصادر والمراجع بعض التراجم لشخصيات تركية صهرها القرآن الكريم وساهمت في بناء الحضارة الاسلامية، ونصرت مذهب أهل السنة أمثال، السلطان سلجوق، وألب أرسلان، ونظام الملك، وملكشاه، ويتحدث الكتاب عن جهادهم ودعوتهم وحبهم للعلم والعدل، ويبين أن الأتراك الذين قاموا ببناء الدولة العثمانية امتداداً للسلاجقة ويتحدث حديثاً منصفاً عن زعماء الدولة العثمانية كعثمان الأول، وأورخان، ومراد الأول، وبايزيد الأول، ومحمد جلبي، ومراد الثاني ومحمد الفاتح، ويبين صفاتهم والمنهج الذي ساروا عليه، وكيف تعاملوا مع سنن الله في بناء الدولة كسنة التدرج، وسنة الأخذ بالأسباب، وسنة تغيير النفوس، وسنة التدافع، وسنة الابتلاء، وكيف حقق القادة الأوائل شروط التمكين، وكيف أخذوا بأسبابه المادية والمعنوية؟ وماهي المراحل التي مرت بها؟ وكيف كان فتح القسطنطينية نتيجة لجهود تراكمية شارك فيها العلماء والفقهاء والجنود والقادة على مر العصور وكر الدهور وتوالي الأزمان؟

ويبين للقارئ الكريم أن النهوض العثماني كان شاملاً في كافة المجالات العلمية والسياسية والاقتصادية والإعلامية والحربية، وأن للتمكين صفات، لا بد من توفرها في القادة، والأمة، وبفقدتها يفقد التمكين.

ويوضح للقارئ حقيقة الدولة العثمانية والأسس التي قامت عليها والأعمال الجلييلة التي قدمتها

للأمة؛ كحماية الأماكن المقدسة الإسلامية من مخططات الصليبية البرتغالية، ومناصرة أهالي الشمال الأفريقي ضد الحملات الصليبية الإسبانية وغيرها، وإيجاد وحدة طبيعية بين الولايات العربية، وإبعاد الزحف الاستعماري عن ديار الشام ومصر، وغيرها من الأراضي الإسلامية، ومنع انتشار المذهب الاثنى عشري الشيعي الرافضي الى الولايات الإسلامية التابعة للدولة العثمانية ومنع اليهود من استيطان فلسطين، ودورها في نشر الاسلام في أوروبا ويتحدث هذا البحث عن سلبيات الخلافة العثمانية، والتي كان لها الأثر في إضعاف الحكم، كأهمال اللغة العربية التي هي لغة القرآن الكريم والحديث الشريف في آخر عهدها، وعدم الوعي الاسلامي الصحيح، وانحرافها عن شرع الله تعالى وتأثرها بالدعوات التغريبية،

ويتكلم عن حقيقة الصراع بين الحركة الوهابية والدولة العثمانية، وعن الدور المشبوه الذي قام به محمد علي لصالح بريطانيا وفرنسا في ضربه للتيار الاسلامي في مصر، والحجاز، والشام، وعن حركته التغريبية التي كانت خطوة نحو الإنسلاخ عن المبادئ الإسلامية الأصلية ويتحدث عن الدعم الماسوني الذي كان خلف سياسات محمد علي المدمرة للأمة الإسلامية ويوضح الكتاب أن محمد علي كان مخلباً وخنجرأ مسموماً استعمله الأعداء في تنفيذ مخططاتهم ولذلك وقفوا معه في نهضته العلمية، والاقتصادية والعسكرية بعد أن أيقنوا بضعف الجانب العقدي والإسلامي لديه ولدى أعوانه وجنوده، وكيف ترتب على دور محمد علي في المنطقة بأسرها أن تنبهدت الدول الأوروبية الى مدى الضعف الذي أصبحت عليه الدولة العثمانية، وبالتالي استعدادها لتقسيم أراضيها حينما تنتهي الظروف السياسية.

ويتكلم عن السلطان محمود الثاني الذي ترسم خطى الحضارة الغربية في حركته الإصلاحية، ويتحدث عن ابنه عبدالمجيد الذي تولى السلطنة من بعده والذي كان خاضعاً لتأثير وزيره رشيد باشا الذي وجد مثله وفلسفته في الماسونية، وكيف ساهم هذا الوزير مع أنصاره في دفع عجلة التغريب التي كانت تدور حول نقاط ثلاثة هامة: الاقتباس من الغرب فيما يتعلق بتنظيم الجيش،

والاتجاه بالمجتمع نحو التشكيل العلماني، والاتجاه نحو مركزية السلطة في استانبول والولايات، وكيف كانت الخطوات الجرية التي اتخذها الماسون الأتراك نحو علمنة الدولة وإظهار خطى كلخانة وهمايون والوصول الى دستور مدحت باشا عام 1876م وكان ذلك الحدث أول مرة في تاريخ الاسلام ودوله يجري العمل بدستور مأخوذ عن الدستور الفرنسي والبلجيكي والسويسري وهي دساتير وضعية علمانية.

ويوضح للقارئ كيف وضعت حركة التنظيمات الدولة العثمانية رسمياً على طريق نهايتها كدولة اسلامية ، فعلمنة القوانين ووضعت مؤسسات تعمل بقوانين وضعية، وابتعدت الدولة عن التشريع الاسلامي في مجالات التجارة والسياسة والاقتصاد، وبذلك سحب من الدولة العثمانية شرعيتها من أنظار المسلمين.

ويبين للقارئ الكريم كيف هيمن رجال التغريب على الدولة العثمانية في زمن السلطان عبدالعزيز وعندما تعرض لكثير من مخططاتهم عزلوه ثم قتلوه.

ويتحدث عن الجهود العظيمة التي قام بها السلطان عبدالحميد خدمة للإسلام ، ودفاعاً عن دولته ، وتوحيداً لجهود الامة تحت رايته، وكيف ظهرت فكرة الجامعة الاسلامية في معترك السياسة الدولية في زمن السلطان عبدالحميد؟ ويفصل الكتاب في الوسائل التي اتخذها السلطان عبدالحميد في تنفيذ مخططه للوصول الى الجامعة الاسلامية، كالاتصال بالدعاة، وتنظيم الطرق الصوفية، والعمل على تعريب الدولة، وإقامة مدرسة العشائر ، وإقامة خط سكة حديد الحجاز، وإبطال مخططات الأعداء، ويركز الكتاب على جهود الصهيونية العالمية في دعم أعداء السلطان عبدالحميد كالمتمردين الأرمن، والقوميين البلقان، وحركة حزب الاتحاد والترقي ، والوقوف مع الحركات الانفصالية عن الدولة العثمانية وكيف استطاع أعداء الاسلام عزل السلطان عبدالحميد؟ وماهي الخطوات التي اتخذت للقضاء على الخلافة العثمانية؟ وكيف صنع البطل المزيف مصطفى كمال؟ الذي عمل على سلخ تركيا من عقيدتها واسلامها، وحارب التدين ، وضيق على

الدعاة، ودعا الى السفور والاختلاط، ولم يترك الكتاب الحديث عن بشائر الاسلام في تركيا ويشير الى الجهود العظيمة التي قامت بها الحركة الاسلامية في تركيا بفصائلها المتعددة وتترك القارئ المسلم ينظر بنور الإيمان الى مستقبل الاسلام في تركيا والعالم أجمع.

وفي نهاية الكتاب يهتم الباحث بإبراز أسباب السقوط من المنظور القرآني ، ليبين للقارئ أن اسباب السقوط عديدة منها؛ انحراف الأمة عن مفاهيم دينها، كعقيدة الولاء والبراء، ومفهوم العبادة، وانتشار مظاهر الشرك والبدع، وانحرافات وظهور الصوفية المنحرفة كقوة منظمة في المجتمع الاسلامي تحمل عقائد وأفكار وعبادات بعيدة عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وينبه القارئ المسلم عن خطورة الفرق المنحرفة في إضعاف الأمة كالفرقة الأثنى عشرية الشيعية الرفضية، والدروز والنصيرية والإسماعيلية، والقاديانية، والبهائية وغيرها من الفرق الضالة المحسوبة على الاسلام، ويتحدث الكتاب عن غياب القيادة الربانية كسبب في ضياع الأمة وخصوصاً عندما يصبح علمائها ألعوبة بيد الحكام الجائرين، ويتسابقون على الوظائف والمراتب وغاب دورهم المطلوب منهم، وكيف اصيبت العلوم الدينية في نهاية الدولة العثمانية بالجمود والتحجر؟ وكيف اهتم العلماء بالمختصرات والشروح والحواشي والتقارير؟ وتباعدا عن روح الاسلام الحقيقية المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، ورفض كثير من العلماء فتح باب الاجتهاد، وأصبحت الدعوة لفتح بابه تهمة كبيرة تصل الى الرمي بالكبائر، وتصل عند بعض المقلدين والجامدين الى حد الكفر ، وتعرض الكتاب للظلم الذي انتشر في الدولة وما أصابها من الترف والانغماس في الشهوات وشدة الاختلاف والتفرق وماترتب عن الابتعاد عن شرع الله من آثار خطيرة، كالضعف السياسي، والحربي، والاقتصادي، والعلمي، والأخلاقي، والاجتماعي، وكيف فقدت الأمة قدرتها على المقاومة ، والقضاء على أعدائها؟ وكيف استعمرت وغزيت فكراً ، نتيجة لفقدائها لشروط التمكين وابتعادها عن اسبابه المادية والمعنوية ، وجعلها بسنن الله في نهوض الأمم وسقوطها، قال تعالى: لولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض، ولكن كذبوا فأخذناهم بما

كانوا يكسبون} (سورة الأعراف: آية 196). إن هذا الجهد المتواضع قابل للنقد والتوجيه وفي حقيقته محاولة جادة للجمع والترتيب والتفسير والتحليل للأحداث التاريخية التي وقعت في زمن الدولة العثمانية والتي تأثرت بحركة الشعوب في صراعها العنيف فيما بينها نتيجة للأختلاف في العقائد والمناهج والأهداف والقيم والمثل؛ فإن كان خيراً فمن الله وحده وإن أخطأت السبيل فأنا عنه راجع إن تبين لي ذلك، والمجال مفتوح للنقد والرد والتوجيه وهدفي من الكتاب:

تسليط الأضواء على زعماء الدولة العثمانية، كعثمان الأول، وأورخان ومحمد الفاتح وغيرهم. بيان المنهج الذي سارت عليه الدولة العثمانية في مسيرتها الطويلة. التركيز على العوامل التي ساهمت في بناء الدولة العثمانية والأسباب التي نخرتها وساهمت في إضعافها ثم سقوطها وزوالها. تسهيل مبدأ الاعتبار والاتعاظ بمعرفة أحوال الدول، والنظر في سنن الله في الآفاق وفي الأنفس والمجتمعات.

بيان الكيد العظيم الذي تعرضت له الدولة العثمانية من قبل النصارى واليهود والعلمانيين الأتراك.... وغيرهم.

كشف الزور والبهتان الذي تعرضت له الدولة العثمانية من الأقلام المسمومة وبيان بطلان من سمى الحكم العثماني استعماراً وقرنه بالاستعمار الغربي، كالاستعمار الفرنسي، والانكليزي . الدفاع عن أخواننا في العقيدة (العثمانيين) الذين تعرضوا للظلم ونسب الى تاريخهم أباطيل وأكاذيب من قبل اليهود والنصارى والعلمانيين العرب والأتراك وترشيد الاجيال لمعرفة حقيقة العثمانيين .

إظهار صفحات الجهاد العظيم الذي قام به العثمانيون، ومساهماتهم في الدعوة الى الله والتي حاول أعداء الأمة طمسها والتشكيك فيها، والطعن في حقيقتها.

أثراء المكتبة الاسلامية التاريخية بالابحاث المنبثقة عن عقيدة صحيحة وتصور سليم بعيدة عن سموم المستشرقين، وأفكار العلمانيين الذين يسعون لقلب الحقائق التاريخية من أجل خدمة أهدافهم.

بيان أن حركات الإصلاح التي تستحق التقدير والاحترام في الأمة هي التي سارت وتسير على منهج القرآن الكريم، وسنة سيد المرسلين ρ في العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات وكافة شؤون الحياة.

التعريف ببعض العلماء العاملين والفقهاء الراسخين الذين ساهموا في بناء الدولة العثمانية وتربية الأمة ، كالشيخ أحمد الكوراني ، وشمس الدين آق (محمد بن حمزة) وغيرهم.

هذا وقد قمت بتقسيم الكتاب الى مدخل وسبعة فصول ونتائج البحث:

المدخل: المناهج المعاصرة في كتابة تاريخ الدولة العثمانية.

الفصل الأول: جذور الأتراك وأصولهم ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: أصل الأتراك وموطنهم.

المبحث الثاني: قيام الدولة السلجوقية.

المبحث الثالث: نهاية الدولة السلجوقية.

الفصل الثاني: قيام الدولة العثمانية وفتوحاتها: ويشتمل على ستة مباحث:

المبحث الأول : عثمان مؤسس الدولة العثمانية.

المبحث الثاني: السلطان أورخان بن عثمان.

المبحث الثالث: السلطان مراد الأول.

المبحث الرابع: السلطان بايزيد الأول.

المبحث الخامس: السلطان محمد الأول.

المبحث السادس: السلطان مراد الثاني.

الفصل الثالث: محمد الفاتح وفتح القسطنطينية ويشتمل على سبعة مباحث:

المبحث الأول: السلطان محمد الفاتح.

المبحث الثاني: الفاتح المعنوي للقسطنطينية (الشيخ آق شمس الدين).

المبحث الثالث: أثر فتح القسطنطينية على العالم الأوروبي والإسلامي.

المبحث الرابع: أسباب فتح القسطنطينية.

المبحث الخامس: أهم صفات محمد الفاتح.

المبحث السادس: شيء من أعماله الحضارية.

المبحث السابع: وصية السلطان محمد الفاتح لأبنه.

الفصل الرابع: السلاطين الأقوياء بعد محمد الفاتح ويشتمل على تسعة مباحث:

المبحث الأول: السلطان بايزيد الثاني.

المبحث الثاني: السلطان سليم الأول.

المبحث الثالث: السلطان سليمان القانوني.

المبحث الرابع: الدولة العثمانية وشمال أفريقيا.

المبحث الخامس: المجاهد الكبير حسن آغا الطوشي.

المبحث السادس: المجاهد حسن خير الدين بربروسة.

المبحث السابع: سياسة صالح الرايس.

المبحث الثامن: سياسة حسن بن خير الدين في التضييق على الإسبان.

المبحث التاسع: المتوكل على الله ابن عبدالله الغالب السعدي.

الفصل الخامس: بداية اضمحلال الدولة العثمانية ويشتمل على 11 مبحث:

المبحث الأول: السلطان سليم الثاني.

المبحث الثاني: السلطان مراد الثالث.

- المبحث الثالث: السلطان محمد خان الثالث.
المبحث الرابع: السلطان أحمد الأول.
المبحث الخامس: بعض السلاطين الضعاف.
المبحث السادس: السلطان سليم الثالث.
المبحث السابع: جذور الحملة الفرنسية الصليبية.
المبحث الثامن: السلطان محمود الثاني.
المبحث التاسع: السلطان عبدالمجيد الأول.
المبحث العاشر: السلطان عبدالعزيز.
المبحث الحادي عشر: السلطان مراد الخامس.

- الفصل السادس: عصر السلطان عبدالحميد ويشتمل على ثمانية مباحث :
المبحث الأول: السلطان عبدالحميد.
المبحث الثاني: الجامعة الاسلامية.
المبحث الثالث: السلطان عبدالحميد واليهود.
المبحث الرابع: السلطان عبدالحميد وجمعية الاتحاد والترقي.
المبحث الخامس: الإطاحة بحكم السلطان عبدالحميد الثاني.
المبحث السادس : حكم الاتحاديين ونهاية الدولة العثمانية.
المبحث السابع: بشائر إسلامية في تركيا العلمانية.
المبحث الثامن: أسباب السقوط.
ثم نتائج البحث.

وأخيراً: أرجو من الله تعالى أن يكون عملاً خالصاً لوجهه الكريم وأن يثيبني على كل حرف كتبه ويجعله في ميزان حسناتي وأن يثيب إخواني الذين أعانوني بكافة مايملكون من أجل إتمام

هذا الكتاب .

((سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين)).

الفقير الى عفو ربه ومغفرته
علي محمد حمد الصلابي

المدخل

المناهج المعاصرة في كتابة تاريخ الدولة العثمانية

M

لم يتورع المؤرخون الأوروبيون واليهود والنصارى والعلمانيون الحاقدون بالهجوم على تاريخ الدولة العثمانية، فأستخدموا أساليب، الطعن والتشويه والتشكيك فيما قام به العثمانيون من خدمة للعقيدة والاسلام، وسار على هذا النهج الباطل أغلب المؤرخين العرب بشتى انتماءاتهم واتجاهاتهم، القومية، والعلمانية، وكذلك المؤرخون الأتراك الذين تأثروا بالتوجه العلماني الذي تزعمه مصطفى كمال، فكان من الطبيعي أن يقوموا بإدانة فترة الخلافة العثمانية، فوجدوا فيما كتبه النصارى واليهود ثروة ضخمة لدعم تحولهم القومي العلماني في تركيا بعد الحرب العالمية الأولى. كان الموقف من التاريخ العثماني بالنسبة للمؤرخ الأوربي بسبب تأثره بالفتوحات العظيمة التي حققها العثمانيون، وخصوصاً بعد أن سقطت عاصمة الدولة البيزنطية (القسطنطينية) وحولها العثمانيون دار إسلام واطلقوا عليها اسلام بول (أي دار الاسلام) ، فتأثرت نفوس الأوربيين بنزعة الحقد والحقد والمرارة المورثة ضد الاسلام فأنعكست تلك الأحقاد في كلامهم وفعالهم ، وكتابتهم وحاول العثمانيون مواصلة السير لضم روما الى الدولة الاسلامية ومواصلة الجهاد حتى يخرقوا

وسط أوروبا ويصلوا إلى الأندلس لإنقاذ المسلمين فيها، وعاشت أوروبا في خوف وفزع وهلع ولم تهدأ قلوبهم إلا بوفاة السلطان محمد الفاتح.

وكان زعماء الدين المسيحي من قساوسة ورهبان وملوك يغذون الشارع الأوروبي بالأحقاد والضغائن ضد الإسلام والمسلمين، وعمل رجال الدين المسيحي على حشد الأموال والمنتطوعين لمهاجمة المسلمين (الكفرة على حد زعمهم) البرابرة، وكلما انتصر العثمانيون على هذه الحشود ازدادت موجة الكره والحقد على الإسلام وأهله، فأتهم زعماء المسيحيين العثمانيين بالقرصنة، والوحشية والهمجية، وعلقت تلك التهم في ذاكرة الأوروبيين.

لقد كانت الهجمات الإعلامية المركزة من زعماء المسيحية بسبب الحفاظ على مكاسبهم السياسية والمادية، وكرههم للإسلام وأهله، وبالفعل استطاعت بعض الأسر الحاكمة في أوروبا أن يتربوا على صدور المجتمعات الأوروبية في الحكم فترة زمنية طويلة، وحققوا مكاسب ضخمة فأثروا ثراء كبير ونصبوا حول أنفسهم هالة كبيرة اعتمدت في مجملها على الضلال والتضليل. ومع أن المجتمعات الأوروبية ثارت على هذه الفئات، بعد أن اكتشفت ضلالها وتضليلها، مع بداية عصر النهضة، وبداية مرحلة جديدة في التاريخ الأوروبي، إلا أنه لم يستطع وجدان المجتمع الأوروبي أن يتخلص من تلك الرواسب الموروثة من هذه الفئات تجاه العالم الإسلامي بشكل عام وتجاه الدولة العثمانية بشكل خاص. ولذلك اندفعت قواتهم العسكرية المدعومة بحضارته المادية للانتقام من الإسلام والمسلمين، ونزع خيراتهم بدوافع دينية واقتصادية وسياسية وثقافية، وساندهم كتابهم ومؤرخوهم، للطعن والتشويه والتشكيك في الإسلام وعقيدته وتاريخه، فكان نصيب الدولة العثمانية من هذه الهجمة الشرسة كبير.

وشارك اليهود الأوروبيون بأقلامهم المسمومة، وأفكارهم المحمومة في هذه الهجمات المتواصلة ضد الدولة العثمانية خصوصاً والإسلام عموماً، وازداد عداؤهم لليهود للدولة العثمانية بعد أن فشلت كافة مخططاتهم في اغتصاب أي شبر من أراضي هذه الدولة لإقامة كيان سياسي لهم طوال

أربعة قرون هي عمر الدولة العثمانية السنية، استطاع اليهود بمعاونة الصليبية والدول الاستعمارية الغربية ومن خلال محافلهم الماسونية أن يحققوا أهدافهم على حساب الأنظمة القومية التي قامت في العالم الغربي والاسلامي والتي وصفت نفسها بالتقدمية والتحضر واتهمت الخلافة العثمانية على طول تاريخها بالتخلف والرجعية والجمود والانحطاط وغير ذلك واعتبرت المحافل الماسونية ، والمنظمات الخفية التابعة لليهود والقوى العالمية المعادية للاسلام والمسلمين أن مسألة تشويه الفترة التاريخية للدولة العلية العثمانية من أهم أهدافها.

أما المؤرخون العرب في العالم الاسلامي فقد ساروا في ركب الاتجاه المهاجم لفترة الخلافة العثمانية مدفوعين الى ذلك بعدة أسباب يأتي في مقدمتها إقدام الاتراك بزعامة "مصطفى أتاتورك" على إلغاء الخلافة الاسلامية في عام 1924م، وأعقب ذلك إقدام الحكومة العلمانية التركية بالتحول الكامل الى المنهج العلماني في الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على حساب الشريعة الاسلامية التي ظلت سائدة في تركيا منذ قيام الدولة العثمانية ، وتحالفت هذه الحكومة مع السياسة الأوروبية المعادية للدول الاسلامية والعربية، واشتركت سلسلة الاحلاف العسكرية الأوروبية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، والتي رفضتها الشعوب العربية الاسلامية وبعض حكوماتها ، وقد كانت تركيا من أوائل الدول التي اعترفت بقيام الكيان السياسي الاسرائيلي في فلسطين عام 1948م مما جعل الشعوب العربية الاسلامية تتدفع خلف حكوماتها القومية، بعد غياب الدولة العثمانية التي كانت تجاهد كل من تسول له نفسه بالاعتداء على شبر من أراضي المسلمين.

ويأتي سبب التبعية البحثية لمدرسة التاريخ العربي لتاريخ المنهجية الغربية كعامل هام في الاتجاه نحو مهاجمة الخلافة العثمانية ، خصوصاً بعد التقاء وجهات النظر بين المؤرخين الأوروبيين والمؤرخين العرب حول تشويه الخلافة الاسلامية العثمانية. ولقد تأثر كثير من مؤرخين العرب بالحضارة الأوروبية المادية، ولذلك اسندوا كل ما هو مضيء

في تاريخ بلادهم الى بداية الاحتكاك بهذه الحضارة البعيدة كل البعد عن المنهج الرباني، واعتبروا بداية تاريخهم الحديث من وصول الحملة الفرنسية على مصر والشام وما أنجزته من تحطيم جدار العزلة بين الشرق والغرب، وما ترتب عليه بعد ذلك من قيام الدولة القومية في عهد محمد علي في مصر، وصحب ذلك اتجاهاً لإدانة الدولة العثمانية التي قامت بالدفاع عن عقيدة الشعوب الاسلامية ودينها واسلامها من الهجمات الوحشية التي قام بها الأوروبيون النصارى.

لقد احتضنت القوى الأوروبية الاتجاه المناهض للخلافة الاسلامية وقامت بدعم المؤرخين والمفكرين في مصر والشام الى تأصيل الاطار القومي وتعميقه من أمثال البستاني واليازجي وجورج زيدان وأديب اسحاق وسليم نقاش وفرح انطوان وشبلي شميل وسلامة موسى وهنري كوربيل وهليل شفارتز وغيرهم، ويلاحظ ان معظمهم من النصارى واليهود، كما أنهم في أغلبهم إن لم يكونوا جميعاً من المنتمين الى الحركة الماسونية التي تغلغت في الشرق الاسلامي منذ عصر محمد علي والتي كانت بذورها الاولى مع قدوم نابليون في حملته الفرنسية.

لقد رأى اعداء الأمة الاسلامية أن دعم التوجه القومي والوقوف مع دعائه كفيل بتضعيف الأمة الاسلامية والقضاء على الدولة العثمانية.

واستطاعت المحافل الماسونية أن تهيمن على عقول زعماء التوجه القومي في داخل الشعوب الاسلامية، وخضع أولئك الزعماء لتوجيه المحافل الماسونية أكثر من خضوعهم لمطالب شعوبهم وبخاصة موقفها من الدين الاسلامي الذي يشكل الإطار الحقيقي لحضارة المسلم وثقافته وعلومه ولم يتغير هذا المنهج المنحرف لدى المؤرخين العرب بشكل عام بعد قيام الانقلاب العسكري في مصر سنة 1952م، حيث اتجهت الحكومة العسكرية في مصر منذ البداية، والتفت حولها أغلب الحكومات العسكرية الى دعم التوجه القومي، كما أن معظم هذه الحكومات ارتكزت على أسس اكثر علمانية في كافة الجوانب بما في ذلك الجانب الثقافي والفكري، فنظروا الى الخلافة العثمانية والحكم العثماني للشعوب الاسلامية والعربية بأنه كان غزواً واحتلالاً، واسندوا إليه كافة عوامل

التخلف والضعف والجمود والانحطاط التي ألمت بالعالم العربي الإسلامي، واعتبروا حركات الانشقاق والتمرد التي قامت ابان الفترة العثمانية، والتي كان دافعها الاطماع الشخصية، أو مدفوعة من القوى الخارجية المعادية للخلافة الاسلامية ، اعتبروها حركات استقلالية ذات طابع قومي كحركة علي بك الكبير في مصر، والقرمانليين في ليبيا، وظاهر العمر في فلسطين، والحسينيين في تونس، والمعنيين والشهابيين في لبنان، وغير ذلك من أجل تأصيل الاتجاه القومي الذي طرحوه. بل زعموا أن محمد علي كان زعيماً قومياً حاول توحيد العالم العربي ، وأنه فشل بسبب أنه لم يكن عربي الجنس، وتناسوا أن محمد علي كان ذا أطماع شخصية، جعلته يرتبط بالسياسة الاستعمارية التي دعمت وجوده، وحققت به أهدافها الشريرة من ضرب الدولة السعودية السلفية ، واضعاف الخلافة العثمانية ، ومساندته المحافل الماسونية في ضرب القوى الاسلامية في المنطقة وتهيئتها بعد ذلك للاحتلال الغربي المسيحي الحاقد لقد تحالفت المحافل اليهودية الماسونية مع القوى الإستعمارية الغربية والقوى المحلية العميلة التي أمكن تطويعها من خلال أطماعها، والتقوا جميعاً في تدمير القوة الإسلامية ومصادرة حريات شعوبها وسلب خيراتها وإقامت حكم ديكتاتوري مدعوم بالسلاح الغربي الحديث وهو ما مثله محمد علي وقد شارك بعض المؤرخين السلفيين في المشرق العربي في الهجوم على الفترة العثمانية مدفوعين إلى ذلك بالرصيد العدائي الذي خلفه دور الخلافة العثمانية ضد الدعوة السلفية في عديد من مراحلها بسبب مؤامرات الدول الغربية الإستعمارية التي دفعت السلاطين العثمانيين بالصدام بالقوة الإسلامية في نجد قلب الدعوة السلفية وكذلك لمساندة الخلافة للإتجاه الصوفي وبما يصاحبه من مظاهر تخل بالجوانب الأساسية للشريعة الإسلامية، فضلا عن أن دولة الخلافة في سنواتها الأخيرة قد سيطر عليها دعاة القومية التركية الذين ابتعدوا بها عن الالتزام بالمنهج الإسلامي الذي تميزت به الدولة العثمانية لفترات طويلة في تاريخها وشجع كافة المسلمين بالإرتباط بها وتأييدها والوقوف معها. وأما المؤرخون الماركسيون فقد شنوا حرباً لا هوادة فيها على الدولة العثمانية واعتبروا فترة حكمها

تكريساً لسيادة النظام الإقطاعي الذي هيمن على تاريخ العصور الوسطى السابقة، وأن العثمانيين لم يُحدثوا أي تطور في وسائل أو قوى الإنتاج، وأن التاريخ الحديث يبدأ بظهور الطبقة البورجوازية ثم الرأسمالية التي أسهمت في إحداث تغيير في الجوانب الإقتصادية والإجتماعية في بداية القرن التاسع عشر، والتقوا في ذلك مع المؤرخين الأوربيين من أصحاب الإتجاه الليبرالي وكذلك مع أصحاب المنظور القومي وقام بعض المؤرخين والمفكرين من النصارى واليهود بترويج للإتجاهين الغربي والماركسي بواسطة التأليف والترجمة لمؤلفاتهم، والذي ساندته المحافل الماسونية، حيث أنهم حاولوا أن يبتعدوا عن أي من الأطر الإسلامية الوحودية مفضلين عليها الدعوة القومية بمفهومها المحلي أو العربي، كمشروع الهلال الخصيب في الشام أو مشروع وحدة وادي النيل بين مصر والسودان فضلاً عن نشاطهم في ترويج الإتجاهات القومية المحدودة كالدعوة إلى الفرعونية في مصر، والآشورية في العراق، والفينيقية في الشام.. الخ.

وأما المؤرخون الأتراك الذين برزوا في فترة الدعوة القومية التركية فقد تحاملوا كثيراً على فترة الخلافة العثمانية سواء لمجاعة الاتجاه السياسي والفكري الذي ساد بلادهم والذي حمل الفترة السابقة كافة جوانب الضعف والانهيار أو لتأثر الأتراك بالموقف المشين الذي بدت عليه سلطة الخلافة والتي أصبحت شكلية بعد الإطاحة بالسلطان عبد الحميد سنة 1909م حيث انهزمت في معارك متعددة عندما دخلت الحرب العالمية الأولى وترتب على تلك الخسائر ضياع كثير من أراضيها وتسليمها بتوقيع معاهدة سيفر سنة 1918م ، والذي في حقيقته هزيمة لرجال الاتحاد والترقي ، ونتيجة لسياستها، في حين استطاعت الحركة القومية بزعامة مصطفى كمال أن تنقذ تركيا من هذه الإهانة وتستعيد الكثير من الاراضي التركية وتجبر اليونان والقوى التي تساندها ، الى جانب تأثر المفكرين الأتراك بموقف بعض العرب الذين ساندوا الحلفاء الغربيين إبان الحرب الأولى ضد دولة الخلافة وإعلان الثورة عليها سنة 1916م وبرغم تفاوت الأسباب وتباينها إلا أن كثير من المؤرخين ألتقوا على تشويه وتزوير تاريخ الخلافة الاسلامية العثمانية، لقد اعتمد

المؤرخون الذين عملوا على تشويه الدولة العثمانية على تزوير الحقائق، والكذب والبهتان والتشكيك والدس ولقد غلبت على تلك الكتب والدراسات طابع الحقد الاعمى، والدوافع المنحرفة، بعيدة كل البعد عن الموضوعية، وأدى ذلك الى ظهور رد فعل اسلامي للرد على الإتهامات والشبهات التي وجهت للدولة العثمانية ولعل من أهمها وأبرزها تلك الكتابة المستفيضة التي قام بها الدكتور عبدالعزيز الشناوي في ثلاثة مجلدات ضخمة تحت عنوان "الدولة العثمانية دول اسلامية مفترى عليها" وبرغم الجهد الذي بذله ودافعه الاسلامي ، والموضوعية التي اتسم بها هذا العمل في أغلبه، إلا أنه لم يعالج كافة جوانب التاريخ العثماني وعليه بعض الملاحظات مثل حديثه عن حقيقة الإنكشارية والتي لا تثبت أمام البحث العلمي النزيه، ومن الجهود المشكورة في هذا الميدان ما قام به الباحث الكبير والاستاذ الشهير المتخصص في تاريخ الدولة العثمانية الدكتور محمد حرب الذي كتب للأمة الاسلامية بعض الكتب القيمة مثل؛ العثمانيون في التاريخ والحضارة، السلطان محمد الفاتح فاتح القسطنطينية وقاهر الروم، والسلطان عبدالحميد آخر السلاطين العثمانيين الكبار، ومن الأعمال القيمة في تاريخ الدولة العثمانية ما قدمه الدكتور موفق بني المرجة كرسالة علمية لنيل درجة الماجستير تحت عنوان "صحة الرجل المريض أو السلطان عبدالحميد" أو الخلافة الاسلامية واستطاع هذا الكتاب أن يبين كثير من الحقائق المدعومة بالوثائق والحجج الدامغة وغير ذلك من الكتاب المعاصرين إلا أن هناك جوانب في تاريخ الخلافة العثمانية وفي تأريخنا الاسلامي في العصر الحديث تحتاج الى إعادة النظر من منظور اسلامي يساهم في إبراز الحقائق، والتتأم تلك الشروخ التي نتجت عن صياغة تاريخنا من منظور قومي علماني خدم أعداءنا في المقام الاول واستخدموه كوسيلة من وسائلهم في تمزيق الشعوب الاسلامية.

وعلينا عندما نكتب التاريخ الحديث أن نبين ونظهر دور المحافل الماسونية والمخططات الغربية في توجيه هذه الصياغة التاريخية الخبيثة والتي يقوم بها مجموعة من عملاء اليهود والنصارى من أدعياء المنهج الليبرالي والعلماني حيث يقومون بإبراز العناصر الماسونية على الساحة التاريخية

ووضع في دور الحركة الماسونية في الوقوف مع حركات التحرر. إن التاريخ الاسلامي القديم والحديث علم مستهدف من قبل كل القوى المعادية للاسلام بإعتباره الوعاء العقدي والفكري والتربوي في بناء وصياغة هوية الشعوب الاسلامية(1). وهذه محاولة متواضعة للبحث في التاريخ العثماني في عمومته وتهتم بدور الخلافة العثمانية في الشمال الافريقي ، وتمتد هذه الدراسة الى الجذور القديمة التي قامت عليها الدولة العثمانية الى أن سقطت الخلافة على يد العميل الأنجليز ، والملحد الكبير مصطفى كمال وفي ثنايا هذه الدراسة يتعرض الباحث لأسباب القوة العثمانية وأسباب ضعفهم ، وصفات رجالهم وسلطينهم الأقوياء ، واهتمامهم بالعلماء وتطبيق شرع الله وجهادهم العظيم لنشر الاسلام والدفاع عن دياره ضد الحملات الصليبية التي لا تنتهي ، ويلتزم الكاتب بمنهج أهل السنة عند عرض الاحداث محاولاً أن يتقيد بالعدل والإنصاف عند الحكم على الأحداث لعله يساهم في تصحيح الكثير من الأحكام والمفاهيم الخاطئة التي أُلتمت بالدولة الاسلامية العثمانية والله من وراء القصد وهو الهادي الى الصراط المستقيم.

الفصل الأول

جذور الأتراك وأصولهم

المبحث الأول

(1) انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، د. زكريا بيومي ، ص9،8،7 الى 16،17.

في منطقة ماوراء النهر والتي نسميها اليوم (تركستان) والتي تمتد من هضبة منغوليا وشمال الصين شرقاً الى بحر الخزر (بحر قزوين) غرباً، ومن السهول السيبيرية شمالاً الى شبه القارة الهندية وفارس جنوباً، استوطنت عشائر الغز(1) وقبائلها الكبرى تلك المناطق وعرفوا بالترك أو الأتراك(2).

ثم تحركت هذه القبائل في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي، في الانتقال من موطنها الأصلي نحو آسيا الصغرى في هجرات ضخمة. وذكر المؤرخون مجموعة من الأسباب التي ساهمت في هجرتهم؛ فالبعض يرى أن ذلك بسبب عوامل اقتصادية ، فالجذب الشديد وكثرة النسل، جعلت هذه القبائل تضيق ذرعاً بمواطنها الأصلية، فهاجرت بحثاً عن الكلاء والمراعي والعيش الرغيد(3) والبعض الآخر يعزو تلك الهجرات لأسباب سياسية حيث تعرضت تلك القبائل لضغوط كبيرة من قبائل اخرى أكثر منها عدداً وعدة وقوة وهي المغولية، فأجبرتها على الرحيل، لتبحث عن موطن آخر وتترك أراضيها(4) بحثاً عن نعمة الأمن والاستقرار وذهب الى هذا الرأي الدكتور عبداللطيف عبدالله بن دهيش(5).

واضطرت تلك القبائل المهاجرة أن تتجه غرباً، ونزلت بالقرب من شواطئ نهر جيحون ، ثم استقرت بعض الوقت في طبرستان، وجرجان(6)، فأصبحوا بالقرب من الأراضي الاسلامية والتي

(1) انظر: تاريخ الترك في آسيا الوسطى، بارتولد ترجمة أحمد العيد ص106.

(2) انظر : أخبار الأمراء والملوك السلجوقية تحقيق د. محمد نور الدين ص2-4.

(3) انظر: قيام الدولة العثمانية، ص8.

(4) انظر: كتاب السلوك، أحمد المقرئ، ج1، قسم 1 ، ص3.

(5) انظر: قيام الدولة العثمانية للدكتور عبداللطيف دهيش، ص8.

(6) انظر: الكامل في التاريخ (22/8).

فتحتها المسلمون بعد معركة نهاوند وسقوط الدولة الساسانية في بلاد فارس سنة 21هـ/641م(1).

اتصالهم بالعالم الاسلامي:

في عام 22هـ/642م تحركت الجيوش الاسلامية الى بلاد الباب لفتحها وكانت تلك الأراضي يسكنها الاتراك، وهناك ألتقى قائد الجيش الاسلامي عبدالرحمن بن ربيعة بملك الترك شهربراز، فطلب من عبدالرحمن الصلح وأظهر استعداده للمشاركة في الجيش الاسلامي لمحاربة الأرمن، فأرسله عبدالرحمن الى القائد العام سراقه بن عمرو، وقد قام شهر براز بمقابلة سراقه فقبل منه ذلك، وكتب للخليفة عمر بن الخطاب τ يعلمه بالأمر، فوافق على مافعل، وعلى إثر ذلك عقد الصلح، ولم يقع بين الترك والمسلمين أي قتال، بل سار الجميع الى بلاد الأرمن لفتحها ونشر الاسلام فيها(2).

وتقدمت الجيوش الاسلامية لفتح البلدان في شمال شرق بلاد فارس حتى تنتشر دعوة الله فيها، بعد سقوط دولة الفرس أمام الجيوش الاسلامية والتي كانت تقف حاجزاً منيعاً أمام الجيوش الاسلامية في تلك البلدان، وبزوال تلك العوائق، ونتيجة للفتوحات الاسلامية، أصبح الباب مفتوحاً أمام تحركات شعوب تلك البلدان والاقاليم ومنهم الاتراك فتم الاتصال بالشعوب الاسلامية، واعتنق الاتراك الاسلام، وانضموا الى صفوف المجاهدين لنشر الاسلام وإعلاء كلمة الله(3).

وفي عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان τ تم فتح بلاد طبرستان، ثم عبر المسلمون نهر جيحون سنة 31هـ، ونزلوا بلاد ماوراء النهر، فدخل كثير من الترك في دين الاسلام، وأصبحوا من المدافعين عنه والمشاركين في الجهاد لنشر دعوة الله بين العالمين(4).

(1) انظر: شوقي أبوخليل: نهاوند ، ص 55-70.

(2) انظر: تاريخ الأمم والملوك محمد بن جرير الطبري (256،257/3).

(3) انظر: الدولة العثمانية والشرق العربي ، محمد انيس ، ص 12،13.

(4) انظر: فتوح البلدان ، احمد بن يحيى البلاذري ، ص 409،405.

وواصلت الجيوش الاسلامية تقدمها في تلك الاقاليم فتم فتح بلاد بخارى في عهد معاوية بن أبي سفيان τ وتوغلت تلك الجيوش المضفرة حتى وصلت سمرقند، وما أن ظهر عهد الدولة الاسلامية حتى صارت بلاد مارواء النهر جميعها تحت عدالة الحكم الاسلامي وعاشت تلك الشعوب حضارة إسلامية عريقة(1).

وازداد عدد الأتراك في بلاط الخلفاء والأمراء العباسيين وشرعوا في تولي المناصب القيادية والادارية في الدولة؛ فكان منهم الجند والقادة والكتاب. وقد ألّتموا بالهدوء والطاعة حتى نالوا أعلى المراتب.

ولما تولى المعتصم العباسي الخلافة فتح الأبواب أمام النفوذ التركي وأسند إليهم مناصب الدولة القيادية وأصبحوا بذلك يشاركون في تصريف شؤون الدولة، وكانت سياسة المعتصم تهدف الى تقليص النفوذ الفارسي ، الذي كان له اليد المطلقه في إدارة الدولة العباسية منذ عهد الخليفة المأمون(2).

وقد تسبب اهتمام المعتصم بالعنصر التركي الى حالة سخط شديدة بين الناس والجند، فخشي المعتصم من نقمة الناس عليه، فأسس مدينة جديدة هي (سامراء) ، تبعد عن بغداد حوالي 125كم وسكنها هو وجنده وأنصاره.

وهكذا بدأ الأتراك منذ ذلك التاريخ في الظهور في أدوار هامة على مسرح التاريخ الاسلامي حتى أسسوا لهم دولة إسلامية كبيرة كانت على صلة قوية بخلفاء الدولة العباسية عرفت بالدولة السلجوقية(3).

(1) انظر: خراسان لمحمود شاکر ، ص20-35.

(2) انظر: قيام الدولة العثمانية، ص12.

(3) انظر: المصدر السابق، ص12.

المبحث الثاني

قيام الدولة السلجوقية

كان لظهور السلاجقة على مسرح الأحداث في المشرق العربي الاسلامي، أثر كبير في تغيير الاوضاع السياسية في تلك المنطقة التي كانت تتنازعها الخلافة العباسية السنية من جهة، والخلافة الفاطمية الشيعية من جهة ثانية.

وقد أسس السلاجقة دولة تركية كبرى ظهرت في القرن الخامس للهجرة (الحادي عشر الميلادي) ، لتشمل خراسان وماوراء النهر وإيران والعراق وبلاد الشام وآسيا الصغرى. وكانت الري في إيران ثم بغداد في العراق مقر السلطنة السلجوقية، بينما قامت دويلات سلجوقية في خراسان وماوراء النهر (كرمان) وبلاد الشام (سلاجقة الشام) وآسيا الصغرى سلاجقة الروم، وكانت تتبع السلطان السلجوقي في إيران والعراق.

وقد ساند السلاجقة الخلافة العباسية في بغداد ونصروا مذهبها السني بعد أن أوشكت على الانهيار بين النفوذ البويهي الشيعي في إيران والعراق، والنفوذ العبيدي (الفاطمي) في مصر والشام. ففضى السلاجقة على النفوذ البويهي تماماً وتصدوا للخلافة العبيدية (الفاطمية)(1).

لقد استطاع طغرل بك الزعيم السلجوقي أن يسقط الدولة البويهية في عام 447هـ في بغداد وأن يقضي على الفتن وأزال من على أبواب المساجد سب الصحابة، وقتل شيخ الروافض أبي عبدالله الجلاب لغلوه في الرفض(2).

لقد كان النفوذ البويهي الشيعي مسيطراً على بغداد والخليفة العباسي ، فبعد أن أزال السلاجقة

(1) انظر: السلاطين في المشرق العربي ، د. عصام محمد شبارو، ص171.

(2) انظر: أبعاد التاريخ نفسه ، محمد العبد، ص67.

الدولة البويهية من بغداد ودخل سلطانهم طغرل بك الى عاصمة الخلافة العباسية استقبله الخليفة العباسي القائم بأمر الله استقبلاً عظيماً، وخلع عليه خلعة سنوية، وأجلسه الى جواره، وأغدق عليه ألقاب التعظيم ، ومن جملتها أنه لقبه بالسلطان ركن الدين طغرل بك، كما أصدر الخليفة العباسي أمره بأن ينقش اسم السلطان طغرل بك على العملة، ويذكر اسمه في الخطبة في مساجد بغداد وغيرها، مما زاد من شأن السلاجقة. ومنذ ذلك الحين حل السلاجقة محل البويهيين في السيطرة على الأمر في بغداد، وتسيير الخليفة العباسي حسب إرادتهم(1).

كان طغرل بك يتمتع بشخصية قوية ، وذكاء حاد، وشجاعة، فائقة ، كما كان متديناً ورعاً عادلاً، ولذلك وجد تأييداً كبيراً ومناصرة عظيمة من شعبه، وقد أعد جيشاً قوياً، وسعى لتوحيد كلمة السلاجقة الأتراك في دولة قوية(2).

وتوطيداً للروابط بين الخليفة العباسي القائم بأمر الله، وبين زعيم الدولة السلجوقية طغرل بك، فإن الخليفة تزوج من ابنة جفري بك الأخ الأكبر لطغرل بك، وذلك في عام 448هـ/1059م ثم في شعبان عام 454هـ/1062م تزوج طغرل بك من ابنة الخليفة العباسي القائم بالله. لكن طغرل بك لم يعيش طويلاً بعد ذلك، حيث أنه توفي ليه الجمعة لليوم الثامن من شهر رمضان عام 455هـ/1062م ، وكان عمره إذ ذاك سبعين عاماً، بعد أن تمت على يده الغلبة للسلاجقة في مناطق خراسان وإيران وشمال وشرق العراق(3).

أولاً: السلطان (محمد) الملقب ألب أرسلان أي الأسد الشجاع:

تولى ألب أرسلان زمام السلطة في البلاد بعد وفاة عمه طغرل بك، وكانت قد حدثت بعض المنازعات حول تولي السلطة في البلاد، لكن ألب أرسلان استطاع أن يتغلب عليها. وكان ألب

(1) انظر: قيام الدولة العثمانية ، ص19.

(2) المصدر السابق، ص17.

(3) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك ، ص25.

أرسلان -كعمه طغرل بك- قائداً ماهراً مقداماً، وقد اتخذ سياسة خاصة تعتمد على تثبيت أركان حكمه في البلاد الخاضعة لنفوذ السلاجقة ، قبل التطلع الى أخضاع أقاليم جديدة، وضمها الى دولته. كما كان متلهفاً للجهاد في سبيل الله ، ونشر دعوة الاسلام في داخل الدولة المسيحية المجاورة له، كبلاد الأرمن وبلاد الروم، وكانت روح الجهاد الاسلامي هي المحركة لحركات الفتوحات التي قام بها ألب أرسلان وأكسبتها صبغة دينية، وأصبح قائد السلاجقة زعيماً للجهاد، وحرصاً على نصره الاسلام ونشره في تلك الديار، ورفع راية الاسلام خفاقة على مناطق كثيرة من أراضي الدولة البيزنطية(1).

لقد بقي سبع سنوات يتفقد أجزاء دولته المترامية الأطراف، قبل أن يقوم باي توسع خارجي. وعندما أطمئن على استتباب الأمن، وتمكن حكم السلاجقة في جميع الأقاليم والبلدان الخاضعة له، أخذ يخطط لتحقيق أهدافه البعيدة، وهي فتح البلاد المسيحية المجاورة لدولته، وإسقاط الخلافة الفاطمية (العبيدية في مصر، وتوحيد العالم الاسلامي تحت راية الخلافة العباسية السنية ونفوذ السلاجقة، فأعد جيشاً كبيراً أتجه به نحو بلاد الأرمن وجورجيا، فافتتحها وضمها الى مملكته، كما عمل على نشر الاسلام في تلك المناطق(2). وأغار ألب أرسلان على شمال الشام وحاصر الدولة المرداسية في حلب، والتي أسسها صالح بن مرداس على المذهب الشيعي سنة 414هـ/1023م وأجبر أميرها محمود بن صالح بن مرداس على إقامة الدعوة للخليفة العباسي بدلاً من الخليفة (الفاطمي/ العبيدي سنة 462هـ/1070م)(3). ثم أرسل قائده الترك ألتسز بن أوق الخوارزمي في حملة الى جنوب الشام فانتزع الرملة وبيت المقدس من يد (الفاطميين) العبيديين ولم يستطع الاستيلاء على عسقلان التي تعتبر بوابة الدخول الى مصر، وبذلك أضحي السلاجقة

(1) انظر: قيام الدولة العثمانية ، ص20.

(2) انظر: قيام الدولة العثمانية، ص20.

(3) انظر: السلاطين في المشرق العربي ، د. عصام محمد ، ص25.

على مقربة من قاعدة الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي داخل بيت المقدس (1).

وفي سنة 462هـ ورد رسول صاحب مكة محمد بن أبي هاشم الى السلطان يخبره بإقامة الخطبة للخليفة القائم وللسلطان وإسقاط خطبة صاحب مصر (العبيدي) وترك الأذان ب (حي على العمل) فأعطاه السلطان ثلاثين ألف دينار وقال له : إذا فعل أمير المدينة كذلك أعطيناها عشرين ألف دينار (2).

لقد أغضبت فتوحات ألب أرسلان دومانوس ديوجينيس امبراطور الروم، فصمم على القيام بحركة مضادة للدفاع عن امبراطوريته. ودخلت قواته في مناوشات ومعارك عديدة مع قوات السلاجقة، وكان أهمها معركة (ملاذكرد) في عام 463هـ الموافق أغسطس عام 1070م (3) قال ابن كثير: (وفيها أقبل ملك الروم ارمانوس في جحافل أمثال الجبال من الروم والرخ والفرنج، وعدد عظيم وعُدَد ، ومعه خمسة وثلاثون ألفاً من البطارقة، مع كل بطريق مائتا ألف فارس، ومعه من الفرنج خمسة وثلاثون ألفاً، ومن الغزاة الذين يسكنون القسطنطينية خمسة عشر ألفاً ، ومعه مائة ألف نقاب وخفار (4)، وألف روزجاري، ومعه أربعمائة عجلة تحمل النعال والمسامير، وألفا عجلة تحمل السلاح والسروج والغرادات والمناجيق، منها منجنيق عدة ألف ومائتا رجل، ومن عزمه قبحة الله أن يبید الاسلام وأهله، وقد أقطع بطارقتة البلاد حتى بغداد، واستوصى نائبها بالخليفة خيراً، فقال له : ارفق بذلك الشيخ فانه صاحبنا، ثم إذا استوثقت ممالك العراق وخراسان لهم مالوا على الشام وأهله ميلة واحدة، فاستعادوه من أيدي المسلمين ، والقدر يقول : {لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون} (سورة الحجر: الآية : 72). فالتقاه السلطان ألب أرسلان في جيشه وهم قريب من

(1) انظر: مرآة الزمان لسبط بن الجوزي، ص161.

(2) انظر: أعياد التاريخ نفسه، محمد العبد، ص68.

(3) المصدر السابق نفسه، ص20.

(4) النقب والخفار: من ينقب ومن يحفر.

عشرين ألفاً، بمكان يقال له الزهوة، في يوم الأربعاء لخمس بقين من ذي القعدة، وخاف السلطان من كثرة جند الروم، فأشار عليه الفقيه ابونصر محمد بن عبدالملك البخاري بأن يكون وقت الواقعة يوم الجمعة بعد الزوال حين يكون الخطباء يدعون للمجاهدين ، فلما كان ذلك الوقت وتواقف الفريقان وتواجه الفئتان ، نزل السلطان عن فرسه وسجد لله عزوجل ، ومرغ وجهه في التراب ودعا الله واستنصره، فأنزل نصره على المسلمين ومنحهم اكتافهم فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وأسر ملكهم ارمانوس، أسره غلام رومي، فلما أوقف بين يدي الملك ألب أرسلان ضربه بيده ثلاثة مقارع وقال : لو كُنت أنا الأسير بين يديك ماكنت تفعل؟ قال : كل قبيح، قال فما ظنك بي؟ فقال: إما أن تقتل وتشهرني في بلادك، وإما أن تعفو وتأخذ الفداء وتعيدني. قال : ما عزمت على غير العفو والفداء. فأفتدى منه بألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار. فقام بين يدي الملك وسقاه شربة من ماء وقبل الأرض بين يديه، وقبل الأرض الى جهة الخليفة إجلالاً وإكراماً، وأطلق له الملك عشرة ألف دينار ليتجهز بها، وأطلق معه جماعة من البطارقة وشيعه فرسخاً، وأرسل معه جيشاً يحفظونه الى بلاده، ومعهم راية مكتوب عليها لا إله إلا الله محمد رسول الله،... (1).

لقد كان نصر ألب أرسلان بجيشه الذي لم يتجاوز خمسة عشر ألف محارب على جيش الامبراطور دومانوس الذي بلغ مائتي ألف، حدثاً كبيراً، ونقطة تحول في التاريخ الاسلامي لأنها سهلت على اضعاف نفوذ الروم في معظم أقاليم آسيا الصغرى، وهي المناطق المهمة التي كانت من ركائز وأعمدة الامبراطورية البيزنطية. وهذا ساعد تدريجياً للقضاء على الدولة البيزنطية على يد العثمانيين.

لقد كان ألب أرسلان رجلاً صالحاً أخذ بأسباب النصر المعنوية والمادية، فكان يقرب العلماء ويأخذ بنصحهم وما أروع نصيحة العالم الرباني أبي نصر محمد بن عبدالملك البخاري الحنفي، في معركة ملانكرد عندما قال للسلطان ألب أرسلان: إنك تقاتل عن دين وعدالله بنصره واطهاره

(1) البداية والنهاية (108/12).

على سائر الاديان. وأرجو أن يكون الله قد كتب باسمك هذا الفتح فالقهم يوم الجمعة في الساعة التي يكون الخطباء على المنابر، فإنهم يدعون للمجاهدين.

فلما كان تلك الساعة صلى بهم، وبكى السلطان ، فبكى الناس لبكائه، ودعا فأمنوا، فقال لهم من أراد الإنصراف فلينصرف، فما هُنا سلطان يأمر ولا ينهى. وألقى القوس والنشاب ، واخذ السيف، وعقد ذنب فرسه بيده، وفعل عسكره مثله، ولبس البياض وتحنط وقال: إن قتلت فهذا كفني (1) الله أكبر على مثل هؤلاء ينزل نصر الله.

وقتل هذا السلطان على يد أحد الثائرين واسمه يوسف الخوارزمي وذلك يوم العاشر من ربيع الأول عام 465هـ الموافق 1072م ودفن في مدينة مرو بجوار قبر أبيه فخلفه ابنه ملكشاه (2).

شيء من أخلاق السلطان ألب أرسلان:

(كان رحيم القلب، رقيقاً بالفقراء وكثير الدعاء بدوام ما أنعم الله عليه، اجتاز يوماً بمرو على فقراء الخرائسين ، فبكى، وسأل الله تعالى أن يغنيه من فضله وكان يكثر الصدقة ، فيتصدق في رمضان بخمسة عشر ألف دينار، وكان في ديوانه أسماء خلق كثير من الفقراء في جميع ممالكه، عليهم الإدارات والصلوات، ولم يكن في جميع بلاده جناية ولا مصادرة، قد قنع من الرعايا بالخراج الأصلي يؤخذ منهم كل سنة دفعتين رفقاً بهم) (3).

كتب إليه بعض السعاة في شأن وزيره نظام الملك وذكروا ماله في ممالكه فاستدعاه فقال : خذ إن كان هذا صحيحاً فهذب أخلاقك وأصلح أحوالك، وإن كان كذبوا فأغفر له زلته، الحرص على حفظ مال الرعايا، بلغ أن غلاماً من غلمانة أخذ إزاراً لبعض أصحابه فصلبه فارتدع سائر

(1) انظر : تاريخ الاسلام للذهبي ، حوادث ووفيات 470، 461، ص2.

(2) انظر: قيام الدولة العثمانية، ص21.

(3) الكامل لابن الأثير (252/6).

الممالك خوفاً من سطوته(1).

وكان كثيراً ما يُقرأ عليه تواريخ الملوك وآدابهم، وأحكام الشريعة، ولما اشتهر بين الملوك حُسن سيرته، ومحافظته على عهده، أذعنوا له بالطاعة والموافقة بعد الامتناع، وحضروا عنده من أقاصي ماوراء النهر الى أقاصي الشام(2).

ثانياً: ملكشاه وفضله في توحيد الخلافة والسلطنة:

تولى السلطنة بعد ألب أرسلان ابنه ملكشاه وعارضه عمه قاورد بن جفري حاكم سلاجقة كرمان وطالب بالسلطنة ووقع الصدام بينهما قرب همذان حيث انهزم قاورد وقتل وبذلك سيطر ملكشاه على دولة سلاجقة كرمان عين عليها سلطان شاه بن ألب أرسلان سنة 465هـ/1073م. واتسعت الدولة السلجوقية في عهد السلطان ملكشاه لتبلغ أقصى أمتداد لها من أفغانستان شرقاً الى آسيا الصغرى غرباً وبلاد الشام جنوباً، وذلك بعد أن سقطت دمشق على يد قائده أُنسز سنة 468هـ/1075م، وأقيمت الدعوة للخليفة العباسي.

وأُسند ملكشاه المناطق التي سيطر عليها في بلاد الشام، لأخيه تاج الدولة تتمش سنة 470هـ/1077م، وذلك من أجل متابعة الفتح. فأسس هذا الأخير دولة سلاجقة الشام كما عين ملكشاه أحد أقاربه ويدعى سليمان بن قتلش بن اسرائيل والياً على آسيا الصغرى التي كانت تتبع بلاد الروم، لمتابعة الفتح سنة 470هـ/1077م ، فأسس هذا أيضاً دولة سلاجقة الروم(3) وقد استمرت هذه الدولة 224 سنة ، ليتعاقب على حكمها أربعة عشر من سليله أبي الفوارس قتلش بن اسرائيل، وكان أولهم سليمان بن قتلش الذي يعتبر مؤسس هذه الدولة(4) وقد تمكن من فتح

(1) انظر : البداية والنهاية (114/12).

(2) الكامل لابن الأثير (253/6).

(3) انظر: السلاطين في المشرق العربي ، ص28.

(4) المصدر السابق، ص29.

انطاكية سنة 477هـ/1084م ، كما تمكن أبناه داود من السيطرة على قونية سنة 480هـ/1087م ليتخذها عاصمة له. وكانت قونية من أغنى وأجمل المدن البيزنطية في آسيا الصغرى؛ وقد حولها السلاجقة من مدينة بيزنطية مسيحية الى مدينة سلجوقية اسلامية. وقد سقطت هذه الدولة على يد المغول سنة 700هـ/1300م⁽¹⁾ وأصبحت فيما بعد من أملاك الدولة العثمانية.

لقد كان سلاجقة الروم حريصين على تترك آسيا الصغرى ونشر الاسلام فيها على المذهب السنّي وكانوا سبباً في نقل الحضارة الاسلامية الى تلك الأقاليم، واسقطوا الخط الدفاعي الذي كان يحمي المسيحية من أوروبا ضد الاسلام في الشرق⁽²⁾.

ورغم هذه السلطنة القوية زمن ملكشاه، لم يفلح قائده أتسز في توحيد بلاد الشام ومصر، بعد أن شكل السلاجقة تهديداً فعلياً للدولة العبيدية (الفاطمية) داخل مصر.

وعندما أراد أتسز غزو مصر، حلت به الهزيمة على يد قوة من العرب، قبل مواجهة الجيش الكبير الذي أعده الوزير بدر الجمالي في رجب 469هـ/1076م، وقد أدى فشل أتسز الى مزيد من التشرذم، والتمزق السياسي والصراع الدامي، لينتهي الأمر بمقتله سنة 471هـ/1078م⁽³⁾.

كذلك لم يفلح ملكشاه في جعل الخلافة العباسية تتحول الى أسرته السلجوقية ، عندما زوج ابنته الى الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله سنة 480هـ/1087م، فرزقت منه بولد، كما زوج ابنته الأخرى الى المستظهر العباسي . ولم يتمكن من حصر الخلافة والسلطنة في شخص حفيده⁽⁴⁾.

وفاته:

توفى السلطان ملكشاه وانتهى دور القوة والمجد (447-485هـ/1055-1092م) الذي عرفته

(1) انظر : السلاطين في المشرق العربي، ص29.

(2) المصدر السابق نفسه، ص29.

(3) انظر: مرآة الزمان، سبط ابن الجوزي، ص182.

(4) انظر: السلاطين في المشرق العربي، ص30.

الدولة السلجوقية في عهد السلاطين الثلاثة ، طغرل بك، وألب أرسلان، وملكشاه، لتبدأ مرحلة الضعف والصراع ولقد ظهر في زمن ألب أرسلان وملكشاه الوزير نظام الملك الذي يهمننا معرفة سيرته ودوره في قوة الدولة السلجوقية.

ثالثاً: نظام الملك:

قال عنه الذهبي : (الوزير الكبير، نظام الملك، قوام الدين ، أبو علي الحسن بن علي ابن إسحاق الطوسي، عاقل، سائس، خبير ، سعيد، متدين، محتشم، عامر المجلس بالقرّاء والفقهاء . أنشأ المدرسة الكبرى ببغداد وأخرى بنيسابور ، وأخرى بطوس، ورغب في العلم، وأدرّ على الطلبة الصلوات، وأملى الحديث، وبعد صيته)(1).

تتقلت به الأحوال الى أن وزر للسلطان ألب أرسلان، ثم لابنه ملكشاه، فدبر ممالكه على أتم ماينبغي، وخفف المظالم، ورفق بالرعايا، وبني الوقوف، وهاجرت الكبار الى جانبه(2). وأشار على ملكشاه بتعيين القواد والأمراء الذين فيهم خلق ودين وشجاعة وظهرت آثار تلك السياسة فيما بعد ومن هؤلاء القواد الذين وقع عليهم الاختيار آق سنقر جد نورالدين محمود، الذي ولي على حلب وديار بكر والجزيرة قال عنه ابن كثير: (من أحسن الملوك سيرة وأجودهم سريرة)(3) وقام ولده عمادالدين زنكي ببداية الجهاد ضد الصليبيين، ثم قام من بعده نور الدين محمود ، هذه الأسرة هي التي وضعت الأساس لانتصارات صلاح الدين والظاهر بيبرس وقلاوون ضد الصليبيين، وافتتحت عهد التوحيد والوحدة في العالم الاسلامي(4).

وكذلك كان آق سنقر البرسقي من قواد السلطان محمود السلجوقي، وكان أميراً للموصل،

(1) سير أعلام النبلاء (94/19).

(2) المصدر السابق (95/19).

(3) البداية والنهاية (157/12).

(4) انظر: أبعاد التاريخ نفسه، ص68.

واشتغل بجهاد الصليبيين، وفي سنة 520هـ قتله الباطنيون، وهو يصلي في الجامع الكبير في الموصل. قال عنه ابن الأثير: "وكان مملوكاً تركياً خيراً، يحب أهل العلم والصالحين ويرى العدل

ويفعله، وكان خير الولاة، يحافظ على الصلوات في أوقاتها، ويصلي من الليل متهجداً"⁽¹⁾.

ويحدثنا المؤرخ ابوشامة من آثار السلاجقة لاسيما في زمن نظام الملك: (فلما ملك السلجوقية جدوا من هيبة الخلافة ماكان قد درس لاسيما في وزارة النظام الملك، فإنه أعاد الناموس والهيبة الى أحسن حالاتها) ⁽²⁾.

ضبطه لأمر الدولة:

لما تولى ملكشاه أمور الدولة انفلت أمر العسكر وبسطوا أيديهم في أموال الناس، وقالوا ما يمنع السلطان أن يعيظنا الأموال إلا نظام الملك، وتعرض الناس لاذى شديد، فذكر ذلك نظام الملك للسلطان، فبين له ما في هذا الفعل من الضعف، وسقوط الهيبة، والوهن، ودمار البلاد، وذهاب السياسة، فقال له: أفعل في هذا ماتراه مصلحة! فقال له نظام الملك: مايمكنني أن افعل إلا بأمرك فقال السلطان: قد رددت الأمور كلها كبيرها وصغيرها إليك، فأنت الوالد؛ وحلف له، وأقطعه إقطاعاً زائداً على ماكان، وخلع عليه، ولقبه ألقاباً من جملتها: أتاك، ومعناه الأمير الوالد، فظهرت من كفايته، وشجاعته، وحسن سيرته ما أثلج صدور الناس، فمن ذلك أن امرأة ضعيفة استغاثت به، فوقف يكلمها وتكلمه، فدفعتها بعض حجابه، فأنكر ذلك عليه وقال: إنما استخدمتك لأمثال هذه، فإن الأمراء والاعيان لاحاجة لهم إليك، ثم صرفه عن حجابه⁽³⁾.

حبه للعلم واحترامه للعلماء وتواضعه:

كان يحب العلم وخصوصاً الحديث، شغوفاً به وكان يقول: إني أعلم بأنني لست أهلاً للرواية

(1) الكامل (633/10) نقلاً عن أيعيد التاريخ نفسه، ص68.

(2) الروضتين في أخبار الدولتين (31/1) نقلاً عن أيعيد التاريخ نفسه.

(3) انظر: الكامل لابن الأثير (256/2).



ولكني أحب أن أربط في قطار (1) نقلة حديث رسول الله ﷺ (2)، فسمع من القشيري ، أبي مسلم بن مهر بزد، وأبي حامد الأزهري (3).

وكان حريصاً على أن تؤدي المدارس التي بناها رسالتها المنوطة بها فعندما أرسل إليه أبو الحسن محمد بن علي الواسطي الفقيه الشافعي أبيات من الشعر يستحثه على المساعدة للقضاء على الفتن التي حدثت بين الحنابلة والأشاعرة قام نظام الملك وقضى على الفتنة ومما قاله ابو الحسن الواسطي من الشعر :

يانظام الملك قد حلّ ببغداد النظام
وابنك القاطن فيها مستهان مستضام
وبها أودى له قتلى غلام، وغلام
والذي منهم تبقي سالماً فيه سهام
ياقوام الدين لم يبقى ببغدا مقام
عظم الخطب وللحرب اتصال ودوام
فمتى لم تحسم الداء أياديك الحسام
ويكف القوم في بغداد قتل وانتقام
فعلى مدرسة فيها ومن فيها السلام
واعتصام بحريم لك من بعد حرام (4)

لقد كان مجلسه عامراً بالفقهاء والعلماء، حيث يقضي معهم جُلّ نهاره، ف قيل له: (إن هؤلاء شغلوك عن كثير من المصالح، فقال: هؤلاء جمال الدنيا والآخرة، ولو أجلستهم على رأسي لما

(1) قطار: قافلة.

(2) انظر: البداية والنهاية (150/12).

(3) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (95/19).

(4) انظر: الكامل (276/6).

استكثر ذلك، وكان إذا دخل عليه أبو القاسم القشيري وأبوالمعالى الجويني قام لهم وأجلسهما معه في المقعد، فإن دخل أبو علي الفارندي قام وأجلسه مكانه، وجلس بين يديه، فعوتب في ذلك فقال : إنهما إذا دخلا عليّ قال: أنت وأنت، يطروني ويعظموني، ويقولوا فيّ ما لا فيّ، فأزداد بهما ماهو مركزوز في نفس البشر، وإذا دخل عليّ أبوعلي الفارندي ذكرني عيوبي وظلمي ، فأنكسر فأرجع عن كثير مما أنا فيه...(1).

قال عنه ابن الأثير: (وأما أخباره، فإنه كان عالماً، ديناً، جواداً، عادلاً، حليماً، كثير الصفح عن المذنبين ، طويل الصمت، كان مجلسه عامراً بالقرّاء، والفقهاء، وأئمة المسلمين، وأهل الخير والصلاح...(2).

كان من حفظة القرآن ، ختمه وله إحدى عشرة، واشتغل بمذهب الشافعي، وكان لا يجلس إلا على وضوء، وما توضع إلا تتفّل(3)، وإذا سمع المؤذن أمسك عن كل ماهو فيه وتجنبه، فإذا فرغ لا يبدأ بشيء قبل الصلاة وكان، إذا غفل المؤذن ودخل الوقت فأمره بالأذان ، وهذا قمة حال المنقطعين للعبادة في حفظ الاوقات، ولزوم الصلوات(4)، وكانت له صلة بالله عظيمة وقال ذات مرة: رأيت ليلة في المنام إبليس فقلت له : ويحك خلقك الله وأمرك بالسجود له مشافهة فأبيت، وأنا لم يأمرني بالسجودله مشافهة وأنا أسجد له في كل يوم مرات، وأنشأ يقول:

من لم يكن للوصال أهلاً

فكلُّ إحسانه ذنوب(5)

(1) البداية والنهاية (150/12).

(2) الكامل (337/6).

(3) انظر: سير أعلام النبلاء (96/19).

(4) انظر: الكامل (337/6).

(5) البداية والنهاية (150/12).

وكان يتمنى أن يكون له مسجد يعبد الله فيه، ومكفول الرزق قال في هذا المعنى : كنت أتمنأن يكون لي قرية خالصة، ومسجد أتفرد فيه لعبادة ربي، ثم تمنيت بعد ذلك أن يكون لي رغيف كل يوم، ومسجد أعبد الله فيه(1).

ومن تواضعه انه كان ليلة يأكل الطعام، وبجانبه أخوه أبو القاسم، وبالجانب الآخر عميد خراسان، والى جانب العميد إنسان فقير، مقطوع اليد، فنظر نظام الملك فرأى العميد يتجنب الأكل مع المقطوع، فأمره بالانتقال الى الجانب الآخر، وقرب المقطوع إليه فأكل معه.

وكانت عادته أن يحضر الفقراء طعامه ويقربهم إليه، ويدنيهم(2).
ومن شعره:

بعد الثمانين ليس قوة

قد ذهب شهوة الصبوة

كأنني والعصا بكفي

موسى ولكن بلا نبوة(3)

وينسب إليه أيضاً:

تقوس بعد طول العمر ظهري

وداستني الليالي أيّ دوس

فأمسي والعصا تمشي أمامي

كأن قوامها وتر بقوس

وكان يتأثر بسماع الشعر فعندما دخل عليه أبو علي القومساني في مرضة مرضها، يعوده فأنشأ

(1) انظر: الكامل (338/6).

(2) نفس المصدر السابق.

(3) تاريخ الاسلام حوادث ووفيات 481-490/ ص147.

يقول:

إذا مرضنا نؤينا كل صالحه

فإن شفينا فمنا الزيع والزَّلُّ

نرجو الإله اذا خفنا ونسخطه

إذا أمنا فما يزكو لنا عمل

فبكى نظام الملك وقال : هو كما يقول (1).

وفاته:

في عام 485هـ من يوم الخميس، في العاشر من شهر رمضان وحن وقت الإفطار، صلي نظام الملك المغرب، وجلس على السماط، وعنده خلق كثير من الفقهاء، والقراء، والصوفية، وأصحاب الحوائج، فجعل يذكر شرف المكان الذي نزلوه من أراضي نهاوند، وأخبار الواقعة التي كانت بين الفرس والمسلمين، في زمان أمير المؤمنين، عمر بن الخطاب ؓ، ومن استشهد هناك من الاعيان ، ويقول : طوبى لمن لحق بهم.

فلما فرغ من إفطاره ، خرج من مكانه قاصداً مَضْرِبَ حَرَمِهِ فبدر إليه حدث ديلمي، كأنه مُستميح، أو مستغيث، فعلق به ، وضربه، وحمل الى مضرب الحرم.

فيقال : إنه أول مقتول قتلته الاسماعيلية (الباطنية)، فأنبث الخبر في الجيش، وصاحت الأصوات، وجاء السلطان ملكشاه حين بلغه الخبر، مظهراً الحزن، والنحيب والبكاء وجلس عند نظام الملك ساعة، وهو يجود بنفسه، حتى مات، فعاش سعيداً ، ومات شهيداً فقيداً حميداً (2).

وكان قاتله قد تعثر بأطناب الخيمة، فلحقه ممالك نظام الملك وقتلوه.

وقال بعض خدامه: كان آخر كلام نظام الملك أن قال : لاتقتلوا قاتلي، فإني قد عفوت عنه

(1) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (328/4).

(2) انظر: طبقات الشافعية الكبرى (322،323/4).

وتشهد ومات (1).

ولما بلغ أهل بغداد موت نظام الملك حزنوا عليه، وجلس الوزير والرؤساء للعزاء ثلاثة أيام وورثاه الشعراء بقصائد، منهم مقاتل بن عطية حيث قال:

كان الوزير نظامُ الملكِ لؤلؤة

يتيمة صاغها الرحمن من شرفٍ

عزّت فلم تعرفِ الأيامُ قيمتها

فرّدها غيره منه الى الصدف (2)

قال عنه ابن عقيل: بهر العقول سيرة النظام جوداً وكرماً وعدلاً، وإحياءً لمعالم الدين، كانت أيامه دولة أهل العالم، ثم ختم له بالقتل وهو ماؤر الى الحج في رمضان فمات ملكاً في الدنيا، ملكاً في الآخرة، رحمه الله (3).

المبحث الثالث

نهاية الدولة السلجوقية

كان للسلطان ملكشاه عند وفاته أربعة أبناء هم بركيارق ومحمد وسنجر ومحمود. وكان محمود، والذي عرف فيما بعد بناصر الدين محمود، طفلاً فبايعوه على تولي السلطة لأن أمه تركان خاتون، كانت ذات شأن كبير أيام ملكشاه. وقد استمر حكمه حوالي العامين من 485هـ/1092م

(1) نفس المصدر السابق (323/4).

(2) البداية والنهاية (151/12).

(3) نظر: سير أعلام النبلاء (96/19).

والى عام 487هـ/1094م، حيث توفي هو وأمه. ثم جاء من بعده ركن الدين أبوالمظفر بركيارق بن ملكشاه، واستمر حكمه حتى عام 498هـ/1105م، ثم تلاه ركن الدين ملكشاه الثاني وفي نفس العام تولى السلطة غياث الدين أبو شجاع محمد، واستمر حكمه حتى عام 511هـ/1128م وكان آخر حكام الدولة السلجوقية العظمى فيما وراء النهر والتي كانت لها السيطرة على خراسان وإيران والعراق. وقد انقضت دولتهم عام 522هـ/1128م وذلك على يد شاهنات خوارزم⁽¹⁾. وبسقوط الدولة السلجوقية العظمى فيما وراء النهر انفرط عقد السلاجقة وتمزقت وحدتهم، وضعفت قوتهم، حتى أصبح السلاجقة شيعاً وأحزاباً ومعسكرات متباينة، تتصارع فيما بينها، حول الظفر بالعرش، وانقسمت على ضوء ذلك الدولة السلجوقية العظمى الى عدة دول وإمارات صغيرة. ولم تكن هذه الدولة والإمارات الصغيرة تخضع لحكم سلطان واحد كما كان الحال في عهد كل من السلطان طغرلبيك الأول والسلطان ألب أرسلان والسلطان ملكشاه وأسلافهم. بل كان كل جزء من أجزاء الدولة السلجوقية مستقلاً تحت قيادة منفصلة، لا يوجد بينها أي تعاون يذكر⁽²⁾.

ونتيجة لذلك خرجت الدولة الخوارزمية فيما وراء النهر وهي تلك الدولة التي وقفت رداً من الزمن أمام الهجمات المغولية وقد قامت معها إمارات سلجوقية في شمال العراق والشام عرفت بالأتابكيات، وأثناء ذلك برزت سلطنة سلاجقة الروم، وهي السلطنة التي قاومت الحملات الصليبية، واستطاعت أن تحصرها في الركن الشمالي الغربي من آسيا الصغرى. أما سلطنة سلاجقة الروم فقد دمرتها الغارات المغولية المتلاحقة.

لقد تضافرت عوامل عديدة في سقوط السلطنة السلجوقية التي مهدت بدورها لسقوط الخلافة العباسية.

ومن هذه العوامل:

(1) انظر: تاريخ دولة آل سلجوق لمحمد الاصبهاني ص 81-154.

(2) انظر: قيام الدولة العثمانية ص 23.

الصراع داخل البيت السلجوقي بين الأخوة والأعمام والأبناء والأحفاد.

تدخل النساء في شؤون الحكم.

انكفاء نار الفتنة بين الحكام السلاجقة من قبل بعض الأمراء والوزراء والأتابك

ضعف الخلفاء العباسيين الذين تميزوا بالضعف أمام القوة العسكرية السلجوقية، فلم يتورعوا عن الاعتراف بشرعية كل من يجلس على عرش السلطنة السلجوقية والخطبة لكل منتصر قوي (1).

عجز الدولة السلجوقية عن توحيد بلاد الشام ومصر والعراق تحت راية الخلافة العباسية.

الأنقسام الداخلي بين السلاجقة والذي وصل الى حد المواجهة العسكرية المستمرة، وهذا ما أنهك قوة السلاجقة حتى انهارت سلطنتهم في العراق.

المكر الباطني الخبيث بالدولة السلجوقية وتمثل ذلك في حملة التصفيات والمحاولات المستمرة لاغتيال سلاطين السلاجقة وزعمائهم وقاداتهم.

الغزو الصليبي القادم من وراء البحار وصراع الدولة السلجوقية مع جحافل الغزو الوحشية القادمة من أوروبا وغير ذلك من الاسباب والعوامل إلا أن السلاجقة كانت لهم أعمال جليلة من أهمها:

أ. كان لهم دور في تأخير زوال الخلافة العباسية، حوالي قرنين من الزمان، حيث أوشكت قبل مجيئهم على الانقراض في ظل سيطرة البويهيين الشيعة الروافض.

ب. منعت الدولة السلجوقية الدولة العبيدية في مصر من تحقيق اغراضها الهادفة الى توحيد المشرق العربي الاسلامي تحت الراية الباطنية العبيدية الرافضية.

ت. كانت الجهود التي بذلتها الدولة السلجوقية تمهيداً لتوحيد المشرق الاسلامي والذي تم على

(1) انظر: السلاطين في المشرق العربي ص50.

- يد صلاح الدين الأيوبي وتحت راية الخلافة العباسية السنية(1).
- ث. قام السلاجقة بدور ملموس في النهوض بالمنطقة الخاضعة لهم علمياً وإدارياً ونشروا الأمن والاستقرار فيها.
- ج. وقفوا في وجه التحركات الصليبية من جانب الامبراطورية البيزنطية، وحاولوا صد خطر المغولي الى حد كبير .
- ح. رفعوا من شأن المذهب السني وعلمائه في تلك المناطق(2)
- هذه نبذة موجزة عن السلاجقة السنيين ودورهم في نصرة الاسلام، وإن من الظلم والزور والبهتان أن نطلق على أولئك الشجعان كلمة الشرازم كما فعل الاستاذ نجيب زيبب في الموسوعة العامة في لتاريخ المغرب والأندلس(3).

الفصل الثاني

قيام الدولة العثمانية وفتوحاتها

-
- (1) انظر: السلاطين في المشرق العربي ص51.
- (2) انظر: قيام الدولة العثمانية ص24.
- (3) انظر: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (10/3).

ينتسب العثمانيون الى قبيلة تركمانية كانت عند بداية القرن السابع الهجري الموافق الثالث عشر الميلادي تعيش في كردستان، وتزاول حرفة الرعي، ونتيجة للغزو المغولي بقيادة جنكيزخان على العراق ومناطق شرق آسيا الصغرى، فإن سليمان جد عثمان هاجر في عام 617هـ الموافق 1220م مع قبيلته من كردستان الى بلاد الأناضول فأستقر في مدينة اخلاط⁽¹⁾ ثم بعد وفاته في عام 628هـ الموافق 1230م خلفه ابنه الأوسط أرطغرل، والذي واصل تحركه نحو الشمال الغربي من الأناضول ، وكان معه حوالي مائة أسرة وأكثر من أربعمائة فارس⁽²⁾ وحين كان ارطغرل والد عثمان فاراً بعشيرته التي لم يتجاوز تعدادها اربعمائة عائلة، من ويلات الهجمة المغولية، فاذا به يسمع عن بعد جلبة وضوضاء، فلما دنا منها وجد قتالاً حامياً بين مسلمين ونصارى وكانت كفة الغلبة للجيش البيزنطي، فما كان من أرطغرل إلا أن تقدم بكل حماس وثبات لنجدة اخوانه في الدين والعقيدة، فكان ذلك التقدم سبباً في نصر المسلمين على النصارى⁽³⁾ وبعد انتهاء المعركة قدر قائد الجيش الاسلامي السلجوقي هذا الموقف لأرطغرل ومجموعته، فأقطعهم ارضاً في الحدود الغربية للأناضول بجوار الثغور في الروم⁽⁴⁾، وأتاحوا لهم بذلك فرصة توسيعها على حساب الروم، وحقق السلاجقة بذلك حليفاً قوياً ومشاركاً في الجهاد ضد الروم، وقد قامت بين هذه الدولة الناشئة وبين سلاجقة الروم علاقة حميمة نتيجة وجود عدو مشترك لهم في العقيدة والدين، وقد استمرت هذه العلاقة طيلة حياة أرطغرل، حتى إذا توفي سنة 699هـ-1299م⁽⁵⁾ خلفه من بعده

(1) أخلاط مدينة في شرق تركيا الحالية قريبة من بحيرة وأن في ارمينيا.

(2) انظر: قيام الدولة العثمانية ص26.

(3) انظر: جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين، زياد أبو غنيمة ص36.

(4) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور د. عبدالعزيز العمري ص353.

(5) تاريخ سلاطين آل عثمان تحقيق بسام الجابي للقرماني ص10.

في الحكم ابنه عثمان الذي سار على سياسة أبيه السابقة في التوسع في أراضي الروم (1).

المبحث الأول

عثمان مؤسس الدولة العثمانية

في عام 656هـ/1258م ولد لارطغرل ابنه عثمان الذي تنتسب إليه الدولة العثمانية (2) وهي السنة التي غزا فيها المغول بقيادة هولاكو بغداد عاصمة الخلافة العثمانية، وكانت الأحداث عظيمة، والمصائب جسيمة، يقول ابن كثير: " ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان، ودخل كثير من الناس في الآبار وأماكن الحشوش، وقني الوسخ، وكمناو كذلك أياماً لا يظهرون وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الحانات ويغلقون عليهم الأبواب فتفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة فيقتلونهم بالأسطحة، حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة، فإننا لله

(1) انظر: تاريخ الدولة العلية ص115 محمد فريد.

(2) انظر: السلطان محمد الفاتح ص12 عبدالسلام عبدالعزيز ص12.

وإنّا إليه راجعون. وكذلك في المساجد والجوامع والربط، ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم (1).

لقد كان الخطب عظيم والحدث جلل، والأمة ضعفت ووهنت بسبب ذنوبها ومعاصيها ولذلك سلط عليها المغول، فهتكوا الأعراض، وسفكوا الدماء، وقتلوا الأنفس، ونهبوا الأموال، وخرّبوا الديار، في تلك الظروف الصعبة والوهن المستشري في مفاصل الأمة ولد عثمان مؤسس الدولة العثمانية، وهنا معنى لطيف ألا وهو بداية الأمة في التمكين هي أقصى نقطة من الضعف والانحطاط تلك هي بداية الصعود نحو العزة والنصر والتمكين، إنها حكمة الله وإرادته ومشينته النافذة.

قال تعالى: { إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين } (سورة القصص: 3).

وقال سبحانه وتعالى : { ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض } (القصص، آية: 5، 6).

ولاشك أن الله تعالى قادر على أن يمكن لعباده المستضعفين في عشية أو ضحاها، بل في طرفة عين قال تعالى: { إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون .. } (النحل: 40).

فلا يستعجل أهل الحق موعود الله عزوجل لهم بالنصر والتمكين، فلا بد من مراعاة السنن الشرعية والسنن الكونية، ولا بد من الصبر على دين الله عزوجل: { ولو شاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض } (سورة محمد: 4).

والله إذا أراد شيئاً هياً له أسبابه وأتى به شيئاً فشيئاً بالتدرج لادفعة واحدة.

وبدأت قصة التمكين للدولة العثمانية مع ظهور القائد عثمان الذي ولد في عام سقوط الخلافة العباسية في بغداد.

(1) البداية والنهاية (192، 193/13).

أولاً: أهم الصفات القيادية في عثمان الأول:

عندما نتأمل في سيرة عثمان الأول تبرز لنا بعض الصفات المتأصلة في شخصيته كقائد عسكري، ورجل سياسي، ومن أهم هذه الصفات:

1. الشجاعة: عندما تتأدى أمراء النصارى في بورصة ومادانوس وأدره نوس وكته وكستله البيزنطيون في عام 700هـ/1301م لتشكيل حلف صليبي لمحاربة عثمان بن أرطغرل مؤسس الدولة العثمانية واستجابت النصارى لهذا النداء وتحالفوا للقضاء على الدولة الناشئة تقدم عثمان بجنوده وخاض الحروب بنفسه وشتت الجيوش الصليبية وظهرت منه بسالة وشجاعة أصبحت مضرب المثل عند العثمانيين (1).

2. الحكمة: بعد ما تولى رئاسة قومه رأى من الحكمة أن يقف مع السلطان علاء الدين ضد النصارى، وساعده في افتتاح جملة من مدن منيعة ، وعدة قلاع حصينة، ولذلك نال رتبة الإمارة من السلطان السلجوقي علاء الدين صاحب دولة سلاجقة الروم. وسمح له سك العملة باسمه، مع الدعاء له في خطبة الجمعة في المناطق التي تحته (2).

3. الإخلاص: عندما لمس سكان الأراضي القريبة من إمارة عثمان إخلاصه للدين تحركوا لمساندته والوقوف معه لتوطيد دعائم دولة اسلامية تقف سداً منيعاً أمام الدولة المعادية للإسلام والمسلمين (3).

4. الصبر: وظهرت هذه الصفة في شخصيته عندما شرع في فتح الحصون والبلدان، ففتح في سنة 707هـ حصن كتبه، وحصن لفكه، وحصن آق حصار، وحصن قوج حصار. وفي سنة 712هـ فتح حصن كبوه وحصن يكيجه طرا قلووا، وحصن تكرر بيكارى وغيرها وقد توج

(1) انظر: جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الاتراك ص197.

(2) انظر: قيام الدولة العثمانية ص25.

(3) انظر: قيام الدولة العثمانية ص26.

فتوحاته هذه بفتح مدينة بروسة في عام 717هـ/1317م، وذلك بعد حصار شديد دام عدة سنوات، ولم يكن فتح بروسة من الأمور السهلة بل كان من أصعب ما واجهه عثمان في فتوحاته، حيث حدثت بينه وبين قائد حاميتها اقريينوس صراع شديد استمر عدة سنوات حتى استسلم وسلم المدينة لعثمان. قال تعالى: {يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون} (سورة آل عمران:200).

5. الجاذبية الايمانية: وتظهر هذه الصفة عندما احتك به اقريينوس قائد بروسه واعتنق الاسلام أعطاه السلطان عثمان لقب (بك) وأصبح من قادة الدولة العثمانية البارزين فيما بعد، وقد تأثر كثير من القادة البيزنطيين بشخصية عثمان ومنهجه الذي سار عليه حتى امتلأت صفوف العثمانيين منهم⁽¹⁾، بل أن كثيراً من الجماعات الاسلامية انخرطت تحت لواء الدولة العثمانية كجماعة (غزياروم) أي غزاة الروم، وهي جماعة اسلامية كانت ترابط على حدود الروم وتصد هجماتهم عن المسلمين منذ العصر العباسي، وقد أعطتها هذه المرابطة خبرات في جهاد الروم عمقت فيها انتماءها للاسلام والتزامها بكل ما جاء به الاسلام من نظام، وجماعة (الإخيان) (اي الاخوان) وهم جماعة من أهل الخير يعينون المسلمين ويستضيفونهم ويصاحبون جيوشهم لخدمة الغزاة وكان معظم أعضاء هذه الجماعة من كبار التجار الذي سخروا أموالهم للخدمات الاسلامية مثل: إقامة المساجد والتكايا و"الخانات" الفنادق، وكانت لهم في الدولة مكانة عالية، ومن هذه الجماعة علماء ممتازون عملوا في نشر الثقافة الاسلامية وحببوا الناس في التمسك بالدين، وجماعة (حاجيات روم) أي حجاج أرض الروم، وكانت جماعة على فقه بالاسلام، ومعرفة دقيقة لتشريعاته، وكان هدفها معاونة المسلمين عموماً والمجاهدين خصوصاً وغير ذلك من الجماعات⁽²⁾.

(1) المصدر السابق نفسه، ص28.

(2) انظر: التراجع الحضاري في العالم الإسلامي د. علي عبدالحليم ص331،332.

6. عدله: تروي معظم المراجع التركية التي أرخت للعثمانيين أن أرطغرل عهد لابنه عثمان مؤسس الدولة العثمانية بولاية القضاء في مدينة قره جه حصار بعد الاستيلاء عليها من البيزنطيين في عام 684هـ/1285م وأن عثمان حكم لبيزنطي نصراني ضد مسلم تركي، فاستغرب البيزنطي وسأل عثمان: كيف تحكم لصالحنا وأنا على غير دينك، فأجابته عثمان: بل كيف لا أحكم لصالحك، والله الذي نعبد، يقول لنا: { إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل } (سورة النساء،) وكان هذا العدل الكريم سبباً في اهتداء الرجل وقومه إلى الإسلام(1).

إن عثمان الأول استخدم العدل مع رعيته وفي البلاد التي فتحها، فلم يعامل القوم المغلوبين بالظلم أو الجور أو التعسف أو التجبر، أو الطغيان، أو البطش وإنما عاملهم بهذا الدستور الرباني: { أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسراً } (سورة الكهف: آية: 88، 87). والعمل بهذا الدستور الرباني يدل على إيمان وتقوى وفضيلة وذكاء وعلى عدل وبر ورحمة.

7. الوفاء: كان شديد الإهتمام بالوفاء بالعهود، فعندما اشترط أمير قلعة اولوباد البيزنطية حين استسلم للجيش العثماني، أن لا يمر من فوق الجسر أي عثماني مسلم إلى داخل القلعة التزم بذلك وكذلك من جاء بعده(2). قال تعالى {وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً} (سورة الاسراء: آية)

8. التجرد لله في فتوحاته: فلم تكن أعماله وفتوحاته من أجل مصالح اقتصادية أو عسكرية أو غير ذلك ، بل كان فرصة تبليغ دعوة الله ونشر دينه ولذلك وصفه المؤرخ احمد رفيق في موسوعته (التاريخ العام الكبير) بأنه (كان عثمان متديناً للغاية، وكان يعلم أن نشر الإسلام

(1) انظر: جوانب مضيئة ص32.

(2) المصدر السابق نفسه، ص33.

وتعميمه واجب مقدس وكان مالكاً لفكر سياسي واسع متين ، ولم يؤسس عثمان دولته حباً

في السلطة وإنما حباً في نشر الاسلام (1).

ويقول مصر اوغلو: "لقد كان عثمان بن أرطغرل يؤمن إيماناً عميقاً بأن وظيفته الوحيدة في الحياة هي الجهاد في سبيل الله لأعلاء كلمة الله، وقد كان مندفعاً بكل حواسه وقواه نحو تحقيق هذا الهدف"(2).

هذه بعض صفات عثمان الأول والتي كانت ثمرات طبيعية لإيمانه بالله تعالى والاستعداد لليوم الآخر ، وحبه لأهل الإيمان وبغضه لأهل الكفر والعصيان وحبه العميق للجهاد في سبيل الله والدعوة إليه ولذلك كان عثمان في فتوحاته يطلب من أمراء الروم في منطقة آسيا الصغرى أن يختاروا أحد ثلاثة أمور هي الدخول في الاسلام، أو دفع الجزية، أو الحرب، وبذلك أسلم بعضهم، وانضم إليه البعض الآخر وقبلوا دفع الجزية. أما ما عداهم فقد شن عليهم جهاداً لا هوادة فيه فاننصر عليهم، وتمكن من ضم مناطق كبيرة لدولته.

لقد كانت شخصية عثمان متزنة وخالبة بسبب إيمانه العظيم بالله تعالى واليوم الآخر ، ولذلك لم تطغ قوته على عدالته، ولا سلطانه على رحمته، ولا غناه على تواضعه، وأصبح مستحقاً لتأييد الله وعونه، ولذلك أكرمه الله تعالى بالأخذ بأسباب التمكين والغلبة وهو تفضل من الله تعالى على عبده عثمان، فجعل له مكنة وقدرة على التصرف في آسيا الصغرى من حيث التدبير والرأي وكثرة الجنود والهيبة والوقار، لقد كانت رعاية الله له عظيمة ولذلك فتح له باب التوفيق وحقق ماتطلع إليه من أهداف وغاية سامية لقد كانت أعماله عظيمة بسبب حبه للدعوة الى الله، فقد جمع بين الفتوحات العظيمة بحد السيف، وفتوحات القلوب بالإيمان والإحسان، فكان إذا ظفر بقوم دعاهم الى الحق والايمان بالله تعالى وكان حريصاً على الأعمال الإصلاحية في كافة الأقاليم والبلدان

(1) انظر: جوانب مضيئة ص33.

(2) المصدر السابق نفسه، ص33.

التي فتحها، فسعى في بسط سلطان الحق والعدالة، وكان صاحب ولاء ومحبة لأهل الإيمان،
مثلما كان معادياً لأهل الكفران.

ثانياً: الدستور الذي سار عليه العثمانيون:

كانت حياة الأمير عثمان مؤسس الدولة العثمانية، جهاداً ودعوة في سبيل الله وكان علماء الدين
يحيطون بالأمير ويشرفون على التخطيط الإداري والتنفيذ الشرعي في الإمارة ولقد حفظ لنا التاريخ
وصية عثمان لابنه أورخان وهو على فراش الموت وكانت تلك الوصية فيها دلالة حضارية
ومنهجية شرعية سارت عليها الدولة العثمانية فيما بعد يقول عثمان في وصيته: (يا بني: اياك أن
تشتغل بشيء لم يأمر به الله رب العالمين وإذا واجهتك في الحكم معضلة فاتخذ من مشورة علماء
الدين مؤثلاً.

يا بني: أحظ من أطاعك بالأعزاز. وأنعم على الجنود، ولا يغرنك الشيطان بجندك وبمالك، وإياك
أن تبتعد عن أهل الشريعة.

يا بني: إنك تعلم أن غايتنا هي أرضاء الله رب العالمين، وأن بالجهاد يعم نور ديننا كل الآفاق،
فتحدث مرضات الله جل جلاله.

يا بني : لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة حكم أو سيطرة أفراد، فنحن بالاسلام نحيا
وللاسلام نموت، وهذا يولدي ما أنت له أهل(1).

وفي كتاب (التاريخ السياسي للدولة العلية العثمانية) تجد رواية أخرى للوصية: (اعلم يا بني ، أن
نشر الاسلام ، وهداية الناس إليه، وحماية أعراض المسلمين وأموالهم، أمانة في عنقك سيسألك الله
عز وجل عنها)(2).

وفي كتاب مأساة بني عثمان نجد عبارات أخرى من وصية عثمان لابنه أورخان تقول: (يا بني ،

(1) العثمانيون في التاريخ والحضارة، د.محمد حرب، ص16.

(2) انظر: جوانب مضيئة ، ص21.

أنني أنتقل الى جوار ربي ، وأنا فخور بك بأنك ستكون عادلاً في الرعية، مجاهداً في سبيل الله،
لنشر دين الاسلام.

يابني ، أوصيك بعلماء الأمة، أدم رعايتهم، وأكثر من تبجيلهم، وانزل على مشورتهم، فانهم
لا يأمرون إلا بخير.

يابني ، اياك أن تفعل أمراً لا يرضى الله عز وجل ، وإذا صعب عليك أمر فاسأل علماء
الشريعة، فانهم سيدلونك على الخير.

واعلم يابني أن طريقنا الوحيد في هذه الدنيا هو طريق الله، وأن مقصدنا الوحيد هو نشر دين
الله، وأنا لسنا طلاب جاه ولا دنيا(1).

وفي التاريخ العثماني المصور، عبارات اخرى من وصية عثمان تقول: (وصيتي لابنائي
واصدقائي ، اديموا علو الدين الاسلامي الجليل بادامة الجهاد في سبيل الله. أمسكوا راية الاسلام
الشريفة في الاعلى باكمل جهاد. أخدموا الاسلام دائماً؛ لان الله عز وجل قد وظف عبداً ضعيفاً
مثلي لفتح البلدان. اذهبوا بكلمة التوحيد الى اقصى البلدان بجهادكم في سبيل الله ومن انحرف من
سلالتي عن الحق والعدل حرم من شفاعة الرسول الاعظم يوم المحشر.

يابني: ليس في الدنيا أحد لا يخضع رقبته للموت وقد اقترب اجلي بأمر الله جل جلاله اسلمك
هذه الدولة واستودعك المولى عز وجل. اعدل في جميع شؤونك....)(2).

لقد كانت هذه الوصية منهجاً سار عليه العثمانيون، فأهتموا بالعلم وبالمؤسسات العلمية
وبالجيش، وبالمؤسسات العسكرية ، وبالعلماء واحترامهم، وبالجهاد الذي أوصل فتوحاً الى اقصى
مكان وصلت إليه رايته جيش مسلم وبالإمارة وبالحضارة(3).

(1) انظر: جوانب مضيئة، ص3.

(2) انظر: السلاطين العثمانيون ، ص33.

(3) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص26.

ونستطيع أن نستخرج الدعائم والقواعد والأسس التي قامت الدولة العثمانية من خلال تلك الوصية:

1- (يابني اياك أن تشتغل بشيء لم يأمر به الله رب العالمين):

إنها دعوة الى الالتزام بشرع الله في كل صغيرة وكبيرة، وبحيث يكون حكم الله وأمره مهيمناً على كل شيء قال تعالى: {إن الحكم إلا لله، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون} (سورة يوسف: آية 40).

يعني: (ما الحكم الحق في الربوبية والعقائد والمعاملات إلا لله وحده يوحيه لمن اصطفاه من رسله، لا يمكن لبشر أن يحكم فيه برأيه وهواه، ولا بعقله واستدلاله ولا باجتهاده واستحسانه، فهذه القاعدة هي أساس دين الله تعالى على السنة جميع رسله لا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة) (1) لقد نزل القرآن الكريم من أجل تحقيق العبودية والحاكمية لله تعالى قال سبحانه: {إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله} (سورة النساء: آية 105) فكما أن تحقيق العبودية غاية من إنزال الكتاب فكذلك تطبيق الحاكمية غاية من إنزاله (2).

إن عثمان يوصي ابنه كحاكم من بعده لدولة إسلامية أن يتقيد بحكم الله في أعماله، لأنه يعلم أن إقامة حكم الله من خلال الحاكم المسلم عهد وميثاق ذكره الله تعالى: {واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به، إذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور} (سورة المائدة: 7). فهذا تذكير من الله تعالى لعباده المؤمنين بنعمته عليهم في الشرع الذي شرعه لهم في هذا الدين العظيم، المرسل به الرسول الكريم، وأخذ للعهد والميثاق عليهم في متابعتهم ونصرتهم وإبلاغهم والقيام به، وهذا مقتضى البيعة التي كان الصحابة يبايعون عليها رسول الله ﷺ، على السمع والطاعة في المنشط والمكروه، كما أن الإخلال بعهد الحاكمية جاهلية قال تعالى: {أفحكم

(1) تفسير المنار (309/12).

(2) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (433/1).

الجاهلية يبغون، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون { (سورة المائدة: 50). ففي الآية الكريمة إنكار وتوبيخ وتعجب من حال من يتولى عن حكم الله وهو يبغي حكم غيره والآية تعبير لليهود بأنهم مع كونهم أهل كتاب وعلم يبغون حكم الجاهلية التي هي هوى وجهل لا يصدر عن كتاب ولا يرجع إلى وحي (1).

إن تحقيق الحاكمية، تمكين للعبودية، وقيام بالغاية التي من أجلها خلق الإنسان والجان، قال تعالى: { وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون } (سورة الذاريات: 56). أي ليطيعوه وحده لا شريك له (2). وإن المفهوم الواسع الرحيب للعبادة ليشمل علائق وأعمالاً كثيرة، منها ما يمكن أن يقيمه الأفراد ومنها ما لا يمكن تحقيقه على الوجه الأكمل إلا في ظل دولة الإسلام وهذه المعاني الرفيعة كانت واضحة في ذهن المؤسس الأول للدولة العثمانية ولذلك وصى الأمير أورخان بهذه العبارة المنهجية المسددة (يابني إياك أن تشتغل بشيء لم يأمر به الله رب العالمين) وهذا التوجيه من عثمان لابنه كفرد وكرئيس لدولة وفي طياته معنى كون العبادة لها أصلان:

أحدهما: أن لا يعبد إلا الله، والثاني: أن يعبد بما أمر وشرع (3). فإنه مما لاشك فيه كانت الدولة العثمانية حريصة على حماية هذين الأصلين بمحاربة الشرك في داخلها وعملت على تقليص نفوذه خارجها وكانت حريصة على حماية الشرع ضد من يعاود الاعتداء عليه بابتداع أو تحريف أو تغيير أو تبديل، وكل ذلك من حرص أميرها والعلماء الذين من حوله على تحقيق العبودية لله على الوجه المرضي، وعلى حماية الدين من دخائل وانتحالات المضللين، وبهذا تكون دولة بني عثمان أخذت الصبغة الشرعية. (لقد كانت نشأتها إسلامية، خالصة، مشبوبة بإيمان

(1) تفسير أبي السعود (71/2).

(2) تفسير ابن كثير (239/4).

(3) مجموع الفتاوي (173/10).

عميق، متوجهة الى أهداف عقائدية(1).

2- إذا واجهتك في الحكم معضلة فاتخذ من مشورة علماء الدين مؤثلاً:

إن الله تعالى قد شرع نظام الشورى لحكم بالغة، ومقاصد عظيمة، ولما فيها من المصالح الكبيرة، والفوائد الجليلة التي تعود على الأمة والدولة والمجتمع بالخير والبركة ولذلك أمر عثمان الاول ابنه أن يجعل من العلماء مجلس شورى له في معضلات الأمور وفي هذا الارشاد امتثال لأمر الله واقتداء برسول الله.

- قال تعالى : { فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر، فإذا عزم فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين { (سورة آل عمران: آية: 159).

قال الاستاذ سيد قطب -رحمه الله- : (وبهذا النص الجازم {وشاورهم في الأمر} يقرر الإسلام هذا المبدأ في نظام الحكم - حتى ومحمد رسول الله ρ هو الذي يتولاه، وهو نص قاطع لا يدع للأمة المسلمة شكاً في أن الشورى مبدأ اساسي لايقوم نظام الاسلام على أساس سواه(2).

- وقال تعالى : {والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون} (سورة الشورى: آية: 38).

يقول الاستاذ عبدالقادر عودة -رحمه الله- (الشورى من دعائم الايمان وصفة من الصفات المميزة للمسلمين ، سوى الله بينها وبين الصلاة والإنفاق في قوله: { والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون}. فجعل للاستجابة لله نتائج بين لنا أبرزها، وأظهرها، وهي إقامة الصلاة والشورى والانفاق، وإذا كانت الشورى من الايمان فإنه لا يكمل إيمان قوم يتركون الشورى، ولا يحسن إسلامهم إذا لم يقيموا الشورى إقامة صحيحة، ومادامت الشورى

(1) المسألة الشرقية ، محمود ثابت الشاذلي ، ص 54.

(2) في ظلال القرآن الكريم (501/4).

صفة لازمة للمسلم لا يكمل إيمانه إلا بتوفرها، فهي إذن فريضة إسلامية واجبة على الحاكمين والمحكومين، فعلى الحاكم أن يستشير في كل أمور الحكم والإدارة والسياسة، والتشريع وكل ما يتعلق بمصلحة الأفراد أو المصلحة العامة، وعلى المحكومين أن يثيروا على الحاكم بما يرونه في هذه المسائل كلها، سواء استشارهم الحاكم أو لم يستشرهم (1).

والأحاديث القولية والسنة الفعلية الدالة على وجوب الشورى كثيرة ونكتفي بما ذكرنا خوفاً من الإطالة.

وفي رواية أن عثمان أمر ابنه بأن ينزل على رأي العلماء في قوله : (وأنزل على مشورتهم فإنهم لا يأمرون إلا بخير ..) (2) وكان عثمان - رحمه الله - يرى أن الشورى ملزمة للحاكم وقد ذهب إلى هذا الرأي مجموعة من العلماء المعاصرين منهم العلامة أبو الأعلى المودودي - رحمه الله - : (وخامسة قواعد الدولة الإسلامية حتمية تشاور قادة الدولة وحاكمها مع المسلمين والنزول على رضاهم ورأيهم، وامضاء نظام الحكم بالشورى. يقول تعالى: { وأمرهم شورى بينهم }، { وشاورهم في الأمر } (3) .

(إن قاعدة: { وأمرهم شورى بينهم } تتطلب بذاتها خمسة أمور: خامسها التسليم بما يجمع عليه أهل الشورى أو أكثريتهم، أما أن يستمع ولي الأمر إلى آراء جميع أهل الشورى ثم يختار هو بنفسه بحرية تامة، فإن الشورى في هذه الحالة تفقد معناها وقيمتها، فالله لم يقل: (تؤخذ آراؤهم ومشورتهم في أمرهم) وإنما قال : { وأمرهم شورى بينهم } يعني أن تسير الأمور بتشاور فيما بينهم، وتطبيق هذا القول الإلهي لا يتم بأخذ الرأي فقط، وإنما من الضروري لتنفيذه وتطبيقه أن

(1) الإسلام وأوضاعنا السياسية ، ص 193.

(2) انظر: جوانب مضيئة، ص 21.

(3) الخلافة والملك، ص 41-42.

تجري الأمور وفق ما يتقرر بالإجماع أو الأكثرية..(1). وهكذا نرى الأمير عثمان يسبق كثير من العلماء والمفكرين المعاصرين في ذهابه إلى أن الشورى ملزمة ويأمر بأنه بالنزول عند رأي العلماء ولكونهم لا يأمرون إلا بخير. لقد ساهمت الشورى في بناء الدولة العثمانية وتماسك رعاياه وعززت السلطان السياسي والجهادي والدعوي للدولة وكانت الآراء تتقلب وفقاً لحدارتها، وبمقدار انسجامها مع عقيدة الأمة ودستور الدولة، لقد كان الحكام العثمانيون يريدون لحكمهم أن يستمر ولنظام دولتهم أن يستقر ولذلك حرصوا على الإمام بحقيقة الأوضاع ببلادهم وجعلوا من الشورى خير سبيل لتحقيق هذه الغاية.

ولقد تطورت الشورى في الدولة العثمانية بل أصبح لكل إقليم حاكم يطلق عليه باشا وله مجلس الديوان يتشاورون في شؤون الحكم والرعية، ولقد شكلت مجالس وعين نواب وممثلون لكل جماعة واتيحت الفرصة للاختيار وتتطور الأمر حتى وصل في عهد السلطان محمد الفاتح إلى تشكيل مجلس استشاري لأمر الدولة.

إن أشكال الشورى وأساليب تطبيقها ووسائل تحقيقها وإجراءاتها كانت في زمن الدولة العثمانية عرضة للاجتهاد والبحث والاختيار، أما أصل الشورى في إدارة شؤون الدولة فكان بالنسبة لهم من قبيل المحكم الثابت الذي لا يجوز تجاهله أو إهماله وإن كان تاريخ الدولة العثمانية لا يخلو من ظهور بعض السلاطين المتسلطين.

3- يابني أوصيك بعلماء الأمة، أدم رعايتهم وأكثر من تبجيلهم:

كان عثمان على صلة متينة مع كبار العلماء والفقهاء وكبار الصالحين في عهده وكثيراً ما يجلس الساعات الطوال بين أيديهم ويتلقى مواعظهم ويستفيد من علمهم ويشاورهم في أمور الدولة وكان يتردد على المولى الشيخ (إده بالي) القرمانى المولد وقد زوجه ابنته بسبب رؤيا : (كان في

(1) الحكومة الإسلامية ، ص94.

أحد الأيام يبیت عنده، فرأى في المنام قمراً خرج من حضن الشيخ ودخل حضنه، وعند ذلك نبتت شجرة عظيمة سدت أغصانها الآفاق، وتحتها جبال عظيمة تنتفجر منها الأنهار، والناس ينتفعون بتلك الأشجار لأنفسهم ودوابهم وبساتينهم، فقص هذه الرؤيا على الشيخ فقال: لك البشري، بما نلت مرتبة السلطنة، وينتفع بك وبأولادك المسلمون، وإني زوجت لك ابنتي هذه ..(1).

لقد حاول بعض الكتاب أن يجعل من تلك الرؤيا اسطورة لا حقيقة لها مع أن هذه الرؤيا نكرت في كتاب مهم اسمه الشقائق النعمانية في تاريخ الدولة العثمانية، وهذا الكتاب أفاد وأجاد في ذكر علماء وفقهاء الدولة لفترات زمنية ممتدة.

إن هذه الرؤيا لاتخالف العقل ولا النقل، لأن عثمان الأول رحمه الله كان رجلاً تقياً ورعاً ومن ثمار التقوى الرؤيا الصالحة وثناء الخلق ومحبتهم : قال تعالى: { ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة ... } (يونس : 62-64).

والبشري في الدنيا ما بشر الله به المؤمنين المتقين، في غير مكان من كتابه وعن النبي p : " الرؤيا الصالحة من الله .. "(2) وعنه عليه الصلاة والسلام : " لم يبق من النبوة إلا المبشرات قالوا: وما المبشرات ؟ قال: " الرؤيا الصالحة"(3) وعن أبي ذر قال: قلت لرسول الله p : الرجل يعمل العمل لله ويحبه الناس "فقال تلك عاجل بشري المؤمن"(4).

إن عثمان الأول - رحمه الله - وضع الله له محبة في قلوب المسلمين لجهاده وتقواه وصلاحه. إن وصية عثمان لابنه بإحترام العلماء اصبحت منهجاً سار عليه حكام الدولة العثمانية وهذا

(1) الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، تأليف طاش كبر زاده، ص7 نقلاً عن تاريخ الدولة العثمانية ، د.علي حسون ، ص25.

(2) البخاري ، كتاب الرؤيا، باب رؤيا الصالحين (88/8) رقم 6986.

(3) البخاري ، كتاب الرؤيا ، باب المبشرات (89/8) رقم 6990.

(4) مسلم ، كتاب الرؤيا، باب (2034/4).

يدل على التزام العثمانيين بشرع الله تعالى، لأن الشريعة أعطت اعتباراً للعلماء وبنته على أمرين:

- أن طاعتهم طاعة لله - عزوجل ولرسوله ρ ، فالتزام أمرهم واجب.

- أن طاعتهم ليست مقصودة لذاتها بل هي تبعٌ لطاعة الله ورسوله ρ .

والأدلة على هذه المنزلة وهذا الاعتبار للعلماء في الشريعة كثيرة منها:

الدليل الأول: قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ } (

سورة النساء، الآية: 59).

وقد اختلف المفسرون في أولي الأمر منكم على أقوال فصيل: هم السلاطين وذوو القدرة.

وقيل: هم أهل العلم.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - " يعني أهل الفقه والدين، وأهل طاعة الله الذين يعلمون

الناس معاني دينهم، ويأمرونهم بالمعروف، وينهونهم عن المنكر، فأوجب الله سبحانه طاعتهم على

عباده "(1).

(والتحقق أن الأمراء إنما يطاعون إذا أمروا بمقتضى العلم، فطاعتهم تبعٌ لطاعة العلماء، فإن

الطاعة إنما تكون في المعروف وما أوجبه العلم، فكما أن طاعة العلماء تبع لطاعة الرسول،

فطاعة الأمراء تبع لطاعة العلماء، فإن الطاعة إنما تكون في المعروف وما أوجبه العلم، فكما أن

طاعة العلماء تبع لطاعة الرسول، فطاعة الأمراء تبع لطاعة العلماء ولما كان قيام الإسلام

بطائفتين، العلماء والأمراء، وكان الناس لهم تبعاً، كان صلاح العالم بصلاح هاتين الطائفتين،

وفساده بفسادهما(2).

والدليل الثاني: أن الله - سبحانه - أوجب الرجوع إليهم وسؤالهم عما أشكل: قال تعالى: { فاسألوا

أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون } (سورة الأنبياء، الآية: 7).

(1) تفسير الطبري (149/5).

(2) إعلام الموقعين (10/1) بتحقيق عبدالرووف سعد.

(وعموم هذه الآية، فيها مدح أهل العلم، وأن أعلى أنواعه، العلم بالكتاب المنزل، فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث في ضمنه تعديل لأهل العلم وتزكية لهم حيث أمر بسؤالهم، وأن بذلك يخرج الجاهل من التبعة..)(1).

إن الآيات والأحاديث التي تبين دور العلماء كثيرة ونكتفي بما ذكرنا.

لقد كان العلماء في مسير الدولة العثمانية مرجعاً للسلطين عند الفتن والملاحم والمحن وكانت لهم مقدرة عظيمة على حشد الناس تحت لواء الجهاد في سبيل الله تعالى، وإقامة شرعه على الرعية وكانوا لا يسمحون للسلطان أن يتجاوز أحكام الشرع وإلا ربما هيجوا عليه الناس وعزلوه، وكانت أحكام العلماء والفقهاء تستنبط من:

1- القرآن الكريم:

قال تعالى: { إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله } (سورة النساء: 105). فهو المصدر الأول الذي يشتمل على جميع الأحكام الشرعية التي تتعلق بشؤون الحياة البشرية، كما يتضمن مبادئ أساسية وأحكاماً قاطعة لإصلاح كل شعبة من شعب الحياة، كما بين القرآن الكريم للمسلمين كل ما يحتاجون إليه من أسس تقوم عليها دولتهم.

2- السنة المطهرة:

هي المصدر الثاني الذي يستمد منه العلماء الأحكام ومن خلالها يعرفون الصيغ التنفيذية والتطبيقية لأحكام القرآن ممثلة في قيادة الرسول ρ للأمة ومن خلال السنة يمكن التعرف على نوعية المجتمع المثالي الذي ينشده الإسلام.

3- إجماع الأمة:

وخاصة الصحابة، وفي مقدمتهم الخلفاء الراشدين قال تعالى: { ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى ونصله جهنم وساءت مصيراً } (النساء:

(1) تفسير السعدي (206/4).

4- مذهب العلماء والمجتهدين:

قال تعالى: { وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به، ولو رده إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم } (سورة النساء، آية : 83).

والآية دليل على الأخذ بالاجتهاد إذا عُدَّ النص والإجماع⁽¹⁾، ولأن العلماء في أمة محمد ρ كالأنبياء في بني إسرائيل، فهم المؤتمون على نقل العلم، والمفوضون في استنباط الأحكام المتجددة في عمومات الشريعة، لا لعصمة اختصوا بها - فليس في الإسلام كهنوت - ولكن لأهليتهم في أن يُسموا - "أهل الذكر" والله تعالى يقول: { فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون } (سورة النحل، آية: 43).

لقد كان علماء الدولة العثمانية على فهم عميق لروح الشريعة وقواعدها ولهم المقدرة على معالجة ما يستجد من قضايا في ضوء هذا الفهم، وكانت لهم القدرة على فهم ضبط المناط في الأحكام وقياس الفروع على الأصول فيها.

ولقد كان المذهب الحنفي له القدر المعلى عند علماء الدولة وإن كانوا لا يستغنون عن بقية المذاهب السنية التي كانت لها احترامها عند السلاطين العثمانيين.

لقد حرص علماء الدولة العثمانية على أن يكون نظامها السياسي على عقيدة التوحيد، وتطبيق شريعة الله، وتقوم على الشورى، وأن يقوم نظامها الاقتصادي على التعامل بالذهب والفضة، وعدم التعامل بالربا، وعدم الاستغلال والاحتكار، وعدم الاتجار بما حرم الله، وأن يقوم نظامها السلوكي والأخلاقي الإجتماعي على أساس عقيدة الإسلام، وأن يقوم نظامها التعليمي والإعلامي على قاعدة من العلوم الشرعية، وأن تقوم علاقتها الدولية على أساس عقيدة الإسلام التي وضعها الله

(1) انظر: تفسير القرطبي (292/5).

سبحانه وتعالى - حيث قال: { لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون { (آية: 8،9 سورة الممتحنة) .

لقد كان العلماء والفقهاء في الدولة العثمانية يشرفون على تطبيق شرع الله، وإقامة الحدود، وتحريم ما حرم الله، ولا تستحل إلا ما حرم الله (1).

لقد كان معظم سلاطين الدولة يحترمون العلماء ويجلونهم .

4- (اعلم يا بني ، أن نشر الإسلام وهداية الناس إليه وحماية أعراض المسلمين وأموالهم، أمانة

في عنقك سيسألك الله عزوجل عنها) (2)

لقد فهم عثمان الأول - رحمه الله - أن دين الإسلام، دين دعوة مستمرة، لا تنتوقف حتى تتوقف الحياة البشرية من على وجه الأرض وأن من أهداف الدولة الإسلامية دفع عجلة الدعوة إلى الأمام ليصل نور الإسلام إلى كل إنسان. إن الدولة العثمانية كانت ترى من مسؤولياتها القيام بوظيفة الدعوة ونشرها في أرجاء الأرض وربط السياسة الخارجية على الأسس الدعوية العقدية، قبل بنائها على الأسس المصلحية النفعية، وذلك كما كان يفعل رسول الله ﷺ، كان يقوم بتبليغ الدعوة إلى الآفاق امتثالاً لقوله تعالى: { يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين { (سورة المائدة، 67) .

وقد امتثل عليه الصلاة والسلام للأمر وأرسل إلى ملوك الأرض، فكتب إلى ملوك الروم، فقيل له : إنهم لا يقرءون كتاباً إلا إذا كان مختوماً، فاتخذ خاتماً من فضة وختم به الكتب إلى الملوك، وبعث كتباً ورسلاً إلى ملوك فارس والروم، والحبشة ومصر والبلقاء واليامة في يوم واحد، ثم بعث

(1) انظر: الدولة العثمانية ، د.جمال عبدالهادي ، ص4.

(2) انظر: جوانب مضيئة ، ص21.

إلى حكام عمان والبحرين واليمن وغيرهم(1).

ولذلك اقتدى عثمان - رحمه الله - بالنبي p في دعوته وسار أبناءه من بعده على هذا المنهج وظهرت في الدولة جماعة الدعوة وكان الحكام والسلاطين يقفون معها ويدعمونها مادياً ومعنوياً، ولقد سلك العثمانيون دولة وشعباً سبلاً متعددة من أجل إدخال النصرى في الاسلام ومن هذه الطرق:

- الاحتفال بمن يعلن اعتناقه للاسلام وإمداده بكل ما يعينه على الحياة والابتهاال به في المساجد.
- حرص العثمانيون على التمسك بالدين، والتواضع في أداء الشعائر مما جعل بعض المسيحيين يدخلون في الاسلام.
- معاملة الرقيق من المسيحيين باللين حيث كانوا يعتقدونهم إذا ثبت إخلاصهم حتى ولو ظلوا على دينهم ويتولون رعايتهم وبخاصة كبار السن منهم بعد العتق فضلاً عن حسن معاملة من يسلم منهم أو يظل على دينه مما كان دافعاً لكثير منهم على اعتناق الاسلام(2).
- أقبل كثير من العثمانيين على الزواج من مسيحيات حرمت الكنيسة دخولهن فيها مما حدا ببعضهن الى اتباع أزواجهن.
- قام من دخل في الاسلام من النصرى بدعوة أقاربهم وذويهم لما رأو من سماحة الاسلام وأنسجامه مع الفطرة، ومخاطبته للعقل، وأحياءه للقلب.
- قامت الدولة العثمانية بنقل قبائل اسلامية تابعة لها الى قرى مسيحية ونقلت أعداد من النصرى الى تجمعات اسلامية مما ساعد على انتشار الاسلام تدريجياً.
- قام السلطان مراد باتباع سياسة الأفراج عن الأسرى إذا هم اعتنقوا الاسلام وأسهم ذلك الأسلوب في زيادة عدد المسلمين.

(1) انظر: زاد المعاد (119/1-124).

(2) انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، د.زكريا بيومي، ص51، 52، 53.

- ومما ساعد على انتشار الاسلام في البلقان تعسف الإقطاعيين المحليين في فرض الضرائب الباهظة أن كبار رجال الدين من الإقطاعيين قد باعوا أسرار الكنيسة ووظائفها من جهة وسعوا في توثيق علاقاتهم بالنظام العثماني بل بعضهم دخل في الاسلام.

- توسع سلاطين العثمانيين في المنح والعطايا والتقدير لزعماء النصارى الذي أقبلوا على الاسلام وأظهر كثيرون منهم الاخلاص للدولة العثمانية(1).

لقد أهتم العثمانيون بأمر الدعوة الى الله على مستوى الخارجي وادخال الناس في دين الاسلام ولم يتركوا أمر الإصلاح الداخلي في الدولة واحياء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
لقد بين عثمان الأول -رحمه الله- أن حماية أعراض المسلمين وأموالهم أمانة في عنق الحاكم المسلم وهذه الأمور تدخل تحت عبادة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتنفيذ الحدود، والدعوة الى مكارم الأخلاق وتعليم الأمة أمر دينها، ويكون ذلك بأشراف الحاكم المسلم، فيترتب على تلك الأمور فوائد ومصالح عامة للأمة والأفراد، والحكام والمحكومين ومن أهم هذه الفوائد:
- إقامة الملة والشريعة وحفظ العقيدة والدين لتكون كلمة الله هي العليا.

قال تعالى : {ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يُذكر فيها اسم الله كثيراً} (سورة الحج: آية 40).

إن الإنسان لا بد له من أمر ونهي ودعوة ، فمن لم يأمر بالخير ويدعو إليه أمر بالشر(2).
- رفع العقوبات العامة: قال تعالى : {وما أصبكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم} (سورة الشورى: آية 30). وقال أيضاً في الجواب عن سبب مصابهم يوم أحد : {قل هو من عند أنفسكم} (سورة آل عمران: آية 165). فالكفر والمعاصي بأنواعها سبب للمصائب والمهالك قال تعالى: {فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً مما أنجيناهم...} (سورة

(1) انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين.

(2) انظر: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، خالد السبت، ص72.

هود: آية 116). وقال: {وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون} (سورة هود: آية 117).
 "وهذه اشارة تكشف عن سنة من سنن الله في الأمم، فإن الأمة التي يقع فيها الظلم والفساد فيجدان
 من ينهض لدفعهما هي أمم ناجية لا يأخذها الله بالعذاب والتدمير" (1).

- استنزال الرحمة من الله تعالى؛ لأن الطاعة والمعروف سبب للنعمة قال تعالى : {وإذ تأذن ربكم
 لئن شكرتم لأزيدنكم ..} (سورة ابراهيم: آية 7) والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نوع من
 العبودية لله.

- تحقيق وصف الخيرية في هذه الأمة:

قال تعالى: {كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله}.

- التجافي عن صفات المنافقين:

{والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون
 بالله...} (سورة التوبة: آية 7).

5- (يا بني أخط من أطاعك بالإعزاز ، وأنعم على الجنود) (2):

إن أمة الاسلام تحتاج لكي تقوم بمهمتها في هداية الناس للخير الى أن تكون صالحة في
 نفسها، مصلحة لغيرها، فهي الشهيدة على الأمم لأنها أمة الوسط.

قال سبحانه : {وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم
 شهيداً} (سورة البقرة: آية 143).

وهناك حقوق متبادلة بين الراعي والرعية، والحاكم والمحكوم، ومن وصية عثمان -رحمه الله-
 لابنه يبين له حق الرعية على الحاكم ولقد حرص العثمانيون كحكام على تنفيذ حقوق الرعية ومن
 أهم هذه الحقوق التي قاموا بها:

(1) في ظلال القرآن (1933/4).

(2) العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص 16.

العمل على الإبقاء على عقيدة الأمة صافية نقية. العمل على الأسباب المؤدية الى وحدة الأمة. العمل على حماية الأمة من أعداء الخارج. أن يعمل الولاة على حماية الأمة من المفسدين والمحاربين. إعداد الأمة إعداداً جهادياً. حفظ ما وضعت الشريعة لاجله. تحصيل الصدقات وأموال الزكاة والخراج والفيء وصرفها في مصارفها الشرعية.

تحري الأمانة في اختيار ارباب المناصب. اعطاء حقوق الرعية وما يستحقونه في بيت المال من غير سرف ولا تقتير، ودفعه في وقت لا تقديم فيه ولا تأخير . الإشراف المباشر على سير الأمور بين الرعية في كل النواحي الإدارية التي تتعلق بما يصلح أحوالهم(1).

ومن واجبات الرعية تجاه الحكام:

1- قال تعالى: {يأأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم} (سورة النساء: آية 59).

وكان المجتمع العثماني شديد السمع والطاعة لحكامه ماداموا ملتزمين بالشريعة؛ لأنهم كانوا على علم بأن طاعة الحكام مقيدة دائماً بطاعة الله ورسوله، كما قال ρ: "لا طاعة في المعصية، إنما الطاعة في المعروف"(2).

(1) انظر: الحاكم والمحكوم في خطاب الوحي (315/2 الى 323).

(2) مسلم، كتاب الإمارة، باب حكم من فرق أمر المسلمين (1480/3) رقم 1852.

2- النصره :

كان المجتمع العثماني دائماً يلتفت حول حكامه الشرعيين ويلبي دعوة الجهاد ويبذل الغالي والرخيص ويرى ذلك عبادة لله تعالى قال تعالى: {وتعاونوا على البر والتقوى} (سورة المائدة: آية 2).

وكان من مفاهيم المجتمع العثماني السائدة عندهم ؛ من نصره الحاكم ألا يهان، ومن معاضدته أن يحترم، وأن يكرم ، فقوامته على الأمة وقيادته لها لإعلاء كلمة الله، تستوجب تبجيله وإجلاله وإكرامه تبجيلاً وإجلالاً وإكراماً لشرع الله سبحانه الذي ينافح ويدافع عنه. يقول رسول الله ﷺ: "إن من إجلال الله تعالى: إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط"(1).

3- النصح:

إن المجتمع العثماني كان يناصر ولاية أمره ويرى ذلك من صميم الدين لقول رسول الله ﷺ: "الدين النصحية -ثلاثاً- قال الصحابة ك لمن يارسول الله؟ قال : لله -عز وجل- ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم"(2).

4- التقويم:

لقد استقر في مفهوم المجتمع العثماني أن بقاء الأمة على الاستقامة رهن استقامة ولائها، ولذلك نجد في التاريخ العثماني صور مشرفة في تقويم الحكام وأرشادهم ونصحهم ، فهذا المولى علاء الدين علي بن أحمد الجمالي المتوفى سنة 932هـ ، فقد كان عالماً عاملاً يمضي وقته في التلاوة والعبادة والدرس والفتوى، محافظاً على الصلوات الخمس مع الجماعة، وكان كريم النفس ،

(1) ابو داود ، كتاب الادب، باب تنزيل الناس منازلهم رقم الحديث 4822.

(2) مسلم، كتاب الإيمان ، باب بيان أن الدين النصيحة، (74/1) رقم 55.

طيب الاخلاق، عظيم المهابة ، صداعاً بالحق، عفيف اللسان لا يذكر أحد بسوء ولعلاء الدين احتساب عظيم مع السلطان سليم خان المتوفى عام 926هـ ومن ذلك: أن السلطان سليم أمر بقتل مائة وخمسين من موظفيه، فلما سمع المولى علاء الدين بالأمر ذهب الى الديوان، ولم تكن عادته الحضور الى السلطان إلا لأمر عظيم، فلم يشعر الوزراء وأهل الديوان إلا بدخول الشيخ المفتي عليهم، فوثبوا يستقبلونه حتى أقعدوه في صدر المجلس وقالوا له : أي شيء دعا المولى الى المجيء الى الديوان العالي؟ قال: أريد أن أدخل على السلطان ولي معه كلام، فأستأذنوا له على السلطان، فأذن له وحده فدخل عليه وجلس، وقال : وظيفة أرباب الفتوى أن يحافظوا على آخرة السلطان، وقد سمعت بأنك أمرت بقتل مائة وخمسين رجلاً من أرباب الديوان لايجوز قتلهم شرعاً، فغضب السلطان وكان صاحب حدة، وقال له: لا تتعرض لأمر السلطنة وليس ذلك من وظيفتك، فقال الشيخ: بل أعترض لأمر آخرتك، وإنه من وظيفتي ، ومهما عشت فإنك ميت ومعروض على الله، وواقف بين يديه للحساب، فإن عفوت فلك النجاة، وإلا فإن أمامك جهنم عليك عقاب عظيم ، ولا يعصمك ملكك ولا ينجيك سلطانك، فما كان من السلطان إلا الاذعان والتسليم أمام نداء الحق من هذا المحتسب، وخضع للحق، وعفا عنهم جميعاً ، ثم إن المحتسب لم يكتف بذلك بل طالبه أن يعيد الجميع الى وظائفهم ففعل. رحم الله المولى علاء الدين الذي كان عظيماً باحتسابه جريئاً في الحق لا يخشى فيه لومة لائم ولقد تأثر السلطان سليم بهذا العالم وأرسل إليه بعد ذلك وطلب منه أن يكون قاضي العسكر وقال له جمعت لك بين الطرفين لاني تحققت أنك تتكلم بالحق، فكتب إليه وصل اليّ كتابك سلمك الله تعالى وأبقاك وأمرتني بالقضاء وأني أمتثل أمرك إلا أن لي مع الله تعالى عهداً أن لاتصدر عني لفظة حكمت فأحبه السلطان محبة عظيمة(1).

وهكذا سار العثمانيون على المنهج الذي وضعه لهم المؤسس الأول.

(1) انظر: شذرات الذهب (185/8).

6- (ولا يغرنك الشيطان بجندك ومالك) (1):

وهذه المعاني يعيشها من فهم القرآن الكريم وتأثر به، وتأمل في سير الانبياء والمرسلين والمصلحين، لأنه يعلم أن التوفيق من الله تعالى وليس بالجند ولا بالمال وهكذا كان موقف يوسف عليه السلام قال تعالى: ﴿رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقتني بالصالحين﴾ (سورة يوسف: آية 110). وهكذا يناجي يوسف عليه السلام ربه؛ فيقول أصبحت ممكناً في الأرض تشد الي الرحال، وتتصاع لكلمتي الرجال، ورزقتني الفهم وصواب تأويل الرؤى، وتفسير الأحاديث ويرجع الفضل الى صاحب المن والفضل يقول ابن القيم: "جمعت هذه الدعوة الإقرار بالتوحيد والاستسلام للرب وإظهار الافتقار إليه، والبراءة من موالاة غيره سبحانه، وكون الوفاة على الاسلام أجل غايات العبد، وأن ذلك بيد الله لا بيد العبد، والاعتراف بالمعاد وطلب مرافقة السعداء" (2).

وهذا ذو القرنين عندما تمّ بناء سدّه العظيم وكان يملك الجنود والمال ويتحكم في الشعوب بالعدل قال: ﴿هذا رحمة من ربي﴾ (سورة الكهف: آية 97). إنها عبارة جميلة مباركة تشير الى عدة معاني:

1- قال سيد قطب: (ونظر ذو القرنين الى العمل العظيم الذي قام به؛ فلم يأخذه البطر والغرور، ولم تسكره نشوة القوة والعلم، ولكنه ذكر الله فشكره، ورد إليه العمل الصالح الذي وفقه إليه...) (3).

إن من أعظم صور الذكر أن يتذكر العبد فضل الله عليه، فيستشعر أن فضل الله عليه عظيم؛ فيتواضع ويعدل ويذكر ويشكر.

(1) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص 16.

(2) الفوائد لابن القيم، ص 21.

(3) الظلال (2293/4).

وهكذا كانت وصية عثمان لابنه يحذره فيه من الشيطان ومسالكه ومدخله ويدعوه الى الاحتراز من كيده.

7- (وَأَنْ بِالْجِهَادِ يَعْمُ نَوْرُ دِينِنَا كُلِّ الْآفَاقِ، فَتَحَدَّثَ مَرْضَاتُ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ) (1)

إن عثمان الأول -رحمه الله تعالى- كان يرى أن نشر دين الله في كل الآفاق من وسائله الجهاد في سبيل الله تعالى، وأن الغاية العليا للجهاد في سبيل الله هي إعلاء كلمة الله لتحقيق عبادته وحدة لا شريك له كما قال تعالى: ﴿لَوْ مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ & مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا & إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (سورة الذاريات: آية 56، 58). ومفهوم العبادة شامل لنشاط الاسلام كله ويفسر ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنَسْكَيْ وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ & وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (سورة الأنعام: آية 1).

ومن أجل هذه الغاية انطلق عثمان الأول بجنوده وشعبه مجاهداً في سبيل الله ولسان حاله يقول ابتعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله ومن ضيق الدنيا الى سعتها ومن جور الأديان الى عدل الاسلام، لقد كانت وسيلة العثمانيين من أجل إقامة حكم الله ونظام الاسلام في الأرض الجهاد في سبيل الله.

وعندما حاولت دول النصارى أن تعمل على منع توسع الدولة العثمانية وباشروا في شن هجومهم عليها كانت وسيلة الجهاد كالصخرة العظيمة التي تتحطم عليه محاولتهم المتكررة وامام قادة العثمانيين قول الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ واقتلوهم حيث ثقتموهم، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم، والفتنة أشد من القتل﴾ (سورة البقرة: آية 190-192).

(1) العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 16.

ولقد عمل العثمانيون بهذه النصيحة والوصية، فعملوا على إزالة كل العوائق التي تمنع الناس من سماع دعوة الله تعالى التي جاءت لتعطي الناس أكمل تصور للوجود والحياة وبأرقى نظام لتطورها.

ولقد جاهدت الدولة العثمانية في سبيل الله تعالى وفتح الله على يديها دول وشعوب لازال الإسلام باقياً فيها حتى الآن مثل دول البلقان وعملت على حماية شعوب المسلمين من هجمات النصارى الغاشمة ، فكانت سبباً في بقاء الشمال الأفريقي على اسلامه ودينه وعقيدته ، وكانت عاملاً مهماً في حماية الأراضي المقدسة من البرتغاليين ومن دخل تحت لوائهم من النصارى الى غير ذلك من الأعمال الجليلة التي سنفصلها في بحثنا هذا بإذن الله تعالى.

8- (من انحرف عن سلاتي عن الحق والعدل حرم من شفاعة الرسول p الأعظم يوم

المحشر) (1):

إن عثمان -رحمه الله تعالى - يتبرأ من ممن ينحرف عن الحق والعدل من ذريته ويدعوا من جاء بعده بالتمسك بالحق وإقامة العدل.

إن العدل هو الدعامة الرئيسية في اقامة المجتمع الاسلامي والحكم الرباني؛ فلا وجود للإسلام في مجتمع يسوده الظلم ولا يعرف العدل ولذلك اهتم الاسلام بتقرير هذه القاعدة وتأسيسها وتدعيمها؛ فأكثر الحديث عنها في الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية ومن هذه النصوص:

- قال تعالى : {إن الله يأمر بالعدل والإحسان} (سورة النحل: آية9) وأمر الله بفعل كما هو معلوم يقتضي وجوبه.

- قال تعالى : {إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا

(1) السلاطين العثمانيون ، ص33.

• وقال تعالى : {يأيتها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ان يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا وان تلووا او تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً} (سورة النساء: آية 135).

ثم إن ترك العدل يعد ظلماً، والله سبحانه وتعالى حرم الظلم وذم أهله وتوعدهم بالعذاب الشديد يوم القيامة والهلاك في الدنيا(1). قال تعالى : {ولاتحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون} (سورة ابراهيم: آية 42).

ومن خلال هذه التوجيهات الربانية حرص عثمان على إقامة العدل بين الناس وعمل أن يكون هذا المبدأ واقعاً تعيشه الأمة العثمانية من بعده حيث وكان يتحرك بجيوشه ويوظف كل إمكاناته من أجل نشر التوحيد وتعريف الناس بخالقهم، ولقد جمع بين الفتوحات العظيمة بحد السيف وفتوحات القلوب بالإيمان والإحسان وكان دستوره في التعامل مع الناس قول الله تعالى: { أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد الى ربه فيعذبه عذاباً نكراً } وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى ، وسنقول له من أمرنا يسراً...} (سورة الكهف: آية 87، 88).

ولذلك حرص في وصيته على أن يحكم من بعده بالحق والعدل وفي رواية يقول لابنه في الوصية: (اعدل في جميع شؤونك...)(2).

9- (يابني لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة حكم أو سيطرة أفراد، فنحن بالاسلام

نحيا وبالاسلام نموت) (3)

إن هذه الفقرة من الوصية تبين طبيعة تكوين الدولة العثمانية عن غيرها من الدول، فالغاية التي

(1) انظر: النظام السياسي في الاسلام، د.محمد ابوفارس، ص49.

(2) انظر: السلاطين العثمانيون ، ص33.

(3) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص16.

قامت من أجلها إنما هي الدفاع عن الاسلام ورفع رايته في مشارق آسيا الصغرى والقضاء على الدولة البيزنطية التي كانت تهدد المسلمين في ديارهم ومن ثم أطلق على زعيم هذه الدولة الناشئة لقب الغازي، أي المجاهد في سبيل الله، وكان يتلقى هذا اللقب في حفل مشهود بتسليم يه راية الجهاد من عالم كبير (1) وأن الغازي عثمان -رحمه الله- دعا المسلمين من الترك وغيرهم لينضموا تحت راية الجهاد في سبيل الله فاستجاب له الكثير من المؤمنين الصابرين تحذوهم جميعاً رغبة شديدة في الانتصار لدين الله بالقضاء على الدولة البيزنطية(2).

هذه الوصية الخالدة هي التي سار عليها الحكام العثمانيون في زمن قوتهم ومجدهم وعزتهم وتمكينهم.

ترك عثمان الأول الدولة العثمانية وكانت مساحتها تبلغ 16.000 كيلومتر مربع واستطاع أن يجد لدولته الناشئة منفذ على بحر مرمرة واستطاع بجيشه أن يهدد أهم مدينتين بيزنطيتين في ذلك الزمان وهي : ازنيق وبورصة(3).

(1) انظر: المسألة الشرقية ، ص39.

(2) انظر: تركيا والسياسة العربية، ص13.

(3) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص15.

المبحث الثاني

السلطان اورخان بن عثمان

726-761هـ/1327-1360م

بعد وفاة عثمان تولى الحكم ابنه أورخان، وسار على نفس سياسة والده في الحكم والفتوحات، وفي عام 727هـ الموافق 1327هـ سقطت في يده نيقوميديا، وتقع في شمال غرب آسيا الصغرى قرب مدينة اسطنبول وهي مدينة أزميت الحالية، فأنشأ بها أول جامعة عثمانية، وعهد بإدارتها إلى داود القيصري، أحد العلماء العثمانيين الذين درسوا في مصر (1) واهتم ببناء الجيش على أسس عصرية وجعله جيشاً نظامياً (2).

وحرص السلطان أورخان على تحقيق بشارة رسول الله ρ في فتح القسطنطينية ووضع خطة استراتيجية تستهدف إلى محاصرة العاصمة البيزنطية من الغرب والشرق في آن واحد، ولتحقيق ذلك أرسل ابنه وولي عهده "سليمان" لعبور مضيق "الدردنيل" والاستيلاء على بعض المواقع في الناحية الغربية.

(1) انظر: قيام الدولة العثمانية، ص 29.

(2) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص 17.

وفي عام (758هـ) اجتاز سليمان مضيق " الدردنيل " ليلاً مع أربعين رجلاً من فرسان الإسلام ولما أدركوا الضفة الغربية، استولوا على الزوارق الرومية الراسية هناك، وعادوا بها إلى الضفة الشرقية، إذ لم يكن للعثمانيين أسطول حينذاك حيث لاتزال دولتهم في بداية تأسيسها، وفي الضفة الشرقية أمر " سليمان " جنوده، أن يركبوا في الزوارق حيث تنقلهم إلى الشاطئ الأوربي حيث فتحوا ميناء قلعة " ترنب "، " وغاليبولي " التي فيها قلعة " جنا قلعة " و "أبسالا " " وروdstو " وكلها تقع على مضيق " الدردنيل " من الجنوب إلى الشمال، وبهذا خطا هذا السلطان خطوة كبيرة استفاد بها من جاء بعده في فتح " القسطنطينية " (1).

أولاً : تأسيس الجيش الجديد ديني تتارى :

إن من أهم الأعمال التي ترتبط بحياة السلطان أورخان، تأسيسه للجيش الإسلامي وحرص على إدخال نظاماً خاصاً للجيش، فقسمه إلى وحدات تتكون كل وحدة من عشرة أشخاص، أو مائة شخص، أو ألف شخص، وخصص خمس الغنائم للانفاق منها على الجيش، وجعله جيشاً دائماً بعد أن كان لايجتمع إلا وقت الحرب، وأنشأ له مراكز خاصة يتم تدريبه فيها (2).

كما أنه أضاف جيشاً آخر عرف بالانكشارية (3)، شكله من المسلمين الجدد الذين ازداد عددهم بعد اتساع رقعة الدولة وانتصاراتها الكبيرة في حروبها مع أعدائها من غير المسلمين، ودخول أعداد كبيرة من أبناء تلك البلاد المفتوحة في الإسلام، ثم انضمامهم إلى صفوف المجاهدين في سبيل نشر الإسلام، فبعد أن يعتنقوا الإسلام ويتم تربيتهم تربية إسلامية فكرياً وحربياً يعينون في مراكز الجيش المختلفة، وقد قام العلماء والفقهاء مع سلطانهم أورخان بغرس حب الجهاد والذود عن الدين والشوق إلى نصرته أو الشهادة في سبيله وأصبح شعارهم (غازياً أو شهيداً) عندما

(1) انظر: الى الدولة العثمانية ، الدكتور جمال عبدالهادي ، ص22.

(2) انظر: قيام الدولة العثمانية ، ص32.

(3) المصدر السابق نفسه، ص302

يذهبون إلى ساحة الوغى (1).

ولقد زعم معظم المؤرخين الأجانب أن جيش الانكشارية تكون من انتزاع أطفال النصارى من بين أهاليهم ويجبرونهم على اعتناق الإسلام، بموجب نظام أو قانون زعموا أنه كان يدعى بنظام (الدفشيرية)، وزعموا أن هذا النظام كان يستند إلى ضريبة إسلامية شرعية أطلقوا عليها اسم "ضريبة الغلمان" وأسموها أحياناً "ضريبة الأبناء"، وهي ضريبة زعموا أنها تبيح للمسلمين العثمانيين أن ينتزعوا خمس عدد أطفال كل مدينة أو قرية نصرانية، باعتبارهم خمس الغنائم التي هي حصة بيت مال المسلمين ومن هؤلاء المؤرخين الأجانب الذين افتروا على الحقيقة، كارل بروكلمان، وجيبونز، وجب (2)، إن الحقيقة تقول أن نظام الدثرمة المزعوم ليس سوى كذبة دُست على تاريخ أورخان بن عثمان ومراد بن أورخان وانسحبت من بعده على العثمانيين قاطبة، فلم يكن نظام الدثرمة هذا إلا اهتماماً من الدولة العثمانية بالمشردين من الأطفال النصارى الذين تركتهم الحروب المستمرة أيتاماً أو مشردين، فالإسلام الذي تدين الدولة العثمانية به يرفض رفضاً قاطعاً ما يسمى بضريبة الغلمان التي نسبها المغرضون من المؤرخين الأجانب إليها.

لقد كانت أعداد هائلة من الأطفال فقدوا آبائهم وأمهاتهم بسبب الحروب والمعارك، فاندفع المسلمون العثمانيون إلى احتضان أولئك الأطفال الذين هاموا في طرقات المدن المفتوحة بعد فقدانهم لأبائهم وأمهاتهم وحرصوا على تأمين مستقبل كريم لهم وهل من مستقبل كريم وأمين إلا في الإسلام، أفاءن يحرص المسلمون على أن يعتنق الأطفال المشردون التائبون الإسلام، انبرى المفترون يزعمون أن المسلمين كانوا ينتزعونهم من أحضان آبائهم وأمهاتهم؟؟ ويكرهونهم على الإسلام.

ومن المؤسف أن هذه الفرية الحاقدة، وهذا الإفك المبين، وهذا البهتان العظيم التقفه بعض

(1) انظر: قيام الدولة العثمانية، ص302.

(2) انظر: جوانب مضيئة، ص122.

المؤرخين المسلمين يدرسونه في مدارسهم وجامعاتهم وكأنه أمر مسلم به وي طرح على الطلاب كأنه حقيقة من الحقائق ولقد تأثر بكتب المؤرخين الأجانب مجموعة من المؤرخين المسلمين ومن هؤلاء من يشهد له بالغيرة على الإسلام، فأصبحوا يرددون هذا البهتان في كتبهم من أمثال، المؤرخ محمد فريد بك المحامي في كتابه الدولة العلية العثمانية، والدكتور علي حسون في كتابه، تاريخ الدولة العثمانية، والمؤرخ محمد كرد في كتابه خطط الشام، والدكتور عمر عبدالعزيز في كتابه " محاضرات في تاريخ الشعوب الإسلامية " والدكتور عبدالكريم غرايبه في كتاب العرب والأترك. الحقيقة تقول كل من ذكر ضريبة الغلمان أو أخذهم بالقوة من ذويهم تحت قانون أخذ خمس أطفال المدن والقرى ليس له دليل إلا كتب المستشرقين، كجب، المؤرخ النصراني سوموفيل، أو بركلمان وهؤلاء لا يطمئن إليهم في كتابة التاريخ الإسلامي ولا إلى نواياهم تجاه الإسلام وتاريخ الإسلام.

إن الذين يربون تربية خاصة على الجهاد لم يكونوا نصارى وإنما كانوا أبناء آباء مسلمين انخلعوا عن النصرانية، واهتدوا إلى الإسلام، وشرعوا من أنفسهم وعن طواعية لا عن إكراه، يقدمون أبناءهم للسلطان ليستكمل تربيتهم تربية إسلامية، أما باقي الأطفال فقد كانوا من الأيتام والمشردين الذين أفرزتهم الحروب فاحتضنتهم الدولة العثمانية.

إن حقيقة الجيش الجديد الذي أنشأه أورخان بن عثمان هي تشكيل جيش نظامي يكون دائم الاستعداد والتواجد قريباً منه في حالة الحرب أو السلم على حد سواء، فشكل من فرسان عشيرته ومن مجاهدي النفير الذين كانوا يسارعون لاجابة داعي الجهاد ومن أمراء الروم وعساكرهم الذين دخل الإسلام في قلوبهم، وحسن إسلامهم وما كاد أورخان ينتهي من تنظيم هذا الجيش حتى سارع إلى حيث يقيم العالم المؤمن النقي الحاج بكتاش وطلب منه أن يدعو لهم خيراً، فتلقاهم العالم المؤمن خير لقاء ووضع يده على رأس أحد الجنود، ودعا لهم الله أن يبيض وجوههم، ويجعل سُيوفهم حادة قاطعة، وأن ينصرهم في كل معركة يخوضونها في سبيل الله ثم مال تجاه أورخان

فسأله، هل اتخذت لهذا الجيش اسماً..؟ قال: لا، قال: فليكن اسمه "يني جري" وتلفظ "يني تشري" أي الجيش الجديد.

وكانت راية الجيش الجديد من قماش أحمر وسطها هلال، وتحت الهلال صورة لسيف أطلقوا عليه اسم "ذي الفقار" تيمناً بسيف الإمام علي رضي الله عنه (1).
لقد كان علاء الدين بن عثمان أخو أورخان صاحب الفكرة وكان عالماً في الشريعة ومشهور بالزهد والتصوف الصحيح (2).

وعمل أورخان على زيادة عدد جيشه الجديد بعد أن ازدادت تبعات الجهاد ومناجزة البيزنطيين، فاختر عدداً من شباب الأتراك، وعدداً من شباب البيزنطيين الذين أسلموا وحسن إسلامهم، فضمهم إلى الجيش واهتم اهتماماً كبيراً بتربيتهم تربية إسلامية جهادية.
ولم يلبث الجيش الجديد حتى تزايد عدده، وأصبح يضم آلافاً من المجاهدين في سبيل الله.
لقد كان أورخان وعلاء الدين متفقين على أن الهدف الرئيسي لتشكيل الجيش الجديد، هو مواصلة الجهاد ضد البيزنطيين وفتح المزيد من أراضيهم بهدف نشر الإسلام فيها، والاستفادة من البيزنطيين الذين أسلموا في نشر الإسلام بعد أن يكونوا تلقوا تربية إسلامية جهادية وترسخت في قلوبهم مبادئ الإسلام سلوكاً وجهاداً.

وخالصة القول، أن السلطان أورخان، لم ينتزع غلاماً نصرانياً واحداً من بيت أبيه، ولم يكره غلاماً نصرانياً واحداً على اعتناق الإسلام، وأن كل ما زعمه بروكلمان وجيب وجيبونز، كذب واختلاق، ينبغي أن تزال آثاره من كتب تاريخنا الإسلامي (3) إن من مقتضيات الأمانة العلمية، والأخوة الإسلامية، تضع في عنق كل مسلم غيور، وخاصة العلماء والمتقنين والمفكرين،

(1) انظر: جوانب مضيئة، ص 147.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 144.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 155.

والمؤرخين والمدرسين، والباحثين، والإعلاميين، وأمانة نسف هذه القرية ودحض هذه الشبهة التي أصقت بالعثمانيين وأصبحت كأنها حقيقة لاتقبل النقاش والمراجعة والحوار.

ثانياً: سياسة أورخان الداخلية والخارجية:

كانت غزوات أورخان منصبة على الروم ولكن حدث في سنة (736هـ-1336م) أن توفي أمير قره سي - وهي إحدى الإمارات التي قامت على أنقاض دولة سلاجقة الروم واختلف ولده من بعده وتنازعا الإمارة . واستفاد أورخان من هذه الفرصة فتدخل في النزاع وانتهى بالإستيلاء على الإمارة وقد كان مما تهدف إليه الدولة العثمانية الناشئة أن تترث دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى وترث ماكانت تملكه واستمر الصراع لذلك بينها وبين الإمارات الأخرى حتى أيام الفاتح حيث تم إخضاع آسيا الصغرى برمتها لسلطانه.

واهتم أورخان بتوطيد أركان دولته وإلى الأعمال الإصلاحية والعمرائية ونظم شؤون الإدارة وقوى الجيش وبنى المساجد وانشأ المعاهد العلمية⁽¹⁾ وأشرف عليها خيرة العلماء والمعلمون وكانوا يحظون بقدر كبير من الاحترام في الدولة، وكانت كل قرية بها مدارسها وكل مدينة بها كليتها التي تعلم النحو والتراكيب اللغوية والمنطق والميتافزيقا وفقه اللغة وعلم الإبداع اللغوي والبلاغة والهندسة والفلك⁽²⁾ وبالطبع تحفيظ القرآن وتدریس علومه والسنة والفقہ والعقائد.

وهكذا أمضى أورخان بعد استيلائه على إمارة قره سي عشرين سنة دون أن يقوم بأي حروب، بل قضاها في صقل النظم المدنية والعسكرية التي أوجدتها الدولة، وفي تعزيز الأمن الداخلي، وبناء المساجد ورصد الأوقاف عليها وإقامة المنشآت العامة الشاسعة، مما يشهد بعظمة أورخان وتقواه، وحكمته وبعد نظره، فإنه لم يشن الحرب تلو الحرب طمعاً في التوسع وإنما حرص على تعزيز سلطانه في الأراضي التي يتاح له ضمها. وحرص على طبع كل أرض جديدة بطابع الدولة

(1) انظر: محمد الفاتح ، الدكتور سالم الرشيدى ، ص25.

(2) انظر: في أصول التاريخ العثماني ، محمد عبدالرحيم، ص40.

المدني والعسكري والتربوي والثقافي وبذلك تصبح جزءاً لا يتجزأ من أملاكهم، بحيث أصبحت أملاك الدولة في آسيا الصغرى متماثلة ومستقرة.

وهذا يدل على فهم واستيعاب أورخان لسنة التدرج في بناء الدول وإقامة الحضارة، وإحياء الشعوب.

وما أن تمّ أورخان البناء الداخلي حتتحدث صراع على الحكم داخل الدولة البيزنطية وطلب الأمبراطور (كونتاكوزينوس) مساعده السلطان أورخان ضد خصمه، فأرسل قوات من العثمانيين لتوطيد النفوذ العثماني في أوربا. وفي عام 1358 أصاب زلزال مدن تراقيا فانهارت أسوار غاليبولي وهجرها أهلها مما سهل على العثمانيين دخولها. وقد احتج الإمبراطور البيزنطي على ذلك دون جدوى - وكان رد أورخان أن العناية الإلهية قد فتحت أبواب المدينة أمام قواته. ومالبتت غاليبولي أن أصبحت أول قاعدة عثمانية في أوربا، ومنها انطلقت الحملات الأولى التي توجت في النهاية بالإستيلاء على كل شبه جزيرة البلقان.. وحين انفرد حنا الخامس باليولوجس بحكم بيزنطة أقر كل فتوح أورخان في أوروبا في مقابل تعهد السلطان بتسهيل وصول الطعام والمؤن إلى القسطنطينية. وأرسل أورخان أعداداً كبيرة من القبائل المسلمة بغية الدعوة إلى الإسلام ومنع تمكن النصارى من طرد العثمانيين من أوربا(1).

ثالثاً: العوامل التي ساعدت السلطان أورخان في تحقيق أهدافه :

1- المرحلية التي سار عليها أورخان واستفادته من جهود والده عثمان ووجود الإمكانيات المادية والمعنوية التي ساعدتهم على فتح الأراضي البيزنطية في الأناضول وتدعيم سلطتهم فيها ولقد تميزت جهود أورخان بالخطى الوئيدة والحاسمة في توسيع دولته ومد حدودها، ولم ينتبه العالم المسيحي إلى خطورة الدولة العثمانية إلا بعد أن عبروا البحر واستولوا على غاليبولي(2).

(1) انظر: اصول التاريخ العثماني ، ص47.

(2) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، ص22.

- 2- كان العثمانيون - يتميزون - في المواجهة الحربية التي تمت بينهم وبين الشعوب البلقانية - بوحدة الصف ووحدة الهدف ووحدة المذهب الديني وهو المذهب السني.
- 3- وصول الدولة البيزنطية إلى حالة من الإعياء الشديد وكان المجتمع البيزنطي قد أصابه تفكك سياسي وانحلال ديني واجتماعي، فسهل على العثمانيين ضم أقاليم هذه الدولة.
- 4- ضعف الجبهة المسيحية نتيجة لعدم الثقة بين السلطات الحاكمة في الدولة البيزنطية وبلغاريا وبلاد الصرب والمجر، ولذلك تعذر في معظم الأحيان تنسيق الخطط السياسية والعسكرية للوقوف في جبهة واحدة ضد العثمانيين (1).
- 5- الخلاف الديني بين روما والقسطنطينية أي بين الكاثوليك والأرثوذكسية الذي استحكمت حلقاته وترك آثاراً عميقة الجذور في نفوس الفريقين.
- 6- ظهور النظام العسكري الجديد على أسس عقديّة، ومنهجية تربوية وأهداف ربانية وأشرف عليه خيرة قادة العثمانيين.

(1) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث ، ص23.

المبحث الثالث

السلطان مراد الأول

761-791هـ/1360-1389م

كان مراد الأول شجاعاً مجاهداً كريماً متديناً، وكان محباً للنظام متمسكاً به، عادلاً مع رعاياه وجنوده، شغوفاً بالغزوات وبناء المساجد والمدارس والملاجئ وكان بجانبه مجموعة من خيرة القادة والخبراء والعسكريين، شكل منهم مجلساً لشورته، وتوسع في آسيا الصغرى وأوروبا في وقت واحد. ففي أوروبا هاجم الجيش العثماني أملاك الدولة البيزنطية ثم استولى على مدينة أدرنه في عام (762هـ / 1360م) وكانت لتلك المدينة أهمية استراتيجية في البلقان، وكانت ثاني مدينة في الإمبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية. واتخذ مراد من هذه المدينة عاصمة للدولة العثمانية منذ عام (768هـ / 1366م)، وبذلك انتقلت العاصمة إلى أوروبا، وأصبحت أدرنه عاصمة إسلامية، وكان هدف مراد من هذه النقلة:

- 1- استغلال مناعة استحكامات أدرنة الحربية وقربها من مسرح العمليات الجهادية.
 - 2- رغبة مراد في ضم الأقاليم الأوربية التي وصلوا إليها في جهادهم وثبتوا أقدامهم فيها.
 - 3- جمع مراد في هذه العاصمة كل مقومات النهوض بالدولة وأصول الحكم، فتكونت فيها فئات الموظفين وفرق الجيش وطوائف رجال القانون وعلماء الدين، وأقيمت دور المحاكم وشيدت المدارس المدنية والمعاهد العسكرية لتدريب الانكشارية.
- واستمرت أدرنة على هذا الوضع السياسي والعسكري والإداري والثقافي والديني حتى فتح

العثمانيون القسطنطينية في عام (857هـ - 1453م)، فأصبحت عاصمة لدولتهم (1).

أولاً: تحالف صليبي ضد مراد :

مضى السلطان مراد في حركة الجهاد والدعوة وفتح الأقاليم في أوروبا، وانطلق جيشه يفتح مقدونيا، وكانت لانتصاراته أصداء بعيدة، فتكون تحالف أوربي بلقاني صليبي باركه البابا أوربا الخامس، وضم الصربيين والبلغاريين والمجريين، وسكان إقليم والاشيا. وقد استطاعت الدول الأعضاء في التحالف الصليبي أن تحشد جيشاً بلغ عدده ستين ألف جندي تصدى لهم القائد العثماني " لالاشاهين " بقوة تقل عدداً عن القوات المتحالفة، وقابلهم على مقربة من "تشيرمن" على نهر مارتيزا، حيث وقعت معركة مروعة وانهزم الجيش المتحالف، وهرب الأميران الصربيان، ولكنهما غرقا في نهر مارتيزا ، ونجا ملك المجر بأعجوبة من الموت أما السلطان مراد فكان في هذه الأثناء مشغلاً بالقتال في بلاد آسيا الصغرى حيث فتح عدة مدن ثم عاد الى مقر سلطنته لتنظيم ما فتحه من الأقاليم والبلدان كما هو شأن القائد الحكيم (2).

وكان من نتائج انتصار العثمانيين على نهر مارتيزا أمور مهمة منها:

- 1- تم لهم فتح إقليم تراقيا ومقدونيا ووصلوا الى جنوبي بلغاريا والى شرقي صربيا.
- 2- اصبحت مدن وأملاك الدولة البيزنطية وبلغاريا وصربيا تتساقط في أيديهم كأوراق الخريف (3).

أول معاهدة بين الدولة العثمانية والمسيحية:

لما اشتد ساعد الدولة العثمانية خاف مجاوروها، خصوصاً الضعفاء منهم، فبادرت جمهورية

(1) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، د.اسماعيل باغي، ص38.

(2) انظر: تاريخ الدولة العثمانية العلية، ص131.

(3) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث ، ص37.

(راجوزه)⁽¹⁾ وارسلت الى السلطان مراد رسلاً ليعقدوا مع السلطان مراد معاهدة ودية وتجارية تعاهدوا فيها بدفع جزية سنوية قدرها 500 دوكا ذهب وهذه أول معاهدة عقدت بين الدولة العثمانية والدول المسيحية⁽²⁾.

معركة قوصره:

كان السلطان مراد قد توغل في بلاد البلقان بنفسه وعن طريق قواده مما آثر الصرب، فحاولوا في أكثر من مرة استغلال غياب السلطان عن أوروبا في الهجوم على الجيوش العثمانية في البلقان وماجاورها ولكنهم فشلوا في تحقيق انتصارات تذكر على العثمانيين ، فتحالف الصرب والبوسنيون والبلغار وأعدوا جيشاً أوروبياً صليبياً كثيفاً لحرب السلطان الذي كان قد وصل بجيوشه بعد إعدادها إعداداً قوياً الى منطقة كوسفو في البلقان ومن الموافقات التي تذكر أن وزير السلطان مراد الذي كان يحمل معه مصحفاً فتحه على غير قصد فوق نظره على هذه الآية: {يا أيها النبي حرض المؤمنین على القتال إن یکن منکم عشرون صابرون یغلبوا مائتین وإن یکن منکم مائة یغلبوا ألفاً من الذین کفروا بأنهم قوم لا یفقهون} (سورة الانفال: الآية 65) فاستبشر بالنصر واستبشر معه المسلمون ولم یلبث أن نشب القتال بین الجمعین وحمي وطیسه واشتدت المعركة وانجلت الحرب عن انتصار المسلمین انتصاراً باهراً حاسماً⁽³⁾.

ثانياً : استشهاد السلطان مراد :

بعد الانتصار في قُوصووه، قام السلطان مراد يتفقد ساحة المعركة ويدور بنفسه بين صفوف القتلى من المسلمين ويدعوا لهم، كما كان يتفقد الجرحى، وفي أثناء ذلك قام جندي من الصرب كان قد تظاهر بالموت وأسرع نحو السلطان فتمكن الحراس من القبض عليه، ولكنه تظاهر بأنه

(1) تطل على البحر الأدرياتيكي.

(2) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية ، د.محمد فريد، ص132.

(3) انظر: محمد الفاتح ، د.سالم الرشیدی ، ص30، الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص389.

جاء يريد محادثة السلطان ويريد أن يعلن إسلامه على يديه، وعند ذلك أشار السلطان للحرس بأن يطلقوه فتظاهر بأنه يريد تقبيل يد السلطان وقام في حركة سريعة بإخراج خنجر مسموم طعن به السلطان فاستشهد رحمه الله في 15 شعبان 791هـ (1).

أ- الكلمات الأخيرة للسلطان مراد:

" لايسعني حين رحيلي إلا أن أشكر الله إنه علام الغيوب المتقبل دعاء الفقير، أشهد إن لا إله إلا الله ، وليس يستحق الشكر والثناء إلا هو، لقد أوشكت حياتي على النهاية ورأيت نصر جند الإسلام. أطيعوا ابني يزيد، ولا تعذبوا الأسرى ولا تؤذونهم ولا تسلبوهم وأودعكم منذ هذه اللحظة وأودع جيشنا الظافر العظيم الى رحمة الله فهو الذي يحفظ دولتنا من كل سوء" (2) لقد استشهد هذا السلطان العظيم بعد أن بلغ من العمر 65 عاماً.

ب- دعاء السلطان مراد قبل إندلاع معركة قوصوه:

كان السلطان مراد يعلم أنه يقاتل في سبيل الله وأن النصر من عنده ولذلك كان كثير الدعاء والإلحاح على الله والتضرع إليه والتوكل عليه ومن دعائه الخاشع نستدل على معرفة السلطان مراد لربه وتحقيقه لمعاني العبودية ، يقول السلطان مراد في مناجاته لربه : "يا الله يارحيم يارب السموات يامن تتقبل الدعاء لا تخزني يارحمن يارحيم استجب دعاء عبدك الفقير هذه المرة رسل السماء علينا مدراراً وبدد سحب الظلام فنرى عدونا وما نحن سوى عبيدك المذنبين إنك الوهاب ونحن فقراؤك. ما أنا سوى عبدك الفقير المتضرع، وأنت العليم ياعلام الغيوب والأسرار وما تخفي الصدور ليس لي من غاية لنفسي ولا مصلحة ولا يحملني طلب المغنم فأنا لا أطمع إلا في رضاك ياالله ياعليم ياموجود في كل الوجود (3) أفديك روعي فتقبل رجائي ولا تجعل المسلمين يبؤ بهم

(1) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان للقرماني ، ص16.

(2) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص391.

(3) أي موجود بعلمه في كل الوجود.

الخذلان أمام العدو. يا الله يا أرحم الراحمين لاتجعلني سبباً في موتهم، بل أجعلهم المنتصرين، إن روحي أبذلها فداءً لك يارب إني وددت ولازلت دوماً إبغي الاستشهاد من أجل جند الاسلام، فلا ترني يا إلهي محنتهم واسمح لي يا إلهي هذه المرة أن أستشهد في سبيلك ومن أجل مرضاتك...". (1)

وفي رواية : (يا إلهي ، أنني أقسم بعزتك وجلالك أنني لا أبتغي من جهادي هذه الدنيا الفانية، ولكنني أبتغي رضاك، ولا شيء غير رضاك يا إلهي، أنني أقسم بعزتك وجلالك أنني في سبيلك، فزدي تشريفاً بالموت في سبيلك" (2).

وفي رواية : "يا إلهي ، ومولاي ، تقبل دعائي وتضرعي ، وأنزل علينا برحمتك غيثاً يطفئ من حولنا غبار العواصف، وأغمرنا بضياء يبدد من حولنا الظلمات، حتى نتمكن من ابصار مواقع عدونا فنقاتله في سبيل اعزاز دينك العزيز.

إلهي ومولاي، ان الملك والقوة لك، تمنحها لمن تشاء من عبادك، وأنا عبدك العاجز الفقير، تعلم سري ، وجهري، أقسم بعزتك وجلالك انني لا أبتغي من جهادي حطام هذه الدنيا الفانية ، ولكنني أبتغي رضاك ولا شيء غير رضاك.

إلهي، ومولاي، أسألك بجاه وجهك الكريم، أن تجعلني فداء للمسلمين جميعاً، ولا تجعلني سبباً في هلاك أحد من المسلمين في سبيل غير سبيلك القويم.

إلهي، ومولاي ، ان كان في استشهادي نجاة لجند المسلمين فلا تحرمني الشهادة في سبيلك ، لأنعم بجوارك ونعم الجوار جوارك.

إلهي، ومولاي، لقد شرفنتي بأن هديتني الى طريق الجهاد في سبيلك ، فزدي شرفاً بالموت في

(1) انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور ، ص 390.

(2) انظر: جوانب مضيئة ، ص 190.

سبيلك" (1).

إن هذا الدعاء الخاشع دليل على معرفة السلطان مراد لله عز وجل ، وعلى أنه حقق شروط كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) ولقد اجتمعت شروطها في سلوكه وحياته فهو على :
- علم بمعناها المراد بها نفيًا وإثباتًا المنافي للجهل بذلك قال تعالى: {فاعلم أنه لا إله إلا الله} (سورة محمد : آية 19).

وقال تعالى: {إلا من شهد بالحق وهم يعلمون} (سورة الزخرف: آية 86). أي ب " لا إله إلا الله" وهم يعلمون "بقلوبهم مانطقوا به بألسنتهم .
- اليقين المنافي للشك، فقد كان السلطان مراد مستقيماً بمدلول هذه الكلمة، يقيناً جازماً، فإن الايمان لا يغني فيه إلا علم اليقين لا علم الظن (2). قال تعالى: {إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون} (سورة الحجرات: آية 15).

- قبوله لما أقتضته هذه الكلمة بقلبه ولسانه، وانقياده لما دلت عليه من أوامر واجتناب للنواهي قال تعالى: {ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى} (سورة لقمان: آية 22).

قال تعالى: {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً} (سورة
- كان صادقاً مع ربه، مخلصاً اخلاصاً طهر به شوائب الشرك من نفسه قال تعالى: {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء} (سورة البينة: آية 5).

- كان مخلصاً لخالقه مستعداً لبذل النفس والمال في سبيله قال تعالى: {ومن الناس من يتخذ

(1) جوانب مضيئة ، ص 40، 41.

(2) معارج القبول (419/2).

من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله...} (سورة البقرة: آية 165).

وقال تعالى : {يا أيها الذين آمنوا من يرد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أئمة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم...} (سورة المائدة: آية 54).

وفي الحديث الصحيح: "ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار" (1).

لقد فهم السلطان مراد حقيقة الايمان وكلمة التوحيد وذاق آثارها في حياته، فنشأت في نفسه أنفة وعزة مستمدة من الايمان بالله ، فايقن أنه لا نافع إلا الله، فهو المحي والمميت، وهو صاحب الحكم والسلطة والسيادة ومن ثم نزع من قلبه كل خوف إلا منه سبحانه، فلم يطمأ رأسه أمام احد من الخلق، ولا يتضرع إليه، ولا يرتع من كبريائه وعظمته، لأنه على يقين بأن الله هو القادر العظيم ، ولقد اكسبه الايمان بالله قوة عظيمة من العزم والإقدام والصبر والثبات والتوكل والتطلع الى معالي الأمور ابتغاء مرضاته سبحانه وتعالى، فكان في المعارك التي خاضها ثابتاً كالجبال الراسية وكان على يقين راسخ بأن المالك الوحيد لنفسه وماله هو الله سبحانه وتعالى ولذلك لم يبالي بأن يضحي في سبيل مرضاة ربه بكل غال ورخيص.

أن السلطان مراد عاش حقيقة الإيمان ولذلك اندفع الى ساحات الجهاد، وبذل ما يملكه من أجل دعوة الاسلام.

لقد قاد السلطان مراد الشعب العثماني ثلاثين سنة بكل حكمة ومهارة لا يضاهيه فيها احد من ساسة عصره قال المؤرخ البيزنطي هالكو نديلاس عن مراد الأول : (قام مراد بأعمال هامة كثيرة. دخل 37 معركة سواء في الاناضول أو في البلقان ، وخرج منها جميعاً ظافراً، وكان يعامل رعيته

(1) البخاري، كتاب الايمان، باب حلاوة الايمان (11/1) رقم 16.

معاملة شفوقة دون النظر لفوارق العرق والدين(1).

ويقول عنه المؤرخ الفرنسي كرينارد: (كان مراد واحداً من اكبر رجالات آل عثمان ، وإذا قوّمنا تقويماً شخصياً ، نجده في مستوى أعلى من كل حكام أوروبا في عهده)(2).

لقد ورث مراد الأول عن والده إمارة كبيرة بلغت 95.000 كيلومتر مربع وعند استشهاده ، تسلم ابنه بايزيد هذه الامارة العثمانية بعد أن بلغت 500.000 كيلومتر مربع بمعنى أنها زادت في مدى حوالي 29 سنة أكثر خمسة أمثال ماتركها له والده أوروخان(3).

أما النتائج التي تترتبت على انتصار المسلمين في معركة قوصوه ما يلي:

انتشار الاسلام في منطقة البلقان وتحول عدد كبير من الأشراف القدامى والشيوخ الى الاسلام بمحض إرادتهم .

اضطرت العديد من الدول الأوروبية الى أن تخطب ود الدولة العثمانية ، فبادرت بعضها بدفع الجزية لهم، وقام البعض الآخر بإعلان ولأته للعثمانيين خشية قوتهم واتقاء غضبهم.

أمتدت سلطة العثمانيين على أمراء المجر ورومانيا والمناطق المجاورة للإديرياتيك حتى وصل

نفوذهم الى ألبانيا(4).

(1) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص19.

(2) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص19.

(3) المصدر السابق نفسه، ص20.

(4) انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور، د. عبدالعزيز العمري، ص388.

السلطان بايزيد الأول

791-805 هـ/1389-1402م

بعد استشهاد السلطان مراد تولى الحكم أبنه بايزيد، وكان شجاعاً شهماً كريماً متحمساً للفتوحات الاسلامية، ولذلك أهتم اهتماماً كبيراً بالشؤون العسكرية فاستهدف الإمارات المسيحية في الاناضول وخلال عام اصبحت تابعة للدولة العثمانية ، وكان بايزيد كمثل البرق في تحركاته بين الجبهتين البلقانية والآناضولية ولذلك أطلق عليه لقب "الصاعقة"(1).

أولاً: سياسته مع الصرب:

شرع بايزيد في إقامة علاقات ودية مع الصرب مع أنهم كانوا السبب في قيام تحالف بلقاني ضد الدولة العثمانية وكان غرض بايزيد من هذه العلاقة اتخاذ دولة الصرب كحاجز بينه وبين المجر، وكان يشعر بضرورة اتخاذ حليف له في سياسته العسكرية النشطة التي استهدفت الامارات السلجوقية التركية الاسلامية في آسيا الصغرى ولذلك وافق بايزيد على أن يحكم الصرب ابنا الملك (لازار) الذي قتل في معركة قوصوة وفرض عليهما أن يكونا حاكمين على صربيا، يحكمانها حسب قوانين بلاد الصرب واعرافها وتقاليدها وعاداتها، وأن يدينان له بالولاء ويقدمان له جزية وعدداً معيناً من الجنود يشتركون في فرقة خاصة بهم في حروية(2) وتزوج ابنة الملك لازار.

ثانياً: اخضاع بلغاريا للسيادة العثمانية:

(1) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، ص40.

(2) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث ، ص41.

بعد أن تم التفاهم مع الصرب وجه بايزيد ضربه خاطفة في عام (797هـ/1393م) الى بلغاريا، فاستولى عليها وإخضع سكانها ، وبذلك فقدت البلاد استقلالها السياسي. وكان لسقوط بلغاريا في قبضة الدولة العثمانية صدى هائل في أوروبا وانتشر الرعب والفرع والخوف أنحاءها وتحركت القوى المسيحية الصليبية للقضاء على الوجود العثماني في البلقان(1).

ثالثاً: التكتل الدولي المسيحي الصليبي ضد الدولة العثمانية:

قام سيجسموند ملك المجر والبابا بونيفاس التاسع بالدعوة لتكتل اوروبي صليبي مسيحي ضد الدولة العثمانية وكان ذلك التكتل من أكبر التكتلات التي واجهتها الدولة العثمانية في القرن الرابع عشر، من حيث عدد الدول التي اشتركت فيه، ثم أسهمت فيه بالسلاح والعتاد والأموال والقوات وبلغ العدد الاجمالي لهذه الحملة الصليبية 120.000 مقاتل من مختلف الجنسيات (ألمانيا وفرنسا إنجلترا واسكتلندا وسويسرا ولوكسمبرج والأراضي المنخفضة الجنوبية وبعض الامارات الايطالية)(2).

وتحركت الحملة عام (800هـ/1396م) الى المجر، ولكن زعمائها وقادتها اختلفوا مع سيجسموند قبل بدء المعركة. فقد كان سيجسموند يؤثر الانتظار حتى يبدأ العثمانيون الهجوم، ولكن قواد الحملة شرعوا بالهجوم، وانحدروا مع نهر الدانوب حتى وصلوا الى نيكوبوليس شمال البلقان وبدؤوا في حصارها وتغلبوا في أول الأمر على القوات العثمانية، إلا أن بايزيد ظهر فجأة ومعه حوالي مئة ألف جندي، وهو عدد يقل قليلاً عن التكتل الأوروبي الصليبي، ولكنه يتفوق عليهم نظاماً وسلاحاً ، فانهمزم معظم النصارى ولاذوا بالفرار والهروب وقتل وأسر عدد من قادتهم. وخرج العثمانيون من معركة نيكوبوليس بغنائم كثيرة وفيرة واستولوا على ذخائر العدو(3). وفي

(1) المصدر السابق نفسه، ص41.

(2) انظر: تاريخ الدولة العثمانية ، د.علي حسون، ص25،24.

(3) الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، ص42.

نشوة النصر والظفر قال السلطان بايزيد انه سيفتح ايطاليا ويطعم حصانه الشعير في مذبح القديس بطرس برومة(1).

لقد وقع كثير من اشراف فرنسا منهم الكونت دي نيفر نفسه في الأسر ، فقبل السلطان بايزيد دفع الفدية وأطلق سراح الأسرى والكونت دي نيفر وكان قد ألزم بالقسم على أن لا يعود لمحاربته قال له أي أجز لك أن لاتحفظ هذا اليمين فأنت في حل من الرجوع لمحاربتني إذ لاشيء أحب إلي من محاربة جميع مسيحي أوروبا والانتصار عليهم(2).

أما سجموند ملك المجر كان قد بلغ به الغرور والاعتداد بجيشه وقوته أن قال: لو انقضت السماء عليائها لأمسكناها بحرابنا - فقد ولى هارباً ومعه رئيس فرسان رودس ولما بلغا في فرارهما شاطئ البحر الأسود وجد هناك الأسطول النصراني فوثبا على احدى السفن وفرت بهما مسرعة لا تلوي على شيء وتضاءلت مكانة المجر في عيون المجتمع الأوروبي بعد معركة نيكويوليس وتبخر ما كان يحيط بها من هيبة ورهبة(3) لقد كان ذلك النصر المظفر له أثر على بايزيد والمجتمع الاسلامي، فقام بايزيد ببعث رسائل الى كبار حكام الشرق الاسلامي يبشرهم بالانتصار العظيم على النصارى، واصطحب الرسل معهم الى بلاطات ملوك المسلمين مجموعة منتقاة من الأسرى المسيحين باعتبارهم هدايا من المنتصر ودليلاً مادياً على انتصاره. واتخذ بايزيد لقب (سلطان الروم) كدليل على وراثته لدولة السلاجقة وسيطرته على كل شبه جزيرة الأناضول. كما أرسل الى الخليفة العباسي المقيم بالقاهرة يطلب منه أن يقر هذا اللقب حتى يتسنى له بذلك أن يسبغ على السلطة التي مارسها هو وأجداده من قبل طابعاً شرعياً رسمياً فتزداد هيئته في العالم الاسلامي، وبالطبع وافق السلطان المملوكي برقوق حامي الخليفة العباسي على هذا الطلب لأنه

(1) انظر: محمد الفاتح، د.سالم الرشيدى، ص33.

(2) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية ، محمد فريد بك، ص144.

(3) انظر: محمد الفاتح، د.سالم الرشيدى، ص33.

يرى بايزيد حليفه الوحيد ضد قوات تيمورلنك التي كانت تهدد الدولة المملوكية والعثمانية وهاجر الى الاناضول آلاف المسلمين الذين قدموا لخدمة الدولة العثمانية ، وكانت الهجرة مليئة بالجنود وممن أسهموا في الحياة الاقتصادية والعلمية والحكومية في إيران والعراق ومارواء النهر - هذا بالاضافة الى الجموع التي فرت من أمام الزحف التيمورلنكي على آسيا الوسطى(1).

رابعاً: حصار القسطنطينية:

استطاع بايزيد قبل معركة نيكوبوليس أن يشدد النكير على الامبراطورية البيزنطية وأن يفرض على الامبراطور أن يعين قاضياً في القسطنطينية للفصل في شؤون المسلمين وما لبث أن حاصر العاصمة البيزنطية وقبل الامبراطور إيجاد محكمة اسلامية وبناء مسجد وتخصيص 700 منزل داخل المدينة للجالية الاسلامية، كما تنازل لبايزيد عن نصف حي غطة الذي وضعت فيه حامية عثمانية قوامها 6.000 جندي وزيد الجزية المفروضة على الدولة البيزنطية، وفرضت الخزنة العثمانية رسوماً على الكروم ومزارع الخضروات الواقعة خارج المدينة. وأخذت المآذن تنقل الأذان الى العاصمة البيزنطية(2).

وبعد الانتصار العظيم الذي حققه العثمانيون في معركة نيكوبوليس ثبت العثمانيون أقدامهم في البلقان، حيث انتشر الخوف والرعب بين الشعوب البلقانية، وخضعت البوسنة وبلغاريا الى الدولة العثمانية واستمر الجنود العثمانيون يتتبعون فلول النصارى في ارتدادهم . وعاقب السلطان بايزيد حكام شبه جزيرة المورة الذين قدموا مساعدة عسكرية للحلف الصليبي(3) وعقاباً للامبراطور البيزنطي على موقفه المعادي طلب بايزيد منه أن يسلم القسطنطينية وإزاء ذلك استنجد الامبراطور مانويل بأوروبا دون جدوى. والحق أن الاستيلاء على القسطنطينية كان هدفاً رئيسياً في البرنامج

(1) أنظر: في أصول التاريخ العثماني ، أحمد عبدالحليم، ص55،54.

(2) نفس المصدر السابق، ص53.

(3) الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، ص42.

الجهادي للسلطان بايزيد الاول. ولذلك فقد تحرك على رأس جيوشه وضرب حصاراً محكماً حول العاصمة البيزنطية وضغط عليها ضغطاً لا هوادة فيه واستمر الحصار حتى اشرفت المدينة في نهايتها على السقوط- بينما كانت أوروبا تنتظر سقوط العاصمة العتيدة بين يوم وآخر إذا السلطان ينصرف عن فتح القسطنطينية لظهور خطر جديد على الدولة العثمانية(1).

خامساً: الصدام بين تيمورلنك وبايزيد:

ينتمي تيمورلنك الى الأسر النبيلة في بلاد ماوراء النهر ، وفي عام 1369م جلس على عرش خراسان وقاعدته سمرقند. واستطاع أن يتوسع بجيوشه الرهيبه وأن يهيمن على القسم الأكبر من العالم الاسلامي؛ فقد انتشرت قواته الضخمة في آسيا من دلهي الى دمشق، ومن بحر آرال الى الخليج العربي وأحتل فارس وأرمينيا وأعالي الفرات ودجلة والمناطق الواقعة بين بحر قزوين الى البحر الأسود وفي روسيا سيطر على المناطق الممتدة بين أنهار الفولجا والدون والدينير وأعلن بأنه سيسيطر على الأرض المسكونة ويجعلها ملكاً له وكان يردد: "أنه يجب ألا يوجد سوى سيد واحد على الارض طالما أنه لا يوجد إلا إله واحد في السماء"(2) وقد اتصف تيمورلنك بالشجاعة والعبقرية الحربية والمهارة السياسية وكان قبل أن يقرر أمر أن يجمع المعلومات ويرسل الجواسيس ثم يصدر أوامره بعد تروي وتأتي بعيدة عن العجلة وكان من الهيبة بحيث أن جنوده كانوا يطيعون أوامره أيا كانت.

وكان تيمور باعتباره مسلماً يرعى العلماء ورجال الدين وبخاصة اتباع الطريقة النقشبندية(3).

وكانت هناك عوامل واسباب ساهمت في إيجاد صراع بين تيمورلنك وبايزيد منها:

لجأ أمراء العراق الذين استولى تيمور على بلادهم الى بايزيد، كما لجأ الى تيمور بعض أمراء

(1) الدولة العثمانية ، د.اسماعيل احمد، ص43.

(2) في اصول التاريخ العثماني ، ص56.

(3) في أصول التاريخ العثماني ، ص56.

آسيا الصغرى - وفي كلا الجانبين كان اللاجئون يحرضون من استجاروا به على شن الحرب ضد الطرف الآخر .

تشجيع النصارى لتيمورلنك ودفعه للقضاء على بايزيد .

الرسائل النارية بين الطرفين ، ففي إحدى الرسائل التي بعث بها تيمور الى بايزيد أهانه ضمناً حين ذكره بغموض أصل أسرته ، وعرض عليه العفو على اعتبار أن آل عثمان قد قدموا خدمات جليلة الى الاسلام، ولو أنه اختتم رسالته -بصفته زعيماً للترك- باستصغار شأن

بايزيد الذي قبل التحدي وصرح بأنه سيتعقب تيمور الى تبريز وسلطانية(1).

وكان الزعيمان تيمور لنك وبايزيد يسعى كل منهما لتوسيع دولته .

سادساً: انهيار الدولة العثمانية:

تقدم تيمورلنك بجيوشه واحتل سيواس، وأباد حاميتها التي كان يقودها الامير أرطغرل بن بايزيد والتقى الجيشان قرب أنقرة في عام 804هـ/1402م وكانت قوات بايزيد تبلغ 120.000 مجاهد لملاقاة خصمه وزحف تيمورلنك على رأس قوات جرارة في 20 يوليو 1402 (804هـ) وانتصر المغول ووقع بايزيد في الأسر وظل يرسف في أغلاله حتى وافاه الأجل في السنة التالية(2).

وكانت الهزيمة بسبب اندفاع وعجلة بايزيد فلم يحسن اختيار المكان الذي نزل فيه بجيشه الذي لم يكن يزيد عن مئة وعشرين ألف مقاتل بينما كان جيش خصمه لا يقل عن ثمانمائة ألف، ومات كثير من جنود بايزيد عطشاً لقلة الماء وكان الوقت صيفاً شديداً القحط. ولم يكد يلتقي الجيشان في انقرة حتى فر الجنود التتار الذين كانوا في جيش يزيد وجنود الامارات الآسيوية التي فتحها منذ

(1) المصدر السابق نفسه، ص57.

(2) الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، ص3،2.

عهد قريب وانضموا الى جيش تيمورلنك ولم يجد السلطان العثماني بعد ذلك ما اظهره هو وبقيه جيشه من الشجاعة والاستماتة في القتال (1).

لقد فرحت الدول النصرانية في الغرب بنصر تيمورلنك وهزها الطرب لمصرع بايزيد وماآلت إليه دولته من التفكك والانحلال وبعث ملوك انجلترا وفرنسا وقشتالة وامبراطور القسطنطينية الى تيمورلنك يهنئونه على ما احرزه من النصر العظيم والظفر المجيد واعتقدت أوروبا انها قد تخلصت الى الابد من الخطر العثماني الذي طالما روعها وهددها (2).

واستولى تيمورلنك بعد هزيمة بايزيد على ازنيق وبروسة وغيرها من المدن والحصون ثم ذك اسوار ازمير وخلصها من قبضة فرسان رودس (3) (فرسان القديس يوحنا) ، محاولاً بذلك أن يبرر موقفه أمام الرأي العام الاسلامي الذي أتهمه بأنه وجه ضربة شديدة الى الاسلام بقضائه على الدولة العثمانية وحاول تيمورلنك بقتاله لفرسان القديس يوحنا أن يضيفي على معارك الأناضول طابع الجهاد (4).

كما أعاد تيمورلنك أمراء آسيا الصغرى الى أملاكهم السابقة، ومن ثم استرجاع الامارات التي ضمها بايزيد لاستقلالها كما بذر تيمور بذور الشقاق بين أبناء بايزيد المتنازعين على العرش (5).

سابعاً: الحروب الداخلية:

لقد تعرضت الدولة العثمانية لخطر داخلي تمثل في نشوب حرب أهلية في الدولة بين أبناء

(1) محمد الفاتح، د.سالم الرشيدى، ص35.

(2) محمد الفاتح، د.سالم الرشيدى ، ص36.

(3) المصدر السابق نفسه، ص35.

(4) انظر: في أصول التاريخ العثماني، ص59.

(5) المصدر السابق نفسه، ص59.

بايزيد على العرش واستمرت هذه الحرب عشر سنوات (806-816هـ/1403-1413م)⁽¹⁾.

كان لباييزيد خمسة أبناء اشتركوا معه في القتال ، أما مصطفى فقد ظن أنه قتل في المعركة، أما موسى فقد أسر مع والده ونجح الثلاثة الآخرون في الفرار. أما أكبرهم سليمان فقد ذهب الى أدرنة وأعلن نفسه سلطاناً هناك، وذهب عيسى الى بروسة وأعلن للناس أنه خليفة أبيه، ونشبت الحرب بين هؤلاء الأخوة الثلاثة يتنازعون بينهم اشلاء الدولة الممزقة والأعداء يتربصون بهم من كل جانب. ثم اطلق تيمورلنك الأمير موسى ليؤجج به نار الفتنة ويزيدها ضراماً وشدة واخذ يحرضهم على القتال ويغري بعضهم ببعض⁽²⁾.

وبعد عام ارتحل تيمورلنك بجيشه الأخضر واليابس وترك وراءه البلاد على اسوأ حال من الدمار والخراب والفوضى⁽³⁾.

لقد كانت هذه المرحلة في تاريخ الدولة العثمانية مرحلة اختبار وابتلاء سبقت التمكين الفعلي المتمثل في فتح القسطنطينية، ولقد جرت سنة الله تعالى ألا يمكن لأمة إلا بعد أن تمر بمراحل الاختبار المختلفة، وإلا بعد أن ينصهر معدنها في بوتقة الأحداث، فيميز الله الخبيث من الطيب، وهي سنة جارية على الأمة الاسلامية لا تتخلف. فقد شاء الله -تعالى- أن يبتلي المؤمنين، ويختبرهم، ليمحص إيمانهم، ثم يكون لهم التمكين في الأرض بعد ذلك.

وابتلاء المؤمنين قبل التمكين أمر حتمي من أجل التمحيص، ليقوم بنيانهم بعد ذلك على تمكين ورسوخ قال تعالى: {أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين} (سورة العنكبوت: آية 3، 2).

"الفتنة: الامتحان بشدائد التكليف من مفارقة الأوطان، ومجاهدة الاعداء وسائر الطاعات

(1) الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، ص 43.

(2) انظر: محمد الفاتح، ص 36.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 36.

الشاقة، وهجر الشهوات وبالفقر والقحط وأنواع المصائب في الأنفس والأموال ، ومصابرة الكفار على أذاهم وكيدهم" (1).

قال ابن كثير -رحمه الله- : (والاستقهام في قوله تعالى: {أحسب الناس} إنكاري ومعناه: أن الله سبحانه لا بد أن يبتلي عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان) (2) كما جاء في الحديث الصحيح : "أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل، : يبتلي الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة زيد له في البلاء" (3).

ولقد بين رسول الله ﷺ أن الابتلاء صفة لازمة للمؤمن ، حيث قال : "مثل المؤمن كمثل الزرع لاتزال الريح تميله ولايزال المؤمن يصيبه البلاء، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لاتهتز حتى تستحصد" (4).

إن سنة الابتلاء جارية في الأمم والدول والشعوب والمجتمعات ولذلك جرت سنة الله بالابتلاء بالدولة العثمانية.

صمد العثمانيون لمحنة أنقرة بالرغم مما عانوه من خلافات داخلية، الى أن أنفرد محمد الأول بالحكم في عام 1413م، وأمكته لم شتات الأراضي التي سبق للدولة أن فقدها، إن إفاقة الدولة من كارثة أنقرة يرجع الى منهجها الرباني الذي سارت عليه حيث جعل من العثمانيين أمة متفوقة في جانبها العقدي والديني والسلوكي والأخلاقي والجهادي وبفضل الله حافظ العثمانيون على حماستهم الدينية وأخلاقهم الكريمة (5) ثم بسبب المهارة النادرة التي نظم بها أورخان وأخوه علاء الدين دولتها الجديدة وإدارة القضاء المثيرة للإعجاب والتعليم المتواصل لابناء وشباب العثمانيين

(1) تفسير النسفي (249/3).

(2) تفسير ابن كثير (405/3).

(3) سنن الترمذي (601/4) حديث حسن صحيح.

(4) مسلم شرح النووي، كتاب القيامة والجنة والنار (151/17).

(5) في أصول التاريخ العثماني، ص 61.

وغير ذلك من الأسباب التي جعلت في العثمانيين قوة حيوية كاملة ، فما لبثت هذه الدولة بعد كارثة أنقرة إلا انبعثت من جديد من بين الأنقاض والأطلال وانتعشت وسرى في عروقها ماء الحياة، وروح الشريعة، واستأنفت سيرها الى الامام في عزم وإصرار حير الأعداء والأصدقاء(1).

المبحث الخامس

السلطان محمد الأول

ولد السلطان محمد الاول عام (781هـ/1379م)(2)، وتولى أمر الأمة بعد وفاة والده بايزيد وعرف في التاريخ (بمحمد جلبي) .

كان متوسط القامة ، مستدير الوجه، متلاصق الحاجبين، ابيض البشرة ، أحمر الخدين، واسع الصدر، صاحب بدن قوي، في غاية النشاط وجسوراً ، يمارس المصارعة، ويسحب أقوى أوتار

(1) انظر: محمد الفاتح ، ص37.

(2) انظر: اخطاء يجب أن تصحح (الدولة العثمانية) ، ص33.

الأقواس. اشترك اثناء حكمه في 24 حرباً واصيب بأربعين جرحاً⁽¹⁾ استطاع السلطان محمد جلبي أن يقضي على الحرب الأهلية بسبب ما أوتي من الحزم والكياسة وبعد النظر وتغلب على أخوته واحداً واحداً حتى خلع له الأمر وتفرد بالسلطان وقضى سني حكمه الثماني في إعادة بناء الدولة وتوطيد اركانها⁽²⁾ ويعتبره بعض المؤرخين المؤسس الثاني للدولة العثمانية⁽³⁾.

ومما يؤثر عن هذا السلطان أنه استعمل الحزم مع الحلم في معاملة من قهرهم ممن شق عصا طاعة الدولة فإنه لما قهر أمير بلاد القرمات وكان قد استقل عفا عنه بعد أن أقسم له على القرآن الشريف بأن لا يخون الدولة فيما بعد وعفا عنه ثانية بعد أن حنث في يمينه⁽⁴⁾ وكانت سياسته تهدف الى إعادة بناء الدولة وتقويتها من الداخل ولذلك سالم امبراطور القسطنطينية وحالفه وأعاد إليه بعض المدن على شاطئ البحر الاسود وفي تساليا وصالح البندقية بعد هزيمة اسطوله أمام كليتبولي وقمع الفتن والثورات في آسيا وأوروبا واخضع بعض الامارات الآسيوية التي أحيها تيمورلنك ودانت له بالطاعة والولاء⁽⁵⁾.

وظهر في زمن السلطان محمد شخص يسمى بدرالدين انتحل صفة علماء الدين الاسلامي وكان في جيش موسى اخو السلطان محمد وتولى منصب قاضي العسكر أعلى مناصب الدولة العثمانية وقتئذ، وكان هذا القاضي قد احتضنه موسى بن بايزيد.

قال صاحب الشقائق النعمانية: (الشيخ بدر الدين محمود بن اسرائيل.. المشهور بابن قاضي سيماونه ولد في قلعة سيماونه في بلاد الروم إحدى قرى أدنة التي تقع في الجزء الأوروبي من تركيا، كان أبوه قاضياً لها وكان أيضاً أميراً على عسكر المسلمين (فيها) وكان فتح تلك القلعة

(1) انظر: السلاطين العثمانيون، ص 41.

(2) انظر: محمد الفاتح، ص 37.

(3) انظر: السلاطين العثمانيون ، ص 41.

(4) تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص 249.

(5) انظر: محمد الفاتح ، ص 37.

على يده أيضاً ... ولادة الشيخ بدرالدين كانت في زمن السلطان الغازي خداونديكار (مراد الأول) من سلاطين آل عثمان، ثم أخذ الشيخ العلم في صباه عن والده... وحفظ القرآن العظيم وقرأ على المولى المشتهر بالشاهدي، وتعلم الصرف والنحو عن مولانا يوسف، ثم ارتحل الى الديار المصرية. وقرأ هناك مع (اي مزمل) السيد الشريف الجرجاني ، على مولانا مبارك شاه المنطقي المدرس بالقاهرة، ثم حج مع مبارك شاه وقرأ بمكة على الشيخ الزيعلي ، ثم قدم القاهرة، وقرأ مع السيد الجرجاني على الشيخ أكمل الدين (البايبوري) وقرأ على الشيخ المذكور (اي تعلم وتتلمذ على يد الشيخ بدر الدين) السلطان فرج ابن السلطان برقوق ملك مصر (سلطان مصر المملوكي برقوق).

ثم أدركته (اي الشيخ بدرالدين) الجذبة الالهية، والتجأ الى كنف الشيخ سعيد الأخلاطي الساكن بمصر وقتئذ وحصل عنده ما حصل (اي اصبح مريده). وأرسله الشيخ اخلاطي الى بلدة تبريز للارشاد (الصوفي) حكى انه لما جاء تيمورلنك تبريز... نال (اي بدر الدين) من الامير المذكور (تيمورلنك) مالاً جزيلاً بالغاً الى نهايته، ثم ترك الشيخ الكل، ولحق ببديليس ثم سافر الى مصر.. ثم الى حلب ثم الى قونية ثم الى تبرة من بلاد الروم ثم دعاه رئيس جزيرة ساقر (وهو نصراني) فأسلم على يدي الشيخ... ثم لما تسلطن موسى من أولاد عثمان الغازي نصب الشيخ (اي جعل من الشيخ بدر الدين) قاضياً لعسكره ثم أن أخوا موسى (محمداً) قتل موسى وحبس الشيخ مع أهله وعياله ببلدة أزيق(1).

وفي أزيق - وهي مدينة في تركيا- بدأ الشيخ بدر الدين محمود بن اسرائيل يدعو الى مذهبه الفاسد، فكان يدعو الى المساواة في الأموال، والأمتعة ، والأديان، ولايفرق بين المسلم وغير المسلم في العقيدة، فالناس أخوة مهما اختلفت عقائدهم وأديانهم وهو ماتدعو إليه الماسونية اليهودية ،

(1) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص134،133 نقله عن الشفانق النعمانية مخطوط (لا له لي) بالسليمانية رقم 2076.

وانضم الى هذه الدعوة الباطلة كثير من الاغبياء والجهلة وأصحاب الأغراض الدنيئة وأصبح للمفسد بدرالدين تلاميذ يدعون الى منهجه ومذهبه ومن أشهر هؤلاء الدعاة شخص يسمى (بير قليجة مصطفى) وآخر يقال إنه من أصل يهودي هو (طوره كمال) واليهود دائماً خلف المؤامرات من زمن النبي p وحتى عصرنا هذا.

وشاع أمر هذا المذهب الفاسد وكثر أتباعه وتصدى السلطان محمد جلبي لهذا المذهب الباطل وأرسل أحد قواده على رأس جيش كبير لمحاربة بدر الدين وللأسف قتل القائد سيسمان الذي ارسله محمد جلبي على يد الخائن (بير قليجة) وهزم جيشه وأعد السلطان محمد جلبي جيشاً آخر بقيادة وزيره الأول (بايزيد باشا) ، فحارب (بير قليجة) وانتصر عليه في موقعة (قره بورنو) وبعدها أقيم حد الحرابة على (بير قليجة مصطفى) امتثالاً لأمر الله⁽¹⁾ الذي يقول: {إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم} (سورة المائدة: آية 33).

واستمر الشيخ بدرالدين في غيه وظن أنه سيتمكن من البلاد بسبب ماتمر به من حالة تمزق كامل وفوضى ضربت بأطنابها في كل ارجاء البلاد وكان بدر الدين يقول : (إني سأثور من أجل أملاك العالم، وباعتقاداتي ذات الاشارات الغيبية سأقسم العالم بين مريدي بقوة العلم وسر التوحيد، وسأبطل قوانين أهل التقليد ومذهبهم، وسأحلل -باتساع مشاربي- بعض المحرمات)⁽²⁾. وكان أمير الأفلاق (في رومانيا) يدعم هذا المنشق وهذا المبتدع وهذا الزنديق مادياً وعسكرياً وكان السلطان محمد جلبي لهذه الدعوة الفاسدة بالمرصاد وضيق عليها الخناق، حتى اضطر بدر

(1) انظر: أخطاء يجب أن تصحح (الدولة العثمانية) ، ص 35.

(2) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 140.

الدين أن يعبر إلى منطقة دلي أورمان (في بلغاريا الآن (1)) يقول محمد شرف الدين في مسألة توجه الشيخ بدر الدين إلى دلي أورمان : (إن هذه المنطقة وما يحيط بها من مناطق هي مأوى الباطنية، وهي منطقة تعج بأتباع ثورة بابا إسحق التي قامت ضد الدولة العثمانية في منتصف القرن السابع الهجري، وأن توجه الشيخ بدر الدين إلى هذا المكان وتمكنه من جمع الآلاف المؤلفة من المؤيدين له ولحركته من هذه المناطق لفيه الدلالة الكافية لاختيار الشيخ هذا المكان بالذات (2).

وفي دلي أورمان بدأت المعونات الأوربية تفد إلى الشيخ، واتسع نطاق الثورة ضد السلطان العثماني محمد الأول، ووصلت فلولا المنشقين أعداء الإسلام الصحيح إلى ما بين 7-8 آلاف مقاتل (3).

وكان السلطان محمد الأول يتابع الأمور بحذر ويقظة ولم يكن غافلاً عما يفعله الثوار وقام السلطان بنفسه لحرب الشيخ بدر الدين وكان هذا على رأس جيش عظيم في دلي أورمان. اتخذ السلطان محمد من سيروز (في اليونان الآن) مركزاً لقيادته. أرسل السلطان قواته إلى الثوار فهزمتهم، وتوارى زعيمهم بدر الدين الثائر بعد هزيمته، في منطقة دلي أورمان، فراراً من السلطان (4).

واستطاعت مخابرات السلطان محمد الأول أن تخترق صفوف الثوار وأن تكيد مكيدة محكمة وقع على أثرها زعيم الثوار المبتدع بدر الدين في الأسر (5).
وعندما قابل السلطان محمد الأول بدر الدين قال له : مالي أرى وجهك قد اصفر؟

(1) المصدر السابق نفسه، ص 140.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 140.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 141.

(4) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص 141.

(5) المصدر السابق نفسه، ص 142، 141.

أجابه بدر الدين: إن الشمس يا مولاي ، تصفر عندما تقترب من الغروب.

وقام علماء الدولة بمناظرة علمية حرة مع بدر الدين ثم أقيمت محكمة شرعية، وأصدر حكم الإعدام بناء على فتوى العلماء التي استندت إلى توجيه رسول الله ﷺ : " من أتاكم وأمركم جميعاً على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم ويفرق جماعتكم فاقتلوه "(1).

إن المذهب الفاسد الذي كان يدعو إليه " بدر الدين " هو نفس مذهب الماسونية اليهودية المعاصرة (القرن الخامس عشر الهجري / العشرون الميلادي) وهو يقوم على إلغاء الحواجز بين أصحاب العقيدة الإسلامية الصحيحة وأصحاب العقائد الفاسدة، إذ إنه يقول بالأخوة بين المسلمين واليهود والنصارى وعباد البقر والشيوخيين، وهذا يخالف عقيدة الإسلام التي تؤكد أنه لا أخوة بين المسلمين وبين غيرهم من أصحاب العقائد الفاسدة، لأنه كيف يكون هناك أخوة بين من يحاربون الله ورسوله، وبين المؤمنين الموحدين(2).

كان السلطان محمد الأول محباً للشعر والأدب والفنون وقيل هو أول سلطان عثماني أرسل الهدية السنوية إلى أمير مكة التي يطلق عليها اسم الصرة، وهي عبارة على قدر معين من النقود يرسل إلى الأمير لتوزيعه على فقراء مكة والمدينة(3).

وقد أحب الشعب العثماني السلطان محمد الأول وأطلقوا عليه لقب بهلوان (ومعناها البطل) وذلك بسبب نشاطه الجم وشجاعته كما أن أعماله العظيمة، وعبقريته الفذة التي قاد من خلالها الدولة العثمانية الى بر الأمان، كما أن جميل سجايه وسلوكه وشهامته وحبه للعدل والحق جعل شعبه يحبه ويطلق عليه لقب جلبي ايضاً وهو لقب تشريف وتكريم فيه معنى الشهامة والرجولة.

حقيقة إن بعض حكام آل عثمان قد فاقوه شهرة ، إلا أن بالإمكان اعتباره من أنبل حكام العثمانيين -فقد اعترف المؤرخون الشرقيون واليونانيون بإنسانيته واعتبره المؤرخون العثمانيون(4)

(1) مسلم، كتاب الامارة، باب إذا بويع لخليفتين (1480/3) رقم 1852.

(2) انظر: أخطاء يجب ان تصحح في التاريخ (الدولة العثمانية) ، ص38.

(3) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص152.

(4) انظر: في أصول التاريخ العثماني، ص62.

بمثابة القبطان الماهر الذي حافظ على قيادة سفينة الدولة العثمانية حين هددتها طوفان الغزوات التترية، والحروب الداخلية، والفتن الباطنية.

وفاته:

بعد أن بذل السلطان محمد الأول قصارى جهده في محو آثار الفتن التي مرت بها الدولة العثمانية وشروعه في أجزاء ترتيبات داخلية تضمن عدم حدوث شغب في المستقبل وبينما كان السلطان مشتغلاً بهذه المهام السليمة شعر بدنو أجله دعى الباشا بايزيد وقال له: (عينت ابني مراد خليفة لي فأطعه وكن صادقاً معه كما كنت معي . اريد منكم ان تأتونني بمراد الآن لانني لا استطيع أن أقوم من الفراش بعد. فان وقع الأمر الألهي قبل مجيئه حذاري ان تعلنوا وفاتي حتى يأتي) (1).

وفاجأه الموت في سنة 824هـ (1421م) في مدينة أورنة واسلم روحه لخالقه وعمر 43 سنة. وخوفاً من حصول مالاتحمد عقباه لو عُلم موت السلطان محمد الأول اتفق وزيراه ابراهيم وبايزيد على أخفاء موته على الجند حتى يصل أبنه مراد الثاني فأشاعا أن السلطان مريض وارسلا لابنه فحضر بعد واحد وأربعين يوماً واستلم مقاليد الحكم (2). ولقد كان السلطان محمد الأول محباً للسلام والعلم والفقهاء ولذلك نقل عاصمة الدولة من أدرنة (مدينة الغزاة) الى بروسة (مدينة الفقهاء) (3) وكان على خلق رفيع، وحزم متين ، وحلم فريد ، وسياسة فذة في معاملة الأعداء والأصدقاء.

المبحث السادس

مراد الثاني

تولى السلطان مراد الثاني أمر الدولة بعد وفاة أبيه (محمد جلبي) عام (824هـ/1421م)، وكان عمره لايزيد على ثماني عشرة سنة وكان محباً للجهاد في سبيل الله، والدعوة الى الاسلام في ربوع

(1) السلاطين العثمانيون ، ص41.

(2) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص152.

(3) انظر: في أصول التاريخ العثماني ، ص63.

كان معروفاً لدى جميع رعيته بالتقوى، والعدالة والشفقة (2)، استطاع السلطان مراد أن يقضي على حركات التمرد الداخلية التي قام بها عمه مصطفى والتي كانت تدعم من قبل أعداء الدولة العثمانية وكان الامبراطور البيزنطي مانويل الثاني خلف الدسائس والمؤامرات والمتاعب التي تعرض لها السلطان مراد، فهو الذي دعم عم السلطان مراد الذي اسمه مصطفى بالمساعدات حتى استطاع أن يحاصر مدينة غاليبولي ابتغاء انتزاعها من السلطان واتخاذها قاعدة له إلا ان السلطان مراد قبض على عمه وقدمه للمشنقة ومع ذلك ، فقد مضى الامبراطور مانويل الثاني يكيّد للسلطان واحتضن شقيقاً لمراد الثاني ، ووضعه على رأس قوة استولت على مدينة نيقيا في الأناضول، وسار إليه مراد واستطاع أن يقض على قواته واضطر خصمه للاستسلام ثم قتل . ومن ثم صمم السلطان مراد أن يلحق الامبراطور درساً عملياً، فأسرع بإحتلال سلونيك، فهاجمها ودخلها عنوة في مارس 1431م (833هـ) ، واصبحت جزءاً لا يتجزأ من الدولة العثمانية.

وكان السلطان مراد يوجه الضربات الموجعة لحركات التمرد في بلاد البلقان، وحرص على تدعيم الحكم العثماني في تلك الديار، واتجه الجيش العثماني نحو الشمال لأخضاع إقليم ولاشيا وفرض عليه جزية سنوية، واضطر ملك الصرب الجديد (ستيف لازار ميتش) الى الخضوع للعثمانيين والدخول تحت حكمهم وجدد ولاءه للسلطان ، واتجه جيش عثماني نحو الجنوب، حيث قام بتوطيد دعائم الحكم العثماني في بلاد اليونان.

ولم يلبث السلطان أن واصل جهاده الدعوي وقام بالقضاء على العوائق في كل من ألبانيا والمجر .

واستطاع العثمانيون أن يفتحوا ألبانيا عام (834هـ/1431م) وركزوا هجومهم على الجزء

(1) انظر: أخطاء يجب أن تصحح (الدولة العثمانية)، ص38.

(2) انظر: السلاطين العثمانيون، ص43.

الجنوبي من البلاد. أما شمالي ألبانيا ، فقد خاض العثمانيون فيه جهاداً مريراً، وتمكن الألبانيون الشماليون من القضاء على جيشين عثمانيين في جبال البانيا، كما ألحقوا الهزيمة بحملتين عثمانيتين متعاقبتين كان يقودهما السلطان مراد بنفسه، وتكبد العثمانيون خسائر فادحة أثناء عملية الانسحاب، ووقفت الدول النصرانية خلف الألبان لدعمهم ضد العثمانيين وخصوصاً من حكومة البندقية التي كانت تدرك خطورة الفتح العثماني لهذا الاقليم الهام بشاطئيه وموانئه البحرية التي تربط البندقية بحوض البحر المتوسط والعالم الخارجي ، وأنهم في استطاعتهم حجز سفن البنادقة داخل بحر مغلق هو بحر الأدرياتيك. وهكذا لم يشهد السلطان مراد الثاني استقراراً للحكم العثماني في ألبانيا(1).

وأما ما يتعلق بجهة المجر، فقد استطاع العثمانيون في عام (842هـ/1438م) أن يهزموا المجرين ويأسروا منهم سبعين ألف جندي وأن يستولوا على بعض المواقع، ثم تقدم لفتح بلغراد عاصمة الصرب، ولكنه أخفق في محاولته وسرعان ماتكون حلف صليبي كبير باركه البابا واستهدف هذا الحلف طرد العثمانيين من أوروبا كلية. وشمل الحلف البابوية والمجر وبولندا والصرب وبلاد الأفلاق وجنوة والبندقية والإمبراطورية البيزنطية ودوقية برجنديا، وانضمت إلى الحلف أيضاً كتائب من الألمان والتشيك. وأعطيت قيادة قوات الحلف الصليبي إلى قائد مجري قدير هو يوحنا هنيادي. وقد قاد هنيادي القوات الصليبية البرية وزحف جنوباً واجتاز الدانوب وأوقع بالعثمانيين هزيمتين فادحتين عام (846هـ/ 442م)، واضطر العثمانيون إلى طلب الصلح(2) وأبرمت معاهدة صلح لمدة عشر سنوات في " سيزجاند " وذلك في شهر يوليو عام 1444م / 848هـ تنازل فيها عن الصرب واعترف " بجورج برانكوفيتش " أميراً عليها. كما تنازل السلطان مراد عن الأفلاق للمجر، وافتدى زوج ابنته " محمود شلبي " الذي كان قائداً عاماً

(1) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، ص46.

(2) المصدر السابق نفسه، ص46.

للجيوش العثمانية، بمبلغ 60 ألف دوقية.. وقد حررت هذه المعاهدة باللغتين العثمانية، والمجرية وأقسم "لاديسلاسي" ملك المجر على الانجيل كما أقسم السلطان مراد بالقرآن على أن تراعي شروط المعاهدة بذمة وشرف.

وحين فرغ مراد من عقد الهدنة مع أعدائه الأوروبيين عاد إلى الأناضول وفجع بموت ابنه الأمير علاء واشتد حزنه عليه وزهد في الدنيا والملك ونزل عن السلطنة لابنه محمد وكان إذ ذاك في الرابعة عشرة من عمره، ولصغر سنه أحاطه والده ببعض أهل الرأي والنظر من رجال دولته ثم ذهب إلى مغنيسيا في آسيا الصغرى ليقضي بقية حياته في عزلة وطمأنينة ويتفرغ في هذه الخلوة إلى عبادة الله والتأمل في ملكوته بعد أن أطمأن إلى استتباب الأمن والسلام في أرجاء دولته ولم يستمتع السلطان طويلاً بهذه الخلوة والعبادة⁽¹⁾ حيث قام الكاردينال سيزاريني وبعض أعوانه بالدعوة إلى نقض العهد مع العثمانيين وطردهم عن أوربا، خصوصاً وأن العرش العثماني قد تركه السلطان مراد لابنه الفتى الذي لا خبرة له ولا خطر منه وقد اقتنع البابا أوجين الرابع بهذه الفكرة الشيطانية⁽²⁾ وطلب من النصارى، نقض العهد، ومهاجمة المسلمين وبين للنصارى أن المعاهدة التي عقدت مع المسلمين باطلة لأنها عقدت بدون إذن البابا وكيل المسيح في الأرض وكان الكاردينال سيزاريني عظيم النشاط دائم الحركة لا يكل عن العمل، يجد ويسعى للقضاء على العثمانيين ولذلك كان يزور ملوك النصارى وزعمهم ويحرضهم على نقض المعاهدة مع المسلمين ويقنع كل من يعترض عليه نكث المعاهدة ويقول له أنه باسم البابا يبرئ ذمتهم من نكثها ويبارك جنودهم وأسلحتهم، وعليهم أن يتبعوا طريقه فان طريق المجد والخلاص ومن نازعه ضميره بعد ذلك وخشي الاثم فإنه يحمل عنه وزره وإثمه⁽³⁾.

(1) انظر: محمد الفاتح ، ص43، 42.

(2) المصدر السابق نفسه، ص43.

(3) انظر: محمد الفاتح ، ص44.

لقد نقض النصارى عهودهم، وحشدوا الجيوش لمحاربة المسلمين، وحاصروا مدينة " فارنا " البلغارية الواقعة على ساحل البحر الأسود، والتي كانت قد تحررت على أيدي المسلمين، ونقض العهود هو سَمْتُ ظاهر لأعداء هذا الدين، ولذلك أوجب الله سبحانه وتعالى على المسلمين قتالهم يقول سبحانه : {فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون } (التوبة: 12).

لاعهود، ولا موثيق يرعونها، كما هو طابعهم دائماً . إنهم لا يتورعون عن مهاجمة أي أمة، أي إنسان يلمحون فيه ضعفاً، يقتلون ويذبحون(1) وصدق الله القائل في تصويرهم : { لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمّة وأولئك هم المعتدون } (التوبة : 10).

وعندما تحرك النصارى وزحفوا نحو الدولة العثمانية وسمع المسلمون في أدرنة بحركة الصليبيين وزحفهم انتابهم الفرع والرعب وبعث رجال الدولة الى السلطان مراد يستعجلون قدومه لمواجهة هذا الخطر وخرج السلطان المجاهد من خلوته ليقود جيوش العثمانيين ضد الخطر الصليبي. واستطاع مراد أن يتفق مع الأسطول الجنوبي لينقل أربعين ألفاً من الجيش العثماني من آسيا إلى أوروبا تحت سمع الأسطول الصليبي وبصره في مقابل دينار لكل جندي.

وأسرع السلطان مراد في السير فوصل وارنه في نفس اليوم الذي وصل فيه الصليبيون. وفي اليوم التالي نشبت المعركة بين الجيشين النصراني والإسلامي وكانت عنيفة حامية وقد وضع السلطان مراد المعاهدة التي نقضها أعداؤه على رأس رمح ليشهدهم ويشهد السماء والأرض على الغدر والعدوان وليزيد حماس جنده(2). واقتتل الفريقان، ودارت بينهما معركة رهيبة كاد يكون فيها النصر للنصارى نتيجة حميتهم الدينية وحماسهم الزائد إلا أن تلك الحماية والحماس الزائد اصطدم بالروح الجهادية لدى العثمانيين، والتقى الملك "لاديسلاس" ناقض العهود مع السلطان مراد الوفي بالعهود وجها لوجه واقتتلا، ودارت بينهما معركة رهيبة، تمكن السلطان المسلم من قتل الملك

(1) انظر: أخطاء يجب ان تصحح (الدولة العثمانية) ، ص41.

(2) انظر: محمد الفاتح، د. سالم الرشدي، ص45.

المجري النصراني، فقد عاجله بضربة قوية من رمحه اسقطته من على ظهر جواده فأسرع بعض المجاهدين وجزوا رأسه ورفعوه على رمح مهللين مكبرين وفرحين (1) وصاح أحد المجاهدين في العدو " أيها الكفار هذا رأس ملككم " وكان لذلك المنظر أثر شديد على جموع النصارى، فاستحوذ عليهم الفرع والهلع، فحمل عليهم المسلمون حملة قوية، بددت شملهم وهزموهم شر هزيمة، وولى النصارى مدبرين يدفع بعضهم ولم يطارد السلطان مراد عدوه واكتفى بهذا الحد من النصر وانه لنصر عظيم (2).

كانت هذه المعركة في سهول قوصوه في 17 أكتوبر 1448م (852هـ) واستمرت المعركة ثلاثة أيام وانتهت بفوز ساحق للعثمانيين. وقد أخرجت هذه المعركة بلاد المجر لعشر سنوات على الأقل من عداد الدول التي تستطيع النهوض بعمليات حربية هجومية ضد العثمانيين (3). ولم تفارق السلطان مراد زهادته في الدنيا والملك فنزل على العرش مرة أخرى لابنه محمد وعاد إلى عزلته في مغنيسيا كما يعود الأسد المنتصر إلى عرينه.

ولقد ذكر لنا التاريخ مجموعة من الملوك والحكام الذين نزلوا عن عروشهم وانقطعوا عن الناس وأبهة الملك إلى العزلة، وأن بعض هؤلاء الملوك قد عادوا إلى العرش ولكن لم يذكر لنا أحد منهم نزل عن العرش مرتين غير السلطان مراد فإنه لم يكد يذهب إلى معتزله بأسيا الصغرى حتى ثار الانكشارية في أدرنة وشغبوا وهاجوا وماجوا وتمردوا وطغوا وأفسدوا وكان السلطان محمد فتى يافعاً حديث السن وخشي بعض رجال الدولة أن يستفحل الأمر ويعظم الخطر ويتفاقم الشر، وتسوء العاقبة فبعثوا إلى السلطان مراد يستقدمونه ليتولى الأمر بنفسه (4) وجاء السلطان مراد وقبض

(1) انظر: محمد الفاتح، د. عبدالسلام عبدالعزيز، ص 22.

(2) انظر: محمد الفاتح، ص 46.

(3) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، ص 47.

(4) انظر: محمد الفاتح، ص 47.

على زمام الأمر وخضع له الانكشارية وأرسل ابنه محمد إلى مغنيسيا حاكماً عليها بالأناضول، وبقي السلطان مراد الثاني على العرش العثماني إلى آخر يوم في حياته، وقد قضاها في الغزو والفتح(1).

أولاً: مراد الثاني وحبه للشعراء والعلماء وفعل الخير:

يقول محمد حرب: (مراد الثاني وإن كان مقلداً وكان مالدينا من شعره قليلاً، لصاحب فضل على الأدب والشعر لا يجحد، لأن نعمة حلت على الشعراء الذين كان يدعوهم إلى مجلسه يومين في كل أسبوع ليقولوا ما عندهم، ويأخذون بأطراف الأحاديث والأسمار بينهم وبين السلطان، فيستحسن أو يستهجن، ويختار أو يطرح، وكثيراً ما كان يسدّ عوز المعوزين منهم بنائلة الغمر أو بإيجاد حرفة لهم تدرّ الرزق عليهم حتى يفرغوا من هموم العيش ويتوفروا على قول الشعر، وقد أنجب عصره كثيراً من الشعراء(2).

لقد حوّل القصر الحاكم إلى نوع من الأكاديمية العلمية ووصل به الأمر أن كان الشعراء يرافقونه في جهاده(3).

ومن أشعاره: (تعالوا نذكر الله لأننا لسنا بدائمين في الدنيا) (4). كان سلطاناً عالماً عاقلاً عادلاً شجاعاً، وكان يرسل لأهالي الحرمين الشريفين وبيت المقدس من خاصة ماله في كل عام ثلاثة آلاف وخمس مئة دينار، وكان يعتني بشأن العلم والعلماء والمشايخ والصلحاء، مهد الممالك،

(1) السلطان محمد الفاتح، ص 23.

(2) العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 246.

(3) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 246.

(4) السلاطين العثمانيون الكتاب المصور، ص 43.

وأمن السبل، وأقام الشرع والدين وأذل الكفار والملحدين (1) وقال عنه يوسف آصاف : (كان تقياً صالحاً، وبطلاً صنيدياً، محباً للخير، ميلاً للرفقة والإحسان) (2).

ثانياً: وفاته ووصيته

قال صاحب النجوم الزاهرة: في وفيات عام 855هـ في مراد الثاني: (وكان خير ملوك زمانه شرقاً وغرباً، مما اشتمل عليه من العقل والحزم والعزم والكرم والشجاعة والسؤدد، وأفنى عمره في الجهاد في سبيل الله تعالى، وغزا عدّة غزوات، وفتح عدّة فتوحات، وملك الحصون المنيعة، والقلاع والمدن من العدو المخذول. على أنه كان منهمكاً في اللذات التي تهواها النفوس، ولعل حاله كقول بعض الأخيار - وقد سئل عن دينه - فقال: أمزقه بالمعاصي وأرقعته بالاستغفار - ، فهو أحق بعفو الله وكرمه، فإن له المواقف المشهورة، وله اليد البيضاء في الإسلام ونكاية العدو، حتى قيل عنه إنه كان سياجاً للإسلام والمسلمين - عفا الله عنه، وعوّض شبابه الجنة...) (3).

توفي السلطان في قصر ادرنه عن عمر يناهز 47 عاماً وبناء على وصيته رحمه الله دفن في جانب جامع مرادية في بورصة. ووصى بان لا يبنى على قبره شيء وأن يعمل أماكن في جوانب القبر يجلس فيها الحفاظ لقراءة القرآن الكريم وأن يدفن في يوم الجمعة فنفذت وصيته (4). وترك في وصيته شعراً، بعد أن كان قلقاً يخشى أن يدفن في قبر ضخم، وكان يريد ألا يبنى شيء على مكان دفنه، فكتبها شعراً ليقول: فليأت يوم يرى الناس فيه ترابي (5).

لقد قام السلطان مراد ببناء جوامع ومدارس، وقصوراً وقناطر فمنها جامع ادرنه ذو ثلاثة شرف

(1) انظر: تاريخ السلاطين آل عثمان للقرماني، ص25.

(2) تاريخ سلاطين آل عثمان، ص55.

(3) النجوم الزاهرة (3/16) لجمال الدين ابي المحاسن يوسف بن تغري.

(4) انظر: السلاطين العثمانيون ، ص43.

(5) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص246.

وَبَنِي بَجَانِبِ هَذَا الْجَامِعِ مَدْرَسَةً وَتَكِيَّةً يَطْعَمُ فِيهَا الْفُقَرَاءَ وَالْمَسَاكِينَ (1).

الفصل الثالث

محمد الفاتح وفتح القسطنطينية

المبحث الأول

(1) انظر: السلاطين العثمانيون، ص 43.

هو السلطان محمد الثاني (431هـ - 1481م)، يعتبر السلطان العثماني السابع في سلسلة آل عثمان يلقب بالفاتح وأبي الخيرات. حكم مايقرب من ثلاثين عاماً كانت خيراً وعزة للمسلمين(1). تولى حكم الدولة العثمانية بعد وفاة والده في 16 محرم عام 855هـ الموافق 18 فبراير عام 1451م وكان عمره آنذاك 22 سنة ولقد امتاز السلطان محمد الفاتح بشخصية فذة جمعت بين القوة والعدل كما أنه فاق أقرانه منذ حداثة في كثير من العلوم التي كان يتلقاها في مدرسة الأمراء وخاصة معرفته لكثير من لغات عصره وميله الشديد لدراسة كتب التاريخ، مما ساعده فيما بعد على إبراز شخصيته في الإدارة وميادين القتال حتى أنه اشتهر أخيراً في التاريخ بلقب محمد الفاتح، لفتح القسطنطينية. وقد انتهج المنهج الذي سار عليه والده وأجداده في الفتوحات ولقد برز بعد توليه السلطة في الدولة العثمانية بقيامه بإعادة تنظيم إدارات الدولة المختلفة، واهتم كثيراً بالأموال المالية فعمل على تحديد موارد الدولة وطرق الصرف منها بشكل يمنع الإسراف والبذخ أو الترف. وكذلك ركز على تطوير كتائب الجيش وأعاد تنظيمها ووضع سجلات خاصة بالجند، وزاد من مرتباتهم وأمدهم بأحدث الأسلحة المتوفرة في ذلك العصر. وعمل على تطوير إدارة الأقاليم وأقر بعض الولاة السابقين في أقاليمهم وعزل من ظهر منه تقصيراً أو إهمال وطور البلاط السلطاني وأمدهم بالخبرات الإدارية والعسكرية الجيدة مما ساهم في استقرار الدولة والتقدم إلى الإمام وبعد أن قطع أشواطاً مثمرة في الإصلاح الداخلي تطلع إلى المناطق المسيحية في أوروبا لفتحها ونشر الإسلام فيها، ولقد ساعدته عوامل عدة في تحقيق أهدافه، منها الضعف الذي وصلت إليه الإمبراطورية البيزنطية بسبب المنازعات مع الدول الأوروبية الأخرى، وكذلك بسبب

(1) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص253.

الخلافت الداخلية التي عمت جميع مناطقها ومدنها ولم يكتف السلطان محمد بذلك بل انه عمل بجد من أجل أن يتوج انتصاراته بفتح القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية، والمعقل الاستراتيجي الهام للتحركات الصليبية ضد العالم الإسلامي لفترة طويلة من الزمن، والتي طالما اعتزت بها الامبراطورية البيزنطية بصورة خاصة والمسيحية بصورة عامة، وجعلها عاصمة للدولة العثمانية وتحقيق ما عجز عن تحقيقه أسلافه من قادة الجيوش الإسلامية(1).

أولاً: فتح القسطنطينية

تعد القسطنطينية من أهم المدن العالمية، وقد أسست في عام 330م على يد الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الأول(2) ، وقد كان لها موقع عالمي فريد حتى قيل عنها : " لو كانت الدنيا مملكة واحدة لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها "(3)، ومنذ تأسيسها فقد اتخذها البيزنطيون عاصمة لهم وهي من أكبر المدن في العالم وأهمها(4) عندما دخل المسلمون في جهاد مع الدولة البيزنطية كان لهذه المدينة مكانتها الخاصة من ذلك الصراع، ولذلك فقد بشر الرسول p أصحابه بفتحها في عدة مواقف، من ذلك: ما حدث أثناء غزوة الخندق(5)، ولهذا فقد تنافس خلفاء المسلمين وقادتهم على فتحها عبر العصور المختلفة طمعاً في أن يتحقق فيهم حديث الرسول p : (لتفتحن القسطنطينية على يد رجل، فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش)(6).

(1) انظر: قيام الدولة العثمانية ، ص43.

(2) انظر: أوروبا في العصور الوسطى، سعيد عاشور، ص29.

(3) فتح القسطنطينية وسيرة السلطان محمد الفاتح، د.محمد مصطفى، ص36-46.

(4) المجتمع المدني (الجهاد ضد المشركين)، د. أكرم ضياء العمري، ص115.

(5) احمد في مسنده (335/4).

(6) المصدر السابق نفسه (335/4).

لذلك فقد امتدت إليها يد القوات المسلمة المجاهدة منذ أيام معاوية بن أبي سفيان في أولى الحملات الإسلامية عليها سنة 44هـ ولم تنجح هذه الحملة، وقد تكررت حملات أخرى في عهده حظيت بنفس النتيجة.

كما قامت الدولة الأموية بمحاولة أخرى لفتح القسطنطينية وتعد هذه الحملة أقوى الحملات الأموية عليها، وهي تلك الحملة التي تمت في أيام سليمان بن عبد الملك سنة 98هـ (1). واستمرت المحاولة لفتح القسطنطينية حيث شهد العصر العباسي الأول حملات جهادية مكثفة ضد الدولة البيزنطية، ولكنها لم تتمكن من الوصول إلى القسطنطينية نفسها وتهديدها مع أنها هزتها وأثرت على الأحداث داخلها، وبخاصة تلك الحملة التي تمت في أيام هارون الرشيد (2) سنة 190هـ.

وقد قامت فيما بعد عدة دويلات إسلامية في آسيا الصغرى كان من أهمها دولة السلاجقة، التي امتدت سلطتها إلى آسيا الصغرى. كما أن زعيمها ألب أرسلان (455 - 465هـ / 1063 - 1072م) استطاع أن يهزم امبراطور الروم ديمونوس في موقعة ملاذكرد عام 464هـ/1070م ثم أسره وضربه وسجنه وبعد مدة أطلق سراحه بعد أن تعهد بدفع جزية سنوية للسلطان السلجوقي، وهذا يمثل خضوع جزء كبير من امبراطورية الروم للدولة الإسلامية السلجوقية وبعد ضعف دولة السلاجقة الكبرى ظهرت عدة دول سلجوقية كان منها دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى والتي استطاعت مد سلطتها إلى سواحل بحر إيجه غربا وإضعاف الامبراطورية الرومانية.

وفي مطلع القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي خلف العثمانيون سلاجقة الروم (3) وتجددت المحاولات الإسلامية لفتح القسطنطينية وكانت البداية حين جرت محاولة لفتحها في أيام

(1) ابن خلدون العبر (70/3) ، تاريخ خليفة بن خياط، ص315.

(2) خليفة بن خياط، تاريخه، ص458، تاريخ الطبري (69/10)، ابن الأثير الكامل (185،186/6).

(3) قيام الدولة العثمانية، ص46.

السلطان بايزيد " الصاعقة " الذي تمكنت قواته من محاصرتها بقوة سنة 796هـ - 1393م(1)، وأخذ السلطان يفاوض الإمبراطور البيزنطي لتسليم المدينة سلماً إلى المسلمين، ولكنه أخذ يراوغ ويماطل ويحاول طلب المساعدات الأوروبية لصد الهجوم الإسلامي عن القسطنطينية ، وفي الوقت نفسه وصلت جيوش المغول يقودها تيمورلنك إلى داخل الأراضي العثمانية وأخذت تعيثُ فساداً ، فاضطر السلطان بايزيد لسحب قواته وفك الحصار عن القسطنطينية لمواجهة المغول بنفسه ومعه بقية القوات العثمانية ، حيث دارت بين الطرفين معركة أنقرة الشهيرة ، والتي أسر فيها بايزيد (الصاعقة) ثم مات بعد ذلك في الأسر سنة 1402م(2) وكان نتيجة ذلك ان تفككت الدولة العثمانية مؤقتاً ، وتوقف التفكير في فتح القسطنطينية إلى حين .

وما أن استقرت الأحوال في الدولة حتى عادت روح الجهاد من جديد ، ففي أيام السلطان مراد الثاني الذي تولى الحكم في الفترة 824هـ-863هـ/ 1421-1451م جرت عدة محاولات لفتح القسطنطينية وتمكنت جيوش العثمانيين في أيامه من محاصرتها أكثر من مرة ، وكان الإمبراطور البيزنطي في أثناء تلك المحاولات يعمل على إيقاع الفتنة في صفوف العثمانيين بدعم الخارجين على السلطان(3)، وبهذه الطريقة نجح في إشغاله في هدفه الذي حرص عليه ، فلم يتمكن العثمانيون من تحقيق ما كانوا يطمحون إليه إلا في زمن ابنه محمد الفاتح فيما بعد .

كان محمد الفاتح يمارس الأعمال السلطانية في حياة أبيه ومنذ تلك الفترة وهو يعايش صراع الدولة البيزنطية في الظروف المختلفة ، كما كان على اطلاع تام بالمحاولات العثمانية السابقة لفتح القسطنطينية ، بل ويعلم بما سبقها من محاولات متكررة في العصور الإسلامية المختلفة ،

(1) تاريخ سلاطين آل عثمان ، ص18.

(2) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور ، د. عبدالعزيز العمري، ص358.

(3) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص358.

وبالتالي فمنذ أن ولى السلطنة العثمانية سنة 855هـ الموافق 1451م (1) كان يتطلع إلى فتح القسطنطينية ويفكر في فتحها ولقد ساهمت تربية العلماء على تنشئته على حب الإسلام والإيمان والعمل بالقرآن وسنة سيد الأنام ولذلك نشأ على حب الإلتزام بالشريعة الإسلامية ، واتصف بالتقى والورع ، ومحبا للعلم والعلماء ومشجعا على نشر العلوم ويعود تدينه الرفيع للتربية الإسلامية الرشيدة التي تلقها منذ الصغر ، بتوجيهات من والده ، وجهود الشخصيات العلمية القوية التي أشرفت على تربيته، وصفاء أولئك الأساتذة الكبار وعزوفهم عن الدنيا وابتعادهم عن الغرور ومجاهدتهم لأنفسهم ، ممن أشرفوا على رعايته(2).

لقد تأثر محمد الفاتح بالعلماء الربانيين منذ طفولته ومن أخصهم العالم الرباني "أحمد بن اسماعيل الكوراني" مشهودا له بالفضيلة التامة ، وكان مدرسه في عهد السلطان "مراد الثاني" والد "الفتاح" . وفي ذلك الوقت كان محمد الثاني -الفتاح- ، أميرا في بلدة "مغنيسيا" وقد أرسل إليه والده عددا من المعلمين ولم يمتثل أمرهم ، ولم يقرأ شيئا ، حتى أنه لم يختم القرآن الكريم ، فطلب السلطان المذكور ، رجلا له مهابة وحدة ، فذكروا له المولى "الكوراني" ، فجعله معلما لولده وأعطاه قضايا يضربه بذلك إذا خالف أمره . فذهب إليه ، فدخل عليه والقضيب بيده ، فقال: أرسلني والدك للتعليم والضرب إذا خالفت أمري، فضحك السلطان محمد خان من ذلك الكلام ، فضربه المولى الكوراني في ذلك المجلس ضربا شديداً ، حتى خاف منه السلطان محمد خان ، وختم القرآن في مدة يسيرة . . . " (3).

هذه التربية الإسلامية الصادقة، وهؤلاء المربون الأفاضل، ممن كان منهم بالأخص هذا العالم الفاضل، ممن يمزق الأمر السلطاني إذا وجد به مخالفة للشرع أو لاينحني للسلطان ، ويخاطبه

(1) المصدر السابق نفسه، ص359.

(2) انظر: تاريخ الدولة العثمانية ، د. علي حسون، ص42.

(3) كتاب الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، ص52 نقلاً عن تاريخ الدولة العثمانية، ص43.

باسم، ويصافحه ولا يقبل يده، بل السلطان يقبل يده. من الطبيعي أن يتخرج من بين جنباتها أناس عظماء كمحمد الفاتح، وأن يكون مسلماً مؤمناً ملتزماً بحدود الشريعة، مقيد بالأوامر والنواهي معظماً لها ومدافعاً عن إجراءات تطبيقها على نفسه أولاً ثم على رعيته، تقياً صالحاً يطلب الدعاء من العلماء العاملين الصالحين (1).

وبرز دور الشيخ آق شمس الدين في تكوين شخصية محمد الفاتح وبث فيه منذ صغره أمرين هما:

1- مضاعفة حركة الجهاد العثمانية.

2- الإيحاء دوماً لمحمد منذ صغره بأنه الأمير المقصود بالحديث النبوي: (لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش) (2) لذلك كان الفاتح يطمع أن ينطبق عليه حديث رسول الله ﷺ المذكور (3).

ثانياً: الإعداد للفتح:

بذل السلطان محمد الثاني جهوده المختلفة للتخطيط والترتيب لفتح القسطنطينية، وبذل في ذلك جهوداً كبيرة في تقوية الجيش العثماني بالقوى البشرية حتى وصل تعدادها الى قرابة ربع مليون مجاهد (4) وهذا عدد كبير مقارنة بجيوش الدول في تلك الفترة، كما عني عناية خاصة بتدريب تلك الجموع على فنون القتال المختلفة وبمختلف أنواع الأسلحة التي تؤهلهم للعملية الجهادية المنتظرة كما أعتنى الفاتح بإعدادهم إعداداً معنوياً قوياً وغرس روح الجهاد فيهم، وتذكيرهم بثناء الرسول ﷺ على الجيش الذي يفتح القسطنطينية وعسى أن يكونوا هم الجيش المقصود بذلك، مما

(1) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص 43.

(2) رواه احمد في مسنده (335/4).

(3) انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص 359.

(4) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك، ص 161.

أعطاهم قوة معنوية وشجاعة منقطعة النظير ، كما كان لانتشار العلماء بين الجنود أثر كبير في تقوية عزائم الجنود وربطهم بالجهاد الحقيقي وفق أوامر الله.

وقد اعتنى السلطان بإقامة قلعة (رومي حصار) في الجانب الأوروبي على مضيق البسفور في أضيق نقطة منه مقابل القلعة التي أسست في عهد السلطان بايزيد في البر الآسيوي ، وقد حاول الامبراطور البيزنطي ثني السلطان الفاتح عن بناء القلعة مقابل التزامات مالية تعهد به إلا أن الفاتح أصر على البناء لما يعلمه من أهمية عسكرية لهذا الموقع، حتى اكتملت قلعة عالية ومحصنة، وصل ارتفاعها الى 82 متراً وأصبحت القلعتان متقابلتين ولا يفصل بينهما سوى 660م تتحكما في عبور السفن من شرقي البسفور الى غربيه وتستطيع نيران مدافعها منع أي سفينة من الوصول الى القسطنطينية من المناطق التي تقع شرقها مثل مملكة طرابزون وغيرها من الأماكن التي تستطيع دعم المدينة عند الحاجة(1).

أ- اهتمام السلطان بجمع الأسلحة اللازمة:

اعتنى السلطان عناية خاصة بجمع الاسلحة اللازمة لفتح القسطنطينية، ومن أهمها المدافع التي أخذت اهتماماً خاصاً منه حيث أحضر مهندساً مجرباً يدعى (أوربان) كان بارعاً في صناعة المدافع فأحسن استقباله ووفر له جميع الإمكانيات المالية والمادية والبشرية، وقد تمكن هذا المهندس من تصميم وتنفيذ العديد من المدافع الضخمة كان على رأسها المدفع السلطاني المشهور، والذي ذكر أن وزنه كان يصل الى مئات الأطنان وأنه يحتاج الى مئات الثيران القوية لتحريكه، وقد أشرف السلطان بنفسه على صناعة هذه المدافع وتجريبها(2).

ب- الاهتمام بالأسطول:

(1) انظر: سلاطين آل عثمان، ص26.

(2) انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص361.

ويضاف الى هذا الاستعداد ما بذله الفاتح من عناية خاصة بالأسطول العثماني حيث عمل على تقويته وتزويده بالسفن المختلفة ليكون مؤهلاً للقيام بدوره في الهجوم على القسطنطينية ، تلك المدينة البحرية التي لا يكمل حصارها دون وجود قوة بحرية تقوم بهذه المهمة وقد نكر أن السفن التي أعدت لهذا الأمر بلغت أكثر من أربعمئة سفينة(1).

ج- عقد معاهدات:

كما عمل الفاتح قبل هجومه على القسطنطينية على عقد معاهدات مع أعدائه المختلفين ليتفرغ لعدو واحد، فعقد معاهدة مع إمارة (غلطة) المجاورة للقسطنطينية من الشرق ويفصل بينهما مضيق (القرن الذهبي) ، كما عقد معاهدات مع (المجد) و(البندقية) وهما من الامارات الأوروبية المجاورة ، ولكن هذه المعاهدات لم تصمد حينما بدأ الهجوم الفعلي على القسطنطينية، حيث وصلت قوات من تلك المدن وغيرها للمشاركة في الدفاع عن القسطنطينية(2) مشاركة لبني عقيدتهم من النصارى متتاسين عهودهم ومواثيقهم مع المسلمين.

في هذه الاثناء التي كان السلطان يعد العدة فيها للفتح استمات الامبراطور البيزنطي في محاولاته لثنيه عن هدفه، بتقديم الأموال والهدايا المختلفة إليه، وبمحاولة رشوة بعض مستشاريه ليؤثروا على قراره(3) ولكن السلطان كان عازماً على تنفيذ مخططه ولم تثنه هذه الأمور عن هدفه، ولما رأى الامبراطور البيزنطي شدة عزيمة السلطان على تنفيذ هدفه عمد الى طلب المساعدات من مختلف الدول والمدن الأوروبية وعلى رأسها البابا زعيم المذهب الكاثوليكي ، في الوقت الذي كانت فيه كنائس الدولة البيزنطية وعلى رأسها القسطنطينية تابعة للكنيسة الأرثوذكسية وكان بينهما عدااء شديد وقد أضطر الامبراطور لمجاملة البابا بأن يتقرب إليه ويظهر له استعداداه

(1) انظر: محمد الفاتح ، ص90، سالم الرشيدى .

(2) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان ، ص58.

(3) انظر: فتح القسطنطينية، محمد صفوت، ص69.

للعمل على توحيد الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية لتصبح خاضعة له، في الوقت الذي لم يكن الأرثوذكس يرغبون في ذلك، وقد قام البابا بناءً على ذلك بإرسال مندوب منه الى القسطنطينية ، خطب في كنيسة آيا صوفيا ودعا للبابا وأعلن توحيد الكنيستين، مما أغضب جمهور الأرثوذكس في المدينة، وجعلهم يقومون بحركة مضادة لهذا العمل الامبراطوري الكاثوليكي المشترك، حتى قال بعض زعماء الأرثوذكس : (إنني افضل أن أشاهد في ديار البيزنط عمائم الترك على أن أشاهد القبعة اللاتينية) (1).

ثانياً: الهجوم:

كان القسطنطينية محاطة بالمياه البحرية في ثلاث جهات، مضيق البسفور ، وبحر مرمرة ، والقرن الذهبي الذي كان محمياً بسلسلة ضخمة جداً تتحكم في دخول السفن إليه، بالإضافة الى ذلك فإن خطين من الأسوار كانت تحيط بها من الناحية البرية من شاطئ بحر مرمرة الى القرن الذهبي، يتخللها نهر ليكوس، وكان بين السورين فضاء يبلغ عرضه 60 قدماً ويرتفع السور الداخلي منها 40 قدماً وعليه أبراج يصل ارتفاعها الى 60 قدماً ، وأما السور الخارجي فيبلغ ارتفاعه قرابة خمس وعشرين قدماً وعليه أبراج موزعة مليئة بالجند(2)، وبالتالي فإن المدينة من الناحية العسكرية تعد من أفضل مدن العالم تحصيناً، لما عليها من الأسوار والقلاع والحصون إضافة الى التحصينات الطبيعية، وبالتالي فإنه يصعب اختراقها، ولذلك فقد استعصت على عشرات المحاولات العسكرية لاقتحامها ومنها إحدى عشرة محاولة اسلامية سابقة كان السلطان الفاتح يكمل استعدادات القسطنطينية ويعرف أخبارها ويجهز الخرائط اللازمة لحصارها، كما كان يقوم بنفسه بزيارات استطلاعية يشاهد فيها استحکامات القسطنطينية وأسوارها(3)، وقد عمل

(1) انظر: محمد الفاتح للرشيدي، ص 89.

(2) انظر: سلاطين آل عثمان، ص 2؛ محمد الفاتح، ص 96.

(3) انظر: محمد الفاتح، سالم الرشيدي، ص 82؛ فتح القسطنطينية محمد صفوت، ص 57.

السلطان على تمهيد الطريق بين أدرنة والقسطنطينية لكي تكون صالحة لجر المدافع العملاقة خلالها الى القسطنطينية، وقد تحركت المدافع من أدرنة الى قرب القسطنطينية، في مدة شهرين حيث تمت حمايتها بقسم الجيش حتى وصلت الأجناد العثمانية يقودها الفاتح بنفسه الى مشارف القسطنطينية في يوم الخميس 26 ربيع الأول 857هـ الموافق 6 أبريل 1453م ، فجمع الجند وكانوا قرابة مائتين وخمسين ألف جندي، فخطب فيهم خطبة قوية حثهم فيها على الجهاد وطلب النصر أو الشهادة ، وذكرهم فيها بالتضحية وصدق القتال عند اللقاء، وقرأ عليهم الآيات القرآنية التي تحث على ذلك، كما ذكر لهم الأحاديث النبوية التي تبشر بفتح القسطنطينية وفضل الجيش الفاتح لها وأميره، وما في فتحها من عز للاسلام والمسلمين ، وقد بادر الجيش بالتهليل والتكبير والدعاء(1).

وكان العلماء مبعوثين في صفوف الجيش مقاتلين ومجاهدين معهم مما أثر في رفع معنوياتهم حتى كان كل جندي ينتظر القتال بفارغ الصبر ليؤدي ما عليه من واجب(2).

وفي اليوم التالي قام السلطان بتوزيع جيشه البري أمام الأسوار الخارجية للمدينة، مشكلاً ثلاثة أقسام رئيسية تمكنت من إحكام الحصار البري حول مختلف الجهات، كما أقام الفاتح جيوشاً احتياطية خلف الجيوش الرئيسية، وعمل على نصب المدافع أمام الأسوار، ومن أهمها المدفع السلطاني العملاق الذي أقيم أمام باب طب قابي ، كما وضع فرقاً للمراقبة في مختلف المواقع المرتفعة والقريبة من المدينة، وفي نفس الوقت انتشرت السفن العثمانية في المياه المحيطة بالمدينة، إلا أنها لم تستطع الوصول الى القرن الذهبي بسبب وجود السلسلة الضخمة التي منعت أي سفينة من دخوله بل وتدمر كل سفينة تحاول الدنو والاقتراب، واستطاع الاسطول العثماني أن

(1) انظر: سلاطين آل عثمان، ص25، 24.

(2) انظر: الفتوحات الاسلامية عبر العصور، ص364.

تستولي على جزر الامراء في بحر مرمرة(1).

وحاول البيزنطيون أن يبذلوا قصارى جهدهم للدفاع عن القسطنطينية ووزعوا الجنود على الأسوار، واحكموا التحصينات وأحكم الجيش العثماني قبضته على المدينة، ولم يخلوا الامر من وقوع قتال بين العثمانيين المهاجمين والبيزنطيين المدافعين منذ الايام الأولى للحصار، وفتحت أبواب الشهادة وفاز عدد كبير من العثمانيين بها خصوصاً من الأفراد الموكلين بالاقتراب من الابواب.

وكانت المدفعية العثمانية تطلق مدافعها من مواقع مختلفة نحو المدينة ، وكان لقذائفها ولصوتها الرهيب دور كبير في إيقاع الرعب في قلوب البيزنطيين وقد تمكنت من تحطيم بعض الأسوار حول المدينة، ولكن المدافعين كانوا سرعان مايعيدون بناء الأسوار وترميمها . ولم تنقطع المساعدات المسيحية من أوروبا ووصلت إمدادات من جنوة مكونة من خمس سفن وكان يقودها القائد الجنوبي جوستينيان يرافقه سبعمئة مقاتل متطوع من دول أوروبية متعددة واستطاعت سفنهم أن تصل الى العاصمة البيزنطية العتيقة بعد مواجهة بحرية مع السفن العثمانية المحاصرة للمدينة وكان لوصول هذه القوة أثر كبير في رفع معنويات البيزنطيين، وقد عين قائدها جستيان قائداً للقوات المدافعة عن المدينة(2).

وقد حاولت القوات البحرية العثمانية تخطي السلسلة الضخمة التي تتحكم في مدخل القرن الذهبي والوصول بالسفن الاسلامية إليه، وأطلقوا سهامهم على السفن الأوروبية والبيزنطية ولكنهم فشلوا في تحقيق مرادهم في البداية وارتفعت الروح المعنوية للمدافعين عن المدينة(3). ولم يكل القس ورجال الدين النصارى، فكانوا يطوفون بشوارع المدينة، وأماكن التحصين

(1) انظر: محمد الفاتح ، ص98؛ العثمانيون والبلقان، ص89.

(2) انظر: العثمانيون والبلقاء، د.علي حسون، ص92.

(3) انظر: محمد الفاتح للرشيدي، ص120.

ويحرضون المسيحيين على الثبات والصبر، ويشجعون الناس على الذهاب الى الكنائس ودعاء المسيح والسيدة العذراء أن يخلصوا المدينة، وأخذ الامبراطور قسطنطين يتردد بنفسه على كنيسة أيا صوفيا لهذا الهدف(1).

ثالثاً: مفاوضات بين محمد الفاتح وقسطنطين:

استبسل العثمانيون المهاجمون على المدينة وعلى راسهم محمد الفاتح وصمد البيزنطيون بقيادة قسطنطين صموداً بطولياً في الدفاع وحاول الامبراطور البيزنطي أن يخلص مدينته وشعبه بكل ما يستطيع من حيلة، فقدم عروضاً مختلفة للسلطان ليغريه بالانسحاب مقابل الأموال أو الطاعة، أو غير ذلك من العروض التي قدمها ، ولكن الفاتح رحمه الله يرد بالمقابل طالباً تسليم المدينة تسليماً(2)، وأنه في هذه الحالة لن يتعرض أحد من أهلها ولا كنائسها للأذى، وكان مضمون الرسالة: (فليسلم لي إمبراطوركم مدينة القسطنطينية وأقسم بأن جيشي لن يتعرض لأحد في نفسه وماله وعرضه ومن شاء بقي في المدينة وعاش فيها في أمن وسلام ومن شاء رحل عنها حيث اراد في أمن وسلام أيضاً)(3).

كان الحصار لايزال ناقصاً ببقاء مضيق القرن الذهبي في ايدي البحرية البيزنطية، ومع ذلك فإن الهجوم العثماني كان مستمراً دون هوادة حيث أظهر جنود الانكشارية شجاعة فائقة، وبسالة نادرة، فكانوا يقدمون على الموت دون خوف في أعقاب كل قصف مدفعي، وفي يوم 18 أبريل(4) تمكنت المدافع العثمانية من فتح ثغرة في الأسوار البيزنطية عند وادي ليكوس في الجزء الغربي من الأسوار ، فاندفع إليها الجنود العثمانيون بكل بسالة محاولين اقتحام المدينة من الثغرة، كما

(1) انظر: محمد الفاتح للرشيدي، ص100.

(2) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان، ص58.

(3) محمد الفاتح، عبدالسلام فهمي ، ص92.

(4) انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص367.

حاولوا اقتحام الأسوار الأخرى بالسلام التي ألقوها عليها، ولكن المدافعين عن المدينة بقيادة جستينان استماتوا في الدفاع عن الثغرة والأسوار، واشتد القتال بين الطرفين ، وكانت الثغرة ضعيفة وكثرة السهام والنبال والمقذوفات على الجنود المسلمين، ومع ضيق المكان وشدة مقاومة الأعداء وحلول الظلام أصدر الفاتح أوامره للمهاجمين بالانسحاب بعد أن أثاروا الرعب في قلوب أعدائهم متحينين فرصة اخرى للهجوم(1).

وفي اليوم نفسه حاولت بعض السفن العثمانية اقتحام القرن الذهبي بتحطيم السلسلة الحاجزة عنه، ولكن السفن البيزنطية والأوروبية المشتركة، إضافة الى الفرق الدفاعية المتمركزة خلف السلسلة الضخمة من المدافعين عن مدخل الخليج، استطاعوا جميعاً من صد السفن الاسلامية وتدمير بعضها، فاضطرت بقية السفن الى العودة بعد أن فشلت في تحقيق مهمتها(2).

رابعاً: عزل قائد الأسطول العثماني وشجاعة محمد الفاتح:

بعد هذه المعركة بيومين وقعت معركة اخرى بين البحرية العثمانية وبعض السفن الأوروبية التي حاولت الوصول الى الخليج، حيث بذلت السفن الاسلامية جهوداً كبيرة لمنعها ، وأشرف الفاتح بنفسه على المعركة من على الساحل وكان قد أرسل الى قائد الأسطول وقال له: (إما أن تستولي على هذه السفن وإما أن تغرقها، وإذا لم توفق في ذلك فلا ترجع إلينا حياً)(3) لكن السفن الأوروبية نجحت في الوصول الى هدفها ولم تتمكن السفن العثمانية من منعها، رغم الجهود العظيمة المبذولة لذلك وبالتالي غضب السلطان محمد الفاتح غضباً شديداً فعزل قائد الاسطول(4) بعد ما رجع الى مقر قيادته واستدعاه وعنف محمد الفاتح قائد الاسطول بالطه

(1) انظر: محمد الفاتح ، عبدالسلام فهمي، ص123.

(2) انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص368.

(3) انظر: محمد الفاتح للرشيدي، ص101.

(4) انظر: مواقف حاسمة، محمد عبدالله عنان، ص180.

أوغلي وعنفه واتهمه بالجبن، وتأثر بالطة أوغلي لهذا وقال : (إني استقبل الموت بجنان ثابت، ولكن يؤلمني أن أموت وأنا متهم بمثل هذه التهمة. لقد قاتلت انا ورجالي بكل ماكان في وسعنا من حيلة وقوة، ورفع طرف عمامته عن عينه المصابة)(1).

أدرك محمد الفاتح عند ذلك أن الرجل قد أعذر، فتركه ينصرف واكتفى بعزله من منصبه، وجعل مكانه حمزة باشا(2).

لقد ذكرت كتب التاريخ أن السلطان محمد الفاتح كان يراقب هذه المعارك البحرية وهو على جواده وقد اندفع نحو البحر حتى غاص حصانه الى صدره وكانت السفن المتقاتلة على مرمى حجر منه فأخذ يصيح لبطله أوغلي بأعلى صوته: يا قبطان! يا قبطان! ويلوح له بيده، وضاعف العثمانيون جهودهم في الهجوم دون أن يأتروا في السفن تأثيراً لينا(3).

كانت الهزائم البحرية للأسطول العثماني دور كبير في محاولة بعض مستشاري السلطان وعلى رأسهم الوزير (خليل باشا) إقتناعه بالعدول عن الاستيلاء على القسطنطينية والرضا بمصالحة أهلها دون السيطرة عليها وبالتالي رفع الحصار عنها، ولكن السلطان أصر على محاولة الفتح واستمر في قصف دفاعات المدينة بالمدافع من كل جانب ، وفي الوقت نفسه كان يفكر بجدية في إدخال السفن الاسلامية النالقرن الذهبي ، خصوصاً وأن الأسوار من ناحية القرن الذهبي متهاوية، وبالتالي سيضطر البيزنطيون الى سحب بعض قواتهم المدافعة عن الاسوار الغربية من المدينة وبهذا التفريق للقوات المدافعة ستنهياً فرصة أكبر في الهجوم على تلك الأسوار بعد أن ينقص عدد المدافعين عنها(4).

(1) انظر: محمد الفاتح للرشيدي، ص103.

(2) المصدر السابق نفسه، ص103.

(3) انظر: محمد الفاتح للرشيدي، ص103.

(4) انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص369.

لاحق للسلطان فكرة بارعة وهي نقل السفن من مرساها في بشكطاش الى القرن الذهبي، وذلك بجرها على الطريق البري الواقع بين الميناءين مبتعداً عن حي غلطة خوفاً على سفنه من الجنوبيين، وقد كانت المسافة بين الميناء نحو ثلاثة أميال، ولم تكن أرضاً مبسوطة سهلة ولكنها كانت وهاداً وتلالاً غير ممهدة.

جمع محمد الفاتح أركان حربه وعرض عليهم فكرته، وحدد لهم مكان معركته القادمة، فتلقى منهم كل تشجيع، واعربوا عن اعجابهم بها.

بدأ تنفيذ الخطة، وأمر السلطان محمد الثاني فمهدت الأرض وسويت في ساعات قليلة وأتى بألواح من الخشب دهنت بالزيت والشحم، ثم وضعت على الطريق الممهّد بطريقة يسهل بها انزلاج السفن وجرها، وكان أصعب جزء من المشروع هو نقل السفن على انحدار التلال المرتفعة، الا أنه بصفة عامة كانت السفن العثمانية صغيرة الحجم خفيفة الوزن(1).

وجرت السفن من البسفور البالبر حيث سحبت على تلك الأخشاب المدهونة بالزيت مسافة ثلاثة أميال ، حتى وصلت الى نقطة آمنة فأُنزلت في القرن الذهبي، وتمكن العثمانيون في تلك الليلة من سحب أكثر من سبعين سفينة وإنزالها في القرن الذهبي على حين غفلة من العدو، بطريقة لم يسبق إليها السلطان الفاتح قبل ذلك ، وقد كان يشرف بنفسه على العملية التي جرت في الليل بعيداً عن أنظار العدو ومراقبته(2).

كان هذا العمل عظيماً بالنسبة للعصر الذي حدث فيه بل معجزة من المعجزات ، تجلّى فيه سرعة التفكير وسرعة التنفيذ، مما يدل على عقلية العثمانيين الممتازة، ومهارتهم الفائقة وهمتهم العظيمة. لقد دهش الروم دهشة كبرى عندما علموا بها، فما كان أحد ليستطيع تصديق ماتم. لكن

(1) انظر: السلطان محمد الفاتح، عبدالسلام فهمي، ص100.

(2) الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص370.

ولقد كان منظر هذه السفن بأشرعتها المرفوعة تسير وسط الحقول كما لو كانت تمخر عباب البحر من أعجب المناظر وأكثرها اثارة ودهشة. ويرجع الفضل في ذلك الى الله سبحانه وتعالى ثم الهمة السلطان وذكاءه المفرط، وعقليته الجبارة ، والى مقدرة المهندسين العثمانيين، وتوفر الايدي العاملة التي قامت بتنفيذ ذلك المشروع الضخم بحماس ونشاط.

وقد تم كل ذلك في ليلة واحدة واستيقظ أهل المدينة البائسة صباح يوم 22 أبريل على تكبيرات العثمانيين المدوية، وهتافاتهم المتصاعدة، وانشيدهم الإيمانية العالية⁽¹⁾، في القرن الذهبي، وفوجئوا بالسفن العثمانية وهي تسيطر على ذلك المعبر المائي، ولم يعد هناك حاجز مائي بين المدافعين عن القسطنطينية وبين الجنود العثمانيين⁽²⁾، ولقد عبر أحد المؤرخين البيزنطيين عن عجبهم من هذا العمل فقال: (ما رأينا ولا سمعنا من قبل بمثل هذا الشيء الخارق، محمد الفاتح يحول الأرض الى بحار وتعبير سفنه فوق قمم الجبال بدلاً من الأمواج، لقد فاق محمد الثاني بهذا العمل الأسكندر الأكبر)⁽³⁾.

ظهر اليأس في أهل القسطنطينية وكثرت الإشاعات والتنبؤات بينهم، وانتشرت شائعة تقول: ستسقط القسطنطينية عندما ترى سفن تمخر اليابسة⁽⁴⁾ وكان لوجود السفن الاسلامية في القرن الذهبي دور كبير في إضعاف الروح المعنوية لدى المدافعين عن المدينة الذين اضطروا لسحب قوات كبيرة من المدافعين عن الأسوار الأخرى لكي يتولوا الدفاع عن الأسوار الواقعة على القرن الذهبي إذ أنها كانت أضعف الأسوار ، ولكنها في السابق تحميها المياه، مما أوقع الخلل في

(1) انظر: السلطان محمد الفاتح، عبدالسلام فهمي، ص102.

(2) انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص370.

(3) تاريخ الدولة العثمانية ، يلماز أوزنتونا، ص135.

(4) انظر: محمد الفاتح، ص106.

الدفاع عن الأسوار الأخرى (1).

وقد حاول الامبراطور البيزنطي تنظيم أكثر من عملية لتدمير الأسطول العثماني في القرن الذهبي إلا أن محاولته المستميتة كان العثمانيون لها بالمرصاد حيث أفشلوا كل الخطط والمحاولات.

واستمر العثمانيون في ذلك نقاط دفاع المدينة وأسوارها بالمدافع، وحاولوا تسلق أسوارها، وفي الوقت نفسه انشغل المدافعون عن المدينة في بناء وترميم مايتهدم من أسوار مدينتهم ورد المحاولات المكثفة لتسلق الأسوار مع استمرار الحصار عليهم مما زاد في مشقتهم وتعبهم وإرهاقهم وشغل ليلهم مع نهارهم وأصابهم اليأس (2).

كما وضع العثمانيون مدافع خاصة على الهضاب المجاورة للبسفور والقرن الذهبي، مهمتها تدمير السفن البيزنطية والمتعاونة معها في القرن الذهبي والبسفور والمياه المجاورة مما عرقل حركة سفن الأعداء وأصابها بالشلل تماماً (3).

سادساً: اجتماع بين الملك قسطنطين ومعاونه:

عقد الملك قسطنطين ومعاونه ومستشاريه ورجال النصرانية في المدينة اجتماعاً، فأشاروا عليه بالخروج بنفسه من المدينة والتوجه لطلب النجدة من الأمم المسيحية، والدول الأوروبية ، ولعل تأتي الجيوش النصرانية ، فيضطر محمد الفاتح لرفع الحصار عن مدينتهم، ولكنه رفض هذا الرأي وأصر على أن يقاوم الى آخر لحظة ولا يترك شعبه في المدينة حتى يكون مصيره ومصيرهم واحداً، وأنه يعتبر هذا واجبه المقدس وأمرهم أن لا ينصحوه بالخروج أبداً وأكتفى بإرسال

(1) انظر: محمد الفاتح، ص106.

(2) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور ، ص371.

(3) المصدر السابق نفسه، ص371.

وفود تمثله الى مختلف أنحاء أوروبا لطلب المساعدة (1) ورجعت تلك الوفود تجر خلفها أذيال الخيبة وكانت الأجهزة الاستخباراتية للدولة العثمانية قد اخترقت القسطنطينية وماحولها بحيث أصبحت القيادة العثمانية على علم تام بما يدور حولها.

سابعاً: الحرب النفسية العثمانية:

ضاعف السلطان محمد الثاني الهجوم على الاسوار وجعله مركزاً وعنيفاً، ضمن خطة أعدها بنفسه أيضاً لإضعاف العدو، وكررت القوات العثمانية عملية الهجوم على الأسوار ومحاولة تسلقها مرات عديدة بصورة بطولية بلغت غاية عظيمة من الشجاعة والتضحية والتفاني ، وكان أكثر ما يربع جنود الامبراطور قسطنطين صيحاتهم وهي تشق عنان السماء وتقول: (الله أكبر الله أكبر) فتتزل عليهم كالصواعق المدمرة (2).

وشرع السلطان محمد الفاتح في نصب المدافع القوية على الهضاب الواقعة خلف غلطة، وبدأت هذه المدافع في دفع قذائفها الكثيفة نحو الميناء وأصابت احدى القذائف سفينة تجارية فأغرقتها في الحال، فخافت السفن الأخرى واضطرت للفرار، واتخذت من أسوار غلطة ملجأ لها، وظل الهجوم العثماني البري في موجات خاطفة وسريعة هجمة تلوى الاخرى وكان السلطان محمد الفاتح يوالي الهجمات واطلاق القذائف في البر والبحر دون انقطاع ليلاً ونهاراً من أجل انهالك قوى المحاصرين، وعدم تمكينهم من أن ينالوا أي قسط من راحة وهدوء بال، وهكذا أصبحت عزائمهم ضعيفة ونفوسهم مرهقة كليلة، وأعصابهم متوترة مجهودة تشور لأي سبب، واصبح كل واحد من الجنود ينظر الى صاحبه ويلاحظ على وجهه علامات النذل والهزيمة والفشل، وشرعوا يتحدثون علناً عن طرق النجاة والافلات بأرواحهم وما يتوقعونه من العثمانيين اذا ما اقتحموا عليهم مدينتهم.

(1) انظر: محمد الفاتح، ص116.

(2) المصدر السابق نفسه، ص106.

واضطر الامبراطور قسطنطين الى عقد مؤتمر ثاني، اقترح فيه احد القادة مباغته العثمانيين بهجوم شديد عنيف لفتح ثغرة توصلهم بالعالم الخارجي وبينما هم في مجلسهم يتدارسون هذا الاقتراح، قطع عليهم أحد الجنود اجتماعهم وأعلمهم بأن العثمانيين شنوا هجوماً شديداً مكثفاً على وادي ليكونس، فترك قسطنطين الاجتماع ووثب على فرسه، واستدعى الجند الاحتياطي ودفع بهم الى مكان القتال، واستمر القتال الى آخر الليل حتى انسحب العثمانيون (1).

وكان السلطان محمد -رحمه الله- يفاجئ عدوه من حين لآخر بفن جديد من فنون القتال والحصار، وحرب الاعصاب وبأساليب جديدة وطرق حديثة مبتكرة غير معروفة للعدو (2).
ففي المراحل المتقدمة من الحصار لجأ العثمانيون الى طريقة عجيبة في محاولة دخول المدينة حيث عملوا على حفر أنفاق تحت الأرض من مناطق مختلفة الى داخل المدينة وسمع سكانها ضربات شديدة تحت الأرض أخذت تقترب من داخل المدينة بالتدريج، فأسرع الامبراطور بنفسه ومعه قواده ومستشاروه الى ناحية الصوت وأدركوا أن العثمانيين يقومون بحفر أنفاق تحت الأرض، للوصول الى داخل المدينة، فقرر المدافعون الإعداد لمواجهةها بحفر أنفاق مماثلة مقابل أنفاق المهاجمين لمواجهةهم دون أن يعلموا، حتى إذا وصل العثمانيون الى الأنفاق التي أعدت لهم ظنوا أنهم وصلوا الى سراديب خاصة وسرية تؤدي الى داخل المدينة ففرحوا بهذا، ولكن الفرحة لم تطل إذ فاجأهم الروم، فصبوا عليهم ألسنة النيران والنفط المحترق والمواد الملتهبة ، فأختنق كثير منهم واحترق قسم آخر وعاد الناجون منهم أدرجهم من حيث أتوا (3).

لكن هذا الفشل لم يفت في عضد العثمانيين ، فعادوا حفر انفاق اخرى ، وفي مواضع مختلفة، من المنطقة الممتدة بين (أكرى فبو) وشاطئ القرن الذهبي وكانت مكاناً ملائماً للقيام بمثل هذا

(1) انظر: السلطان محمد الفاتح، ص108.

(2) المصدر السابق نفسه، ص108.

(3) انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص372.

العمل، وظلوا على ذلك حتى أواخر أيام الحصار وقد أصاب أهل القسطنطينية من جراء ذلك خوف عظيم وفزع لا يوصف حتى صاروا يتوهمون أن أصوات أقدامهم وهم يمشون ان هي أصوات خفية لحفر يقوم به العثمانيون، وكثيراً ما كان يخيل لهم ان الارض ستتشق ويخرج منها الجند العثمانيون ويملئون المدينة ، فكانوا يتلفتون يمناً ويسرة، ويشيرون هنا وهناك في فزع ويقولون : (هذا تركي ، ...، هذا تركي) ويجرون هرباً من أشباح يحسبونها انها تطارهم ، وكثيراً ما كان يحدث أن تتناقل العامة الاشاعة فتصبح كأنها حقيقة واقعة رأها احدهم بعيني رأسه وهكذا داخل سكان القسطنطينية فزع شديد أذهب وعيهم، حتى لكأنهم (سكارى وماهم بسكارى) ، فريق يجري، وفريق يتأمل السماء، ومجموعة تتفحص الأرض، والبعض ينظر في وجوه البعض الآخر في عصبية زائدة وفشل ذريع.

ولم يكن عمل العثمانيين هذا سهلاً ، فان هذه الانفاق التي حفروها قد أودت بحياة كثير منهم، فماتوا اختناقاً واحترقاً في باطن الأرض، كما وقع الكثير منهم في بعض هذه المحاولات في أسر الروم، فقطعت رؤوسهم وقذف بها الى معسكر العثمانيين (1).

مفاجأة عسكرية عثمانية:

لجأ العثمانيون الى اسلوب جديد في محاولة الاقتحام وذلك بأن صنعوا قلعة خشبية ضخمة شامخة متحركة تتكون من ثلاثة أدوار، وبارتفاع أعلى من الأسوار، وقد كسيت بالدروع والجلود المبللة بالماء لتمنع عنها النيران، وأعدت تلك القلعة بالرجال في كل دور من أدوارها ، وكان الذين في الدور العلوي من الرماة يقذفون بالنبال كل من يطل برأسه من فوق الأسوار، وقد وقع الرعب في قلوب المدافعين عن المدينة حينما زحف العثمانيون بهذه القلعة واقتربوا بها من الأسوار عند باب رومانوس، فاتجه الامبراطور بنفسه ومعه قواده ليتابع صد تلك القلعة ودفعها عن الأسوار، وقد تمكن العثمانيون من لصقها بالأسوار ودار بين من فيها وبين النصارى عند الأسوار قتل شديد

(1) انظر: السلطان محمد الفاتح، ص110.

واستطاع بعض المسلمين ممن في القلعة تسلق الأسوار ونجحوا في ذلك، وقد ظن قسطنطين أن الهزيمة حلت به، إلا أن المدافعين كثفوا من قذف القلعة بالنيران حتى أثرت فيها وتمكنت منها النيران فاحترقت، ووقعت على الأبراج البيزنطية المجاورة لها فقتلت من فيها من المدافعين، وامتلاء الخندق المجاور لها بالحجارة والتراب(1).

ولم ييأس العثمانيون من المحاولة بل قال الفاتح وكان يشرف بنفسه على ما وقع: غداً نصنع أربعاً أخرى(2).

زاد الحصار وقوي واشتد حتى أرهاق من بداخل المدينة من البيزنطيين، فعقد زعماء المدينة اجتماعاً 24 مايو داخل قصر الامبراطور وبحضوره شخصياً، وقد لاح في الأفق بوادر يأس المجتمعين من إنقاذ المدينة حيث اقترح بعضهم على الامبراطور الخروج بنفسه قبل سقوط المدينة لكي يحاول جمع المساعدات والنجادات لإنقاذها أو استعادتها بعد السقوط، ولكن الامبراطور رفض ذلك مرة أخرى وأصر على البقاء داخل المدينة والاستمرار في قيادة شعبه وخرج لتفقد الأسوار والتحصينات.

وأخذت الأشاعات تهيمن على المدينة وتضعف من مقاومة المدافعين عنها، وكان من أقواها عليهم ما حدث في يوم 16 جمادى الأولى الموافق 25 مايو، حيث حمل أهل المدينة تمثالاً للسيدة مريم العذراء (بزعمهم)، وأخذوا يتجولون به في ضواحي المدينة، يدعونه ويتضرعون الى العذراء أن تنصرهم على أعدائهم، وفجأة سقط التمثال من أيديهم وتحطم، فرأوا في ذلك شؤم ونذير بالخطر، وتأثر سكان المدينة وخصوصاً المدافعين عنها، وحدث في اليوم التالي 26 مايو هطول أمطار غزيرة مصحوبة ببعض الصواعق، ونزلت إحدى الصواعق على كنيسة آيا صوفيا، فتشأم البطريق ، وذهب الى الامبراطور وأخبره أن الله تخلى عنهم وأن المدينة ستسقط في يد المجاهدين

(1) انظر: محمد الفاتح للرشيدي، ص144.

(2) انظر: السلطان محمد الفاتح، ص122.

العثمانيين، فتأثر الامبراطور حتى أغمى عليه (1).

وكانت المدفعية العثمانية لا تنفك عن عملها في دك الأسوار والتحصينات، وتهدمت أجزاء كثيرة من السور والأبراج وامتثلت الخنادق بالأنقاض، التي يئس المدافعون من إزالتها وأصبحت إمكانية اقتحام المدينة واردة في أي لحظة، إلا أن اختيار موقع الاقتحام لم يحدد بعد (2).

ثامناً: المفاوضات الأخيرة بين محمد الفاتح وقسطنطين:

أيقن محمد الفاتح أن المدينة على وشك السقوط، ومع ذلك حاول أن يكون دخولها بسلام؛ فكتب الى الامبراطور رسالة دعاه فيه الى تسليم المدينة دون إراقة دماء، وعرض عليه تأمين خروجه وعائلته وأعوانه وكل من يرغب من سكان المدينة الى حيث يشاءون بأمان (3)، وأن تحقن دماء الناس في المدينة ولا يتعرضوا لأي أذى ويكونوا بالخيار في البقاء في المدينة أو الرحيل عنها، ولما وصلت الرسالة الى الامبراطور جمع المستشارين وعرض عليهم الأمر ، فمال بعضهم الى التسليم وأصر آخرون على استمرار الدفاع عن المدينة حتى الموت، فمال الامبراطور الى رأي القائلين بالقتال حتى آخر لحظة، فرد الامبراطور رسول الفاتح برسالة قال فيها: (إنه يشكر الله إذ جنح السلطان الى السلم وأنه يرضى أن يدفع له الجزية أما القسطنطينية فإنه أقسم أن يدافع عنها الى آخر نفس في حياته فإما أن يحفظ عرشه او يدفن تحت أسوارها) (4)، فلما وصلت الرسالة الى الفاتح قال: (حسناً عن قريب سيكون لي في القسطنطينية عرش او يكون لي فيها قبر) (5).

(1) انظر: محمد الفاتح للرشيدي، ص118.

(2) انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص375.

(3) انظر: محمد الفاتح للرشيدي ، ص119.

(4) محمد الفاتح ، عبدالسلام فهمي ، ص116.

(5) الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص376.

وعمد السلطان بعد اليأس من تسليم المدينة صلحاً إلى تكثيف الهجوم وخصوصاً القصف المدفعي على المدينة، حتى أن المدفع السلطاني الضخم انفجر من كثرة الاستخدام، وقتل المشتغلين له وعلى رأسهم المهندس المجري أوربان الذي تولى الإشراف على تصميم المدفع، ومع ذلك فقد وجه السلطان بإجراء عمليات التبريد للمدافع بزيت الزيتون، وقد نجح الفنيون في ذلك، وواصلت المدافع قصفها للمدينة مرة أخرى، بل تمكنت من توجيه القذائف بحيث تسقط وسط المدينة بالإضافة إلى ضربها للأسوار والقلاع(1).

تاسعاً: السلطان محمد الفاتح يعقد اجتماع لمجلس الشوري:

عقد السلطان محمد الفاتح اجتماعاً ضم مستشاريه وكبار قواده بالإضافة إلى الشيوخ والعلماء، وقد طلب الفاتح من المجتمعين الإدلاء بأرائهم بكل صراحة دون تردد، فأشار بعضهم بالانسحاب ومنهم الوزير خليل باشا الذي دعا إلى الانسحاب وعدم إراقة الدماء والتحذير من غضب أوروبا النصرانية فيما لو استولى المسلمون على المدينة، إلى غير ذلك من المبررات التي طرحها، وكان متهماً بمواطنة البيزنطيين ومحاولة التخذيل عنهم(2)، وقد قام بعض الحضور بتشجيع السلطان على مواصلة الهجوم على المدينة حتى الفتح واستهان بأوروبا وقواتها، كما أشار إلى تحمس الجند لإتمام الفتح، وما في التراجع من تحطيم لمعنوياتهم الجهادية، وكان من هؤلاء أحد القواد الشجعان ويدعى (زوغنوش باشا) وهو من أصل ألباني كان نصرانياً فأسلم حيث هون من شأن القوات الأوروبية على السلطان(3).

وذكرت كتب التاريخ موقف زوغنوش باشا فقالت: (ما أن سأله السلطان الفاتح عن رأيه حتى استوفز في قعدته وصاح في لغة تركية تشوبها لكنة ارنأووطية: حاشا وكلا أيها السلطان، أنا لا

(1) المصدر السابق، ص376.

(2) انظر: فتح القسطنطينية، محمد صفوت، ص103.

(3) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص377.

أقبل أبدأ ماقاله خليل باشا، فما أتينا هنا إلا لنموت لا لنرجع. وأحدث هذا الاستهلال وقعاً عميقاً في نفوس الحاضرين، وخيم السكون على المجلس لحظة ثم واصل زوغنوش باشا كلامه فقال: إن خليل باشا أراد بما قاله أن يخمد فيكم نار الحمية ويقتل الشجاعة ولكنه لن ييؤء إلا بالخيبة والخسران. ان جيش الاسكندر الكبير الذي قام من اليونان وزحف الى الهند وقهر نصف آسيا الكبيرة الواسعة لم يكن اكبر من جيشنا فإن كان ذلك الجيش استطاع ان يستولي على تلك الأراضي العظيمة الواسعة أفلا يستطيع جيشنا أن يتخطى هذه الكومة من الأحجار المترakمة، وقد أعلن خليل باشا أن دول الغرب ستزحف إلينا وتنتقم ولكن مالدول الغربية هذه؟ وهل هي الدول اللاتينية التي شغلها مابينها من خصام وتنافس، هل هي دول البحر المتوسط التي لاتقدر على شيء غير القرصنة واللصوصية؟ ولو أن تلك الدول أرادت نصرة بيزنطة لفعلت وأرسلت إليها الجند والسفن، ولنفرض أن أهل الغرب بعد فتحنا القسطنطينية هبوا الى الحرب وقاتلونا فهل سنقف منهم مكتوفي الأيدي بغير حراك، أو ليس لنا جيش يدافع عن كرامتنا وشرفنا؟

ياصاحب السلطنة ، أما وقد سالتني رأيي فلأعلنها كلمة صريحة، يجب أن تكون قلوبنا كالصخر ، ويجب ان نواصل الحرب دون أن يظهر علينا اقل ضعف أو خور، لقد بدأنا أمراً فواجب علينا أن نتمه، ويجب أن نزيد هجماتنا قوة وشدة ونفتح ثغرات جديدة وننقض على العدو بشجاعة. لا أعرف شيئاً غير هذا، ولا استطيع ان أقول شيئاً غير هذا (1).

وبدأت على وجه الفاتح أمارات البشر والانشراح لسماع هذا القول، والتفتت الى القائد طرخان يسأله رأيه فأجاب على الفور : ان زوغنوش باشا قد اصاب فيما قال وانا على رأيه ياسلطاني. ثم سأل الشيخ آق شمس الدين والمولى الكوراني عن رأيهما. وكان الفاتح يثق بهما كل الثقة فأجابا أنهما على رأي زوغنوش باشا وقالوا: (يجب الاستمرار في الحرب، وبالغاية الصمدانية سيكون لنا

(1) انظر: محمد الفاتح للرشيدي، ص122.

النصر والظفر(1).

وسرت الحمية والحماس في جميع الحاضرين وابتهج السلطان الفاتح واستبشر بدعاء الشيخين بالنصر والظفر ولم يملك نفسه من القول : من كان من اجدادي في مثل قوتي(2)؟
لقد أيد العلماء الرأي القائل بمواصلة الجهاد كما فرح السلطان حيث كان يعبر عن رايه ورغبته في مواصلة الهجوم حتى الفتح، وانتهى الاجتماع بتعليمات من السلطان أن الهجوم العام والتعليمات باقتحام المدينة بانت وشيكة وسيأمر بها فور ظهور الفرصة المناسبة وأن على الجنود الاستعداد لذلك(3).

عاشراً : محمد الفاتح يوجه تعليماته ويتابع جنوده بنفسه:

في يوم الاحد 18 جمادى الأولى 27 من مايو وجه السلطان محمد الفاتح الجنود إلى الخشوع وتطهير النفوس والتقرب إلى الله تعالى بالصلاة وعموم الطاعات والتذلل والدعاء بين يديه ، لعل الله أن يسر لهم الفتح ، وانتشر هذا الأمر بين عامة المسلمين ، كما قام الفاتح بنفسه ذلك اليوم بتفقد أسوار المدينة ومعرفة آخر احوالها ، وما وصلت إليه واطواع المدافعين عنها في النقاط المختلفة ، وحدد مواقع معينة يتم فيها تركيز القصف العثماني ، تفقد فيها أحوالهم وحثهم على الجد والتضحية في قتال الأعداء ، كما بعث إلى آل غلطة التي وقفت على الحياد مؤكدا عليهم عدم التدخل فيما سيحدث ضامنا لهم الوفاء بعهده معهم ، وانه سيعرضهم عن كل ما يخسرونه من جراء ما يحدث. وفي مساء اليوم نفسه أوقد العثمانيون نارا كثيفة حول معسكرهم وتعالت

(1) انظر: محمد الفاتح، ص122.

(2) انظر: محمد الفاتح، ص122.

(3) انظر: تاريخ الدولة العلية ، محمد فريد، ص164.

صيحاتهم وأصواتهم بالتهليل والتكبير (1) ، حتى خيل للروم أن النار قد اندلعت في معسكر العثمانيين ، فإذا بهم يكتشفون أن العثمانيين يحتفلون بالنصر مقدما ، مما أوقع الرعب في قلوب الروم ، وفي اليوم التالي 28 مايو كانت الاستعدادات العثمانية على أشدها والمدافع ترمي البيزنط بنيرانها ، والسلطان يدور بنفسه على المواقع العسكرية المختلفة متفقدًا وموجهاً ومذكرا بالإخلاص والدعاء والتضحية والجهاد(2).

وكان الفاتح كلما مر بجمع من جنده خطبهم وأثار فيهم الحمية والحماس ، وأبان لهم أنهم بفتح القسطنطينية سينالون الشرف العظيم والمجد الخالد ، والثواب الجزيل من الله تعالى وستسد دسائس هذه المدينة التي طالما مالأت عليهم الاعداء والمتآمرين وسيكون لأول جندي ينصب راية الإسلام(3) على سور القسطنطينية الجزاء الأوفى والإقطاعات الواسعة.

وكان علماء المسلمين وشيوخهم يتجولون بين الجنود ويقرأون على المجاهدين آيات الجهاد والقتال وسورة الأنفال ، ويذكرونهم بفضل الشهادة في سبيل الله وبالشهداء السابقين حول القسطنطينية وعلى رأسهم أبو أيوب الأنصاري ويقولون للمجاهدين : لقد نزل سيدنا محمد μ عند هجرته إلى المدينة في دار أبي أيوب الأنصاري ، وقد قصد أبو أيوب إلى هذه البقعة ونزل هنا ، وكان هذا القول يلهب الجند ويبعث في نفوسهم أشد الحماس والحمية(4).

وبعد أن عاد الفاتح إلى خيمته ودعا إليه كبار رجال جيشه اصدر إليهم التعليمات الأخيرة ، ثم ألقى عليهم الخطبة التالية: "إذا تم لنا فتح القسطنطينية تحقق فينا حديث من أحاديث رسول الله ومعجزة من معجزاته وسيكون من حظنا ما أشاد به هذا الحديث من التمجيد والتقدير فأبلغوا أبناءنا

(1) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان ، يوسف آصاف، ص60.

(2) انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص378.

(3) انظر: محمد الفاتح ، ص125.

(4) انظر: محمد الفاتح، ص126.

العساكر فردا فردا ، أن الظفر العظيم الذي سنحززه سيزيد الإسلام قدرا وشرفا ، ويجب على كل جندي أن يجعل تعاليم شريعتنا الغراء نصب عينيه فلا يصدر عن أحد منهم ما يجافي هذه التعاليم ، ولتجنبوا الكنائس والمعابد ولا يمسوها بأذى ، ويدعوا القسس والضعفاء والعجزة الذين لا يقاتلون . . . (1).

وفي هذا الوقت كان الامبراطور البيزنطي يجمع الناس في المدينة لإقامة ابتهاج عام دعا فيه الرجال والنساء والصبيان للدعاء والتضرع والبكاء في الكنائس على طريقة النصارى لعله أن يستجاب لهم فتجوا المدينة من هذا الحصار ، وقد خطب فيهم الإمبراطور خطبة بليغة كانت آخر خطبة خطبها ، حديث أكد عليهم بالدفاع عن المدينة حتى لو مات هو ، والاستماتة في حماية النصرانية أمام المسلمين العثمانيين ، وكانت خطبة رائعة كما يقول المؤرخون أبكت الجميع من الحاضرين ، كما صلى الإمبراطور ومن معه من النصارى الصلاة الأخيرة في كنيسة آياصوفيا أقدس الكنائس عندهم (2) ثم قصد الإمبراطور قصره يزوره الزيارة الأخيرة فودع جميع من فيه واستصفحهم وكان مشهدا مؤثرا وقد كتب مؤرخو النصارى عن هذا المشهد ، فقال من حضره، (لو أن شخصا قلبه من خشب أو صخر لفاضت عيناه بالدموع لهذا المنظر) (3).

وتوجه قسطنطين نحو صورة (يزعمون أنها صورة المسيح) معلقة في أحد الغرف فركع تحتها وهمهم بعض الدعوات ثم نهض ولبس المغفر على رأسه وخرج من القصر عند نحو منتصف الليل مع زميله ورفيقه وأمينه المؤرخ فرانتزس ثم قاما برحلة تفقدية لقوات النصارى المدافعة ولاحظوا حركة الجيش العثماني النشطه المتوثبة للهجوم البري والبحري . وقبيل ذلك الليل بقليل رذت السماء رذا خفيفا كأنما كانت ترش الأرض رشا فخرج السلطان الفاتح من خيمته ورفع بصره

(1) المصدر السابق نفسه ، ص126.

(2) المصدر السابق، ص129.

(3) محمد الفاتح ، ص129.

إلى السماء وقال: (لقد أولانا الله رحمته وعنايته فأنزل هذا المطر المبارك في أوانه فإنه سيذهب بالغبار ويسهل لنا الحركة)(1).

الحادي عشر: "فتح من الله ونصر قريب"

عند الساعة الواحدة صباحا من يوم الثلاثاء 20 جمادى الأولى سنة 857هـ الموافق 29 مايو 1435م بدأ الهجوم العام على المدينة بعد أن أصدرت الأوامر للمجاهدين الذين علت أصواتهم بالتكبير وانطلقوا نحو الأسوار ، وخاف البيزنطيون خوفا عظيما ، وشرعوا في دق نواقيس الكنائس والتجأ إليها كثير من النصارى وكان الهجوم النهائي متزامنا بريا وبحريا في وقت واحد حسب خطة دقيقة أعدت بإحكام ، وكان المجاهدون يرغبون في الشهادة ولذلك تقدموا بكل شجاعة وتضحية وإقدام نحو الأعداء ونال الكثير من المجاهدين الشهادة ، وكان الهجوم موزعا على كثير من المناطق ، ولكنه مركز بالدرجة الأولى في منطقة وادي ليكوس ، بقيادة السلطان محمد الفاتح نفسه ، وكانت الكتائب الأولى من العثمانيين تمطر الأسوار والنصارى بوابل من القذائف والسهام محاولين شل حركة المدافعين ، ومع استبسال البيزنطيين وشجاعة العثمانيين كان الضحايا من الطرفين يسقطون بأعداد كبيرة(2)، وبعد أن انهكت الفرقة الأولى الهجومية كان السلطان قد أعد فرقة أخرى فسحب الأولى ووجه الفرقة الثانية ، وكان المدافعون قد أصابهم الإعياء ، وتمكنت الفرقة الجديدة ، من الوصول إلى الأسوار وأقاموا عليها مئات السلالم في محاولة جادة للإقتحام ، ولكن النصارى استطاعوا قلب السلالم واستمرت تلك المحاولات المستميتة من المهاجمين ، والبيزنطيون يبذلون قصارى جهودهم للتصدي لمحاولات التسلق ، وبعد ساعتين من تلك المحاولات أصدر الفاتح أوامره للجنود لأخذ قسط من الراحة ، بعد أن أرهاقوا المدافعين في تلك المنطقة ، وفي الوقت نفسه أصدر أمرا إلى قسم ثالث من المهاجمين بالهجوم على الأسوار من نفس

(1) المصدر السابق نفسه ، ص130.

(2) الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص380.

المنطقة وفوجي المدافعون بتلك الموجة الجديدة بعد أن ظنوا ان الأمر قد هدأ وكانوا ، قد أرهقوا ، في الوقت الذي كان المهاجمون دماء جديدة معدة ومستريحة وفي رغبة شديدة لأخذ نصيبهم من القتال (1) كما كان القتال يجري على قدم وساق في المنطقة البحرية مما شنت قوات المدافعين وأشغلهم في أكثر من جبهة في وقت واحد، ومع بزوغ نور الصباح أصبح المهاجمون يستطيعون أن يحددوا مواقع العدو بدقة أكثر ، وشرعوا في مضاعفة جهودهم في الهجوم وكان المسلمون في حماسة شديدة وحريصين على إنجاح الهجوم ، ومع ذلك أصدر السلطان محمد الأوامر إلى جنوده بالانسحاب لكي يتيحوا الفرصة للمدافع لتقوم بعملها مرة أخرى حيث أمطرت الأسوار والمدافعين عنها بوابل من القذائف ، واتعبتهم بعد سهرهم طوال الليل ، وبعد أن هدأت المدفعية جاء قسم جديد من شجعان الإنكشارية يقودهم السلطان نفسه تغطيهم نبال وسهام المهاجمين التي لا تتفك عن محاولة منع المدافعين عنها وأظهر جنود الإنكشارية شجاعة فائقة وبسالة نادرة في الهجوم واستطاع ثلاثون منهم تسلق السور أمام دهشة الأعداء ، ورغم استشهاد مجموعة منهم بمن فيهم قائدهم فقد تمكنوا من تمهيد الطريق لدخول المدينة عند طوب قابي ورفعوا الأعلام العثمانية (2).
 مما زاد في حماس بقية الجيش للاقحام كما فتوا في عضد الأعداء ، وفي نفس الوقت أصيب قائد المدافعين جستيان بجراح بليغة دفعته إلى الانسحاب من ساحة المعركة (3) مما أثر في بقية المدافعين ، وقد تولى الإمبراطور قسطنطين قيادة المدافعين بنفسه محل جستيان الذي ركب أحد السفن فارا من أرض المعركة ، وقد بذل الامبراطور جهودا كبيرة في تثبيت المدافعين الذين دب اليأس في قلوبهم من جدوى المقاومة، في الوقت الذي كان فيه الهجوم بقيادة السلطان شخصياً على أشده، محاولاً استغلال ضعف الروح المعنوية لدى المدافعين.

(1) المصدر السابق نفسه، ص

(2) انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور ، ص382.

(3) محمد الفاتح ، ص137.

وقد واصل العثمانيون هجومهم في ناحية اخرى من المدينة حتى تمكنوا من اقتحام الأسوار والاستيلاء على بعض الأبراج والقضاء على المدافعين في باب أدرنة ورفعت الاعلام العثمانية عليها، وتدفق الجنود العثمانيون نحو المدينة من تلك المنطقة، ولما رأى قسطنطين الأعلام العثمانية ترفرف على الأبراج الشمالية للمدينة، أيقن بعدم جدوى الدفاع وخلع ملابسه حتى لايعرف ، ونزل عن حصانه وقاتل حتى قتل في ساحة المعركة(1).

وكان لانتشار خبر موته دور كبير في زيادة حماس المجاهدين العثمانيين وسقوط عزائم النصارى المدافعين وتمكنت الجيوش العثمانية من دخول المدينة من مناطق مختلفة وفر المدافعون بعد انتهاء قيادتهم، وهكذا تمكن المسلمون من الاستيلاء على المدينة وكان الفاتح رحمه الله مع جنده في تلك اللحظات يشاركونهم فرحة النصر، ولذة الفوز بالغلبة على الأعداء من فوق صهوة جواده وكان قواده يهنئونه وهو يقول : (الحمد لله ليرحم الله الشهداء ويمنح المجاهدين الشرف والمجد ولشعبي الفخر والشكر)(2).

كانت هناك بعض الجيوب الدفاعية داخل المدينة التي تسببت في استشهاد عدد من المجاهدين ، وقد هرب أغلب أهل المدينة الى الكنائس ولم يأت ظهيرة ذلك اليوم الثلاثاء 20 جمادي الأولى 857هـ الموافق 29 من مايو 1453م، إلا والسلطان الفاتح في وسط المدينة يحف به جنده وقواده وهم يرددون : ماشاء الله ، فالتفت إليهم وقال : لقد أصبحتم فاتحي القسطنطينية الذي أخبر عنهم رسول الله ﷺ وهنأهم بالنصر ونهاهم عن القتل، وأمرهم بالرفق بالناس والإحسان إليهم ، ثم ترجل عن فرسه وسجد لله على الأرض شكراً وحمداً وتواضعاً لله تعالى(3).

الثاني عشر: معاملة محمد الفاتح للنصارى المغلوبين:

(1) انظر: محمد الفاتح، ص 139.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 131.

(3) الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص 383.

توجه محمد الفاتح الى كنيسة آيا صوفيا وقد اجتمع فيها خلق كبير من الناس ومعهم القسس والرهبان الذين كانوا يتلون عليهم صلواتهم وأدعيتهم، وعندما اقترب من أبوابها خاف النصارى داخلها خوفاً عظيماً، وقام أحد الرهبان بفتح الأبواب له فطلب من الراهب تهدئة الناس وطمأنتهم والعودة الى بيوتهم بأمان، فأطمأن الناس وكان بعض الرهبان مختبئين في سراديب الكنيسة فلما رأوا تسامح الفاتح وعفوه خرجوا وأعلنوا إسلامهم، وقد أمر الفاتح بعد ذلك بتحويل الكنيسة الى مسجد وأن يعد لهذا الأمر حتى تقام بها أول جمعة قادمة، وقد أخذ العمال يعدون لهذا الأمر ، فأزالوا الصلبان والتماثيل وطمسوا الصور بطبقة من الجير وعملوا منبراً للخطيب، وقد يجوز تحويل الكنيسة الى المسجد لأن البلد فتحت عنوة والعنوة لها حكمها في الشريعة الاسلامية.

وقد اعطى السلطان للنصارى حرية إقامة الشعائر الدينية واختيار رؤسائهم الدينين الذين لهم حق الحكم في القضايا المدنية، كما أعطى هذا الحق لرجال الكنيسة في الأقاليم الأخرى ولكنه في الوقت نفسه فرض الجزية على الجميع (1).

لقد حاول المؤرخ الأنجليزي ادوارد شيردكريسي في كتابه "تاريخ العثمانيين الاتراك أن يشوه صورته الفتح العثماني للقسطنطينية ووصف السلطان محمد الفاتح بصفات قبيحة حقداً منه وبغضاً للفتح الاسلامي المجيد (2) وسارت الموسوعة الأمريكية المطبوعة في عام 1980م في حمأة الحقد الصليبي ضد الاسلام ، فزعمت أن السلطان محمد قام باسترقاق غالبية نصارى القسطنطينية، وساقهم الى اسواق الرقيق في مدينة ادرنة حيث تم بيعهم هناك (3).

إن الحقيقة التاريخية الناصعة تقول أن السلطان محمد الفاتح عامل أهل القسطنطينية معاملة رحيمة وأمر جنوده بحسن معاملة الأسرى والرفق بهم، وافتدى عدداً كبيراً من الأسرى من ماله

(1) المصدر السابق نفسه، ص384.

(2) انظر: جوانب مضيئة ، ص265.

(3) المصدر السابق نفسه، ص267.

الخاص وخاصة أمراء اليونان، ورجال الدين، واجتمع مع الاساقفة وهدأ من روعهم، وطمأنهم الى المحافظة على عقائدهم وشرائعهم وبيوت عبادتهم، وأمرهم بتتصيب بطيريك جديد فانتخبوا أجناديوس برطيركا، وتوجه هذا بعد انتخابه في موكب حافل من الاساقفة الى مقر السلطان، فاستقبله السلطان محمد الفاتح بحفاوة بالغة وأكرمه أيما تكريم، وتناول معه الطعام وتحدث معه في موضوعات شتى، دينية وسياسية واجتماعية وخرج البطريرك من لقاء السلطان، وقد تغيرت فكرته تماماً على السلاطين العثمانيين وعن الأتراك، بل والمسلمين عامة، وشعر انه أمام سلطان مثقف صاحب رسالة وعقيدة دينية راسخة وانسانية رفيعة، ورجولة مكتملة، ولم يكن الروم أنفسهم أقل تأثراً ودهشة من بطريقهم، فقد كانوا يتصورون أن القتل العام لا بد لاحقهم، فلم تمض أيام قليلة حتى كان الناس يستأنفون حياتهم المدنية العادية في اطمئنان وسلام(1).

كان العثمانيون حريصون على الالتزام بقواعد الاسلام، ولذلك كان العدل بين الناس من أهم الأمور التي حرصوا عليها، وكانت معاملتهم للنصارى خالية من أي شكل من أشكال التعصب والظلم، ولم يخطر ببال العثمانيين أن يضطهدوا النصارى بسبب دينهم(2).

إن ملل النصارى تحت الحكم العثماني تحصلت على كافة حقوقها الدينية، وأصبح لكل ملة رئيس ديني لا يخاطب غير حكومة السلطان ذاتها مباشرة، ولكل ملة من هذه الملل مدارسها الخاصة وأماكن للعبادة والأديرة، كما أنه كان لايتدخل أحد في ماليتها وكانت تطلق لهم الحرية في تكلم اللغة التي يريدونها(3).

إن السلطان محمد الفاتح لم يظهر ما أظهره من التسامح مع نصارى القسطنطينية إلا بدافع إلتزامه الصادق بالإسلام العظيم، وتأسياً بالنبي الكريم ﷺ، ثم بخلفائه الراشدين من بعده، الذين

(1) انظر: السلطان محمد الفاتح، ص135، 134.

(2) انظر: جوانب مضيئة، ص274.

(3) المصدر السابق نفسه، ص283.

أمتلأت صحائف تاريخهم بمواقف التسامح الكريم مع أعدائهم (1).

المبحث الثاني

الفتاح المعنوي للقسطنطينية

الشيخ آق شمس الدين

هو محمد بن حمزة الدمشقي الرومي ارتحل مع والده الى الروم، وطلب فنون العلوم وتبحر فيها وأصبح علم من أعلام الحضارة الاسلامية في عهدها العثماني. وهو معلم الفاتح ومربيه يتصل نسبه بالخليفة الراشد أبي بكر الصديق τ ، كان مولوده في دمشق عم 792 هـ (1389م) حفظ القرآن الكريم وهو في السابعة من عمره، ودرس في أماسيا ثم في حلب ثم في انقره وتوفي عام 1459 هـ.

درّس الشيخ آق شمس الدين الأمير محمد الفاتح العلوم الاساسية في ذلك الزمن وهي القرآن الكريم والسنة النبوية والفقه والعلوم الاسلامية واللغات (العربية ، والفارسية والتركية) وكذلك في مجال العلوم العلمية من الرياضيات والفلك والتاريخ والحرب وكان الشيخ آق ضمن العلماء الذين أشرفوا على السلطان محمد عندما تولى إمارة مغنيسا ليتدرب على ادارة الولاية ، وأصول الحكم . واستطاع الشيخ آق شمس الدين أن يقنع الأمير الصغير بأنه المقصود بالحديث النبوي: (لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش) (2).

وعندما أصبح الأمير محمد سلطاناً على الدولة العثمانية، وكان شاباً صغير السن وجّهه شيخه فوراً الى التحرك بجيوشه لتحقيق الحديث النبوي فحاصر العثمانيون القسطنطينية براً وبحراً.

(1) المصدر السابق نفسه، ص 287.

(2) سبق تخريج الحديث.

وعندما حقق البيزنطيون انتصاراً مؤقتاً وابتهج الشعب البيزنطي بدخول أربع سفن أرسلها البابا إليهم وارتفعت روحهم المعنوية اجتمع الأمراء والوزراء العثمانيون وقابلوا السلطان محمد الفاتح وقالوا له : (إنك دفعت بهذا القدر الكبير من العساكر الى هذا الحصار جرياً وراء كلام أحد المشايخ -يقصدون آق شمس الدين- فهالكت الجنود وفسد كثير من العتاد ثم زاد الأمر على هذا بأن عون من بلاد الأفرنج للكافرين داخل القلعة، ولم يعد هناك أمل في هذا الفتح...)(1). فأرسل السلطان محمد وزيره ولي الدين أحمد باشا الى الشيخ آق شمس الدين في خيمته يسأله الحل فأجاب الشيخ: (لابد من أن يمنّ الله بالفتح)(2).

ولم يقتنع السلطان بهذا الجواب، فأرسل وزيره مرة أخرى ليطلب من الشيخ أن يوضح له أكثر، فكتب هذه الرسالة الى تلميذه محمد الفاتح يقول فيها: (هو المعزّ الناصر ... إن حادث تلك السفن قد أحدث في القلوب التكسير والملامة وأحدث في الكفار الفرح والشماتة. إن القضية الثابتة هي : إن العبد يدبر والله يقدر والحكم لله... ولقد لجأنا الى الله وتلونا القرآن الكريم وماهي إلا سنة من النوم بعد إلا وقد حدثت أطفاف الله تعالى فظهرت من البشارات مالم يحدث مثلها من قبل)(3).

أحدث هذا الخطاب راحة وطمأنينة في الأمراء والجنود. وعلى الفور قرر مجلس الحرب العثماني الاستمرار في الحرب لفتح القسطنطينية، ثم توجه السلطان محمد الى خيمة الشيخ شمس الدين فقبل يده، وقال : علمني ياسيدي دعاءً أدعو الله به ليوفقني ، فعلمه الشيخ دعاءً، وخرج

(1) انظر: البطولة والفداء عند الصوفية، أسعد الخطيب، ص146.

(2) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص373.

(3) العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص373.

السلطان من خيمة شيخه ليأمر بالهجوم العام (1).

اراد السلطان أن يكون شيخه بجانبه أثناء الهجوم فأرسل إليه يستدعيه لكن الشيخ كان قد طلب ألا يدخل عليه أحد الخيمة ومنع حراس الخيمة رسول السلطان من الدخول وغضب محمد الفاتح وذهب بنفسه الى خيمة الشيخ ليستدعيه، فمنع الحراس السلطان من دخول الخيمة بناءً على أمر الشيخ، فأخذ الفاتح خنجره وشق جدار الخيمة في جانب من جوانبها ونظر الى الداخل فإذا شيخه ساجداً لله في سجدة طويلة وعمامته متدرجة من على رأسه وشعر رأسه الأبيض يتدلى على الأرض، ولحيته البيضاء تنعكس مع شعره كالنور، ثم رأى السلطان شيخه يقوم من سجده والدموع تنحدر على خديه، فقد كان يناجي ربه ويدعوه بأنزال النصر ويسأله الفتح القريب (2).

وعاد السلطان محمد (الفاتح) عقب ذلك الى مقر قيادته ونظر الى الأسوار المحاصرة فإذا بالجنود العثمانيين وقد أحدثوا ثغرات بالسور تدفق منها الجنود الى القسطنطينية (3).
ففرح السلطان بذلك وقال ليس فرحي لفتح المدينة إنما فرحي بوجود مثل هذا الرجل في زمني (4).

وقد ذكر الشوكاني في البدر الطالع أن الشيخ شمس الدين ظهرت بركته وظهر فضله وأنه حدد للسلطان الفاتح اليوم الذي تفتح فيه القسطنطينية على يديه (5).
وعندما تدفقت الجيوش العثمانية الى المدينة بقوة وحماس، تقدم الشيخ الى السلطان الفاتح ليذكره بشريعة الله في الحرب وبحقوق الأمم المفتوحة كما هي في الشريعة الاسلامية (6).

(1) المصدر السابق نفسه، ص 373.

(2) العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 374.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 374.

(4) انظر: البدر الطالع (167/2).

(5) المصدر السابق نفسه (2/166).

(6) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص 374.

وبعد أن أكرم السلطان محمد الفاتح جنود الفتح بالهدايا والعطايا وعمل لهم مأدبة حافلة استمرت ثلاثة أيام اقيمت خلالها الزينات والمهرجانات، وكان السلطان يقوم بخدمة جنوده بنفسه متمثلاً بالقول السائد (سيد القوم خادهم). ثم نهض ذلك الشيخ العالم الورع آق شمس الدين وخطبهم، فقال: يا جنود الاسلام. اعلموا واذكروا أن النبي μ قال في شأنكم: (لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش)(1). ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا ويغفر لنا. ألا لاتسرفوا في ما أصبتم من أموال الغنيمة ولا تبذروا وأنفقوها في البر والخير لأهل هذه المدينة، واسمعوا لسلطانكم وأطيعوه وأحبوه. ثم التفت الى الفاتح وقال له : ياسلطاني ، لقد أصبحت قرّة عين آل عثمان فكن على الدوام مجاهداً في سبيل الله. ثم صاح مكبراً بالله في صوت جهوري جليد(2).

وقد اهتدى الشيخ آق شمس الدين بعد فتح القسطنطينية الى قبر الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري بموضع قريب من سور القسطنطينية(3).

وكان الشيخ آق شمس الدين أول من ألقى خطبة الجمعة في مسجد آيا صوفيا(4).

الشيخ شمس الدين يخشى على السلطان من الغرور:

كان السلطان محمد الفاتح يحب شيخه شمس الدين حباً عظيماً، وكانت له مكانة كبيرة في نفسه وقد بين السلطان لمن حوله -بعد الفتح- : (إنكم ترونني فرحاً . فرحي ليس فقط لفتح هذه القلعة إن فرحي يتمثل في وجود شيخ عزيز الجانب، في عهدي، هو مؤدبي الشيخ آق شمس الدين.

(1) سبق تخريج الحديث.

(2) انظر: محمد الفاتح ، ص149.

(3) المصدر السابق نفسه، ص149.

(4) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص374.

وعبر الشيخ عن تهيبه لشيخه في حديث له مع وزيره محمود باشا. قال السلطان الفاتح: (إن احترامي للشيخ آق شمس الدين، احترام غير اختياري . إنني أشعر وأنا بجانبه بالانفعال والرهبه)(1).

ذكر صاحب البدر الطالع أن: (... ثم بعد يوم جاء السلطان الى خيمة صاحب الترجمة - أي آق شمس الدين) - وهو مضطجع فلم يقم له فقبل السلطان يده وقال له جئتك لحاجة قال: وماهي؟ قال: ان ادخل الخلوة عندك فأبى فأبرم عليه السلطان مراراً وهو يقول: لا. فغضب السلطان وقال أنه يأتي إليك واحد من الاتراك فتدخله الخلوة بكلمة واحدة وأنا تأبى عليّ فقال الشيخ: إنك اذا دخلت الخلوة تجد لذة تسقط عندها السلطنة من عينيك فتختل أمورها فيمقت الله علينا ذلك والغرض من الخلوة تحصيل العدالة فعليك أن تفعل كذا وكذا وذكر له شيئاً من النصائح ثم ارسل إليه ألف دينار فلم يقبل ولما خرج السلطان محمد خان قال لبعض من معه: ما قام الشيخ لي. فقال له: لعله شاهد فيك من الزهو بسبب هذا الفتح الذي لم يتيسر مثله للسلطين العظام فاراد بذلك أن يدفع عنك بعض الزهو....)(2).

هكذا كان هذا العالم الجليل الذي حرص على تربية محمد الفاتح على معاني الإيمان والاسلام والإحسان ولم يكن هذا الشيخ متبحراً في علوم الدين والتزكية فقط بل كان عالماً في النبات والطب والصيدلة، وكان مشهوراً في عصره بالعلوم الدنيوية وبحوثه في علم النبات ومدى مناسبتها للعلاج من الأمراض. وبلغت شهرته في ذلك أن أصبح مثلاً بين الناس يقول: (إن النبات ليحدث آق شمس الدين)(3).

وقال الشوكاني عنه: (...وصار مع كونه طبيباً للقلوب طبيباً للأبدان فإنه اشتهر أن الشجرة

(1) العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص375.

(2) البدر الطالع (167/2).

(3) العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص375.

كانت تتاديه وتقول: أنا شفاء من المرض الفلاني ثم اشتهرت بركته وظهر فضله... (1).

وكان الشيخ يهتم بالأمراض البدنية قدر عنايته بالأمراض النفسية.

واهتم الشيخ آق شمس الدين اهتماماً خاصاً بالأمراض المعدية، فقد كانت هذه الأمراض في عصره تسبب في موت الآلاف، وألف في ذلك كتاباً بالتركية بعنوان "مادة الحياة" قال فيه: (من الخطأ تصور أن الأمراض تظهر على الأشخاص تلقائياً، فالأمراض تنتقل من شخص إلى آخر بطريق العدوى. هذه العدوى صغيرة ودقيقة إلى درجة عدم القدرة على رؤيتها بالعين المجردة. لكن

هذا يحدث بواسطة بذور حيّة) (2).

وبذلك وضع الشيخ آق شمس الدين تعريف الميكروب في القرن الخامس عشر الميلادي. وهو أول من فعل ذلك ، ولم يكن الميكروسكوب قد خرج بعد. وبعد أربعة قرون من حياة الشيخ آق شمس الدين جاء الكيميائي والبيولوجي الفرنسي لويس باستير ليقوم بأبحاثه وليصل إلى نفس النتيجة.

وأهتم الشيخ آق شمس الدين أيضاً بالسرطان وكتب عنه وفي الطب ألف الشيخ كتابين هما: (مادة الحياة) ، و(كتاب الطب) ، وهما باللغة التركية والعثمانية. وللشيخ باللغة العربية سبع كتب، هي : حل المشكلات، الرسالة النورية ، مقالات الأولياء، رسالة في ذكر الله، تلخيص المتائن، دفع المتائن، رسالة في شرح حاجي بايرام ولي (3).

وفاته:

عاد الشيخ إلى موطنه كونيوك بعد أن أحس بالحاجة إلى ذلك رغم إصرار السلطان على

(1) البدر الطالع (166/2).

(2) العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص 376.

(3) العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص 376.

بقائه في استنبول ومات عام 863هـ/1459م فعليه من الله الرحمة والمغفرة والرضوان (1). وهكذا سنة الله في خلقه لا يخرج قائد رباني ، وفاتح مغوار إلا كان حوله مجموعة من العلماء الربانيين يساهمون في تعليمه وتربيته وترشيده والأمثلة في ذلك كثيرة وقد ذكرنا دور عبدالله بن ياسين مع يحيى بن ابراهيم في دولة المرابطين، والقاضي الفاضل مع صلاح الدين في الدولة الأيوبية ، وهذا آق شمس الدين مع محمد الفاتح في الدولة العثمانية فرحمة الله على الجميع وتقبل الله جهودهم وأعمالهم وأعلى ذكرهم في المصلحين.

المبحث الثالث

أثر فتح القسطنطينية على العالم الأوروبي والإسلامي

كانت القسطنطينية قبل فتحها عقبة كبيرة في وجه انتشار الاسلام في اوربا ولذلك فإن سقوطها يعني فتح الاسلام لدخول أوروبا بقوة وسلام لمعتقيه أكثر من ذي قبل ، ويعتبر فتح القسطنطينية من أهم أحداث التاريخ العالمي، وخصوصاً تاريخ أوروبا وعلاقتها بالإسلام حتى عده المؤرخون الأوروبيون ومن تابعهم نهاية العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة(2). وقد قام السلطان بعد ذلك على ترتيب مختلف الأمور في المدينة، وإعادة تحصينها، واتخذها عاصمة للدولة العثمانية وأطلق عليها لقب اسلام بول أي مدينة الاسلام(3).

(1) المصدر السابق نفسه، ص376.

(2) انظر : تاريخ الدولة العثمانية ، يلماز أوزيونا، ص384.

(3) انظر: تاريخ الدولة العلية، محمد فريد بك، ص164.

لقد تأثر الغرب النصراني بنبأ هذا الفتح، وانتاب النصارى شعور بالفزع والالام والخزي ، وتجسم لهم خطر جيوش الاسلام القادمة من استنبول ، وبذل الشعراء والادباء ما في وسعهم لتأجيج نار الحقد وبراكين الغضب في نفوس النصارى ضد المسلمين ، وعقد الامراء والملوك اجتماعات طويلة ومستمرة وتتادى النصارى الى نبذ الخلافات والحزازات وكان البابا نيقولا الخامس أشد الناس تأثراً بنبأ سقوط القسطنطينية، وعمل جهده وصرف وقته في توحيد الدول الايطالية وتشجيعها على قتال المسلمين، وترأس مؤتمراً عقد في روما أعلنت فيه الدول المشتركة عن عزمها على التعاون فيما بينها وتوجيه جميع جهودها وقوتها ضد العدو المشترك. وأوشك هذا الحلف أن يتم إلا أن الموت عاجل البابا بسبب الصدمة العنيفة الناشئة عن سقوط القسطنطينية في يد العثمانيين والتي تسببت في همه وحزنه فمات كمدأ في 25 مارس سنة 1455م(1).

وتحمس الأمير فيليب الطيب دوق بورجونديا والتهب حماساً وحمية واستنفر ملوك النصارى الى قتال المسلمين وحذ حذوه البارونات والفرسان والمتحمسون والمتعصبون للنصرانية، وتحولت فكرة قتال المسلمين الى عقيدة مقدسة تدفعهم لغزو بلادهم ، وتزعمت البابوية في روما حروب النصارى ضد المسلمين وكان السلطان محمد الفاتح بالمرصاد لكل تحركات النصارى، وخطط ونفذ مارآه مناسباً لتقوية دولته وتدمير أعدائه، واضطر النصارى الذين كانوا يجاورون السلطان محمد أو يتاخمون حدوده ففي آماسيا، وبلاد المورة ، طرابيزون وغيرهم أن يكتموا شعورهم الحقيقي، فتظاهروا بالفرح وبعثوا وفودهم الى السلطان في أدرنة لتهنئته على انتصاره العظيم(2). وحاول البابا بيوس الثاني بكل ما أوتي من مقدرة خطابية ، وحنكة سياسية، تأجيج الحقد الصليبي في نفوس النصارى شعوباً وملوكاً، قادة وجنوداً واستعدت بعض الدول لتحقيق فكرة البابا الهادفة للقضاء على العثمانيين ولما حان وقت النفير اعتذرت دول أوروبا بسبب متاعبها الداخلية،

(1) انظر: السلطان محمد الفاتح ، ص137،136.

(2) المصدر السابق نفسه، ص140.

فلقد انهكت حرب المائة عام انكلتر وفرنسا، كما أن بريطانيا كانت منهمكة في مشاغلها الدستورية وحروبها الأهلية، وأما أسبانيا فهي مشغولة بالقضاء على مسلمي الأندلس وأما الجمهوريات الإيطالية فكانت تهتم بتوطيد علاقاتها بالدولة العثمانية مكرهة وحباً في المال ، فكانت تهتم بعلاقتها مع الدولة العثمانية.

وانتهى مشروع الحملة الصليبية بموت زعيمها البابا واصبحت المجر والبندقية تواجه الدولة العثمانية لوحدهما؛ أما البندقية فعقدت معاهدة صداقة وحسن جوار مع العثمانيين رعاية لمصالحها وأما المجر فقد انهزمت أمام الجيوش العثمانية واستطاع العثمانيون أن يضموا الى دولتهم بلاد الصرب، واليونان والافلاق والقرم والجزر الرئيسية في الأرخيل. وقد تم ذلك في فترة قصيرة ، حيث داهمهم السلطان الفاتح، وشتت شملهم ، واخذهم أخذاً عظيماً(1).

وحاول البابا (بيوس الثاني) بكل ما أوتي من مهارة وقدرة سياسية تركيز جهوده في ناحيتين اثنتين : حاول أولاً أن يقنع الاتراك باعتناق الدين النصراني، ولم يقد يرسال بعثات تبشيرية لذلك الغرض وإنما اقتصر على ارسال خطاب الى السلطان محمد الفاتح يطلب منه أن يعضد النصرانية، كما عضدها قبله قسطنطين وكلوفيس ووعده بأنه سيكفر عنه خطايا ان هو اعتنق النصرانية مخلصاً، ووعده بمنحه بركته واحتضانه ومنحه سكاً بدخول الجنة. ولما فشل البابا في خطته هذه لجأ الى الخطة الثانية خطة التهديد والوعيد واستعمال القوة، وكانت نتائج هذه الخطة الثانية قد بدأ فشلها مسبقاً بهزيمة الجيوش الصليبية والقضاء على الحملة التي قادها هونياد المجري(2).

وأما آثار هذا الفتح المبين في المشرق الاسلامي - فنقول لقد عم الفرح والابتهاج المسلمين في ربوع آسيا وأفريقيا فقد كان هذا الفتح حلم الأجداد وأمل الاجيال ، ولقد تطلعت له طويلاً وهاقد

(1) انظر: السلطان محمد الفاتح، ص140.

(2) انظر: السلطان محمد الفاتح، ص141.

تحقق وارسل السلطان محمد الفاتح رسائل الى حكام الديار الاسلامية في مصر والحجاز وبلاد فارس والهند وغيرها؛ يخبرهم بهذا النصر الاسلامي العظيم- وأذيعت أنباء الانتصار من فوق المنابر، وأقيمت صلوات الشكر، وزينت المنازل والحوانيت وعلقت على الجدران والحوائط والاعلام والأقمشة المزركشة بألوانها المختلفة(1).

يقول ابن إياس صاحب كتاب (بدائع الزهور) في هذه الواقعة : (فلما بلغ ذلك ، ووصل وفد الفاتح، دقت البشائر بالقلعة، ونودي في القاهرة بالزينة، ثم أن السلطان عين برسباي أمير آخور ثاني رسولاً الى ابن عثمان يهنئه بهذا الفتح)(2).

وندع المؤرخ أبا المحاسن بن تغري بردي يصف شعور الناس وحالهم في القاهرة عندما وصل إليها وفد الفاتح ومعهم الهدايا واسيران من عظماء الروم، قال : (قلت ولله الحمد والمنة على هذا الفتح العظيم وجاء القاصد المذكور ومعه اسيران من عظماء اسطنبول وطلع بهما الى السلطان (سلطان مصر إينال) وهما من أهل القسطنطينية وهي الكنيسة العظيمة باسطنبول فسر السلطان والناس قاطبة بهذا الفتح العظيم ودقت البشائر لذلك وزينت القاهرة بسبب ذلك أياماً ثم طلع القاصد المذكور وبين يديه الأسيران الى القلعة في يوم الاثنين خامس وعشرين شوال بعد أن اجتار القاصد المذكور ورفقته بشوارع القاهرة. وقد احتفلت الناس بزينة الحوانيت والأماكن وأمعنوا في ذلك الى الغاية وعمل السلطان الخدمة بالحوش السلطاني من قلعة الجبل..)(3).

وهذا الذي ذكره ابن تغري بردي من وصف احتفال الناس وأفراحهم في القاهرة بفتح القسطنطينية ما هو إلا صورة لنظائر لها قامت في البلاد الاسلامية الاخرى. وقد بعث السلطان محمد الفاتح برسائل الفتح الى سلطان مصر وشاه ايران وشريف مكة وأمير القرماني، كما بعث

(1) المصدر السابق نفسه، ص142.

(2) المصدر السابق نفسه، ص142.

(3) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (71/16).

بمثل هذه الرسائل الى الأمراء المسيحيين المجاورين له في المورة والأفلاق والمجر والبوسنة
وصربيا وألبانيا والى جميع أطراف مملكته(1).

من رسالة الفاتح الى سلطان مصر:

واليك مقتطفات من رسالة الفاتح الى أخيه سلطان مصر الأشرف اينال وهي من إنشاء الشيخ
أحمد الكوراني: (.إن من أحسن سنن أسلافنا رحمهم الله تعالى أنهم مجاهدون في سبيل الله
ولا يخافون لومة لائم ونحن على تلك السنة قائمون وعلى تيك الأمنية دائمون ممثلين بقوله تعالى :
{قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله}، ومستمسكين بقوله عليه السلام: (من أغبرت قدماه في سبيل الله
حرمه الله على النار) فهممنا في هذا العام عممه الله بالبركة والإنعام معتصمين بحبل الله ذي
الجلال والاکرام و متمسكين بفضل الملك العلام الى أداء فرض الغزاة في الاسلام مؤتمرين بأمره
تعالى: {قاتلوا الذين يلونكم من الكفار...} وجهزنا عساكر الغزاة والمجاهدين من البر والبحر لفتح
مدينة ملئت فجوراً وكفراً التي بقيت وسط الممالك الاسلامية تباهي بكفرها فخراً .

فكانها حصف على الخد الأغر

وكانها كلف على وجه القمر

..... هذه المدينة الواقع جانب منها في البحر وجانب منها في البر، فأعدنا لها كما أمرنا
الله بقوله : { وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة .. } كل أهبة يعتد بها وجميع أسلحة يعتمد عليها من
البرق والرعد والمنجنيق والنقب والحجور وغيرها من جانب البر والفلك المشحون والجوار المنشآت
في البحر كالأعلام من جانب البحر ونزلنا عليها في السادس والعشرين من ربيع الأول من شهر
سنة سبع وخمسين وثمانمائة

فقلت للنفس جدي الآن فاجتهدني

وساعدني فهذا ما تمنيت

(1) انظر: محمد الفاتح، ص142.

فكلما دعوا إلى الحق أصروا واستكبروا وكانوا من الكافرين فأحطنا بها محاصرة وحاربناهم
وحاربونا وقاتلناهم وقاتلونا وجرى بيننا وبينهم القتال أربعة وخمسين يوماً وليلة

إذا جاء نصر الله والفتح هين

على المرء معسور الأمور وصعبها

فمتى طلع الصبح الصادق من يوم الثلاثاء يوم العشرين من جمادي الأولى هجمنا مثل النجوم
رجوماً لجنود الشياطين سخرها الحكم الصديقي ببركة العدل الفاروقي بالضرب الحيدري لآل
عثمان قد من الله بالفتح قبل أن ظهرت الشمس من مشرقها { سيهزم الجمع ويولون الدبر، بل
الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر }، وأول من قتل وقطع رأسه تكفورهم اللعين الكنود فأهلكوا
كقوم عاد وثمود فحفظهم ملائكة العذاب فأوردتهم النار وبئس المآب فقتل من قتل وأسر من به
بقي وأغاروا على خزائهم وأخرجوا كنوزهم ودفانينهم موفوراً فأتى عليهم حين من الدهر لم يكن
شيئاً مذكوراً وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين فيومئذ يفرح المؤمنون بنصر
الله، فلما ظهرنا على هؤلاء الأرجاس الأنجاس الحلوس طهرنا القوس من القسوس وأخرجنا منه
الصليب والناقوس وصيرنا معابد عبدة الأصنام مساجد أهل الإسلام وتشرفت تلك الخطبة بشرف
السكة والخطبة فوق أمر الله وبطل ما كانوا يعملون.....(1).

وأرسل السلطان الفاتح رسالة إلى شريف مكة عن طريق سلطان مصر وقد رد سلطان مصر
على خطاب السلطان محمد وهداياه بمقطوعة من النثر الأدبي الرفيع وجاءت فيها بعض الأبيات
الشعرية المعبرة مثل قول الشاعر:

خطبتها بكرةً وما أمهرتها

إلا قنا وقواضباً وفوارسا

(1) محمد الفاتح، ص 163 الى 167.

جلبت له بيض الحصون عرايسا

الله أكبر ما جنيت ثمارها

إلا وكان أبوك قبلك غراسا (1)

وقد جاء في رسالة سلطان مصر أيضاً هذا البيت: قال الشاعر:

الله أكبر هذا النصر والظفر

هذا هو الفتح لا ما يزعم البشر (2)

وقال شاعر سلطان مصر بمناسبة فتح القسطنطينية:

كذا فليكن في الله جل العزائم

وإلا فلا تجفو الجفون الصوارم

كتائبك البحر الخضم جياها

إذا ما تهدت موجه المتلاطم

تحيط بمنصور اللواء مظفر

له النصر والتأييد عبد وخادم

فيا ناصر الإسلام يا من بغزوه

على الكفر أيام الزمان مواسم

تهنّ بفتح سار في الأرض ذكره

سرى الغيث يحدوه الصبا والنعائم (3)

رسالة السلطان محمد الفاتح إلى شريف مكة :

(1) محمد الفاتح ، ص 175.

(2) المصدر السابق، ص 176.

(3) محمد الفاتح ، ص 177.

وجه السلطان محمد الفاتح رسالة إلى شريف مكة المكرمة بمناسبة فتح القسطنطينية بشره فيها بالفتح، وطلب الدعاء، وأرسل له الهدايا من الغنائم، وهذه بعض فقراتها:

بعد مقدمة في المدح والثناء على شريف " مكة المكرمة " يقول : " فقد أرسلنا هذا الكتاب مبشراً بما رزق الله لنا في هذه السنة من الفتوح التي لا عين رأت ولا أذن سمعت، وهي تسخير البلدة المشهورة بالقسطنطينية، فالمأمول من مقر عزكم الشريفة أن يبشر بقدم هذه المسرة العظمى والموهبة الكبرى، مع سكان الحرمين الشريفين، والعلماء والسادات المهتدين، والزهاد والعباد الصالحين، والمشايخ، والأمجاد الواصلين، والأئمة الخيار المتقين، والصغار والكبار أجمعين، والتمسكين بأذيال سرادقات بيت الله الحرام، التي كالعروة الوثقى لا انفصام لها والمشرفين بزمام والمقام، والمعتكفين في قرب جوار رسول الله عليه التحية والسلام داعين لدوام دولتنا في العرفات، متضرعين من الله نصرتنا، أفاض علينا بركاتهم ورفع درجاتهم، وبعثنا مع المشار إليه هدية لكم خاصة ألفي فلوري من الذهب الخالص التام الوزن والعيار المأخوذ من تلك الغنيمة، وسبعة آلاف فلوري أخرى للفقراء، منها ألفان للسادات والنقباء، وألف للخدام المخصوصين للحرمين، والباقي للمساكين المحتاجين في مكة والمدينة المنورة، زادهما الله شرفاً، فالمرجو منكم التقسيم بينهم بمقتضى احتياجهم وفقدهم، وإشعار كيفية السير إلينا، وتحصيل الدعاء منهم لنا، دائماً باللطف والإحسان إن شاء الله تعالى، والله يحفظكم ويبقيكم بالسعادة الأبدية والسيادة السرمدية إلى يوم الدين (1)

وقد رد شريف مكة على رسالة السلطان محمد الفاتح:

(وفتحناها بكمال الأدب، وقرأناها مقابل الكعبة المعظمة بين أهل الحجاز وأبناء العرب فرأينا فيها من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين، وشاهدنا من فحوايها ظهور معجزة رسول الله خاتم النبيين وماهي إلا فتح " القسطنطينية " العظمى وتوابعها التي متانة حصنها مشهورة بين الأنام،

(1) الدولة العثمانية ، الدكتور جمال عبدالهادي ، ص47.

وحصانة سورها معروفة عند الخواص والعوام وحمدنا الله بتيسير ذلك الأمر العسير وتحصيل ذلك المهم الخطير، وبششنا ذلك غاية البشاشة، وابتهجنا من إحياء مراسم آبائكم العظام والسلوك مسالك أجدادكم الكرام، رَوِّحَ اللهُ أرواحهم، وجعل أعلى غرف الجنان مكانهم، في إظهار المحبة لسكان الأراضي المقدسة(1)

المبحث الرابع

أسباب فتح القسطنطينية

إن فتح المسلمين للقسطنطينية لم يأتي من فراغ وإنما هو نتيجة لجهود تراكمية قام بها المسلمون منذ العصور الأولى للإسلام رغبة من تلك الأجيال في تحقيق بشارة رسول الله ﷺ وزاد الاهتمام بفتح القسطنطينية مع ظهور دولة بني عثمان ونلاحظ أن سلاطين الدولة العثمانية كانوا أصحاب فقه عميق لسنة الأخذ بالأسباب ومارس محمد الفاتح ذلك الفقه ويظهر ذلك من خلال سيرته الجهادية وحرصه على العمل بقوله تعالى: { وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ... } (سورة الأنفال، آية: 60).

لقد فهم محمد الفاتح من هذه الآية أن أمر التمكين لهذا الدين يحتاج إلى جميع أنواع القوى، على اختلافها وتنوعها، ولقد قام بشرح هذه الآية شرحاً عملياً في جهاده الميمون فقام بحشد جيش عظيم لحصار القسطنطينية ولم يتوانا في جلب كل سلاح معروف في زمانه من مدافع، وفرسان،

(1) المصدر السابق نفسه، ص48.

ولقد كان الجيش الذي حاصر القسطنطينية بقيادة محمد الفاتح قد أعد إعداداً ربانياً فتربى على معاني الإيمان والتقوى، وتحمل الأمانة وأداء الرسالة المنوطة به ولقد تربى على معاني العقيدة الصحيحة وأشرف العلماء الربانيون على تلك التربية ولقد جعلوا من كتاب الله تعالى وسنة نبيه منهجاً لهم في تربية الأفراد، فكانوا يربونهم على:

1- إن الله تعالى واحد لا شريك له، ولم يتخذ صاحبة ولا ولداً وأنه منزه عن النقائص، وموصوف بالكمالات التي لا تنتاهى.

2- وأنه سبحانه خالق كل شيء، ومالكه، ومدبر أمره { ألا له الخلق والأمر } (سورة الأعراف: 54).

3- وأنه سبحانه وتعالى مصدر كل نعمة في هذا الوجود، دقت أو عظمت، ظهرت أو خفيت { وما بكم من نعمة فمن الله } (سورة النحل: 53).

4- وأن علمه محيط بكل شيء، فلا تخفى عليه خافية في الأرض، ولا في السماء، وما لا يخفى الإنسان وما لا يعلن: { وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً } (سورة الطلاق: 12).

5- وأنه سبحانه يقيد على الإنسان أعماله بواسطة ملائكته، في كتاب لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وسينشر ذلك في اللحظة المناسبة والوقت المناسب { ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد } (سورة ق: 8).

6- وأنه سبحانه يبتلي عباده بأمر تخالف ما يحبون، وما يهونون، ليعرف الناس معادتهم، من منهم يرضى بقضاء الله وقدره، ويسلم له ظاهراً وباطناً، فيكون جديراً بالخلافة والإمامة والسيادة، ومن منهم يغضب ويسخط فلا يساوي شيئاً ولا يسند إليه شيء: { الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً } (سورة الملك: 2).

7- وأنه سبحانه يوفق ويؤيد وينصر من لجأ إليه، ولاذ بحماه ونزل على حكمه في كل ما يأتي

وما يذر : { إن وليّ الله الذي نزل الكتاب، وهو يتولى الصالحين } (سورة الأعراف: 196).
8- وأنه سبحانه وتعالى حقه على العباد أن يعبدوه، ويوحدوه، فلا يشركوا به شيئاً: { بل الله فاعبد وكن من الشاكرين } (سورة الزمر: 16).

9- وأنه سبحانه - حدد مضمون هذه العبودية، وهذا التوحيد في القرآن العظيم.
ولقد نهج علماء الدولة العثمانية منهج الرسول ρ في تربية الأفراد والجنود على حقيقة المصير وسبيل النجاة وركزوا في البيان على الجوانب التالية:

1- إن هذه الحياة مهما طالَّت فهي إلى زوال، وأن متاعها مهما عظم، فإنه قليل حقير : { إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض، مما يأكل الناس والأنعام، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت، وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون } (سورة يونس: 24). {قل متاع الدنيا قليل } (النساء: 77).

2- وأن كل الخلق إلى الله راجعون، وعن أعمالهم مسؤولون ومحاسبون وفي الجنة أو في النار مستقرون: { أychسب الإنسان أن يترك سدى } (القيامة:36).

3- وأن نعيم الجنة ينسي كل تعب ومرارة في الدنيا، وكذلك عذاب النار ينسي كل راحة وحلاوة في هذه الدنيا : { أفرايت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون، ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون } (سورة الشعراء: 205-207).

4- وأن الناس مع زوال الدنيا، واستقرارهم في الجنة، أو في النار، سيمرون بسلسلة طويلة من الأهوال والشدائد: { يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد.. } (سورة الحج: 1-2). وقال تعالى : { فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل

الولدان شيباً، السماء منفطر به كان وعده مفعولاً { (سورة المزمل: 17-18) .

5- وسبيل النجاة من شر هذه الأهوال، ومن تلك الشدائد، والظفر بالجنة والبعد عن النار (1) ، بالإيمان بالله تعالى وعمل الصالحات ابتغاء مرضاته: { إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير } (سورة البروج: 11) .

ومضى العلماء الريانيون في الدولة العثمانية على منهج الرسول μ في تبصير الأفراد والجنود والقادة والشعب بدورهم ورسالتهم في الأرض، ومنزلتهم ومكانتهم عند الله وظلوا على هذه الحال من التبصير والتذكير حتى انقح في ذهنهم، مالهم عند الله، ومادورهم ورسالتهم في الأرض، وتأثراً بهذه التربية الحميدة تولدت الحماسة والعزيمة في نفوس الأفراد والجنود والقادة فهذا محمد الفاتح نفسه الذي تربي على هذا المنهج يفخر بهذه المعاني والقيم في أشعاره فنجده يقول:

وحماسي: بذل الجهد لخدمة ديني، دين الله

عزمي: أن أقهر أهل الكفر جميعاً بجنودي: جند الله

وتفكيري: منصب على الفتح، على النصر على الفوز، بلطف الله

جهادي: بالنفس وبالمال، فماذا في الدنيا بعد الامتثال لأمر الله

وأشواقي: الغزو الغزو مئات الآلاف من المرات لوجه الله

رجائي: في نصر الله. وسمو الدولة على أعداء الله (2).

وعندما أراد السلطان محمد فتح مدينة طرابزون وكان حاكمها نصراني وكان يريد أن يباغتها على غرة، فأعد العدة، واستصحب معه عدداً كبيراً من العمال المتخصصين في قطع الأشجار وتعبيد الطرق. وقد صادف الفاتح في طريقه بعض الجبال العالية الوعرة فترجل عن فرسه وتسلقها على يديه ورجليه كسائر الجند (وكانت معه والدة حسن اوزون زعيم التركمان جاءت للإصلاح

(1) انظر: منهج الرسول في غرس الروح الجهادية ، ص 19 الى 34.

(2) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص 258.

بين السلطان محمد وابنها) فقالت له: (فيم تشقى كل هذا الشقاء يا بني وتتكد كل هذا العناء، هل تستحق طرابزون كل هذا؟) .. فأجاب الفاتح: يأماه، إن الله قد وضع هذا السيف في يدي لأجاهد به في سبيله، فإذا أنا لم أتحمل هذه المتاعب وأؤد بهذا السيف حقه فلن أكون جديراً بلقب الغازي الذي احمله وكيف القى الله بعد ذلك يوم القيامة؟ (1) وهكذا كان معظم الجنود والقادة بسبب تربيتهم الايمانية العميقة.

لقد كان جيش محمد الفاتح في حصار القسطنطينية على جانب عظيم من التمسك بالعقيدة الصحيحة، والعبادات وإقامة شعائر الدين والخضوع لله رب العالمين (2).
لقد ذكر المؤرخون أسباب كثيرة في فتح القسطنطينية، كضعف الدولة البيزنطية، والصراعات العقدية بداخلها، والتآكل الداخلي للدول الأوروبية بسبب القتال الذي نشأ بين الدول الأوروبية لعودة طويلة وغير ذلك من الاسباب.

أثر تحكيم شرع الله تعالى على الدولة العثمانية في زمن السلطان محمد الفاتح:

إن التأمل في كتاب الله وسنة رسوله ρ وفي حياة الأمم والشعوب تكسب العبد معرفة اصيلة بأثر سنن الله في الأنفس والكون والآفاق، وكتاب الله تعالى مليء بسننه وقوانينه الماثورة في المجتمعات والدول والشعوب قال تعالى: ليريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم} (سورة النساء: آية 26).

وسنن الله تتضح بالتدبر في كتاب الله وفيما صح عن رسول الله ρ ، فقد كان ρ يقتنص الفرص ويستفيد من الأحداث ليرشد أصحابه الى شيء من السنن، ومن ذلك أن ناقته عليه الصلاة والسلام "العضباء" كانت لا تُسبق، فحدث مرة أن سبقها أعرابي على قعود له، فشق ذلك على أصحاب النبي ρ فقال لهم عليه الصلاة والسلام كاشفاً عن سنة من سنن الله: (حق على الله أن

(1) انظر: محمد الفاتح، ص 263.

(2) انظر: الحسبة في العصر المملوكي، د. حيدر الصافح، ص 206.

لا يرفع شيء من الدنيا إلا وضعه (1).

وقد أرشدنا كتاب الله الى تتبع آثار السنن في الأمكنة بالسعي والسير، وفي الأزمنة من التاريخ والسير قال تعالى: {قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين} (سورة آل عمران: آية 137-138).

وأرشدنا القرآن الكريم الى معرفة السنن بالنظر والتفكر قال تعالى: {قل أنظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون، فهل ينظرون إلا مثل أيام الذين خلو من قبلهم، قل فانظروا إني معكم من المنتظرين} (سورة يونس: الآيات 101-102).

ومن خلال آيات القرآن يظهر لنا أن السنن الإلهية تختص بخصائص:

أولاً: إنها قدر سابق:

قال تعالى: {ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلو من قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً} (سورة الأحزاب: آية 38).

أي أن حكم الله تعالى وأمره الذي يقدره كائن لامحالة، وواقع لاحياد عنه، ولا معدل فيما شاء وكان ومالم يشأ لم يكن .

ثانياً: أنها لا تتحول ولا تتبدل :

قال تعالى: {لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم، ثم لا يجاورنك فيها إلا قليلاً، ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا قليلاً، سنة الله في الذين خلو من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً} (سورة الأحزاب: الآيات 22-23، 60-62).

وقال تعالى: {ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً} (سورة الفتح: الآية 23، 22).

(1) اخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ناقة رسول الله (86/6).

قال تعالى: {قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين
{ (سورة غافر: الآيات 82-85).

رابعاً: أنها لاتخالف ولا تنفع مخالفتها:

قال تعالى: {أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، كانوا أكثر منهم
وأشد قوة وأثراً في الأرض، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما
عندهم من العلم وحق بهم ما كانوا به يستهزئون، فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا
به مشركين، فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التي قد خلت في عباده، وخسر هنالك
الكاغرون} (سورة غافر: الآيات 82-85).

خامساً: لاينتفع بها المعاندون ولكن يتعظ بها المتقون :

قال تعالى: {قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين هذا
بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين} (سورة آل عمران : الآيات 137-138).

سادساً: إنها تسري على البر والفاجر:

فالمؤمنون والأنبياء أعلاهم قدراً تسري عليهم سنن الله ولله سنن جارية تتعلق بالآثار المترتبة
على من امتثل أمر الله أو أعرض عنه وبما أن العثمانيين ألتزموا بشرع الله في كافة شؤونهم ومروا
بمراحل طبيعية في حياة الدول فإن أثر حكم الله فيهم واضح بيّن:
وللحكم بما أنزل الله آثار دنيوية وأخرى أخروية أما الآثار الدنيوية التي ظهرت لي من خلال
دراستي للدولة العثمانية فإنها:

أولاً: الاستخلاف والتمكين:

حيث نجد العثمانيين منذ زعيمهم الأول عثمان حتى محمد الفاتح ومن بعده حرصوا على إقامة
شعائر الله على أنفسهم وأهلهم وأخلصوا لله في تحاكمهم الى شرعه، فإله سبحانه وتعالى قواهم وشد

أزهم واستخلفهم في الأرض وأقام العثمانيون شريعة الله في الأرض التي حكموها، فمكن لهم المولى عز وجل الملك ووطأ لهم السلطان.

وهذه سنة ربانية نافذة لا تتبدل في الشعوب والأمم التي تسعى جاهدة لإقامة شرع الله. وقد خاطب تعالى المؤمنين من هذه الأمة واعدأ إياهم بما وعد به المؤمنين قبلهم، فقال سبحانه في سورة النور : {وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض (بدلاً من الكفار) كما استخلف الذين من قبلهم} من بني إسرائيل (1).

ولقد حقق العثمانيون الإيمان وتحاكموا الى شريعة الرحمن، فأنتهم ثمرة ذلك واثره الباقي {وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم} فحققوا التحاكم الى الدين، فتحقق لهم التمكين.

ثانياً: الأمن والأستقرار:

كانت بلاد آسيا الصغرى مضطربة وكثرت فيها الإمارات المتنازعة ، وبعدأن أكرم الله تعالى العثمانيين بتوحيد تلك الإمارات وتوجيهها نحو الجهاد في سبيل الله تعالى يسر الله للدولة العثمانية الأمن والأستقرار في تلك الربوع التي حكم فيها شرع الله.

حيث نجد أن الدولة العثمانية بعد أن استخلفت مكن الله لها وأعطاهها دواعي الأمن وأسباب الأستقرار حتى تحافظ على مكانتها وهذه سنة جارية ماضية ضمن الله لأهل الايمان والعمل بشرعه وحكمه أن يبسر لهم الأمن الذي ينشدون في أنفسهم وواقعهم ، فبيده سبحانه مقاليد الأمور، وتصريف الأقدار، وهو مقلب القلوب ، والله يهب الأمن المطلق لمن استقام على التوحيد وتطهر من الشرك بأنواعه قال تعالى: {الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون} (سورة الأنعام: آية) فنفوسهم في أمن من المخاوف ومن العذاب والشقاء إذا خلصت لله من الشرك، صغيره وكبيره ، إن تحكيم شرع الله فيه راحة للنفوس لكونها تمس عدل الله ورحمته وحكمته.

(1) سورة النور ، الآية:

إن الله تعالى بعد أن وعد المؤمنين بالاستخلاف ثم التمكين لم يحرمهم بعد ذلك من التأمين، والتطمين والبعد عن الخوف والفرع.

إن العثمانيين عندما حققوا العبودية لله ونبذوا الشرك بأنواعه حقق الله لهم الأمن في النفوس على مستوى الشعب والدولة.

ثالثاً: النصر والفتح:

إن العثمانيين حرصوا على نصره دين الله بكل ما يمكنون وتحققت فيهم سنة الله في نصرته لمن ينصره لأن الله ضمن لمن استقام على شرعه أن ينصره على أعدائه بعزته وقوته قال تعالى: ﴿وَلِيُنصِرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصِرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور} (سورة الحج: آية ٤٠).

(وما حدث قط في تاريخ البشرية أن استقامت جماعة على هدى الله إلا منحها القوة والمنعة والسيادة في نهاية المطاف ... إن الكثيرين ليشفقونا من اتباع شريعة الله والسير على هداية يشفقون من عداوة أعداء الله ومكرهم ويشفقون من تألب الخصوم عليهم ويشفقون من المضايقات الاقتصادية وغير الاقتصادية ، وإن هي إلا أوهام كأوهم قريش يوم قالت لرسول الله ﷺ: {إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا} (سورة القصص: آية 57)، فلما اتبعت هدى الله سيطرت على مشارق الأرض ومغاربها في ربع قرن أو أقل من الزمان(1).

إن الله تعالى أيد العثمانيين على الأعداء ومنّ عليهم بالفتح، فتح الأراضي وإخضاعها لحكم الله تعالى، وفتح القلوب هدايتها لدين الإسلام.

إن العثمانيين عندما استجابوا وانقادوا لشريعة الله جلبت لهم الفتح، واستنزلت عليهم نصر الله.

إن الشعوب الإسلامية التي تبتعد عن شريعة الله تذلل نفسها في الدنيا والآخرة.

إن مسؤولية الحكام والقضاة والعلماء والدعاة في الدعوة إلى تحكيم شرع الله مسؤولية عظيمة

(1) في ظلال القرآن (2704/4).

يسألون عنها يوم القيامة أمام الله: (إذا حكم ولادة الأمر بغير ما أنزل الله، وقع بأسهم بينهم.. وهذا أعظم أسباب تغير الدول كما جرى هذا مرة بعد مرة في زماننا وغير زماننا ومن أراد الله سعادته جعله يعتبر بما أصاب غيره)، فيسلك مسلك من أيده الله ونصره ويجتنب مسلك من خذله الله وأهانته؛ فإن الله يقول في كتابه : { ولينصرنَّ الله من ينصره إن الله لقوي عزيز } الى قوله تعالى: {ولله عاقبة الأمور} (1) فقد وعد الله بنصره من ينصره ونصره هو نصر كتابه ودينه ورسوله، لانصر من يحكم بغير ما أنزل الله ويتكلم بما لا يعلم (2).

رابعاً: العز والشرف:

إن عز العثمانيين وشرفهم العظيم الذي سطر في كتب التاريخ يرجع الى تمسكهم بكتاب الله وسنة رسوله ρ ؛ إن من يعتز بالانتساب لكتاب الله وسنة رسوله ρ الذي به تشرف الأمة وبه يعلو ذكرها ، وضع رجله على الطريق الصحيح وأصاب سنة الله الجارية في إعزاز وتشريف من يتمسك بكتابه وسنة رسوله ρ قال تعالى: {لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون} (سورة الأنبياء : الآية 10).

قال ابن عباس -رضي الله عنهما- في تفسير هذه الآية : (فيه شرفكم) (3) إن العثمانيين استمدوا شرفهم وعزهم من استمسكهم بأحكام الاسلام، كما قال عمر بن الخطاب τ : (إنا كنا أدل قوم ، فأعزنا الله بالاسلام، فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله أدلنا الله) (4)، فعمر τ كشف لنا بكلماته عن حقيقة الارتباط بين حال الأمة عزى وذُلًّا، مع موقفها من الشريعة إقبالاً وإدباراً، فما عزت في يوم بغير دين الله، ولا ذلت في يومٍ إلا بالإنحراف عنه قال تعالى: {من كان يريد العزة

(1) سورة الحج، الآيات (40-41).

(2) مجموع الفتاوي لابن تيمية (388/35).

(3) انظر: تفسير ابن كثير (170/3).

(4) اخرجه الحاكم في المستدرک ، كتاب الايمان (62/1).

فله العزة جميعاً} (سورة فاطر: الآية 10) يعني من طلب العزة فيلعتز بطاعة الله عز وجل (1).
وقال تعالى: {ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين، ولكن المنافقين لا يعلمون} (سورة المنافقين: الآية 8).

إن سيرة سلاطين العثمانيين من أمثال عثمان الأول، ومراد، ومحمد الفاتح تبين لنا أعتزازهم بالاسلام وحبهم للقرآن واستعدادهم للموت في سبيل الله، ولقد عاشوا في بركة من العيش ورغد من الحياة الطيبة وما نالوا ذلك إلا بإقامة دين الله قال تعالى: {ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون} (سورة الاعراف: آية 96).

خامساً: انتشار الفضائل وانزواء الرذائل:

لقد انتشرت الفضائل في زمن محمد الفاتح وانحسرت الرذائل؛ فخرج جيل فيه نبل وكرم وشجاعة وعطاء وتضحية من أجل العقيدة والشريعة متطلعاً الى ما عند الله من الثواب يخشى من عقاب الله لقد استجاب ذلك المجتمع بشعبه ودولته وحكامه الى ما يحبه الرحمن والى تعاليم الاسلام.

إن آثار تحكيم شرع الله في الشعوب والدول التي نفذت أوامر الله ونواهيها ظاهرة بينة لدارس التاريخ وإن تلك الآثار الطيبة التي اصابت الدولة العثمانية لهي من سنن الله الجارية والتي لا تتبدل ولا تتغير فأى شعب يسعى لهذا المطلب الجليل والعمل العظيم يصل إليه ولو بعد حين ويرى آثار ذلك التحكيم على أفراد وحكامه ودولته.

إن الغرض من الأبحاث التاريخية الاسلامية الاستفادة الجادة من أولئك الذين سبقونا بالايمان في جهادهم وعلمهم وتربيتهم وسعيهم الدؤوب لتحكيم شرع الله وأخذهم بسنن التمكين وفقه ومراعاة التدرج والمرحلية والانتقاء من أفراد الشعب والارتقاء بهم نحو الكمالات الاسلامية المنشودة. إن

(1) ابن كثير (526/2).

الإنجازات العظيمة في تاريخ أمتنا يجريها الله تعالى على يدي من أخلص لربه ودينه وأقام شرعه وزكى نفسه ولهذا لم يأتي فتحاً عظيماً وفتحاً مبيناً إلا لمن توفرت فيهم صفات جيل التمكين التي ذكرت في القرآن الكريم.

المبحث الخامس

أهم صفات محمد الفاتح

لقد ظهرت بعض الصفات القيادية في شخصية محمد الفاتح عند البحث والدراسة ومن أهم هذه الصفات:

1- الحزم:

وظهر ذلك عندما غلب ظنه أن هناك تقصيراً أو تكاسلاً من جانب قائد الاسطول العثماني

بالبطه أوغلي عند حصاره للقسطنطينية، فأرسل إليه وقال: (إما تستولي على هذه السفن وإما أن تغرقها وإذا لم توفق في ذلك فلا ترجع إلينا حياً)(1).

ولما لم يحقق بالبطه أوغلي مهمته عزله، وجعل مكانه حمزة باشا.

2- الشجاعة:

وكان رحمه الله يخوض المعارك بنفسه ويقا تل الأعداء بسيفه وفي احدى المعارك في بلاد البلقان تعرض الجيش العثماني لكمين من قبل زعيم البوغدان استقن حيث تخفى مع جيشه خلف الأشجار الكثيفة المتلاصقة وبينما المسلمون بجانب تلك الأشجار انهمرت عليهم نيران المدافع الشديدة من بين الأشجار وانبطح الجنود على وجوههم وكاد الاضطراب يسود صفوف الجيش لولا أن سارع السلطان الفاتح وتباعد عن مرمى المدافع وعنّف رئيس الانكشارية محمد الطرابزونى على تخاذل جنده، ثم صاح فيهم: (أيها الغزاة المجاهدون كونوا جند الله ولتكن فيكم الحمية الاسلامية)(2) وأمسك بالترس واستل سيفه ركض بحصانه واندفع به الى الامام لايلى على شيء وألهب بذلك نار الحماس في جنده فانطلقوا وراءه واقتحموا الغابة على من فيها ونشب بين الأشجار قتال عنيف بالسيف استمر من الضحى الى الأصيل.

ومزق العثمانيون الجنود البوغدانية شر ممزق ووقع استقن من فوق ظهر جواده ولم ينج إلا بصعوبة وولى هارباً، وانتصر العثمانيون وغنموا غنائم وفيرة(3).

3- الذكاء:

ويظهر ذلك في فكرته البارعة وهي نقل السفن من مرساها في بشكطاش الى القرن الذهبى، وذلك بجرها على الطريق البرى الواقع بين الميناءين مبتعداً عن حي غلطة خوفاً على سفنه من

(1) انظر: محمد الفاتح ، ص101.

(2) انظر: محمد الفاتح ، ص246.

(3) المصدر السابق نفسه، ص247.

الجنوبيين ، وقد كانت المسافة بين الميناءين نحو ثلاثة أميال، ولم تكن أرضاً مبسطة سهلة ولكنها كانت وهادئاً وتلاًلاً غير ممهدة وشرع في تنفيذ الخطة؛ ومهدت الأرض وسويت في ساعات قليلة وأتى بألواح من الخشب دهنت بالزيت والشحم، ثم وضعت على الطريق الممهّد بطريقة يسهل بها انزلاج السفن وجرها، لقد كان هذا العمل عظيماً بالنسبة للعصر الذي حدث فيه بل تجلّى فيه سرعة التفكير وسرعة التنفيذ، مما يدل على ذكاء محمد الفاتح الوقّاد(1).

4- العزيمة والإصرار:

فعندما أرسل السلطان محمد الفاتح الى الامبراطور قسطنطين يطلب منه تسليم القسطنطينية حتى يحقن دماء الناس في المدينة ولا يتعرضوا لأي أذى ويكونوا بالخيار في البقاء في المدينة أو الرحيل عنها، فعندما رفض قسطنطين تسليم المدينة قال السلطان محمد : (حسنأعن قريب سيكون لي في القسطنطينية عرش أو يكون لي فيها قبر)(2).

وعندما استطاع البيزنطيون أن يحرقوا القلعة الخشبية الضخمة المتحركة كان رده (غداً نصنع أربعاً اخرى)(3).

وهذه المواقف تدل على عزمته وإصراره في الوصول الى هدفه.

5- عدله:

حيث عامل أهل الكتاب وفق الشريعة الاسلامية وأعطاهم حقوقهم الدينية ولم يتعرض أحد من النصارى للظلم أو التعدي بل أكرم زعمائهم وأحسن الى رؤسائهم وكان شعاره العدل أساس الملك(4).

(1) انظر: السلطان محمد الفاتح ، ص 102.

(2) انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور ، ص376.

(3) السلطان محمد الفاتح، ص122.

(4) المصدر السابق نفسه، ص152.

6- عدم الاغترار بقوة النفس وكثرة الجند وسعة السلطان:

نجد السلطان محمد عند دخول القسطنطينية يقول: (حمداً لله، ليرحم الله الشهداء ويمنح المجاهدين الشرف والمجد، ولشعبي الفخر والشكر)(1).
فهو أسند الفضل الى الله ولذلك لهج لسانه بالحمد والثناء والشكر لمولاه الذي نصره وأيده وهذا يدل على عمق إيمان محمد الفاتح بالله سبحانه وتعالى.
7- الأخلص:

إن كثير من المواقف التي سجلت في تاريخ الفاتح تدلنا على عمق اخلاصه لدينه وعقيدته في اشعاره ومناجاته لربه سبحانه وتعالى حيث يقول:
نيّتي : امتثالي لأمر الله (وجاهدوا في سبيل الله).
وحماسي: بذل الجهد لخدمة ديني، دين الله.
عزمي: أن أقهر أهل الكفر جميعاً بجنودي : جند الله.
وتفكيري: منصب على الفتح، على النصر على الفوز، بلطف الله.
جهادي : بالنفس وبالمال، فماذا في الدنيا بعد الامتثال لأمر الله .
وأشواقني : الغزو الغزو مئات الآلاف من المرات لوجه الله.
رجائي: في نصر الله. وسموا الدولة على أعداء الله(2).
8- علمه :

أهتم والده به منذ الطفولة ولذلك خضع السلطان محمد الفاتح لنظام تربوي إشراف عليه مجموعة من علماء عصره المعروفين ، فتعلم القرآن الكريم والحديث والفقهاء والعلوم العصرية -آنذاك- من رياضيات وفلك وتاريخ ودراسات عسكرية نظرية وتطبيقية، وكان من كرم الله للسلطان محمد

(1) السلطان محمد الفاتح ، ص131.
(2) انظر : العثمانيون في التاريخ

الفتاح أن أشرف على تعليمه مجموعة من أساطين العلماء في عصره وفي مقدمتهم الشيخ آق شمس الدين والملا الكوراني (عالم الدين عند العثمانيين الأوائل يكون موسوعياً في شتى العلوم المعروفة في عصره). ولقد تأثر محمد الفاتح بتربية شيوخه وظهرت تلك التربية في اتجاهاته الثقافية والسياسية والعسكرية(1).

ولقد تجرر السلطان محمد في اللغات الإسلامية الثلاثة التي لم يكن يستغني عنها مثقف في ذلك العصر وهي : العربية والفارسية والتركية ، ولقد كان السلطان محمد الفاتح شاعراً وترك ديواناً باللغة التركية(2).

(1) السلطان محمد الفاتح، ص131.

(2) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص254 الى 259.

المبحث السادس شيء من أعماله الحضارية

• اهتمامه بالمدارس والمعاهد:

كان السلطان محمد الفاتح محباً للعلم والعلماء ولذلك اهتم ببناء المدارس والمعاهد في جميع أرجاء دولته. وقد كان السلطان أورخان أول من أنشأ مدرسة نموذجية في الدولة العثمانية وسار بعده سلاطين الدولة على نهجه وانتشرت المدارس والمعاهد في بروسة وأدرنة وغيرها من المدن. ولقد فاق محمد الفاتح أجداده في هذا المضمار وبذل جهوداً كبيرة في نشر العلم وإنشاء المدارس والمعاهد وأدخل بعض الإصلاحات في التعليم وأشرف على تهذيب المناهج وتطويرها

وحرص على نشر المدارس والمعاهد في كافة المدن الكبيرة والصغيرة وكذلك القرى وأوقف عليها الأوقاف العظيمة. ونظم هذه المدارس ورتبها على درجات ومراحل ، ووضع لها المناهج، وحدد العلوم والمواد التي تدرس في كل مرحلة ، ووضع لها نظام الامتحانات فلا ينتقل طالب من مرحلة الى اخرى إلا بعد اتقانه لعلوم المرحلة السابقة ويخضع لامتحان دقيق وكان السلطان الفاتح يتابع هذه الأمور ويشرف عليها واحياناً يحضر امتحانات الطلبة ويزور المدارس بين الحين والحين ولا يأنف من استماع الدروس التي يلقيها الاساتذة، وكان يوصي الطلبة بالجد والاجتهاد ولا يبخل بالعتاء للنابعين من الاساتذة والطلبة وجعل التعليم في كافة مدارس الدولة بالمجان وكانت المواد التي تدرس في تلك المدارس : التفسير، والحديث، والفقه، والأدب، والبلاغة ، وعلوم اللغة من المعاني والبيان والبديع، والهندسة...الخ.

وأنشأ بجانب مسجده الذي بناه بالقسطنطينية ثمان مدارس على كل جانب من جوانب المسجد أربعة مساجد يتوسطها صحن فسيح وفيها يقضي الطالب المرحلة الأخيرة من دراسته وألحقت بهذه المدارس مساكن للطلبة ينامون فيها ويأكلون فيها طعامهم ووضعت لهم منحة مالية شهرية، وكان الموسم الدراسي على طول السنة في هذه المدارس وأنشأ بجانبها مكتبة خاصة وكان يشترط في الرجل الذي يتولى امانة هذه المكتبة أن يكون من أهل العلم والتقوى متبحراً في اسماء الكتب والمؤلفين وكان المشرف على المكتبة يعير الطلبة والمدرسين ما يطلبونه من الكتب بطريقة منظمة دقيقة ويسجل اسماء الكتب المستعارة في دفتر خاص وهذا الأمين مسؤول عن الكتب التي في عهده ومسؤول عن سلامة أوراقها(1) وتخضع هذه المكتبة للتفتيش كل ثلاثة أشهر على الاقل وكانت مناهج هذه المدارس يتضمن نظام التخصص، فكان للعلوم النقلية والنظرية قسماً خاصاً وللعلوم التطبيقية قسماً خاصاً أيضاً، وكان الوزراء والعلماء من أصحاب الثروات يتنافسون في

(1) انظر: محمد الفاتح ، ص385،384.

انشاء المعاهد والمدارس والمساجد والأوقاف الخيرية(1).

• اهتمام السلطان محمد الفاتح بالعلماء:

لقد كان للعلماء والأدباء مكانة خاصة لدى محمد الفاتح، فقرب إليه العلماء ورفع قدرهم وشجعهم على العمل والانتاج وبذل لهم الأموال ووسع لهم في العطايا والمنح والهدايا ليتفرغوا للعلم والتعليم ويكرمهم غاية الإكرام ولو كانوا من خصومه ؛ فبعد أن ضم إمارة القرمان الى الدولة أمر بنقل العمال والصناع الى القسطنطينية غير أن وزيره روم محمد باشا ظلم الناس ومن بينهم بعض العلماء وأهل الفضل ومن بينهم العالم احمد جلبي بن السلطان امير علي فلما علم السلطان محمد الفاتح بأمره اعتذر إليه واعاده الى وطنه مع رفقائه معززاً مكرماً.

وبعد أن هزم اوزون حسن زعيم التركمان وكان هذا الزعيم لا يلتزم بعهد ويناصر أعداء العثمانيين من أي ملة كانت، فبعد أن هزمه محمد الفاتح وقع في يده عدد كبير من الأسرى، فأمر السلطان الفاتح بقتلهم (إلا من كان من العلماء واصحاب المعارف مثل القاضي محمد الشريحي وكان من فضلاء الزمان، فأكرمه السلطان غاية الاكرام.

وكان السلطان الفاتح يحترم العلماء وأهل الورع والتقوى وقد تستبد به في بعض الاحيان نزوة جامعة او غضبة طارئة ولكنه ما يلبث إلا أن يعود الى وقاره واحترامه لهم.

وتحدثنا كتب التاريخ أن السلطان محمد بعث مع احد خدامه بمرسوم الى الشيخ احمد الكوراني - وكان حين ذاك يتولى قضاء العسكر - فوجد فيه أمراً يخالف الشرع فمزقه وضرب الخادم. وشق ذلك على السلطان محمد وغضب من فعل الشيخ وعزله من منصبه، ووقع بينهما نفور وجفوة ورحل الكوراني الى مصر حيث استقبله سلطانها قيتباي وأكرمه غاية الاكرام واقام عنده برهة من الزمن. ومالبت الفاتح أن ندم على ماكان منه فكتب الى السلطان قيتباي يطلب منه ان يرسل إليه الشيخ الكوراني (فحكى السلطان قيتباي كتاب السلطان محمد خان للشيخ الكوراني ثم قال له لا

(1) المصدر السابق نفسه، ص384.

تذهب إليه فاني اكرمك فوق مايكرمك هو. قال: نعم هو كذلك إلا أن بيني وبينه محبة عظيمة كما بين الوالد والولد. وهذا الذي جرى بيننا شيء آخر وهو يعرف ذلك مني ويعرف أنني أميل إليه بالطبع فاذا لم أذهب إليه يفهم ان المنع من جانبك فتقع بينكما عداوة. فاستحسن السلطان قيتباي هذا الكلام واعطاه مالاً جزيلاً وهياً له ما يحتاج إليه من حوائج السفر وبعث معه هدايا عظيمة الى السلطان محمد خان. واسند إليه الفاتح القضاء ثم الافتاء واجزل له من العطاء واكرمه اكراماً لامزيد عليه(1).

قال عنه الشوكاني: (.. وانتقل من قضاء العسكر الى منصب الفتوى وتردد إليه الأكابر وشرح (جمع الجوامع) وكثر تعقبه للمحلى (جلال الدين المحلي المفسر) وعمل تفسيراً ، وشرحاً للبخاري وقصيدة في علم العروض نحو ستمائة بيت. وأنشأ بأسطنبول جامعاً ومدرسة سماها دار الحديث وانشأت عليه الدنيا وعمر الدور وانتشر علمه فأخذ عليه الأكابر وحج في سنة 761هـ احدى وستين وسبعمائة ولم يزل على جلالاته حتى (مات) في أواخر سنة 793هـ ثلاث وتسعين وسبعمائة وصلى عليه السلطان فمن دونه ومن مطالع قصائده في مدح سلطانه:

هو الشمس إلا أنه الليث باسلا

هو البحر إلا أنه مالك البر

وقد ترجمه صاحب (الشقائق النعمانية) ترجمة حافلة...وانه كان يخاطب السلطان بأسمه ولا ينحني له، ولا يقبل يده بل يصافحه مصافحة ، وانه كان لا يأتي الى السلطان إلا اذا أرسل إليه وكان يقول له ، مطعمك حرام وملبسك حرام فعليك بالاحتياط. وذكر له مناقب جمة تدل على أنه من العلماء العاملين...)(2).

وكان السلطان محمد الفاتح لا يسمع عن عالم في مكان اصابه عوزاً وإملاق إلا بادر الى

(1) انظر: محمد الفاتح، ص389.

(2) البدر الطالع (41/1).

مساعدته وبذل له ما يستعين به على أمور دنياه. وكان من عادة الفاتح في شهر رمضان أن يأتي الى قصره بعد صلاة الظهر بجماعة من العلماء المتبحرين في تفسير القرآن فيقوم في كل مرة واحد منهم بتفسير آيات من القرآن الكريم وتقريرها ويناقشه في ذلك سائر العلماء ويجادلونه، وكان الفاتح يشارك في هذه المناقشات ويشجع هؤلاء العلماء بالعطايا والهدايا والمكافآت المالية الجزيلة.

اهتمامه بالشعراء والأدباء:

ذكر مؤرخ الأدب العثماني أن السلطان محمد الفاتح (راعٍ لنهضة أدبية، وشاعر مجيد حكم ثلاثين عاماً كانت أعوام خصب ورخاء وبركة ونماء وعرف بأبي الفتح لأنه غلب على إمبراطوريتين، وفتح سبع ممالك واستولى على مائتي مدينة وشاد دور العلم ودور العبادة، فعرف كذلك بأبي الخيرات) (1) .

وكان الفاتح مهتماً بالأدب عامة والشعر خاصة، وكان يصاحب الشعراء ويصطفاهم، واستوزر الكثير منهم مثل أحمد باشا محمود ومحمود باشا وقاسم الجزري باشا، وهؤلاء شعراء (2) وكان في بلاط الفاتح ثلاثون شاعراً يتناول كل منهم راتباً شهرياً قدره ألف درهم وكان طبيعياً بعد هذا الاهتمام أن يتفنن الشعراء والأدباء في مدح السلطان محمد لما قدمه الى العلم والأدب من كريم الرعاية وجميل التشجيع.

وكان محمد الفاتح ينكر على الشعراء التبذل والمجون والدعارة ويعاقب الذي يخرج عن الآداب بالسجن أو يطرده من بلاطه (3) .

اهتمامه بالترجمة:

(1) العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 247.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 247.

(3) انظر: محمد الفاتح، ص 393.

كان السلطان محمد الفاتح متقن للغة الرومية ومن أجل أن يبعث نهضة فكرية في شعبه أمر بنقل كثير من الآثار المكتوبة باليونانية واللاتينية والعربية والفارسية إلى اللغة التركية من ذلك كتاب " مشاهير الرجال " لبلوتارك ونقل إلى التركية كتاب التصريف في الطب لأبي القاسم الزهراوي الطبيب الأندلسي مع زيادات في صور آلات الجراحة وأوضاع المرضى أثناء إجراء العمليات الجراحية.

وعندما وجد كتاب بطليموس في الجغرافيا وخريطة له قام بمطالعه ودراسته مع العالم الرومي جورج اميروتزوس ثم طلب اليه الفاتح والى ابنه (ابن العالم الرومي) الذي كان يجيد اللغتين الرومية والعربية بترجمة الكتاب إلى العربية وإعادة رسم الخريطة مع التحقيق في أسماء البلدان وكتابتها باللغتين العربية والرومية وكافأهما على هذا العمل بعطايا واسعة جملة وكان العلامة علي القوشجي وهو من أكبر علماء عصره في الرياضيات والفلك كلما ألف كتاباً بالفارسية نقله إلى العربية وأهداه إلى الفاتح.

وكان الفاتح مهتم باللغة العربية، لأنها لغة القرآن الكريم كما أنها من اللغات العلمية المنتشرة في ذلك العهد. وليس أدل على اهتمام الفاتح باللغة العربية من انه طلب إلى " المدرسين بالمدارس الثماني أن يجمعوا بين الكتب الستة في علم اللغة كالصاحح والتكملة والقاموس وأمثالها ". ودعم الفاتح حركة الترجمة والتأليف لنشر المعارف بين رعاياه بالاكثار من نشر المكاتب العامة وأنشأ له في قصره خزانة خاصة احتوت على غرائب الكتب والعلوم وعين الشيخ لطفي أميناً عليها، وكان بها اثنا عشر ألف مجلد عندما احترقت عام 1465م وقد وصف الاستاذ ديزمان هذه المكتبة بأنها بمثابة نقطة تحول في العلم بين الشرق والغرب(1).

اهتمامه بالعمران والبناء والمستشفيات:

كان السلطان محمد الفاتح مغرمًا ببناء المساجد والمعاهد والقصور والمستشفيات والخانات

(1) انظر: محمد الفاتح، ص396.

والحمامات والأسواق الكبيرة والحدائق العامة وأدخل المياه إلى المدينة بواسطة قناطر خاصة وشجع الوزراء وكبار رجال الدولة والأغنياء والأعيان على تشييد المباني وإنشاء الدكاكين والحمامات وغيرها من المباني التي تعطي المدن بهاءً ورونقاً واهتم بالعاصمة (استتبول) اهتماماً خاصاً وكان حريصاً على أن يجعلها (أجمل عواصم العالم) وحاضرة العلوم والفنون. وكثر العمران في عهد الفاتح وانتشر واهتم بدور الشفاء ووضع لها نظاماً مثالياً في غاية الروعة والدقة والجمال، فقد كان يعهد بكل دار من هذه الدور إلى طبيب - ثم زيد إلى اثنين - من حذاق الأطباء من أي جنس كان، يعاونهما كحال وجراح وصيدلي وجماعة من الخدم والبوابين ويشترط في جميع المشتغلين بالمستشفى أن يكونوا من ذوي القناعة والشفقة والإنسانية، ويجب على الأطباء أن يعودوا المرضى مرتين في اليوم وأن لاتصرف الأدوية للمرضى إلا بعد التدقيق من إعدادها، وكان يشترط في طباخ المستشفى أن يكون عارفاً بطهي الأطعمة والأصناف التي توافق المرضى منها وكان العلاج والأدوية في هذه المستشفيات بالمجان ويغشاها جميع الناس بدون تمييز بين أجناسهم وأديانهم(1).

الاهتمام بالتجارة والصناعة:

اهتم السلطان محمد الفاتح بالتجارة والصناعة وعمل على انعاشهما بجميع الوسائل والعوامل والأسباب وكان بذلك مقتفياً خط آبائه وأجداده السلاطين الذين : (كانوا دائماً على استعداد لإنعاش الصناعة والتجارة بين رعاياهم وأن كثيراً من المدن الكبرى قد ازدهرت ازدهاراً كبيراً عندما خلصها الفتح العثماني مما أصابها في عهد الدولة البيزنطية من طغيان الثروة الحكومية التي عرقلت نهضتها وشلت حركتها، ومن هذه المدن نيقية وكان العثمانيون على دراية واسعة بالأسواق العالمية وبالطرق البحرية والبرية وطوروا الطرق القديمة وأنشأوا الكباري الجديدة مما سهل حركة التجارة في جميع أجزاء الدولة واضطرت الدول الأجنبية من فتح موانئها لرعايا الدولة العثمانية

(1) انظر: محمد الفاتح، ص413.

ليمارسوا حرفة التجارة في ظل الراية العثمانية وكان من أثر السياسة العامة للدولة في مجال التجارة والصناعة أن عم الرخاء وساد اليسر والرفاهية في جميع أرجاء الدولة وأصبحت للدولة عملتها الذهبية المتميزة⁽¹⁾ ولم تهمل الدولة إنشاء دور الصناعة ومصانع الذخيرة والأسلحة وأقامت القلاع والحصون في المواقع ذات الأهمية العسكرية في البلاد⁽²⁾.

الاهتمام بالتنظيمات الإدارية:

عمل السلطان محمد الفاتح على تطوير دولته ولذلك قنن قوانين حتى يستطيع أن ينظم شؤون الإدارة المحلية في دولته وكانت تلك القوانين مستمدة من الشرع الحكيم وشكل السلطان محمد لجنة من خيار العلماء لتشرف على وضع (قانون نامه) المستمد من الشريعة الغراء وجعله أساساً لحكم دولته، وكان هذا القانون مكوناً من ثلاثة أبواب، يتعلق بمناصب الموظفين و ببعض التقاليد وما يجب أن يتخذ من التشريفات والاحتفالات السلطانية وهو يقرر كذلك العقوبات والغرامات، ونص صراحة على جعل الدولة حكومة إسلامية قائمة على تفوق العنصر الإسلامي أياً كان أصله وجنسه⁽³⁾.

واهتم محمد الفاتح بوضع القوانين التي تنظم علاقة السكان من غير المسلمين بالدولة ومع جيرانهم من المسلمين، ومع الدولة التي تحكمهم وترعاهم، وأشاع العدل بين رعيته، وجد في ملاحقة اللصوص وقطاع الطرق، وأجرى عليهم أحكام الإسلام، فاستتب الأمن وسادت الطمأنينة في ربوع الدولة العثمانية.

وأبقى السلطان محمد النظام الذي كان سائداً لحكم الولايات أيام أسلافه، وأدخل عليه بعض التعديلات الطفيفة التي تناسب عصره ودولته. وكانت الدولة تنقسم إلى ولايات كبرى يحكمها أمير

(1) انظر: محمد الفاتح، ص 414.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 410.

(3) السلطان محمد الفاتح، ص 154.

الأمرء وكان يسمى " بكربك " وإلى ولايات صغرى ويحكمها أمير اللواء، وكان يسمى " سنجق بك " وكلا الحاكمان كان يقوم بأعمال مدنية وعسكرية في آن واحد، وترك لبعض الإمارات الصقلبية في أول الأمر بعض مظاهر الاستقلال الداخلي فكان يحكمها بعض أمرء منها ولكنهم تابعون للدولة ينفذون أوامر السلطان بكل دقة وهو يعزلهم ويعاقبهم اذا خالفوا أوامره أو فكروا في الثورة على الحكومة العثمانية.

وعندما تعلن الدولة الجهاد وتدعوا أمرء الولايات وأمرء الالوية، كان عليهم أن يلبوا الدعوة ويشتركوا في الحرب بفرسان يجهزونهم تجهيزاً تاماً، وذلك حسب نسب مبينة، فكانوا يجهزون فارساً كامل السلاح قادراً على القتال عن كل خمسة آلاف آقجه من إيراد اقطاعه، فإذا كان إيراد اقطاعه خمسمائة ألف آقجة مثلاً كان عليه أن يشترك بمائة فارس، وكان جنود الإيالات مؤلفة من مشاه وفرسان، وكان المشاة تحت قيادة وإدارة باشوات الإيالات وبكوات الالوية(1).

وقام محمد الفاتح بحركة تطهير واسعة لكل الموظفين القدماء غير الأكفاء وجعل مكانهم الأكفاء، واتخذ الكفاية وحدها أساساً في اختيار رجاله ومعاونيه وولاته. واهتم بالنظام المالي ووضع القواعد المحكمة الصارمة في جباية أموال الدولة وقضى على إهمال الجباة وتلاعبهم مما كان يضيع على الدولة ثروات هائلة.

لقد أظهر السلطان محمد في الناحية الإدارية كفاية ومقدرة لاتقلان عن كفايته ومقدرته في الناحيتين السياسية والحربية(2).

اهتمامه بالجيش والبحرية:

لقد أنشأ الجيش النظامي من زمن السلطان أورخان واهتم من جاء بعده من السلاطين بتطوير الجيش وخصوصاً السلطان محمد الذي أولى الجيش رعاية خاصة، فالجيش في نظره من أسس

(1) السلطان محمد الفاتح، ص155.

(2) انظر: محمد الفاتح، ص407،406.

الدولة وأركانها المهمة، فأعاد تنظيمه وترتيبته وجعل لكل فرقة (أغا) يقودها وجعل لقيادة الانكشارية حق التقدم على بقية القواد، فهو يتلقى أوامره من الصدر الأعظم الذي جعل له السلطان القيادة العليا للجيش.

وقد تميز عصر السلطان محمد الفاتح بجانب قوة الجيش البشرية وتفوقه العددي، بإنشاءات عسكرية عديدة ومتنوعة، فأقام دور الصناعة العسكرية لسد احتياجات الجيش من الملابس والسروج والدروع ومصانع الذخيرة والأسلحة، وأقام القلاع والحصون في المواقع ذات الأهمية العسكرية، وكانت هناك تشكيلات عسكرية متنوعة في تمام الدقة وحسن التنظيم من فرسان ومشاة ومدفعية وفرق مساعدة، تمد القوات المحاربة بما تحتاجه من وقود وغذاء وعلف للحيوان واعداد صناديق الذخيرة حتى ميدان القتال، وكان هناك صنف من الجنود يسمى " لغمجية " وظيفته الحفر للالغام وحفر الانفاق تحت الأرض أثناء محاصرة القلعة المراد فتحها وكذلك السقاؤون كان عليهم تزويد الجنود بالماء ولقد تطورت الجامعة العسكرية في زمن الفاتح وأصبحت تخرج الدفعات المتتالية من المهندسين والأطباء والبيطريين وعلماء الطبيعيات والمساحات، وكانت تمد الجيش بالفنيين المتخصصين وقد أكسب هؤلاء العثمانيين شهرة عريضة في الدقة والنظام(1).

لقد حرص السلطان محمد على تطوير الجيش البري والقوة البحرية وظهرت أهميتها منذ فتح القسطنطينية، حيث كان للأسطول البحري العثماني دور واضح في احكام حصارها وتطويقها من البحر والبر جميعاً وبعد فتح القسطنطينية ضوعفت العناية بالاسلح البحري، فلم تمضي إلا مدة من الزمن حتى سيطر الأسطول العثماني على البحرين الأسود والأبيض وعندما نطالع كتاب (حقائق الأخبار عن دول البحار) لمؤلفه اسماعيل سرهنك، نلاحظ اهتمام السلطان محمد الفاتح بالبحرية العثمانية، وأنه كان اهتماماً بالغاً استحق معه أن يعده المؤرخون مؤسس الاسطول البحري العثماني، ولقد استفاد من الدول التي وصلت إلى مستوى رفيع في صناعة الأساطيل مثل

(1) انظر: السلطان محمد الفاتح، ص162.

الجمهوريات الإيطالية وبخاصة البندقية وجنوا أكبر الدول البحرية في ذلك الوقت (1) وعندما وجد في سيئوب سفينة ضخمة نادرة المثال أمر السلطان محمد بأخذها وبناء سفن على نمطها مع ادخال التحسينات عليها(2).

وكان الأسطول العثماني تشرف الترسانة على إدارته وكانت احد فروع الخاصة وتسمى بطافة العزب، ويبلغ عددهم نحو ثلاثة آلاف جندي بحري تتألف من: القبطان، وقواد السفن، والضباط، والبحارة(3).

اهتمامه بالعدل:

إن إقامة العدل بين الناس كان من واجبات السلاطين العثمانيين، وكان السلطان محمد شأنه في ذلك شأن من سلف من آباءه - شديد الحرص على إجراء العدالة في أجزاء دولته ولكي يتأكد من هذا الأمر كان يرسل بين الحين والحين إلى بعض رجال الدين من النصارى بالتجوال والتطواف في أنحاء الدولة ويمنحهم مرسوم مكتوب يبين مهمتهم وسلطتهم المطلقة في التنقيب والتحري والاستقصاء لكي يطلعوا كيف تساس أمور الدولة وكيف يجري ميزان العدل بين الناس في المحاكم وقد أعطى هؤلاء المبعوثون الحرية الكاملة في النقد وتسجيل ما يرون ثم يرفعون ذلك كله إلى السلطان.

وقد كانت تقرير هؤلاء المبعوثين النصارى تشيد دائماً بحسن سير المحاكم وإجراء العدل بالحق والدقة بين الناس بدون محاباة أو تمييز، وكان السلطان الفاتح عند خروجه إلى الغزوات يتوقف في بعض الأقاليم وينصب خيامه ليجلس بنفسه للمظالم ويرفع إليه من شاء من الناس شكواه ومظلمته.

(1) انظر: محمد الفاتح، ص 411 .

(2) المصدر السابق نفسه، ص 411.

(3) انظر: السلطان محمد الفاتح ، ص 162.

وكان على إدراك تام بأن رجال الفقه والشريعة هم أعرف الناس بالعدالة وأبصرهم بمواقعها وأشد الناس حرصاً على أنفاذها وكان يرى أن العلماء في الدولة بمنزلة القلب في البدن، إذا صلحت صلحت الدولة ولذلك اعتنى الفاتح بالعلم وأهله ويسر سبل العلم على طالبيه وكفاهم مؤونة التعيش والتكسب لينفرغوا للدرس والتحصيل، وأكرم العلماء ورفع منزلتهم، وقد اعتنى الفاتح بوجه خاص برجال القضاء الذين يتولون الحكم والفصل في أمور الناس فلا يكفي في هؤلاء أن يكونوا من المتضلعين في الفقه والشريعة والاتصاف بالنزاهة والاستقامة وحسب بل لابد إلى جانب ذلك أن يكونوا موضع محبة وتقدير بين الناس، وأن تتكفل الدولة بجوائجهم المادية حتى تسد طرق الإغراء والرشوة، فوسع لهم الفاتح في عيشهم كل التوسعة، وأحاط منصبهم بحالة مهيبة من الحرمة والجلالة والقداسة والحماية⁽¹⁾.

وتحدثنا كتب التاريخ: أن أحد غلمان محمد الفاتح ظهر منه بعض الفساد بأدرنة فأرسل إليه القاضي بعض الخدم لمنعه فلم يمتنع، فركب إليه القاضي بنفسه فاعتدى عليه الغلام وضربه ضرباً شديداً فما أن سمع السلطان الفاتح بذلك حتى أخذه الغضب واستطار به " وأمر بقتل ذلك الغلام لتحقيره نائب الشريعة. وتشفع الوزراء للغلام لدى السلطان الفاتح فلم يقبل شفاعتهم فالتمسوا من المولى محي الدين محمد أن يصلح هذا الأمر لدى السلطان، ولكن الفاتح أعرض عنه ورد كلامه فقال له المولى محي الدين : إن النائب (أي القاضي بقيامه عن مجلس القضاء بسبب الغضب سقط عن رتبة القضاء فلم يكن هو عند الضرب قاضياً فلم يلزم تحقير الشرع حتى يحل قتله (قتل الغلام) فسكت السلطان محمد خان. ثم جاء الغلام إلى قسطنطينية فأتى به الوزراء إلى السلطان محمد خان لتقبيل يده شكراً للعفو عنه. فأحضر السلطان محمد خان عصاً كبيرة فضربه بنفسه ضرباً شديداً حتى مرض الغلام أربعة أشهر فعالجوه فبرئ ثم صار ذلك الغلام وزيراً للسلطان بايزيد خان واسمه داود باشا. وكان يدعو للسلطان محمد خان ويقول: إن رشدي هذا ما حصل إلا من ضربه⁽²⁾. أما القاضي المرتشي فلم يكن له عند الفاتح من جزاء غير القتل.

وكان السلطان الفاتح - برغم اشتغاله بالجهاد والفتوحات إلا أنه كان يتتبع كل ما يجري في أرجاء دولته بيقظة واهتمام وأعانه على ذلك ما حباه الله من ذكاء قوي وبصيرة نفاذة وذاكرة حافظة

(1) انظر: محمد الفاتح ، ص409.

(2) انظر: محمد الفاتح، ص409.

وجسم قوي وكان كثيراً ما ينزل بالليل إلى الطرقات والدروب ليتعرف على أحوال الناس بنفسه ويستمع إلى شكاوهم بنفسه (1) كما ساعده على معرفة أحوال الناس جهاز أمن الدولة الذي كان يجمع المعلومات والأخبار التي لها علاقة بالسلطنة وترفع إلى السلطان الذي كان يحرص على دوام المباشرة لأحوال الرعية، وتفقد أمورهم والتماس الإحاطة بجوانب الخلل في أفرادها وجماعاتها، وقد استنبط السلطان الفاتح هذه المعاني من حال سليمان عليه السلام في قوله تعالى : { وتفقد الطير } وذلك بحسب ماتقتضيه أمور الملك، والاهتمام بكل جزء فيه، والرعاية بكل واحدة فيه وخاصة الضعفاء (2) .

المبحث السابع

وصية السلطان محمد الفاتح لأبنه

(1) المصدر السابق نفسه، ص 410.

(2) انظر: تفسير القرطبي (177/13).

هذه وصية محمد الفاتح لأبنيه وهو على فراش الموت والتي تعبر اصدق التعبير عن منهجه في الحياة، وقيمه ومبادئه التي آمن بها والتي يتمنى من خلفائه من بعده أن يسيروا عليها: (ها أنذا أموت، ولكني غير آسف لاني تارك خلفاً مثلك. كن عادلاً صالحاً رحيماً ، وابسط على الرعية حمايتك بدون تمييز، واعمل على نشر الدين الاسلامي، فإن هذا هو واجب الملوك على الأرض، قدم الاهتمام بأمر الدين على كل شيء، ولانفتقر في المواظبة عليه، ولا تستخدم الأشخاص الذين لا يهتمون بأمر الدين، ولا يجتنبون الكبائر وينغمسون في الفحش، وجانب البدع المفسدة، وباعد الذين يحرضونك عليها وسع رقعة البلاد بالجهاد واحرس أموال بيت المال من أن تتبدد، إياك أن تمد يدك الى مال أحد من رعيتك إلا بحق الاسلام، واضمن للمعوزين قوتهم، وابذل اكرامك للمستحقين .

وبما أن العلماء هم بمثابة القوة المبنوثة في جسم الدولة، فعظم جانبهم وشجعهم ، واذا سمعت بأحد منهم في بلد آخر فاستقدمه إليك وأكرمه بالمال.

حذار حذار لا يغرنك المال ولا الجند، وإياك أن تبعد أهل الشريعة عن بابك، وإياك أن تميل الى أي عمل يخالف أحكام الشريعة، فان الدين غايتنا ، والهداية منهجنا وبذلك انتصرنا. خذ مني هذه العبرة: حضرت هذه البلاد كمنلة صغيرة، فأعطاني الله تعالى هذه النعم الجليلة، فالزم مسلكي، وأخذ حذوي ، واعمل على تعزيز هذا الدين وتوقير اهله ولا تصرف أموال الدولة في ترف أو لهو، واكثر من قدر اللزوم فإن ذلك من أعظم أسباب الهلاك(1).

1- (كن عادلاً صالحاً رحيماً):

لقد قام محمد الفاتح بهذه المبادئ مع النصارى الذين اصبحوا من رعايا دولته وعندما دخل القسطنطينية فاتحاً كان يحارب حرب الاسلام (التي لاتهتك فيها حرمة، ولا يقتل فيه صبي ولا شيخ ولا امرأة، ولا يحرق فيها زرع، ولا يتلف فيها ضرع، ولا يمثل فيها بإنسان، ولا تصيب إلا المقاتلين

(1) السلطان محمد الفاتح، ص 171، 172.

الذين يحملون السلاح في وجه المسلمين)(1).

كان "محمد الفاتح" وهو يمثل اسلامه وعقيدته ومنهجه الاسلامي في الحرب على تعاليم الصديق (ابي بكر) τ في معاملته للروم (لاتخونوا، ولا تغلوا ولا تغدروا، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بعيراً إلا لمأكله، وسوف تمرّون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له ... اندفعوا باسم الله)(2).

لقد دخل محمد الفاتح الى قلب العاصمة البيزنطية وأعطى عالم الغرب النصراني دروس في العدالة والرحمة وأصبحت معلماً من معالم التاريخ العثماني.

إن الدولة العثمانية سارت على منهج الاسلام، فأخذت منه العدالة والرحمة بالرعايا الذين حكموهم ولقد تحدث عبدالرحمن عزام عن رحمة العثمانيين وعدالتهم بالشعوب التي حكموها فقال : (وقد يظن بعض الناس بما يتناقلون من احاديث أو فكاهات عن بعض العهود للدولة العثمانية أنها كانت دولة عظيمة، ولكن لم تكن صفة الرحمة مميزاتها، وهو خطأ شائع لا يقف أمام البحث والتدقيق... ولقد سمعت بنفسني حديث هذه الرحمة في "بسرابيا" من رومانيا على نهر "الدنيستر" وقيل لي : إن أمثلة الفلاحين في هذه الأطراف النائية للملك العثماني لا تزال تعبر عن رحمة التركي وعدله. ومنها مايشير الى أن العدل ينزع مع الأتراك من الأرض. وقد لفت نظري في بولونيا ورومانيا وفي بلاد البلقان في رحلاتي المتعددة أمثلة وأساطير لاتزال تشير الى ما استقر في نفوس هذه الأمم المسيحية من احترام التركي المسلم كرحيم عادل.

وفي سنة 1917م كنت في فيينا فروي لي أن البوليونيين مستبشرون بوصول العساكر العثمانية

(1) المسألة الشرقية ، محمود ثابت الشاذلي، ص104.

(2) المسألة الشرقية ، محمود ثابت الشاذل، ص106.

الى جاليسيا مدداً للنمساويين(1).

(... بأن العدل والرحمة الاسلامية هما اللذان مكننا للعثمانيين في أوروبا. وبالعدل والرحمة خرجت هذه الأمم من همجيتها وقسوتها وعرفت المساواة والإنصاف ، ويكفى أن تعلم أن استرقاق الطوائف بأشنع صورة كان نظاماً دولياً متعاهداً عليه في أوروبا الوسطى والجنوبية الى أن قضى عليه العثمانيون. وكانت هناك عهود دولية بين الملداف والبلونيين والمجر لتسليم كل فلاح يرحل من مزرعة سيده من "البويار" الى أحد هذه الأوطان، وكانت المزارع تباع بما عليها من الحيوانات والفلاحين.

جاء العثمانيون الى أوروبا يحملون بين صدورهم عاطفة الرحمة كما أرادها صاحب الدعوة p ، ولم يكن الأتراك أكثر عدة ولا عدداً من أية أمة من الأمم التي سادوها، فوصلوا على رؤسهم جميعاً الى فيينا، تمهد لهم الرحمة صعاب الجبال والبحار والوهاد، كما مهدت للعرب قبلهم إفريقية وآسيا(2).

إن محمد الفاتح سار على منهج الرحمة والعدالة وأوصى أحفاده من بعده أن يلتزموا نفس المنهج الذي يمثل حقيقة الاسلام.

2- (وابسط على رعيك حمايتك دون تمييز):

وهذا ما قام به السلطان محمد بنفسه حيث حرص على حماية كل رعايا الدولة سواء مسلمين أو نصارى ومن القصص اللطيفة في هذا المعنى أنه كان على أهل جزيرة خيوس دين قدره أربعون ألف دوقة لتاجر من تجار "غلطة" يدعى فرانسسكو درا بيريو ولما عجز هذا الدائن عن استرداد دينه من أهل الجزيرة رأى السلطان الفاتح أن يقوم هو بهذا الأمر بوصف أن هذا التاجر من رعاياه الذين يجب على الدولة العثمانية حمايتهم واستيفاء حقوقهم وأرسل الى الجزيرة عدة سفن

(1) الرسالة الخالدة ، ص24،22.

(2) انظر: المسألة الشرقية ، ص107.

بقيادة حمزة باشا إلا أن أهالي جزيرة خيوس قتلوا بعض الجنود ورفضوا الانقياد ودفح الحقوق. فقال محمد الفاتح للتاجر درالبيريو (أنا الذي سيتحمل دينك من أهل الجزيرة وسأطلب به مضاعفاً ثمناً لدم الجنود الذين هلكوا)(1).

وسير السلطان الى هذه الجزيرة اسطولاً وقام هو بقيادة الجيوش بنفسه الى الجزر القريبة منها وفتح اينوس بغير حرب ولا قتال وبادرت جزيرتا ايمبروس وساموتراس الى الاستسلام وفتحتا ابوابهما على مصاريحها للعثمانيين، فاضطرت جزيرة خيوس الى دفع ما عليها من دين للتاجر الجنوبي ودفعت للسلطان جزية سنوية قدرها ستة آلاف دوقة، ودفعت له فوق ذلك تعويضاً للسفن العثمانية التي غرقت(2).

إن حماية الرعية والحفاظ على حقوقهم من واجبات الدولة الاسلامية.

3- (واعمل على نشر الدين الاسلامي، فإن هذا هو واجب الملوك

على الأرض)

كان السلطان محمد الفاتح في حروبه لا ينسى أنه داعية الى الاسلام ولذلك كان يشجع قواده وجنوده على نشر الدين والعقيدة والاسلام ويثني على القادة الذين تفتح المدن على أيديهم ، فعندما أمر قائده عمر بن طرخان أن يزحف بجيشه الى أثينا واستولى عليها ويضمها الى الدولة العثمانية وتحرك القائد عمر بجيشه واضطرت المدينة للتسليم وزار السلطان الفاتح المدينة بعد عامين من فتحها وقال : (ما أعظم ما يدين به الاسلام لابن طرخان).

لقد اهتمت الدولة العثمانية بالدعوة الى الله وتركت بصماتها قوية واضحة في مجال نشر الدعوة في أوروبا؛ فعلى امتداد قرون وتعاقب عصور ودهور ظلت جماعات اسلامية تقاوم شتى انواع الضغوط التي بذلت لتحويلها الى المسيحية ولازالت هذه الاقليات الاسلامية تعيش الى يومنا هذا

(1) انظر: محمد الفاتح، ص 217.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 218.

في بلغاريا ورومانيا وألبانيا واليونان ويوغسلافيا يصل أعدادها الى الملايين من البشر (1) وهذا يرجع الى فضل الله على تلك الشعوب ثم الى سياسة السلاطين العثمانيين الذين يحرصون على هداية الناس ودخولهم في الاسلام.

4- (قدم الإهتمام بأمر الدين على كل شيء ولا تفتر في المواظبة عليه):

إن سلاطين الدولة العثمانية قبل زمن محمد الفاتح وبعده نشأوا نشأة اسلامية، خالصة، مشوبة بإيمان عميق، متوجهة الى أهداف عقائدية صريحة، خاضوا من أجلها حروباً دينية شديدة، وكانت أجمل عبارة على ألسن العثمانيين عند التنادي للجهاد الزحف الى الفتوحات إما غاز وإما شهيد، فمنذ بداية تأسيسها أطلق على زعيمها لقب الغازي - أي المجاهد في سبيل الله- وظل هذا اللقب الرفيع يتقدم كل الألقاب والنعوت بالنسبة للسلاطين العظام ، وكانت غاية الدولة العثمانية (الدفاع عن الاسلام ورفع رايته على الأنام).

لذلك صبغت الدولة شعباً وسلطاناً ، حكومة وجيشاً ثقافة وتشريعاً ، نهجاً وضميراً، هدفاً ورسالة، بصبغة اسلامية خالصة منذ النشأة وعلى مدى سبعة قرون لقد كان اهتمام السلاطين بأمر الدين عظيماً وقدموه على كل شيء وواظبوا عليه الى أقصى حدود وأكدوا أنهم لا ينتسبون إلا للإسلام وتراثه وحضارته وكان الوطن عندهم هو كل أرض يسكنها المسلمون، وكلمة الملة تعني الأمة والدين معاً، وذلك كان هدف المنهج التربوي في جميع المدارس والجامعات والمعاهد، تصاغ به نفوس الناشئة منذ بداية تعليمهم في الكتاتيب وجميع المسلمين كانوا يسجلون في دوائر النفوس - سجلات المواليد- وفي التذاكر العثمانية -بطاقات الهوية- كمسلمين فحسب، دون أن يذكر الى جانب ذلك فيما إذا كانوا من الأتراك، أو من العرب أو من الشركاسة أو الألبان أو الأكراد إن ما يهتم الدولة كان ينحصر في ملتهم في ديانتهم ؛ إنهم مسلمون وكفى، واعتبر العثمانيون أي مقاتل مسلم جاهد في سبيل الله ميراثهم البطولي وخلفتهم التاريخية، وإن تباينت الأنساب، وتباعدت

(1) انظر: الدولة العثمانية دولة اسلامية، د. عبدالعزيز الشناوي (1/30، 29).

الأزمان؛ من ذلك المجاهد "عبدالله البطال" الذي استشهد في معركة أكرنيون في آسيا الصغرى عام 122 للهجرة، زمن الدولة الأموية والذي يقول عنه الطبري وهو يعلق على حوادث سنة 122 هـ : (وفيها قتل عبدالله البطال في جماعة من المسلمين بأرض الروم)(1).

يعتبره العثمانيون بطلهم القومي وبين "عبدالله البطال" العربي وقيام الدولة العثمانية مايقرب من سبعمائة عام، لقد كان تاريخ العثمانيين وأبطال العثمانيين، نسب الإسلام، وتاريخ الاسلام، ومجاهدي الاسلام(2).

إن سلاطين الدولة العثمانية كانوا يلقبون بكثير من الألقاب والنعوت التي تبين أن هدفهم الأكبر ومقصدهم الأسمى هو خدمة دين الله تعالى، فكانوا يلقبون بمثل سلطان الغزاة، والمجاهدين، وخدام الحرمين الشريفين، وخليفة المسلمين(3).

5- (ولا تستخدم الأشخاص الذي لايهتمون بأمر الدين ولا يجتنبون الكبائر وينغمسون في الفحش):

ولذلك أهتم سلاطين الدولة العثمانية بإنشاء جامعات لتخريج قادة للجيش وللوظائف المهمة في الدولة ووضعوا منهجاً تربوياً لأعداد القادة وخصوصاً في داخل الجيوش وحرصوا على أن يختاروا لمناصب الدولة الأمناء والأكفاء أصحاب العقول والنهى والتقى وأسندوا إليهم الولايات والقيادات في الجيوش ومناصب القضاة، وباعدوا عنهم كل من لايهتم بأمر الدين، ويجتنب الكبائر والفواحش هكذا كان السلاطين الأوائل.

6- (جانب البدع المفسدة وباعد الذين يحرضونك عليها):

إن السلاطين العثمانيين الأوائل ساروا على منهج أهل السنة والجماعة وعرفوا خطورة البدع

(1) تاريخ الطبري، الجزء الثاني حوادث سنة 122 هـ.

(2) المسألة الشرقية، ص 57.

(3) المسألة الشرقية، ص 65.

والاقتراب من أصحابها واكتفوا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ واجماع الأمة واجتهادات العلماء الراسخين.

إن الشريعة الإسلامية الغراء التي سار عليها السلاطين العثمانيون ذمت البدع.

قال تعالى: {وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَقَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} (سورة الانعام: الآية 153).

وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْيَا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} (سورة الانعام : آية 159).

قال ابن عطية : (هذه الآية تعم أهل الأهواء والبدع والشذوذ في الفروع، وغير ذلك من أهل التعمق في الجدل والخوض في الكلام. هذه كلها عرضة للزلل، ومظنة لسوء المعتقد)⁽¹⁾.

وفي الحديث الشريف قال ﷺ : (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)⁽²⁾.

وفي الصحيح عن حذيفة أنه قال : يارسول الله: هل بعد هذا الخير شر؟

قال : (نعم ؛ قوم يستئون بغير سنتي ، ويهدتون بغير هديي).

قال : قلت : هل بعد ذلك الشرُّ شرٌّ؟

قال : (نعم؛ دعاة على نار جهنم ، من أجابهم قذفوه فيها).

قلت : يارسول الله : صِفْهُمْ لَنَا.

قال : (نعم ؛ هم من جلدتنا ، ويتكلمون بألسنتنا) .

قلت: فما تأمرني إن أدركت ذلك؟

قال : (تلزِم جماعة المسلمين وإمامهم).

قلت: فإن لم يكن إمام ولا جماعة؟

(1) انظر: بدر التمام في اختصار الاعتصام لمحمد الجزائري، ص32.

(2) مسلم (1344/3).

قال : (فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدرك الموت وأنت على ذلك)(1).

وعن ابي بكر الصديق τ قال : (لست تاركاً شيئاً كان رسول الله ρ يعمل به إلا عملت به، إني أخشى إن تركت شيئاً من أمره أن أزيغ)(2).

إن الابتعاد عن المبتدعة ومحاربتهم من صميم الدين ، لأن المبتدع:

- لا يقبل منه عمل، وينزع منه التوفيق، وملعون على لسان الشريعة ، ويزداد من الله بعداً، مانعة من شفاعة الرسول ρ يوم القيامة، مظنة العداوة والبغضاء بين أهل الاسلام، رافع للسنن، يلقي عليه الذل في الدنيا والآخرة، ويخاف عليه من سوء الخاتمة، ويسود وجهه في الآخرة، ويخشى عليه من الفتنة)(3).

ولذلك كانت وصية السلطان محمد -رحمه الله- لمن بعده (جانب البدع المفسدة وباعد الذين يحرضونك عليها).

7- وسع رقعة البلاد بالجهاد:

إن السلاطين العثمانيين الأوائل قاموا بتوسيع رقعة الدولة بالجهاد وبسطوا الامن وقمعوا الاخطار التي هددت دولتهم، وعملوا على تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة حتى لا يستطيع الاعداء أن يظفروا بثغرة أو ينتهكوا محرماً ويسفكوا دماً مسلماً أو معاهداً، وعمل السلطان محمد ومن قبله على إعداد الأمة إعداداً جهادياً وقام بواجبه في جهاد الكفرة المعاندين للاسلام حتى يسلموا أو يدخلوا في ذمة المسلمين ولقد صبغ المجتمع العثماني بالصبغة الاسلامية الجهادية الدعوية وكان أفراد الجيش يعدون للحياة الجهادية العنيفة، منذ نعومة أظافرهم، إعداداً دقيقاً، كاملاً

(1) مسلم، كتاب الامارة رقم 1847.

(2) انظر: بدر التمام في اختصار الاعتصام لمحمد الجزائري، ص35.

(3) المصدر السابق نفسه، ص36 الى 37، 38.

ولقد حققت الجيوش العثمانية انتصارات رفيعة في الساحات الأوروبية(1)، لقد حققت الدولة العثمانية الى عهد سليمان القانوني آمالاً عظيمة كان يستهدفها المسلمون منذ تسعة قرون برفع الراية المحمدية على قلاع كثير من العواصم الكبرى في أوروبا وإخضاع كثير من الممالك والامارات للحكومة الاسلامية وأخذ ظل الاسلام يمتد حتى أوشتك جيوش المسلمين في شرق أوروبا وغربها أن تلتقي في الأرض الكبيرة(2).

ومن المؤتمر السابع لوزراء خارجية الدول الاسلامية في استنبول ألقى المجاهد البروفسور المهندس نجم الدين أريكان خطاباً استرجع فيه صدى الماضي الاسلامي الذي مثلته الدولة العثمانية فقال: (... إن هذا القصر الذي شاء الله أن يعقد فيه هذا المؤتمر الاسلامي الكبير وقد نقشت على بابه كلمة الاسلام الجامعة: "لا إله إلا الله" .. هو قصر السلطان محمد الفاتح الذي بناه عقب فتح استنبول.. كيف لا يكون هذا المكان تاريخياً ومنه كانت تدبر شؤون العالم الاسلامي رداً من الزمن؟ وكيف لا يكون لتاريخنا ومنه كانت تتطلق جيوش المسلمين الى جميع أنحاء الدنيا، مجاهدة في سبيل الله، تنشر النور والهداية والعدل أينما حلت وحيثما ضربت.. كيف لا يكون تاريخياً وفوق هذا الحجر الذي يرتكز عليه الميكرفون كانت تنصب رايات الجيوش الاسلامية، المنطلقة للذب عن ديار المسلمين جميعاً.. وأذكر على سبيل المثال لا الحصر: أن قرار إرسال الاسطول الاسلامي للحيلولة دون وقوع كل من أندونيسيا والفلبين في براثن الاستعمار الهولندي اتخذ من هذا المكان، وفيه أيضاً اتخذت قرارات إرسال الجيوش والأساطيل الاسلامية لحماية شمال أفريقيا من الغزاة الطامعين.

وفوق هذا كله فإن هذا البناء التاريخي يضم بين جدرانه لواء الرسول الأعظم ρ وبردته المباركة وسيوفه وكثيراً من آثاره الشريفة (...)(3).

(1) انظر: المسألة الشرقية، ص60.

(2) المصدر السابق نفسه، ص63.

(3) المسألة الشرقية، ص63،64،65.

لقد كانت الدولة تعطي لمبدأ الجهاد أهمية قصوى ولذلك أعدت شعبها وجيشها لتحقيق هذا المبدأ الرباني وحقت من خلاله ثمرات مهمة الاسلام والمسلمين من أهمها:

- إعزاز المسلمين وإذلال الكافرين.
- دخول الناس في دين الله فواجبا (1).
- إسعاد الناس بنور الاسلام وعدله ورحمته.
- لقد انصبغت الدولة العثمانية بالروح الجهادية ووضعت أهدافاً لها من أهمها:
 - إقامة حكم الله ونظام الاسلام في الأرض.
 - دفع عدوان الكافرين.
 - إزاحة الظلم عن الناس.
 - نشر الدعوة الإسلامية بين البشر (2).

8- (واحرص أموال بيت المال من أن تتبد):

إن السلاطين العثمانيين كانوا يرون أن الدولة هي الهيئة التنفيذية والمعبرة عن رأي الأمة، والمكلفة بحماية مصالحها، فمسئولية الدولة ليست خاصة بالأمن والدفاع وإنما هي مسؤولة عن رعاية المصالح الاجتماعية وحماية بيت المال من الاسراف والتبذير والمحافظة على مصادر وموارد بيت المال وأهم موارد بيت المال:

- جمع الزكاة المفروضة وتوزيعها في مصارفها المشروعة .
- ترتيب الخراج على أملاك الدولة المعمورة وتحصيل عائدته للإنفاق العام على الجيش وتنمية المرافق العامة.
- جباية الجزية على المعاهدين مقابل إعفائهم من القتال مع المسلمين .
- تحصيل عشور التجارة على الواردات من خارج نطاق الدولة العثمانية.

(1) انظر: فقه التمكين في القرآن الكريم، لعلي محمد الصلابي، ص 369 الى 375.

(2) انظر: فقه التمكين في القرآن الكريم، لعلي محمد الصلابي، ص 366 الى 367.

- التوظيف بقدر الحاجة على افراد الأمة سواء كان تطوعياً أو أُلزامياً لإنفاقها في دروب الجهاد وسائر المصالح العامة طبقاً لقاعدة المصالح المرسلة.
- تشغيل الموارد وحمايتها كالحمي والمناجم وإحياء الموات، وتحصيل أنصبة الدولة منها لاستخدامها في مجالات الإنفاق الحكومي (1).
- وعلى الدولة أن تراقب النشاط الاقتصادي وتحرص على تطبيق أحكام الشريعة فيه، وتشمل:
 - ضبط المقاييس والمواصفات المعيارية التي يحتاجها الناس في أسواقهم مثل المكاييل والموازين، ومواصفات البضائع الجيدة.
 - منع الغش ، وإبطال العقود الفاسدة في البيع والعمل (الاستضاع).
 - الأمر بالمعروف في المعاملات كالصدق والعدل والوفاء في المعاملة كالبيع والشراء والنهي عن المنكر في البيوع كالحلف الكاذب على السلعة .
 - منع تلقي الركبان والمناجشة في البيع والتدليس والغبن الفاحش وغيره من الأساليب التي تؤدي الى العداوة والبغضاء بين الناس.
 - منع ترويج المحرمات كالخمر والخنزير وآلات القمار والميسر، ووسائل اللهو المؤدي الى تمويت القلوب.
- منع مظاهر الترف والإسراف ، والتشجيع على نبذها (2).

9- (واياك أن تمد يدك الى أحد من أموال رعيتهك إلا بحق الاسلام):

إن وظيفة الدولة تنفيذ أوامر الشريعة والشريعة جاءت لحفظ أموال الناس التي هي قوام حياتهم. وقد حرم الاسلام كل وسيلة لأخذ المال بغير حق شرعي، قال تعالى: ﴿لَوْلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ (سورة البقرة: آية 188).

(1) انظر: اقتصاديات الحرب في الاسلام، د. غازي التمام ، ص 137.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 138.

وحرمة السرقة وأوجب الحد على من ثبتت عليه تلك الجريمة فقال تعالى : {والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالاً من الله...} (سورة المائدة: آية 38). وكذلك حرم الاسلام الربا الذي يهدد مصالح الأفراد واقتصاد الدول، قال تعالى : {يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة} (سورة آل عمران: آية 130).

وحرم كذلك الغش والاحتكار والنهب والاختلاس والغلول وغير ذلك من أشكال الاعتداء على المال وكل ذلك داخل في أكل أموال الناس بالباطل المنهي عنه. ووظيفة الحاكم حماية أموال الرعية من السرقة والنهب لا أن يمد يده بغير وجه حق ويعتدي على أموال الناس .

10- (واضمن للمعوزين قوتهم وابذل أكرامك للمستحقين):

كان السلاطين العثمانيون يتسابقون في الإحسان للفقراء والمساكين وأبناء السبيل ..وكل من هو محتاج الى البر والإحسان وقامت الدولة بأعمال جليلة في هذا الباب بل أوقف السلاطين والوزراء أوقافاً عظيمة على طلاب العلم والفقراء والمساكين والأرامل وغير ذلك وكان الوقف ركناً أساسياً في اقتصاد الدولة يقول الاستاذ محمد حرب : (... نشطت الحركة العلمية في جوامع استنبول⁽¹⁾ ... وكان صقولي محمد باشا -على سبيل المثال- ينفق على الحركة العلمية في استانبول من دخل وقف 2000 قرية عثمانية في تشيكوسلوفاكيا (وكانت تابعة للدولة العثمانية) وأسعد أفندي قاضي عسكر الروملي (يعني البلقان) أوقف وقفين كبيرين على تجهيز الفتيات المعدمات اللاتي يصلن الى سن الزواج. وكان لدى العثمانيين أوقاف كثيرة ومتعددة ؛ مثل آخر كانت هناك أوقاف بصرف مرتبات للعائلات المعوزة -غير الأكل- لأن الأكل المجاني له أوقاف عامة أخرى تسمى

(1) الجامع في النظام العثماني معمارياً وإدارياً وحدة دينية وعلمية متكاملة فيها الجامع والمدرسة والمدارس الأقل من المدرسة والجامعة - والمكتبة ومدينة الطلاب والمطعم الخاص بهم والمطعم الخيري العام والحمام ومدرسة الطب والمستشفى.

(عمارت وقفي) أي وقف المطاعم الخيرية وكانت الـ(عمارات) تقدم أكلاً مجاناً لعدد يبلغ 20.000 شخص يومياً مجاناً، وكان مثل هذا في كل الولايات... (1).

وكان المطعم الخيري بجامع السليمانية تبلغ ميزانيته عام 1586م ما يعادل (10) عشرة ملايين دولار أمريكي إلا قليلاً (2).

وهكذا كانت سياسة الدولة على مستوى السلاطين والامراء والوزراء تضمن للمعوزين قوتهم وتكرم المستحقين بالإكرام.

11- (وبما أن العلماء هم بمثابة القوة المبتوثة في جسم الدولة فعظم جانبهم وشجعهم وإذا

سمعت بأحد منهم في بلد آخر فاستقدمه إليك وأكرمه بالمال...):

لقد أهتم السلطان محمد الفاتح بترتيب وظائف العلماء في الجوامع الكبرى ووضع لها تقاليد سابقة ونظمها بمرسوم خاص واهم الوظائف في المساجد الكبرى: الخطيب والإمام ، والقيم والمؤذن ويقوم المرشحون لهذه الوظائف بطلب العلم في المدارس الدينية الكبيرة التي كثيراً ما كان السلاطين والوزراء يتنافسون على تشييدها تنافساً نبيلاً ويخضع الموظفون الدينيون في العاصمة لسلطة المفتي مباشرة وكان ينوب عنه في الولايات الكبرى قضاة العسكر؛ أما في الولايات الصغرى فكان الإمام يقوم بكافة المهام الدينية وخاصة في الأرياف.

وكانت المدارس التي تعد الموظفين الدينيين يوجد بها ثلاثة فئات من طلبة العلم: فالـ(الصوفتا) وهي أدهاها تليها فئة المعيدين الذي يحمل الطالب عند التخرج منها لقب (دانشمند) أو عالم. أما الفئة الأعلى فهي منصب المدرس، وبلغ عدد الصوفتا في عهد السلطان مراد الثاني 90 ألفاً.

(1) العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 422.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 422.

وكانوا كثيراً ما يكون لهم أثر في شؤون الدولة (1).

وقد استحدث محمد الفاتح لقب شيخ الإسلام وهو الذي يت رأس الهيئة الإسلامية في الدولة، وهو يلي السلطان في الأهمية. وكان التشريع والمحاكم والمدارس الملحقة بالمساجد وممتلكات الأوقاف الواسعة جميعها خاضعة له، كما كان خاضعاً له القضاة الشرعيون والقضاة العسكريون والمفتون. وكانت الأولوية في بداية نشأة الدولة العثمانية لقاضي عسكر الذي رافق الجيش المحارب، ثم صارت للمفتي رئيس العلماء والفقهاء في عهد السلطان سليمان القانوني وأصبح المفتي هو شيخ الإسلام نفسه، وحرص السلاطين على تدعيم سلطة شيخ الإسلام فكانوا يلجؤون الى استغلال سلطته والإفادة منها كلما تعرضوا لأزمة خطيرة. وبلغ من ازدياد سلطة شيخ الإسلام أنه كان يحق له إصدار فتوى بعزل السلطان نفسه (2).

كما كانت الدولة لاتقدم على حرب دون صدور فتوى منه يقرر فيها أن أهداف هذه الحرب لاتتعارض مع الدين وكانت أحكام المفتي نهائية لامعقب عليها وكان الجهاز الإسلامي المنبث في جسم الدولة يضم الأشراف وهم الذين ينحدرون من سلالة الرسول μ ، وكان نقيب الأشراف يحتل مكانة عالية في المجتمع (3).

لقد قامت الدولة العثمانية بتأسيس جهاز للهيئة الدينية الإسلامية وحرصت على أن تمتد جذورها في أوساط الشعب والجيش وكل رعايا الدولة المسلمين وقد أصبحت أفراد هذه الهيئة يتولون مناصب القضاء والإفتاء وتدرّس علوم الدين واللغة والمشاركة على نحو مافي إدارة الأوقاف الخيرية وإقامة الدينية والإشراف على المساجد والمؤسسات الدينية والخيرية مثل التكايا والأسبلة وغيرها وكان أفراد من الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة يصحبون شتى فرق الجيش

(1) انظر: تاريخ الدولة العثمانية ، د. علي حسون، ص 405.

(2) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، ص 89.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 89.

إلى ميادين القتال ويقومون قبل المعركة بتسخين الجنود روحياً ابتغاء رفع روحهم المعنوية ويضربون للجنود أروع الأمثلة على استبسال الجنود المسلمين في صدر الإسلام حين انطلقوا على موجات بشرية متلاحقة من قلب شبه الجزيرة العربية واتجهوا شرقاً إلى العراق وفارس، وشمالاً إلى بلاد الشام، واتجهوا إلى مصر ثم شمال إفريقيا، وعبروا البحر المتوسط إلى الأندلس. ويذكرون لهم الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التي تدور حول الجهاد الديني والفوز بإحدى الحسينيين: النصر أو الاستشهاد. ويشرحون لهم مواقف الصحابة واسترخاصهم الموت حتى استطاعت الجيوش الإسلامية وقتذاك أن تدك معازل دولة الفرس والدولة البيزنطية، كما كان رجال الهيئة الدينية الإسلامية يؤمنون الجنود في صلاة الخوف وهم في ساحات القتال.. (1).

كان علماء الدولة الذين قادوا الهيئة الدينية ينظرون إلى السلطان على أنه يعتبر إماماً للمسلمين وتجب عليهم طاعة السلطان بصفته ولي الأمر كما يأمرهم سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: { يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تأويلاً .. } (سورة النساء، آية: 59).

وكانوا يعتقدون ليس لولي الأمر طاعة فيما وراء الشريعة لأن الطاعة لهم تبعية، وليست أصلية، إنها طاعة مستمدة من أصل، وليست هي بذاتها أصلاً. وقد أشار إلى هذا المعنى أبو بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين في أول خطبة عامة ألقاها بعد مبايعته بالخلافة أوضح فيها منهجه في الحكم وكان مما جاء في هذه الخطبة المشهورة قوله: "أيها الناس إني وليت عليكم، ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني ... أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم.."(2).

(1) الدولة العثمانية دولة اسلامية (455،456/1).

(2) الدولة العثمانية دولة اسلامية (460/1).

وهكذا طلب أبو بكر من جموع المسلمين طاعته طالما كان سائراً على هدى الله وسنة رسوله. لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وكان العلماء وعلى رأسهم شيخ الإسلام يعتمدون على الشريعة عند الخلاف مع السلطان أو الصدر الأعظم ولايسمحون لهم أن ينحرفوا عن مبادئ الشريعة⁽¹⁾ وكان الشعب يقف معهم ويلتحم معهم في القضايا المصيرية، لأن العلماء كانوا يملكون القوتين الروحية والأدبية اللتين تمثلتا في ممارسة أعمال القضاء والإفتاء والإمامة والإشراف على المساجد وإقامة الشعائر الدينية وإدارة المؤسسات الخيرية، ونشاطهم في مجالات التعليم بشتى درجاته وعلى قمته الدراسات العليا في الكليات حيث كانوا يقومون بتدريس علوم الشريعة الإسلامية وأصول الدين ولذلك كانوا أكثر التفافاً برجل الشارع وأكثر تفاهماً وتعاطفاً وتجاوباً مع الأهلين⁽²⁾.

12: (حذار حذار لا يغرنك المال ولا الجند وإياك أن تبعد أهل الشريعة عن بابك، وإياك أن تميل إلى أي عمل يخالف أحكام الشريعة فإن الدين غاييتنا والهداية منهجنا وبذلك انتصرنا):

إن السلطان محمد الفاتح يحذر وليه من بعده أن ينغمر بالمال أو الجند ويبين له خطورة ابعاد العلماء والفقهاء عن الحاكم، كما يحذره من أن يخالف أحكام الشريعة، لأن ذلك يجلب للأفراد والأمة تعاسة وضنكاً في الدنيا وهلاكاً وعذاباً في الآخرة وإن آثار الابتعاد عن شرع الله وأحكامه تبدو على حياة الأمة في وجهتها الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

وإن الفتن تظل تتابع وتتوالى على الناس حتى تمس جميع شؤون حياتهم قال تعالى: { فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم } (سورة النور، الآية: 13). إن من الآثار عن الابتعاد عن أحكام الشريعة أن تصاب الأمة بالتبليد وفقد الاحساس بالذات وموات ضميرها الروحي فلا أمر بمعروف تأمر به ولا نهى عن منكر تنهى عنه ويحدث لها ما حدث لبني

(1) المصدر السابق نفسه (460/1).

(2) المصدر السابق نفسه (466/1).

إسرائيل عندما تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال تعالى: { لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون.. } (سورة المائدة، الآيات 78-79).

فإن أي أمة لاتعظم شرع الله أمراً ونهياً فإنها تسقط كما سقط بنو إسرائيل: قال رسول الله ﷺ : (كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتتهون عن المنكر ثم لتأخذنَّ ثم لتأخذنَّ على يد الظالم ولتأطرنه على الحق اصراً، ولتقصرنه على الحق قصراً أو ليضربن الله على قلوب بعضكم ببعض ثم ليلعنكم كما لعنهم) (1).

وعندما تتغير النفوس من الطاعة والانقياد لأحكام الله إلى المخالفة والتمرد على أحكام الله تتحقق فيهم سنة الله الماضية بسبب تغير النفوس : { ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمه أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم } (سورة الأنفال : آية 53) كما يترتب على ذلك توقف حركة الفتوح الإسلامية وتحرم شعوب كثيرة من سعادتها في الدنيا والآخرة بسبب تضييع أحكام الشريعة وارتكاب ما يخالفها من أفعال قبيحة وتحدث الحروب فيما بين المسلمين وتكثر الاعتداءات على الأنفس والأموال والأعراض كما يقوى الأعداء وتشتد شوكتهم ويغيب نصر الله على الإسلام والمسلمين ويحرموا من التمكين ويصبحوا في خوف وفزع وجوع، وتضيع المدن والقرى ويتسلط عليها الأعداء وتتوالى المصائب وهذا ما حدث في تاريخ الدولة العثمانية المتأخر.

إن من سنن الله تعالى المستتبطة من حقائق الدين وأحداث التاريخ أنه إذا عصي الله تعالى ممن يعرفونه سلط عليهم من لا يعرفونه كما حدث في تسليط النصارى على المسلمين في الأندلس (2) وكما فعل اليهود والانجليز والروس.. في تفتيت الدولة العثمانية.

إن السر في قوة العثمانيين وعزهم وشرفهم كامنة في طاعة الله وتنفيذ أحكامه، والالتزام بشريعته

(1) سنن ابوداود ، كتاب الملاحم ، باب الأمر بالمعروف رقم الحديث 4670.

(2) انظر: فقه التمكين عند دولة المرابطين لعلي الصلابي ، ص 167.

والجهاد في سبيله والدعوة إليه ولذلك قال محمد الفاتح لابنه (فإن الدين غاييتنا والهداية منهجنا وبذلك انتصرنا).

13- (واعمل على تعزيز هذا الدين وتوقير أهله) :

إن تعزيز هذا الدين وإقامته في الأرض يحقق نتائج طيبة في حياة الأمة والدولة، ومن هذه النتائج تهذيب النفس من الشرور والآثام وترويضها على الخير، لذا كان الوازع الديني ثمرة من ثمار تعزيز هذا الدين ويكون مانعاً من ارتكاب الجريمة ومحاسبة النفس عليها، ويكون ماثلاً أمام العين مما يجعل النفس تخشى الله وتتقيه دائماً وأبداً كما أن تعزيز الدين وإقامة الشرع يحقق المساواة بين الراعي والرعية في الحقوق والواجبات وتنتشر العدالة في الدولة الإسلامية لجميع ساكنيها، كما أن في تطبيق الشريعة نزول البركة، وتوالي النعم، إذ ليس هناك طريق مستقل لحسن الجزاء في الآخرة وطريق مستقل لصالح الحياة في الدنيا، إنما هو طريق واحد تصلح به الدنيا والآخرة، وفي تطبيقها بركات في النفوس وبركات في المشاعر وبركات في طيبات الحياة، فالبركة قد تكون مع القليل إذا أحسن الانتفاع به، ومن نتائج تطبيقها بناء مجتمع إسلامي معتز بدينه وعقيدته بما التزمه من سلوك مصدره كتاب الله وسنة رسوله ρ ففيهما المواد اللازمة لبناء الفرد المسلم والجماعة المسلمة والأمة المسلمة والدولة المسلمة كما أن من النتائج حفز الهمم، وبعث النفوس إلى الأخذ بأسباب العلم والحضارة والرقى والتقدم لما تضمنته تلك الشريعة من الدعوة إلى الحياة كما أنها تتضمن نبذ عفن الحياة الحضاري لمجتمعات الرذيلة أياً كانت وأينما وجدت (1).

إن الناس يحتاجون إلى العلماء الربانيين ليعلموهم دينهم ويربون نفوسهم على طاعة الله ولذلك لا بد من القيادة الإسلامية من احترامهم وتقديرهم وإكرامهم، فهم الذين يبينون للناس حكم الله ورسوله وتفسير النصوص الشرعية وفق قواعد الإسلام الكلية قال تعالى: { فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون }.

14- (ولا تصرف أموال الدولة في ترف أو لهو أو أكثر من قدر اللزوم فإن ذلك من أعظم

(1) انظر: تطبيق الشريعة الإسلامية للطريقي ، ص 61، 60.

إن هذه الوصية ترشد ولي عهد السلطان محمد الفاتح إلى الاعتدال والتوسط في الاستهلاك وهذه الوصية فهم لأمر الله ورسوله بالقصد والتوسط ولقد أنزل الله كثيراً من الآيات التي تمتدح في التفقه وذم ماسواه من البخل والشح والتبذير والإسراف والترف قال تعالى: { ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً } (الإسراء: 29). وقال تعالى يصف المؤمنين : { والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً } (سورة الفرقان، الآية: 67).

إن السلطان محمد الفاتح يرى وجوب ابتعاد الحاكم ودولته عن الإسراف لأن فيه معصية الله ورسوله.

إن الدولة العثمانية كدولة مجاهدة كانت لها خطة اقتصادية لتدبير موارد الأمة في ظروف الحرب لتأمين احتياجات جيشها، وتوفير الحاجات الضرورية لشعبها من السلع والخدمات ولذلك كان السلاطين الأوائل في الدولة العثمانية يمنعون الإسراف والتبذير في القطاع الحكومي والقطاع الخاص وكانت الدولة ترشد الاستهلاك العام والخاص حتى لاتقع الأمة في أزمات اقتصادية خلال الحرب التي تسبب في هزائم الأمم، فكانت الدولة بالتعاون مع قطاعات أخرى حكومية وشعبية تقوم بما يلي:

- 1- توفير الأموال اللازمة للإنفاق على الحرب، وعلى ضروريات المجتمع من الغذاء والدواء والحماية.
- 2- توفير الإمدادات اللازمة خلال الحروب والأزمات.
- 3- تعويض النقص من مخزون السلع والأجهزة الحيوية من الإنتاج المحلي بقدر الإمكان.
- 4- السيطرة على التضخم في الأسعار الذي يصاحب عادة حالات الحرب.

5- التوزيع العادل للسلع والخدمات الضرورية بما يؤمن حد الكفاية لكل فئات المجتمع (1). إن الدول التي تقع في الترف واللهو وتصرف أموالها، في غير محلها مآلها إلى الهلاك والدمار. ولقد أدى الترف إلى انغماس بعض السلاطين المتأخرين في حياة الفسق واللهو بحيث يقضون أوقاتهم في المذات وقضاء أوقاتهم بين الحريم وقد أدى ذلك إلى الابتعاد عن أمور الحكم وتركها للصدور العظام وللحريم، فانعكس ذلك على ضعف السلاطين، وعدم قدرتهم على تسيير أمور الدولة وقيادة الجيش، مما أثر على أوضاع الدول وأدى إلى ضعفها ثم اضمحلالها وضياعها فيما بعد (2).

وفاة السلطان محمد الفاتح وأثرها على الغرب والشرق

في شهر الربيع من عام 886هـ - 1481م غادر السلطان الفاتح القسطنطينية إلى آسيا الصغرى حيث كان قد أعد في اسكدار جيش آخر كبير. وكان السلطان محمد الفاتح قبل خروجه من استنبول قد أصابته وعكة صحية إلا أنه لم يهتم بذلك لشدة حبه للجهاد وشوقه الدائم للغزو وخرج بقيادة جيشه بنفسه، وقد كان من عادته أن يجد في خوض غمار المعارك شفاء لما يلم به من أمراض إلا أن المرض تضاعف عليه هذه المرة وثقلت وطأته بعد وصوله إلى اسكدار فطلب أطباءه. غير أن القضاء حم به فلم ينفع فيه تطبيب ولا دواء، ومات السلطان الفاتح وسط جيشه العرمرم يوم الخميس الرابع من ربيع الأول 886هـ (3 مايو 1481م) وهو في الثانية والخمسين من عمره بعد أن حكم نيفاً وثلاثين عاماً (3).

وبعد أن ذاع نبأ الوفاة في الشرق والغرب، أحدث دويماً هائلاً اهتزت له النصرانية والإسلام، أما النصرانية فقد غمرها الفرح والابتهاج والبشرى وأقام النصارى في رودس صلوات الشكر على

(1) انظر: اقتصاديات الحرب في الإسلام، ص 339.

(2) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي، ص 94.

(3) انظر: محمد الفاتح ، ص 372.

نجاتهم من هذا العدو المخيف (1) وكانت جيوش الدولة العثمانية قد وصلت إلى جنوب إيطاليا لفتح كل إيطاليا وضمها للدولة العثمانية إلا أن خبر الوفاة وصلهم فانتاب الجنود هم شديد وحزن عميق واضطر العثمانيون في الدخول لمفاوضات مع ملك نابولي لينسحبوا آمنين على حياتهم وامتعهم وعتادهم وتم الاتفاق على ذلك إلا أن النصارى لم يفوا بما تعهدوا واعتقلوا بعض الجنود الذين كانوا في المؤخرة وصفوهم بالحديد (2).

وعندما وصل خبر وفاة السلطان إلى روما ابتهج البابا وأمر بفتح الكنائس وأقيمت فيها الصلوات والاحتفالات، وسارت المواكب العامة تجوب الشوارع والطرق وهي تتشد أناشيد النصر والفرح بين طلقات المدافع وظلت هذه الاحتفالات والمهرجانات قائمة في روما طيلة ثلاثة أيام، لقد تخلصت النصرانية بوفاة محمد الفاتح من أعظم خطر كان يهددها (3).

لم يكن أحد يعلم شيئاً عن الجهة التي كان سيذهب إليها السلطان الفاتح بجيشه، وذهبت ظنون الناس في ذلك مذهب شتى. فهل كان يقصد رودس ليفتح هذه الجزيرة التي امتعت على قائده مسيح باشا؟ أم كان يتأهب للحاق بجيشه الظافر في جنوبي إيطاليا ويزحف بنفسه بعد ذلك إلى روما وشمالي إيطاليا وفرنسا وإسبانيا؟

لقد ظل ذلك سراً طواه الفاتح في صدره ولم يبيح به لأحد ثم طواه الموت بعد ذلك (4). لقد كان من عادة الفاتح أن يحتفظ بالجهة التي يقصدها ويتكتم أشد التكتم ويترك أعداءه في غفلة وحيرة من أمرهم، لا يدري أحدهم متى تنزل عليه الضربة القادمة ثم يتبع هذا التكتم الشديد بالسرعة الخاطفة في التنفيذ فلا يدع لعدوه مجالاً للتأهب والإستعداد (5) وذات مرة سأله أحد

(1) المصدر السابق نفسه، ص 373.

(2) انظر: محمد الفاتح، ص 373.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 374.

(4) انظر: محمد الفاتح، ص 377.

(5) المصدر السابق نفسه، ص 259.

القضاة أين تقصد بجيوشك فأجابه الفاتح : " لو أن شجرة في لحيتي عرفت ذلك لنتفتها وقذفت بها في النار ... " (1).

إن من أهداف الفاتح أن يمضي بفتوحات الإسلام من جنوب إيطاليا إلى أقصاها في الشمال ويستمر في فتوحاته بعد ذلك إلى فرنسا وأسبانيا وماوراءها من الدول والشعوب والأمم. لقد تأثر المسلمون في العالم الإسلامي لوفاة محمد الفاتح وحزنوا عليه حزناً عميقاً وبكاه المسلمون في جميع أقطار المعمورة، لقد بهرتهم انتصاراته، واعداد إليهم سيرة المجاهدين الأوائل من السلف الصالح (2).

قال عن وفاته عبدالحى بن العماد الحنبلي في وفيات سنة ست وثمانين وثمانمائة : (.. كان من أعظم سلاطين بني عثمان وهو الملك الضليل الفاضل النبيل العظيم الجليل أعظم الملوك جهاداً وأقواماً اقداماً واجتهاداً وأثبتهم جأشاً وقواداً وأكثرهم توكلأً على الله واعتماداً وهو الذي أسس ملك بني عثمان وقنن لهم قوانين صارت كالأطواق في أجياد الزمان وله مناقب جميلة ومزايا فاضلة جليلة وآثار باقية في صفحات الليالي والأيام ومآثر لايمحوها تعاقب السنين والأعوام وغزوات كسر بها أصلاب الصلبان والأصنام من أعظمها أنه فتح القسطنطينية الكبرى وساق إليها السفن تجري رخاءً براً وبحراً هجم عليها بجنوده وأبطاله وأقدم عليها بخيوله ورجاله وحاصرها خمسين يوماً أشد الحصار وضيق على من فيها من الكفار الفجار وسل على أهلها سيف الله المسلول وتدرع بدرع الله الحصين المسبول ودق باب النصر والتأييد ولج ومن قرع باباً ولج ولج وثبت على متن الصبر إلى أن أتاه الله تعالى بالفرج ونزلت عليه ملائكة الله القريب الرقيب بالنصر العزيز من الله تعالى والفتح القريب ففتح استنبول في اليوم الحادي والخمسين من أيام محاصرته وهو يوم الأربعاء العشرين من جمادي الآخرة سنة سبع وخمسين وثمانمائة وصلى في

(1) المصدر السابق نفسه، ص260.

(2) انظر: السلطان محمد الفاتح، ص168.

أكبر كنائس النصارى صلاة الجمعة وهي أيا صوفيا وهي قبة تسامى قبة السماء وتحاكي في الاستحكام قبب الأهرام ولا وهت ولا وهت كبراً ولاهرماً وقد أسس في استنبول للعلم أساساً راسخاً لا يخشى على شمس الأفول وبنى مدارس كالجفان لها ثمانية أبواب سهلة الدخول وقنن بها قوانين تطابق المعقول والمنقول فجراه الله خيراً عن الطلاب ومنحه بها أجراً وأكبر ثواب فإنه جعل لهم أيام الطلب مايسد فاقتهم ويكون به من خمار الفقر افاقتهم وجعل بعد ذلك مراتب يترقون اليها ويصعدون بالتمكن والاعتبار عليها إلى أن يصلوا إلى سعادة الدنيا ويتوسلون بها أيضاً إلى سعادة العقبى وأنه رحمه الله تعالى استجلب العلماء الكبار من أقصى الديار وأنعم اليهم وعطف باحسانه اليهم كمولانا علي القوشجي والفاضل الطوسي والعالم الكوراني وغيرهم من علماء الإسلام وفضلاء الأنام فصارت استنبول بهم أم الدنيا ومعدن الفخار والعليا واجتمع فيها أهل الكمال من كل فن، فعلمائها إلى الآن أعظم علماء الإسلام وأهل حرفها أدق الفطناء في الأنام وأرباب دولتها هم أهل السعادة العظام فللمرحوم المقدس قلادة منن لاتحصى في أعناق المسلمين لاسيما العلماء الأكرمين(1).

فرحمة الله ومغفرته ورضوانه على السلطان محمد الفاتح وأعلى ذكره في المصلحين .

(1) شذرات الذهب (345/7).

الفصل الرابع

السلطين الأقوياء بعد محمد الفاتح

المبحث الأول

السلطان بايزيد الثاني

بعد وفاة السلطان محمد الفاتح تولى ابنه بايزيد الثاني (886هـ - 918هـ) السلطة في البلاد وكان سلطاناً وديعاً، نشأ محباً للأدب، متفهماً في علوم الشريعة الإسلامية شغوفاً بعلم الفلك. واستعان بالخبراء الفنيين اليونانيين والبلغاريين في تحسين شبكة الطرق والجسور لربط أقاليم الدولة ببعضها(1).

أولاً: الصراع على السلطة مع أخيه :

كان الأمير جم عندما بلغه وفاة أبيه يقيم في بروسة، وقد استطاع أن يتحصل على اعتراف السكان به سلطاناً على الدولة العثمانية في المناطق الخاضعة له، وبعد أن استتب له الأمر في بروسه وماحولها، أرسل إلى أخيه بايزيد يطلب منه عقد الصلح، ويقترح عليه التنازل، ورفض

(1) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، ص50.

السلطان بايزيد ذلك لأن والده أوصى له بالحكم من بعده، لكن الأمير جم لم يقتنع بذلك فعاد واقترح على أخيه بايزيد تقسيم الدولة العثمانية إلى قسمين: القسم الأوربي لبايزيد والقسم الآسيوي له، ولكن بايزيد رفض أيضاً مبدأ التقسيم من أساسه لأن ذلك سوف يعمل على تفتيت الدولة التي سهر أسلافه على بنائها وتوحيدها، وأصر على أن تبقى الدولة موحدة تحت سلطته وأعد جيشاً ضخماً وسار به إلى بروسه وهاجمها وفر منها جم إلى سلطان المماليك قايتباي في مصر (1) فرحب به وأكرمه وأمهده بجميع ما احتاجه من أموال للسفر مع أسرته إلى الحجاز لأداء فريضة الحج. ولما عاد من الأراضي المقدسة إلى مصر أرسل إليه السلطان بايزيد يقول له : (بما أنك اليوم قمت بواجباتك الدينية في الحج، فلماذا تسعى إلى الأمور الدنيوية، من حيث أن الملك كان نصيبي بأمر الله، فلماذا تقاوم إرادة الله؟ فأجابه بقوله: هل من العدل أن تضطجع على مهد الراحة والنعيم وتقضي أيامك بالرغد واللذات، وأنا أحرم من اللذة والراحة وأضع رأسي على الشوك (2)؟ وقام جم بالاتصال بكبار أتباعه في الأناضول، وأثارهم ضد بايزيد، وتقدم بأتباعه ليغتصب العرش، ولكنه هزم، واستأنف المحاولة فهزم أيضاً.

والتجأ جم إلى رودس حيث يوجد بها فرسان القديس يوحنا، وعقد مع رئيس الفرسان اتفاقاً إلا أنه نقضه تحت ضغط بايزيد وأصبح جم سجيناً في جزيرة رودس، وكسب فرسان القديس يوحنا بهذه الرهينة الخطيرة امتيازات طوراً من بايزيد الثاني، ومرة أخرى من أنصار جم بالقاهرة، فلما تحصل على أموال ضخمة باع رهينته للبابا أنوست الثامن، فلما مات هذا البابا ترك جم لخلفه اسكندر السادس ولكن الأخير لم يبق على جم كثير حيث قتل واتهم في ذلك بايزيد الثاني الذي تخلص من خطر أخيه (3).

(1) قيام الدولة العثمانية ، ص57.

(2) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان ، يوسف آصاف ، ص63 الى 65.

(3) انظر : الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، ص51.

حدثت معارك بين العثمانيين والمماليك على الحدود الشامية إلا أنها لم تحتدم إلى حد التهديد بحدوث حرب شاملة بينهما، وإن كانت قد أسهمت في أن يخيم شعور بعدم الثقة بينهما الأمر الذي أدى إلى تعثر مفاوضات الصلح سنة 1491م ومع أن السلطان المملوكي " قايتباي " قد ساورته مخاوف من احتمال قيام حرب واسعة بينه وبين العثمانيين سواء لإدراكه ما كان عليه العثمانيون من قوة أو لانشغال جزء هام من قواته في مواجهة البرتغاليين، إلا أن السلطان العثماني " بايزيد الثاني " قد بدد له هذه المخاوف حيث قام بإرسال رسول من قبله إلى السلطان المملوكي سنة 1491م ومعه مفاتيح القلاع التي استولى عليها العثمانيون على الحدود وقد لقي هذا الأمر ترحيباً لدى السلطان المملوكي فقام بإطلاق سراح الأسرى العثمانيين، وأسهمت سياسة بايزيد السلمية في عقد صلح بين العثمانيين والمماليك في نفس السنة (1491م) وظل هذا الصلح سارياً حتى نهاية عهد السلطان بايزيد الثاني عام 1512م وأكد هذا الحدث على حرص السلطان بايزيد في سياسة السلام مع المسلمين (1).

ثالثاً: السلطان بايزيد الثاني والدبلوماسية الغربية :

استمرت راية الجهاد مرفوعة طيلة عهد السلطان بايزيد وأدرك الأعداء، أنه لا يستطيعون مواجهة القوات الجهادية في حرب نظامية يحققون فيها أطماعهم لهذا لجأوا إلى أسلوب خبيث تستروا به تحت مسمى العلاقات الدبلوماسية لكي ينخروا في عظام الأمة ويدمروا المجتمع المسلم من الداخل، ففي عهد السلطان بايزيد وصل أول سفير روسي إلى (إسلامبول) عام (898هـ / 1492م).

إن وصول السفير الروسي عام (1492م) على عهد دوق موسكو (إيفان) وما تابع ذلك، وما أعطى له ولغيره من حصانة وامتيازات، فتح الباب أمام أعداء الأمة الإسلامية لكشف ضعفها

(1) انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، ص66.

ومعرفة عوراتها، والعمل على إفسادها والتآمر عليها بعد تدميرها وإضعاف سلطان العقيدة في نفوس أبنائها.

وفي عهد بايزيد الثاني في عام (886هـ) استطاع دوق موسكو (إيفان الثالث) أن ينتزع إمارة (موسكو) من أيدي المسلمين العثمانيين، وبدأ التوسع على حساب الولايات الإسلامية(1). ولا يعني ذلك أن السلطان (بايزيد) وقف موقفاً ضعيفاً أمام هذه الظروف ولكن الدولة كانت تمر بظروف صعبة في محاربتها لأعداء الإسلام على امتداد شبه جزيرة الأناضول، وأوروبا الشرقية كلها، فانشغلت بها(2).

رابعاً: وقوفه مع مسلمي الأندلس:

تطورت الأحداث في شبه الجزيرة الأيبيرية في مطلع العصور الحديثة، فأصبح اهتمام الأسبان ينحصر في توحيد أراضيهم، وانتزاع ماتبقى للمسلمين بها خصوصاً بعد ما خضعت لسلطة واحدة بعد زواج ايزابيلا ملكة قشتالة وفريدناند ملك أراغوان، فاندفعت الممالك الأسبانية المتحدة قبيل سقوط غرناطة في تصفية الوجود الإسلامي في كل اسبانيا، حتى يفرغوا أنفسهم ويركزوا إهتمامهم على المملكة الإسلامية الوحيدة غرناطة، التي كانت رمز للمملكة الإسلامية الذاهبة(3).

وفرضت اسبانيا أقصى الإجراءات التعسفية على المسلمين في محاولة لتتصيرهم وتضييق الخناق عليهم حتى يرحلوا عن شبه الجزيرة الأيبيرية.

نتيجة لذلك لجأ المسلمون - المورسكيون - إلى القيام بثورات وانتفاضات في أغلب المدن الأسبانية والتي يوجد بها أقلية مسلمة وخاصة غرناطة وبلنسية وأخمدت تلك الثورات بدون رحمة ولاشفقة من قبل السلطات الأسبانية التي اتخذت وسيلة لتعميق الكره والحقد للمسلمين، ومن جهة

(1) الدولة العثمانية ، د. جمال عبدالهادي ، ص 49، 50.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 50.

(3) انظر: جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس، د. نبيل عبدالحى ، ص 125.

أخرى كان من الطبيعي أن يرنوا المورسكيون بأنظارهم إلى ملوك المسلمين في المشرق والمغرب لإنقاذهم وتكررت دعوات وفودهم ورسائلهم إليهم للعمل على انقاذهم مما يعانونه من ظلم، وخاصة من قبل رجال الكنيسة ودواوين التحقيق التي عاثت في الأرض فساد وأحلت لنفسها كل أنواع العقوبات وتسليطها عليهم(1).

وكانت أخبار الأندلس قد وصلت إلى المشرق فارتج لها العالم الإسلامي(2). وبعث الملك الأشرف بوفود إلى البابا وملوك النصرانية يذكرهم بأن النصارى الذين هم تحت حمايته يتمتعون بالحرية، في حين أن أبناء دينه في المدن الأسبانية يعانون أشد أنواع الظلم، وقد هدد باتباع سياسة التتكيل والقصاص تجاه رعايا المسيحيين، إذا لم يكف ملك قشتالة وأراغون عن هذا الاعتداء وترحيل المسلمين عن أراضيهم وعدم التعرض لهم ورد ما أخذ من أراضيهم ولم يستجيب البابا والملكان الكاثوليكيان لهذا التهديد من قبل الملك الأشرف ومارسوا خطتهم في تصفية الوجود الإسلامي في الأندلس، وجددت رسائل الاستجداد لدى السلطان العثماني بايزيد الثاني، فوصلته هذه الرسالة: (..الحضرة العلية، وصل الله سعادتها، وأعلى كلمتها، ومهد أقطارها، وأعز أنصارها، وأذل عداتها، حضرة مولانا وعمدة ديننا ودياننا، السلطان الملك الناصر، ناصر الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، قانع أعداء الله الكافرين، كهف الإسلام، وناصر دين نبينا محمد عليه السلام، محي العدل، ومنصف المظلوم ممن ظلم، ملك العرب، والعجم، والترك والديلم، ظل الله في أرضه، القائم بسنته وفرضه، ملك البرين وسلطان البحرين، حامي الذمار، وقانع الكفار، مولانا وعمدتنا، وكهفنا وغيثنا، لازال ملكه موفور الأنصار، مقرونا بالانتصار، مخلص المآثر والآثار مشهور المعالي والفخار، مستأثراً من الحسنات بما يضاعف به الأجر الجزيل، في الدار الآخرة والثناء الجميل، والناصر في هذه الدار، ولا برحت عزماته العلية مختصة بفضائل الجهاد ومجرد

(1) انظر: رسالة من مسلمي غرناطة للسلطان سليمان عبدالجليل التميمي، المجلة المغربية العدد -3، ص38.

(2) انظر: خلاصة تاريخ الأندلس، شكيب ارسلان، ص213.

على أعداء الدين من بأسها، مايروي صدور السحر والصفاح، وألسنة السلاح بأذلة نفائس الذخائر في المواطن التي تألف فيها الأواخر مفارقة الأرواح للأجساد، سالكة سبيل السابقين الفائزين برضا الله وطاعته يقوم الأشهاد (1) وكانت ضمن الرسالة أبيات القصيدة يمدح صاحبها فيها الدولة العثمانية والسلطان بايزيد، ويدعوا للدولة بدوام البقاء قائلاً:

سلام كريم دائم متجدد

أخص به مولاي خير خليفة

سلام على مولاي ذي المجد والعلو

ومن ألبس الكفار ثوب المذلة

سلام على من وسع الله ملكه

وأيده بالنصر في كل وجهة

سلام على مولاي من دار ملكه

قسطنطينية أكرم بها من مدينة

سلام على من زين الله ملكه

بجند وأتراك من أهل الرعاية

سلام عليكم شرف الله قدركم

وزادكم ملكاً على كل ملة

سلام على القاضي ومن كان مثله

من العلماء الأكرمين الأجلة

سلام على أهل الديانة والتقى

ومن كان ذا رأي من أهل المشورة

(1) انظر: ازهار الرياض في أخبار رياض للتلمساني (908،109/1).

بعد ذلك وصفت القصيدة الحالة التي يعاني منها المسلمون وما تعرض له الشيخ والنساء من هتك للإعراض وما يتعرض له المسلمين في دينهم حيث استطرد قائلاً:

سلام عليكم من عبيد تخلفوا

بأندلس بالغرب في أرض غربة

أحاط بهم بحرٌ من الردم زاخر

وبحرٌ عميق ذو ظلام ولجة

سلام عليكم من عبيد أصابهم

مصاب عظيم يالها من مصيبة

سلام عليكم من شيوخ تمزقت

شيوخهم بالننف من بعد عزة

سلام عليكم من وجوه تكشفت

على جملة الأعلاج من بعدة سترة

سلام عليكم من بنات عوائق

يسوقهم اللباط قهراً لخلوة

سلام عليكم من عجائز أكرهت

على أكل خنزير ولحم جيفة

بعد ذلك الوصف، أخذت القصيدة تعالج شكلاً آخر، إذ أخذت توضح شعور المسلمين نحو الدولة العثمانية وتقدم الشكوى للسلطان قائلة:

نقبل نحن الكل أرض بساطكم

وندعوا لكم بالخير في كل ساعة

أدام الإله ملككم وحياتكم

وعافاكم من كل سوءٍ ومحنة

وأيدكم بالنصر والظفر بالعدا

وأسكنكم دار الرضا والكرامة

شكونا لكم مولاي ماقد أصابنا

من الضر والبلوى وعظم الرزية

ثم تعود القصيدة في شرح المأساة، وتغيير الدين ما إلى ذلك، فاستطردت بقولها:

غدرنا ونصرنا وبدل ديننا

ظلمنا وعملنا بكل قبيحة

وكنا على دين النبي محمد

نُقاتل عمال الصليب بنية

وتلقي أموراً في الجهاد عظيمة

بقتل وأسر ثم جوع وقلّة

فجاءت علينا الروم من كل جانب

بسيل عظيم جملة بعد جملة

ومالوا علينا كالجراد بجمعهم

بجد وعزم من خيول وعدة

فكنا بطول الدهر نلقي جموعهم

فنقتل فيها فرقة بعد فرقة

وفرسانها تزداد في كل ساعة

وفرساننا في حال نقص وقلّة

ومالوا علينا بلدة بعد بلدة
وجاؤوا بأنفاظ عظام كثيرة
تهدم أسوار البلاد المنيعة
وشدوا عليها الحصار بقوة
شهوراً وأياماً بجد وعزيمة
غدرنا ونصرنا وبدل ديننا
ظلمنا وعملنا بكل قبيحة
وكنا على دين النبي محمد
نقاتل عمال الصليب بنية
وتلقى أموراً في الجهاد عظيمة
بقتل وأسر ثم جوع وقلعة
فجاءت علينا الروم من كل جانب
بسيل عظيم جملة بعد جملة
ومالوا علينا كالجراد بجمعهم
فنقتل فيها فرقة بعد فرقة
وفرسانها تزداد في كل ساعة
وفرساننا في حال نقص وقلعة
فلما ضعفنا خيموا في بلادنا
ومالوا علينا بلدة بعد بلدة
وجاؤوا بأنفاظ عظام كثيرة

وشدوا عليها الحصار بقوة
شهوراً وأياماً بجد وعزيمة
فلما تفانت خيلنا ورجالنا
ولم نر من إخواننا من إغائنة
وقلت لنا الأقوات واشتد حالنا
أحطناهم بالكره خوف الفضيحة
وخوفاً على أبنائنا وبناتنا
من أن يؤسروا أو يقتلوا شر قتلة
على أن نكون مثل من كان قبلنا
من الدجن من أهل البلاد القديمة
ثم تحدثت القصيدة عن الخيار في مثل هذه الحالة، فإما القبول بالوضع السابق أو الإرتحال،
إذ استطردت قائلة:

ونبقى على آذاننا وصلاتنا
ولانتركن شيئاً من أمر الشريعة
ومن شاء منا الجر جاز مؤمناً
بما شاء من مال إلى أرض عدوة
إلى غير ذلك من شروط كثيرة
تزيد على الخمسين شرطاً بخمسة
فقال لنا سلطانهم وكبيرهم
لكم ما شرطتم كاملاً بالزيادة

كما كنتم من قبل دون أذية

إلا أن الملكين الكاثوليكيين لم يفيا بتلك المواثيق إذ بدأ غدرهما على المسلمين فقال:

فلما دخلنا تحت عقد ذمامهم

بدا غدرهم فينا بنقص العزيمة

وخان عهوداً كان قد غرنا بها

ونصرنا كرهاً بعنف وسطوة

وأحرق ما كانت لنا من مصاحف

وخلطها بالزبل أو بالنجاسة

وكل كتاب كان في أمر ديننا

ففي النار ألقوه بهزة وحقرة

ولم يتركوا فيها كتاباً لمسلم

ولا مصحفاً يخلى به للقراءة

ومن صام أو صلى يعلم حاله

ففي النار يلقوه كل حالة

ومن لم يجئ منا لموضع كفرهم

يعاقبه اللباط شر العقوبة

ويلطم خديه ويأخذ ماله

ويجعله في السجن في سوء حالة

وفي رمضان يفسدون صيامنا

بأكل وشرب مرة بعد مرة

وهكذا مضت المسيحية في هتك الإسلام، وذل المسلمين، فمن تدخل في عبادة المسلم إلى شتم الإسلام فقالت القصيدة في ذلك:

وقد أمرونا أن نسب نبينا
ولأنذكرنه في رخاء وشدة
وقد سمعوا قوماً يغنون باسمه
فأدركهم منهم أليم المضرة
وعاقبهم حكامهم وولاتهم
بضرب وتغريم وسجن وذلة
ومن جاءه الموت ولم يحضر الذي
يذكرهم لم يدفنوه بحيلة
ويترك في زبل طريحاً مجدلاً
كمثل حمار ميت أو بهيمة
إلى غير هذا من أمور كثيرة
قباح وأفعال غزار رديئة(1)

بعد ذلك أخذ الملوك الكاثوليك في إذابة المجتمع المسلم وذلك بتغيير الهوية الإسلامية إذ قالت القصيدة:

وقد بدلت أسماءنا وتحولت
بغير رضا منا وغير إرادة
فأها على تبديل دين محمد
بدين كلاب الروم شر البرية
وأها على أسمائنا حين بُدلت

(1) انظر: جهود العثمانيين لانقاذ الأندلس، ص130.

وآها على أبنائنا وبناتنا

يروحون للباط في كل غدوة

يعلمهم كفراً وزوراً وفرية

ولا يقدرُوا أن يمنعوهم بحيلة

وآها على تلك المساجد سورت

مزابل للكفار بعد الطهارة

وآها على تلك الصوامع علقت

نواقيسهم فيها نظير الشهادة

وآها على تلك البلاد وحسنها

لقد أظلمت بالكفر أعظم ظلمة

وصارت لعباد الصليب معاقلاً

وقد أمنوا فيها وقوع الاغارة

وصرنا عبيداً لا أسارى فنفتدي

ولا مسلمين منطقتهم بالشهادة

ثم تتوجه القصيصة باستجداء السلطان لإنقاذهم، وإنقاذهم من تلك المحنة فتقول:

فلو أبصرت عيناك ما صار حالنا

إليه لجادت بالدموع الغزيرة

فيا ويلنا يابؤس ماقد أصابنا

من الضر والبلوى وثوب المذلة

سألناك يا مولاي بالله ربنا

عسى تنظروا فينا وفيما أصابنا

لعل إله العرش يأتي برحمة

فقولك مسموع وأمرك نافذ

وما قلت من شيء يكون بسرعة

ودين النصارى أصله تحت حكمكم

ومن ثم يأتيهم إلى كل كورة

فبالله يامولاي منوا بفضلكم

علينا برأي أو كلام بحجة

فأنتم أولوا الأفضال والمجد والعلا

وغوث عباد الله في كل آفة

كما طلب المسلمون أن يتوسط السلطان بايزيد الثاني لدى البابا في روما وذلك لما للسلطان من

ثقل سياسي في أوروبا فقال:

فسل بابهم أعني المقيم برومة

بماذا أجازوا الغدر بعد الأمانة

ومالهم مالوا علينا بغدرهم

بغير أذى منا وغير جريمة

وجنسهم المقلوب في حفظ ديننا

وأحسن ملوك ذي وفاء أجلة

ولم يخرجوا من دينهم وديارهم

ولأنالهم غدر ولاهتك حرمة

فذاك حرام الفعل في كل ملة

ولاسيما عند الملوك فإنه

قبيح شنيع لايجوز بوجهة

وقد بلغ المكتوب منكم إليهم

فلم يعلموا منه جميعاً بكلمة

ومازادهم إلا أعتداء وجرأة

علينا وإقداماً بكل مساءة

ويشير المسلمون أن توسط ملوك مصر لدى المسيحيين لم تجد شيئاً، بل زادوا تعنتاً فقالوا:

وقد بلغت ارسال مصر إليهم

ومانالهم غدر ولاهتك حرمة

وقالوا لتلك الرسل عنا بأننا

رضينا بدين الكفر من غير قهرة

وساقوا عقود الزور ممن أطاعهم

ووالله ما نرضى بتلك الشهادة

لقد كذبوا في قولهم وكلامهم

علينا بهذا القول أكبر فرية

ولكن خوف القتل والحرق رونا

نقول كما قالوه من غير نية

ودين رسول مازال عندنا

وتوحيدنا لله في كل لحظة

بعد ذلك أوضح المسلمون للسلطان بايزيد أنه مع كل ذلك فإنهم متمسكون بالدين الإسلامي
ويؤكدون ذلك بقولهم:

ووالله ما نرضى بتبديل ديننا

ولا بالذي قالوا من أمر الثلاثة

وإن زعموا أنا رضينا بدينهم

بغير أذى منهم لنا ومساءة

فسل وحرأ عن أهلها كيف أصبحوا

أسارى وقتلى تحت ذل ومهنة

وسل بلفيقاً عن قضية أمرها

لقد مزقوا بالسيف من بعد حسرة

وضيافة بالسيف مزق أهلها

كذا فعلوا أيضاً بأهل البشرية

وأندرش بالنار أحرق أهلها

بجامعهم صاروا جميعاً كفحمة

ويكرر المسلمون ويجددوا الاستغاثة بالدولة العثمانية بعد تقديم هذه الشكوى:

فها نحن يامولاي نشكو إليكم

فهذا الذي نلناه من شر فرقة

عسى ديننا يبقى لنا وصلاتنا

كما عاهدونا قبل نقض العزيمة

وإلا فيجلونا جميعاً عن أرضهم

بأموالنا للغرب دار الأحبة

على الكفر في عز على غير ملة
فهذا الذي نرجوه من عز جاهكم
ومن عندكم تقضى لنا كل حاجة
ومن عندكم نرجو زوال كربنا
وما نالنا من سوء حال وذلة
فأنتم بحمد الله خير ملوكنا
وعزتكم تعلو على كل عزة
فنسأل مولانا دوام حياتكم
بملك وعز في سرور ونعمة
وتهدين أوطان ونصر على العدا
وكثرة أجناد ومال وثروة
وتم سلام الله قلته ورحمة

عليكم مدى الأيام في كل ساعة(1)

كانت هذه هي رسالة الاستتصار التي بعث بها المسلمون في الأندلس، لإنقاذ الموقف هناك، وكان السلطان بايزيد يعاني من العوائق التي تمنعه من إرسال المجاهدين، بالإضافة إلى مشكلة النزاع على العرش مع الأمير جم، وما أثار ذلك من مشاكل مع البابوية في روما وبعض الدول الأوروبية وهجوم البولنديين على مولدافيا والحروب في ترانسلفانيا والمجر والبندقية وتكوين التحالف الصليبي الجديد ضد الدولة العثمانية من البابا جويلس الثاني وجمهورية البندقية والمجر

(1) رسالة أهل الجزيرة بعد استيلاء أهل الكفر على جميعها الى السلطان بايزيد المكتبة الوطنية بالجزائر برقم 1620. وانظر: اخبار عياض (109/1 الى 115). نقلاً عن جهود العثمانيين لاسترداد الأندلس.

وفرنسا، وما أسفر عنه هذا التحالف (1) من توجيه القوة العثمانية لتلك المناطق، ومع ذلك قام السلطان بايزيد بتقديم المساعدة وتهادن مع السلطان المملوكي الأشرف لتوحيد الجهود من أجل مساعدة غرناطة ووقعا اتفاقاً بموجبه يرسل السلطان بايزيد اسطولاً على سواحل صقلية بإعتبارها تابعة لمملكة اسبانيا، وأن يجهز السلطان المملوكي حملات أخرى من ناحية أفريقيا (2) وبالفعل أرسل السلطان بايزيد اسطولاً عثمانياً تحول إلى الشواطئ الأسبانية، وقد أعطى قيادته إلى كمال راييس الذي أدخل الفزع والخوف والرعب في الأساطيل النصرانية في أواخر القرن الخامس عشر (3) ، كما شجع السلطان بايزيد المجاهدين في البحر بإبداء اهتمامه وعطفه عليهم، وكان المجاهدون العثمانيون قد بدأوا في التحرك لنجدة اخوانهم المسلمين، وفي نفس الوقت كانوا يغنمون الكثير من الغنائم السهلة الحصول من النصارى، كذلك وصل عددٌ كبير من هؤلاء المجاهدين المسلمين أثناء تشييد الأسطول العثماني، ودخلوا في خدمته بعد ذلك أخذ العثمانيون يستخدمون قوتهم البحرية الجديدة في غرب البحر المتوسط بتشجيع من هؤلاء المجاهدين (4) وهذا الذي كان في وسع السلطان بايزيد الثاني فعله.

لاشك أن تصرفات جم المشينة كانت سبباً أعاق حركة التوسع الإقليمي وعرقلت السلطان بايزيد عن العمل الخلاق، وأصبح اهتمام السلطان منصباً على تعقب أخبار أخيه والعمل على التخلص منه بكافة الوسائل (5).

وعلى العموم، فقد استطاع بايزيد أن يحرز نصراً بحرياً على البنادقة في خليج لبانتوا ببلاد اليونان عام 499م/ 905هـ وفي العام التالي استولى على مدينة لبانتو وباستيلاء العثمانيين على

(1) انظر: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها (903/2).

(2) انظر: علاقات بين الشرق والغرب، عبدالقادر أحمد ، ص256.

(3) انظر: خلاصة تاريخ الأندلس لشكيب ارسلان، ص213.

(4) انظر: في أصول التاريخ العثماني ، ص74.

(5) انظر : الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي ، ص52.

مواقع البنادقة في اليونان، أقام البابا (إسكندر السادس) بناءً على طلب البنادقة - حلفاً ضد العثمانيين مكوناً من فرنسا واسبانيا. وتعرض العثمانيون لهجوم الأساطيل الثلاثة: الفرنسي والإسباني والبابوي واستطاعت الدولة العثمانية أن تعقد صلحاً مع البنادقة(1).

وكان بايزيد ميالاً للسلام، ونشطت العلاقات الدبلوماسية بين الدولة العثمانية وأوروبا، وكانت من قبل مقصورة على البلاد الواقعة على حدودها، ولكنها أقيمت بينها وبين البابوية وفلورنسا ونابلي وفرنسا وعقد صلحاً مع البنادقة والمجر.

اهتم بايزيد بإنشاء المباني العامة وفعل الخيرات، فبنى الجوامع والمدارس والعمارات ودور الضيافة والتكايا والزوايا والمستشفيات للمرضى والحمامات والجسور ورتب للمفتي ومن في رتبته من العلماء في زمنه كل عام عشرة آلاف عثماني ولكل واحد من مدرسي المدارس السلطانية ما بين سبعة آلاف وألفين عثماني، وكذلك رتب لمشايخ الطرق الصوفية ومريديهم ولأهل الزوايا كل واحد على قدر رتبته، وصار ذلك أمراً جارياً ومستمراً، وكان يحب أهل الحرمين الشريفين مكة والمدينة(2).

وحدثت في زمانه زلازل عظيمة في القسطنطينية فأخربت ألفاً وسبعين بيتاً ومئة وتسعة جوامع، وجانباً عظيماً من القصور وأسوار المدينة، وعطلت مجاري المياه، وصعد البحر إلى البر، فكانت أمواجه تتدفق فوق الأسوار، ولبثت تلك الزلزلة تحدث يوماً مدة 45 يوماً، وما أن سكنت الأمور كلف السلطان 15 ألفاً من العمال بإصلاح ما تهدم(3).

عاش سبعة وستين عاماً، وكان قوي البنية، أحذب الأنف، أسود الشعر رقيق الطبع، محباً للعلوم، مواظباً للدرس، وشاعراً أديباً، ورعاً تقياً، يقضي العشرة الأخيرة من شهر رمضان في

(1) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، ص52.

(2) المصدر السابق نفسه، ص53.

(3) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان ، يوسف آصاف، ص66.

العبادة والذكر والطاعة، وكان بارعاً في رمي السهام، ويباشر الحروب بنفسه (1) وكان يجمع في كل منزل حلّ من غزواته ما على ثيابه من الغبار ويحفظه، ولما دنا أجل موته، أمر بذلك الغبار فضرب منه لبنة صغيرة وأمر أن توضع معه في القبر تحت خده الأيمن، ففعل ذلك فكأنه أراد بذلك فحوى قوله ρ : " من أغبرت قدماه في سبيل الله حرم الله عليه النار ". وكان مدة ملكه إحدى وثلاثين سنة إلا أياماً (2)

كان السلطان بايزيد الثاني عالماً في العلوم العربية والإسلامية، كما كان عالماً في الفلك، مهتماً بالأدب مكرماً للشعراء والعلماء وقد خصص مرتبات لأكثر من ثلاثين شاعراً وعالماً، كما كان هو نفسه شاعراً يمتاز شعره بعمق الإحساس بعظمة الله وقدرته وكانت له أشعار في الحكمة توصي بالاستيقاظ من نوم الغفلة والنظر في جمال الطبيعة التي أبدعها الله وفي ذلك يقول:

استيقظ من نوم الغفلة وانظر إلى الزينة في الأشجار

انظر إلى قدرة الله الحق .. انظر إلى رونق الأزهار

وافتح عينيك لتشهد حياة الأرض بعد الممات (3)

في 18 صفر 918هـ الموافق 125 ابريل 1512م ترك حكم الدولة لابنه سليم الأول (918-926هـ / 1512-1519م) وذلك بدعم من الجيش، الذي كان ينظر إليه على أنه الأمل المرتجى في بعث النشاط الحربي للدولة العثمانية بصورة أوسع ودفع حركة الفتوحات إلى الأمام، ولذلك بادر الجيش إلى معارضة والده وتولية ابنه سليم مكانه (4).

وتوفي السلطان بايزيد الثاني وهو ذاهب إلى ديمتوقة (5) فنقل نعشه إلى إسلامبول حيث دفن

(1) المصدر السابق نفسه، ص66.

(2) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان للقرماني ، ص36.

(3) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص249.

(4) انظر: قيام الدولة العثمانية ، ص58.

(5) ديمتوقة = ديموتيقا.

المبحث الثاني
السلطان سليم الأول
(918 - 926 هـ / 1512 - 1520 م)

(1) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان ، يوسف آصاف، ص66.

ترجع السلطان سليم الأول على العرش العثماني في عام 918هـ، وقد أظهر سليم منذ بداية حكمه ميلاً إلى تصفية خصومه ولو كانوا من إخوته وأبنائهم، وكان يحب الأدب والشعر الفارسي والتاريخ ورغم قسوته فإنه كان يميل إلى صحبة رجال العلم وكان يصطحب المؤرخين والشعراء

إلى ميدان القتال ليسجلوا تطورات المعارك وينشدوا القصائد التي تحكي أمجاد الماضي (1).

عندما ارتقى السلطان سليم الأول العرش العثماني، كانت الدولة العثمانية قد وصلت إلى مفترق الطرق، هل تظل على هذا الوضع وهذا القدر من الاتساع دولة بلقانية أناضولية؟ أو تستمر في التوسع الإقليمي في أوربا؟ أو تتجه نحو المشرق الإسلامي؟

والواقع أن السلطان سليم الأول قد أحدث تغييراً جذرياً في سياسة الدولة العثمانية الجهادية فقد توقف في عهد الزحف العثماني نحو الغرب الأوربي أو كاد أن يتوقف واتجهت الدولة العثمانية اتجاهاً شرقياً نحو المشرق الإسلامي وقد ذكر بعض المؤرخين الأسباب التي أدت إلى تغير السياسة العثمانية منها:

1- التشبع العسكري العثماني في أوربا، إذ يرى أصحاب هذا الرأي أن الدولة العثمانية كانت قد بلغت مرحلة التشبع في فتوحاتها الغربية بنهاية القرن الخامس عشر، وأنه كان عليها في أوائل القرن السادس عشر أن تبحث عن ميادين جديدة للنشاط والتوسع وهذا الرأي يخالفه الصواب لأن الفتوحات العثمانية لم تنقطع تماماً من الجبهة الغربية، ولكن لاريب في أن مركز الثقل في التوسع العثماني قد انتقل نهائياً من الغرب إلى الشرق (2) ليس بسبب التشبع كما تقول بعض المصادر غير المدركة للواقع.

2- كان تحرك الدولة العثمانية نحو المشرق من أجل إنقاذ العالم الإسلامي بصورة عامة والمقدسات الإسلامية بصورة خاصة من التحرك الصليبي الجديد من جانب الإسبان في البحر

(1) انظر: في أصول التاريخ العثماني، ص 76.

(2) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ص 26.

المتوسط والبرتغاليون في المحيط الهندي وبحر العرب والبحر الأحمر، الذين أخذوا يطوقون العالم الإسلامي، ويفرضون حصاراً اقتصادياً حتى يسهل عليهم ابتلاعه(1).

3- سياسة الدولة الصفوية في إيران والمتعلقة بمحاولة بسط المذهب الشيعي في العراق وآسيا الصغرى، هي التي دفعت الدولة العثمانية إلى الخروج إلى المشرق العربي لحماية آسيا الصغرى بصفة خاصة والعالم السني بصفة عامة(2).

إن سياسة الدولة العثمانية في زمن السلطان سليم سارت على هذه الأسس ألا وهي القضاء على الدولة الصفوية الشيعية، وضم الدولة المملوكية، وحماية الأراضي المقدسة وملاحقة الأساطيل البرتغالية ودعم حركة الجهاد البحري في الشمال الأفريقي للقضاء على الأسباب ومواصلة الدولة جهادها في شرق أوروبا.

أولاً: محاربة الدولة الصفوية الشيعية:

يعد نسب الصفويين إلى الشيخ صفي الدين الأردبيلي 650-735هـ/1252-1334م الجد الأكبر للشاه اسماعيل الصفوي مؤسس الدولة الصفوية.

وقد ألتف حول الشيخ صفي الدين الأردبيلي عدد كبير من الاتباع المريدين نتيجة للدعوة القوية او الدعاية المؤثرة التي قام بها هو وأتباعه من المتصوفة وال دراويش الذين استطاعوا نشر دعوتهم لا في إيران وحدها وإنما في بعض أقاليم الدولة العثمانية وفي العراق وبلاد الشام(3).

استطاع الشيخ صفي الدين عن طريق إحدى الفرق التي تزعمها أن يشق طريقه في المجتمع الإيراني كما استطاع أن يكسب تأييد ومساندة الكثيرين من الإيرانيين مما أدى إلى تحول هذه الفرقة إلى الدعوة للمذهب الشيعي حيث أشيع أن الشيخ صفي الدين وأولاده ينتمون إلى علي بن

(1) المصدر السابق نفسه، ص26.

(2) انظر: الاسلام في آسيا منذ الغزو المغولي، د. محمد نصر، ص240.

(3) انظر: الاسلام في آسيا منذ الغزو المغولي، ص240.

أبي طالب τ ومن ثم لهم الحق في المطالبة بالحكم وكان صفي الدين قد لجأ الى التقية إذ كان مظهره يوحي بأنه سني الاتجاه بل إنه من أتباع المذهب الشافعي ولما تمهدت السبل أمام هذه الدعوة الشيعية أعلن أحد أحفاده الشاه اسماعيل الدعوة الشيعية، بل إن السلطان حيدر أكد صلة نسبه بالامام موسى الكاظم ومن ثم أصبحت الدولة الصفوية في ايران تعد نفسها من آل بيت رسول الله ρ (1).

صمم اسماعيل الصفوي فرض المذهب الشيعي على شعبه وأعلنه مذهباً رسمياً للدولة في ايران، وقضى بالقوة المسلحة على معارضيه واستطاع الصفويون أن يجمعوا حولهم أعداداً غفيرة من الاتباع والمريدين، وتكاثفت الدعاية الشيعية القوية سواء في بقايا (العبيدين) الفاطميين في مصر أو الإسماعيلية أو الأسرة الصفوية نفسها في اعلان المذهب الشيعي في ايران لتتحول كلها من بعد ذلك من المذهب السني الى مذهب الدولة الجديدة وهو المذهب الشيعي.

وكانت ردود الفعل عنيفة خاصة وأن كثيرين من سكان المدن الرئيسية في ايران مثل تبريز كانوا من السنة، بل أن علماء الشيعة أنفسهم كانوا يخشون على المذهب من رفض السنة له وإعلان عصيانهم على الحاكم الصفوي شيعي المذهب.

بذل الشاه اسماعيل الصفوي جهوداً ضخمة في فرض المذهب الشيعي في ايران، فعلى الرغم من التهيئة الروحية للدعوة الشيعية بين سكان ايران الذين كانوا في غالبيتهم من السنة فقد لاقى المذهب اسماعيل الصفوي ان يواجه هذا الموقف بتجنيد العناصر الشيعية للغرض هذا ووجد منها تأييداً ومناصرة واستغل حميتهم لمناصرتهم فدفعهم لضرب معارضيه والتأكيد لمذهبه في ايران.

لجأ السلطان اسماعيل الصفوي الى سياسة ماهرة في تأكيد دعوته السياسية والمذهبية فاعتمد على قبائل التريلباش التركية الأصل لتكون نواة لقوته العسكرية ذلك أن المجتمع الايراني في ذلك الوقت كان يتكون من عناصر مختلفة نتيجة لموجات الغزو المتعاقبة على البلاد مما كان يصعب

(1) انظر: الاسلام في آسيا منذ الغزو المغولي ، د.محمد نصر، ص240.

معه صهر كل هذه العناصر في بوتقة واحدة لقد استطاع اسماعيل الصفوي بهذه السياسة أن يجند الطاقة المذهبية عند هذه العناصر لتكون المحور الذي تلتف حوله وتذوب فيها الفوارق العرقية وتحل محلها وحدة مذهبية يمكن له أن يقيم عليها الكيان السياسي الجديد(1).

لقد كان اسماعيل الصفوي شرساً في حروبه شديد الفتك بمعارضيه وخصوصاً إن كانوا من أهل السنة (... افتتح ممالك العجم جميعها وكان يقتل من ظفر به وما نهبه من الاموال قسمه بين أصحابه ولا يأخذ منه شيئاً ومن جملة ما ملك تبريز واذربيجان وبغداد وعراق العجم وعراق العرب خراسان وكاد أن يدعي الربوبية وكان يسجد له عسكريه ويأتمرون بأمره قال قطب الدين الحنفي في الأعلام انه قتل زيادة على ألف ألف نفس قال بحيث لا يعهد في الجاهلية ولا في الاسلام ولا في الأمم السابقة من قبل في قتل النفوس ما قتله شاه اسماعيل وقتل عدة من اعظم العلماء بحيث لم يبق من أهل العلم أحد من بلاد العجم واحرق جميع كتبهم ومصاحفهم وكان شديد الرفض بخلاف آباءه ومن جملة تعظيم أصحابه له أنه سقط مرة منديل من يده الى البحر وكان على جبل شاهق مشرف على ذلك البحر فرمى بنفسه خلف المنديل فوق ألف نفس تحطموا وتكسروا وغرقوا وكانوا يعتقدون فيه الألوهية ذكر ذلك القطب المذكور ولم تنهزم له راية حتى حاربه السلطان سليم المتقدم ذكره فهزمه...)(2).

لقد تزعم الشاه اسماعيل المذهب الشيعي وحرص على نشره ووصلت دعوته الى الأقاليم التابعة للدولة العثمانية وكانت الأفكار والعقائد التي تنشر في تلك الأقاليم يرفضها المجتمع العثماني السني حيث كان من عقائدهم الفاسدة، تكفير الصحابة، لعن العصر الأول، تحريف القرآن الكريم، وغير ذلك من الأفكار والعقائد فكان من الطبيعي أن يتصدى لتلك الدعوة السلطان سليم زعيم الدولة السنية ، فأعلن في اجتماع لكبار رجال الدولة والقضاة ورجال السياسة وهيئة العلماء في

(1) انظر: الاسلام في آسيا منذ الغزو المغولي ، ص342، 243.

(2) البدر الطالع (271/1).

عام 920هـ/1514م أن إيران بحكوماتها الشيعية ومذهبها الشيعي يمثلان خطراً جسيماً لا على الدولة العثمانية بل على العالم الاسلامي كله وأنه لهذا يرى الجهاد المقدس ضد الدولة الصفوية وكان رأي السلطان سليم هو رأي علماء أهل السنة في الدولة، لقد قام الشاه اسماعيل عندما دخل العراق بذبح المسلمين السنيين على نطاق واسع ودمر مساجدهم ومقابرهم وازداد الخطر الشيعي ضرواً في السنوات الاخيرة من عهد السلطان بايزيد وعندما تولى السلطان سليم السلطنة قامت اجهزت الدولة العثمانية الأمنية بحصر الشيعة التابعين للشاه اسماعيل والمناوئين للدولة العثمانية ثم قام بتصفية اتباع الشاه اسماعيل، فسجن وأعدم عدداً كبيراً من انصار الشاه اسماعيل في الاناضول ثم قام بمهاجمة اسماعيل نفسه، فتداولت الرسائل الخشنة بينهما حسب المعتاد، وكتب السلطان سليم رسالة الى اسماعيل الصفوي قال فيها: (... إن علمائنا ورجال القانون قد حكموا عليك بالقصاص يا اسماعيل، بصفتك مرتدًا، وأوجبوا على كل مسلم حقيقي أن يدافع عن دينه، وأن يحطم الهراطقة في شخصك، أنت وأتباعك البلهاء ، ولكن قبل أن تبدأ الحرب معكم فاننا ندعوكم لحظيرة الدين الصحيح قبل أن نشهر سيوفنا وزيادة على ذلك فإنه يجب عليك أن تتخلى عن الاقاليم التي اغتصبتها منا اغتصباً ، ونحن حينئذ على استعداد لتأمين سلامتك..)(1).

وكان رد اسماعيل الصفوي على هذا الخطاب ان بعث للسلطان العثماني هدية من الافيون قائلاً انه اعتقد ان هذا الخطاب كتب تحت تأثير المخدر (2).

كذلك جاء في خطاب آخر مشابه: (... أنا زعيم وسلطان آل عثمان ، أنا سيد فرسان هذا الزمان، أنا الجامع بين شجاعة وبأس أفريدون الحائز لعز الاسكندر، والمتصف بعدل كسرى، أنا كاسر الأصنام ومبيد أعداء الاسلام أنا خوف الظالمين وفزع الجبارين المتكبرين، أنا الذي تذلل أمامه الملوك المتصفون بالكبر والجبروت، وتتحكم لدى قوتي صوالج العزة والعظمت، أنا الملك

(1) انظر: جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس، ص435.

(2) المصدر السابق نفسه، ص435.

الهمام السلطان سليم خان بن السلطان الأعظم مراد خان، أتتازل بتوجيه إليك أيها الأمير اسماعيل، يازعيم الجنود الفارسية .. ولما كنت مسلماً من خاصة المسلمين وسلطاناً لجماعة المؤمنين السنيين الموحدين.. واذا قد افتى العلماء والفقهاء الذين بين ظهرانينا بوجوب قتلك ومقاتلة قومك فقد حق علينا أن ننشط لحربك وتخلص الناس من شركك(1).

أعد السلطان سليم الأول لمعركة فاصلة مع الدولة الصفوية حيث وصل الى استانبول وبدأ في التحرك من استانبول تجاه الأراضي الإيرانية وبعد أن غادر اسكوتراي أرسل يهدد الشاه اسماعيل الصفوي في رسالة يقول فيها: (بسم الله الرحمن الرحيم قال الله الملك العلام ان الدين عند الله الاسلام ومن يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين، ومن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره الى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، اللهم اجعلنا من الهادين غير المضلين ولا الضالين وصلي الله على سيد العالمين محمد المصطفى النبي وصحبه أجمعين...)(2).

وفي نفس الوقت أرسل السلطان سليم الأول الى أحد افراد أسرة آق قويونلو وهو محمد بن فرج شاه بيك يحثه على الاشتراك معه في قتال اسماعيل الصفوي، وبدأت حرب الاستطلاع بين المعسكرين المتحاربين، إلا أن سليم الأول قد بدأ التحرك نحو الدخول في القتال حيث عسكر في صحراء ياس جمن على مقربة من أنزبيجان، ووصلت الأنباء التي أتت بها عيون ياس جمن تقول أن الشاه اسماعيل الصفوي لا ينوي القتال وأنه يؤخره الى ان يحل فصل الشتاء حتى يهلك العثمانيون برداً وجوعاً(3).

وبدأ سليم الأول يسرع في تحريك الصراع بينه وبين الشاه اسماعيل فارسل إليه للمرة الثانية

(1) فتح العثمانيين عدن، محمد عبداللطيف البحراري، ص113.

(2) انظر: الاسلام في آسيا منذ الغزو المغولي، ص246.

(3) المصدر السابق نفسه، ص246.

وأرسل مع رسالته خرقة ومسبحة وكشكولاً وعصارم فرق الدراويش وهو بهذا يقصد الى أن يذكره بأصله، وبأهل الأسرة الصفوية التي لاتستطيع الصمود في الحرب، ومع ذلك فقد رد الشاه اسماعيل بطلب المهادنة وتجديد علاقات السلم والصدقة بين الدولتين، ولم يقبل سليم الأول هذا من شاه الصفويين، وأهان رسوله وأمر بقتل رسول الشاه الصفوي وقد أدرك سليم الأول أن خطة أعدائه تتلخص في المهادنة والتباطؤ لتأجيل موعد اللقاء حتى يحين فصل الشتاء ، واستمر السلطان سليم في تحركه ووصلته الأخبار أن اسماعيل الصفوي قد بدأ الاستعداد للقتال والحرب بل إنه على وشك الوصول الى صحراء جالديران، فبدأ سليم الأول المسير نحوها فوصلها في أغسطس عام 1514م واحتل المواقع الهامة بها واعتلى الاماكن الهضبية فيها مما مكنه من ايقاع الهزيمة باسماعيل الصفوي وجنوده وكانت هزيمة ساحقة حلت بالجيش الصفوي الشيعي على ارضه(1).

واضطر اسماعيل الى الفرار في نفس الوقت الذي كان سليم الأول يستعد فيه للدخول الى تبريز عاصمة الصفويين.

ودخل سليم الاول تبريز وحصر أموال الشاه الصفوي ورجال القلزياس واتخذها مركزاً لعملياته الحربية(2).

لم ينته الصراع بين السنة في الدولة العثمانية والشيعية في ايران بانتهاء معركة جالديران وانما ازداد العداء حدة وازداد الصراع ضراوة وظل الطرفان يتربص كل منهما بالآخر.

لقد انتصر السلطان سليم بفضل الله تعالى وعقيدته السليمة ومنهجه الصافي، واسلحته المتطورة وجيشه العقدي المتدرب، وعاد الى بلاده بعد أن استولى على كردستان وديار بكر، ومرغش وأبلسين وباقي أملاك دلفاود، وبذلك صارت الأناضول مأمونة من الاعتداء من الشرق، وصارت

(1) انظر: الاسلام في آسيا منذ الغزو المغولي ، ص247، 248.

(2) المصدر السابق نفسه، ص247.

الطرق الى أذربيجان والقوقاز مفتوحة للعثمانيين (1).

وما أن هزمت فارس في موقعة جالديران السابقة أمام السلطان سليم حتى كان الفرس أنفسهم أكثر استعداداً وتقبلاً من قبل للتحالف مع البرتغاليين وبدأت تلك الاستعدادات للارتباط بالبرتغال عقب استيلاء البوكرك على هرمز، عندها وصل سفير من لدى شاه اسماعيل وتم الدخول في اتفاقية محدودة مابين البرتغاليين والصفويين نصت على مايلي: أن يقدم البرتغال اسطوله ليساعد الفرس في غزو البحرين والقطيف كما يقدم البرتغال المساعدة للشاه اسماعيل لقمع الثورة في مكران وبلوجستان وأن يكون الشعبان البرتغالي والفارسي اتحاداً ضد العثمانيين ، إلا أن وفاة البوكرك التي أتت بعد ذلك قد أعاق ذلك التحالف (2).

لقد أظهر البرتغاليون تودداً للشاه اسماعيل قبل معركة جالديران وكانوا يهدفون من وراء توددهم للصفويين أن تتاح لهم فرصة تحقيق أهدافهم في إيجاد مراكز لهم في الخليج العربي، وكانوا يدركون أنهم إذا لم يكسبوا ود الصفويين فإن تعاون قوتهم مع القوى المحلية في الخليج قد يؤدي الى فشل البرتغاليين في تحقيق أهدافهم ولاسيما أن مشروعاتهم في إيجاد مراكز نفوذ في البحر الأحمر منيت بالفشل الى حد كبير (3).

وتبدو سياسة البرتغال الرامية الى التحالف مع الفرس في رسالة ارسلها "البوكيرك" الى الشاه اسماعيل الصفوي" جاء فيها:

(إني أقدر لك احترامك للمسيحيين في بلادك، وأعرض عليك الأسطول والجند والأسلحة لاستخدامها ضد قلاع الترك في الهند، وإذا أردت أن تنقض على بلاد العرب أو تهاجم مكة فستجدني بجانبك في البحر الأحمر أمام جدة أو في عدن أو في البحرين أو القطيف أو البصرة،

(1) انظر: جهود العثمانيين لإنقاذ الاندلس، ص436.

(2) المصدر السابق نفسه، ص437.

(3) انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ، ص63.

وسيجدني الشاه بجانبه على امتداد الساحل الفارسي وسأنفذ له كل ما يريد(1).

لقد أدت هزيمة الشاه اسماعيل امام العثمانيين الى حرصه الشديد للتحالف مع النصارى وأعداء الدولة العثمانية ولذلك تحالف مع البرتغاليين وأقرّ استيلاءهم على هرمز في مقابل مساعدته على غزو البحرين والقطيف الى جانب تعهدهم بمساندتهم ضد القوات العثمانية وقد تضمن مشروع التحالف البرتغالي الصفوي تقسيم المشرق العربي المناطق نفوذ بينهما حيث اقترح أن يحتل الصفويون مصر والبرتغاليون فلسطين(2).

يقول الدكتور عبدالعزيز سليمان نواز: (... إن الشاه لم يتوقف عن البحث عن حلفاء ضد الدولة العثمانية التي أصبحت القوة الكبرى التي تحول بينه وبين الوصول الى البحر المتوسط وكان مستعداً لان يتحالف حتى مع البرتغاليين أشد القوى خطراً على العالم الاسلامي حينذاك. وهكذا بينما كان البرتغاليين يخشون من وجود جبهة اسلامية قوية ضدهم في المياه الاسلامية ، وجدوا أن هناك من يريد أن يتعاون معهم.

ومع أن ملك هرموز -الجزيرة الصغيرة التي أضررت بشدة في اقتصادياتها التجارية بمجيء البرتغاليين المريعة، إلا أن الشاه وضع مصالحه الخاصة وحقده الشديد على الاتراك العثمانيين في مقدمة اية تسوية او تحالف مع البرتغاليين، فلا غرو أن وافق على أن تظل هرموز تحت السيطرة البرتغالية في مقابل حصوله على الاحساء ولكن حتى هذه الفرصة لم يتحها البرتغاليون لحليفهم الشاه. وكانت النتيجة أن ساعدت سياسة الشاه هذه على تقوية التسلط البرتغالي على الخليج..(3).

اكتفى السلطان العثماني بانتصاره في جالديران واضطر الى الرجوع الى بلاده وترك مطاردة

(1) المصدر السابق نفسه، ص63.

(2) المصدر السابق نفسه، ص64.

(3) الشعوب الاسلامية، ص226.

- 1- حدوث نوع من التمرد بين صفوف ضباط الجيش العثماني على متابعة الحرب في فارس بعد أن حقق السلطان هدفه واطع شوكة اسماعيل الصفوي.
 - 2- خوف السلطان سليم من أن يقع جيشه في كمائن للصفويين إذا توغل في بلادهم.
 - 3- رأى أن يهتم بالقضاء على المماليك لأن جهاز أمن الدولة العثمانية ضبط رسائل بين المماليك والصفويين تدل على وجود تعاون ضد الدولة العثمانية(1).
- وكانت نتيجة الصراع بين العثمانيين والصفويين:
- 1- ضم شمالي العراق ، وديار بكر الى الدولة العثمانية.
 - 2- أمن العثمانيون حدود دولتهم الشرقية.
 - 3- سيطرة المذهب السني في آسيا الصغرى بعد أن قضى على اتباع وأعوان اسماعيل الصفوي ثم هزيمة الشيعة في جالديران وهذا أشعر الدولة بمسؤوليتها تجاه العالم الاسلامي ، وبخاصة بعد أن أعلن نفسه حامياً للمسلمين(2).
- 4- شعور الدولة العثمانية بضرورة القضاء على القوة الثانية ألا وهي دولة المماليك(3).
 - 5- أثر الصدام المسلح بين الدولة العثمانية والصفويين على قيمة إيرادات جمارك الدولة العثمانية من الطرق القديمة في الأناضول. لقد هبطت الإيرادات بعد سنة 918هـ/1512م نتيجة الحروب القائمة بين الصفويين والعثمانيين، إذ أقفلت معظم الطرق التجارية القديمة، كما سادها الاخطار ، وصار التبادل التجاري بين الاقاليم الايرانية والعثمانية محدوداً، إذ انخفض ايراد الدولة

(1) الشعوب الإسلامية ، ص225.

(2) انظر: تاريخ الدولة العثمانية ، د. علي حسوان ، ص56،57.

(3) انظر: تاريخ العرب مجموعة من العلماء، ص3.

العثمانية من الحرير الفارسي (1).

- 6- استفاد البرتغاليون من صراع الصفويين مع الدولة العثمانية وحاولوا أن يفرضوا على البحار الشرقية حصاراً عاماً على كل الطرق القديمة بين الشرق والغرب (2).
- 7- دخل السرور على الأوروبيين بسبب الحروب بين العثمانيين والصفويين وعمل الأوروبيون على الوقوف مع الشيعة الصفوية ضد الدولة العثمانية لإرباكها حتى لا تستطيع أن تستمر في زحفها على أوروبا (3).

ثانياً: ضم دولة المماليك:

بعد أن تغلب السلطان سليم الأول على الصفويين في شمال وغربي إيران بدأ السلطان العثماني يستعد للقضاء على دولة المماليك ولقد ساهمت عدة أسباب في توجه العثمانيين لضم الشام ومصر منها:

1- موقف المماليك العدائي من الدولة العثمانية حيث قام السلطان قانصوه الغوري (907-922هـ/1501-1516م) سلطان الدولة المملوكية بالوقوف مع بعض الأمراء العثمانيين الفارين من وجه السلطان سليم وكان في مقدمتهم الأمير أحمد أخ السلطان سليم، وأرادت السلطات المملوكية أن تتخذ من وجود هؤلاء الأمراء لديها أداة لإثارة مزيد من المتاعب في وجه السلطان سليم، كما كان الموقف السلبي للدولة المملوكية في وقوفها المعنوي مع الشاه اسماعيل الصفوي فهي لم تلتزم الحيادة التامة بين العثمانيين والصفويين، وهي لم تتخذ موقفاً عدائياً صريحاً من السلطان سليم.

2- الخلاف على الحدود بين الدولتين في طرسوس في المنطقة الواقعة بين الطرف الجنوبي

(1) انظر: جهود العثمانيين لاسترداد الأندلس، ص 437.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 438.

(3) انظر: القوة العثمانية بين البر والبحر، د. نبيل رضوان، ص 111.

الشرقي لآسيا الصغرى وبين شمالي الشام. فقد تناثرت في هذه المنطقة إمارات وقبائل تأرجحت في ولائها بين الدولة العثمانية ودولة المماليك. وكان هذا التأرجح مبعث اضطراب في العلاقات بين الدولتين ومصدر نزاع مستمر. وأراد السلطان سليم الأول بادئ ذي بدء أن يحسم مسألة الحدود بالسيطرة التامة على منطقتها وسكانها.

3- تفشي ظلم الدولة المملوكية بين الناس ورغبة أهل الشام وعلماء مصر في التخلص من الدولة المملوكية والانضمام الى الدولة العثمانية، فقد اجتمع العلماء والقضاة والأعيان والأشراف وأهل الرأي مع الشعب، وتباحثوا في حالهم، ثم قرروا أن يتولى قضاة المذاهب الأربعة والأشراف كتابة عريضة، نيابة عن الجميع، يخاطبون فيها السلطان العثماني سليم الأول ويقولون أن الشعب السوري ضاق "بالظلم" المملوكي وإن حكام المماليك "يخالفون الشرع الشريف"، وإن السلطان إذا قرر الزحف على السلطنة المملوكية، فإن الشعب سيرحب به، وتعبيراً عن فرحته، س يخرج بجميع فئاته وطوائفه الى عينته -البعيدة عن حلب- ولن يكتفوا بالترحيب به في بلادهم فقط، ويطلبون من سليم الأول أن يرسل لهم رسولاً من عنده، وزيراً ثقة، يقابلهم سراً ويعطيهم عهد الأمان، حتى تطمئن قلوب الناس(1).

ولقد ذكر الدكتور محمد حرب أن هذه الوثيقة موجودة في الأرشيف العثماني في متحف طوب كابي في استانبول، رقم 11634 (26) وبين أن ترجمة الوثيقة من العثمانية الى العربية كما يلي : (يقدم جميع أهل حلب: علماء ووجهاء وأعيان وأشراف وأهالي، بدون استثناء طاعتهم وولاءهم - طواعية- لمولانا السلطان عزنصره -وبإذنهم جميعاً، كتبنا هذه الورقة لترسل الى الحضرة السلطانية العالية. إن جميع أهل حلب، وهم الموالون لكم، يطلبون من حضرة السلطان، عهد الأمان، وإذا تفضلتم بالتصريح فإننا نقبض على الشراكسة، ونسلمهم لكم، أو نطردهم، وجميع أهل حلب مستعدون لمقابلتكم واستقبالكم، بمجرد أن تضع أقدامكم في أرض عينتاب، خلصنا أيها

(1) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، د. محمد حرب، ص 170.

السلطان من يد الحكم الشركسي، احمنا أيضاً من يد الكفار، قبل حضور التركمان، وليعلم مولانا السلطان، إن الشريعة الاسلامية ، لاتأخذ مجراها هنا، وهي معطلة، إن الممالك إذا اعجبهم أي شيء ليس لهم، يستولون عليه، سواء كان هذا الشيء مالاً أو نساءً أو عيالاً ، فالرحمة لاتأخذهم بأحد، وكل منهم ظالم، وطلبوا منا رجلاً من ثلاثة بيوت، فلم نستجب لطلبهم، فأظهروا لنا العدا، وتحكموا فينا ، (ونريد) قبل أن يذهب التركمان أن يقدم علينا وزيراً من عندكم أيها السلطان صاحب الدولة، مفوض بمنح الأمان لنا ولأهلينا ولعيلانا، أرسلوا لنا رجلاً حائزاً على ثقمتكم يأتي سرّاً ويلتقي بنا ويعطينا عهد الأمان، حتى تطمئن قلوب هؤلاء الفقراء وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله أجمعين(1).

أما علماء وفقهاء مصر فقد ذكر عبدالله بن رضوان في كتابه: تاريخ مصر (مخطوط رقم 4971) بمكتبة بايزيد في استانبول ، إن علماء مصر (وهم نفس الشعب المصري وممثلوه) يلتقون سرّاً بكل سفير عثماني يأتي الى مصر، ويقصون عليه (شكواهم الشريف) و (يستنهضون عدالة السلطان العثماني) لكي يأتي ويأخذ مصر).

لقد كان علماء مصر يرسلون السلطان سليم الأول لكي يقدم الى مصر على رأس جيشه ، ليستولي عليها، ويطردها منها الجراكسة (المماليك)(2).

4- رأى علماء الدولة العثمانية بأن ضم مصر والشام يفيد الأمة في تحقيق أهدافها الاستراتيجية، فإن الخطر البرتغالي على البحر الأحمر والمناطق المقدسة الاسلامية وكذلك خطر فرسان القديس يوحنا في البحر المتوسط كان على رأس الأسباب التي دعت السلطان العثماني لأن يتوجه نحو الشرق، فتحالف مع القوات المملوكية لهذا الغرض في البداية، ثم تحمل العبء

(1) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص171،170.

(2) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص169.

الكامل في مقاومة هذه الأخطار بعد سقوط الحكم المملوكي (1).

ونستدل على ذلك بما قاله السلطان سليم الأول العثماني لطومان باي آخر سلاطين المماليك بعد أن هزمه في معركة الريدانية (أنا ما جئت عليكم إلا بفتوى علماء الأعصار والأمصار ، وأنا كنت متوجهاً الى جهاد الرافضة (ويعني الصفويين) والفجار (ويعني بهم البرتغاليين وفرسان القديس يوحنا) ، فلما بغى أميركم الغوري وجاء بالعساكر الى حلب واتفق مع الرافضة واختار أن يمشي الى مملكتي التي هي مورث آبائي وأجدادي، فلما تحققت تركت الرافضة، ومشيت إليه(2).

أ- وقوع الصدام:

بعد التطورات التي حدثت بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية كان على السلطان المملوكي قانصوه الغوري أن يتخذ إحدى المواقف تجاه الحدث اما:

1- ان يأخذ جانب العثمانيين ضد الصفويين.

2- ان يأخذ جانب الصفويين ضد العثمانيين.

3- ان يقف على الحياد بين الطرفين.

وفضل الغوري ان يقف على الحياد في ظاهره إلا أن المخابرات العثمانية عثرت على خطاب تحالف سري يؤكد العلاقة الخفية بين المماليك والفرس والخطاب محفوظ في أرشيف متحف طوب قابو في إستانبول.

وكان السلطان سليم يريد الكرة على الشيعة الصفوية في بلاد فارس ومع توتر الأحداث رأى السلطان سليم تأمين ظهره وذلك بضم الدولة المملوكية الى أملاكه.

والتقى الجمعان على مشارق حلب في مرج دابق عام 1517م وانتصر العثمانيون وقُتِلَ الغوري

(1) انظر: قراءة جديدة في التاريخ العثماني، ص70.

(2) انظر: قراءة جديدة في التاريخ العثماني ، ص71.

سلطان المماليك وأكرم العثمانيون الغوري بعد مماته وأقاموا عليه صلاة الجنازة ودفنوه في مشارف حلب ودخل سليم حلب ثم دمشق ودُعي له في الجوامع وسُكِّت النقود باسمه سلطان وخليفة (1) ومن الشام أرسل السلطان سليم الى زعيم المماليك في مصر طومان باي على أن يلتزم بالطاعة للدولة العثمانية وكان رد المماليك السخرية برسول السلطان ثم قتله.

وقرر السلطان سليم الحرب وتحرك نحو مصر وقطع صحراء فلسطين قاصداً مصر ونزلت الأمطار على أماكن سير الحملة مما يسرت على الجيش العثماني قطع الصحراء الناعمة الرمال بعد أن جعلتها الأمطار الغزيرة متماسكة يسهل اجتيازها.

يروى المؤرخ سلاحتور صاحب مخطوطة فتح نامه ديار العرب - وكان مصاحباً لسليم - أن سليم الأول كان يبكي في مسجد الصخرة بالقدس بكاءً حاراً وصلى صلاة الحاجة داعياً الله أن يفتح عليه مصر (2).

وحقق العثمانيون انتصاراً ساحقاً على المماليك في معركة غزة ثم معركة الريدانية. وتعود الأسباب التي أدت الى هزيمة المماليك وانتهاء دولتهم وانتصار العثمانيين وعلو نجمهم الى:

1- التفوق العسكري لدى العثمانيين: فسلح المدفعية المملوكي كان يعتمد على مدافع ضخمة ثابتة لا تتحرك، في حين كان سلاح المدفعية العثماني يعتمد على مدافع خفيفة يمكن تحريكها في كل الاتجاهات.

2- سلامة الخطط العسكرية العثمانية: فرغم قطع العثمانيين لمسافات طويلة في سرعة اضطروا إليها ومحاربتهم في ارض يسيطر عليها عدوهم ومباغتتهم للمماليك كل ذلك كان مما يدخل في عوامل النصر، ومن سلامة التخطيط أيضاً استدارة القوات العثمانية من خلف مدافع

(1) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 29.

(2) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص 30.

المماليك الثقيلة الحركة - إذا أريد تحريكها - ودخول هذه القوات العثمانية القاهرة عن طريق المقطم مما شل دور المدفعية المملوكية وأحدث بالتالي الاضطراب في صفوف الجيش المملوكي لتدافعهم بلا انتظام خلف العثمانيين.

3- معنويات الجيش العثماني العالية وتربيته الجهادية الرفيعة واقتناعه بأن حربه عادلة بعكس القوات المملوكية التي فقدت تلك الصفات.

4- حرص الدولة العثمانية على الالتزام بالشرع في جميع نواحي حياتها واهتمامها البالغ بالعدل بين رعايا الدولة، بعكس الدولة المملوكية التي انحرفت عن الشريعة الغراء ومارست الظلم على رعاياها(1).

5- قناعة مجموعة قيادية من أمراء المماليك بالإنضمام لجيش السلطان سليم وكانوا مستعدين للتعاون مع الدولة العثمانية وتحمل مسؤولية الحكم تحت إطار الحكم العثماني ومن أمثال هؤلاء: فاير بك الذي اسند إليه سليم الأول حكم مصر، وجان بردي الغزالي الذي تولى حكم دمشق(2).
لقد تلقى المماليك الهزيمة في سنة 1516 / 1517م وهم في شيخوخة دولتهم ومن آخر صفحة من صفحات تاريخهم كقوة اسلامية كبرى سواء في الشرق الأوسط أو في العالم، فقد كانوا فقدوا حيويتهم وقدرتهم على تجديد شبابهم ، فكان أن زالت دولتهم، وذهبت البلاد التي كانت حكمهم للنفوذ العثماني(3).

وقد نقل الدكتور علي حسون عن الجبرتي من كتابة تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار في المجلد الأول وصفاً لفترة حكم العثمانيين في مصر إبان عهد سلاطينهم العظماء أقتطف بعضاً منها:

(1) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، 31.

(2) انظر: الشعوب الاسلامية ، د. عبدالعزيز نوار، ص93.

(3) المصدر السابق نفسه، ص92.

(... وعادت مصر الى النيابة كما كانت في صدر الاسلام ولما خلاص له (أي السلطان سليم) أمر مصر، عفا عن بقي من الجراكسة وأبنائهم ولم يتعرض لأوقاف السلاطين المصرية بل قرر مرتبات الأوقاف والخيرات والعلوفات وغلل الحرمين والأنبار ورتب للأيتام والمشايخ والمتقاعدين ومصارف القلاع والمرابطين وأبطل المظالم والمكوث والمغارم ولما توفي تولى ابنه الغازي السلطان سليمان عليه الرحمة والرضوان فأسس القواعد وأتم المقاصد ونظم الممالك وآنار الحوالمك ورفع منار الدين وأحمد نيران الكافرين.. لم تزل البلاد منتظمة في سلوكهم ومنقادة تحت حكمهم .. وكانوا في صدر دولتهم من خير من تقلد أمور الأمة بعد الخلفاء المهديين وأشد من ذبّ عن الدين وأعظم من جاهد في المشركين فلذلك أتسعت ممالكه بما فتحه الله على أيديهم وأيدي نوابهم .. هذا مع إغفالهم الأمر وحفظ النواحي والشعور وإقامة الشعائر الاسلامية والسنن المحمدية وتعظيم العلماء وأهل الدين وخدمة الحرمين الشريفين)(1).

ب- مسألة انتقال الخلافة:

إن مسألة انتقال الخلافة الى آل عثمان ترتبط بالفتح العثماني لمصر وقد قيل أن آخر الخلفاء العباسيين في القاهرة قد تنازل لسليم عن الخلافة، فالمؤرخ ابن إياس المعاصر لضم العثمانيين لمصر لم يتطرق إليها، كما أن الرسائل التي أرسلها السلطان سليم الى ابنه سليمان لم ترد فيها أية إشارة لتنازل الخليفة عن لقبه للسلطان، كما أن المصادر المعاصرة لاتشير الى مسألة نقل الخلافة الى آل عثمان الذين لاينتسبون الى الرسول.

إن الواقع التاريخي يقول بأن السلطان سليم الأول أطلق على نفسه لقب "خليفة الله في طول الأرض وعرضها" منذ عام 1514م (920هـ) أي قبل فتحه للشام ومصر وإعلان الحجاز خضوعه لآل عثمان.

فالسلطان سليم وأجداده كانوا قد كسبوا مكانة عظيمة تلائم استعمال لقب الخلافة في الوقت

(1) انظر: تاريخ الدولة العثمانية ، ص63.

الذي كان فيه مركز الخليفة في القاهرة لا يعتد به. كما أن فتوح سليم اكسبته قوة ونفوذاً معنوياً ومادياً وخصوصاً بعد دخول الحرمين الشريفين تحت سلطانه وأصبح السلطان العثماني مقصداً للمستضعفين المسلمين الذين يتطلعون الى مساعدته بعد أن هاجم البرتغاليين المواني الاسلامية في آسيا وإفريقيا. ملخص المبحث أن السلطان سليم لم يكن مهتماً بلقب الخلافة، وكذلك سلاطين آل عثمان من بعده وأن الاهتمام بهذا اللقب قد عاد بعد ضعف الدولة العثمانية(1).

ج- اسباب انهيار الدولة المملوكية:

هناك مجموعة من العوامل تجمعت وساعدت في وضع نهاية لدولة المماليك أهمها:

- 1- عدم تطوير المماليك، اسلحتهم وفنونهم القتالية، فبينما كان المماليك يعتمدون على نظام الفروسية الذي كان سائداً في العصور الوسطى كان العثمانيون يعتمدون على استخدام الاسلحة النارية وبخاصة المدفعية.
- 2- كثرة الفتن والقتال والاضطرابات بين المماليك حول ولاية الحكم مما أدى الى عدم استقرار الحكم في أخرج الأوقات.
- 3- كره الرعايا للسلطين المماليك الذين كانوا يشكلون طبقة استقرائية مترفعة منعزلة عن الشعوب.
- 4- وقوع بعض الانشقاقات بين صفوف المماليك، كما فعل والي حلب "خاير بك وجانبرد الغزالي" مما أدى الى سرعة انهيار الدولة المملوكية.
- 5- سوء الأحوال الاقتصادية، وبخاصة عندما تغيرت طرق التجارة المارة بمصر واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح .
- 6- العامل الجامع للأسباب السابقة ضعف التزام المماليك بمنهج الله ويقابله قوة تمسك

(1) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، ص61،62.

العثمانيين بشرع الله (1).

د- خضوع الحجاز للعثمانيين:

كانت الحجاز تابعة للمماليك وعندما علم شريف مكة بمقتل السلطان الغوري ونائبه طومان باي بادر شريف مكة "بركات بن محمد" الى تقديم السمع والطاعة الى السلطان سليم الأول وسلمه مفاتيح الكعبة وبعض الآثار فأقر السلطان سليم شريف الحجاز بركات باعتباره أميراً على مكة والحجاز، ومنحه صلاحيات واسعة (2).

وبذلك أصبح السلطان سليم خادماً للحرمين الشريفين وأصبحت مكانته أقوى أمام الشعوب الاسلامية وبخاصة أن الدولة أوقفت أوقافاً كثيرة على الاماكن المقدسة، وكانت إيراداتها تصب في خزانة مستقلة بالقصر السلطاني وقد أدى ضم الحجاز الى العثمانيين الى بسط السيادة العثمانية في البحر الأحمر مما أدى الى دفع الخطر البرتغالي عن الحجاز والبحر الأحمر واستمر هذا حتى نهاية القرن الثامن عشر (3).

س- اليمن:

بعد انهزام المماليك قدّم حاكم اليمن المملوكي الجركسي (اسكندر) وفداً الى السلطان سليم ليقيم فروض الولاء والطاعة له فوافق السلطان العثماني على إبقائه في منصبه وكانت اليمن تشكل بعداً استراتيجياً وتعتبر مفتاح البحر الأحمر وفي سلامتها سلامة للأماكن المقدسة في الحجاز وكانت السيطرة العثمانية في بداية الأمر ضعيفة، بسبب الصراعات الداخلية بين القادة والمماليك الى جانب نفوذ الأمامة الزيدية بين قبائل الجبال، هذا فضلاً عن الخطر البرتغالي الذي كان يهدد السواحل اليمنية وهذا دفع السلطان الى ارسال قوة بحرية إلا أنها فشلت بسبب النزاع الذي دب بين

(1) انظر: تاريخ العرب الحديث، مجموعة من العلماء ، ص40.

(2) المصدر السابق نفسه، ص40.

(3) انظر: تاريخ العرب الحديث، ص41.

قائدها "حسين الرومي" متصرف جدة و"الريس سلمان" احد قادة البحر العثمانيين (1).

ثم ارسل السلطان سليمان حملة "سليمان باشا ارناؤطي" سنة 945هـ/1538م وقد ضمت الحملة 74 سفينة و 20.000 شخص وكان هدف الحملة احتلال اليمن وبخاصة عدن ثم اغلاق مضيق باب المندب أمام السفن البرتغالية ودخل العثمانيون عدن عام 946هـ/1539م، وتعزز عام 952هـ/1545م وسقطت صنعاء في قبضتهم عام 954هـ/1547م وتحرك "سلمان باشا" بأسطوله ليستولي على بعض الموانئ العربية في حضرموت ومنها "الشحر ، والمكلا" واجتاح ساحل الحبشة، وسواكن ومصوع على الجانب الغربي من البحر الأحمر 964هـ/1557م.

وقد ظلت اليمن في فترة خضوعها للحكم العثماني (1538-1635م) تتنازعها قوى العثمانيين والأئمة الزيدية، فالعثمانيون لم يستطيعوا أن يضمنوا سيطرة حقيقية على البلاد نتيجة لحركة المقاومة التي تواجههم (2).

وقد ظلت اليمن في فترة هيمنة الدولة العثمانية عليها (1538-1635م) تتنازعها قوى العثمانيين والأئمة الزيدية، فالعثمانيون لم يستطيعوا أن يسيطروا كلياً على البلاد بسبب تمرد بعض القبائل (3).

واستفاد العثمانيون من وجدوهم في اليمن فقاموا بحملات بحرية الى الخليج بقصد تخليصه من الضغط البرتغالي (4).

ثالثاً: الصراع العثماني البرتغالي:

قامت دولة البرتغال في عام 1514م بتحريك حملة على المغرب الأقصى يتزعمها الامير هنري

(1) نفس المصدر السابق ، ص41.

(2) انظر: تاريخ العرب ، مجموعة من الاساتذة، ص41.

(3) المصدر السابق نفسه، ص42.

(4) المصدر السابق نفسه، ص42.

الملاح واستطاعت تلك الحملة أن تحتل ميناء سبتة المغربي، وكان ذلك بداية لسلسلة من الاعمال العدوانية المتتالية⁽¹⁾ ثم واصلت البرتغال حملاتها على الشمال الأفريقي حتى تمكنت من الاستيلاء على اصيل، والعرائش ثم طنجة في عام 1471 للميلاد⁽²⁾. وواصلت بعد ذلك أطماعها في مراكز هامة جداً مثل ميناء "أسفى وأغادير، وأزمورة، وماسة"⁽³⁾.

وأما عن توجه البرتغال الى المحيط الأطلسي ومحاولتهم الإلتفاف حول العالم الاسلامي فقد كان العمل مدفوعاً بالدرجة الاولى بدوافع صليبية شرسة ضد المسلمين ، حيث اعتبرت البرتغال انها نصيرة المسيحية وراعتها ضد المسلمين ، حيث اعتبرت قتال المسلمين ضرورة ماسة وصارمة ورأت الاسلام هو العدو اللدود الذي لا بد من قتاله في كل مكان⁽⁴⁾.

وكان الأمير هنري الملاح شديد التعصب للنصرانية عظيم الحقد على المسلمين وقد تحصل هذا الأمير من البابا نيقولا الخامس حقاً في جميع كشوفه حتى بلاد الهند، حيث قال : (إن سرورنا العظيم إذ نعلم أن ولدنا هنري أمير البرتغال، إذ يترسم حُطى والده العظيم الملك يوحنا، وإذ تلهمه الغيرة التي تملك الأنفس كجندي باسل من جنود المسيح، قد دفع باسم الله الى أقاصي البلاد وأبعادها عن مجال علمنا كما أدخل بين أحضان الكاثوليكية الغادرين من أعداء الله وأعداء المسيح مثل العرب والكفرة...) ⁽⁵⁾.

وقال البوكيرك في خطابه الذي ألقاه على جنده بعد وصوله الى "ملقا" مانصه: (إن ابعاد العرب عن تجارة الأفاوية هي الوسيلة التي يرجو بها البرتغاليون إضعاف قوة الاسلام). وفي نفس الخطبة قال: (الخدمة الجليلة التي سنقدمها لله بطردنا العرب من هذه البلاد

(1) التاريخ الأوروبي الحديث في عصر النهضة الى مؤتمر فينا ، د. عبدالعزيز نوار، ص48.

(2) انظر: الكشوف الجغرافية، شوقي عبدالله ، ص100،99.

(3) المصدر السابق نفسه، ص100،99.

(4) انظر: آسيا الوسطى الغربية، بانيكار ، ص25،24.

(5) دراسات متميزة في العلاقات بين الشرق والغرب، يوسف الثقفي، ص58.

وبإطفاءنا شعلة شيعة محمد بحيث لا يندفع لها هنا بعد ذلك لهيب وذلك لأنني على يقين أننا لو انتزعنا تجارة "ملقا" هذه من أيديهم (يقصد المسلمين) لاصبحت كل من القاهرة ومكة أثراً بعد عين ولا تمتعت عن البندقية كل تجارة التوابل مالم يذهب تجارها الى البرتغال لشرائها من هناك⁽¹⁾. وقال في يومياته: (كان هدفنا الوصول الى الأماكن المقدسة للمسلمين واقتحام المسجد النبوي وأخذ رفاة النبي محمد μ رهينة لنساوم عليها العرب من اجل استرداد القدس)⁽²⁾. وقال ملك البرتغال عمانويل الأول معلناً أهداف الحملات البرتغالية: إن الغرض من اكتشاف الطريق البحري الى الهند هو نشر النصرانية والحصول على ثروات الشرق⁽³⁾. وهكذا يظهر للباحث المنصف أن الدافع الديني للكشوف البرتغالية كان من أهم العوامل التي دفعت البرتغال لارتياح البحار والإلتفاف حول العالم الاسلامي، فصدرت المراسيم والأوامر، ورسم الصليب والمدفع كشعار للحملات، وكان القصد من ذلك أن على المسلمين اعتناق المسيحية وإلا عليهم مواجهة المدفع.

وكان الدافع الاقتصادي في الدرجة الثانية كعامل مؤثر في سير الكشوف الجغرافية البرتغالية، فقد سهل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح في عام 904هـ/1497م بواسطة فاسكو دي جاما مهمة وصول منتجات الشرق الأقصى للأسواق الأوروبية دون الحاجة الى مرورها عن طريق مصر، ولهذا ساعد تحويل الخط التجاري عن مناطق العبور العربية والاسلامية -ساعد- على تحقيق الهدف الديني وذلك لما للمجال الاقتصادي من اثر فعال في إضعاف القوة الاسلامية التي كان لها ابلغ الأثر في زعزعة أوروبا خلال عدة قرون، فضلاً عن الركود الاقتصادي الذي مُنيت

(1) انظر: دراسات متميزة، ص59.

(2) انظر: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها (698/2).

(3) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية، د.يوسف الثقفي، ص37.

به الدولة المملوكية بسبب هذا التحول المفاجئ (1).

ومما يجدر ذكره أن البرتغاليين استعانوا في حملاتهم باليهود الذين استخدموا كجواسيس ، وقد ساعدهم في ذلك معرفتهم باللغة العربية، وعلى سبيل المثال فقد ارسل ملك البرتغال يوحنا الثاني خادمه الخاص ومعه رفيق آخر يهودي الى مصر والهند والحبشة وكان من نتائج رحلتها تقديمها تقرير يتضمن بعض الخرائط العربية عن المحيط الهندي (2).

وذكر ابن اياس إنه في زمن الشريف بركات أمير مكة تسلل ثلاثة أشخاص الى مكة وكانوا يحومون حول المسجد الحرام وعليهم لباس عثماني ويتحدثون العربية والتركية، فأمر بالقبض عليهم وبالكشف على اجسامهم اتضح أنهم مسيحيون لأنهم كانوا بغير ختان، وبعد التحقيق معهم ظهر أنهم جواسيس، ارسلوا للعمل كأدلاء للجيش البرتغالي الصليبي عند دخوله لمكة، وتم بعد ذلك إرسالهم الى السلطان قانصوه الغوري (3).

ولتحقيق الأهداف البرتغالية رأى رواد الكشوف وساستهم ضرورة التحكم في مضيقي "هرمز" و "باب المنذب" لكي يحكم أعداء الاسلام غزوهم للعالم الاسلامي من الخلف ودق عصب الإقتصاد في المناطق العربية والاسلامية ثم بالتالي نشر المسيحية في كل موقع يصلون إليه (4).

ونجح البرتغاليون في خططهم وتمكنوا من السيطرة على معابر التجارة في الساحل الأفريقي والخليج العربي وبحر العرب، وقاموا بمنع وصول المنتجات الشرقية الى أوروبا عن طريقها، وقد ساعدهم في تحقيق ذلك عدم وجود منافس بحري لهم، مما سهل لهم السيطرة على المراكز الهامة ببسر وسهولة، ثم لم يتورع البرتغاليون بعد ذلك عن استخدام العنف فشهدت المناطق التي وصلوا

(1) دراسات متميزة ، ص61،60.

(2) انظر: أوروبا في مطلع العصور الحديثة للشناوي، (123/1).

(3) انظر: بدائع الزهور في وقائع الدهور (191/4).

(4) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية، ص38.

إليها واحتلوها الكثير من المجازر وإشعال النيران والتدمير، والاعتداء على حرمان الناس ومنع المسلمين من الذهاب الى الحج وهدم المساجد عليهم(1).

إما عن موقف المسلمين من هذا الغزو الغاشم فقد كان المماليك آنذاك في موقف لا يحسدون عليه حيث اصابهم الوهن الاقتصادي والسياسي وانشغل السلاطين بمشاكلهم الداخلية ومجابهة الدولة العثمانية وقمع نشاط الفرسان الإسبانية في شرق البحر الأبيض المتوسط(2) ولهذا واجه السكان في الساحل الأفريقي والخليج واليمن مصيرهم بأنفسهم، فهاجموا الحاميات البرتغالية في كل مكان، في شرق أفريقيا وفي مسقط والبحرين وقريات وعدن ، ولكن دون جدوى لاختلاف ميزان القوى(3).

ثم ان المماليك شعروا بالمسؤولية على الرغم من المشاكل التي كانت تعيشها دولتهم ، وبذلوا مافي استطاعتهم للحد من وصول البرتغاليين الى الأماكن المقدسة، فقام السلطان قانصوه الغوري بإرسال حملة بحرية مكونة من ثلاثة عشرة سفينة عليه ألف وخمسة رجل بقيادة حسين الكردي الذي وصل الى جزيرة "ديو" ثم "شول" وألتقى مع الأسطول البرتغالي بقيادة "الونز دي الميدا" وذلك في عام 914هـ/1508م فكان النصر حليفه(4)، ثم ان البرتغال عززوا قواتهم وأعادوا الكرة مرة أخرى مما أدى الى هزيمة الاسطول الاسلامي سنة 915هـ/1509م في معركة "ديو" المشهورة في التاريخ(5).

أما عن الدولة العثمانية فكانت في البداية بعيدة عن ساحة المعركة ويفصل بينها وبين البرتغال دولة المماليك والدولة الصفوية ومع ذلك لبي السلطان بايزيد الثاني طلب السلطان الغوري

(1) انظر: علاقة ساحل عمان ببريطانيا، عبدالعزيز عبدالحى ، ص19.

(2) انظر: دراسات في التاريخ المصري، أحمد سيد دراج ، ص114.

(3) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية، ص38.

(4) انظر: بدائع الزهور في وقائع الدهور (142/4).

(5) انظر: النفوذ البرتغالي في الخليج العربي، نوال صيرفي، ص106.

مساعدته ضد البرتغال ، فأرسل في شهر شوال سنة 916هـ/1511م عدة سفن محملة بالمكاحل والأسهم وأربعين قنطاراً من البارود وغير ذلك من المستلزمات العسكرية والأموال اللازمة(1). ولكن هذه المساعدة لم يكتب لها الوصول سالمة بسبب تعرضها لقرصنة فرسان القديس يوحنا(2). وبعد أن ضم العثمانيون بلاد مصر والشام ودخلت البلاد العربية تحت نطاق الحكم العثماني ، واجهت الدولة العثمانية البرتغاليين بشجاعة نادرة، فتمكنت من استرداد بعض الموانئ الإسلامية في البحر الأحمر مثل: مصوع وزيلع، كما تمكنت من إرسال قوة بحرية بقيادة مير علي بك الى الساحل الأفريقي فتم تحرير مقديشو وممبسة ومُنيت الجيوش البرتغالية بخسائر عظيمة(3).

وفي عهد السلطان سليمان القانوني 927-974هـ/1520-1566م تمكنت الدولة العثمانية من إبعاد البرتغاليين عن البحر الأحمر ومهاجمتهم في المراكز التي استقروا بها في الخليج العربي. لقد ادرك السلطان سليمان أن مسؤولية الدفاع عن الأماكن المقدسة هي مسؤولية الدولة العثمانية، فبادر بعقد اتفاق مع حاكمي "قاليقوط" و"كامباي" وهما الحاكمان الهنديان اللذان تأثرا من الغزو البرتغالي وكان ذلك الاتفاق ينص على العمل المشترك ضد البرتغال، ثم أعقب ذلك الإتفاق إصداره مرسوماً الى سليمان باشا الخادم والي مصر هذا نصه: (عليك يا بيك البكوات بمصر سليمان باشا، أن تقوم فور تسلمك وأمرنا هذه ، بتجهيز حقيبتك وحاجتك، وإعداد العدة بالسويس للجهاد في سبيل الله، حتى إذا تهيأ لك إعداد أسطول وتزويده بالعتاد والميرة والذخيرة وجمع جيش كافٍ، فعليك أن تخرج الى الهند وتستولي وتحافظ على تلك الأجزاء، فإنك اذا قطعت الطريق وحاصرت السبل المؤدية الى مكة المكرمة تجنبت سوء ما فعل البرتغاليون وأزلت رايتهم

(1) انظر: المماليك الفرنج، أحمد سيد دراج، ص115.

(2) انظر: تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها، شوقي الجمل، ص172.

(3) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية، ص39.

من البحر(1).

وقام سليمان الخادم بتنفيذ أوامر السلطان العثماني ، ووصل بعد سبعة أيام الى جدة ثم اتجه الى كمران وبعد ذلك سيطر على عدن وعين عليها أحد ضباطه وزودها بحامية بلغ عدد جنودها ستمائة جندي ، ثم واصل سيره الى الهند، وعند وصوله الى ديو لم يتمكن من الإستيلاء عليها وانسحب عائداً بعد ان فقد حوالي اربعمائة من رجاله، وحاول مرة اخرى الاستيلاء على الأمامية حتى استسلمت إحداها وتم أسر ثمانين برتغالياً ، ولولا الإمدادات الجديدة للجيش البرتغالي لاستسلمت جميع القلاع، وتم طرد البرتغاليين من الهند ولخضعت قلعة ديو للعثمانيين خضوعاً تاماً(2).

وهكذا تمكن العثمانيون من صد البرتغال وإيقافهم بعيداً عن الممالك الاسلامية والحد من نشاطهم ، وهكذا نجحت الدولة العثمانية في تأمين البحر الأحمر وحماية الأماكن المقدسة من التوسع البرتغالي المبني على أهداف استعمارية وغايات دنيئة ومحاولات للتأثير على الاسلام والمسلمين بطرق مختلفة.

إن النجاح الذي حققته الدولة العثمانية في درء الخطر البرتغالي على العالم الاسلامي يستحق كل تقدير وثناء، فدولة الممالك المتهالكة كانت على وشك الانهيار، ولم تكن على مستوى من القوة يكفل لها الوقوف أمام الغزو البرتغالي فتحملت الدولة العثمانية أعباء الدفاع عن حقوق المسلمين وممتلكاتهم، ونجحت أيما نجاح في الحد من مطامع الغزاة ووصولهم الى الأماكن المقدسة كما كانوا يرغبون(3).

أما عن الدولة الصفوية فقد تخلت عن مساعدة سكان المناطق التي وصل إليها الغزو

(1) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية، ص40.

(2) انظر: صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، غسان الرمال، ص226.

(3) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية، ص40.

البرتغالي، فتركت مدن الخليج العربي تواجه مصيرها بنفسها، وزادت على ذلك أن سارت الدولة الصفوية في فلك الأعداء ولبت رغباتهم خاصة وأنها على عداء وخلاف مذهبي مع المماليك والدولة العثمانية ولذلك نجد البوكيرك القائد البرتغالي يستغل هذا الموقف ويرسل في عام 915هـ/1509م مبعوثه "روى جومير" ومعه رسالة ذكر فيها: (اني أقدّر لك احترامك للمسيحيين في بلادك، واعرض عليك الأسطول والجند والأسلحة لاستخدامها ضد قلاع الترك في الهند، وإذا أردت أن تنقض على بلاد العرب أو أن تهاجم مكة فستجدي بجانبك في البحر الأحمر أمام جدة أو في عدن أو في البحرين أو في القطيف أو في البصرة ، وسيجدي الشاة بجانبه على امتداد الساحل الفارسي ، وسأنفذ له كل مايريد"(1).

وقد صادف هذا العرض أو هذا الموقف الفترة التي كانت القوات العثمانية تتوجه فيها لمجابهة الصفويين على الحدود، حيث كانت بعد ذلك معركة جالديران سنة 920هـ/1514م التي انهزم فيها الفرس هزيمة ساحقة أمام الجيش العثماني، مما جعلهم - أي الفرس - أكثر استعداداً للتحالف مع البرتغاليين ضد العثمانيين، فكانت فرصة البرتغال التي لاتعوض لاسيما وأنهم يدركون مدى الخطر الذي يهددهم ويقلق أمنهم من قبل الدولة العثمانية ، فاستغلوا احتلالهم لهرمز عام 921هـ/1515م وارتبطوا بعد ذلك مباشرة مع الصفويين بمعاهدة كان من أهم بنودها؛ تقديم البرتغال أسطولها لمساعدة الشاة في حملته على البحرين والقطيف مقابل اعتراف الشاة بالحماية البرتغالية على هرمز، وتوحيد القوتين وفي حالة المواجهة مع الدولة العثمانية عدوهما المشترك(2).

ويظهر أن البرتغال رأوا في تحالفهم مع الصفويين وسيلة تحقق عدم الوفاق بين الدول الإسلامية التي فيما لو اتحدت ضدها لما تمكنت من السيطرة على مقدرات الشعوب في مناطق

(1) التيارات السياسية في الخليج العربي ، صلاح العقاد، ص17.

(2) التيارات السياسية في الخليج العربي، ص98.

الخليج والبحر الأحمر وعدن وغير ذلك من الأماكن التي خضعت للسيطرة البرتغالية؛ ومن جهة أخرى فإن التحالف الصفوي البرتغالي والوضع السياسي والاقتصادي المتدهور لدى دولة المماليك، كل ذلك جعل الدولة العثمانية تتحمل المسؤولية كاملة في الدفاع عن الأماكن الإسلامية في كل موقع حاول البرتغاليون الوصول إليه والسيطرة عليه(1).

لقد كان من نتائج الصراع العثماني البرتغالي:

- 1- احتفظ العثمانيون بالأماكن المقدسة وطريق الحج.
- 2- حماية الحدود البرية من هجمات البرتغاليين طيلة القرن السادس عشر.
- 3- استمرار الطرق التجارية التي تربط الهند واندونيسيا بالشرق الأدنى عبر الخليج العربي والبحر الأحمر.
- 4- استمرار عمليات تبادل البضائع الهندية مع تجار أوروبا في أسواق حلب، والقاهرة واسطنبول ففي سنة 1554م اشترى البندقيون وحدهم ستة آلاف قنطار من التوابل وفي الوقت نفسه كانت تصل الى ميناء جدة عشرين سفينة محملة بالبضائع الهندية (توابل ، أصباغ، أنسجة)(2).

وفاة السلطان سليم:

في التاسع من شوال سنة ست وعشرين وتسعمائة، ليلة السبت توفي السلطان سليم -رحمه الله- ، فأخفى موته الوزراء، وأرسلوا يعلمون ولده السلطان سليمان، فلما وصل الى القسطنطينية أعلنوا موت السلطان سليم، وصلوا عليه في جامع السلطان محمد، ثم حملوه ودفنوه في محل قبره، وأمر السلطان سليمان خان ببناء جامع عظيم ، وعمارة لطعام الفقراء صدقة على والده. وكان رحمه الله عالماً فاضلاً ذكياً، حسن الطبع، بعيد الغور، صاحب رأي وتدبير وحزم، وكان

(1) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية، ص41.

(2) انظر: تاريخ العرب الحديث ، مجموعة من العلماء ، ص46،45.

يعرف الألسنة الثلاثة: العربية والتركية والفارسية، ونظم نظاماً بارعاً حسناً، وكان دائم الفكر في أحوال الرعية والمملكة، وقهر الملوك وأبادهم، ولما كان بمصر كتب على رخام في حائط القصر الذي سكن فيه بخطه، فقال:

الملك لله من يظفر بنيل مني

يردده قهراً ويضمن بعده الدركا

لو كان لي أو لغيري قدر أنملة

فوق التراب لكان الأمر مشتركاً

توفي رحمه الله تعالى وله من العمر أربع وخمسون سنة، وكانت مدة ملكه تسعة أعوام وثمانية

أشهر (1).

(1) انظر: تاريخ السلاطين آل عثمان للقرماني، ص 40.

السلطان سليمان القانوني

ولد سليمان القانوني في مدينة (طرابزون) كان والده آنذاك والياً عليها اهتم به والده اهتماماً عظيماً، فنشأ محباً للعلم والأدب والعلماء والادباء والفقهاء، واشتهر منذ شبابه بالجدية والوقار، أرتقى عرش السلطنة في السادسة والعشرين من عمره وكان متأنياً في جميع شؤونه ولا يتعجل في الأعمال التي يريد تنفيذها بل كان يفكر بعمق ثم يقرر وإذا اتخذ قراراً لا يرجع عنه(1).

أولاً: الفتن التي واجهته في بداية حكمه:

ابتلى سليمان في السنوات الأولى في عهده بأربع تمردات شغلته عن حركة الجهاد، حيث ظن الولاة الطموحون أن فرصة الاستقلال بأقاليمهم حان وقتها، فقام جان بردى الغزالي والى الشام بتمرد على الدولة وأعلن العصيان عليها وحاول أن يستولي على حلب إلا أنه فشل في ذلك وأمر السلطان سليمان بقمع الفتنة فقمعت وقطع رأس المتمرّد جان بردى وأرسل الى استنبول دلالة على انتهاء التمرد.

وأما التمرد الثاني فقد قام به أحمد شاه الخائن في مصر وكان هذا عام 930هـ/1524م وكان هذا الباشا طامعاً في منصب الصدر الأعظم ولم يفلح في تحقيق هدفه، وطلب من السلطان أن يعينه والياً على مصر فعينه. وما أن وصل الى مصر حتى حاول استمالة الناس وأعلن نفسه سلطاناً مستقلاً إلا أن أهل الشرع وجنود الدولة العثمانية من الإنكشارية قاموا ضد الوالي المتمرّد وقتلوه وظل اسمه في كتب التاريخ مقروناً باسم الخائن.

والتمرد الثالث ضد خليفة المسلمين هو تمرد شيعي رافضي قام به بابا ذو النون عام 1526م في منطقة يوزغاد حيث جمع هذا البابا مابين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف ثائر وفرض الخراج على

(1) انظر: السلاطين العثمانيون الكتاب المصور، ص51.

المنطقة، وقويت حركته حتى أنه استطاع هزيمة بعض القواد العثمانيين الذين توجهوا لقمع حركته، وانتهت فتنة الشيعة هذه بهزيمة بابا ذو النون وأرسل رأسه الى استانبول.

والتمرد الرابع ضد الدولة العثمانية في عهد سليمان القانوني كان تمرداً شيعياً رافضياً أيضاً وكان على رأسه قلندر جلبلي في منطقتي قونية ومرعش وكان عدد أتباعه 30.000 شيعياً قاموا بقتل المسلمين السنين في هاتين المنطقتين. ويقول بعض المؤرخين أن قلندر جلبلي جعل شعاره أن من قتل مسلماً سنياً ويعتدي على امرأة سنية يكون بهذا قد حاز أكبر الثواب.

توجه بهرام باشا لقمع هذا العصيان فقتله العصاة، ثم نجحت الحيلة معهم إذ أن الصدر الأعظم إبراهيم باشا قد استمال بعض رجال قلندر جلبلي ، فقلت قواته وهزم وقتل.

بعد هذا هدأت الأمور في الدولة العثمانية وبدأ السلطان في التخطيط لسياسة الجهاد في

أوروبا(1).

ثانياً: فتح رودس:

كانت رودس جزيرة مشاكسة إذ كانت حصن حصين لفرسان القديس يوحنا الذين كانوا يقطعون طريق الحجاج المسلمين الأتراك الى الحجاز، فضلاً عن اعمالهم العدوانية الموجهة لخطوط المواصلات البحرية العثمانية، فأهتم السلطان سليمان بفتحها وأعد حملة عظيمة ساعده على تحقيقها عدة أمور:

1- انشغال أوروبا بالحرب الكبرى بين شارل الخامس (كنت) -امبراطور الدولة الرومانية المقدسة وفرانسوا ملك فرنسا.

2- عقد الصلح بين الدولة العثمانية والبنديقية.

3- نمو البحرية العثمانية على عهد سليم الأول.

وشن سليمان القانوني حرباً كبيرة ضد رودس ابتداء من منتصف عام 1522م، وفتحها وأعطى

(1) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، د. محمّد حرب، ص91.

للفرسان حق الانتقال منها، فذهبوا الى (مالطة) وهناك أعطاهم (شارك كنت) حق حكم هذه الجزيرة(1).

ثالثاً: قتال المجر وحصار فينا:

كان ملك المجر (فيلاد يسلاف الثاني جاجليو) قد عزم على فك أي تعهدات كانت قد اعطيت من قبل اسلافه لسلاطين الدولة العثمانية، وذهب الى حد قتل مبعوث السلطان سليمان إليه. وكان المبعوث يطالب بالجزية السنوية المفروضة على المجر. ولهذا رد سليمان في عام 1521م بغزوة كبيرة ضد المجر، ولكن استمرت المعارك حتى أحرز الاتراك انتصارهم الكبير، في موقعة موهاكس عام 1526م، ودخل سليمان القانوني (بودا) في 11 سبتمبر (أيلول) عام 1526م واستمرت المقاومة الهنغارية رغم هذا، وتابع السلطان ضغطه حتى بلغت جيوشه أسوار فينا عاصمة الامبراطورية الرومانية المقدسة عام 1529م، إلا أن طول خطوط المواصلات وتحول (شارل كنت) من قتال فرانسوا الى التصالح معه للتفرغ لحرب العثمانيين ولانقاذ عاصمة الهابسبورج جعل من المستحيل على سليمان القانوني فتح هذه العاصمة، وتراجع عنها بينما استمر الصراع بين سليمان والقوى الأوروبية المؤيدة لملك المجر من أجل السيطرة على هذه المملكة حتى وفاة سليمان.

على أن أبرز حدث تاريخي في السياسة الخارجية العثمانية على عهد سليمان القانوني هو علاقته مع فرانسوا، تلك العلاقة التي تحولت الى محالفة(2).

رابعاً: سياسة التقارب العثماني الفرنسي:

كان عهد السلطان سليمان القانوني يمثل رأس الهرم بالنسبة لقوة الدولة العثمانية ومكانتها بين

(1) انظر: الشعوب الاسلامية ، د.عبدالعزیز نوار.

(2) انظر: الشعوب الاسلامية ، ص147.

دول العالم آنذاك. ويعتبر عصر السلطان سليمان هو العصر الذهبي للدولة العثمانية، حيث شهدت سنوات حكمه من 926-972هـ، الموافق 1520-1566م توسعاً عظيماً لم يسبق له مثيل، وأصبحت أقاليم الدولة العثمانية منتشرة في ثلاث قارات عالمية.

وكان لهذا البروز أثره على دول العالم المعاصرة وبالأخص على دول أوروبا التي كانت تعيش انقسامات سياسية ودينية خطيرة، ولهذا تنوعت مواقف الدول الأوروبية من الدولة العثمانية حسب ظروف كل دولة. وكان تشارلز الخامس ملك الامبراطورية الرومانية المقدسة ينافس فرانسوا الأول ملك فرنسا على كرسي الحكم للامبراطورية الرومانية، وكان البابا ليو العاشر منافساً للراهب الألماني مارتن لوثر زعيم المقاومة البروتستانتية(1).

وكانت بلغراد تعاني من اضطرابات داخلية بسبب صغر سن ملكها لويس الثاني مما أدى الى نشوب النزاع بين الأمراء(2).

ولهذا رأى فرانسوا الأول أن يستغل مكانه وقوة الدولة العثمانية ويكسبها صديقاً له، فوقف منه موقف التودد والرغبة في الوفاق معتقداً أن الدولة العثمانية هي التي ستحد من طموحات تشارلز الخامس وتوقفه عند حده، ومما يثبت هذا التوجه الفرنسي ما ذكره للسفير الفينسي عندما قال: (سعادة السفير لايمكنني أن أنكر أنني أرغب بشدة في أن أرى الأتراك أقوى جداً ومستعدون للحرب ، ليس فقط لمصلحة السلطان العثماني الذاتية بل لإضعاف قوة الامبراطور تشارلز الخامس وتكليفه غالباً، وإعطاء جميع الحكومات الأمن والأمان ضد عدو عظيم كهذا "الامبراطور تشارلز"(3).

(1) انظر: دراسات متميزة ، يوسف النقي، ص92.

(2) المصدر السابق نفسه، ص92.

(3) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية ، ص47.

بدأت مفاوضات فرنسا مع الدولة العثمانية بعد معركة "بافيا" التي أسر فيها ملك فرنسا "فرانسوا الأول" عام 1525م، فأرسلت والدته والوصية على العرش مبعوثها "جون فرانجيباني" ومعه خطاب منها وخطاب من الملك الأسير يطلبان فيهما مهاجمة قوات عائلة الهابسبرج وإطلاق سراح الأسير (1).

وعلى الرغم من أن الأسير أطلق بموجب معاهدة تم عقدها في مدريد بين فرنسا وأسرة الهابسبرج سنة 1526م، إلا أن فرنسوا، بعد إطلاق سراحه أرسل في عام 941هـ/1535م سكرتيه "جان دي لافوريه" الى السلطان سليمان بهدف عقد تحالف في شكل معاهدة (2)، سُميت فيما بعد بـ "معاهدة الامتيازات العثمانية الفرنسية"، ونظراً لما ستكون عليه هذه المعاهدة من أهمية كبرى بعد ذلك نورد هنا أهم نصوصها:

حرية التنقل والملاحة في سفن مسلحة وغير مسلحة بحرية تامة.

حق التجارة والمتاجرة في كل أجزاء الدولة العثمانية بالنسبة لرعايا ملك فرنسا.

تدفع الرسوم الجمركية وغيرها من الضرائب مرة واحدة في الدولة العثمانية.

الضرائب التي يدفعها الفرنسيون في الدولة العثمانية هي نفسها التي يدفعها الرعايا الأتراك.

حق التمثيل القنصلي، مع حصانة قنصلية ولأقاربه وللعاملين معه.

من حق القنصل الفرنسي النظر في القضايا المدنية والجنائية التي يكون أطرافها من رعايا

ملك فرنسا، وان يحكم في هذه القضايا وإنما للقنصل الحق في الاستعانة بالسلطات المحلية لتنفيذ

أحكامه.

في القضايا المختلفة التي يكون أحد أطرافها رعية من رعايا السلطان العثماني ، لا يستدعي

ولا يستجوب رعية الملك الفرنسي ولا يحاكم إلا بحضور ترجمان القنصلية الفرنسية.

(1) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية ، ص47.

(2) المصدر السابق نفسه، ص47.

افادات رعية الملك في القضايا مقبولة ويؤخذ بها عند اصدار الحكم.

حرية العبادة لرعايا الملك.

منع استعباد رعية الملك.

وكان من نتائج هذه المعاهدة زيادة التعاون بين الأسطولين الفرنسي والعثماني وشن الاسطول العثماني هجمات قوية على شواطئ مملكة نابولي التي كانت تابعة لـ"شارل كنت" وفي عام 1543م تجمعت وحدات الاسطولين العثماني والفرنسي وهاجمت نسير التابعة لدوق سافوي حليف شارل كنت(1).

واستفادت فرنسا من تقاربها مع الدولة العثمانية عسكرياً واقتصادياً وسياسياً واتخذت من المعاهدة السابقة وسيلة لفتح أبواب التجارة مع المشرق دون الخضوع للاحتكار التجاري الذي فرضته البرتغال بعد اكتشافها طريق رأس الرجاء الصالح، كما حصلت بموجبها على الحق الكامل في الحماية تحت علمها رعايا الدول الغربية الاخرى، مما جعل لها مكانة مرموقة بين دول الغرب الأوروبي.

هذه المعاهدة بكل أسف لم يستفد منها رعايا الدولة العثمانية وكأنها عقدت فقط لتلبية المطالب الغربية ، وتحقيق مصالح الأعداء دون مقابل يذكر وقد كانت هذه المعاهدة الأساس الذي بني عليه وسار على نهجه الكثير من المعاهدات التي عقدت فيما بعد بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية بصفة عامة(2).

لم يستطع ملك فرنسا ان يلتزم بالعهد مع الدولة العثمانية بسبب الرأي العام النصراني، فيضطر الى التراجع ونقض العهد ثم يعود من جديد فيستجدي عطف وتأييد العثمانيين من جديد فيثور عليه الرأي العام والحقيقة التاريخية تقول أنه لا يمكن للصليبيين أعداء الاسلام أن يتخلى بعضهم عن بعض أمام تحديّ القوى لهم وإن كانوا مختلفين ظاهرياً تبعاً للمصالح والأهواء . وإن أعداء الاسلام من الصليبيين الحقايد لا أحلاف ولا موثيق لهم في تعاملهم مع المسلمين

(1) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية ، ص47.

(2) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية، ص48.

كما يبين لنا الله عز وجل في كتابه الكريم. وحينما تتبين لهم بادرة ضعف عند المسلمين فإنهم سرعان ما يقوى ساعدتهم كي يجهزوا عليهم وهم في الوقت نفسه لا يسمحون لحاكم منهم مهما كان اتجاهه او وضعه أن يتعاون مع المسلمين وأنه مهما اختلفت المصالح فهم جميعاً يتفقون في محاربة هذا الدين وتقتيل أهله في كل زمان ومكان (1).

لقد كانت تلك الامتيازات التي أعطيت للدولة الفرنسية أول إسفين يدق في نعش الدولة العثمانية ظهرت آثاره البعيدة فيما بعد.

وفي أواخر أيام الدولة العثمانية صارت دول أوروبا النصرانية تتدخل في شؤونها تحت حماية الامتيازات وللدفاع عن نصارى الدولة الذين كانوا يعدون رعايا للدول الأجنبية وخاصة في بلاد الشام (2).

المبحث الرابع

الدولة العثمانية وشمال أفريقيا

كان من آثار التهجير الجماعي للمسلمين من الأندلس ونزوح أعداداً كبيرة منهم الى الشمال الأفريقي حدوث العديد من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية في ولايات الشمال الأفريقي ولما كان من بين المسلمين النازحين الى هذه المناطق أعداداً وفيرة من البحارة، فكان من الضروري أن تبحث عن الوسائل الملائمة لاستقرارها، إلا أن بعض العوامل قد توافرت لتدفع بأعداد من هؤلاء البحارة الى طريق الجهاد ضد القوى المسيحية في البحر المتوسط. ويأتي في مقدمة هذه الأسباب الدافع الديني بسبب الصراع بين الاسلام والنصرانية وإخراج المسلمين من الأندلس ومتابعة الاسبان والبرتغال للمسلمين في الشمال الأفريقي.

وقد ظلت حركات الجهاد الاسلامي ضد الاسبان والبرتغاليين غير منظمة حتى ظهور الأخوان خير الدين وعروج بربروسا واستطاعا تجميع القوات الاسلامية في الجزائر وتوجيهها نحو الهدف

(1) انظر: تاريخ الدولة العثمانية ، د.علي حسون ، ص75.

(2) انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ، ص77، 78.

المشترك لصد اعداء الاسلام عن التوسع في موانئ ومدن الشمال الافريقي.

وقد اعتمدت هذه القوة الاسلامية الجديدة في جهادها أسلوب الكر والفر في البحر بسبب عدم قدرتها في الدخول في حرب نظامية ضد القوى المسيحية من الأسبان والبرتغاليين وفرسان القديس يوحنا، وقد حقق هؤلاء المجاهدين نجاحاً أثار قلق القوى المعادية، ثم رأو بنظرهم الثاقب أن يدخلوا تحت سيادة الدولة العثمانية لتوحيد جهود المسلمين ضد النصارى الحاقدين.

وقد حاول المؤرخون الأوروبيون التشكيك في طبيعة الحركة الجهادية في البحر المتوسط ووصفوا دورها بالقرصنة وكذلك شككوا في أصل أهم قادتها وهما خيرالدين وأخوه عروج الأمر الذي يفرض ضرورة إلقاء الضوء على دور الأخوين وأصلهما، وأثر هذه الحركة على الدور الصليبي في البحر المتوسط في زمن السلطان سليم والسلطان سليمان القانوني.

أولاً : أصل الأخوين عروج وخير الدين:

يرجع أصل الأخوين المجاهدين الى الأتراك المسلمين وكان والدهما يعقوب بن يوسف من بقايا الفاتحين المسلمين الأتراك الذين استقروا في جزيرة مدلي إحدى جزر الأرخبيل (1). وأمهم سيدة مسلمة أندلسية كان لها الأثر على أولادها في تحويل نشاطهم شطر بلاد الأندلس التي كانت تنن في ذلك الوقت من بطش الأسبان والبرتغاليين (2). وكان لعروج وخير الدين أخوان مجاهدان هما إسحاق ومحمد إلياس ولقد استند المؤرخون المسلمون الى أصلهم الإسلامي الى الحجج التالية:

1- ما ذكره المؤرخ الجزائري "أحمد توفيق مدني" مستنداً على أثرين مازالا موجودين في الجزائر أولهما رخامة منقوشة كانت موضوعة على باب حصن شرشال، وثانيهما رخامة كانت على باب مسجد الشواس بالعاصمة الجزائرية، وقد نقش على الرخامة الأولى: (بسم الله الرحمن الرحيم

(1) انظر: المغرب في بداية العصور الحديثة ، د. صلاح العقاد، ص37.

(2) انظر: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا، ص160-161.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله، هذا برج شرشال أنشأه القائد محمود بن فارس التركي في خلافة الأمير الحاكم بأمر الله المجاهد في سبيل الله "أورج بن يعقوب" بإذنه بتاريخ أربعة وعشرين بعد تسعمائة (1518م) ونقش على الرخامة الثانية : (إسم "أورج" بن أبي يوسف يعقوب التركي).

وهناك ثلاثة مسجل عليها بعض ماشيده خير الدين في الجزائر سنة 1520م (1).

2- إن اسم "عروج" - "أورج" مأخوذ من حادثة الأسراء والمعراج التي يرجح أنه ولد ليلتها،

وأن الترك ينطقونه "أورج" ثم عرب الى "عروج" (2).

3- إن ما ذكر عن الدور الذي لعبه الأخوان يؤكد حرصهما على الجهاد في سبيل الله ومقاومة أطماع أسبانيا والبرتغال في الممالك الإسلامية في شمالي أفريقيا ولقد أبدع الأخوان في الجهاد البحري ضد النصارى وأصبحت لحركة الجهاد البحري في القرن السادس عشر مراكز مهمة في شرشال ووهران والجزائر ودلي وبجاية وغيرها في أعقاب طرد المسلمين من الأندلس ، وقد قويت بفعل انضمام المسلمين الفارين من الأندلس والعارفين بالملاحة وفنونها والمدربين على صناعة السفن (3).

ثانياً: دور الأخوين في الجهاد ضد الغزو النصراني:

اتجه الأخوان عروج وخير الدين الى الجهاد البحري منذ الصغر، ووجها نشاطهما في البداية الى بحر الأرخبيل المحيط بمسقط رأسهما حوالي سنة 1510م، لكن ضراوة الصراع بين القوى المسيحية في بلاد الأندلس وفي شمالي افريقيا بين المسلمين هناك، والذي اشتد ضراوة في مطلع القرن السادس عشر، قد استقطب الأخوين لينقلا نشاطهما الى هذه المناطق وبخاصة بعد أن تمكن الاسبان والبرتغاليون من الاستيلاء على العديد من المراكز والموانئ البحرية في شمالي

(1) انظر: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا، ص161، 160.

(2) انظر: الدولة العثمانية العلية ، ص95.

(3) انظر: قراءة جديدة في التاريخ العثماني، ص79، 80.

افريقيا(1).

وقد حقق الأخوان العديد من الانتصارات على القراصنة المسيحيين الأمر الذي أثار أعجاب القوى الإسلامية الضعيفة في هذه المناطق ، ويبدو ذلك من خلال منح السلطان "الحفصي" لهم حق الاستقرار في جزيرة جربة التونسية وهو أمر عرضه لهجوم أسباني متواصل اضطره لقبول الحماية الإسبانية بالضغط والقوة، كما يبدو من خلال استتجاد أهالي هذه البلاد بهما، وتأثيرهم داخل بلادهم مما أسهم في وجود قاعدة شعبية لهما تمكنهما من حكم الجزائر وبعض المناطق المجاورة ويرى بعض المؤرخين أن دخول "عروج" وأخيه الجزائر وحكمهما لها لم يكن بناءً على رغبة السكان، ويستند هؤلاء الى وجود بعض القوى التي ظلت تتربص بالفرص لطرد الأخوين والأتراك المؤيدين لهما، لكن البعض الآخر يرون أن وصول "عروج" وأخيه كان بناءً على استدعاء من سكانها لنجدتهم من الهجوم الأسباني الشرس، وأن القوى البسيطة التي قاومت وجودهما كانت تتمثل في بعض الحكام الذين أبعدوا عن الحكم أمام محاولات الأخوين الجادة في توحيد البلاد حيث كانت قبل وصولهما أشبه بدولة ملوك الطوائف في الأندلس، وقد ساند أغلب أهل البلاد محاولات الأخوين واشتركت أعداداً كبيرة منهم في هذه الحملات، كما ساندتهما العديد من الحكام المحليين الذين شعروا بخطورة الغزو الصليبي الأسباني(2).

ويظهر دور الأخوين المجاهدين بمحاولة تحرير بجاية من الحكم الإسباني سنة 1512م، وقد نقلنا -لهذا الغرض- قاعدة عملياتها ضد القوات الإسبانية في ميناء جيجل شرقي الجزائر بعد أن تمكنا من دخولها وقتل حمايتها الجنوبيين سنة 1514م لكي تكون محطة تقوية لتحرير بجاية من جهة ولمحاولة مساعدة مسلمي الأندلس من جهة أخرى ويبدو أن الأخوين قد واجها تحالفاً قوياً نتج عنه العديد من المعارك النظامية وهو أمر لم يتعودوه لكن أجبروا عليه بفعل الاستقرار في

(1) انظر: الدولة العثمانية ، د.علي حسون ، ص53.

(2) انظر: المغرب في بداية العصور الحديثة، ص 37،38.

حكم الجزائر، وزاد من حرج الموقف قتل "عروج" في إحدى المعارك سنة 1518م مما اضطر خير الدين للبحث عن تحالف يعينه على الاستقرار والمقامة ومواصلة الجهاد وكانت الدولة العثمانية هي أقوى القوى المرشحة لهذا التحالف سواء لدورها البارز في ساحة البحر المتوسط أم

لأن القوى المحلية في الشمال الأفريقي كانت متعاطفة معها(1).

وتتابع انتصاراتها على الساحة الأوروبية منذ فتح القسطنطينية وأن الاتجاه لمخالفتها سيكسب دور خير الدين مزيداً من التأييد من قبل هذه القوى، وإلى جانب ذلك فإن الدولة العثمانية قد أبدت استجابة للمساعدة حين طلب منها الأخوان ذلك، كما أبدت رغبتها في مزيد من المساعدة لدوره وكذلك لبقايا المسلمين في الأندلس، ومن منظور ديني أسهم في إكساب دورها تأييداً جماهيرياً وجعل محاولة التقرب منهما أو التحالف معهما عملاً مرغوباً(2).

ومن جهة أخرى كانت الظروف في الدولة العثمانية على عهد السلطان سليم الأول مهياً لقبول هذا التحالف وبخاصة بعد أن اتجهت القوات العثمانية إلى الشرق العربي، وكان من أبرز أهدافها في هذا الاتجاه -كما سبق التوضيح- هو التصدي لدور البرتغاليين والأسبان وفرسان القديس يوحنا في المنطقة، وكان من المنطقي التحالف مع أي من القوى المحلية التي تعينها على تحقيق هذه الأهداف(3).

ثالثاً: التحالف مع العثمانيين:

اختلف علماء التاريخ حول بداية التحالف بين العثمانيين والأخوين عروج خيرالدين، فتذكر بعض المراجع أن السلطان سليم الأول كان وراء إرسالهم إلى الساحل الأفريقي لتلبية لطلب المساعدة من سكان الشمال الأفريقي وعملاً على تعطيل أهداف البرتغاليين والأسبان في منطقة

(1) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفتر عليها (902/2).

(2) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية (902/2).

(3) انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، ص 83.

البحر المتوسط. وعلى الرغم من عدم تداول هذه الرواية بين المؤرخين إلا أنها توضح أن العثمانيين لم يكونوا بمعزل عن الأحداث التي تدور على ساحة البحر المتوسط(1).

ويرجع بعض المؤرخين التحالف بين الجانبين الى سنة 1514م في أعقاب فتح عروج وخير لميناء "جيجل" حيث ارسل الأخوان الى السلطان سليم الأول مجموعة من النفائس التي استوليا عليها بعد فتح المدينة، فقبلها السلطان ورد لهما الهدية بإرسال أربع عشر سفينة حربية مجهزة بالعتاد والجنود(2) وكان هذا الرد من السلطان العثماني يعكس رغبته في استمرار نشاط دور الأخوين ودعمه. على أن بعض المؤرخين يذكرون أن الدعم العثماني لهذه الحركة كان في أعقاب وفاة "عروج" سنة 1518م وبعد عودة السلطان العثماني من مصر الى استانبول سنة 1519م(3). على أن الرأي الأكثر ترجيحاً أن الاتصالات بين العثمانيين وهذه الحركة كان سابقاً لوفاة عروج وقبل فتح العثمانيين للشام ومصر، وذلك يرجع لأن الأخوين كانا في أمس الحاجة لدعم أو تحالف مع العثمانيين بعد فشلها في فتح "بجاية"، كما أنهما حوصروا في "جيجل" بين الحفصيين الذين أصبحوا من أتباع الاسبان وبين "سالم التومي" حاكم الجزائر الذي ارتكز حكمه على دعم الأسبان له هو الآخر، فضلاً عن قوة الاسبان وفرسان القديس يوحنا التي تحاصروهم في البحر؛ فكان لوصول الدعم العثماني أثره على دعم دورهما وشروعهما في دخول الجزائر برغم هذه العوامل حيث اتفق العثمانيون مع الأخوين على ضرورة الإسراع بدخولهما قبل القوات الاسبانية لموقعها الممتاز من ناحية ولكي يسبقوا الاسبان إليها، لاتخاذها قاعدة لتخريب الموانئ الاسلامية الواقعة تحت الاحتلال الاسباني كبجاية وغيرها من ناحية اخرى. وقد تمكن عروج من دخول الجزائر بفضل هذا الدعم وقتل حاكمها بعد أن تأكد من مساعيه

(1) المصدر السابق نفسه، ص83.

(2) انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، ص84.

(3) انظر: الدولة العثمانية دولة اسلامية (909/2).

للاستعانة بالقوات الاسبانية، كما تمكن من دخول ميناء شرشال، واجتمع له الأمر في الجزائر وبويع في نفس السنة التي هزمت فيها القوات المملوكية أمام القوات العثمانية في الشام سنة 1516م في موقعة مرج دابق (1).

ولم يكن من الممكن للأخوين أن يقوموا بهذه الفتوحات لولا تشجيع السلطان العثماني ودعمه الى جانب دعم شعوب المنطقة وقد سبق أن فشلنا من دخول بجاية أمام نفس القوات المعادية (2). بعد أن بويع "خير الدين" في الجزائر في أعقاب ما حققه من انتصارات على الأاسبان والزعماء المحليين المتحالفيين معهم أصبح محط آمال كثير من الولايات والموانئ التي كانت مازالت خاضعة سواء للأاسبان أو لعملائهم ، وكان أول الذين طلبوا نصرته أهل تلمسان. ومع أن استتجاد الأهالي كان من الممكن أن يكون كافياً لتدخل "خير الدين" إلا أن موقع تلمسان الاستراتيجي الذي كان يجعل وجود "خير الدين" في الجزائر غير مستتب قد جعله يفكر في التدخل قبل أن يطلب الأهالي نجده، وأن مطالبهم قد دعتهم للتعجيل بذلك (3).

وأعد "خير الدين" جيشاً كبيراً زحف به الى تلمسان سنة 1517م، وأمن الطريق إليها. وبعد أن نجح في السيطرة عليها تمكن الاسبان ، وعملاؤهم من بني حمود، من استعادتها ولقي أحد إخوة "خير الدين" حتفه وهو "اسحاق" ، كما قتل "عروج" وكثيرون من رجاله أثناء حصارهم للمدينة ذلك الحصار الذي أمتد لسنة أشهر أو يزيد أمتد حتى سنة 1518م.

وقد تركت هذه الأحداث أثراً بالغاً في نفس خير الدين مما دفعه الى التفكير في ترك الجزائر لولا أن أهلها أَلحوا عليه بالبقاء. وكانت موافقته على البقاء تفرض عليه ضرورة بذلك المزيد من الجهد خشية أن يهاجمه الاسبان ومؤيديهم، كما أن ذلك قد أدى الى اتجاهه الى مزيد من الارتباط

(1) انظر: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا، ص174، 175.

(2) انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ، ص58.

(3) المصدر السابق نفسه، ص86.

بالدولة العثمانية، وبخاصة بعد أن والت لها مصر والشام، فكان ذلك يؤكد احتياج الجانبين الى مزيد من الارتباط بالآخر (1).

رابعاً: سكان مدينة الجزائر يرسلون رسالة استغاثة للسلطان سليم الأول:

قام الأستاذ الدكتور عبدالجليل التميمي بترجمة وثيقة تركية محفوظة في دار المحفوظات التاريخية باستنبول -طوب قابي سيراي- تحت رقم 4656، وهذه الوثيقة عبارة عن رسالة موجهة من سكان بلدة الجزائر على اختلاف مستوياتهم ومؤرخة في أوائل شهر ذي القعدة عام 925هـ، في الفترة من 26 من شهر اكتوبر (تشرين الأول) الى 3 من شهر نوفمبر (تشرين الثاني) عام 1519م، وكتبت بأمر من خير الدين الى السلطان سليم بعد عودته من مصر والشام الى استانبول وكان الغرض من تلك الرسالة ربط الجزائر بالدولة العثمانية. وجاء في الرسالة أن خير الدين كان شديد الرغبة في ان يذهب بنفسه الى استانبول ليعرض على السلطان سليم الأول شخصياً ابعاد قضية الجزائر. ولكن زعماء مدينة الجزائر توسلوا إليه أن يبقى فيها كي يستطيع مواجهة الأعداء إذا تحركوا. وطلبوا منه أن يرسل سفارة تقوم بالنيابة عنه وكانت الرسالة التي حملتها البعثة موجهة باسم القضاة والخطباء والفقهاء والأئمة والتجار والأعيان وكافة سكان مدينة الجزائر العامرة، وهي تفيض بالولاء العميق للدولة العثمانية وكان الذي يتزعم السفارة "الفقيه العالم الاستاذ أبو العباس احمد بن قاضي" وكان من أكبر علماء الجزائر ، كما كان قائداً عسكرياً وزعيماً سياسياً وكان بمقدوره أن يصور أوضاع بلاده والأخطار التي تحيط بها من كل جانب.

لقد أشاد الوفد بجهاد بابا عروج في مدافعة الكفار وكيف كان ناصراً للدين وحامياً للمسلمين وتكلموا عن جهاده حتى وقع شهيداً في حصار الاسبانيين لمدينة تلمسان وكيف خلفه أخوه "المجاهد في سبيل الله أبو التقى خير الدين. وكان له خير خلف فقد دافع عنا ، ولم نعرف منه إلا العدل والإنصاف واتباع الشرع النبوي الشريف، وهو ينظر الى مقامكم العالي بالتعظيم والإجلال،

(1) انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، ص86.

ويكرس نفسه وماله للجهاد لرضاء رب العباد وأعلاء كلمة الله ومناط آماله سلطنتكم العالية مظهراً
إجلالها وتعظيمها. على أن محبتنا له خالصة ونحن معه ثابتون ونحن وأميرنا خدام أعتابكم
العالية. وأهالي أقليم بجاية والغرب والشرق في خدمة مقامكم العالي وإن المذكور حامل الرسالة

المكتوبة سوف يعرض على جلالتم مايجري في هذه البلاد من الحوادث والسلام(1).

إن الرسالة السابقة تبين للباحث آراء الجزائريين تجاه الدولة العثمانية وكان من تلك الآراء:

- أن خير الدين يمثل الحاكم المسلم الأمثل في شمال افريقية، فهو يحترم وينفذ مبادئ الشريعة
الاسلامية ويتخذ من العدل شرعة ومنهاجاً له في الحكم .
- أن نشاطه يتركز في قيادة عمليات الجهاد ضد النصارى.
- أنه يكن للدولة العثمانية وسلطانها كل تقدير واحترام.

- تدل الرسالة على تماسك الجبهة الداخلية ووضوح الهدف أمام مسلمي الجزائر(2).

خامساً: استجابة السلطان سليم الأول لأهل الجزائر:

سارع السلطان سليم الى منح رتبة بكلكر بك الى خير الدين بربروس وأصبح القائد الأعلى
للقوات المسلحة في اقليمه ممثلاً للسلطان وبذلك أصبحت الجزائر تحت حكم الدولة العثمانية
وأصبح أي اعتداء خارجي على أراضيها يعتبر اعتداء على الدولة العثمانية ودعم السلطان سليم
هذا القرار بقرارات تنفيذية، إذ أرسل الى الجزائر قوة من سلاح المدفعية، وألفين من الجنود
الانكشارية ومنذ ذلك الوقت (1519م) بدأ الانكشاريون يظهرون في الحياة السياسية والعسكرية في
الأقاليم العثمانية في شمال افريقيا وأصبحوا عنصراً بارزاً ومؤثراً في سير الأحداث بعد أن كثر
إرسالهم الى تلك الأقاليم، وأذن السلطان سليم لمن يشاء من رعاياه المسلمين في السفر الى
الجزائر والانخراط في صفوف المجاهدين وقرر منح المتطوعين الذين يذهبون الى الجزائر

(1) انظر: الدولة العثمانية دولة اسلامية (910/2).

(2) المصدر السابق نفسه (911/2).

الامتيازات المقررة للفيالق الإنكشارية تشجيعاً لهم على الانضمام الى كتائب المجاهدين ولقد هاجر سكان الأناضول الى الجزائر شوقاً الى عمليات الجهاد ضد النصارى ولقد ترتب على القرارات التي اصدرها السلطان سليم الأول عدة نتائج هامة كان من بينها:

- 1- دخول الجزائر رسمياً تحت السيادة العثمانية اعتباراً من عام 1519م ودعي للسلطان سليم على المنابر في المساجد وضربت العملة باسمه.
- 2- إن إرسال القوات العثمانية جاء نتيجة استغاثة أهل بلدة الجزائر بالدولة العثمانية واستجابة لرغبتهم فلم يكن دخول القوات العثمانية غزواً أو فتحاً عسكرياً ضد رغبة أهل البلد.
- 3- إن إقليم الجزائر كان أول أقليم من أقاليم شمال أفريقيا يدخل تحت السيادة العثمانية ، وأصبحت الجزائر ركيزة لحركة جهاد الدولة العثمانية في البحر المتوسط⁽¹⁾ وكانت حريصة على امتداد نفوذها بعد ذلك الى كل اقاليم الشمال الأفريقي لتوحيده تحت راية الاسلام والعمل على تخليص مسلمي الأندلس من الأعمال الوحشية التي كان يقوم بها الاسبان النصارى. لقد كان زمن السلطان سليم البداية المتواضعة لمد النفوذ العثماني الى أقاليم شمال أفريقية من أجل حماية الاسلام والمسلمين وواصل ابنه سليمان ذلك المشروع الجهادي. لقد استجاب السلطان العثماني سليم لنداء الجهاد من أخوة الدين وشرعت الدولة العثمانية في انشاء أسطول ثابت لهم في شواطئ شمال أفريقيا والذي ارتبط منذ البداية باسم الأخوين عروج وخير الدين بربروسة⁽²⁾.

سادساً: التحديات التي أمام خير الدين:

- كان أمام خير الدين بربروس في وضعه السياسي والعسكري الجديد أن يحارب على جبهتين:
- 1- الجبهة الاسبانية لطرد الاسبانيين من الجيوب التي أقاموها فضم إليه عنابة وقالة في شرقي

(1) انظر: الدولة العثمانية دولة اسلامية (912/2).

(2) انظر: المشرق العربي والمغرب العربي ، د. عبدالعزيز قاند، ص97.

الجزائر وحقق انتصاراً باهراً على الإسبانيين حين استولى عام 1529م على حض بينون الاسباني على الجزيرة المواجهة لبلدة الجزائر وقد كان قد استمر يقصف الحصن بقذائف مدافعه طوال عشرين يوماً حتى تداعت جوانبه، ثم اقتحم الحصن مع قوات كثيفة العدد كانت تحملها خمس وأربعون سفينة جاءت من الساحل وأسر قائد الحصن مع كبار ضباطه.

إن استيلاء خير الدين على بينون سنة 1529م يعد بداية تأسيس ما عرف باسم نيابة الجزائر ومنذ ذلك التاريخ أصبح ميناء الجزائر عاصمة كبرى للمغرب الأوسط بل ولكل شمال افريقية العثمانية فيما بعد. وبدأ استخدام مصطلح الجزائر للدلالة على إقليم الجزائر حتى نهاية القرن الثامن عشر.

2- الجبهة الداخلية وكانت تتمثل في محاولة توحيد المغرب الأوسط التي لم تخلوا من مؤامرات بني زيان والحفصيين ومن بعض القبائل الصغيرة ولكنه استطاع مد منطقة نفوذه باسم الدولة العثمانية ودخلت الامارات الصغيرة تحت السيادة العثمانية لكي تحتمي بهذه القوة من الأطماع الصليبية الاسبانية ومن قهرها على اعتناق النصرانية ومالبت أن مد خير الدين النفوذ العثماني الى بعض المدن الداخلية الهامة مثل القسطنطينية(1).

لقد نجح خيرالدين في وضع دعائم قوية لدولة فتية في الجزائر وكانت المساعدات العثمانية تصله باستمرار من السلطان سليمان القانوني واستطاع خير الدين أن يوجه ضرباته القوية للسواحل الاسبانية وكانت جهوده مثمرة في انقاذ آلاف المسلمين من اسبانيا فقد قام عام 936هـ/1529م بتوجيه ست وثلاثون سفينة خلال سبع رحلات الى السواحل الاسبانية للدولة العثمانية في الحوض الغربي للبحر المتوسط وبفضل الله ثم مساعدات الدولة العثمانية وموارد خزينة الجزائر المتنوعة من ضرائب وسبي ومغانم وزكاة والعشر والجزية والفيء والخراج ومايقوم به الحكام ورؤساء القبائل والعشائر من دفع العوائد وغيرها أصبحت دولة الجزائر لها قاعدة

(1) انظر: الدولة العثمانية دولة اسلامية (913/2).

اقتصادية قوية (1).

لقد تضررت اسبانيا من نجاح خير الدين في الشمال الإفريقي وكانت إسبانيا يتزعمها شارل الخامس إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة والتي كانت تضم وقتذاك إسبانيا وبلجيكا وهولندا وألمانيا والنمسا وإيطاليا وكانت الدولة الرومانية المقدسة تدافع عن أوروبا المسيحية الخطر العثماني نحو شرق ووسط أوروبا، لذا يمكن القول بأن الصراع بين شارل الخامس وبين بلبيركية الجزائر كان بمثابة فتح جبهة حربية جديدة ضد الدولة العثمانية في الشمال الإفريقي، لذلك لم يكتف شارل بالهجوم المفاجئ على سواحل الجزائر، بل أرسل مبعوثاً للتجسس في شمال افريقيا سنة 940هـ / 1533م وهو الضابط (أوشوا دوسلا) الذي طاف بأنحاء تونس وهناك وجد استعداد الحفصيين للتعاون مع شارل الخامس، وحذر من امتداد النفوذ العثماني على تونس، وذكر أن هذا الإستيلاء سيسهل على العثمانيين السيطرة على افريقيا، ثم يتجهون بعد ذلك لاسترداد الأندلس، وهذا مايشاه العالم المسيحي.

كانت سياسة المملكة الحفصية في تونس تسير نحو انحطاط مستمر، كان السلطان الحفصي الحسن بن محمد قد أساء السيرة في البلاد وقتل عدداً من أخوته، فاضطربت الأحوال في تونس وخرج البعض عن طاعة السلطان الحفصي، وكان أخو الحسن المسمى بالأمير الرشيد قد هرب من أخيه خوفاً من القتل ولجأ عند العرب في البادية، ثم ذهب إلى خير الدين في الجزائر وطلب منه الحماية والعون ضد أخيه (2) ، فمنحه ذلك خير الدين، الذي كان مركزاً اهتمامه على تونس بسبب ضعف الحفصيين والخلافات الداخلية التي مزقت الأسرة الحفصية، كما كان لتونس في نظره أهمية استراتيجية كبيرة لأشرافها على المضيق الصقلي بحيث تسمح له السيطرة عليها في تحديد وقطع المواصلات بين حوضي المتوسط الشرقي والغربي بالإضافة إلى رغبة خير الدين في

(1) انظر: جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس، د. نبيل عبدالحى، ص311.

(2) انظر: جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس ، د.نبيل عبدالحى ، ص311.

توحيد بلاد المغرب تحت حكم الدولة العثمانية ليتمكنوا من استرداد الأندلس (1).

سابعاً: سفر خير الدين إلى استنبول

عزم السلطان سليمان القانوني بعد أن استولى على بلغراد، السفر بسائر جنوده إلى اسبانيا للاستيلاء عليها، وبدا للسلطان سليمان، أنه لا بد له من رجل يعتمد عليه في دخول تلك البلاد على أن يكون عالماً بأحوالها فوق اختياره على خير الدين لما يعرفه عنه من شجاعة وإقدام، وكثرة هجومه على تلك النواحي، وما فتحه من بلاد العرب في الشمال الإفريقي وكيف أقر الحكم العثماني فيها، فوجه إليه خطابا يطلبه فيه إلى حضرته ويأمره باستنابة بعض من يأمنه في الجزائر، وأن لم يجد من يصلح لذلك، يبعث إليه السلطان نائباً وبعث ذلك الخطاب مع رجل يدعى سنان جاوشي، فوصل الجزائر، وأوصل خطاب السلطان إلى خير الدين فقبله ووضع فوق رأسه ولما قرأه وعلم ما فيه نصب ديواناً عظيماً، وأحضر كافة العلماء والمشايخ وأعيان البلاد، وقرأ عليهم خطاب السلطان، الذي وجهه إليهم وأعلمهم أنه لا يمكنه التخلف عن أمره، وعندما سمع اندريا دوريا زعيم الأسطول النصراني في البحر المتوسط بما عزم السلطان عليه من فتح اسبانيا واستقدام خير الدين من الجزائر لذلك، أراد أن يشغل خير الدين من سفره إلى حضرة السلطان (2) ، وأشاع بين الأسرى المسيحيين في الجزائر، عن عزم الحكومة الاسبانية في الهجوم على الجزائر، وتخليصهم من الأسر، وفرح الأسرى الإسبان لذلك الخبر وتمردوا على خير الدين، الذي رأى أن من المصلحة العامة اعدام أولئك الأسرى ليأمن غائلتهم، ثم قام بتقوية الاستحكامات في الجزائر وزاد من عدد القلاع مظهراً أتم الطاعة للسلطان (3) .

(1) المصدر السابق نفسه، ص315.

(2) انظر: سيرة خير الدين باشا، عبدالقادر عمر، ق48 أ 48ب.

(3) انظر: حقائق الاخبار عن دول البحار، اسماعيل سر هنك (361/1).

عزم خير الدين على السفر الى استانبول 940هـ / 1533م، وعين مكانه حسن آغا الطوشي،

وكان رجلاً عاقلاً وصالحاً، صاحب علم واسع (1).

أبحر خير الدين شرقاً في البحر المتوسط وبرفقته أربع وأربعين سفينة وهزم في طريقه فرقة من اسطول آل هابسبرج بالقرب من المورة (2) ، واستمر خير الدين في رحلته ووصل إلى مدينة بيروازن، وفرح أهالي المدينة لمقدمه وكانوا خائفين من هجوم اندريا دوريا، الذي ابتعد عندما سمع بمقدم خير الدين، ثم واصل خير الدين سفره، ورسد مراكبه في قلعة اوارين " انا وارنيه " ، فصادف هنالك اسطولاً للسلطان سليمان القانوني وفرحوا بذلك، ثم خرجوا جميعاً حتى وصلوا إلى قرون، ثم كتب خير الدين إلى السلطان يعلمه بوصوله ويستأذنه بالقدوم على حضرته، فوجه إليه السلطان خطاباً يستحثه بالقدوم عليه (3) ، اقلع خير الدين من قرون ولم يزل مسافراً حتى وصل إلى استانبول ورسا بها ورموا بالمدافع كما هي العادة في ذلك، ومثل خير الدين بحضرة السلطان ووقف بين يديه، فأمر بأن يخلع عليه وعلى خواص أصحابه الجرايات الوافرة، وأنزلهم بقصر من قصوره وفوض إليه النظر في دار الصناعة (4) ، ومنحه لقب قبودان باشا وزير بحرية - حتى تظل له السلطة الكاملة لمساندة النظام في الجزائر لتحقيق هدف الدولة في استعادة الأندلس.

كان الصدر الأعظم في ذلك الوقت بمدينة حلب، فسمع بقدوم خير الدين على السلطان وقد كانت أنباء غزواته ونكايته بالمسيحيين تصل إليه، فاشتاق إلى لقاء خير الدين، فوجه خطاباً للسلطان يلتمس منه أن يوجه إليه خير الدين لمقابلته فأرسل السلطان إلى خير الدين مخبراً عن رغبة الصدر الأعظم فأجابه خير الدين بالموافقة، وسافر خير الدين متوجهاً إلى حلب، واحتفل

(1) انظر: فتوحات خير الدين ، محمد أمين ق270، أ، 270.

(2) انظر: جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس، ص316.

(3) المصدر السابق نفسه، ص316.

(4) المصدر السابق نفسه، ص 316.

الصدر الأعظم بمقدم خير الدين في حلب وأنزله في بعض القصور المهيبة، وفي اليوم الثاني من وصول خير الدين، وصل مبعوث من قبل السلطان ومعه خلعة وأمر بمقتضاه أن خير الدين من وزراء السلطان، ويلبس الخلعة فنصب الديوان الأعظم وألبسوه خلعة الوزارة واحتفل به احتفالاً مهيباً، وأكرم إكراماً عظيماً لما قدمه من خدمات للإسلام والمسلمين في حوض البحر المتوسط. ثم رجع خير الدين إلى استنبول وأكرمه السلطان سليمان غاية الإكرام وشرع خير الدين في النظر في أمر دار الصناعة كما رسم له السلطان(1).

وبعد أن تم إعداد الأسطول العثماني الجديد خرج خير الدين بربروسا بأسطوله القوي من الدردنيل متجهاً نحو سواحل إيطاليا الجنوبية، فاستطاع أن يأسر الكثير منها، وأغار على مدنها وسواحلها، ثم اتجه نحو جزيرة صقلية، فاسترجع كورون وليباننتو(2)، كان السلطان سليمان قد تشاور مع خير الدين بربروسا بأهمية تونس وضرورة دخولها في إطار استراتيجية الدولة العثمانية، لتحقيق هدفها نحو استرداد الأندلس، وتأتي أهمية تونس بالنسبة للدولة من حيث موقعها الجغرافي إذ تقع في منتصف الساحل الشمالي لأفريقيا، وتوسطها بين الجزائر وطرابلس، ولقربها من إيطاليا التي تعتبر أحد جناحي الإمبراطورية الرومانية المقدسة، بينما يمثل الجناح الآخر إسبانيا، علاوة على ذلك مجاورتها لجزيرة مالطة مقر فرسان القديس يوحنا حلفاء الإمبراطور شارل الخامس، وأشد الطوائف المسيحية عداوة للمسلمين ثم الامكانيات الهائلة التي تتيحها موانئ تونس في التحكم في المواصلات البحرية في البحر المتوسط وهكذا تضافرت تلك العوامل على اضعاف الأهمية العسكرية على تونس(3).

كانت المرحلة الثانية بالنسبة لخير الدين بعد هجومه على السواحل الجنوبية لإيطاليا وجزيرة

(1) انظر: جهود العثمانيين لاسترداد الأندلس، ص 317.

(2) انظر: ليبيا بين الماضي والحاضر، حسن سليمان محمود، ص 166.

(3) انظر: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها (915-916).

صقلية هي تونس، وذلك لتنفيذ خطة الدولة، والتي تقتضي تطهير شمال افريقيا من الاسبان كمقدمة لاستعادة الأندلس، إذ سبق وأن أشار خير الدين بربروسا على السلطان سليمان القانوني في خطابه للسلطان الذي بعثه قبيل استدعاء السلطان له في 940هـ / 1533م، إذ قال فيه " ... إن هدفي إذا قدر لي شرف الاشتراك هو طرد الاسبان في أقصر وقت من أفريقيا، ومن الممكن أن تسمع بعد ذلك أن المغاربة قد أغاروا على الاسبان من جديد ليستعيدوا مملكة قرطاجة وأن تونس قد أصبحت تحت سلطانك أنني لا أبغي من وراء ذلك أن أحول بينك وبين توجيه قواتك ناحية المشرق كلا ... لأن هذا لن يحتاج لكل ما تملك من قوات ولاسيما أن حروبك في آسيا أو أفريقيا تعتمد أكثر ما تعتمد على قوات برية، أما هذا الجزء الثالث من العالم فإن كل ما أطلبه هو جزء من أسطولك وسيكون ذلك كافياً، لأن هذا الجزء يجب أن يخضع لسلطانك أيضاً ... (1).

وصل الأسطول العثماني تحت قيادة خير الدين إلى السواحل التونسية فخرج على مدينة عنابة، وتزود ببعض الامدادات، ثم تقدم نحو بنزرت ثم اتجه إلى حلق الواد، إذ تمكن منها بدون صعوبة (2) ، واستقبل خير الدين من قبل الخطباء والعلماء، وأكرموه وتوجهوا إلى تونس في نفس الوقت وهرب السلطان الحفصي الحسن بن محمد إلى اسبانيا (3) ، ثم عين خير الدين الرشيد أخو الحسن بن محمد على تونس، وأعلن ضم تونس للأملاك العثمانية، في وقت بدت فيه سيادة العثمانيين في حوض البحر المتوسط الغربي (4) .

ثامناً: أثر جهاد خير الدين على المغرب الأقصى

استفاد السلطان أحمد الأعرج السعدي من الجهود التي بذلتها الدولة العثمانية والشعب الجزائري

(1) فتح العثمانيين عدن، محمد عبداللطيف الجراوي ، ص127.

(2) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص230.

(3) انظر: جهود العثمانيين لاسترداد الأندلس، ص319.

(4) انظر: فتح العثمانيين عدن، ص128.

بقيادة خير الدين بربروسا، فقام بمحاصرة مدينة أسفي بأزمور وذلك سنة 941هـ / 1534م، وكادت المدينة أن تقع بيد السعديين لولا النجيدات التي بعثها البرتغاليون للمدينة المحاصرة، وقد بدأ وكان تعاوناً قد حصل بين العثمانيين والقوى الإسلامية في المغرب ضد المسيحيين ومراكزهم في الشمال الأفريقي وعندما سمع الملك البرتغالي جان الثالث بوصول الأسطول العثماني في 3 ربيع الأول 941هـ / 13 سبتمبر؟ بقيادة خير الدين بربروسا إلى الشمال الأفريقي، فكر في الجلاء عن بعض المراكز مثل سبته وطنجة باعتبارها مناطق حيوية للدفاع عن مصالح المسيحيين في غرب البحر المتوسط، ولصد الهجوم العثماني عن شبه الجزيرة الأيبيرية بعث الملك يوحنا الثالث استفتاء إلى جميع الوجهاء والأعيان والأساقفة في بلاده يستشيرهم في موضوع الجلاء عن بعض مراكز الوجود البرتغالي في جنوبي المغرب، وكان المطلوب الإجابة على الأسئلة الآتية: هل ينبغي ترك أسفي وأزمور للمغاربة، هل ينبغي الجلاء عنهما أو عن بعضهما؟ وإذا كان ينبغي الاحتفاظ بهما هل تحول إلى حصون للتقليل من حجم المصروفات؟ ثم ماهي الأضرار الناتجة عن ذلك؟ وكيف نتفادها؟ .

تلقى الملك البرتغالي أجوبة عديدة بين مؤيد في الإبقاء على المناطق الجنوبية في حوزة البرتغاليين وبين معارض، وكانت أجوبة رجال الدين للملك جان الثالث موحدة تقريباً تضمنت النصح بالتخلي عن المراكز الجنوبية، يحول الملك كل وسائل الدفاع الموجودة هناك إلى المركز الشمالي لصد الخطر العثماني بقيادة خير الدين بربروسا فأسقف ينصح بإخلاء سانتاكروز وأسفي وأزمور لأن أهميتها أقل بكثير من النفقات التي تصرف عليها، ويرى توجيه القوى ضد فاس، كما ينصح بتحسين وسائل الدفاع عن سبته خوفاً من هجوم خير الدين عليها(1).

إن الوجود العثماني في الجزائر أثر على موقف الملك البرتغالي في المغرب إذ تراجع عن القيام بعمليات عسكرية فيه، كما أدخل استيلاء العثمانيين على تونس الحيرة لدى البابا،

(1) انظر: جهود العثمانيين لاسترداد الأندلس، ص320.

والإمبراطور شارل الخامس الذي اعتبر ذلك تهديداً مباشراً للمسيحية، ولخطوط مواسلاته البحرية مع أطراف مملكته (1) ، فوصل التهديد العثماني أقصاه فضلاً عن أن الدولة العثمانية ضمنت السيطرة على الممرات الضيقة بين صقلية وأفريقيا (2).

تاسعاً: استيلاء شارل الخامس على تونس

كان الموقف ملائماً بالنسبة لاسبانيا وذلك للقيام برد عنيف فقد انشغلت الدولة العثمانية بالحرب مع الشيعة الروافض في بلاد فارس، وطغى على الصراع في أوروبا ووعد فرنسوا الأول ملك فرنسا شارل الخامس بالحياد - تردد شارل في اختيار المكان الذي سيوجه إليه ضربته في شمال أفريقيا الجزائر أو تونس ولكن استنجد السلطان الحفصي الحسن بن محمد والرغبة في عزل استانبول دفع شارل الخامس إلى اختيار تونس للهجوم (3) قاد شارل الخامس عملية بحرية شاقة تكونت من ثلاثين ألف مقاتل اسباني وهولندي وألماني ونابولي وصقلي، على ظهر خمسمائة سفينة، وركب الإمبراطور البحر من ميناء برشلونة وعندما رست سفنه أمام تونس قامت المعارك العنيفة بين الطرفين (4)، الأمر الذي أعاد السيطرة الاسبانية على تونس في 942هـ/1535م (5) إذ لم تكن قوة خير الدين بكافية للرد على ذلك الهجوم، فكان الجيش الاسلامي تعداداه سبعة آلاف جندي عثماني وصلوا مع خير الدين ونحو خمسة آلاف تونسي، كما تخلف الأعراب عن الجهاد فكانت النتيجة الحتمية أن استولى شارل على معقل حلق الوادي مرسى تونس، تونس (6)، ونصب الاسبان الحسن بن محمد حاكماً عليها، وعملاً بمنطوق المعاهدة كان الحسن بن محمد سيسلم

(1) رسالة غرناطة الى السلطان سليمان ، عبدالجليل التميمي عدد(3) تونس.

(2) انظر: جهود العثمانيين لإسترداد الأندلس، ص321.

(3) انظر: تاريخ الجزائر الحديث، محمد خير فارس، ص34.

(4) انظر: حقائق الأخبار عن دول البحار (420/1).

(5) انظر: جهود العثمانيين لإسترداد الأندلس، ص321.

(6) انظر: حرب الثلاثمائة سنة ، ص321.

بونه والمهدية الى شارل الخامس، فاستولى على بونة، وبما أن المهدية كانت في حوزة العثمانيين ، فإن الحسن لم يستطع الوفاء بعهده فاشتراط الاسبان عليه أن يكون حليفاً ومساعداً لفرسان القديس يوحنا بطرابلس⁽¹⁾، وأن يقوم بمعادة العثمانيين وأن يتحمل نفقات ألفي اسباني على الأقل يتركون كحامية في قلعة حلق الواد وعاد شارل الخامس الى اسبانيا واستقبل استقبال الغزاة الفاتحين في الوقت الذي كان فيه السلطان يحارب فيه الدولة الصفوية الشيعية الرافضية لبلاد فارس⁽²⁾.

عاشراً: عودة خير الدين إلى الجزائر :

عاد خير الدين إلى الجزائر بعد هزيمته في تونس، واستقر أول الأمر بمدينة قسطنطينية، ومن هناك أخذ يستعد لاستئناف الجهاد ضد الاسبان في الجبهات التي يحددها، وكان لزاماً على خير الدين وقد استقر مؤقتاً بمدينة الجزائر نظراً لالتزاماته التي تفرضها عليه خطته الجديدة كقبودان باشا للأسطول الإسلامي العثماني أن يشعر شارل الخامس بوجوده، وأن يرد على ضربة تونس بضربة مثلها فقام بالهجوم على جزر البليار الاسبانية وعلى سواحلها الجنوبية، فاجتاز مضيق جبل طارق، وأطلق العنان لنفسه بالانقضاض على السفن الاسبانية والبرتغالية العائدة من الأراضي الأمريكية، والمحملة بالذهب والفضة، فاهترت لتلك الأحداث جميع الأوساط المسيحية، وأقلقت شارل الخامس الذي اعتقد أن خير الدين لن يقوى شأنه بعد حادثة تونس السابقة في 942هـ / 1935م⁽³⁾، من ناحية أخرى دخلت الدولة العثمانية في تحالف رسمي مع فرنسا في 943هـ/1536م، ويعتبر ذلك هو رد الفعل على الهجوم المضاد الذي قام به الاسبان على

(1) انظر: الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، عزيز سامح، ص38.

(2) انظر: فتح العثمانيين عدن، ص130.

(3) انظر: حرب الثلاثمائة سنة ، ص241، 236، 227، 242.

تونس (1) وبدا وكأن الإمبراطورية الرومانية المقدسة قد طوقت من قبل خصومها الفرنسيين والعثمانيين مما أدى إلى استئناف الحروب بينهما من جديد كما صارت أهداف إسبانيا والبرتغال واحدة وذلك في احتلال مراكز في بلاد المغرب بالإضافة إلى خوفهم من تقدم العثمانيين داخل شبه الجزيرة الأيبيرية.

الدبلوماسية البرتغالية وتفكيت وحدة الصف في الشمال الأفريقي :

تلقى الملك أحمد الوطاس هزيمة 943هـ/1536م من السعديين في موقعة بئر عقبة قرب وادي العبيد، بسبب تخلي قبائل الخلوط التي كادت تكون القوة الأمامية للجيش الوطاسي، ونشرت الفوضى في سائر الجيش وأثر هذه الهزيمة تقرب أحمد الوطاسي من البرتغال وذلك نتيجة شعوره بانشغال العثمانيين في حروبهم ضد الأسبان ووقع معهم معاهدة لمدة أحد عشر عاماً (2) تقضي بوضع المغاربة المقيمين في ضواحي أصيلا وطنجة والقصر الصغير تحت السلطة القضائية لملك فاس، كما يجوز لرعايا الملك الوطاسي المتاجرة بحرية داخل تلك المناطق باستثناء تجارة الأسلحة والبضائع المحظورة وإذا وصلت مراكب عثمانية أو فرنسية أو تابعة لمسيحيين من غير الأسبان ولا البرتغاليين إلى أراضي برتغالية، محملة بغنائم أخذت من المغاربة فلن يشتري منها شيء، وكذلك الحال بالنسبة للمغاربة لن يشتروا من العثمانيين ويتم الاستيلاء على الغنائم وترد من طرف لآخر مالم يسمح قوات العدو في مهاجمتها (3).

حاول البرتغاليون كذلك عقد هدنة مع السعديين، فبعثوا وفداً إلى مراكش للتفاوض مع المولى أحمد الأعرج الذي استجاب لذلك، لأنه كان في حاجة إلى تنظيم أمور دولته الناشئة سيما بعد الانتصارات التي حققها ضد خصومه الوطاسيين في موقعة بئر عقبة 943هـ/1536م، واتفق

(1) انظر: جهود العثمانيين لإسترداد الأندلس، ص 323.

(2) انظر: جهود العثمانيين لإسترداد الأندلس، ص 323.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 323.

البرتغاليون مع السعديين لعقد هدنة بينهما في 25 ذي القعدة 944هـ / 25 أبريل 1537م لمدة ثلاث سنوات، مع إقامة تبادل تجاري بين رعايا الطرفين (1) كان هدف البرتغاليين من التقرب مع الوطاسيين والسعديين هو الحيلولة دون قيام تعاون حقيقي بين العثمانيين من ناحية والوطاسيين والسعديين من ناحية أخرى، لأن أي تعاون من هذا القبيل معناه تهديد لمصالح شبه الجزيرة الأيبيرية في المغرب، والأهم من ذلك خوف إسبانيا والبرتغال من تقدم الدولة العثمانية داخل شبه الجزيرة الأيبيرية، وتحقيق هدفها في استرداد الأندلس (2).

المبحث الخامس

المجاهد الكبير حسن آغا الطوشي

اشتغل خير الدين بربروسا بحكم منصبه قبودان باشا بالعمل في الأسطول العثماني وبدأ نشاطه في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، بينما استمر حسن آغا الطوشي في منصبه المستخلف عليه نائب البيلر بك يعمل على قهر القرصنة الأوربية فأبلى في سبيل ذلك البلاء الحسن، وصار

(1) المصدر السابق نفسه، ص 324.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 324.

شخصه في الجزائر مثلاً بارزاً في البطولة والتضحية الإسلامية في سبيل الدفاع عن بلاد الإسلام في الشمال الإفريقي فاكسب الجزائر مهابة وجلالاً وجعلت الأمم المسيحية تهرع على أهلها الأكبر الإمبراطور شارل الخامس مستجدة بسلطانه منضوية تحت لوائه، ومن بينها البابا بول الثالث، وقد حاول شارل الخامس 1539م/946هـ عقد هدنة مع خير الدين إلا أنه خاب أمله(1) ، مثل ما خاب في محاولته السابقة عندما عرض على خير الدين سرّاً الاعتراف به حاكماً لشمال إفريقيا مقابل جزية بسيطة، إذ كان شارل الخامس يأمل في قيام تحالف إسباني جزائري يجابه به التحالف الفرنسي العثماني ويعمل على فصل شمال إفريقيا عن استنبول على أمل أنه إذا تحقق ذلك فلن تستطيع شمال إفريقيا إبداء مقاومة قوية يكون من السهل سقوطها(2).

انهمك حسن آغا الطوشي في توطيد الأمن، ووضع الأسس للإدارة المستقرة ومحاولة جمع أطراف البلاد حول السلطة المركزية الجزائرية(3) ، فأخضع مدينة مستغانم لدولته ثم تقدم نحو الجنوب الشرقي فاستولى على عاصمة الزاب بكرة وملحقاتها، وشيد هناك حصناً وأقام به حامية. ركب الجيش العثماني في شهر جمادي الأول 949هـ/ سبتمبر 1539م البحر، وكان قوامه 1300 رجل ، على ظهر ثلاث عشرة سفينة واندفعوا عنها من الإسبان نزل حسن آغا وجيشه إلى البر فاحتل البلدة وتمكن منها، واستحوذ على مافيها من خيرات وأرزاق وغنائم للمسلمين وتوغل في جهات الساحل الإسباني الجنوبي، وغنم ماوقع تحت يده من أموال ومتاع الإسبان ويختار من بينهم جماعات من الأسرى والسبايا يسوقهم للبيع في المدن المغربية الشمالية خاصة تطوان ثم يعود للميدان وعندما أراد الرجوع إلى الجزائر اعترضت طريقه عمارة إسبانية كبيرة العدد، وقامت المعركة بين القوتين وكانت عنيفة قاسية، أسفرت عن غرق عدد من سفن الجانبين ومع ذلك كانت

(1) انظر: تاريخ الجزائر العام، عبدالرحمن الجيلالي (62،63/3).

(2) انظر: تاريخ الجزائر الحديث، ص35.

(3) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص279.

خسائر الاسبان في هذه المعركة عظيمة(1).

عزم شارل الخامس على القيام بحملة عسكرية تستهدف القضاء على حركة الجهاد الإسلامي في الحوض الغربي للبحر المتوسط وقبل أن يشرع في تنفيذها كان هدوءاً نسبياً يسود القارة الأوروبية إثر عقد هدنة نيس في محرم 945هـ/ يونيو 1538م مع فرنسا والتي كانت مدتها عشر سنوات(2) رسا شارل الخامس أمام مدينة الجزائر في يوم الثامن والعشرون من شهر جمادي الأخيرة سنة 948هـ الموافق الخامس عشر من شهر اكتوبر 1541م وعندما شاهده حسن آغا الطوشي، اجتمع في ديوانه مع أعيان الجزائر وكبار رجال الدولة، وحثهم على الجهاد والدفاع عن الإسلام والوطن قائلاً لهم " ... لقد وصل العدو عليكم ليسبي أبناءكم وبناتكم، فاستشهدوا في سبيل الدين الحنيف... هذه الأراضي فتحت بقوة السيف ويجب الحفاظ عليها، وبعون الله النصر حليفنا، نحن أهل الحق... "، فدعا له المسلمون وأيدوه في جهاد العدو، ثم بدأ حسن آغا في إعداد جيوشه والاستعداد للمعركة(3).

من ناحية أخرى بدأ الاسبان في تحضير متاريسهم وتعجب شارل الخامس لاستعدادات حسن آغا وأراد أن يستهزئ به، فأمر كاتبه بإعداد خطاب لحسن آغا جاء فيه " ... أنت تعرفني أنا سلطان .. كل ملة المسيحيين تحت يدي إذا رغبت في مقابلتي سلمني القلعة مباشرة.. أنقذ نفسك من يدي وإلا أمرت بإنزال أحجار القلعة في البحار، ثم لا أبقى عليك ولاسيدك ولا الأتراك، وأخرب كل البلاد... " وصل ذلك الخطاب إلى حسن آغا وأجاب عليه "...أنا خادم السلطان سليمان ... تعالى واستلم القلعة ولكن لهذه البلاد عادة، أنه إذا جاءها العدو، لايعطي إلا الموت"(4) ، وفي

(1) المصدر السابق نفسه، ص280.

(2) انظر: تاريخ الجزائر الحديث، محمد خير ، ص36.

(3) انظر: جهود العثمانيين ، ص326.

(4) المصدر السابق نفسه، ص326.

رواية : (غزت اسبانيا الجزائر في عهد عروج مرة، وفي عهد خير الدين مرة، ولم تحصل على طائل، بل انتهبت أموالها وفنيت جنودها، وستحصل المرة الثالثة كذلك إن شاء الله "(1).
وفي الليلة ذاتها، وصل إلى معسكر شارلكان رسول من قبل والي الجزائر يطلب إنذاراً للسماح بحرية المرور لمن أراد من أهل الجزائر وخاصة نساءها وأطفالها مغادرة المدينة عبر (باب الواد) وعرف (شارلكان) أن حامية الجزائر مصممة على الدفاع المستميت، وأنه من المحال احتلال الجزائر إلا إذا تم تدميرها تدميراً تاماً. ولم يكن الإمبراطور قد أنزل مدفعية الحصار حتى تلك الساعة، فلم يتمكن بذلك من قصف الجزائر بالمدفعية، وفي الوقت نفسه كان المجاهدون يوجهون ضرباتهم الموجعة إلى القوات الاسبانية، في كل مكان، حتى قال أحد فرسان مالطة في تقريره عن المعركة: " لقد أذهلتنا هذه الطريقة في الحرب، لأننا لم نكن نعرفها من قبل "(2). وكانت أعداد المجاهدين تتعاضد باستمرار بفضل تدفق مقاتليهم من كل مكان بمجرد سماعهم بإنزال القوات الاسبانية وكان المجاهدون يستفيدون في توجيههم لضرباتهم من معرفتهم الدقيقة بالأرض واستخدامهم لمميزاتها بشكل رائع وسخر الله لجنود الإسلام الأمطار والرياح والأمواج (وهبت ريح عاصف استمرت عدة أيام واقتلعت خيام جنود الحملة وارتطمت السفن بعضها ببعض مما أدى إلى غرق كثير منها وقذفت الأمواج الصاخبة ببعض السفن إلى الشاطئ وهجم عليها المدافعون المسلمون واستولوا على أدواتها وذخائرها، أما الأمطار فقد أفسدت مفعول البارود. وفي وسط هذه الكوارث حاول الإمبراطور مهاجمة مدينة الجزائر، إلا أن كل محاولاته باءت بالفشل .. (3)
وظهرت بطولات رائعة من القائد (الحاج البشير) الذي استطاع بجنوده أن يحصد رؤوس النصارى بشجاعة فائقة، وبسالة نادرة، وبطولة رائعة لقد استطاعت القيادة العسكرية الجزائرية أن

(1) انظر: خير الدين بربروس ، بسام العسلي ، ص108.

(2) المصدر السابق نفسه، ص153.

(3) انظر: الدولة العثمانية دولة اسلامية (919/2).

تستفيد من الوضع المحيط بالنصاري، ووجهت جنودها بطريقة متميزة في الكر والفر أفنت جزءاً كبيراً من الأعداء واضطر الإمبراطور إلى الانسحاب مع بقية جنوده على ما تبقى لهم من سفن واتجه بأسطوله إلى إيطاليا بدلاً من إسبانيا وكان من العوامل التي ساعدت على إلحاق هذه الهزيمة بالإمبراطور، القيادة الرشيدة والتفاف الشعب الجزائري حولها وتدفق رجال القبائل إلى ساحة الوغى طلباً للشهادة في سبيل الله، ودفاعاً عن الإسلام والمسلمين، وقد شبه أهل الجزائر هذه الهزيمة بهزيمة أصحاب الفيل التي ورد ذكرها في القرآن الكريم فقالوا في رسالة وجهوها إلى السلطان سليمان إن الله سبحانه وتعالى عاقب شارل الخامس وجنوده " بعقاب أصحاب الفيل، وجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم ريحاً عاصفاً وموجاً قاصفاً، فجعلهم بسواحل البحر مابين أسير وقتيل، ولانجا منهم من الغرق إلا قليل "(1).

لقد قام سكان الجزائر - سواء أهل الأقليم الأصليين أو مسلمي الأندلس الذين فروا بدينهم إلى الجزائر - بعثوا برسالة في الشهر التالي لهزيمة شارل الخامس إلى السلطان سليمان وقد أوضحت هذه الرسالة الأحوال المؤلمة والمفجعة التي تحيط بالمسلمين الذين احتفظوا بدينهم في إسبانيا بعد أن طويت صفحة الحكم الإسلامي في الأندلس وتعرضهم لاضطهاد السلطات المسيحية ولمحاكمات ديوان التحقيق - محاكم التفتيش وإحراقهم، وأشادت الرسالة بالخدمات الجليلة التي أداها للإسلام خير الدين باشا " المجاهد في سبيل الله، وناصر الدين، وسيف الله على الكافرين ". ومضت الرسالة تقول إن أهل الأندلس قد سبق لهم أن استغاثوا به فأغاثهم " وكان سبباً في خلاص كثير من المسلمين من أيدي الكفرة المتمردين ونقلهم إلى أرض الإسلام " وأصبحوا من رعايا الدولة العثمانية المخلصين. وحددت الرسالة مطلبين أساسيين:

1- إرسال نجدات عسكرية " لنصرة الجزائر، لأنها سياج لأهل الإسلام، وعذاب وشغل لأهل الكفر والطغيان، وهي موسومة باسمكم الشريف، وتحت إيالة مقامكم المنيف، وقد أصبحت القلوب

(1) الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها (920/2).

المنكسرة بها عزيزة، والرعية المختلفة بها مؤتلفة أليفة" (1).

2- إعادة خير الدين باشا إلى منصبه السابق - بكلر بك الجزائر - " فهو المتمثل لأوامر مولانا، لأنه أحيا هذا الوطن، وأرعب قلوب الكفار وخرب ديار المردة والفجار، وإنه لهذا الوطن نعم ناصر، وجميع أهل الشرك منه خائف وحائر" (2).

وصل خير الدين بربروسا إلى مدينة الجزائر للاسهام في الدفاع عنها توفيق الله للمسلمين وسواعدهم قد قضت على أسطول الاسبان فاكتفى بتقصد أمور البليبركية واطلع على سير الأمور فيها، ثم انطلق بأسطوله نحو البلاد الاسبانية يذيقها العذاب الأليم، وأنعم السلطان سليمان على حسن آغا الطوشي برتبة الباشوية، لدوره الفعال في النصر وخلي البحر المتوسط تقريباً من الأساطيل الأسبانية التي كانت تضمد جراحها وتحاول استرجاع قوتها، فانطلقت السفن العثمانية نحو السواحل الاسبانية والايطالية وتوالت هنالك الغزوات وساد الرعب والفرع تلك النواحي التي بقيت مفتوحة في وجه العثمانيين يتوغلون داخلها ويغنمون مافيها(3)، كما صارت الدولة الأوربية تعمل للعثمانيين حساباً، فاهتز بذلك مركز الاسبان في وهران وغيرها من مناطق نفوذهم في الشمال الافريقي(4)، وحقق السعديون على صعيد آخر نصراً كبيراً على البرتغاليين وفتحوا حصن سانتاكروز، وما أن علم الملك البرتغالي جان الثالث بهذا الخبر حتى أمر حاميات آسفي وأزمور بالجلء فوراً عنها، وقد وجه الملك جان الثالث في هذا الشأن إلى سفيره بمديرد رسالة مؤرخة في الثاني والعشرين رمضان 948هـ/ ديسمبر سنة 1541م، يطلع فيها الامبراطور الاسباني شارل الخامس، حيث جاء فيها ذكر للاسباب التي اجبرت البرتغال على اتخاذ قرار الجلاء عن قاعدتي

(1) الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها (921/2).

(2) المصدر السابق نفسه (921/2).

(3) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص213.

(4) انظر: المغرب العربي الكبير، شوقي عطا الله الجمل، ص9.

لاسفي وأزمور فبالإضافة إلى موقعها الحرج هناك تزايد قوات السعديين بفضل المساعدات العثمانية، حيث صار الحاكم السعدي يملك المدفعية العثمانية، والآلات الحربية، وعلى جنود مدربين وظهرت تلك الإمدادات عند حصار سانتاكروز، مما جعل الاحتفاظ بهذين المركزين أمراً شاقاً وصعباً، ثم أن الجلاء عن أسفي وأزمور ليس معناه التخلي عن المغرب، فقد أعطيت الأوامر لتحسين مازكان لسهولة استغلال مينائها طوال أيام السنة⁽¹⁾، يظهر من ذلك مدى اهتمام الدولة العثمانية في تقديم المساعدة للقوى الإسلامية في المغرب ضد المسيحيين المتواجدين فيها وذلك لأن الدولة ترغب في تأمين ظهرها حتى يتسنى لها الهجوم، فرغبت الدولة هنا في مساعدة السعديين لينهوا التواجد البرتغالي في المراكز الجنوبية من المغرب، ثم ليعبروا للأندلس، لأن المغرب يمثل أقرب نقطة للعبور⁽²⁾.

مصير شارلكان :

كان فشل شارلكان (شارل الخامس) في حملته على الجزائر، ذا أثر عميق لا على الإمبراطورية الإسبانية، ولا على ملكها شارلكان، وإنما على مستوى الأحداث العالمية. وقد حفظ الشعر العربي هذا الحدث الذي قيل فيه:

سلوا شرلكان كم رأى من جنودنا

فليس له إلا هُم من زواجر

فجهز اسطولاً وجيشاً عرمرماً

ولكنه قد آب أوبة خاسر

ونزلت أنباء الهزيمة نزول الصاعقة على أوروبا وتطورت الأحداث هناك هنالك بسرعة. فلم يبقى حليف للإمبراطور سوى هنري الثالث ملك إنكلترا، وانضم إلى ملك فرنسا الدوق (دي كليف

(1) انظر: جهود العثمانيين ، ص328.

(2) المصدر السابق نفسه، ص328.

(وملك الدانمارك وملك اسكندنافيا. وكان فرح الفرنسيين عظيماً لأن سقوط الجزائر كان يؤدي لامحالة إلى سقوط فرنسا، وبادر ملكها فرنسوا الأول لإبرام معاهدات مع السلطان العثماني وكان لهذه الغارة أيضاً نتائج معنوية داخل الشمال الأفريقي وأما في أوروبا (بقى رعب المسلمين في قلوب أهل أوروبا لمدة طويلة). ولم يعد شارل الخامس قادراً على التفكير في حملة أخرى ضد الجزائر وطغى شبح خير الدين وحسن آغا على العامة والخاصة حتى أصبح الناس إذا رأوا جفنأ عن بعد نسبوه إلى خير الدين، فيتصاعد الصراخ ويكثر العويل ويفر السكان من ديارهم ومن حقولهم ومتاجرهم. وإذا حطمت الزوابع مركباً توهم الناس أن خير الدين ببروسة هو الذي أثار البحر وهيجه وأغراه على اغراق سفنهم. وبلغ الخوف من قادة الجزائر أقصى درجة حتى أصبح أهل اسبانيا وإيطاليا إذا ما حدثت جريمة أو سرقة أو وقع فساد أو تخريب أو مرض أو وباء أو قحط قالوا خير الدين وأصحابه هم السبب في ذلك (1) - وكانوا في نحبيهم يقولون:

بربروشة	بربروشة
أنت صاحب	كل شر
ما كان من	ألم أو عمل
مؤذ وجهنمي	مدمر
إلا والسبب	فيه
هذا القرصان	الذي
لانظير له في	العالم (2)
<u>وفاة حسن آغا الطوشي :</u>	

استمر حسن آغا في القيام بواجبه المقدس حتى وفاته 951هـ / 1544م فأجمع أهل الديوان في الجزائر على تولية الحاج بكير مكانه، وريثما يعين الباب العالي باستانبول الحاكم الجديد، الذي

(1) انظر: خير الدين بربروس ، ص200.
 (2) مجلة تاريخ وحضارة المغرب في كلية الآداب في الجزائر 1969م العدد 6 ص5934.

عين حسن ابن خير الدين وقدم في نفس السنة (1).

المبحث السادس

المجاهد حسن خير الدين ببروسة

شرع حسن بن خير الدين حال وصوله، ليستعد للجهاد ومواجهة المسيحيين، فعمل على تحصين مدينة الجزائر، وذلك في المناطق التي أظهر هجوم شارل الخامس عن ضعفها، كما أخذ

(1) انظر: تاريخ عام الجزائر، عبدالرحمن الجيلالي (84/3).

يعمل على توطيد النظام في الجزائر وبين صفوف الجيش، ثم انصرف إلى حل مشكلة تلمسان،

إذ تبين له أن بقاء الأسرة الزيانية ووجود الاسبان في وهران يعيقان حل المشكلة (1).

كان حاكم تلمسان (أبو زيان) أحمد الثاني قد تولى الحكم بدعم من العثمانيين، غير أنه مالبث أن خضع لمؤامرات خارجية وانساق في تيارها وأخذ يتقرب من الاسبان، مما أدى إلى كره الأهالي له وقرروا خلعهم عن العرش ومبايعة أحد أخوته (الحسن) فتوجه أبو زيان إلى وهران طالباً للدعم من الاسبان، مقدماً لهم التعهدات بأن يحفظ على ولائه لهم، فقرر حاكم وهران انتهاز هذه الفرصة، فجهز جيشاً، وانضم إليه جموع الخاضعين للاسبان من بني عامر وفليته وبني راشد وعلى رأسهم القائد المنصور من بو غنام، وتقدموا إلى تلمسان لابعاد الحسن، وإعادة تنصيب أبو زيان على عرش المدينة، وما أن علم حسن بن خير الدين بتحريك القوة الاسبانية، حتى قاد الجيش الإسلامي في تلمسان ليمنع الاسبان من الوصول إلى هدفهم، وتمكن حسن بن خير الدين من ذلك، ودعم حليفه الملك حسن في تلمسان (2) ، الذي اعترف بسلطة الدولة العثمانية كما ترك الباشا حسن بن خير الدين حامية عثمانية بقيادة القائد محمد في قلعة المشوار في تلمسان، إلا أنه مع ذلك ظل نفوذ الدولة العثمانية مهترأ خارج تلمسان، بسبب مضايقات بعض القبائل المجاورة بقيادة المزوار بن بوغنام، الذي يرغب في مساندة زوج ابنته الأمير مولاي أحمد، حليف الاسبان (3). قامت الدولة العثمانية بدعم السلطان الشريف السعدي بنحو عشرين ألف مجاهد، فالتفوا حوله، ودفعوه إلى بناء مراكز حربية للإستيلاء على اسبانيا، فوافق الشريف السعدي على ذلك وصرف لهم أجورهم ومكافآت لهم (4).

(1) انظر: تاريخ الجزائر الحديث لمحمد فارس، ص 39، 38.

(2) انظر: الجزائر والحملات الصليبية، ص 21-22.

(3) انظر: جهود العثمانيين ، ص 329.

(4) المصدر السابق نفسه، ص 330.

واستطاع الشريف السعدي أن ينهي الحكم الوطاسي وأصبح الأسبان متخوفين من هجوم عثماني سعدي مشترك، فقاموا بإنهاء استحكامات مليلة، وفرضت عدة إجراءات أمنية على جبل طارق وقادش وغير ذلك من الاحتياطات.

لقد ظهر السعديون أول الأمر كمحررين للمغرب من الوجود المسيحي فأكسبهم ذلك تأييد المسلمين، إذ اعتبروا ذلك نوعاً من الجهاد فقدمت الدولة العثمانية مساعدات كبيرة لتحقيق ذلك، ثم عرضت على السعديين مشروع استرداد الأندلس، إلا أنه بعد أن دانت بلاد المغرب للشريف السعدي وانتهاء الحكم الوطاسي، توجه الشريف بأنظاره نحو تلمسان، فأرسل جيوشاً كبيرة لإنهاء الحكم العثماني فيها، وعندما شعر العثمانيون بتلك الأطماع وانحرف الشريف السعدي عن الهدف الإسلامي أرسلت له حملات ليعود إلى بلاده(1).

استمر المجاهدون في شمال أفريقيا يهددون أمن غرب البحر المتوسط فقاموا بمناوشات بحرية أزعجت التجارة والسفن المحملة بين اسبانيا وإيطاليا وغض المجاهدون من أهالي الشمال الأفريقي الجزء من البحر المتوسط بين سردينيا والساحل الأفريقي، وبذلك اضطرت السفن المسيحية أن تطرق الطرق الأكثر أماناً بالقرب من رأسي كورسيكا ولكن الاحتلال الفرنسي للرأس بمساعدة العثمانيين هددوا أيضاً الاتصالات بين اسبانيا وإيطاليا، ولم تكن هناك مهلة لشارل الخامس في الدفاع عن الطرق البحرية ضد القسطنطينية التي كانت حلمه منذ سنوات طفولته، كما أنه صار غير قادر على تقديم مصالح مباشرة لاسبانيا(2).

أولاً: آخر أيام خير الدين بريوسة:

استمر خير الدين في قيادة الأسطول العثماني وحقق انتصارات رائعة هزت أوروبا كلها وبعد أن تحالفت الدولة العثمانية مع فرنسا جعل خير الدين من مدينة (مارسيليا) قاعدة لقيادته ومقرراً

(1) انظر: جهود العثمانيين، ص334.

(2) المصدر السابق نفسه، ص356.

لاسطوله وهناك -في مارسيليا- باع خير الدين ورجال اسطوله الغنائم التي حملوها معهم من اسبانيا، كما باعوا فيها رقيق الاسبان من الرجال والنساء. فتداولتهم أيدي القوم، واشتراهم الفرنسيون بضاعة رابحة، ثم اخذوا يبيعونهم بأرباح طائلة الى يهود (ليفورنو) الإيطالية، وكان هؤلاء بدورهم يعيدون بيع الأسرى الارقاء الى الامبراطور (شارلكان) بأرباح خيالية. وأنضم الاسطول الفرنسي الى الاسطول العثماني بأمر من ملك فرنسا. ووضع قائد الاسطول الفرنسي (الأمير فرانسوا دبو بوروبون) قواته تحت قيادة (خيرالدين) باعتباره القائد العام للقوات المتحالفة (العثمانية-الفرنسية) وكان أول عمل قام به (خير الدين) هو قيادة القوات لمهاجمة (نيس) وطرد حاكمها (دوق سافوا) وانتزاعها من الحكم الاسباني وإعادتها لملك فرنسا. ثم استقر خير الدين باسطوله في مدينة (طولون) وجعلها قاعدة للجيش الاسلامي والاسطول الاسلامي، بعد أن غادرها معظم سكانها بأمر ملك فرنسا وتركوها في ايدي المسلمين. ثارت ثائرة المسيحية جمعاء ضد هذا التصرف الأفرنسي، وأخذت الدعاية المضادة للمسلمين تجتاح أرجاء أوروبا، يحملها الاسبان وغلاة الصليبية، ويستثمرونها الى أقصى الحدود. ومن ذلك قولهم: (ان خير الدين قد اقتلع أجراس الكنائس، فلم تعد تسمع في طولون إلا أذان المؤذنين) وبقي خير الدين والجنود الاسلامي بمدينة طولون حتى سنة 1544م.

وكان (شارلكان) أثناء ذلك قد هاجم شمال شرقي فرنسا وانهزم تحت جدران (شاتوتيري)⁽¹⁾ ثم اضطر للذهاب الى ألمانيا، حيث كانت حركة التمرد البروتستانتية ضد الكاثوليكية بصفة عامة، وضده بصورة خاصة، قد أخذت أبعاداً خطيرة. وأرغمه ذلك بعد أن هوى نجمه وذبل عوده بنتيجة نكبته أمام الجزائر -الى عقد معاهدة مع ملك فرنسا يوم 18 أيلول (سبتمبر) 1544م في مدينة (كريسبي دي فالوا). ونتج عن هذه المعاهدة جلاء (خير الدين) وقواته عن مدينة (طولون) ورجع الى العاصمة (استانبول). وبما أن الحرب لم تتوقف بين اسبانيا والمسلمين، فقد استمر (خير

(1) انظر: خير الدين بربروس للعسلي، ص 166.

الدين) في ممارسة الأعمال القتالية أثناء طريق عودته، فتوقف أمام مدينة جنوة، وارتاع مجلس شيوخها فأرسل له مجموعة من الهدايا الثمينة مقابل عدم التعرض للمدينة بأذى، فتابع (خير الدين) طريقه حتى وصل جزيرة (البا) التي كانت تحت حكم اسبانيا -والتي أصبحت منفى نابليون بونابرت فيما بعد- فاحتلها، وغنم ما بها، كما احتل عدداً من المدن الساحلية، من بينها مدينة (البياري) ورجع الى العاصمة بسفنه مثقلة بالغنائم فاستقبل كأحسن ماتستقبل به الأم أبناءها البررة. ولم يعمر خير الدين بعد ذلك طويلاً، ومضى الى جوار ربه ، وكان قد سبقه رفيق جهاده حسن باشا الطوشي سنة 1544م.

وغاب ب وفاة (خير الدين) نجم طالما أضاءت له سماء المسلمين في البر والبحر ، وانطوت بغيابه صفحة ناصعة من صفحات الجهاد في سبيل الله لتبدأ صفحة جديدة. لقد قاد خير الدين حروب الإيمان وحقق فوزاً عظيماً واتصف بالوفاء والاخلاص وإنكار الذات والاستعداد الدائم للتضحية والصدق والشجاعة بكل أشكالها ويحفظ لنا التاريخ رده على شارلكان عندما قال له (يجب ألا تنسى أن الاسبان لم يخذلوا في معركة، وأنهم قتلوا أخويه الياس وعروج، وان تمادى فيما هو عليه وركب رأسه فإن عاقبته ستكون كعاقبة أخويه). فأجاب خير الدين: (سترى غداً، وإن غداً ليس ببعيد، أن جنودك ستتطاير أشلاؤهم وإن مراكبك ستغرق، وإن قوادك سيرجعون إليك مكليين بعار الهزيمة). وعندما حاصر شارلكان الجزائر بعد وفاة عروج بربروسة خرج له خيرالدين ومعه حزم وعزم، وتلا على جميع قواده وجنوده قوله تعالى: { إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم} وتقدم للميدان ومعه رجاله، وقال لهم : (إن المسلمين في المشرق والمغرب يدعون لكم بالتوفيق ، لأن انتصاركم انتصار لهم، وإن سحقكم لهؤلاء الجنود الصليبيين سيرفع من شأن المسلمين وشأن الاسلام)(1).

(1) انظر: خير الدين بربروسة ، ص170،171.

فصاحوا كلهم (الله أكبر) وهاجموا الاسبان فأبادوهم عن آخرهم(1).

إن هذه الصورة لا تختلف أبداً، لا في شكلها ولا في مضمونها عن صور أولئك القادة المجاهدين في سبيل الله ، والذين خرجوا من جزيرتهم فحملوا الى الدنيا رسالة الاسلام. غير أن الموقف العام لم يكن في عهد (خير الدين) مشابهاً لما كان عليه أيام الفتح، فقد أخذ الضعف طريقه الى قلوب المسلمين وانظمتهم فقد كانوا من قبل تحت قيادة واحدة لاتسمح لأعداء الداخل بالظهور أو بممارسة دروهم في التأثير على التيار العام.في حين أصبح لهؤلاء دورهم في توجيه الأحداث وكان أخطر ما في الأمر أن هؤلاء كانوا يحتلون مراكزاً قيادية تسمح لهم بممارسة دور خطير ضد مواطنيهم وإخوانهم في الدين.

لقد كان من المحال تحقيق النجاح في مثل هذه العمليات لو لم تتوافر كفاءة قيادية عالية، تتولى إدارة المعركة في كل مرحلة من مراحلها الصعبة.

وقد توافرت العوامل الثلاثة للنصر: شعب مجاهد في سبيل الله ، وتطبيق رائع للعقيدة القتالية الاسلامية وقيادة على درجة عالية من الكفاءة.

بذلك انتصر (شعب الجزائر) وبذلك انتصر خيرالدين ، فكتب شعب الجزائر مع خير الدين تحت سيادة الدولة العثمانية قصته الرائعة في الجهاد والمجاهدين.

ولم يكن (خير الدين) قادراً على تحقيق مايريده لولا ما قام به شعب الجزائر المجاهد، وما كان شعب الجزائر ليصل الى هدفه لولا توافر قيادة حازمة مارس (خير الدين) دوره في تكوينها ووضعها لتصبح على مستوى الأحداث.

لقد مضى خيرالدين الى جوار ربه راضياً مرضياً، وبقيت الأمة الاسلامية تردد على مدى

الدهر تلك المواقف البطولية التي صنعتها العقيدة ومبادئ الجهاد وقيمه في سبيل الله(2).

(1) المصدر السابق نفسه، ص171.

(2) انظر: خير الدين بربروسة للعسلي، ص176.

كان حسن بن خير الدين ببروساً بعد أن هزم السعديين في تلمسان ووطد دعائم الحكم العثماني فيها 959هـ/1151م، انتهج سياسة مضادة لكل الدول الأجنبية ، بما فيها فرنسا التي كانت ترتبط بالدولة العثمانية بروابط رسمية جيدة، ساعدت الفرنسيين على الإفادة من الامتيازات الاقتصادية التي منحت لها مع استانبول والتي شملت جميع أقاليم الدولة العثمانية، غير أن حسن ابن خير الدين لم يلتزم بذلك ، وأعلن عداؤه لفرنسا في مناسبات عديدة فما كان من فرنسا إلا أن أرسلت سفيرها المعتمد في استانبول الى الجزائر يهدف معرفة المدى الذي سيصل إليه حسن بن خير الدين في عداؤه لفرنسا ، وفيما إذا كان هذا العداء سيؤثر على العلاقة الاقتصادية ما بين فرنسا وبيلربكة الجزائر .

اجتمع سفير فرنسا بالبيلربك حسن بن خير الدين ، وعرض عليه تقديم مساعدات عسكرية ، لتنفيذ مشروع الدولة العثمانية في مهاجمة اسبانيا ، ونجدة مسلمي الأندلس ، لكن حسن رفض هذا العرض، لمعرفته بمواقف فرنسا السابقة من الدولة العثمانية نفسها، وأعلن صراحة أن قضية الجهاد هي قضية خاصة بالمسلمين ، وبين بأنه لا ينتصر بكافر على كافر ورجع السفير الفرنسي الى استانبول ، حتى أوغر صدر الباب العالي بقوله: (ان السلطة الواسعة المطلقة التي يمارسها حسن بن خير الدين ومحاولته توسيع مملكته ستحطم وحدة الدولة العثمانية وتهدد كيانها بالانقسام)⁽¹⁾ خاصة وأن والدته من الاسر الجزائرية المعروفة.

رأت الدولة العثمانية أنه لزاماً عليها من تغيير سياستها في المنطقة خاصة بعد أن صار المغرب حليفاً قوياً لاسبان، مما أدى الى قلب الموازين الاستراتيجية رأساً على عقب فأخذ السلطان عدة تدابير لمواجهة الحالة الجديدة، ومن ذلك عزل السلطان سليمان القانوني بيلربك الجزائر حسن بن خير الدين بدعوى الاساءة الى حسن الجوار مع المغرب، كما دعا الى الوحدة

(1) انظر: الجزائر والحملات الصليبية للعسلي، ص30-32.

اسندت الدولة العثمانية بيلربيكيه الجزائر الى صالح رايس في صفر 960هـ/يناير 1552م، بدلاً من حسن بن خير الدين (2).

ثالثاً: رسالة السلطان سليمان القانوني الى حاكم فاس محمد السعدي:

(... هذا مثالنا الشريف العالي السلطاني وخطابنا المنيف السامي الخاقاني لازال نافذاً مطاعاً بالعون الرباني والصون الصمداني اصدرناه الى الجناب العالي الاميري الكبير الأكرمي الافخمي الاكلمي الارشدي، الاعدلي الهامي الماجد النصيري الذخيري الحسبي النسبي نسل السلالة الهاشمية فرع الشجرة الزكية النبوية طراز العصابة العلوية المحفوف بصنوف لطايف عواطف الملك الصمد حاكم ولاية فاس يومئذ الشرف محمد دام علوه وزاد سموه.

اصدرنا هذا المثال الشريف العالي الى جنابة العالي نخصه منا سلام بتكميل صلاة (الصلوات) المحبة بالتحيات الطيبات وتتأكد بعطره صلوات المودة بالتسليمات الزكيات وبعد فإن الله جلت قدرته وعظمت مشيئته منذ أقامنا في دولة هائلة نركب خيولها، ونعمة طائلة نسحب ذيولها وسيادة سائدة كالشمس وضحيها، وسعادة ساعيه كالقمر اذا تليها ، وخصنا خلافة جليلة عضد الايمان بها منصور ومنحنا سلطة ساعد الاسلام بها مرفوع لاجرم وجب علينا وتحتم على ذمتنا اداء (شكر) هذا اللطف الجسيم والاحسان العميم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، وكان ابداد ابنا، ودائماً عادتنا الاهتمام باجراء الشرع المبين وانقاذ سيد الأولين عليه الصلوة وعلى آله اجمعين والقيام في اطفاء نايرة الكفر والطغيان وطبي الظلم والعدوان ونشر العدل والاحسان ولما بلغ سمعنا الشريف ان أمير الأمراء بولاية الجزائر سابقاً حسن باشا لم يحسن المجاورة مع جيرانه ومال الى جانب العنف والاعتساف ونبذ وراء ظهره طرق الوفاق والائتلاف

(1) انظر: بداية الحكم المغربي للسودان الغربي لمحمد الغربي ، ص 90-91.

(2) انظر: المغرب في عهد السعدية، عبدالكريم كريم ، ص 79.

وسد باب الاتحاد مع المجاهدين حماة الدين، لذلك بدلناهم غيره، فأنعمنا بولاية الجزائر على مملوك حضرتنا العلية وخالصة خدام اعتابنا الجليلة امير الأمراء الكرام كبير الكبراء الفخام ذي الجلال والاكرام والاحترام صاحب الفرد والاحتشام المختص بمزيد عناية الملك الاعلى صالح باشا دام اقباله لفرط شهامته وشجاعته وكمال دينه وديانته فوضنا إليه تلك الديار وأمرنا باقامة الشراع (الشرع) الشريف المتين، واحياء تواقر سيد المرسلين وصون الرعايا وحفظ البرايا الذين هم ودائع الله تعالى وان يكون مع الاهالي الاسلام على أكمل اتحاد واجمل اتفاق مجدداً فيما يتعلق بالدولة والدين وقيام ناموس سلطاننا المتين مثابراً على دفع اعداء الدين وقمع الكفرة الفجرة المتمردين على ان اقصى مراد حضرتنا العلية احياء مراسم الاسلام واطفاء ثائرة الكفرة والمتمردين اللئام وذلك المرام يكون باتفاق امراء الاسلام واتحاد امناء شرع سيد الانام ويتم به النظام ولاينفي لاثارهم في الشهور والاعوام.

وأمرناه أيضاً أن ينظر الى احوال المسلمين بنظر الاشفاق والمراحم وينظر بينهم بكمال العدالة وحسن المكارم ليكونوا في ايام دولتهم العادلة أمنين مطمئنين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. ولا بد لكم ان تحسنوا المجاورة وتذهبوا طريق حسن المعاشرة مع كونكم أولاد سيد الأنبياء ، واحفاد سيد الاصفياء سمعنا عدلكم وانصافكم وبكمال التقوى وصفات الكمال اتصافكم ، ولذلك الشأن كتبنا اليكم منشوراً يوجب مضمونة المصافات ويشفي مكنونة ان تكون المودة في اقصى الغايات ولك ان تنبئوا باخباركم صحتكم الغالية الى اعتبانا العالية... (1).

تحريراً في أوائل شهر محرم سنة تسع وخمسين وتسعمائة، الموافق يناير 1552م بمقام ادرنة كما بعث السلطان سليمان القانوني بخطاب آخر الى حاكم المغرب محمد الشيخ السعدي، يمنحه بخلع، والخطاب عبارة عن مرسوم سلطاني قال فيه: (... هذا مثالنا الشريف .. الخ اصدرنا الى الجناب العالي حاكم فاس يومئذ الشريف محمد ... نخصه بسلام تتكمل به صلات المحبة

(1) انظر: جهود العثمانيين ، ص364.

بالتحيات الطيبات وتتأكد بعطره صلوات المودة بالتسليمات الزاكيات وبعد.

فان الله جلت قدرته وتعالى عظمتة منذ اقامنا في دولة هاييلة نركب خيولها، ونعمة طائلة نسحب ذيولها وسيادة سايدة كالشمس وضحيها.

وامضاء سني سنن سيد الاولين والآخرين ومظاهرة حماة الدين ومجاهدين الكفرة المتمردين وانت من اولاد سيد المرسلين وقائد الغر المحجلين صلوات الله عليه وسلامه وقد سمع سيدتنا العلية حسن اقدامك وكمال دينك وديانتك وخلوص طويتك وصفاء سيرتك وقيامك في الذب عن المسلمين وقمع اعداء الدين ولذلك الشأن حباك احساننا الشريف العالي السلطاني ورعاك جزيل فضلها السامي الخاقاني فأنعمنا عليك وعلى ولديك بثلاث خلع سنية لتكون صلة للمحبة منا وسبباً لنسج المودة بيننا، على ان اقصى مراد حضرتنا العلية ان تكون اهالي الاسلام وحماة دين النبي عليه السلام في ايام دولتنا العادلة في اكمل الراحة وأجمل الاستراحة آمنين مطمئنين لا خوف عليهم ولاهم يحزنون ان شاء الله تعالى....(1).

رابعاً : مرسوم السلطان العثماني بتقليد صالح رايس مقاليد الولاية:

بعث السلطان العثماني مرسومه الى العلماء والفقهاء وسائر رعايا الجزائر يعلمهم فيه بتقليد صالح رايس مقاليد الولاية وقد جاء في ذلك المرسوم مايلي: (... هذا مرسومنا .. ارسلناه الى العلماء والفضلاء والفقهاء والأئمة والخطباء وجميع العلماء والقواد والنقباء وسائر رعايانا بولاية الجزائر الغربية، زيد توفيقهم يتضمن اعلامهم ان صدقاتنا الشريفة العالية الخاقانية وعوارضنا السنية السامية السلطانية قد انعمت على مملوك حضرتنا العالية ومعتمد دولتنا القانية امير الأمراء الكرام... صالح باشا دام اقبالاً ، بولاية الجزائر لفرط شهامته وشجاعته وكمال قوته وصلابته وحسن سيرته وصفاء سريرته فوضنا إليه تلك الارض وأمرناه باحياء السنن والفروض والرعايا الذين هم ودائع الله تعالى وحفظ الثغور وسد خارق الأمور، لتكون رعايا أهل الاسلام ثمة في ايام دولتنا العادلة في اكمل الراحة، واجمل الاستراحة آمنين مطمئنين لاخوف عليهم ولاهم يحزنون،

(1) انظر: جهود العثمانيين، ص365.

فليكونوا مع أمير الأُمراء المشار إليه على أحسن حال واكمل اتفاق مراد حضرتنا قيام قاموس الشرع القويم والصراط المستقيم واحيائه مراسم الاسلام وطريقة سيد الانام وحفظ العباد وصون البلاد وقمع الكفرة الفجرة بكل ناد وتقبلوا ذلك وتعتمدونه والله تعالى هو الموفق بمنه ويمنه والعلامة الشريف حجة بمضمونه(1).

تحريراً في أوائل محرم سنة تسع وخمسين وتسعمائة الموافق يناير 1552م.

المبحث السابع

سياسة صالح الرايس

عمل صالح رايس في سياسته الداخلية على تحقيق امرين:

1- تحقيق الوحدة بصفة تامة مطلقة بين كل اجزاء الجزائر .

2- ادخال بقية اجزاء الصحراء الجزائرية ضمن هذه الوحدة حتى يتفرغ للاندلس، اما سياسته

الحربية الخارجية فقد كانت ترمي الى ثلاثة اهداف:

أولها: ابعاد الاسبان نهائياً عن اراضي الجزائر .

ثانيهما: وضع حد فاصل للمشاغبات والمفاجأت التي تقوم بها الدولة المغربية السعدية.

وثالثها: اعلان نفيير الجهاد العام والسير براً وبحراً على رأس الجيوش الاسلامية الى بلاد

الاندلس(2).

ابتدأ صالح رايس في مستهل ولايته بتحقيق الوحدة الداخلية، واستطاع ان يخضع الامارات

المستقلة لنفوذ الدولة العثمانية واصبح وضع العثمانيين في الجزائر أقوى مما كان عليه ثم بدأ

صالح رايس في مخططه نحو المغرب الأقصى واستفاد من الظروف التي تمر بها تلك الديار

ووقف مع احد افراد اسرة بني وطاس الذي فقد أمله في وقوف الاسبان والبرتغاليين معه.

(1) المصدر السابق نفسه، ص366.

(2) انظر: جهود العثمانيين ، ص366.

وتحركت القوات العثمانية للوقوف مع ابي حسون الوطاسي وحصلت اصطدامات عسكرية بين قوات محمد الشيخ والقوات العثمانية قرب بادس التي رسا بها الاسطول العثماني إلا أن الهزيمة لحقت بالقوات السعدية، مما أفسح المجال امام العثمانيين لكي يواصلوا زحفهم نحو الداخل، وقبل أن تنتهي سنة 963هـ/1553م، سقطت مدينة تازة في يد العثمانيين الذين اشتبكوا مع السعديين في معارك متواصلة اهمها بكدية المخالي في ساحة فاس، عند ذلك تقدمت القوات العثمانية ومعها ابو حسون نحو فاس التي دخلتها في 3 صفر سنة 964هـ/ 8 يناير 1554م(1).

واعلن الباب العالي ضم المغرب الى الدولة العثمانية بعد ان خطب الامام للسلطان العثماني(2).

ازداد فزع الاسبان والبرتغال لرؤية الاساطيل العثمانية وهي تسيطر على بعض الموانئ المغربية القريبة من مراكز احتلالهم التي سيطر عليها العثمانيين ومن ثم التوجه للاندلس، وقد جاء في الرسالة التي بعثها الملك البرتغالي (جان الثالث) الى الامبراطور شارل الخامس، مايدل على هذا الفزع اذ كتب إليه يحثه على التدخل في المغرب للحيلولة دون توطيد العثمانيين لاقدامهم في هذه البلاد، لان ذلك يشكل خطراً كبيراً على مصالح الأمتين(3).

مكث صالح رايس بمدينة فاس اربعة اشهر ضمن خلالها استقرار الامور للدولة العثمانية، وفي خلال تواجده في فاس لم يترك الجهاد ضد الاسبان فأرسل فرقة من جيشه الى الريف المغربي استرجع من الاسبان معقلهم الكبير باديس او صخرة فالين كما يدعونها(4)، كما حاول صالح رايس ان يستبدل الباشا العثماني ابا حسون بالشريف الادريسي الراشدي مولاي بوبكر، بناء على

(1) انظر: المغرب في عهد الدولة السعدية، ص 80-81.

(2) انظر: بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، ص 91.

(3) انظر: المغرب في عهد الدولة السعدية، ص 81.

(4) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص 342.

اقتراح المرابطين الصوفيين للقيام على حكم فاس باسم السلطان العثماني، إلا ان ثورة الأهالي اضطرت صالح رايس لاعادة بوحسون الى حكم فاس، فأذعن بوحسون لشروط العثمانيين بشأن الحفاظ على السيادة العثمانية من حيث الخطبة باسم السلطان العثماني واقامة حامية عثمانية في مقر بلاطة(1).

تمهيده للعمل المشترك في استرداد الاندلس:

لم يكن صالح رايس يهتم قبل كل شيء إلا بمحاربة الاسبان، ولا يهدف من وراء أي عمل إلا جمع القوى الاسلامية من أجل تطهير البلاد من التواجد المسيحي، كان يرى قبل كل شيء وجوب طرد الاسبان من وهران، من النزول الى الاندلس، لكن كيف يتسنى له ذلك وسلطان السعديين بالمغرب يترقب به الفرص وسلطان قلعة بني عباس ببلاد مجانة يعلن انفصاله واستقلاله، ترامت لصالح رايس يومئذ الانباء عن ضعف القوى الاسبانية بمدينة مجانة، علاوة عن معاناة الحامية بالضيق فرأى صالح أن يغتنم الفرصة وأن يبدأ بتطهير الشرق من الاسبان قبل أن يطهر الغرب ولعل انقاذ بجاية سيكون له اثر في عودة ملك بجاية الى حظيرة الوحدة الاسلامية تحت ضغط السكان سار صالح رايس في ربيع اول سنة 963هـ/يناير 1555م نحو مدينة بجاية على رأس قوة كبيرة بنحو ثلاثين ألف رجل عززهم في الطريق بالمجاهدين في امارة كوكو، فوطدت الجيوش العثمانية وحاصروا المدينة، بينما جاء الاسطول العثماني يحمل الاسلحة والمدافع بجانب الجيش وصوب المسلمين قذائفهم على القلعة(2) ودارت معركة عنيفة ونجح صالح رايس في انتزاع بجاية من الاسبان في ذو القعدة سنة 963هـ/سبتمبر 1555م، ولم يستطع حاكم نابولي من نجدة حاكمها في الوقت المناسب(3)، كما استسلم الحاكم الاسباني للقوات العثمانية(1).

(1) انظر: اطوار العلاقات المغربية العثمانية ، ابراهيم شحاتة، ص147.

(2) انظر: حرب الثلاثمائة سنة ، ص343-344.

(3) انظر: تاريخ الجزائر الحديث محمد خير فارس، ص41.

واجه بوحسون منافسة محمد الشيخ السعودي الذي جمع قوات من السوس والحوز واتى بجنوده الى ان وصل رأس الماء من احواز فاس (2) وكان بوحسون بعد انسحاب العثمانيين قد اخذ في اعداد الجيوش وآلات الحرب الى ان قضت ثمانية شهور فأمر بالخروج لمواجهة مولاي محمد الشيخ والوصول الى مراكش ولما تقابل الجيشان قام بينهم قتال عظيم واستطاع بوحسون أن ينزل بالسعديين هزيمة شنيعة حتى استطاع أن يردهم على أعقابهم، ثم أرسل بوحسون لمولاي محمد الشيخ وقال له: أخرج أنت وأولادك الى لقائي وأنا أخرج إليكم بنفسي ونترك المسلمين بدون قتال، فتظاهر محمد ورجع الى والده وأخوته الستة الذين اجتمعوا على بوحسون فجعل يطاردهم حتى طمر به فرسه فسقط فطعنوه فأجتزوا رأسه وأتوا به جيشه، فأهزموا بلا قتال، واخذ محمد الشيخ فاس (3) وهكذا مات بوحسون بعد تسعة شهور من عودته لحكم فاس، وان كانت قد ضاعت بموته الفرصة الاولى لإعلان السيادة العثمانية على فاس، إلا ان احداث هذه الوقائع كانت تعني ان الفرصة مازالت واسعة امام العثمانيين لتطبيق غزوهم المحلي للمغرب، لاسيما وان محمد الشيخ السعودي باسم القضاء على الحزب العثماني بين المغاربة أنزل القتل في اكثر من مائتين من كبار اعيان فاس فضلاً عن الفقيهين المرينيين الى محمد عبدالوهاب الزقاق قاضي فاس، والى الحسن علي حوز خطيب فاس (4).

ثانياً: التعاون البرتغالي الاسباني السعودي ضد العثمانيين:

بعد عودة فاس للسعديين ظهر محمد الشيخ كخصم عنيد للعثمانيين، ومن المعارضين لسياستهم

(1) انظر: تاريخ الجزائر العام (88/3).

(2) انظر: تاريخ افريقيا الشمالية، شارل جوليان (344/1).

(3) انظر: تاريخ الدولة السعدية لمؤلف مجهول، ص 20، 21.

(4) انظر: اطوار العلاقات المغربية، ص 148.

التوسعية في بلاد المغرب، بل والأكثر من ذلك انه اعلن اثر دخوله فاس بأنه عازم على الذهاب الى الجزائر لمنازلة العثمانيين هناك، فهذا التنافس السعدي العثماني على شمال افريقيا، بل وعلى الخلافة الاسلامية كان في صالح الاسبان والبرتغال، ولا عجب اذا رأينا بعد ذلك تقارباً بين هؤلاء جميعاً ضد العثمانيين(1).

بعث الملك جون الثالث رسالة الى حاكم مازكان البرتغالي الفارودي كالفولو رداً على الطلب الذي تقدم به المولى محمد الشيخ الى كل من مدريد ولشبونة لتزويده بقوات عسكرية ضد العثمانيين كما حددت الرسالة بعض الشروط التي يراها البرتغاليون لمساعدة السعديين كتسليم بعض المراكز البحرية المغربية مثل بادس بنيون والعرائش، بالاضافة الى تمويل القوات المسيحية التي سيرسلها لمساعدته ، وأخيراً يختتم الملك البرتغالي يوحنا الثالث بضرورة إخبار الأمبراطور الاسباني بذلك للتسيق في عمل مشترك ضد العثمانيين ، ونتيجة لهذا التقارب فقد عقدت هدنة بين السعديين والبرتغال بواسطة حاكم مازكان لمدة ستة أشهر وذلك في مطلع 962هـ/1555م، وظل مفعول هذه الهدنة زمناً طويلاً.

إذا كان حاكم مازكان هو الذي قام بدور الوساطة مع السعديين فإن المزوار بوغانم هو الذي كلف من قبل المولى محمد الشيخ بالوساطة مع الاسبان وأول رسالة للمنصور في هذا الصدد، تلك التي بعثها الى حاكم وهران الاسباني الكونت دي الكودين في مطلع ربيع أول 963هـ/يناير 1555م ، وقد أخبر المزوار الكونت الاسباني بوصول رسائله وأنه أعلم بها المولى محمد الشيخ وابنه عبدالله الذين أعربا عن سرورهما لقدم وفد اسباني للتفاوض معه، وقد ارسل حاكم وهران بالفعل الى فاس وفداً يتألف من ثلاثة أشخاص جاؤوا للاتفاق مع المولى محمد الشيخ حول إعداد حملة مشتركة اسبانية - مغربية ضد العثمانيين(2).

(1) انظر: تاريخ الدولة السعدية، عبدالكريم كريم ، ص 83.

(2) انظر: تاريخ الدولة السعدية، ص 83، 84.

وقد جاء في التقرير الذي رفعه الوفد للكونت حاكم وهران الأسباني الذي اشرف على سير المحادثات (... بعد أسلمناه الرسائل ... طلب إلينا الملك السعودي أن نقول له شفويًا عن سبب المهمة التي قدموا من أجلها الى فاس .. إننا جننا استجابة لطلب مولاي عبدالله والقائد منصور بن غانم حيث طلب من حاكم وهران إرسال بعض الرجال للتفاوض في أمر الجزائر .

أجابنا الشريف بأنه لايزال عند فكرته وأنه يرغب في طرد العثمانيين من بقايا افريقيا ومن أجل ذلك فهو يطلب من جلالة الامبراطور امداده بعشرة آلاف مقاتل مسلحين بأسلحة نارية، وأنه (أي الشريف) يرى بأنه من المناسب أن يقوم جلالة الأمبراطور بكل مايلزم لهؤلاء المقاتلين من نفقات ، ذلك لأن طرد العثمانيين انما هو عمل تستفيد منه ممالك الأمبراطور والمسيحية جمعاء ... وطالت المذكرات كثيراً وأخيراً علمني القائد برشميده، بأن الشريف قد ادخر كثيراً من المال لمحاربة العثمانيين، وأنه يسعده أن يعين الأمبراطور على ذلك وأن الأمر مستعجل جداً (...).

(... جاء نكر الجزائر ماذا نضع بها بعد احتلالها، فكان من رأي الملك السعودي تحطيم هذه المدينة وإزالتها تماماً، أما أهلها فتؤخذ أموالهم، وإذا امتنعوا فيقتلوا ورفض الملك السعودي أن يؤخذوا عبيداً للمسيحيين، وذكر الوفد أن الأتراك أجانب عن البلاد وأنهم أعداء له فيجب معاملتهم معاملة الأعداء، أما العرب فيمكن أن تترك لهم حريتهم في حالة استسلامهم دون مقاومة. إلا أن الملك السعودي أوضح أنه لن يسمح أبداً بأن يصبح أي عربي عبداً، لأن هذا مخالف للشريعة(1).

يتبين من خلال ذلك مدى حقد الشريف السعودي على العثمانيين ، الذي لم يتورع في الاستجداد بالقوى المسيحية اسبانيا والبرتغال في سبيل تحقيق أهداف شخصية، حتى لو كان على حساب عقيدته الاسلامية ومصالح المسلمين .

نتيجة لذلك التقرير فقد بعث الكونت الكوديت حاكم وهران ذلك الى الأمير فليب ابن الأمبراطور شارل مشفوعة بخطاب هذا نصه: (... يجب علينا أن نعتبر أنفسنا سعداء جداً في الوقت الذي

(1) انظر: حرب الثلاثمائة سنة ، ص62،61.

بيذل فيه ملك فرنسا عدونا الألد كل جهوده للحصول على أسطول السلطان العثماني، حتى يهاجم ممتلكات جلالة الأمبراطور وكون أمير عربي يعرض علينا نفوذه في مهاجمة العثمانيين في الجزائر ومحاربتهم وابعادهم عن الأرض التي يحتلونها في افريقيا وذلك فيما إذا قدمنا له اثني عشر ألف من المقاتلين الاسبان على حسابه، كذلك يتعهد الشريف السعودي في حالة الموافقة أن أبعث بأحد أبنائي رهينة لديه، وأن يصنع المال اللازم لتجهيز هذه الحملة بكل سرعة ، بما أن هذه الصفقة ستجر خيراً عظيماً على جلالته وعلى المسيحية جمعاء فأنا لا أتردد في قبول طلب الشريف وأرسل إليه ابني رهينة حتى لو كنت على يقين أنه يريد أن يذبحه بل أنني وجميع من حولي مستعدين لتقديم أنفسنا كرهائن حتى لو كان الشريف يريد بيعنا عبيداً....(1).

ثالثاً: المخابرات العثمانية تكتشف المؤامرة:

أطلع صالح ريس على تلك المؤامرة التي كانت تحاك ضد الدولة العثمانية بين ملك المغرب والاسبان والتي كان هدفها طرد العثمانيين من الجزائر، لأنه طالما أن الدولة في الجزائر معناه خطر على اسبانيا، فبعث صالح ريس للباب العالي يخبره بشأن تلك المحادثات، فكان جواب السلطان سليمان سريعاً وحاسماً بوجوب مهاجمة وهران قبل أن تستمر المحادثات بين الجانبين السعودي والاسباني عن نتيجة عملية، فأرسل السلطان سليمان أربعين سفينة لمساعدته في الاستيلاء على وهران والمرسى الكبير، ومنذ ذلك الوقت كانت الهجرة والتجنيد الطوعي من مختلف أنحاء الدولة العثمانية هي التي تغذي الأوجاق، الذي كان تبعاً لذلك يتجدد على الدوام(2).

رابعاً: وفاة صالح ريس:

استعد صالح ريس لفتح وهران، وضم اسطوله الى جانب أسطول السلطان وصار لديه نحو

(1) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص364-365.

(2) انظر: تاريخ الجزائر الحديث، ص81.

سبعين سفينة، واجتمع لديه من الجند ما يقارب من اربعين ألف جندي، وكان ينوي من اتمام زحفه هذا بالمسير الى مراكش للقضاء على الفتن والاضطرابات واخضاعها لسلطانه، ولكن القدر لم يمهلَه فتوفى صالح ريس بالطاعون في شهر رجب 963هـ/1556م عن عمر سبعين سنة(1).

إن الدولة العثمانية سعت الى ضم المغرب في نطاق توحيد البلاد الاسلامية والوقوف بها صفاً واحداً ضد الهجمات المسيحية، ذلك أن استقراره في قواعد بحرية تنتشر على طول سواحل المغرب الأقصى المطل على المحيط الاطلسي، يعني في حقيقة الأمر نجاح الأساطيل العثمانية في اعتراض الطرق البرية للبرتغال أو اسبانيا مع العالم الجديد والشرق، من هنا نرى أن نجاح الفكرة كان يعتمد اساساً على وصول العثمانيين الى تلك السواحل ليشاركهم في ذلك المجاهدون الذين عملوا سنوات طويلة تحت أمرة أمراء البحر العظام، أمثال خير الدين وعروج بربروسا وصالح ريس(2).

قام القائد يحيى بإكمال خطة صالح ريس فأبحر نحو وهران وفي الطريق وصلت الأوامر السلطانية بتعيين حسن قورصو لمنصب بيلرباي ، ووصلت الجيوش البرية والبحرية الى وهران وحوصرت حصاراً شديداً، إلا أنها لم تفتح رغم استعدادات العثمانيين الكبيرة وذلك بسبب النجذات المتواصلة التي كانت تبعثها اسبانيا الى المدينة المحاصرة(3).

خامساً: احتلال محمد الشيخ السعدي لتلمسان:

انتهاز الشريف السعدي محمد الشيخ فرصة عودة الأسطول العثماني الى استنبول فأسرع بإرسال جيوشه نحو تلمسان التي كان رجالها قد انضموا الى صفوف المجاهدين في محاولتهم لاسترجاع وهران فدخلها الشريف السعدي على غفلة ووضع على رأسها القائد ابن غنام زعيم القبائل بني

(1) تاريخ الجزائر العام للجيلالي (88/3-89).

(2) انظر: صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر، ص343.

(3) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص366،367.

راشد ، ووزير آخر ملوك الزيانيين المحتمين باسبانيا، أما الحامية العثمانية الموجودة في تلمسان بقيادة القائد محمود صفا بك فقد استطاعت الصمود في وجه السعديين حتى احتوت ذلك الهجوم السعدي.

إن السعديين كانوا يرون في ضم تلمسان عاملاً قوياً في توطيد سيطرتهم على المغرب الشرقي لصد كل تدخل عثماني في المغرب بعكس العثمانيين الذين كانوا يرون في التمرکز بتلمسان تدعيماً لوجودهم في الجزائر وقاعدة حصينة لغزو المغرب(1)، باعتبارها أقرب نقطة للوصول للأندلس كما أن شواطئ المغرب الشمالية والغربية تعتبر قواعد رئيسية لتهديد المواصلات البحرية للبرتغاليين والاسبان(2).

بدأت الدولة العثمانية بتغيير سياستها مع الحكام السعديين، عندما بعث السلطان سليمان القانوني برسالة الى سلطان الدولة السعدية يهنئه بما أحرزه من انتصارات ويعلمه لما كان عليه بنو مرين من الهدايا والرد والخدمة والميل إليه، وأن السلطان في نصرتهم وقد سبق وأن ظهر ذلك في آخر ملوك دولتهم أبي حسون، الذي زوده بأربعة آلاف جندي كان ذلك في محاولة من السلطان لتكوين اتحاد اسلامي كبير يواجه به الأخطار الخارجية، غير أن ذلك قوبل بالرفض من السلطان السعدي محمد الشيخ، الذي رد على مبعوث السلطان بقوله : (سلم على أمير القوارب سلطانك وقل له أن سلطان الغرب لا بد أن ينازعك على محمل مصر ويكون قتاله معك عليه إن شاء الله ويأتيك الى مصر والسلام)(3).

يظهر من ذلك استياء محمد الشيخ الذي لم يكن يرى شرعية الخلافة العثمانية، كما أظهر

(1) انظر: صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ص345.

(2) انظر: جهود العثمانيين ، ص378.

(3) تاريخ الدولة السعدية لمؤلف مجهول ، ص26،27.

طموح محمد الشيخ الذي كان يحلم بإمامة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها(1).

سادساً: مقتل محمد الشيخ:

قتل محمد الشيخ في عام 964هـ/1557م من قبل حرسه الخاص وتطورت الأحداث بالمغرب وخاصة فيما يتعلق بالدولة السعدية، إذ لم يعد هناك مجال للشك في أن العثمانيين إنما يسعون جادين للاستيلاء على المغرب لا باعتباره الجزء المتمم للشمال الأفريقي فحسب، بل ولأهميته الاستراتيجية كأقرب نقطة الى بلاد الاسبان والبرتغال(2).

عودة حسن بن خير الدين الى الجزائر:

رأى السلطان العثماني ضرورة إعادة حسن بن خيرالدين الى الجزائر وذلك بعد مصرع حسن قور عام 964هـ/1557م بعد انقطاع استمرار لعدة أعوام قضاها في الجهاد في مواطن اخرى، واستبشر الناس برجوعه، وشرع في ترتيب أمور الجزائر، فنظم الادارة ، ورتب الجيش ترتيباً أعانه على ضبطه وبدأ في رحلته الجهادية ووضع أمامه هدفين عظيمين ، تطهير الشمال الأفريقي من الوجود المسيحي واسترداد الأندلس لحوزة المسلمين(3).

سابعاً : الثورات الداخلية في المغرب الاقصى:

اندلعت الثورات المناهضة للإمارة السعدية بعد مقتل محمد الشيخ في تارودانت، فقامت ثورة المولى عثمان في السوس بالجنوب في جمادى الأول عام 965هـ/ فبراير عام 1558م، وثورة المولى عمر في دبدو بالشرق في رجب عام 965هـ/ ابريل عام 1558م وثورة المولى عبدالمؤمن في مراكش في ربيع الأول عام 966هـ/ ديسمبر عام 1558م، ثم كانت المذبحة الجديد التي أنزلها

(1) انظر: جهود العثمانيين ، ص379.

(2) انظر: تاريخ الدولة السعدية، عبدالكريم كريم ، ص85.

(3) انظر: جهود العثمانيين ، ص380.

عبدالله الغالب بثلاث من أخوته لرفضهم البيعة بولاية العهد لابنه محمد المتوكل، مما اضطر أخوته للهروب الى تلمسان والجزائر فهرب المولى عمر والمولى عبدالمؤمن وعبدالمك وأحمد المنصور، وذلك خوفاً من القتل (1).

قصد عبدالله الغالب الى مراكش ثم تارودانت حيث انتقم من قتلة أبيه، كما قضى على ثورة السوس التي نزعها عثمان ، ثم عاد سريعاً الى فاس لاعداد قواته، لصد الحملة العسكرية التي يقودها حسن بن خير الدين الذي حاول اغتنام فرصة الأحداث الداخلية المغربية لاحتلال البلاد (2) وقامت بين الطرفين معركة على وادي اللين بالقرب من فاس لم تسفر عن شيء إلا أن حسن بن خير الدين الذي وصلته أنباء عن تحرك الاسبان من مدينة وهران بما يوشك أن يقطع عنه خط العودة، فذهب الجيش العثماني الى مرفأ قصاصة في الشمال فركب سفينة وعاد للجزائر بينما ذهب قائد تلمسان الى حاميته استعداداً للحوادث المقبلة (3).

ثامناً: مقتل حاكم وهران الكوديت:

كان دو الكوديت حاكم وهران يدرك أن استرجاع العثمانيين لتلمسان يهدد الوجود الاسباني تهديداً خطيراً فقرر الاستيلاء على مستغانم التي جعلها العثمانيون قاعدة لهم للهجوم على وهران، وكان دا الكوديت يأمل أن يجعلها قاعدة للهجوم على الجزائر (4) لذلك أعد قوة كبيرة تتكون من اثني عشر ألف مقاتل وخرج على رأسها فهاجم مدينة مستغانم ، إلا أن محاولته باءت بالفشل إذ

(1) انظر: أطوار العلاقات المغربية العثمانية، ص17.

(2) انظر: تاريخ الدولة السعدية، عبدالكريم كريم ، ص86.

(3) انظر: حرب الثلاثمائة سنة ، ص372.

(4) انظر: لسان المعرب ، لأبي عبدالله السليمانى ، ص94.

تكبدت القوات الاسبانية في ذي القعدة عام 965هـ/ أغسطس عام 1558م خسائر فادحة وكان حاكم وهران الكوديت من بين القتلى، ورغم فشل الحملة الاسبانية ضد مستغانم فإن العثمانيين لم يعد لديهم أدنى شك في تواطئ المولى عبدالله الغالب بالله مع الاسبان مما جعلهم يتخذون جانب الحيطة والحذر عند محاولة القيام بمساعدة الثائرين ضد الحكام السعديين، فعندما ثار المولى عبدالؤمن في مراكش في ربيع الأول عام 966هـ/ ديسمبر 1558م واستجد بوالي الجزائر الذي لم يمده بأية مساعدة عسكرية بل رحب به في بلاد الجزائر وزوجه بإحدى بناته ثم ولاه مدينة تلمسان(1).

المبحث الثامن

سياسة حسن بن خير الدين
في التضييق على الاسبان

أراد حسن بن خير الدين أن يغتتم فرصة انتصار مستغانم لتطهير المركز الاسباني في وهران وأخذ يستعد في مدينة الجزائر لجمع قوى جديدة منظمة منقادة الى جانب الجيش العثماني، فجدد عشرة آلاف رجل من زواوة(2)، كما أنشأ قوة أخرى ووضع على رأسها أحد أعوان والده القدامى

(1) انظر: تاريخ الدولة السعدية، ص87.

(2) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص377.

وفي الوقت نفسه حاول الحصول على تأييد القوة المحلية فتزوج من ابنة سلطان كوكو ابن القاضي وكان هذا الزواج يخدمه من ناحية أخرى في الاستعانة بقوة ابن القاضي لمواجهة زعيم قبلي آخر (عبدالعزیز بن عباس) الذي أعلن استقلاله في المغرب⁽¹⁾، بذلك صار اسطول الدولة العثمانية يتردد دائماً على مدينتي حجر باديس وطنجة⁽²⁾.

عين حسن بن خير الدين في عام 965هـ/1558م بويحيى الرايس⁽³⁾ قائداً على باديس، فقام بتخريب الساحل الاسباني من قرطاجنة حتى رأس سانت فنست، وصار تحت قيادته في باديس عدة سفن وتلقب بحق سيد مضيق جبل طارق، وقد جاء في تقرير اسباني بقلم فرانسكو دي ايبانير أن يحي يملك أربع سفن حربية الأولى بقيادته وعلى ظهرها 90 عثمانيا مسلحين بالسهام والأقواس والمناجيق والثانية يقودها قره مامي وعلى ظهرها 80 عثمانيا مسلحين بنفس الأسلحة والثالثة بقيادة مراد الرايس بقوة 70 جندي، والرابعة تحمل نفس العدد بنفس الأسلحة وبالإضافة الى هذه السفن الأربعة العاملة عبر مياه المضيق، كان في حوزة بويحي سفينتان في باديس ويقوم بصنع سفينة أخرى، ويتصل بنشاط سفن باديس سفن تطوان العرائش وسلا، ففي تطوان ثلاث سفن صغيرة ، وفي العرائش ثلاث سفن أخرى على شاكلة سفن تطوان، وفي سلا سفينتان من النوع الآخر، إلا أن السفن الأخيرة لم تتبع قيادة بويحي ودعا حسن بن خير الدين السفن الحربية الاسلامية للنهوض بنشاط يستهدف تخريب سواحل الأندلس والاستيلاء على سفن الهند ورفع تجار اشبيلية نتيجة لذلك شكواهم للملك الاسباني يشكوون فيها الفظائع التي تركتها سفن باديس والسفن الاسلامية الأخرى ضد السفن الاسبانية على طريق الملاحة والتجارة الهندية⁽⁴⁾، ولم تستطع

(1) انظر: تاريخ الجزائر الحديث، ص45.

(2) انظر: حقائق الأخبار عن دول البحار (319/1).

(3) انظر: جهود العثمانيين ، ص381.

(4) انظر: أطوار العلاقات المغربية العثمانية، ص219.

السفن العبور دون إذن من بويحي، فعم الخوف سكان الساحل الإسباني ، لدرجة أن هؤلاء لم يكونوا يزرعون أراضيهم إلا بكل حذر، وغالباً ما كان العثمانيون يحاصرونهم أثناء عملهم وكذلك الصيادون لم يكونوا يبتعدون كثيراً عن الشاطئ(1).

سياسة المولى عبدالله:

تابع المولى عبدالله سياسة والده الرامية الى مقاومة الهدف في المغرب والاستعانة في سبيل ذلك بأعداء العثمانيين من اسبان وبرتغال عن طريق مهادنتهم ، والمحافظة على أحوال السلم معهم وقد دفعته سياسة المهادنة مع النصارى الى الاستجابة لكثير من المطالب التي تقدمت بها بعض الدول الأوروبية كفرنسا التي استقبل سفيرها وحمله الى الأمير أنطونيو دي بربون رسالة يعبر فيها عن استعداد المغرب للاستجابة للمطالب الفرنسية، ثم عقد الأمير الفرنسي معاهدة في شوال 966هـ/ يوليو 1559م مع المولى عبدالله الذي تنازل عن المرسى الصغير لفرنسا مقابل مده بالاسلحة والعتاد الحربي ، وإرسال فرقة عسكرية تكون بمثابة حرس خاص للغالب، بعد ان فقد ثقته بالحرس التركي الذي سبق وأن أغتال والده محمد الشيخ كانت فرنسا بعد أن عقدت معاهدة كاتوكمبر سيس في 21 جمادى الأولى في سنة 966هـ/ 13 ابريل 1559م مع اسبانيا والتي أنهت الحرب الايطالية، أخذت تبحث عن أسلوب جديد يمكن الاعتماد عليه في حالة تجدد النزاع مع اسبانيا، خصوصاً وقد صار لفليب الثاني نفوذ قوى في اوروبا، لأن المعاهدة المذكورة دعمت نفوذ اسبانيا في ايطاليا والأراضي المنخفضة مما يهدد فرنسا، فأخذ في التقرب من المغرب البلد الاسلامي. ومما لاشك فيه أن فرنسا كانت ترى في المغرب حليفاً يمكن الاعتماد عليه، كما كانت ترى في ميناء القصر الصغير الاستراتيجي الذي لايبعد إلا بضعة كيلومترات عن جبل طارق منطقة هامة يمكن إتخاذها للهجوم على اسبانيا.

ولعل ذلك كان سبباً في عدم قيام الدولة العثمانية بموقف إيجابي تجاه المعاهدة لأنها كانت

(1) انظر: تاريخ الدولة السعدية ، ص90.

تأمل في أن تقوم فرنسا بدور الوسيط مع السعديين ، فهدف الدولة العثمانية وفرنسا واحد في مسألة الهجوم على اسبانيا وإن اختلفت من الناحية العقائدية ففرنسا كانت ترغب في الهجوم على اسبانيا من أجل تحقيق نصر عسكري لتكون سيدة الموقف في غرب البحر المتوسط، بينما الدولة العثمانية تهدف الى انقاذ المسلمين من الحكام الاسبان ثم استرداد الاراضي الاسلامية في الأندلس حوّل حسن بن خير الدين انظاره سنة 966هـ/1559م وتحرك بجيوشه نحو النواحي التابعة لأمير قلعة بني عباس عبدالعزيز فاستولى على المسيلة وحصنها وبني برجاً وذلك لتثبيت الوجود العثماني هناك، ووضع حامية بلغ عددها أربعمئة جندي، ثم عاد حسن بن خيرالدين متوجهاً الى بلاد حمزة في أنحاء بربرة، عندها انقض أمير قلعة بني عباس على الحصن العثماني ونشبت معارك بين الحامية العثمانية لقي فيها الأمير عبدالعزيز بن عباس صاحب القلعة حتفه وخلفه أحمد مقران الذي أمتلك نواحي بلاد كوكو فاعترف به حسن بن خير الدين(1).

اشتدت حملة ازعاج تجارة المسيحيين من ناحية موانئ تونس والجزائر وذلك بالاغارة على السفن المسيحية، كما بعثت تلك الموانئ ببعض القوات العسكرية البرية وجزء من الأسطول، لمساندة السلطان في الشرق(2).

أولاً : الاسطول العثماني يهاجم جربة في تونس:

قام الاسطول العثماني بقيادة بيالي باشا بالهجوم على جزيرة جربة في رمضان سنة 967هـ/مايو 1560م، ونجح الاسطول في تحقيق أهدافه ضد الاسبان(3)، الذين لم يجدوا حرجاً من الاستنجاد بفرنسا(4)، بعد ذلك كان من المقرر أن يقوم بيالي باشا ببعض الغارات في البحر المتوسط قبيل عودته لقسطنطينية، ولكن درغوث باشا الذي سبق وأن ضايقه الثوار في الداخل،

(1) انظر: تاريخ الدولة السعدية، ص 87-88.

(2) انظر: تاريخ الجزائر العام (91/3).

(3) انظر: جهود العثمانيين ، ص 384.

(4) المصدر السابق نفسه، ص 384.

أقنع بيالي باشا بالتوجه الى طرابلس لمساعدته في القضاء على التمرد قرب تاجوراء، وقد وصل بيالي باشا الى طرابلس وصول الفاتحين ودخلت السفن العثمانية المزينة بالأعلام والشارات التي غنمها من الاعداء بينما كانت أعلام الأعداء منكسة فوق سواري السفن وقام بيالي باشا بطرابلس أياماً قليلة كافية لمعاينة سكان تاجوراء، ثم ألقه بأسطوله صوب عاصمته(1).

ثانياً: اعتقال حسن خير الدين وأرساله الى استانبول:

استمر حسن خير الدين في استعداداته لمهاجمة المغرب، فشرع في تكوين قوة من رجال القبائل كان ينوي أن يوكل إليها حراسة الجزائر أثناء غيابه لعدم ثقته بالانكشارية ، الذين احسوا بالخطر فقاموا في صيف 696هـ/1561م بإعتقال حسن باشا وأعوانه وأرسلوه مقيداً الى استانبول ورافق حسن باشا عدد من زعماء الجند مهمتهم أن يوضحوا للسلطان الأسباب التي دفعتهم الى هذا التصرف متهمين حسن باشا أنه كان ينوي القضاء على الأوجاق والاعتاد على جيش محلي بغرض الاستقلال عن السلطان، لكن السلطان ارسل أحمد باشا مع قوة بحرية لمعاينة المتمردين والقضاء على الفوضى ونجح احمد باشا في اعتقال زعماء التمرد وأرسلهم الى استانبول(2).

ثالثاً: عودة حسن بن خير الدين الى الجزائر:

أعاد السلطان العثماني سليمان القانوني حسن بن خير الدين الى بيلربكية الجزائر للمرة الثالثة في أواخر سنة 970هـ/1562م معززاً بعشرة سفن حربية ومزوداً بقوة عسكرية مسلحة(3) قضى بعدها حسن بن خير الدين خمسة أشهر بعد عودته يهيء العدة والعتاد لمهاجمة وهران والمرسى الكبير وهما كل مابقي لاسبانيا ببلاد الجزائر(4).

(1) انظر: ليبيا منذ الفتح العربي، اتوري روسي، ص190.

(2) انظر: تاريخ الجزائر الحديث، ص46.

(3) انظر: تاريخ الجزائر العام (93/3).

(4) انظر: حرب الثلاثمائة ، ص379.

خرج حسن بن خير الدين في سنة 971هـ/1563م من مدينة الجزائر نحو الغرب ، يقود جيشاً كبيراً مؤلفاً من خمسة عشر ألف رجل من رماة البندقية وألف فارس من الصباحية تحت أمره احمد مقرن الزواوي ، واثنى عشر ألف رجل من زواوة وبني عباس، أما مؤن وذخيرة الجيش فقد حملها الاسطول العثماني الى مدينة مستغانم التي اتخذها قاعدة للعمليات وفي 13 ابريل وصل حسن خير الدين بكامل قوته أمام مدينة وهران وضرب حصار حولها، وكان الاسبان مستعدين لتلقي الصدمة وراء حصونهم وقلاعهم(1)، بعد أن توالت النجدات الاسبانية والبرتغالية على وهران استجابة لنداء حاكمها، ومنذ أن صارت القوات العثمانية على مسافة مرحلتين، وبينهما كان البيلربك نفسه على بعد ست مراحل مما اضطر حسن بن خير الدين الى رفع الحصار قبل وصول المزيد من هذه النجدات التي اتخذت من مالطة مركزاً لتجمعها(2) وهكذا لم يستطع حسن بن خير الدين من تحقيق هدفه ذلك لأن فيليب الثاني كان قد وضع برنامجاً طموحاً للأسطول الاسباني، والبناء البحري في ترسانات إيطاليا وقطالونيا، كما وردت لخزانة اسبانية إعانة من البابوية واجتمعت سلطة قشتالة التشريعية في جلسة غير عادية ، وأقرت وجوب امداد اسبانيا بمعونات مالية، لتساندها في حربها مع العثمانيين ، ومما كانت ثمرة تلك الجهود وإعادة التنظيم لهيكل اسبانيا وهزيمة العثمانيين في وهران سنة 971هـ/1563م.

بدأ فيليب الثاني يستعد لاحتلال جزيرة باديس وتشجع بذلك النصر الذي حققه في وهران ، وتوجه لذلك اسطولاً في نفس السنة 971هـ/1563م، فقاومه المجاهدون مقاومة عنيفة، اضطرت الأسطول الى التراجع(3) والجدير بالذكر أن جزيرة باديس كانت أقرب نقطة مغربية الى جبل

(1) انظر: حرب الثلاثمائة سنة ، ص379.

(2) انظر: أطوار العلاقات المغربية العثمانية ، ص213.

(3) انظر: جهود العثمانيين، ص389.

طارق، وأنها كانت بالنسبة للمجاهدين ميناءً هاماً⁽¹⁾، إذ يمكنهم من خلالها العبور للأندلس، كما يمكنهم التسلل لداخل الأراضي الإسبانية لتقديم المساعدة للمسلمين هناك والذين أطلقوا على أنفسهم الغرباء، وهذا مادفع الإسبانيين الهجوم عليها من خلال محاولتهم السابقة كما كانت جزيرة باديس بالإضافة إلى ذلك مثار رعب وخوف لدى السلطان السعدي الغالب بالله، إذ خاف السلطان أن يخرج الأسطول العثماني من تلك الجزيرة إلى المغرب، فاتفق مع الإسبان أن يخلي لهم الأدالة من حجرة باديس ويبيع لهم البلاد ويخليها من المسلمين، وينقطع أسطول العثمانيين في تلك الناحية⁽²⁾، مقابل الدفاع عن شواطئ المغرب إذ هاجمها الأسطول العثماني الذي علم بتلك المؤامرة فانسحب ورجع إلى الجزائر⁽³⁾ كما عزل بويحي ريس من منصبه في باديس في أواخر عام 1563م/971هـ، وانصرف العثمانيون عن الحرب في غرب البحر المتوسط، إذ توجه نشاط الأسطول الحربي إلى جزيرة مالطة في الشرق⁽⁴⁾.

رابعاً: الصراع على مالطة:

كان السلطان العثماني سليمان القانوني قد عزم على فتح جزيرة مالطة التي كانت أكبر معقل للمسيحيين في وسط البحر المتوسط، والتي سبق وأن استقر فيها فرسان القديس يوحنا، فأرسل السلطان العثماني أسطوله بقيادة بيالي باشا نفسه، كما طلب من درغوث ريس حاكم طرابلس وجربة، وحسن خيرالدين أن يتوجها على رأس أسطوليهما الإسلاميين للمشاركة في عملية مالطة واخضاعها استعداداً لمنازلة بقية المعاقل الإسلامية بعد ذلك فسار حسن بن خير الدين على رأس عمارة تشمل 25 سفينة وثلاثة آلاف رجل ووصل الأسطول الإسلامي أمام مالطة يوم 18 مايو

(1) انظر: تاريخ الدولة السعدية، عبدالكريم كريم، ص36.

(2) انظر: تاريخ الدولة السعدية لمؤلف مجهول، ص89.

(3) انظر: تاريخ المغرب لمحمد بن عبود، ص17.

(4) انظر: أطوار العلاقات المغربية العثمانية، ص190-191.

وفرض الحصار عليها، واستمر الحصار ضيقاً شديداً إلى أن جهزت المسيحية رجالها وأساطيلها ووصل المدد تحت قيادة نائب الملك في صقلية، برفقة اسطول تعداده 28 سفينة حربية تحمل عدد كبير من المقاتلين ونشبت المعركة بين الطرفين، وتمكن الاسطول الإسلامي من الانسحاب في 18 ربيع الأول 973هـ/8 ديسمبر 1565م (1).

خامساً : حسن بن خير الدين بربروسة القائد العام للأسطول العثماني:

خلف السلطان سليمان القانوني السلطان سليم الثاني، الذي اسند منصب القائد العام للأسطول العثماني الى حسن بن خير الدين ؛ فترك الجزائر متوجهاً الى استانبول سنة 975هـ/1567م (2)، وتولى منصب بيلر بي الجزائر بعد حسن بن خير الدين محمد بن صالح رايس، في ذي الحجة 974هـ/يونيو 1567م وصادف في تلك السنة انتشار الأوبئة والمجاعة، صحبتها تمرد الجند العثماني واضرب الشعب، فاضطر الى صرف وقته في مواسة المصابين وتسكين الفتن، ثم فاجأت محمد صالح رايس ثورة عامل قسنطينة المتأثرة بولاية تونس الحفصيين فعزله البيلر باي وقضى على ثورته وولى على قسنطينة القائد رمضان بن تشولاق، وفي ربيع الأول سنة 975هـ/سبتمبر 1567م، هاجم الاسبان مدينة الجزائر، إلا أنهم ردوا على أعقابهم ، ثم لم تطل ولاية محمد صالح بن رايس، إذ تعين نقله الى ولاية أخرى في أنحاء الدولة (3).

سادساً : قلج علي تولى بيلر بك الجزائر:

اسند منصب بيلربك الجزائر الى قلج علي في 14 صفر سنة 976هـ/الموافق 8 أغسطس 1568م وعرف عنه بالعزم في تسيير الادارة والبطولة الحربية والشجاعة (4).

(1) انظر : حرب الثلاثانة سنة ، ص383.

(2) المصدر السابق نفسه، ص385.

(3) انظر: تاريخ الجزائر العام (94،95/3).

(4) المصدر السابق نفسه (95/3).

اتخذ قلع علي خطوات عملية لتنفيذ مشروع خطير للغاية وهو إعادة الحكم الاسلامي في اسبانيا وتحرير الشمال الافريقي من الجيوب الصليبية فوجه اهتمامه الى الأسطول أكثر من غيره وصار بعده مبعث قلق ورهبة للأوروبيين⁽¹⁾، كما انتزع من الفرنسيين حق احتكار المرجان بمركز القالة بسبب تماطلهم وتخلفهم عن دفع الضريبة لثلاث سنوات مضت وتصرفهم في المنطقة التي نزلوا فيها تصرف السادة⁽²⁾.

سابعاً: إعادة تونس للحكم العثماني:

صمم قلع علي على ضرورة تصفية القواعد الاسبانية في تونس، قبل أن يبدأ نشاطه في شبه الجزيرة الايبيرية⁽³⁾، وذلك لتعبئة الدفاع عن طرابلس والجزائر وكان الاسبان قد اتخذوا من تونس نقطة ارتكاز وقاعدة انطلاق على العثمانيين في طرابلس والجزائر⁽⁴⁾، لذلك لابد من تأمينها. كان قلع علي على اتصال بالوزير الحفصي أبي الطيب الخضار ورأى ذلك الوزير أن فتح تونس قد حان وقته وأرسل الى قلع علي يهون عليه أمرها ويتعهد له بتقديم العون⁽⁵⁾.

جهز بيلربك الجزائر قلع علي جيشاً مؤلفاً من نحو سبعة آلاف مقاتل وزحف به نحو تونس فقابل سلطانها أبي العباس أحمد بباجة، ثم بعد قتال عنيف انهزم الأمير الحفصي وتقدم قلع علي بمجموعة نحو تونس وأخذ بيعة أهلها للسلطان سليم الثاني ورتب حامية لحراسة البلاد تحت رعاية حيدر باشا وعاد الى مقره بالجزائر⁽⁶⁾، وبقيت منطقة حلق الواد بيد الاسبان، وكانت قوات قلع

(1) انظر: تاريخ أفريقيا الشمالية، شارل جوليان (346/3).

(2) انظر: المغرب العربي الكبير، شوقي الجمل، ص 100.

(3) انظر: المغرب العربي الكبير، جلال يحيى، ص 84.

(4) انظر: الاتراك العثمانيون في شمال افريقيا، عزيز سامح، ص 84.

(5) انظر: تاريخ الجزائر الحديث، ص 49..

(6) انظر: تاريخ الجزائر العام (96/3).

علي لاتكفي وحدها لتطهير البلاد من الاحتلال الاسباني ، لذا فإنه كتب الى استانبول يطلب مده بقوة تكفي لتحرير الموقع(1)، وكان اهتمام قلع علي بشرق الجزائر سياسة اختص بها من دون اسلافه، فكان يرى أنه لا بد من تأمين ظهره ليتسنى له التقدم للغرب، ثم التوجه للأندلس، بعد أن يكون قد أضعف التواجد الاسباني في الشمال الأفريقي(2).

ثامناً: ثورة مسلمي الأندلس:

كانت حركة الجهاد في الشمال الأفريقي قد شجعت مسلمي الأندلس وفجرت طاقاتهم الكامنة وجعلتهم يتغلبون على الحواجز النفسية التي بنيت في نفوسهم على مر السنين وسادت الاقاليم الاسبانية موجة من الظلم والارهاب والفظائع، فهذه الحالة المربكة وما صاحبها من مظالم وويلات جعلت بقية مسلمي اسبانيا في الجنوب سواء من الذين ظلوا محافظين على دينهم أو المنتصرين ظاهرياً، يتأهبون للانقضاض على الحكم الاسباني(3).

سادت اسبانيا ارهاصات ثورة المسلمين في غرناطة فشكل الملك الاسباني فيليب الثاني نوعاً جديداً من الميلشيات تقيم في كل مدينة من مدن اسبانيا لمواجهة الثورة بين الذين استقبلوا مبعوثين من ملك فاس لجمع الخراج على تبعيتهم في الولاء لسيادة الأمير السعدي، كما تلقى مسلمي الأندلس مساعدات عثمانية(4)، اصبح الموقف صعباً بالنسبة لاسبانيا خاصة غرناطة ومما زاد الحالة خطورة أن بحرية فيليب الثاني كانت متفرقة في أنحاء بعيدة، وحصونه غير معززة والسواحل مكشوفة، خاصة الشواطئ الجنوبية موقع المجاهدين. بعد أن أعيت النصارى كل الوسائل للقضاء على الروح الدينية لمسلمي الأندلس وتحويلهم

(1) انظر: الاتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية، ص 85.

(2) انظر: جهود العثمانيين ، ص 395.

(3) انظر: حرب الثلاثمائة ، ص 392.

(4) انظر: أطوار العلاقات المغربية العثمانية، ص 179-204.

للمسيحية لجأوا الى العنف فحرموا على المسلمين التحدث بالعربية والاتصال بالمسلمين في الشمال الافريقي وفي بعض اقاليم اسبانيا كما حرموا على النساء الخروج الى الشوارع متحجبات وقفل أبواب دورهم وتحطيم الحمامات وإقامة الحفلات حسب تقاليدهم، كل ذلك فجر الثورة وقاد مسلمي الأندلس الى حرب البوشارات التي هي أهم حرب أو ثورة مسلحة قام بها المسلمون بعد سقوط غرناطة كانت هذه الحرب في 1568م وتزعّمها محمد بن أمية(1).

تاسعاً: خيانة السلطان السعودي الغالب بالله لمسلمي الأندلس:

بذل السلطان السعودي الغالب بالله الوعود المعسولة لرسل الثوار البورشارات ووعدهم بالنصر وتقديم كل ما يحتاجونه من عتاد وسلاح ورجال... ، لكن استمر الغالب بالله محافظاً على روابطه الودية مع فيليب الثاني، وعمل على خذلان أهل الأندلس: (وأما أهل الأندلس وغشه لهم وتوريطهم للهلكة في دينهم وأقوالهم وأولادهم وفي نفوسهم فأمر مستعظم عند جميع من في قلبه ذرة من الايمان، وأدنى مملكة من الاسلام وذلك أنه لما احتوى عليهم النصراني ، وأخذ جميع أراضيهم وشملها سلطانه، بقي المسلمون بضع سنين تحت الذمة والذلة فقهرهم بكثرة المكس ، فصاروا يكتبون الى ملوك المسلمين شرقاً وغرباً وهم يناشدونه الله في الإغاثة وأكثر كتبهم الى مولاي عبدالله لأنه هو القريب الى أراضيهم ، زمان قد قوي سلطانه وصحت أركانه وجندت أجناده وكثرت أعداده فأمرهم غشاً منهم بأن يقوموا مع النصارى ليثق بهم في قولهم ويظهروا فعلهم، فما قاموا على النصارى تراخى عما وعدهم به من الإغاثة وكذب عليهم وغشا منه لهم ولدين الله عز وجل ومصلحة لملكه الزائل وكانت بينه وبين النصارى مكاتبات في ذلك ومراسلات، وأنه استشار معهم وأشار عليهم أن يخرجوا أهل الأندلس الى ناحية المغرب وقصده بذلك تعمير سواحله ويكون لهم بمدينتي فاس ومراكش جيش عظيم ينتفع به في صالح ملكه) (2).

(1) انظر: محنة المورسيكوس في اسبانيا لمحمد قشتيليو ، ص 33-34-35.

(2) مؤلف مجهول : تاريخ الدولة السعودية، ص37،38.

تسارعت الاحداث في اسبانيا، وبلغ عدد المجاهدين في أوائل سنة 976هـ/1569م أكثر من مائة وخمسين ألف، وصادف تلك الثورة صعوبات كبيرة بالنسبة للحكومة الاسبانية ، إذ كانت غالبية الجيش متقدمة مع دوق البابا في الأراضي المنخفضة وأثبتت الدوريات البحرية أنها غير قادرة على حرمان الثوار المسلمين من الاتصال بالعثمانيين في الجزائر (1).

عاشراً : قلج علي يقف موقف الأبطال مع مسلمي الأندلس:

كان قلج علي على اتصال مباشر بقيادة مسلمي الأندلس عبر قنوات خاصة أشرف عليها جهاز الاستخبارات العثمانية واستطاع هذا القائد أن يمد الثوار في اسبانيا بالرجال والأسلحة والعتاد، وتم الاتفاق مع مسلمي الأندلس على القيام بثورة عارمة في الوقت الذي تصل فيه القوات الاسلامية من الجزائر الى مناطق معينة على الساحل الاسباني (2).

جمع قلج علي جيشاً عظيماً قوامه أربعة عشر ألف رجل من رماة البنادق وستين ألفاً من المجاهدين العثمانيين من مختلف أرجاء البلاد، وأرسلهم الى مدينتي مستغانم ومازجران استعداداً للهجوم على وهران ثم النزول في بلاد الأندلس، وكان يرافق ذلك الجيش عدداً كبيراً من المدافع وألف وأربعمائة بعير محملة بالبارود الخاص بالمدافع والبنادق.

وفي اليوم المتفق عليه وصلت اربعون سفينة من الأسطول العثماني أمام مرسى المرية الاسباني ، لشد أزر الثورة ساعة نشوبها لكن أخفق ذلك المخطط وذلك بسبب سوء تصرف أحد رجال الثورة الأندلسيين إذ انكشف أمره فداهمه الاسبان، وضبطوا ماكان يخفيه من سلاح (3) بعد أن نجح قلج علي في انزال الأسلحة والعتاد والمتطوعين على الساحل الاسباني (4)، لم تقع الثورة

(1) انظر: جهود العثمانيين ، ص398.

(2) انظر: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها (926/2).

(3) انظر: حرب الثلاثمائة سنة ، ص392-393.

(4) انظر: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها (926/2).

في الموعد المحدد لها، وضاعت بذلك فرصة مفاجئة الاسبان(1).
لقد قام قلج علي في شعبان سنة 976هـ/ يناير سنة 1569م ببعث اسطول الجزائر لتأييد
الثائرين في محاولتهم الأولى، وحاول انزال الجند العثماني في الأماكن المتفق عليها ، لكن
الاسبان كانوا قد عرفوا ذلك بعد اكتشاف المخطط فصدوا قلج علي عن النزول وكان الثورة في
عنفوانها، وزوابع الشتاء قوية في البحر فالأسطول الجزائري صار يقاوم الاعاصير من أجل
الوصول الى أماكن أخرى من الساحل ينزل بها المدد المطلوب ، إلا أن قوة الزوابع أغرقت 32
سفينة جزائرية تحمل الرجال والسلاح، وتمكنت ست سفن من انزال شحنتها فوق سواحل الأندلس،
وكان فيها المدافع والبارود والمجاهدين(2).

استمر قلج علي في امداد مسلمي الأندلس رغم الكارثة التي حلت بقواته ، وتمكن ذلك المجاهد
الغز من انزال اربعة آلاف مجاهد من رماة البنادق مع كمية كبيرة من الذخائر وبعض من قادة
المجاهدين العثمانيين، للعمل في مراكز قيادة جهاد مسلمي الأندلس(3).

وعاد العثمانيون فأرسلوا دعماً جديداً من الرجال والسلاح وإعانة للثورة الاندلسية، فصدرت
الأوامر الى قلج علي بذلك في 23 شوال 977هـ/ 31 مارس 1570م (... عليك بالتنفيذ بما جاء
في هذا الحكم حال وصوله وأن تعاون أهل الاسلام المذكورين بكل مايتيسر تقديمه لهم وأن الغفلة
عن الكفار أصابهم الدمار غير جائزة...) وكان القائد المجاهد قلج علي قد عزم على الذهاب
بنفسه ليتولى قيادة الجهاد هناك لكن ماشاع عن تجمع الاسطول الصليبي للقيام بمعركة حاسمة
مع المسلمين وأمر السلطان العثماني له بالاستعداد للمشاركة في هذه المعركة جعله مضطراً للبقاء

(1) انظر: جهود العثمانيين، ص399.

(2) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص393.

(3) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص394.

في الجزائر منتظراً لأوامر استانبول (1).

وفي غمرة الثورة الاندلسية اتهم زعيم الثورة ابن أمية بالتقاعس عن الجهد وهاجمه المتآمرون وقتل في منزله واختير مولاي عبدالله بن محمد بن عبو بدلاً منه وبعث قلع علي تعزيزات له ونجح الزعيم الجديد في حملاته الأولى ضد النصارى الاسبان وطوق جيشه مدينة أرجيه. انزعجت الحكومة الاسبانية لهذا التطورات وعينت دون جوان النمساوي على قيادة الاسطول الأسباني (وهو ابن غير شرعي للإمبراطور شارل) فباشر قمع الثورة في سنواتها 977-987هـ/1569-1570م، وأتى من الفظائع ما بخلت بأمثاله كتب الوقائع فذبح النساء والأطفال أمام عينيه، وأحرق المساكن ودمر البلاد وكان شعاره لاهوادة وانتهى الأمر بإذعان مسلمي الأندلس، لكنه إذعان مؤقت، إذ لم يلبث مولاي عبدالله أن عاد الكرة، فاحتال الاسبان عليه ، حتى قتلوه غيلة ونصبوا رأسه منصوباً فوق أحد أبواب غرناطة زمنناً طويلاً (2).

(1) انظر: جهود العثمانيين، ص400.

(2) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص395.

المبحث التاسع

المتوكل على الله ابن عبدالله الغالب السعدي

تولى أمر السعديين بعد وفاة عبدالله الغالب بالله ابنه المتوكل على الله الذي كان يضمم الشر
لعميه عبدالملك ابي مروان وأحمد المنصور فخرجا من المغرب واتجها الى السلطان العثماني

يستجدوا به⁽¹⁾، وما من شك في أن انتصار العثمانيين في تونس ضد الاسبان واستتباب الأمر فيها، قد شجعهم على مساعدة المولى عبدالملك المطالب بالعرش المغربي، لبسط نفوذه على البلاد، ولأن الاستيلاء على المغرب يؤمن الحدود الغربية للدولة العثمانية، ويوطد أقدام العثمانيين في مجموع الشمال الأفريقي علاوة على أن ضم المغرب من شأنه أن يبعث الرعب في قلوب الاسبان والبرتغال ويبعثهم على طلب ود السلطان في استانبول⁽²⁾.

تابع المتوكل على الله خطة والده في التقرب من الدول المسيحية ومسالمتها لصد العثمانيين ، حيث لم يعد لديه شك في أنهم سينجدون عميه بقوات عسكرية فعقد اتفاقاً مع انجلترا، التي كانت ترغب في تجارتها مع المغرب للفوائد التي تعود على التجار الانجليز من وراء ذلك، زيادة على أنها تدرك الأهمية العظمى التي للمغرب ، خصوصاً وقد كانت انجلترا في حالة حرب ضد اسبانيا⁽³⁾ وتوقيع المتوكل للاتفاقية التجارية مع الانجليز ، يعد العمل الوحيد الذي قام به خلال حكمه القصير، وقد فعل ذلك باعتبار أن الانجليز كانوا من بين التجار الاجانب الذي يبيعون مواد الحرب من ذخائر وأسلحة للمغاربة منذ زمن بعيد، ولا تخفى علينا حاجة المتوكل في هذا الوقت الى السلاح لصد الخطر العثماني ولمقاومة عمه المطالب بالعرش.

وجدت الدولة العثمانية في انشغال ملك اسبانيا فيليب الثاني بأحداث أوروبا الغربية حيث ثورة الأراضي المنخفضة، فرصة مناسبة للتدخل في المغرب⁽⁴⁾، فأمدوا المولى عبدالملك بجيش قوامه خمسة آلاف مقاتل مسلحين بأحسن الأسلحة، ودخل المولى عبدالملك فاس بعد أن أحرز انتصاراً كبيراً على ابن أخيه المتوكل وعاد الجيش أدرجه الى الجزائر⁽⁵⁾.

(1) انظر: الحروب الصليبية في المشرق العربي لمحمد العمروسي، ص 265.

(2) انظر: جهود العثمانيين ، ص 368.

(3) انظر: بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، ص 94.

(4) انظر: المغرب في عهد الدولة السعدية، عبدالكريم كريم، ص 97، 99.

(5) انظر: بداية الحكم المغربي في السودان، ص 94.

وقام عبدالملك بإصلاحات في دولته من أهمها:

- 1- أمر بتجديد السفن، وبصنع المراكب الجديدة، فانتعشت بذلك الصناعة عامة.
- 2- اهتم بالتجارة البحرية ، وكان للأموال التي غنمها من حروبه على سواحل المغرب سبب في انتعاش ونمو الميزان الاقتصادي للدولة.
- 3- أسس جيشاً نظامياً متطوراً واستفاد من خبرة الجنديّة العثمانية وتشبه بهم في التسليح والرتب.

4- استطاع أن يبني علاقات متينة مع العثمانيين وجعل منهم حلفاء واصدقاء وإخوة مخلصين للمسلمين في المغرب.

5- فرض احترامه على أهل عصره، حتى الأوروبيين ، احترموه وأجلوه قال الشاعر الفرنسي أكبريا دو بين المعاصر لأحداث هذه الفترة: (كان عبدالملك جميل الوجه، بل أجمل قومه، وكان فكره نيراً بطبيعته، وكان يحسن اللغات الإسبانية والإيطالية والأرمنية والروسية، وكان شاعراً مجيداً في اللغة العربية ، وباختصار، فإن معارفه لوكانت عند أمير من أمرائنا لقلنا إن هذه أكثر مما يلزم بالنسبة لنبييل، فأحرى لملك(1).

6- اهتم بتقوية مؤسسات الدولة ودواوينها وأجهزتها، واستطاع أن يشكل جهازاً شورياً للدولة أصبح على معرفة بأمور الدولة الداخلية، وأحوال السكان عامة، وعلى دراية بالسياسة الدولية وخاصة الدول التي لها علاقة بالسياسة المغربية وكان أخوه أبوالعباس أحمد المنصور بالله الملقب في كتب التاريخ بالذهبي ساعده الأيمن في كل شؤون الدولة(2).

أولاً: تحالف محمد المتوكل السعدي مع ملك البرتغال سبستيان:

كان محمد المتوكل بعد هزيمته من عمه عبدالملك قد اتصل بملك البرتغال سبستيان واتفق معه

(1) وادي المخازن ، ص37.

(2) المصدر السابق نفسه، ص40،39.

على أن يعينه على طرد عمه من حكم المغرب، وأن يتنازل له مقابل ذلك عن جميع شواطئ المغرب، فقبل سبستيان ذلك العرض المغربي (1).

انتقل المتوكل الى سبته وأقام بها أربعة شهور، ومنها اتجه الى طنجة في انتظار دون سبستيان على رأس القوات العسكرية.

وفي أثناء استعدادات الدول المسيحية وخاصة البرتغال للوثوب على المغرب، وإخضاعه بالكامل، أرسل العثمانيون مدربين وأسلحة متنوعة، واشفعوا في ذلك بفيلق عسكري (2)، حيث تتجلى هنا الروح الاسلامية في الدفاع عن عقيدتهم لأن المعركة معركة المسلمين جميعاً وخصوصاً الدولة العثمانية التي كانت تحمل على عاتقها حماية المسلمين وارضيتهم بعيدة عن المصالح المادية (3).

ثانياً: معركة وادي المخازن:

إن من الأعمال العظيمة التي قامت بها الدولة السعدية في زمن السلطان عبدالملك انتصارهم الرائع والعظيم على نصارى البرتغال في معركة الملوك الثلاثة، والتي تسمى في كتب التاريخ معركة القصر الكبير أو معركة وادي المخازن بتاريخ: 30 جمادي الثانية 986هـ الموافق 4 آب (أغسطس) 1578م.

لقد كان لتلك المعارك أسباب من أهمها:

1- أراد البرتغاليون أن يمحوا عن أنفسهم العار والخزي الذي لحقهم بسبب ضربات المغاربة الموفقة والتي جعلتهم بنسحبون من أسفى وأزمور وأصيلا وغيرها في زمن يوحنا الثالث آب (1521-1557م).

(1) انظر: تاريخ المغرب، محمد بن عبود (19/2).

(2) انظر: بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، ص 94.

(3) انظر: جهود العثمانيين، ص 471.

2- أراد ملك البرتغال الجديد سبستيان ابن يوحنا أن يخوض حرباً مقدسة ضد المسلمين حتى يعلو شأنه بين ملوك أوروبا، وزاد غروره بعد ماحقه البرتغاليين من اكتشافات جغرافية جديدة أراد أن يستفيد منها من أجل تطويق العالم الاسلامي يدفعه في ذلك حقه على الاسلام وأهله عموماً، وعلى المغرب خصوصاً، لقد جمع ذلك الملك بين الحقد الصليبي والعقيلة الاستعمارية التي ترى أن يدها مطلقة ، في كل أرض مسلمة تعجز عن حماية نفسها من أي خطر خارجي من جهة اخرى، ومن جهة اخرى خطط لغزو واحتلال المغرب(1).

ثالثاً: حشود النصراري:

استطاع سبستيان أن يحشد من النصراري عشرات الألوف من الاسبان والبرتغاليين والاطليان والألمان وجهاز هذه الألوف بكافة الأسلحة الممكنة في زمنه، وجهاز ألف مركب لتحمل هؤلاء الجنود نحو المغرب(2).

ووصلت قوات النصراري الى طنجة واصيلا في عام 1578م.

رابعاً: الجيش المغربي:

كانت الصيحة من جنبات المغرب الأقصى: "أن أقصدوا وادي المخازن للجهاد في سبيل الله". والتقت جموع المغاربة حول قيادة عبدالملك المعتصم بالله، وحاول المتوكل المخلوع أن يخترق ذلك التلاحم فكتب الى أهل المغرب مااستنصرت النصراري حتى عدت النصررة من المسلمين وقد قال العلماء: إنه يجوز للانسان أن يستعين على من غصبه حق بكل ماأمكنه وتهدهم(3) قائلاً: {فإن لم تفعلوا، فأذنوا بحرب من الله ورسوله} (سورة البقرة، آية) .

فأجابه علماء المغرب عن رسالته برسالة دحضت أباطيله، وفضحت زوره وبهتانه وكذبه، ومما

(1) انظر: وادي المخازن ، ص46،45.

(2) المصدر السابق نفسه، ص49.

(3) انظر: وادي المخازن ، ص51.



جاء فيه : (الحمد لله كما يجب لجلاله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير أنبيائه ورسله، والرضى به، حتى أسس الله دين الاسلام بشروط صحته وكماله وبعد:

فهذا جواب من كافة الشرفاء والعلماء والصلحاء والأجناد من أهل المغرب.

لو رجعت على نفسك اللوم والعتاب، لعلمت أنك المحجوب والمصاب .. وأما قولك في النصراري فإنك رجعت الى أهل العدو واستعظمت أن تسميهم بالنصارى، فيه المقت الذي لا يخفى ، وقولك رجع إليهم حين عدمت النصره من المسلمين ففيه محظورات يحضر عندهم غضب الرب جل جلاله، أحدهما: كونك اعتقدت أن المسلمين كلهم على ضلال ، وأن الحق لم يبق من يقوم به إلا النصراري والعياذ بالله.

والثاني: إنك استعنت بالكفار على المسلمين: قال عليه الصلاة والسلام. إني لا استعين بمشرك.. الاستعانة بهم -بالمشركين- على المسلمين فلا يخطر إلا على بال من قلبه وراء لسانه، وقد قيل قديماً: لسان العاقل من وراء قلبه .. وقولك: فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله، إيه أنت مع الله ورسوله ولما سمعت جنود الله وأنصاره وحماة دينه من العرب والعجم قولك هذا، حملتهم الغيرة الاسلامية والحمية الايمانية ، وتجدد لهم نور الايمان وأشرق عليهم شعاع الايقان؛ فمن قائل يقول لا دين إلا دين محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن قائل يقول: سترون ما أصنع عند اللقاء، ومن قائل يقول: {وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين..} (سورة العنكبوت: آية 110) وقد افتخرت في كتابك بجموع الروم وقيامهم معك، وعولت على بلوغ المُلْك بحشودهم ، وأني لك هذا(1) مع قول الله تعالى : {ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون} ولما عاين أهل القصر الكبير النصراري واستبطؤوا وصول السلطان عبدالملك أرادوا الفرار والتحصن في الجبال، فقام الشيخ أبو المحاسن يوسف الفاسي بتثبيت الناس.

وكتب عبدالملك بالله المعتمد بالله من مراكش الى سبستيان : (إن سطوتك قد ظهرت في خروجك من أرضك، وجوازك العدو، فإن ثبت الى أن تقدم عليك، فأنت نصراني حقيقي شجاع،

(1) انظر: وادي المخازن ، ص53.

وإلا فأنت كلب بن كلب(1). فليس من الشجاعة ولا من روح الفروسية أن ينقض على سكان القرى والمدن العزل، ولا ينتظر مقابلة المحاربين وكان لذلك الخطاب أثر في غضب سبستيان وقرر أخيراً التريث رغم مخالفة أركان جيشه الذين أشاروا عليه بالتقدم لاحتلال تطوان والعرايش والقصر(2).

وتحركت قواد عبدالملك المعتصم بالله، وسار أخوه أحمد المنصور بأهل فاس وماحولها وكان اللقاء قرب محلة القصر الكبير.

خامساً: قوى الطرفين (البرتغالي النصراني والاسلامي المغربي): الجيش البرتغالي :

125.000 ، ومايلزمهم من المعدات والرواية الأوروبية تقلل بعد الهزيمة عدد جيشها، وتضخم عدد جيش المغرب، فهي تتحدث عن 14.000 راجل، و2000 فارس ، و36 مدفعاً، ومقابل 50.000 راجل في الجيش المغربي و22.000 ، 1.500 من الرماة، 20 مدفعاً. ذكر ابو القاضي في (المنتقى المقصور): (عدد الجيش البرتغالي مئة ألف وخمسة وعشرون ألفاً)(3).

وقال أبو عبدالله محمد العربي الفاسي في (مرآة المحاسن): أن مجموعهم كان مئة وعشرين ألفاً، وأقل ما قيل في عددهم ثمانون ألف مقاتل(4).

كان مع الجيش البرتغالي: 20.000 إسباني، 3000 ألماني، 7000 إيطالي... وغيرهم عدد كبير .. مع ألوف الخيل، وأكثر من أربعين مدفعاً.. وكل هذه القوى البشرية والمادية بقيادة الملك سبستيان.

(1) المصدر السابق نفسه، ص53.

(2) انظر: وادي المخازن، ص54.

(3) المصدر السابق نفسه، ص56.

(4) انظر: الاستقصا (69/5) نقلاً عن وادي المخازن، ص56.

وكان معهم، المتوكل المسلوخ بشرذمة تتراوح ما بين 300-600 رجل على الأكثر (1).

الجيش المغربي:

وكان جيش المغاربة تعداده 40.000 مجاهداً يملكون تفوقاً في الخيل ومدافعهم أربعة وثلاثون مدفعاً فقط وكانت معنوياتهم مرتفعة جداً بسبب :

1- ذاقوا حلاوة الانتصار على النصارى المحتلين واستخلصوا من ايديهم ثغوراً كثيرة كانت محاطة بالأسوار العالية، والحصون المنيعة، والخنادق العميقة.

2- إلتفاف الشعب حول القيادة، تم إلتحام القبائل والطرق الصوفية وأهل المدن لأن المعركة كانت حاسمة في تاريخ الاسلام وفاصلة في تاريخ المغرب وكان الشيخ ابو المحاسن الفاسي زعيم الطريقة الشاذلية الجزولية لا يكل ولا يمل في شحذ الهمم ورفع المعنويات وقد قاد هذا الشيخ أحد جناحي الجيش المغربي وأبلى بلاءً حسناً رائعاً وثبت الى أن منح الله المسلمين النصر، وركبوا أكتاف العدو يقتلون ويأسرون وتورع أبو المحاسن عن الغنيمة بعد الانتصار العظيم ، وعفَّ عنها، ولم يأخذ منها شيئاً (2).

وأظهر عبدالملك المعتصم بالله وأخوه ابوالعباس والقادة العثمانيون عبقرية فذة في المعركة. " لقد حنكت التجارب عبدالملك المعتصم بالله، فعزل عدوه عن اسطوله بالشاطئ بمكيدة عظيمة، وخطة مدروسة حكيمة، عندما استدرج سبستيان الى مكان حدده عبدالملك ميداناً للمعركة. وكان عزله عن أسطوله محكماً عندما أمر عبدالملك بالقنطرة أن تهدم ووجه إليها كتيبة من الخيل بقيادة أخيه المنصور فهدهما" (3).

لقد جعل عبدالملك المدفعية في المقدمة، ثم صفوف للرماة المشاة، وجعل قيادته في القلب

(1) انظر: وادي المخازن ، ص56.

(2) المصدر السابق نفسه ، ص58.

(3) انظر: وادي المخازن ، ص62.

وعلى المجنبتين رماه فرسان والقوى الاسلامية المتطوعة وجعل مجموعة من الفرسان كقوة احتياطية لتنقض في الوقت المناسب وهي في غاية الراحة لمطاردة فلولا البرتغاليين ، واستثمار النصر (1).

كان صباح الاثنين 30 جمادى الآخرة 986هـ/1578م يوماً مشهوداً في تاريخ المغرب، ويوماً خالداً في تاريخ الاسلام.

وقف السلطان عبدالملك المعتصم بالله خطيباً في جيشه، مذكراً بوعد الله للصادقين المجاهدين بالنصر (2) :

{ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز} (الحج: آية 40).

{ وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم} (الانفال: آية 10).

كما ذكر بوجوب الثبات:

{ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولهم الأذبار} (الانفال: آية 15).

{ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فأثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون} (الانفال : آية 45).

وبضرورة الانتظام:

{ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص} (الصف: آية 4).

وذكر أيضاً حقيقة لا مرأى فيها: إن انتصرت الصليبية اليوم، فلن تقوم للاسلام بعدها قائمة.

ثم قرئت آيات كريمة من كتاب الله العزيز، فاشتاقت النفوس للشهادة (3).

ولم يأل القسسُ والرهبان في إثارة حماس جند أوروبا الذين يقودهم سبستيان، مذكرين أن البابا أحل من أوزار والخطايا أرواح من يلقون حتفهم في هذه الحروب التي أتسمت بطابع الحروب

(1) المصدر السابق نفسه، ص62.

(2) المصدر السابق نفسه، ص62.

(3) انظر: وادي المخازن ، ص66.

وانطلقت عشرات الطلقات النارية من الطرفين كليهما إيذاناً ببدء المعركة.

لقد قام السلطان عبدالملك برد الهجوم الاول منطلقاً كالسهم شاهراً سيفه يمهد الطريق لجنوده الى صفوف النصارى، وغالبه المرض الذي سايره من مراكش ودخل خيمته وماهي إلا دقائق حتى فاضت روحه في ساحة الفدى، لقد رفض أن يتخلف عن المعركة قائلاً ومتى كان المرض يثني المسلمين عن الجهاد في سبيل الله، وأمر هذا القائد المجاهد عجيب في الحزم والشجاعة، ولقد فاضت روحه وهو واضح سبابته على فمه مشيراً أن يكتموا الأمر حتى يتم النصر، ولا يضطربوا وكان كذلك، فلم يعلم أحد بموته إلا أخوه أحمد المنصور وحاجبه رضوان العليج، وصار حاجبه يقول للجنود : (السلطان يأمر فلاناً أن يذهب الى موضع كذا، وفلاناً يلزم الراية، وفلاناً يتقدم وفلاناً يتأخر)(1).

وقاد احمد المنصور مقدمة الجيش وصدم مؤخرة الجيش البرتغالي ، وأوقدت النار في برود النصارى، وصدم المسلمون رماتهم، فتهالك قسم منهم صرعى، وولى الباقون الادبار قاصدين قنطرة نهر واد المخازن وكانت تلك القنطرة أثر بعد عين ، نسفها المسلمون بأمر سلطانهم ، فارتموا بالنهر، فغرق من غرق وأسر من أسر ، وقتل من قتل ، وصرع سبستيان وألوف من حوله ، ووقع المتوكل رمز الخيانة غريقاً في نهر وادي المخازن.

واستمرت المعركة أربع ساعات وثلاث الساعة، وكتب الله فيها النصر للاسلام والمسلمين(2).
جاء في (درة السلوك) لأحمد بن القاضي ، وهو معاصر لأحداث المعركة "مخطوط بدار

الوثائق بالرباط د 428، ص14"(3):

(1) انظر: وادي المخازن، ص66.

(2) المصدر السابق نفسه، ص66،67.

(3) دعوة الحق السنة 19، العدد 8، رمضان 1398هـ، ص56 نقلاً عن وادي المخازن ، ص67.

وابن أخيه (1) بالنصاري اعتصما
وصار يستجدهم لمن سَمَا
أجابه اللعينُ بستيان (2)
بجيشه ومعه الاوثان
وعدد الجيوش الذي جمعا
ينيف عن مائة ألف سُمعا
فخلص الاسلام من يد اللعين
بصبره على لقاء المشركين
مامنهم إلا قتيل وأسير
في ساعة من الزمان (3) ذا شهيد
مات بها بستيان اللعين
فماله عن الردى معين
ثم محمد (4) الذي أتى به
مات غريقاً يوماً فانتبه
لحكمه الله العظيم القاهر
أفادهم وزين المنابر
بذكر عمه أبي العباس
الحازم الرّأي شديد الباس
نجلُ الرسول المصطفى المختار
به زها المغربُ على الأقطار (5)

سادساً: أسباب نصر وادي المخازن:

- (1) اشارة الى المتوكل .
- (2) بستيان (لضرورة الوزن) وإلا فهو سبستيان.
- (3) اشارة الى قصر مدة المعركة.
- (4) محمد المتوكل المخلوع.
- (5) برده الغزو الصليبي وانتصاره الباهر في معركة وادي المخازن .

- 1- القيادة الحكيمة التي تمثلت في زعامة عبدالملك المعتصم بالله وأخيه أبي العباس، ولحاجبه المنصور، وظهور مجموعة من القادة المحنكين من أمثال أبي علي القوري ، والحسن العليج، ومحمد أبي طيبة، وعلي بن موسى، الذي كان عاملاً على العرائش.
- 2- التفاف الشعب المسلم المغربي حول قيادته بسبب أبي المحاسن يوسف الفاسي والذي استطاع أن يبعث روح الجهاد في القوى الشعبية.
- 3- رغبة المسلمين في الذود عن دينهم وعقيدتهم وأعراضهم، والعمل على تضييد الجراح بسبب سقوط غرناطة، وضياح الأندلس ، والانتقام من النصارى الذين عذبوا المسلمين المهاجرين والذين تحت حكمهم في الأندلس.
- 4- اشتراك خبراء من العثمانيين تميزوا بالمهارة في الرمي بالمدفعية وشارك كذلك مجموعة من الاندلسيين تميزوا بالرمي والتصويب بدقة مما جعل المدفعية المغربية تتفوق على المدفعية البرتغالية النصرانية .
- 5- الخطة المحكمة التي رسمها عبدالملك المعتصم بالله مع قادة حربه حيث استطاع أن يستدرج خصومه الى ميدان تجول فيه الخيل وتصول، مع قطع طرق تموينه وإمداده ثم نسفه للقنطرة الوحيدة على نهر وادي المخازن.
- 6- القدوة والأسوة المثالية التي ضربها للناس كل من عبدالملك وأخيه أحمد المنصور حيث شاركوا بالفعل والسنان في القتال فكان حالهما له أثر أشد في اتباعهم من قولهم.
- 7- تفوق القوات المغربية بالخييل حيث استطاع الفرسان أن يستثمروا النصر ويطوقوا النصارى المنهزمين ومنعتهم خيل المسلمين الخفيفة الحركة من أي فرصة للفرار.
- 8- استبداد سبستيان بالرأي وعدم الأخذ بمشورة مستشاريه وكبار رجال دولته مما جعل القلوب تتنافر.
- 9- وعي الشعب المغربي المسلم بخطورة الغزو النصراني البرتغالي وقناعته بأنه جهاد في

10- دعاء وتضرع المسلمين لله بإنزال النصر عليهم وخذل وهزيمة أعدائهم ، وغير ذلك من الاسباب.

سابعاً: نتائج المعركة:

1- أصبح سلطان المغرب بعد عبدالملك أحمد المنصور بالله الملقب بالذهبي وبويع بعد الفراغ من القتال بميدان المعركة، وذلك يوم الاثنين 30 جمادى الآخرة سنة ست وثمانين وتسع مئة للهجرة.

2- وصلت أنباء الانتصار بواسطة رسل السلطان أحمد الذهبي الى مقر السلطنة العثمانية، وفي زمن السلطان مراد خان الثالث، والى سائر ممالك الاسلام المجاورة للمغرب وغيرها، وحل السرور بالمسلمين وعم السعد في ديارهم ووردت الرسائل من سائر الاقطار مهنيين ومباركين للشعب المغربي نصرهم العظيم.

3- ارتفع نجم الدولة السعدية في آفق العالم وأصبحت دول أوروبا تخطب ودها واضطر ملك البرتغال الجديد وملك اسبانيا أن يرسلوا وفوداً محملة بالهدايا الثمينة. ثم قَدِمَتْ رسل السلطان العثماني مهنية ومباركة ومعهم هدياهم الثمينة وبعدها رسل ملك فرنسا واصبحت الوفود (تصبح وتمسي على اعتاب تلك القصور)(2).

4- سقط نجم نصارى البرتغال في بحار المغرب واضطربت دولتهم، وضعفت شوكتهم ، وتهاوت قوتهم.

يقول لويس ماريه -المؤرخ البرتغالي- واصفاً نتائج المعركة:

" وقد كان مخبوءاً لنا في مستقبل الاعصار ، العصر ، الذي لو وصفته -كما وصفه غيره من

(1) انظر: وادي المخازن ، ص75،74،73،72.

(2) الاستقصاء (92/5) نقلاً عن وادي المخازن ، ص70.

المؤرخين - لقلت: هو العصر النحاس البالغ النحوسة ، الذي انتهت فيه مدة الصولة والظفر والنجاح ، وانقضت فيه أيام العناية من البرتغال ، وانطفأ مصباحهم بين الأجناس ، وزال رونقهم ، وذهبت النخوة والقوة منهم ، وخلفها الفشل الذريع ، وانقطع الرجاء واضمحل إبان الغنى والريح ، وذلك هو العصر الذي هلك فيه سبستيان في القصر الكبير في بلاد المغرب" (1).

5- مات في تلك المعركة ثلاثة ملوك ، صليبي حاقد سبستيان ملك البرتغال ، وملك مخلوع خائن محمد المتوكل ، ومجاهد شهيد ، عبدالملك المعتصم بالله.

6- سارع البرتغاليون النصارى بفكاك أسراهم ودفَعوا أموالاً طائلة للدولة السعدية.

7- سادت فترة هدوء ورخاء وبناء وازدهار في العلوم والفنون والصناعات في بلاد المغرب.

8- حدث تحول جذري في التفكير والتخطيط على مستوى أوروبا حيث رأوا أهمية الغزو الفكري لبلاد المسلمين ، لأن سياسة الحديد والنار تحطمت أمام إرادة الشعوب الإسلامية في المشرق والمغرب (2).

استمر احمد المنصور على منهج أخيه في بناء المؤسسات واقتناء ماوصلت إليه الكشوفات العلمية وتطوير الادارة والقضاء والجيش ، وترتيب الأقاليم وتنظيمها ، وكان أحمد المنصور يتابع وزراءه وكبار موظفيه ويحاسبهم على عدم المحافظة على أوقات العمل الرسمية ، أو التأخير في الرد على المراسلات الإدارية والسياسية.

وأحدث حروف لرموز خاصة بكتابة المراسلات السرية حتى لايعرف فحواها إذا وقعت في يد عدو ، وهذا يدل على اهتمامه الشخصي بجهاز الأمن والاستخبارات التي تحمي به الدولة من الاخطار الداخلية والخارجية.

واهتم بالجهاز القضائي ، وفصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية تماماً ، ومنع السلطة

(1) المصدر السابق نفسه (86-85/5) نقلاً عن وادي المخازن ، ص71.

(2) انظر: وادي المخازن ، ص76.

وقد قارن مؤرخ فرنسي بين القضاء الأوروبي والقضاء المغربي في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين (16، 17م) فقال: "في الوقت الذي كانت أوروبا في العصر السعدي يحتفظ الملوك فيها وحدهم بحق الحكم في عدد من القضايا ، فإن الملوك السعديين لا ينظرون إلا في القضايا المرفوعة ضد رجال السلطة ، وهذا ما كان يدعى بقضاء المظالم(1).

وترأس أحمد المنصور مجلس المظالم وجعله في جامع القصبة في مراكش ، بجوار قصره وشكل لجنة تراقب مجرى القضاء في الاقاليم ويهتم بمطالعة ودراسة تقاريرهم بعناية واهتم بضبط الادارة وإحكام دولته وإقامة العدل على رعاياه وعمل على إقامة محطات في أرجاء البلاد يحرسها جنود مقيمون لا يبعد بعضهم عن بعض إلا بمسافة عشرين كيلومتراً بحيث يستطيع المسافرون والقوافل أن تمر عبر القرى والبوادي بأمن وسلام.

وطور عمل المؤسسات الاستشارية وأوجد مجلس الديوان أو مجلس الملاء واختصاصاته سياسية وقضائية وعسكرية، وهو أعلى مرجع قانوني للبلاد، إلا أنه لا يستطيع أن يتجاوز أحكام السلطة القضائية ، ولو كانت ضد المجلس كله أو بعض رجاله وكان مجلس الديوان من المرونة وسعة الافق بحيث يسمع بدخول المختصين أو ممثلين المدن والمراكز القروية عندما يقتضي الامر استشارات على نطاق شعبي واسع(2).

وطور السلطان احمد المنصور جيش دولته واقتدى بالنظام العثماني في التسليح والرتب واللباس واهتم بإسناد القيادات لمن أظهر كفاءة عسكرية عالية واثبتت الايام انه أهل لذلك ومن أهم هذه القيادات ، إبراهيم محمد السُفياني قائد الجبهة الامامية في وادي المخازن، وأحمد بن بركة، وأحمد العمري المعقلي.

(1) انظر: دعوة الحق نقلاً عن وادي المخازن ، ص41.

(2) انظر: وادي المخازن ، ص43،42.

ودعم جيشه بالوحدات الطبية من جراحين وغيرهم وأقام مستشفيات متنقلة ميدانية تستقبل الجرحى والمرضى في الحروب واهتم بتأهيل التقنيين المتخصصين في جيشه، وقام السعديون ببناء دار العدة لصناعة المدافع واهتموا بتطوير الأسطول، خصوصاً في مينائي العرائش وسلا(1).

ومد نفوذ الدولة السعدية نحو الجنوب وضم بلاد السودان الغربي إلى نفوذه ودخل في لعبة الموازنات الدولية بين الاسبان والانجليز والعثمانيين، وظهرت منه مواهب سياسية متميزة، واستطاع أن يحقق الأمن والأزدهار والرفاه والخصب لبلاده(2).

ثامناً: اقتراح عثماني على السعديين:

بدأت القوات الاسبانية في اكتساح الأراضي البرتغالية، ولم يستطع الأمير البرتغالي دون أنطونيو مقاومة تلك القوات الاسبانية، التي ضمت أراضيه لسنة 988هـ/1580م عند ذلك اقترح السلطان العثماني مراد الثالث عقد تحالف عسكري ضد الاسبان على أساس امداده بأسطول حربي وقوات عسكرية فبعث برسالتين في رجب 988هـ/ سبتمبر 1580م، قال فيها " .. فلما وصل بمسامعنا الشريفة ومشاعرنا الحقانية المنيفة خبر طاغية قشتالة وأنه احتوى على سلطنة برتغالي، أو كاد وأنه جعل أهلها في الأغلال والأصفاد، وأنه لكم جار وعدو مضرار حركتنا الحمية الإسلامية .. لإظهار الألفة الأزلية أن تتخذ عهداً وتؤكد أن المملكتين محروستا الجوانب ونعلق العهد بالكعبة ... فإذا تم هذا الشأن .. نوجه لكم ثلاثمائة غرابا سلطانية وجيش عز ونصر وكماه عثمانية تستفتح بها إنشاء الله بلاد الأندلس .. "

كان قلج علي بعد استقرار الدولة العثمانية في تونس بدأت أنظاره تتطلع إلى المغرب(3)، وأخذ

(1) انظر: وادي المخازن ، ص44.

(2) انظر: تاريخ عصر النهضة الأوروبية ، نورالدين حسام ، ص456،457،458.

(3) انظر: تاريخ الجزائر الحديث ، محمد خير فارس، ص52.

يعمل في توحيد الوجهة السياسية لبلاد المغرب الإسلامي، لضمه إلى الدولة العثمانية⁽¹⁾، خاصة بعد تذبذب موقف المولى أحمد المنصور الأخير من الدولة صدرت الأوامر إلى قلعج علي قائد الأسطول العثماني بالتوجه إلى المغرب لضمه للدولة العثمانية، فوصل قلعج علي إلى الجزائر في جمادى الثانية 989هـ/ يونيو 1581م، بينما كان المنصور يربط بقواته عند نهر تانسيفت، وكانت القوات المغربية قد استعدت لمواجهة التدخل العثماني، إذ جهز المنصور جنوده وتقدم بها حتى حدود بلاده، كما سد مدخل مملكته، وحصن الثغور، وإلى جانب تلك الاستعدادات وجه المنصور سفارة خاصة لأسطنبول وذلك بعد أن توصل إلى شبه اتفاق عسكري مع الملك الإسباني الذي انتهى من مشاكله بدخوله للعاصمة البرتغالية لشبونة في 27 جمادى الثانية 989هـ/ 31 يوليو 1581م، على أساس تقديم المساعدة العسكرية للمغرب، لمواجهة التدخل العثماني، مقابل التنازل عن مدينة العرائش وامتيازات أخرى وأمام تطور الأحداث لم يجد السلطان العثماني بداً من قبول الأمر الواقع والتراجع عن غزو المغرب بأن أمر قلعج علي⁽²⁾، وجعفر باشا نائب قلعج علي في الجزائر، بالتخلي عن العمل بالمغرب والانتقال إلى الشرق، حيث اضطرت الأمور بالحجاز فتخلى قلعج علي عن هدفه الطموح في استرداد الأندلس، بعد توحيد الجبهة لبلاد المغرب الإسلامي⁽³⁾.

تردد السفراء بين الاستانة وفاس فتوجهت سفارات أحمد بن ودة والشاظمي وابي الحسن علي بن محمد التمكروتي بين عامي 979هـ/ 1588م، 999هـ/ 1590م، واستقبل أحمد المنصور سفيراً عثمانية في 998هـ/ 1589م⁽⁴⁾ لم تتحقق رغبة السلطان العثماني في التحالف مع السعديين

(1) انظر: تاريخ الجزائر الحديث للجيلاني، ص101.

(2) انظر: المغرب في عهد الدولة السعدية، ص112.

(3) انظر: تاريخ الجزائر للجيلاني، ص101.

(4) انظر: بداية الحكم المغربي بالسودان، ص97.

لاسترداد الأندلس وذلك بسبب انشغال الدولة بحروبها المضنية ضد الشيعة الصفوية في إيران، والهاسببرج في وسط أوروبا، بالإضافة إلى واجبها نحو حماية مقدسات الأمة الإسلامية في الحجاز، وتدعيم حزامه الأمني (1).

تاسعاً: جهاد الوالي الجزائري وتغير الأوضاع :

جهز الوالي العثماني في الجزائر أسطوله في سنة 990هـ/1582م لمحاربة اسبانيا فوق أرضها، فنزل المجاهدون المسلمون في برشلونة فأعملوا فيها تدميراً ثم عبروا مضيق جبل طارق وهاجموا جزر الكناري التي تحتلها اسبانيا فدمروا المراكز العسكرية وغنموا مافيها ولم يكن الأسطول العثماني يذهب للأندلس لمجرد التنكيل بالاسبانيين ولتدمير منشآتهم بل كان بالدرجة الأولى لانقاذ المسلمين من نكبتهم وتعرض المجاهدون أثناء ذلك لمعارك قاسية وهزائم أحياناً (2).

ازداد تطاول الانكشارية في الجزائر على الأهالي في الوقت الذي انصرف رجال البحر ليمارسوا الجهاد البحري على نطاق واسع (3) ، لذلك حضر حسن فنزيانو من نشاطه البحري، الذي بادر إلى عودته إلى الجزائر حينما بلغه انتشار الفوضى بين الجنود، فانتصب على الجزائر للمرة الثانية، وفرض طاعته على الرعية وذلك في ربيع الثاني سنة 991هـ/ابريل 1583م، ولم يعارض الباب العالي في توليه، لما كان له من العقل في حسم الخلاف وإطفاء نار الفتنة واستتباب الأمن بالجزائر .

باشر حسن فنزيانو تسيير الإدارة بما عهد منه من نشاط وحزم فإنه لم يترك قيادة الأسطول العثماني بالجزائر لغيره، وكثرت في أيامه المغانم بما كانت تجلبه السفن من السواحل الاسبانية والجزر الشرقية من نفائس، وبما كان يستولي عليه من الأسرى والمغانم في غزواته. وفي 992هـ/1584م أبحر حسن فنزيانو بأسطوله على ثغر بلنسية وحمل أعداداً كبيرة من

(1) انظر: جهود العثمانيين ، ص532.

(2) انظر: الجزائر والحملات الصليبية، ص59.

(3) انظر: تاريخ الجزائر الحديث، ص59.

مسلمي الأندلس، إذ أنقذهم من اضطهاد الإسبان، كما استطاع في السنة التالية انقاذ جميع سكان كالوسا، إذ حملهم إلى الجزائر وفي السنة بعدها توغل مراد رابيس في المحيط الأطلس فأغار على جزر الكناري وغنم منها غنائم كثيرة بما فيهم زوجة حاكم تلك الجزر، وبقي حسن فنزيانو على رأس الحكومة العثمانية بالجزائر إلى أن استدعاه السلطان في اسطنبول ليتولى منصب إمارة البحر " قبودان دوريا "(1) وذلك بعد وفاة قلع علي سنة 995هـ/1587م .

عاشراً: انتهاء نظام البيلربك في الجزائر:

بوفاة قلع علي انتهى في الجزائر نظم البيلربك الذي جعل من حكام الجزائر ملوكاً واسعِي السلطة والنفوذ واستعِض عنه بنظام الباشوية مثلها في ذلك تونس وطرابلس(2) ، ويفسر هذا التغيير في شكل الحكم العثماني بخوف السلطان العثماني في أن يتجه البيلربك بسبب قوتهم وضعف البحرية العثمانية نحو الاستقلال.

وكان الباشا موظف ترسله الاستانة لمدة ثلاث سنوات يتولى خلالها حكم البلاد دون أن يكون له سند أساسي أو سند محلي بين القوى التي تسيطر على البلاد(3) ، ويكون الباشا في كل من طرابلس وتونس والجزائر وكيلاً للسلطان ويكون مطلق التصرف لبعده الولاية عن العاصمة اسطنبول.

كانت أحداث ما بعد 997هـ/1588م في نيابات العثمانية الثلاث طرابلس وتونس والجزائر تفيد بسطوة الجنود ورجال البحرية على السلطنة فيها على حساب سلطة الباشا إلا أن طبيعة علاقات السلطة في داخل الولاية مع امساك السلطنة العثمانية بسلطة إصدار الغرامات، قد ضمنا تحقيق الأهداف العثمانية في الحكم من حيث الخطبة باسم السلطان وتحصيل الأموال سنوياً والمساهمة في حروب الدولة والقبول بالباشا القادم من الاستانة ممثلاً أعلى للسلطان في حكم النيابة وهي

(1) انظر: تاريخ الجزائر العام للجيلاني (103/3، 102).

(2) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص410.

(3) انظر: المغرب العربي للعقاد، 28.

جميعها من رموز السيادة العثمانية الرسمية(1).

كان ذلك هو التحول الذي جرى في الدولة نحو الشمال الأفريقي، إثر معركة ليبانتوسنه 978هـ/1571م ، فبعد أن كان الشمال الأفريقي تحت مسؤولية البيلربك الموجود في الجزائر، انقسمت المنطقة إلى ثلاث ولايات هي طرابلس وتونس والجزائر وصارت ولايات عادية مثلها مثل سائر الولايات العثمانية الأخرى، لقد كان موقف الدولة السعدية من جهة، وتصرف بعض الانكشاريين من جهة وجبهات المشرق من جهة وغير ذلك من الأسباب أضعف همة الدولة في إرجاع الأندلس .

لقد حالت عدة أسباب دون ضم المغرب الأقصى للدولة العثمانية منها:

- 1- ظهور شخصية قوية حاكمة في المغرب ونعني به المنصور السعدي.
- 2- وفاة قلاج علي في 1587م ومن بعده أدخل الشمال الأفريقي في نظام الولايات.
- 3- كان النصر الذي أحرزه المغاربة على البرتغاليين في معركة وادي المخازن سبباً في تقدير السلطات العثمانية للسعديين واحترامهم(2) لقد كانت الدولة العثمانية في جهودها البحرية في البحر المتوسط أكثر توفيقاً من البحر الأحمر والمحيطات لعدة أسباب منها:
- 1- قرب الشمال الأفريقي من كل من اسطنبول ومصر يجعل الامدادات متلاحقة ويجعل صورة الأحداث واضحة، والتطورات العسكرية مفهومة، بعكس الحال في المحيطات حيث كانت تطورات الأمور لاتصل إلا بعد وقت طويل وبشكل غير واضح.
- 2- كانت للعثمانيين قواعد قوية في شمال افريقية تستند إلى خلفية إسلامية واسعة وخبرة عملية في محاربة النصارى وكانوا على استعداد للتعاون مع العثمانيين والدخول تحت نفوذهم.
- 3- لم تكن هناك مقاومة مذهبية عنيفة في شمال افريقية بل كانت الهيمنة للمذهب السني الذي

(1) انظر: جهود العثمانيين، ص477.

(2) انظر: الشعوب الاسلامية، د. عبدالعزيز سليمان، ص123.

استطاع أن يقف أمام المذاهب المنحرفة ويجتثها من جذورها (1).

(1) انظر: الشعوب الإسلامية ، د. عبدالعزيز سليمان، ص124.

الفصل الخامس

بداية اضمحلال الدولة العثمانية

اتفق المؤرخون على أن عظمة الدولة العثمانية قد انتهت بوفاة السلطان العثماني سليمان القانوني عام (974هـ / 1566م) وكانت مقدمات ضعف الدولة قد اتضحت في عهد السلطان سليمان، إذ وقع السلطان تحت تأثير زوجته روكسلانا التي تدخلت للتأمر ضد الأمير مصطفى ليتولى ابنها سليم الثاني الخلافة بعد أبيه وكان مصطفى قائداً عظيماً ومحبوباً من الضباط، مما أدى إلى سخط الانكشارية ونشوب ثورة كبرى ضد السلطان وأخمدتها السلطان سليمان، وبذلك تم القضاء على مصطفى وابنه الرضيع وكذلك قتل السلطان ابنه بايزيد وأبناءه الأربعة بدسياسة من أحد الوزراء (1) ومن مظاهر الضعف في عهد سليمان بدء انسحاب السلطان من جلسات الديوان، وبروز سطوة الحریم والعجز عن مواجهة المشاكل الاقتصادية والاجتماعية التي أدت إلى نشوب القلاقل الشعبية في الروميلي والأناضول (2).

(1) انظر: في أصول التاريخ العثماني، ص 102.

(2) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي ، ص 94.

المبحث الأول السلطان سليم الثاني

تولى الحكم في 9 ربيع الأول سنة 974هـ، ولم يكن مؤهلاً لحفظ فتوحات والده السلطان سليمان ولولا وجود الوزير الفذ والمجاهد الكبير والسياسي القدير محمد باشا الصقلي (1) لانهارت الدولة، إذ قام بإعادة هيبته وزرع الرهبة في قلوب أعدائها وعقد صلحاً مع النمسا وأتم توقيع معاهدة في عام 975هـ الموافق 1967م احتفظت بموجبها النمسا بأملاكها في بلاد المجر ودفعت الجزية السنوية المقررة سابقاً للدولة كما اعترف أمراء ترانسلفانيا والأفلاق والبغدان (2).

أولاً: تجدد الهدنة مع شارل التاسع ملك فرنسا:

تجددت الهدنة مع ملك بولونيا وشارل التاسع ملك فرنسا في عام 980هـ الموافق 1569م كما زادت الامتيازات القنصلية الفرنسية وجرى تعيين هنري دي فالوا - وهو أخو ملك فرنسا - ملكاً على بولونيا باتفاق مع فرنسا التي أصبحت بذلك ملكة التجارة في البحر المتوسط . وطبقاً للمعاهدات السابقة فقد قامت تلك الدولة - أي فرنسا - بإرسال البعثات الدينية النصرانية إلى كافة

(1) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص123.

(2) المصدر السابق نفسه ، ص124.

أرجاء البلاد العثمانية التي يسكنها نصارى وخاصة بلاد الشام وقامت بزرع محبة فرنسا في نفوس نصارى الشام مما كان له أثر يذكر في ضعف الدولة، إذ امتد النفوذ الفرنسي بين النصارى وبالتالي ازداد العصيان وتشجعوا على الثورات فكان من أهم نتائج ذلك التدخل الاحتفاظ بجنسية ولغة الأقليات النصرانية حتى إذا ضعفت الدولة العثمانية ثارت تلك الشعوب مطالبة بالإستقلال بدعم وتأييد من دول أوروبا النصرانية(1).

إن اقتناع الدول الأوروبية بكون " نظام الامتيازات الأجنبية، حقاً من حقوقها الطبيعية هو الذي دفع فرنسا لإرسال جنودها لمساعدة البندقية التي كان السلطان مراد الرابع (1624-1640م) يحاربها، كما أرسلت سفيرها برفقة عمارة بحرية لإرهاب الدولة العلية ومطالبتها بتحديد الامتيازات. لكن الصدر الأعظم حينئذ والذي كان مازال يمتلك قراره السياسي، أخبر السفير "بأن المعاهدات هذه ليست اضطرارية واجبة التنفيذ ذلك لكونها منحة سلطانية فحسب، الأمر الذي جعل فرنسا تتراجع عن تهديداتها وتتحايل لدى السلطان ليوافق من جديد على تجديد نظام الامتيازات عام 673م، مما زاد الطين بلة، وبدل أن تتعظ الدولة العثمانية مما حدث أمر السلطان محمد الرابع (1648-1687م) بتفويض فرنسا حق حماية بيت المقدس(2) تتابع بتجديد الامتيازات، وفي كل مرة يضاف قيد جديد على السلطنة ففي تجديد عام 1740م أضافت السلطنة امتيازات تجارية جديدة لفرنسة. ولكن الامتيازات تعرضت لتهديد حقيقي عندما احتل نابليون بوناپرت مصر، فقد أوقفت السلطنة العمل بها، غير أن نابليون كان قد تراجع في الوقت المناسب حفاظاً على علاقته مع السلطنة، وذلك حين عرض انسحاب فرنسا من مصر لقاء تجديد الامتيازات، وقد تم ذلك بالفعل في 9 تشرين أو (أكتوبر) 1801م وأضافت السلطنة امتيازاً جديداً يقضي بمنح فرنسا

(1) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، ص124.

(2) انظر: الدولة العثمانية، قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، جواد العزاوي، ص26.

حرية التجارة والملاحة في البحر الأسود(1).

لقد كانت نتائج هذه الامتيازات وخيمة جداً على السلطنة ولقد بين المؤرخ اليوناني ويمتري كيتسيكس : " .. أن الامتيازات حطمت اقتصاد الامبراطورية بتحطيمها النظام الضريبي العثماني القائم على حماية التجارة المحلية ضد المنافسة الاجنبية .. " (2). بل هذه الامتيازات حالت دون قيام السلطنة بتنفيذ مشروعات إصلاحية واستنباط موارد مالية جديدة لمواجهة نفقات الإدارة والحكم، لذلك أصبحت معاهدات الامتيازات الأجنبية بمثابة موثيق مذلة للعثمانيين مادام الأوروبيون لا يخضعون للسلطات العثمانية، فقد أصبحوا وكأنهم يشكلون حكومة داخل الحكومة العثمانية(3).

ثانياً: حاكم خوارزم يطلب الحماية من السلطان سليم الثاني

اشتكى حاكم خوارزم للسلطان سليم الثاني، من أن شاه فارس يقبض على الحجاج الوافدين من تركستان، بمجرد عبورهم حدوده، وأن موسكو بعد استيلائها على استراخان منعت مرور الحجاج والتجارة، ووضعت العقبات والعراقيل أمامهم، لهذا طلب حاكم خوارزم، وحكام بخارى وسمرقند من السلطان سليم الثاني أن يفتح استرخان بهدف إعادة فتح طريق الحج(4) لاقى ذلك الطلب القبول لدى الدولة العثمانية اعد صوقلي باشا الصدر الأعظم في الدولة حملة كبرى سنة 976هـ/977م للاستيلاء على استراخان وتحويلها إلى قاعدة عثمانية للدفاع عن المنطقة وأن يصل ما بين نهري الفولجا والدون بقناة صالحة لمرور السفن لتسهيل دخول الأسطول العثماني بحر الخزر (قزوين) عن طريق البحر الأسود لتمكن العثمانيين من وقف التوسع الروسي نحو الجنوب وتطرد الفرس من القوقاز واذربيجان بل وغزو فارس من الشمال، بدلاً من

(1) انظر: الدولة العثمانية، قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، جواد العزاوي، ص26.

(2) المصدر السابق نفسه، ص27.

(3) انظر: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها (75/1).

(4) انظر: في أصول التاريخ العثماني، ص144.

مرور الجيوش العثمانية بأرض أذربيجان الوعرة، والاتصال بالأزبك أعداء الصفويين وتتار القرم، ومن شأن كل ذلك أن يؤدي إلى إحياء طريق القوافل القديمة المارة بأواسط آسيا من الشرق إلى الغرب(1).

شرع العثمانيون في تنفيذ مشروع وصل نهر الدون بالفولجا، وحل شهر جمادي الأولى 977هـ/ أكتوبر 1569م حتى كان ثلث القناة قد اكتمل، وإن يكن موسم الشتاء قد أدى إلى إيقاف العمل، وحينئذ اقترح قائد الحملة استعمال سفن صغيرة محملة بالمدافع والذخيرة لشن الهجوم على استراخان إلا أن الحملة فشلت بسبب الظروف الطبيعية ومع هذا استطاع صوقلي باشا أن يحقق بعض النجاحات كتشديد قبضة السلطان على أمراء مولدافيا وولاشيا وبولندا، وبذلك اعترضت الدولة العثمانية مرحلياً توسع روسيا شمال وغرب البحر الأسود(2).

ثالثاً: فتح قبرص:

كانت إيطاليا وإسبانيا تقدر أهمية جزيرة قبرص وشاع في أوروبا عن تكون حلف ضد السلطان ولكن لم يعمل شيء في حينه لانقاذ قبرص من العثمانيين الذين نزلوها بقوة كاسحة، نفذت إلى الجزيرة بدون صعوبة ووقفت مدينة فامرجستا الحصينة أمام العثمانيين بقيادة باحليون وبراجادنيو الذين واجهوا القوة العثمانية التي وصلت مائة ألف مقاتل استعمل خلالها العثمانيين جميع وسائل الحصار المعروفة، من فر وكر، وزرع للألغام ولم ينتج أي تأثير على الحامية، ولو وصلت قوة مسيحية للنجدة، لصار العثمانيون في خطر، إلا أن المجاعة قامت بعملها، واستسلمت المدينة في ربيع الثاني 979هـ / اغسطس 1571م .

نقلت الدولة العثمانية بعد فتحها لقبرص عدداً كبيراً من سكان الأناضول الذين لايزال أحفادهم مقيمين في الجزيرة، ورغم ترحيب القبارصة الارثوذكس بالحكم العثماني، الذي انقذهم من

(1) انظر: فتح عدن ، محمد عبداللطيف البحراني، ص145.

(2) انظر: جهود العثمانيين، ص447.

الاضطهاد الكاثوليكي الذي مارسه البندقية لعدة قرون، إلا أن احتلال العثمانيين أثار الدولة الكاثوليكية (1).

رسى الأسطول العثماني بعد انتهاء مهمته في ابناجني وانصرف معظم جنوده بمناسبة حلول موسم الشتاء، حيث تتوقف ساحة المعارك في مثل هذا الوقت من السنة، والاستعداد للسنة المقبلة (2).

رابعاً: معركة ليبانتي (3)

ارتعدت فرائص الأمم المسيحية من الخطر الإسلامي العظيم الذي هدد القارة الأوروبية، من جراء تدفق الجيوش العثمانية براً وبحراً فأخذ البابا بيوس الخامس (1566 - 1572م) يسعى من جديد لجمع شمل البلاد الأوروبية المختلفة وتوحيد قواها براً وبحراً تحت راية البابوية (4) وقد كتب يقول " ... إن السلطنة التركية قد تبسطت تبسطاً هائلاً بسبب نذالتنا " (5) عقد البابا بيوس الخامس وفيليب الثاني ملك اسبانيا وجمهورية البندقية معاهدة في أوائل 979هـ/ مايو 1571م، تعهدوا فيه بالقيام بهجوم بحري ضد العثمانيين شارك في الحلف كذلك بعض المدن الايطالية، وذلك بعد تحريك بيوس الخامس لروح التحالف، فارتبطت توسكاني وجنوة، وسافوي، وبعض الايطاليين في الحلف المقدس (6)، وأرسل البابا إلى ملك فرنسا يريد العون: فاعتذر شارل التاسع بحجة ارتباطه بمعاهدات مع العثمانيين، فأجابه البابا طالباً منه التحلل من موثيقه هذه ولم تمض

(1) انظر: في أصول التاريخ العثماني ، ص146-147.

(2) انظر: فلسفة التاريخ العثماني لمحمد جميل بيهم، ص142.

(3) تقع في الطرف الشمالي للقم الغربي لخليج كورنث في اليونان اليوم.

(4) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص396.

(5) تاريخ الدولة العثمانية ، ص125.

(6) انظر: جهود العثمانيين، ص452.

سوى أيام قليلة حتى نقض الامبراطور عهوده ومواثيقه التي أبرمها مع العثمانيين واتجه نحو إيفان ملك الروس يطلب إجابته نغير الحرب ووجد تباطؤاً عند ملك بولونيا واختير (دون جوان) النمساوي قائداً للحملة وجاء في أحد بنود المعاهدة النصرانية : " إنَّ البابا بيوس الخامس وفيليب ملك إسبانيا وجمهورية البندقية يعلنون الحرب الهجومية والدفاعية على الأتراك لأجل أن يستردوا جميع المواقع التي اغتصبوها من المسيحيين ومن جملتها تونس والجزائر وطرابلس "(1).

سار دون جون إلى البحر الادرياتيكي، حتى وصل إلى الجزء الضيق من خليج كورنث بالقرب من باتراس وليس ببعيدة عن لبيانتو والذي اسماها اعطى للمعركة.

كان من رأي قادة الأسطول الإسلامي الإفادة من تحصين الخليج وعدم الاشتباك بالأسطول الصليبي، غير أن القائد العام علي باشا صمم على الخروج للمعركة معتمداً على تفوقه في عدد سفنه، ونظم علي باشا قواته فوضع سفنه على نسق واحد من الشمال إلى الجنوب، بحيث كانت ميمنتها تستند إلى مرفأ لبيانتو، ومسيرتها في عرض البحر، وقد قسمها علي باشا إلى جناحين وقلب فكان هو في القلب وسيروكو في الجناح الأيمن وبقي الجناح الأيسر بقيادة قلعج علي.

ومقابل ذلك نظم دون جون قواته فوضع سفنه على نسق يقابل النسق الإسلامي ووضع جناحه الأيمن بقيادة دوريا مقابل قلعج علي، وأسند قيادة جناحه الأيسر إلى بربريجو مقابل سيروكو وجعل دون نفسه لقيادة القلب وترك أسطولاً احتياطياً بقيادة سانت كروز (2).

خامساً: احتدام المعركة :

احتدمت المعركة في 17 جمادي الأولى سنة 979هـ/ 17 أكتوبر 1571م أحاط الأسطول الإسلامي بالأسطول المسيحي وأوغل العثمانيون بين سفن العدو، ودارت معركة قاسية أظهر فيها

(1) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، ص126، 125.

(2) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص396.

الفريقان بطولة كبيرة وشجاعة نادرة⁽¹⁾، وشاءت إرادة الله هزيمة المسلمين ففقدوا ثلاثين ألف مقاتل وقيل عشرين ألفاً، وخسروا 200 سفينة حربية منها 93 غرقت والباقي غنمه العدو وتقاسمته الأساطيل النصرانية المتحدة⁽²⁾ وأسر لهم عشرة آلاف رجل⁽³⁾ واستطاع قلج علي انقاذ سفنه واستطاع كذلك المحافظة على بعض السفن التي غنمها ومن بينها السفينة التي تحمل عمل البابا، رجع بها لاسطنبول التي استقبلته استقبال الفاتحين، رغم الشعور بمرارة الهزيمة⁽⁴⁾ ويأدر السلطان سليم الثاني أثر ذلك بترفيع قلج علي إلى رتبة قائد البحرية العثمانية " قبودان باشا "، مع الاستمرار في منصبه كبيرلك للجزائر⁽⁵⁾ .

سادساً: أثر لبيانتو على أوروبا والدولة العثمانية:

احتقلت القارة الأوروبية بنصر لبيانتو، فلأول مرة منذ أوائل القرن الخامس عشر تحل الهزيمة بالعثمانيين⁽⁶⁾ فهلل الأوروبيون وكبروا لذلك الانتصار وأقيمت معالم الزينات في كل مكان وأفرطت في التسبيح بحمد دون جون أمير الأساطيل المتحدة الذي أحرز هذا الانتصار، إلى حد أن البابا لم يتورع عن القول أثناء الاحتفال في كنيسة القديس بطرس، بمناسبة هذا النصر (إن الإنجيل قد عنى دون جون نفسه، حيث بشر بمجيء رجل من الله يدعى حنا) وظل العالم المسيحي ومؤرخوه ينوهون بهذا النصر البحري، حتى أن القواميس المدرسية الحديثة لاتذكر ثغر لبيانت، إلا وتذكر معه دون جون المشار إليه على اعتبار أنه أنقذ المسيحية من خطر كان يحيق

(1) انظر: جهود العثمانيين، ص454.

(2) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، ص126.

(3) المصدر السابق نفسه، ص126.

(4) انظر: الحرب الثلاثمائة سنة، ص398،399.

(5) انظر: جهود العثمانيين، ص454.

(6) انظر: في أصول التاريخ العثماني، ص147.

بها(1).

لقد فرح البابا فرحاً عظيماً على الرغم من عدم ارتياحه لأنّ عدوه لا يزال عظيماً مرهوب الجانب وحاول إثارة شكوك الشيعة الأثني عشرية الصفوية ضد العثمانيين مستغلاً بعض الضغائن والمشكلات والاختلاف العقائدي، فأرسل إلى الشاه طهماسب ملك العجم ومن جملة ما قال له : " .. لن تجد أبداً فرصة أحسن من هذه الفرصة لأجل الهجوم على العثمانيين ، إذ هم عرضة للهجوم من جميع الجهات ... "(2).

وأرسل يستعدي ملك الحبشة وإمام اليمن على الدولة العثمانية ولكن المنية عاجلته(3). إن نتيجة معركة ليبانتو، كانت مخيبة لآمال العثمانيين، فقد زال خطر السيادة العثمانية في البحر المتوسط ومع زوال الخطر، زال الخوف الذي كان قوياً، للمحافظة على حلف مقدسي دائم و استعاد الحسد والغيرة نشاطه بين الدول المسيحية(4).

إن أهمية ليبانتو كانت عظيمة وأسطورة عدم قهر العثمانيين قد اختفت ولم تعد للوجود ثانية على أقل تقدير في البحر، وأزيح ذلك الخوف عن قلوب حكام إيطاليا، واسبانيا، وتزعزع تأثير الدولة العثمانية على سياسة القوى الغربية لأوروبا، إذ كانت من الحقيقة القوات العثمانية هائلة في كل المجال البري، والمجال البحري(5)، كما أن الانتصار المسيحي في ليبانتو 1571 كان إشارة لتحضير حاسم في ميزان القوة البحرية في البحر المتوسط، كما أنه أنهى عصراً من عصور العمليات البحرية الطموحة في البحر المتوسط، والتي تكاليفها باهظة(6).

(1) انظر: فلسفة التاريخ العثماني، ص 143.

(2) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، ص 126.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 126.

(4) انظر: جهود العثمانيين، ص 455.

(5) المصدر السابق نفسه، ص 455.

(6) المصدر السابق نفسه، ص 455.

لم يعد يفكر العثمانيون بعد تلك الهزيمة في إضافة حلقة أخرى إلى سلسلة أمجادهم البحرية⁽¹⁾، إذا كان هذا الإنكسار نقطة البداية نحو توقف عصر الإزدهار لقوة الدولة البحرية⁽²⁾.

سابعاً: ظهور أطماع فرنسا في الشمال الأفريقي:

كانت معركة ليبانتو فرصة مواتية لإظهار طمع فرنسا نحو المغرب الإسلامي، إذ بمجرد انتشار خبر هزيمة الأسطول العثماني في تلك المعركة قدم ملك فرنسا شارل التاسع مشروعاً إلى السلطان العثماني (980هـ / 1572م) ، وذلك بواسطة سفيره باسطنبول، يتضمن طلب الترخيص لحكومته في بسط نفوذها على الجزائر، بدعوة الدفاع عن حمى الإسلام والمسلمين بها وأن فرنسا مستعدة في مقابل ذلك دفع مغرم للباب العالي، فأعرض السلطان عن السفير الفرنسي ولم يهتم به، ومع ذلك أوغلت فرنسا طموحها وألحت على طلبها وسلكت للتوصل إلى هدفها مسالك دبلوماسية عديدة، حتى تحصلت على امتيازات خاصة، في السقالة وأماكن أخرى على الساحل الجزائري وتصريح من السلطان بإقامة مراكز تجارية⁽³⁾.

ثامناً: إعادة بناء الأسطول العثماني:

قبل القبودان باشا قلع علي، بهمة ونشاط متزايد، على تجديد الأسطول العثماني، وتعويض ما فقد منه، وما حل صيف 980هـ / 1572م، حتى قد هياً مائتان وخمسون سفينة جديدة، وخرج قلع علي بأسطوله في البحر وارتاعت البندقية من هذا الاستعداد البحري، فطلبت الصلح من الدولة العثمانية بشروط مخزية إذ تنازلت لها عن جزيرة قبرص، كما دفعت غرامة حربية قدرها ثلاثمائة

(1) انظر: بداية الحكم المغربي في السودان، ص94.

(2) انظر: فلسفة التاريخ العثماني، ص143.

(3) انظر: تاريخ الجزائر العام (97/3-98).

ألف دوكة(1)، ولكن هذا النشاط كان من قبيل اليقظة التي تسبق فترة الاحتضار البحري ذلك لأن الدولة انصرفت إلى حروب متواصلة ، نشبت بينها وبين النمسا وحليفاتها من جهة، وبينها وبين فارس من جهة أخرى كما أنها انشغلت بإخماد الثورات الداخلية المستمرة(2) .

تاسعاً: احتلال تونس:

كان فيليب الثاني قد تشجع لاحتلال تونس بسبب لجوء السلطان الحفصي أبي العباس الثاني الذي حكم تونس 942-980 / 1535-1572م إليه، وطلب منه المساعدة في إخماد الثورات بإعطائهم امتيازات كبيرة، وتتيح لهم سكن جميع أنحاء تونس، وتتنازل عن عناية وبنزرت وحلف الواد(3) فرفض أبو العباس الشروط ولكن أخاه محمد بن الحسين قبلها(4) بعد ذلك خرج دون جون بأسطوله من جزيرة صقلية في رجب 981هـ أكتوبر 1573م، على رأس أسطول مكون من 138 سفينة تحمل خمسة وعشرون ألف مقاتل، ونزل بقلعة حلق الواد التي كانت تحتلها اسبانيا، ثم باغت دون جون تونس واحتلها وخرج أهلها بوادي تونس فارين بدينهم من شر الاسبان(5)، كما انسحب الحاكم العثماني الى القيروان(6) وكانت أوروبا قد أدركت أنها لاتستطيع أن تقضي على الدولة إلا مجتمعة(7).

عاشراً: قلع علي واستعداداته الحربية:

(1) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص399.

(2) انظر: جهود العثمانيين، ص456.

(3) انظر: تاريخ الجزائر الحديث ، ص143.

(4) جهود العثمانيين ، ص457.

(5) حرب الثلاثمائة سنة، ص399-400.

(6) انظر: تاريخ الجزائر الحديث، ص

(7) انظر: جهود العثمانيين ، ص457.

اهتم قلعج علي بتسليح البحارة وتدريبهم على الأسلحة النارية الحديثة، وقد لفت هذا النشاط البحري انظار كل المقيمين الأجانب وازدادت مكانة قلعج علي حتى أن البابا نصح فيليب الثاني ملك اسبانيا أن يسعى لاغرائه (1) وذلك بمنحه راتباً من عشرة آلاف واقطاعية من مملكة نابلس أو غيرها من ممتلكات العرش الاسباني ويتوارثها نسله من بعده، مع لقب كومت أو ماركيز أو دوق، كما شمل المشروع أيضاً منح امتيازات مماثلة لاثنتين من مساعديه (2) ، وكان البابا يدرك أن مثل هذه المحاولة أن لم تنجح فإنها على الأقل ستثير شكوك السلطان على قلعج علي وهو الشخص الوحيد القادر على دعم أمور السلطنة ولكن هذه المحاولة فشلت وكانت النتيجة أنها أثارت غضب قلعج علي بدلاً من أن تقربه (3) ، وأنه لايمكن شراء إمانة المسلم المجاهد إذ أنه وجوده في خدمة الدولة، إنما كان يعني أنه وهب نفسه لسبيل الله وهذا ماسارت عليه الدولة في سياستها في جميع فتوحاتها ولعل ذلك كان سبباً مباشراً في سرعة الفتح ونجاحه، في كل الأقاليم والميادين التي طرقتها الدولة وكان العثماني في أي موقع يخدم الدولة بكل إخلاص وما خدمته تلك، إلا خدمة للإسلام (4).

الحادي عشر: السلطان سليم يصدر أوامره لإعادة تونس :

أصدر السلطان سليم الثاني أوامره إلى وزيره سنان باشا وقبودانه قلعج علي بالاستعداد للتوجه إلى تونس، لفتحها نهائياً، وإعادة نفوذ الدولة العثمانية إليها، كما صدرت نفس الأوامر والتوجيهات لبقية الأقاليم بتحضير الجنود والذخيرة، والمؤن والجنود مع مائتين وثلاث وثمانين سفينة مختلفة الأحجام، كما أكد على المكلفين بالخدمة في الأناضولي والروم يلي بالإشتراك في السفر بحراً، كما

(1) انظر: تاريخ الجزائر الحديث، ص51.

(2) انظر: أطوار العلاقات المغربية العثمانية، ص280.

(3) انظر: تاريخ الجزائر الحديث، ص51.

(4) انظر: جهود العثمانيين، ص458.

أحضر المجدفين اللازمين للأسطول، وأنذر من لا يحضر من المجدفين بالفصل من مناصبهم على أن لا يسند إليهم في المستقبل أي عمل وبينما كان الأسطول يتأهب، أخذ حيدر باشا الحاكم العثماني في تونس والذي انسحب للقيروان في حشد المجاهدين من الأهالي الذين التفوا حوله (1). أبحر الأسطول العثماني بقيادة سنان باشا وقلج علي في 23 محرم 982هـ / 14 مايو 1574م، فخرج من المضائق ونشر أشرعته في البحر الأبيض، فقاموا بضرب ساحل كالابريا، مسينا، واستطاع العثمانيون أن يستولوا على سفينة مسيحية ومن هناك قطعوا عرض البحر في خمسة أيام (2) في هذا الوقت وصل الحاكم العثماني في تونس حيدر باشا، كما وصلت قوة من الجزائريين بقيادة رمضان باشا، وقوة طرابلس بقيادة مصطفى باشا، كما وصل ثمة متطوعين من مصر (3).

بدأ القتال في ربيع سنة 981هـ / 1574م، ونجح العثمانيون في الإستيلاء على حلق الواد، بعد أن حوصروا حصاراً محكماً (4) وقامت قوات أخرى بمحاصرة مدينة تونس، ففر الاسبان الموجودين فيها ومعهم الملك الحفصي محمد بن الحسن إلى البستيون (5) التي بالغ الاسبان في تحصينها وجعلوه من أمنع الحصون في الشمال الأفريقي .

توجه العثمانيون بعد تجمع قواتهم إلى حصار البستيون، وضيق العثمانيون الخناق على أهلها من كل ناحية وبأشر الوزير سنان الحرب بنفسه كواحد من الجند حتى أنه أمر بعمل متراس يشرف منه على قتال من في البستيون كما كان ينقل الحجارة والتراب على ظهره مثل الجنود، فعرفه أحد أمراء الجنود فقال له: ما هذا أيها الوزير؟ نحن إلى رأيك أحوج منا إلى جسمك، فقال له

(1) انظر: الاتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ص 251.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 250.

(3) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص 400.

(4) انظر: تاريخ الجزائر الحديث، ص 51.

(5) البستيون : قلعة بناها الاسبان بجانب تونس.

وشدد سنان باشا في حصاره على البستيون حتى استطاع فتحه (1).

لجأ الحفصيون إلى صقلية حيث ظلوا يوالون الدسائس والمؤامرات والتضرعات لملوك اسبانيا سعياً لاسترداد ملكهم، واتخذهم الاسبان آلات طيعة تخدم بها مآربهم السياسية حسبما تمليه الظروف عليهم وقضى سقوط تونس على الآمال الاسبانية في افريقيا وضعفت سيطرتها تدريجياً حتى اقتصررت على بعض الموانئ مثل مليلة ووهران والمرسى الكبير وتبدد حلم الاسبان نحو إقامة دولة اسبانية في شمال افريقيا وضاع بين الرمال (2).

الثاني عشر: السلطان سليم الثاني يرسل حملة كبرى إلى اليمن:

اضطربت الأحوال في اليمن مع ظهور الزعيم الزيدي المطهر الذي كاتب أهل اليمن ودعاهم للخروج عن طاعة السلطان العثماني فاجتمعت القبائل لدى المطهر الذي دخل صنعاء بعد أن ألقى بالعثمانيين هزيمة ساحقة (3) وشعرت الحكومة العثمانية بخطورة الموقف وقررت ارسال حملة كبرى إلى اليمن بقيادة سنان باشا وقد اهتم السلطان العثماني سليم الثاني اهتماماً كبيراً بإرسال تلك الحملة، لأن اليمن كان يمثل جزءاً هاماً من استراتيجية العثمانيين في البحر الأحمر وهي غلق هذا البحر أمام الخطر البرتغالي (4) علاوة على ذلك يكون درعاً قوياً للحجاز، وقاعدة للتقدم في المحيط الهندي.

وصل الوزير العثماني سنان باشا إلى مصر تنفيذاً لأوامر السلطان وهناك اجتمعت لديه الجنود

في كافة الأنحاء، حتى أنه لم يبقى في مصر إلا المشايخ والضعفاء (5).

(1) انظر: حرب الثلاثمائة سنة ، ص401.

(2) انظر: جهود العثمانيين، ص460.

(3) انظر: البرق اليماني في الفتح العثماني، قطب الدين النهروالي ص173-177.

(4) انظر: دراسات في تاريخ العرب القديم ، عمر عبدالعزيز، ص103،102.

(5) انظر: غاية الاماني في اخبار القطر اليماني، يحيى بن الحسين (733/2).

تحركت الحملة ووصلت إلى ينبع واستقبله هناك قاضي القضاة في مكة وعند وصوله إلى مكة المكرمة استقبله أهلها ودخلت الجيوش العثمانية معه، وكان جنود مصر انتقلت إلى مكة بالإضافة إلى جنود الشام وحلب وفرمان ومرعش، وضبط سنان باشا الجنود، وأجرى الصدقات وأحسن على العلماء والفقهاء، ومكث عدة أيام في مكة وغادرها إلى جازان، وعندما اقترب منها، هرب حاكمها من قبل الإمام الزيدي المطهر، وأقام سنان باشا في جازان، فأقبلت عليه العربان يطلبون الطاعة وكان منهم أهل صبيا فأكرمهم سنان باشا وخلع عليهم وكساهم كما أقبلت عليه وفود عربان اليمن وبذلوا الطاعة طالبين الأمان.

أسرع سنان باشا إلى تعز، بعد أن ضبط جازان إذ بلغه أن الوالي العثماني في تعز ومن معه من الجنود في ضيق من أمرهم بسبب قطع عرب الجبال عليهم الميرة، وحصل عليهم المجاعة، فقطع الوزير سنان باشا المسافة في غاية السرعة، ونزل خارج تعز، وانتشر جنوده في جبالها ولما شاهد الزيديون كثافة ذلك الجيش، اعتصموا بأحد الجبال المسمى الأغبر.

قام سنان باشا وجزء من جيشه بمتابعة الزيود في جبل الأغبر، وتمكنوا منه عند ذلك خرج الزيود من مخابئهم لمواجهة العثمانيين، فانهزم الزيود وولوا هاربين فأنعم سنان باشا على جميع الجنود العثمانيين (1).

الثالث عشر: الاستيلاء على عدن:

جهز سنان باشا حملتان وذلك للإستيلاء على عدن، الأولى عن طريق البحر بقيادة خير الدين القبطان المعروف بقورت أوغلي، واخو سنان باشا، والثانية عن طريق البر بقيادة الأمير حامي وبرفقته عدد من الفرسان.

وكان حاكم عدن قاسم بن شويح من قبل الإمام الزيدي المطهر، قد أظهر شعار الزيدية، فكرهه أهالي عدن لأنهم شافعيون، ثابتون على الكتاب والسنة وبنى مدرسة بإسم مطهر يدرس فيها بعض

(1) انظر: البرق اليماني في الفتح العثماني، ص 218-226.

من مذهب الزيدية، كما استدعى البرتغاليون الذين أرسلوا سفينة وعليها عشرين جندياً، فأطلعهم قاسم إلى القلعة وأراهم مافيها من العدد والآلات وأعطاهم المدافع ليدافعوا عن عدن من جهة البحر ويكون البر للزيدية وأشياهم إلا أن خير الدين القبطان سبق إلى عدن ورأى من وسط البحر عشرين شراعاً للمسيحيين قاصدة عدن ولما تحقق خير الدين من ذلك توجه بسفنه إليهم فولوا هاربين، وتتبعهم خير الدين حتى اطمأن على ذلك.

لما عاد خير الدين إلى الساحل وأنزل مدافعه فوجهها نحو قلعة عدن منتظراً القوة البرية لتتم محاصرة عدن ففاجأهم الزيود، وإذا بالأمير ماحي قد وصل وأحاطوا بعدن من كل جانب، فهجموا عليها هجمة واحدة ودخلوا عليها من كل جانب، وأعطى خير الدين الأمان للأهالي الذين جاءوا بقاسم بن شويح وولده وذويه، وإذا بشخص منهم تقدم ليقبل يد خير الدين، فضربه بخنجر في بطنه وجرح خير الدين على أثرها، وتقدم الأمير ماحي، وقطع رأس بن شويح لاتهامه بهذه الخيانة وأراد قتل ولده وجميع أتباعه فمنعه الأمير خير الدين عند ذلك فرح لذلك الفتح الوزير سنان باشا وشاركه في ذلك الجنود وزينوا زييد وتعز وسائر الممالك السلطانية في اليمن، ثم عين الوزير سنان باشا ابن اخته الأمير حسين، وأرسل معه مئتين من الجنود، ورقى جميع الجنود الذين فتحوا عدن (1).

الرابع عشر: دخول صنعاء :

فرغ سنان باشا في هذا الوقت من جنوب اليمن، فاتجه نحو زمار وأمر بسحب المدافع لحصار صنعاء، فجهز المطهر نفسه للإسحاب منها، ونقل ما فيها من الخزائن وتقدم سنان باشا نحو صنعاء بعد أن وعد أهلها بالأمان فاطمأنت قلوبهم واختاروا عدداً منهم لمقابلته، فأكرمهم سنان ودخل صنعاء بعد ذلك إلا أنه لم يستقر فيها بل نهض بجيوشه الجرارة لحرب كوكبان وثلاً (2)

(1) انظر: البرق اليمني في الفتح العثماني، ص 249-255.

(2) انظر: غاية الاماني في أخبار القطر اليمني، يحيى بن الحسين (736/2).

لأن سنان باشا رأى أنه لن يتمكن من السيطرة على اليمن بأكمله إلا بالقضاء على مقاومة المطهر واتباعه فأخذ يوالي حشد قواته وتبعه في ذلك الوالي العثماني ودامت الحرب سجلاً ما يقرب من عامين، انتهت بموت الإمام الزيدي المطهر في مدينة ثلاث سنة 980هـ / 1573م وقد أتاح موت المطهر للعثمانيين مزيداً من السيطرة وبسط النفوذ حتى تمكن الوالي العثماني حسن باشا من الإستيلاء على ثلاث ومدع وعفار وذي مرمر والشرفين الأعلى والأسفل وصعدة مركز الإمامة الزيدية فقضى بذلك على حركة المقاومة اليمنية فترة من الوقت واستطاع حسن باشا أن يأسر الإمام الحسن بن داود الذي استحوذ على الإمامة بعد وفاة المطهر (1).

لقد تحولت سياسة الدولة العثمانية بعد معركة ليبانتو 979هـ / 1571م إلى أن تكون الأولوية للمحافظة على الأماكن المقدسة الإسلامية أولاً ثم البحر الأحمر والخليج العربي كحزام أمني حول هذه الأماكن وتطلب ذلك منها أسطولاً قادراً على أن يقاوم البرتغاليين (2).

استطاعت الدولة العثمانية أن تبني درع قوي، حمى الأماكن المقدسة الإسلامية من الهجمات المسيحية، ومع ذلك الدرع فقد احتفظ السلطان بحرس عثماني خاص في مكة المكرمة والمدينة المنورة وينبع، كما أقامت الدولة العثمانية محطات حراسة بجوار آبار المياه على طول الطريق بين مصر وسوريا ومكة المكرمة لحماية القوافل، كما قررت الدولة أن يكون الوالي في جدة ممثلاً للباب العالي في الحجاز، عرف الحجاز في العصر العثماني بثنائية السلطة، وقررت الدولة أن تقسم حصيلة الرسوم الجمركية التي تجمع من السفن في ميناء جدة بين الوالي العثماني وشريف مكة المكرمة (3).

الخامس عشر: دفاع عن السلطان سليم ووفاته رحمه الله:

(1) انظر: الفتح العثماني لليمن، فاروق اباطة، ص 23.

(2) انظر: جهود العثمانيين، ص 484.

(3) انظر: جهود العثمانيين، ص 487.

وصف المستشرق " كارل بروكلمان " (1) السلطان سليم الثاني بأنه اشتهر باسم السكير، وبارتكابه المعاصي والذنوب والكبائر وبمصاحبته صحبة السوء والفسق والعصيان، وتأثر بهذه التهم الدكتور عبدالعزيز الشناوي (2) رحمه الله ورد الدكتور جمال عبدالهادي على هذه الإتهامات فقال:

1- شهادة الكافر على المسلم مردودة، فكيف يسمح الكتاب من أبناء المسلمين لأنفسهم بترديد مثل هذه الشهادات والافتراءات على الحكام المسلمين بدون دليل، ألم يتعلموا في مدرسة الإسلام قال تعالى: { لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً } (سورة النور، آية: 12) ويقول سبحانه: { يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا } (سورة الحجر، آية: 6).

2- أن المستشرقين ومن سار على نهجهم، دأبوا على تصوير الحكام المسلمين المجاهدين بصورة السكارى الذين لا يتورعون عن ارتكاب المحرمات (3)، بل دأبوا على النيل من دين الله، والأنبياء والرسل - عليهم السلام -، فكيف نأخذ عنهم مع علمنا بأنهم غير أمناء (4).

ثم ذكر أهم أعمال السلطان سليم الثاني التي تدل على نفي التهم التي ألصقت به وتقدم بنصيحة إلى أساتذة التاريخ الذين لا يتحرون الصدق والأمانة العلمية فقال: " نصيحة إلى أولئك الذين لا يتحرون الحقيقة، ويرمون الناس في دينهم وخلقهم دون بينة أو دليل، أن يتبينوا وليضعوا في الاعتبار أن القذف جريمة، وعليه تقام الحدود، أمل أن ينتبه أساتذة التاريخ ويتورعوا على إيراد أي شبهة أو تهمة تتصل بأي شخص دون دليل أو بينة.

وليضعوا في الاعتبار أن الله يزن الحسنات، ويوزن السيئات، ولا يزن السيئات فقط دون

(1) انظر: الاتراك العثمانيون ، كارل بروكلمان (137/3).

(2) الدولة العثمانية دولة مفترى عليها (672/1).

(3) انظر: أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ، ص 64.

(4) المصدر السابق نفسه، ص 64.

الحسنات، والمؤرخ يجب أن يستشعر هذا، ويدرك أن الكلمة أمانة وهي شهادة أمام الله عزوجل -
ومن هنا يلزمه التأكد من الخير قبل أن يورده في كتابه (1).

إن الدارس لتاريخ الدولة العثمانية في عهد السلطان سليم الثاني يدرك مدى القوة والهيمنة التي كانت عليها الدولة " طلب نائب البندقية الصليبية في " استانبول " - في أعقاب معركة ليبانتو، وتحطم الأسطول العثماني مقابلة الصدر الأعظم، " محمد صوقلو باشا " ليسبر غوره ويقف على اتجاهات السياسة العليا للدولة العثمانية تجاه البندقية، وقد بادره الصدر الأعظم قائلاً: إنك جئت بلا شك تتحسس شجاعتنا وترى أين هي، ولكن هناك فرق كبير بين خسارتكم وخسارتنا، إن استيلاءنا على جزيرة " قبرص " كان بمثابة ذراع قمنا بكسره وبتره، وبإيقاعكم الهزيمة بأسطولنا لم تفعلوا شيئاً أكثر من حلق لحانا، وإن اللحية لنتمو بسرعة وكثافة تفوقان السرعة والكثافة اللتين تنبت بهما في الوجه لأول مرة (2). وقد قرن الصدر الأعظم قوله بالعمل الفوري الجاد، وإنصافاً للسلطان سليم الثاني فإنه قد أبدى تحمساً شديداً لإعادة بناء الأسطول العثماني، فقد تبرع بسخاء من ماله الخاص لهذا الغرض كما تنازل عن جزء من حدائق القصر السلطاني لتبني فيه أحواض السفن للتعجيل بإنشاء وحدات بحرية جديدة، واستطاع الأسطول الجديد أن يعاود جولاته في البحر المتوسط (3).

إن هذا الموقف يؤكد أن الإدارة القوية ليست مجرد حماس، وإنما لابد وأن يقترن ذلك بالعمل الجاد الذي أثمر إعادة بناء الأسطول في فترة وجيزة، وفي هذا دليل أيضاً على الرخاء الذي كانت تعيش فيه الأمة، ما فرضت الضرائب، وما صودرت أموال، ولأقالوا موتوا جوعاً لأنه لا صوت يعلو على صوت المعركة، لقد أنفق السلطان سليم من ماله ومال أسرته لأنه تعلم من مدرسة

(1) انظر: أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ، جمال عبدالهادي ، ص 65.

(2) انظر: الدولة العثمانية دولة اسلامية (678/1).

(3) المصدر السابق نفسه (677،678/1).

الإسلام (1)، قال تعالى: { وما تنتفخوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون } (سورة الأنفال، آية: 60).

وفاته :

إن مؤرخي الغرب ذكروا أن سبب وفاة السلطان سليم الثاني الإفراط الشديد في تناول الخمر، إلا أن المؤرخين المسلمين يذكرون أن سبب وفاته انزلاق قدمه في الحمام فسقط سقطه عظيمة مرض منها أيام ثم توفي عام 982هـ (2).

(1) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال عبدالهادي ، ص66.

(2) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، ص128.

المبحث الثاني

السلطان مراد الثالث

(982 - 1003هـ / 1574-1594م)

تولى العرش بعد وفاة والده، اهتم بفنون العلم والأدب والشعر وكان يتقن اللغات الثلاثة التركية، والعربية والفارسية وكان يميل إلى علم التصوف اشتهر بالتقوى واهتم بالعلماء، صرف للجنود عطايا الجلوس ومقدارها (110.000) ليرة ذهبية، فمنع الاضطرابات التي كانت تحدث عادة إذا تأخر صرف تلك الهبات(1).

أولاً: منعه للخمور

وكان من أول أعماله أن أصدر أمر بمنع شرب الخمر بعد ما شاعت بين الناس وأقرط فيها الجنود وخصوصاً الانكشارية، فثار الانكشاريون واضطروه لرفع أمره بالمنع وهذا يدل على ظهور علامات ضعف الدولة بحيث السلطان لا يستطيع منع الخمر وإقامة أحكام الشرع عليهم وكذلك يدل على إنحراف الانكشارية عن خطها الإسلامي الأصل من التربية الرفيعة، وحبها للجهاد

(1) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي ، ص100.

وشوقها للشهادة(1).

ثانياً: وضع الحماية على بولونيا وتجديد الامتيازات:

عمل السلطان مراد الثالث على تنفيذ السياسة التي انتهجها والده من قبل، ففي عهده قام بعدة حروب في أماكن مختلفة. ففي عام (982هـ/1574م) هرب ملك بولونيا هنري دي فالوا وذهب إلى فرنسا، فأوصى الخليفة العثماني أعيان بولونيا بانتخاب أمير ترانسلفانيا ملكاً عليهم، ففعلوا، وصارت بولونيا (بولندا) فعلاً تحت حماية العثمانيين عام (983هـ/1575م) واعترفت النمسا بذلك في معاهدة الصلح التي أبرمتها مع الدولة العثمانية عام (984هـ/ 1576م) ومدتها ثماني سنوات، وهاجم التتار على حدود بولونيا عام (984هـ/1576م) فاستجبت بالسلطان العثماني فأعلن حمايتها بمعاهدة رسمية(2) وجدد السلطان مراد الامتيازات مع فرنسا والبنديقية وزاد بعض الامتيازات القنصلية والتجارية مع زيادة بعض البنود في صالحهما أهمها، أن يكون سفير فرنسا مقدماً على كافة سفراء الدول الأخرى في الاحتفالات الرسمية والمقابلات الحكومية، لقد كثر توارد السفراء على الباب العالي للسعي في إبرام معاهدات تجارية أصبحت ذريعة فيما بعد للتدخل الفعلي في شؤون الدولة، وفي زمن السلطان مراد تحصلت إيزابلا ملكة الانجليز على امتياز خصوصي لتجار بلادها وأصبحت السفن الانجليزية تحمل العلم البريطاني وتدخل الشواطئ والموانئ العثمانية(3).

ثالثاً: الصراع مع الشيعة الصفوية :

وفي عام (985هـ/1577م) ونتيجة لحدوث اضطرابات في بلاد فارس بعد وفاة طهماسب، أرسل العثمانيون حملة عسكرية، تمكنت من قطع مفازات شاسعة في بلاد القوقاز وفتحت مدينة تفليس وكرجستان (الكرج). ودخل العثمانيون بعدها تبريز عام (993هـ/1585م) وتمكنت فيها

(1) انظر: تاريخ الدولة العثمانية العلية العثمانية، ص259.

(2) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث ، ص100.

(3) انظر: تاريخ الدولة العثمانية العلية، ص260.

جيوش مراد من السيطرة على أذربيجان والكرج (جورجيا) وشيروان ولوزستان. فلما تولى الشاه عباس الكبير حكم فارس، سعى إلى إقامة صلح مع العثمانيين، تنازل بمقتضاه عن تلك الأماكن التي أصبحت بيد العثمانيين. كما تعهد بعدم سب الخلفاء الراشدين - أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم - في أرض مملكته وبعث بابن عم له يدعى حيدر ميزرا رهينة إلى استنبول لضمان تنفيذ ما اتفقا عليه(1).

رابعاً: تمرد وعصيان على أيدي الانكشارية :

قام الإنكشاريون بتمرد وعصيان في الولايات العثمانية بعد توقف الحروب، وكان السلطان قد كلفهم بحرب المجر غير أنهم هزموا أمام النمسا التي ساندت المجر، واحتلت عدة قلاع حصينة استردها سنان باشا بعد ذلك. كما أعلن أمراء الأفلاق والبغدان وترانسلفانيا التمرد وانضموا إلى النمسا في حربها مع العثمانيين، فسار إليهم سنان باشا عام 1003هـ/1594م غير أنه لم يحرز النصر وخسر عدة مدن(2).

خامساً: مقتل الصدر الأعظم صوقللي محمد باشا:

قتل الصدر الأعظم نتيجة لدسائس حاشية السلطان المتأثرة بدسائس الأجانب الذين لا يروق لهم وجود مثل هذا الوزير القدير، الذي سار على منهج الاستقامة، وطريق الحكمة، وبناء الدولة، وحسن القيادة، ودقة التخطيط، وضبط الإدارة، ومتابعة الولاية، واستغلال الفرص، فكان موته ضربة شديدة ومحنة عظيمة وفتح باب للشر في تنصيب وعزل الصدور العظام والتنافس عليه مما أضعف قوة السلطنة، وارتبكت أحوال البلاد، وتمردت بعض فرق الجيش، ولم تتمكن الحكومة من القضاء على هذا التمرد، ونتيجة لهذه الاضطرابات والثورات الداخلية خرجت بولونيا عن الدولة

(1) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي، ص101.

(2) المصدر السابق نفسه، ص101.

العثمانية واشتبكت في صراع معهما (1).

سادساً: اليهود والسلطان مراد الثالث :

ظن اليهود أن الفرصة سانحة لهم لتحقيق حلم راودهم طويلاً، فنزحوا في هجرات منقطعة ومتقاربة إلى " سيناء " لاستيطانها، وكانت خطتهم تقوم في المراحل الأولى على تركيز إقامتهم في مدينة الطور، وكان اختيارهم لهذه المدينة اختياراً هادفاً، فهذه المدينة وهي تقع على الشاطئ الشرقي لخليج السويس لها ميناء يصلح لرسو السفن التجارية، وكان تأتيه سفن من جدة، وينبع، وسواكن، والعقبة، والقلم، كما كانت المدينة ترتبط براً بخط قوافل مع "القاهرة" و "الفرما".

وبذلك كان يسهل على اليهود إيجاد اتصالات خارجية فلا يصبحون في عزلة عن العالم بل تستطيع السفن أن ترسو في ميناء " الطور " تحمل أفواجاً من اليهود الجدد.

وقد تزعم حركة التهجير رجل يهودي اسمه (إبراهيم)، استوطن " الطور " مع أولاده وسائر أفراد أسرته، ولما أقام اليهود بالطور تعرضوا بالأذى لرهبان "ديرسانت كاترين" مما دفعهم إلى إرسال شكاوى مكتوبة إلى سلاطين الدولة العثمانية وولاتها يشتكون من إيذاء اليهود لهم مذكرين بعهد العثمانيين لحمايتهم، ومنع اليهود استيطان " سيناء " ومحذرين من تروح اليهود إلى "سيناء" - وخاصة مدينة " الطور " - في جماعات كثيرة بقصد إيقاع الفتن.

ولما كانت الدولة الإسلامية مسئولة بحكم الشرع عن حماية أهل الذمة، فقد سارع على الفور المسؤولون العثمانيون إلى إصدار ثلاثة فرمانات ديوانية في عهد السلطان (مراد الثالث)، فأمروا بإخراج " إبراهيم " اليهودي وزوجته وأولاده وسائر اليهود من " سيناء " ومنعهم في قابل الأيام منعاً باتاً من العودة إليها بما فيها مدينة " الطور " والإقامة بها أو السكنى (2).

(1) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، ص102.

(2) انظر: الدولة العثمانية ، د. جمال عبدالهادي، ص68.

توفى السلطان مراد الثالث في 16 كانون الثاني 1595 عن عمر يناهز 49 عاماً ودفن رحمه الله في فناء أيا صوفيا(1).

المبحث الثالث

السلطان محمد خان الثالث

ولد عام 974هـ، وجلس على سرير السلطنة عام 1003هـ بعد وفاة والده باثني عشر يوماً، لأنه كان مقيماً في مغنيسا(2)، كانت أمه إيطالية الأصل تسمى صفية(1).

(1) انظر: السلاطين العثمانيون، ص55.

(2) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان ، يوسف آصاف، ص86.

ورغم حالة الضعف والتدهور التي كانت قد بدأت تعتري الدولة العثمانية إلا أن راية الجهاد ضد الصليبيين ظلت مرفوعة ومما يذكر لهذا السلطان أنه لما تحقق له أن ضعف الدولة في حروبها بسبب عدم خروج السلاطين وقيادة الجيوش بأنفسهم برز بنفسه وتقلد المركز الذي تركه سليم الثاني، ومراد الثالث، ألا وهو قيادة عموم الجيوش، فسار إلى بلغراد ومنها إلى ميادين الوغى والجهاد، وبمجرد خروجه دبت في الجيوش الحمية الدينية والغيرة العسكرية، ففتح قلعة (أرلو الحصينة) التي عجز السلطان سليمان عن فتحها في سنة 1556م ودمر جيوش المجر والنمسا في سهل كرزت بالقرب من هذه القلعة في 26 أكتوبر سنة 1596 حتى شبهت هذه الموقعة بواقعة (موهاكز) (2) التي انتصر فيها السلطان سليمان سنة 1526م وبعد هذه المعركة استمرت الحروب دون أن تقع معركة حاسمة (3).

وتعرضت الدولة في زمنه لثورات داخلية عنيفة قادها قره يازيجي وأخرى قام بها الخيالة إلا أن السلطان استطاع القضاء عليهما بصعوبة ومن تلك الأحداث الداخلية يظهر للباحث المدقق اختلال النظام العسكري وعدم صلاحيته لحفظ اسم الدولة وشرفها من أعدائها.

أولاً: الشيخ سعد الدين أفندي

كان من شيوخ السلطان محمد الثالث وممن شجعه على الخروج بنفسه لقيادة الجيوش وقال للسلطان : (أنا معك أسير حتى أخلص وجودي من الذنوب، فإنني بها أسير) (4). وفي أحد المعارك كاد أن يؤسر فيها السلطان وفرّ من حوله الجنود والأعوان قال الشيخ سعد الدين أفندي: (أثبت أيها الملك فإنك منصور بعون مولاك، الذي أعطاك، وبالنعم أولاك، فركب السلطان جواده، وحمل سيفه وتضرع إلى القوي العزيز، فما مضت ساعة حتى نزل نصر الواحد

(1) انظر: الدولة العثمانية ، ص70.

(2) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص268.

(3) المصدر السابق نفسه، ص68.

(4) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان للقرماني، ص63.

القهار وكانت تلك المعركة بعد فتح حصن اكري (1).

ثانياً: من شعره:

كان على نصيب عالٍ من التعليم والثقافة والأدب، وكان شديد التدين ويميل الى التصوف ومن أشعاره ذات المعاني السامية:

لانرضى بالظلم بل نرغب في العدل (2)

نحن نعمل لحب الله، ونصغى بدقة لأوامره (3)

نريد الحصول على رضى الله (4)

نحن عارفون وقلوبنا مرآة العالم.

قلوبنا محروقة بنار العشق في الازل

نحن بعيدون من الغش والخديعة وقلوبنا نظيفة (5)

ثالثاً: وفاته:

توفي السلطان محمد الثالث بعد أن أخمد الحركات التمردية، والثورات العنيفة، وقاد الجيوش بنفسه وكانت وفاته في نهار الأحد الثامن عشر من رجب سنة اثنتي عشرة وألف، ومدته حكمه تسع سنين، وشهران ، ويومان، وله من العمر ثمان وثلاثون سنة (6).

(1) المصدر السابق نفسه، ص 63، 64.

(2) انظر: السلاطين العثمانيون ، ص 57.

(3) انظر: تاريخ الدولة العثمانية ، ص 131.

(4) انظر: السلاطين العثمانيون ، ص 57.

(5) المصدر السابق نفسه، ص 57.

(6) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان للقرماني، ص 64.

وكان هذا السلطان عندما يسمع اسم نبيينا محمد ρ يقوم إجلالاً واحتراماً لسيد الكائنات (1).

المبحث الرابع

السلطان احمد الاول

(1012-1026هـ/1603-1617م)

تولى الحكم بعد وفاة والده وعمره 14 سنة ولم يجلس أحد قبله من سلاطين العثمانيين في هذه السن على العرش وكانت أحوال الدولة مرتبكة جداً لانشغالها بحروب النمسا في أوروبا وحرب إيران والثورات الداخلية في آسيا. فأتى مابداً به أبوه من تجهيزات حربية (2).

(1) انظر: السلاطين العثمانيون، ص57.

(2) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي ن ص105.

عين السلطان أحمد لالا محمد باشا صدرًا أعظم خليفة للصدر الأعظم يمشجي حسن باشا، حيث كان سرداراً عاماً للجيش التي جاهدت في النمسا وهو من خيرة قواد الجيوش، فاهتم بتقوية الجيوش العثمانية وحاصر قلعة استراغون وفتحها. كما حارب إمارات الأفلاق والبغدان والأردل وعقد صلحاً معهم. ولما مات لالا باشا خلفه قبوجي مراد باشا صدرًا أعظم وكان قائداً لإحدى فرق الجيش، وقد نجحت الجيوش العثمانية في هزيمة النمسا واسترداد القلاع الحصينة من مدن يانق واستراغون وبلغراد وغيرها كما نجحت الجيوش العثمانية في جهادها بالمجر وهزمت النمسا هناك. ونجم عن ذلك، قبول النمسا بطلب الصلح ودفع جزية للدولة العثمانية مقدارها مائتا ألف دوكة من الذهب، وبقيت بلاد المجر بموجب هذه المعاهدة تابعة للدولة العثمانية(1).

وجرت حروب بحرية بين السفن العثمانية وسفن إسبانيا، ورهبان القديس يوحنا في مالطة، والإمارات الإيطالية، وتراوح النصر بين الجانبين(2).

ثانياً: تجديد الامتيازات :

وجددت الدولة امتيازات فرنسا، وانجلترا، على مثلها، كما جددت الاتفاقية مع بولونيا بحيث تمنع الدولة تثار القرم من التعدي على بولونيا، وتمنع بولونيا القازاق، من التعدي على الدولة العثمانية(3).

وتحصلت هولندا على امتيازات، واستغلت ذلك في نشر الدخان داخل ديار الإسلام وبدأ تعاطيه من قبل الجنود، فأصدر المفتي فتوى بمنعه فهاج الجند، وأيدهم الموظفون، فاضطر

(1) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي، ص105.

(2) المصدر السابق نفسه، ص105.

(3) المصدر السابق نفسه، ص105.

العلماء إلى السكوت عنه (1).

وهكذا أصبح الجند يبقادون خلف شهواتهم ويعترضون على العلماء.

إن القوى الأجنبية الكافرة تهتم بنشر كل محرم في أوساط المسلمين.

إن الله تعالى أحل لنا الطيبات النافعة وحرم علينا الخبائث الضارة لأجسامنا وعقولنا وأموالنا
ولذلك أفتى العلماء - رحمهم الله تعالى - بتحريم شرب الدخان وبيعه وشرائه لما فيه من الأضرار
الدينية والدينيوية والإجتماعية والصحية وهي:

1- أنه دخان لايسمن ولايغني من جوع.

2- أنه مضر بالصحة الغالية وما كان كذلك يحرم استعماله.

3- أنه من الخبائث المحرمة قال تعالى: { يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث } (

الأعراف، آية: 157).

4- إن رائحة الدخان تؤذي الناس الذين لايستعملونه بل وتؤذي الملائكة الكرام لأن الملائكة

تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم وقد حرم الله تعالى أذية المسلم قال تعالى: { والذين يؤذون المؤمنين
والمؤمنات بغير ما اكتسبوا. فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً }.

وغير ذلك من الأدلة التي ذكرها العلماء ولكن لضعف الوازع التربوي، وضعف سلطان الدولة

التي تشرف على تنفيذ الأحكام يحدث التمرد من قبل الجنود والأفراد.

ثالثاً: الحرب مع الشيعة الصفوية (الفرس):

انتهز الشاه عباس الصفوي فرصة اضطراب الدولة العثمانية وباشر في تخليص عراق العجم

واحتل تبريز ووان وغيرها واستطاع أن يحتل بغداد والأماكن المقدسة الشيعية في النجف وكربلاء

والكوفة، وقد زارها وسط مظاهر الإجلال والتقديس، وقد أورد بعض المؤرخين أنه قضى عشرة أيام

(1) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال عبدالهادي، ص72.

في زيارته للنجف حيث قام بنفسه بخدمة الحجاج في ذلك المكان كما يذكرون أيضاً أنه إمعاناً في إعلان تمسكه بالمذهب الشيعي وولائه للرفض، وعلى الرغم من تعصبه الشديد للمذهب الشيعي إلا أنه رفع أيدي رجال الدين عن التدخل في شئون الحكم والسياسة ومارس نوعاً من السلطة المطلقة في حكم البلاد.

وقد أنزل الشاه عباس الصفوي أقصى أنواع العقاب بأعداء الدولة من السنة فإما أن يقتلوا أو تسمل عيونهم، ولم يكن يتسامح مع أي منهم إلا إذا تخلى عن مذهبه السني وأعلن ولاءه للمذهب الشيعي⁽¹⁾، واضطرت الدولة العثمانية أن تترك للدولة الصفوية الرافضية الشيعية جميع الأقاليم والبلدان والقلاع والحصون التي فتحها العثمانيون في عهد السلطان الغازي سليمان الأول بما فيها مدينة بغداد. وهذه أول معاهدة تركت فيها الدولة بعض فتوحاتها وكانت فاتحة الانحطاط والضعف وأول المعاهدات التي دلت على ضعف الدولة العثمانية⁽²⁾.

لقد بالغ الشاه عباس الصفوي في عداؤه للمذهب السني واتصل بملوك المسيحيين، وامعاناً في ضرب الدولة العثمانية حامية المذهب السني فقد عقد اتفاقات تعاون مشترك معهم من أجل تقويض أركان الدولة العثمانية السنية، ولم يكن يعبأ حتى إذا قدم العديد من التنازلات للدول الأوروبية تأكيداً لتعاونه معهم انطلاقاً من عدائه للدولة العثمانية.

وعامل الشاه عباس الصفوي المسيحيين في إيران معاملة حسنة على عكس معاملته للسنة، وقد كان لمعاملته المتميزة للمسيحيين أن نشطت الحركة التنصيرية المسيحية في إيران كما شجع التجار الأوروبيين في عقد صفقات تجارية كبيرة مع التجار في إيران وأصبحت إيران سوقاً رائجاً للتجارة الأوروبية، لقد توج تسامحه مع المسيحيين بأن أعلن في عام 1007هـ/1598م أوامره بعدم التعرض لهم والسماح لهم بحرية التجول في ربوع الدولة الصفوية وجاء بالمرسوم الذي أصدره شاه

(1) انظر: الاسلامي آسيا ، د. محمد نصر مهنا، ص250، 249.

(2) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص272.

الدولة الصفوية مايلي: (... من اليوم يسمح لمواطني الدولة المسيحية ومن يدينون بدينهم بالحضور إلى أي بقعة من وطننا ولايسمح لأي شخص بأي حال من الأحوال إهانتهم، ونظراً لما بيننا وبين الملوك المسيحيين من علاقات ود ومحبة فيسمح للتجار المسيحيين بالتجول في جميع أنحاء إيران، ومزاولة نشاطهم التجاري في أي بقعة من الوطن، دون أن يتعرض لهم بالإيذاء من أي شخص سواء كان حاكماً أو أميراً أو خاناً أو موظفاً أو تابعاً للدولة كما تعفى جميع أموال تجارتهم التي يحضرونها معهم من ضرائب المال وليس لأي شخص مهما يحضرونها معهم من ضرائب المال وليس لأي شخص مهما بلغت مكانته أن يزاحمهم أو يكلفهم المشاق، وليس من حق رجال الدين مهما كانت طوائفهم التجروء على الإضرار بهم أو التحدث معهم بخصوص العقائد المذهبية) (1).

لقد جامل الشاه عباس الصفوي المسيحيين وشرب معهم الخمر احتقلاً بأعيادهم كما أنه سمح لهم بالتبشير بالمسيحية في داخل إيران، وأعطاهم امتيازات ببناء الكنائس المسيحية في كبرى المدن الإيرانية وهذه المعاملة للمسيحيين كانت نكايه في الدولة العثمانية السنية (2). إن تاريخ الشيعة الأثنى عشرية طافح بالعداوة والبغضاء لأهل السنة ودولتهم الميمونة أينما كانوا وحيثما وجدوا ولايزال هذا العداء مستمراً رغم الشعارات السياسية الرنانة التي يرفعها الروافض بين الحين والآخر.

رابعاً: الحركات الانفصالية :

ظهرت إلى حيز الوجود في عصر السلطان أحمد الأول حركات داخلية تهدف إلى تقويض كيان الدولة وبنيانها مثل حركة " جان بولاد " الكردي، وحركة والي أنقرة " قلندر أوغلي "، وحركة فخر الدين الدرزي المعنى الثاني حفيد " فخر الدين المعنى الأول " الذي انضم إلى السلطان سليم

(1) انظر: الاسلام في آسيا، ص 251.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 253.

الأول عندما دخل الشام عام (922هـ) (1).

وسبب تلك الحركات اضطرابات داخلية حتى هبَّ الله للدولة وزيراً محنكاً أكسبه تقدم السن مزيداً من الخبرات والتجارب فعين صدرراً أعظم فكان عوناً للسلطان الفتى وانتصر على الثائرين وخاصة ثائر الأناضول قلندر أوغلي الذي كان قد عين والياً على أنقرة فقد نكلت به الدولة، وتمكن الصدر الأعظم قبوجي مراد باشا من تطهير الأناضول من أولئك الثائرين (2).

خامساً: حركة فخر الدين بن المعنى الثاني الدرزي:

اعتلى فخر الدين بن المعنى الثاني السلطة في لبنان عام 999هـ وكان درزياً وصولياً كبيراً واستطاع أن يجمع المعادين للإسلام من نصارى ونصيرية، ودروز، وأمثالهم (3).

نبذة عن الدروز:

فرقة باطنية تولى الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، أخذت جل عقائدها عن الإسماعيلية، وهي تنتسب إلى نشتكين الدرزي، نشأت في مصر ثم انتقلت إلى الشام، عقائدها خليط من عدة أديان وأفكار، كما أنها تؤمن بسرية أفكارها، فلا تنشرها على الناس (4).

من أهم معتقداتها وأفكارها:

- يعتقدون بألوهية الحاكم بأمر الله ولما مات قالوا بغيبته وأنه سيرجع.
- ينكرون الأنبياء والرسل جميعاً ويلقبونهم بالأبالسة.
- يعتقدون بأن المسيح هو داعيتهم حمزة.

(1) انظر: الدولة العثمانية، د.جمال، ص70.

(2) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د.علي حسون، ص132.

(3) انظر: الدولة العثمانية، د.جمال عبدالهادي، ص71.

(4) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان (400/1).

- يبغضون جميع أهل الديانات الأخرى والمسلمين منهم بخاصة ويستبيحون دماءهم وأموالهم وغشهم عند المقدرة.
- يعتقدون بأن ديانتهم نسخت ما قبلها وينكرون جميع أحكام وعبادات الإسلام وأصوله كلها.
- ولا يكون الانسان درزياً إلا إذا كتب أو تلى الميثاق الخاص.
- يقولون بتناسخ الأرواح وأن الثواب والعقاب يكون بانتقال الروح من جسد صاحبها الى جسد أسعد أو أشقى.
- ينكرون الجنة والنار والثواب والعقاب الأخرويين.
- ينكرون القرآن الكريم ويقولون أنه من وضع سلمان الفارسي ولهم مصحف خاص بهم يمس المنفرد بذاته.
- يرجعون عقائدهم الى عصور متقدمة جداً يفتخرون بالانتساب الى الفرعونية القديمة والى حكماء الهند القدامى.
- يبدأ التاريخ عندهم من سنة 408هـ وهي السنة التي أعلن فيها حمزة ألوهية الحاكم.
- يعتقدون أن القيامة هي رجوع الحاكم الذي سيقودهم الى هدم الكعبة وسحق المسلمين والنصارى في جميع أنحاء الأرض وأنهم سيحكمون العالم الى الأبد ويفرضون الجزية والذل على المسلمين.
- يعتقدون أن الحاكم أرسل خمسة أنبياء هم حمزة واسماعيل ومحمد الكلمة وأبو الخير وبهاء.
- يحرمون التزواج مع غيرهم والصدقة عليهم ومساعدتهم كما يمنعون التعدد وإرجاع المطلقة.
- يحرمون البنات من الميراث.
- لا يعترفون بجرمة الأخ والأخت من الرضاعة.
- يقولون في الصحابة أقولاً منكراً منها قولهم: الفحشاء والمنكر هما (أبو بكر وعمر) رضي الله عنهما.

- لا يصومون في رمضان ولا يحجون الى بيت الله الحرام، وإنما يحجون الى خلوة البياضة في بلدة حاصبية في لبنان.

- إن الجذور الفكرية والعقائدية للدروز ترجع الى المذهب الباطني ، وخاصة الباطنية اليونانية متمثلة في أرسطو وأفلاطون وأتباع فيثاغورس واعتبروهم أسيادهم الروحانيين، وأخذوا جُلَّ معتقداتهم عن الطائفة الاسماعيلية، وتأثروا بالدهريين في قولهم بالحياة الأبدية ، وبالبوذيين في كثير من الأفكار والمعتقدات ، كما تأثروا ببعض الفلاسفة الفرس والهند والفراعنة القدامى (1).
هذه نبذة مهمة عن معتقدات الدروز حتى تتعلم الأجيال من هم أعدائهم، وكيف يتحنون الفرص للقضاء على الاسلام وأهله.

فهذا فخر الدين بن المعنى الثاني، أظهر تقربه من الخليفة العثماني وأعلن طاعته له حتى تمكن من جبال لبنان ، والسواحل وفلسطين ، وأجزاء من سورية، ولما قوي أمره فاوض الطليان فدعموه بالمال وبني القلاع والحصون ، وكون لنفسه جيشاً زاد على الأربعين ألفاً، ثم أعلن الخروج على الدولة العثمانية عام (1022م) ، غير أنه هزم وفرّ الى "إيطاليا" ، وكان قد تلقى الدعم من إمارة "فلورنسا" الإيطالية ، ومن البابا، ورهبان جزيرة مالكة (فرسان القديس يوحنا) (2).

وقد عاد فخر الدين الى لبنان عام 1618م بعد أن أصدر السلطان فرماناً بالعفو عنه واندفع لتغريب البلاد ثم أعلن التمرد من جديد مستغلاً الحرب العثمانية الصفوية الشيعية ولكنه فشل وأسر وسيق الى استانبول ثم اندلعت الثورة عام 1045هـ ولكنه هذه المرة أسر وشنق، وفشلت الحركة المسلحة التي قادها ابن أخيه ملحم للأخذ بثأره (3).

سادساً: وفاة السلطان أحمد الأول:

(1) انظر: الموسوعة الميسرة في الاديان (1/400 الى 404).

(2) انظر: الدولة العثمانية، د.جمال عبدالهادي، ص71.

(3) انظر: تاريخ الدولة العثمانية ، ص133.

كان رحمه الله في غاية التقوى، وكان رجلاً مثابراً في الطاعات، ويباشر أمور الدولة بنفسه، وكان متواضعاً في ملابسه، وكان كثير الاستشارة لأهل العلم والمعرفة، والقيادة وكان شديد الحب للنبي ﷺ، وفي عهده بدأ ارسال ستائر الكعبة الشريفة من استانبول، وقبل ذلك كانت ترسل من مصر، توفي رحمه الله في 1617م ودفن عند جامع سلطان أحمد(1).

وكان يعمل هذه الابيات الشعرية واضعاً إياها تحت عمامته:

أرغب دوماً في حمل صورة انطباع أقدام النبي عالي المقام

من هو سيد الأنبياء فوردة الحديقة الأنبياء ملكة هذه الأقدام الشريفة

فيا أحمدي لا تتردد ولو للحظة ومرغ وجهك بأقدام الوردة الرفيعة الشريفة(2)

المبحث الخامس

بعض السلاطين الضعاف

أولاً: السلطان مصطفى الأول:

تولى السلطة بعد وفاة أخيه عام (1026هـ)، ومنذ عهده يظهر جلياً أن يداً أجنبية كانت خلف تعيين وإزاحة الخلفاء، فهذا السلطان عزل بعد ثلاثة أشهر، وجيء بأبن أخيه (عثمان الثاني) الذي لم يزد عمره على الثالثة عشر(3).

ثانياً: السلطان عثمان الثاني (1026-1031هـ/1617-1621م)

تولي الحكم بعد عزل عمه مصطفى الأول، وكان صغيراً لم يزد عمره على الثالثة عشرة، أعلن الجهاد على بولونيا لتدخلها شؤون إمارة البغدان، وتم الصلح بين الطرفين عام 1029هـ/1620م

(1) انظر: السلاطين العثمانيون، ص59.

(2) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، ص133.

(3) انظر: الدولة العثمانية، د.جمال، ص72.

بناء على طلب بولونيا، وطلب الانكشارية، الذين تعبوا من مواصلة القتال، فغضب الخليفة عليهم (1) من طلبهم الراحة وخلودهم الى الكسل وإلزامه على الصلح مع بولونيا، فعزم على التخلص من هذه الفئة الباغية، ولأجل الاستعداد لتنفيذ هذا الأمر الخطير أمر بحشد جيوش جديدة في ولايات آسيا وأهتم بتدريبها وتنظيمها وشرع فعلاً في تنفيذ هدفه، وعلمت الانكشارية بذلك فهاجوا وماجوا وتذمروا واتفقوا على عزل السلطان وتم لهم ذلك في 9 رجب سنة 1031هـ (20 مايو سنة 1622م) وأعادوا مكانة السلطان مصطفى وقتلوا السلطان عثمان الثاني ترك لنا بعض الأشعار منها:

كانت نيتي الخدمة لحكومتى ودولتى

وللعجب ان الحسود يعمل لنكبتى (2)

تولى السلطان مصطفى الحكم وللمرة الثانية إثر فنتة الانكشارية وصارت الحكومة ألعوبة بأيديهم، ينصبون الوزراء ويعزلونهم بحسب أهوائهم وأصبحت المناصب تباع جهاراً وارتكبوا أنواع المظالم (3) وتغير الوزراء الصدور في مدته هذه سبع مرات خلال عام واحد وأربعة شهور، وكان الخلاف قد دب بين أمراء الأناصول وفرقة السباهية على استمرار الوزراء الصدور، حتى أن بعضهم لم يكمل شهراً واحداً. ونظراً لضعف السلطان وعجزه عن إدارة شؤون البلاد، تم عزله وتتصيب الأمير مراد الرابع ابن السلطان أحمد الأول (4).

ثالثاً: مراد الرابع (1032-1049هـ/1622-1639م):

تولى أمر السلطنة بعد عزل عمه مصطفى عام 1032هـ/1622م وهو أخو عثمان الثاني،

(1) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي، ص106.

(2) انظر: السلاطين العثمانيون، ص61.

(3) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص279.

(4) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، ص107.

ولصغر سنه فقد سيطر الانكشارية عليه. وكانت أحوال الدولة سيئة للغاية، فقام بإصلاح الأحوال الداخلية أولاً حتى تسنى له التفرغ للأحوال الخارجية ولذلك بدأ بالقضاء على طغاة العسكر الذي قتلوا أخاه السلطان عثمان (1) وأعدم جميع المتأسدين في استانبول وفي جميع أنحاء الدولة، وأسس تشيكلات قوية للمخابرات وثبت من خلالها أسماء جميع المستبدين في الدولة، وكان اذا صادف بلداً في اسفاره كان يدعوا مستبديها باسمهم ويعدمهم (2).

منع في عهده الخمر والتدخين وأعدم كل مرتد عن الاسلام (3).

الحرب مع الشيعة الصفوية:

اندلعت الحرب مع الشيعة الصفوية في العراق عام 1044هـ/1634م، فقاد السلطان مراد الجيوش بنفسه واتجه الى بغداد، وكان عباس شاه فارس قد استولى عليها وقتل واليها العثماني واذل أهل السنة بها وعمل بهم الأفاعيل ، فحاصر مراد بغداد وهدم جزءاً كبيراً من اسوارها بالمدفعية ودخلها عام 1048هـ وقتل من جنود الشيعة عشرين ألفاً، ثم أقام بها مدة جدد عمارتها، وأصلح ماتهدم من أسوارها ، وعين لها وزيراً ، وكان هذا السلطان يباشر الحروب بنفسه، ويخالط جنوده، وينام أحياناً في الغزوات على حصانه (4).

وفاته:

مرض سنة 1640م وكان يخشى عليه من الموت ولكن شفي ثم مرض من جديد وتوفي رحمه الله في 8 شباط 1640م (5) بسبب مرض النقرس وامتد حكمه 16 سنة و 11 شهراً استلم الخزينة

(1) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، ص 107.

(2) انظر: السلاطين العثمانيون، ص 63.

(3) انظر: تاريخ الدولة العثمانية ، ص 136.

(4) انظر: السلاطين العثمانيون، ص 63.

(5) انظر: السلاطين العثمانيون، ص 63.

عند ارتقائه العرش فارغة وتركها مملوءة عند وفاته (1)، لقد كان هذا السلطان عاقلاً شجاعاً ثاقب الرأي ، استأصل الفساد وقمع العصاة، ولقب بمؤسس الدولة الثاني لأنه أحيها بعد السقوط واصلح حال ماليتها (2).

رابعاً: السلطان ابراهيم بن أحمد (1049-1058هـ/1639-1648م):

تولى الحكم بعد أخيه مراد الذي لم يعقب ذكوراً، ولم يبق بعد موت السلطان مراد الرابع من نسل آل عثمان سوى أخيه السلطان ابراهيم، الذي كان مسجوناً مدة سلطنة اخيه ، ولما توفي أخيه أسرع كبار المملكة الى مكان الحبس ليخبروه بذلك، فعندما قدموا ظن أنهم قادمون لقتلة، فخاف وذعر ولم يصدق ما قالوه له، ولذلك لم يفتح لهم باب السجن ، فكسروه ودخلوا عليه يهنئونه، فظن أنهم يحتالون عليه للأطلاع على ضميره، فرفض قبول الملك بقوله: إنه يفضل الوحدة التي هو بها على ملك الدنيا، ولما أن عجزوا عن إقناعه، حضرت إليه والدته وأحضرت له جثة أخيه دليلاً على وفاته وحين ذلك جلس على سرير السلطنة، ثم أمر بدفن جثة أخيه باحتفال وافر ، وساق أمامها ثلاثة أفراس من جياد الخيل التي كان يركبها في حرب بغداد ثم مضى الى جامع أيوب الانصاري، وهناك قلدوه بالسيف، ونادوا له بالخلافة (3).

كان يقول عند ارتقائه العرش: الحمد لله اللهم جعلت عبداً ضعيفاً مثلي لائقاً لهذا المقام اللهم اصلح واحسن حال شعبي مدة حكمي واجعلنا راضيا بعضاً عن بعض (4).

ولقد دافع عنه صاحب كتاب السلاطين العثمانيون وقال إن الافتراءات الكاذبة التي قيلت في

(1) المصدر السابق نفسه، ص 63.

(2) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، ص 136.

(3) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان ، يوسف آصاف، ص 105.

(4) انظر: السلاطين العثمانيون، ص 64.

حقه اكاذيب مختلفة من قبل الذين ارادوا عزله ثم قتلوه بعد ذلك (1).

كانت الأحوال الداخلية شبه مستقرة بسبب اصلاحات أخيه نحو الانكشارية، وتجديد الجيش ، فاتجه الى الاقتصاد في نفقات الجيش والاسطول وإصلاح النقد وإقامة النظام الضرائبي على أسس جديدة (2).

استطاع الصدر الأعظم قره مصطفى باشا أن يوقف تدخل النساء في شؤون السلطنة وتمكن من القضاء على محاولات رجال البلاط السلطاني لإفساد الدولة وقضى على العابثين والمفسدين وقاطعي الطريق في مختلف الولايات (3).

الحرب ضد البنادقة:

كانت جمهورية البنادقة تهيمن على جزيرة كريت وعلى الحركة التجارية في بحر إيجه مستغلين الصلح مع الدولة العثمانية، فعزم العثمانيون على تدمير نفوذ البنادقة في اشرق، فجهزت الجيوش والأسطول وأعلنت الحرب على البنادقة، واعتقل جميع البنادقة في طول البلاد وعرضها وأمر بمصادرة أموالهم وممتلكاتهم، ثم سير حملة الى جزيرة كريت عام 1055هـ/1645م واستولت على أجزاء منها (4)، ولكن الجنود تمردوا في استانبول وأهاجوا وماجوا وقرورا عزل السلطان ابراهيم وتولية ابنه محمد الرابع الذي لم يتم السابعة من عمره وقتل السلطان ابراهيم وقد امتد حكمه 8 سنين و9 شهور وكان عمره 34 سنة (5).

خامساً: السلطان محمد الرابع (1051-1104هـ/1642-1692م):

(1) المصدر السابق نفسه، ص64.

(2) انظر: الدولة العثمانية، د.اسماعيل ياغي، ص108.

(3) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، اسماعيل سرهنك، ص150.

(4) انظر: الدولة العثمانية، د. اسماعيل ياغي، ص109.

(5) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، ص137.

ولد هذا السلطان عام 1051هـ، وتولى المسؤولية وهو ابن سبع سنوات ورأت أوروبا أن الوقت حان للنيل من الدولة العثمانية؛ لذلك كونت أوروبا حلفاً ضم : النمسا، وبولونيا، والبندقية، وريهان مالطة، والبابا، وروسيا وسموه (الحلف المقدس) وذلك للوقوف في وجه المد الإسلامي الذي أصبح قريباً من كل بيت في أوروبا الشرقية بسبب جهاد العثمانيين الأبطال وبدأ الهجوم الصليبي على ديار الدولة العثمانية وقيض الله لهذه الفترة (آل كوبريللي) الذين ساهموا في رد هجمات الأعداء وتقوية الدولة، فالصدر الأعظم محمد كوبريللي المتوفي عام (1072هـ/661م) فأعاد للدولة هيبتها ، وسار على نهجه ابنه (أحمد كوبريللي) الذي رفض الصلح مع النمسا والبندقية وسار على رأس جيش لقتال النمسا، وتمكن عام 1074هـ أن يفتح أعظم قلعة في النمسا وهي قلعة نوهزل شرقي فيينا في 25 صفر 1074هـ/28 سبتمبر 1663م وفي عهد هذا الصدر الأعظم حاولت فرنسا التقرب من الدولة العثمانية، وتجديد الامتيازات ، غير أن الصدر الأعظم رفض ذلك، ثم حاولت فرنسا التهديد حيث ارسل "لويس الرابع عشر" ملك فرنسا السفير الفرنسي مع أسطول حربي، وهذا مازاد الصدر الأعظم إلابتاثاً، وقال : (إن الامتيازات كانت منحة، وليست معاهدة واجبة التنفيذ)(1).

لقد تراجعت فرنسا أمام تلك الإرادة الحديدية واستعملت سياسة اللين والخضوع للدولة العثمانية حتى جددت لها المعاهدات القديمة وأعدت لها امتياز حماية بيت المقدس عام 1084هـ(2). وبوفاة الصدر الأعظم "أحمد كوبريللي" ضعف النظام العثماني، وهاجمت النمسا بلاد المجر، واغتصبت قلعة نوهزل ومدينة بست ومدينة بودا، وأغار ملك بولونيا على ولاية البغدان، وأغارت سفن البندقية على سواحل المورة واليونان واحتلت أثينا وكورنثة عام 1097هـ وغيرها من المدن. وتذكر كتب التاريخ أن العلماء ورجال الدولة قد اتفقوا على عزل السلطان (محمد الرابع) فعزل

(1) انظر: الدولة العثمانية، د.جمال عبدالهادي، ص73.

(2) المصدر السابق نفسه، ص74.

عام 1099هـ، وتولى مكانه أخوه سليمان الثاني (1).

سادساً: السلطان سليمان خان الثاني:

ولد عام 1052هـ وتولى الحكم بعد أخيه (محمد الرابع) عام 1099هـ واستمر التدهور في الدولة العثمانية في عهده، وازدادت شراسة الأعداء على عهده، فاغتصبت النمسا كثير من المواقع والمدن ومنها بلجراد عام 1099هـ، كما احتلت البندقية وسواحل دالماسيا السواحل الشرقية لبحر الأدرياتيك وبعض الأماكن في اليونان وتوالت الهزائم على الدولة، وقبض الله لها رجالاً لهذا الفترة هو الصدر الأعظم (مصطفى بن محمد كوبريللي) الذي سار على نهج ابيه، وسمح للنصارى في استانبول ببناء ماتهدم من كنائسهم ، وأحسن إليهم (2) وعاقب بأشد العقاب كل من عرض لهم في إقامة شعائر دينهم حتى استمال جميع مسيحي الدولة، وكانت نتيجة معاملة المسيحيين بالعدل أن ثار أهالي موره الأورام على البنادقة الكاثوليك، وطردوا جيشها من بلادهم بسبب إضطهادهم وإجبارهم على المذهب الكاثولوليكي. ودخلوا في حماية الدولة العثمانية مختارين طائعين لعدم تعرضها لديانتهم مطلقاً (3).

هذه شهادة من أبناء النصارى على سماحة الاسلام الذي مانعت البشرية بنعمة الأمن والطمأنينة على الدين والعرض والمال والدم إلا في ظله؛ لأن القرآن الكريم وسنة سيد المرسلين علمتهم ذلك، قال تعالى: {لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين} (سورة الممتحنة: آية 8).
وشاء الله تعالى أن يختار الصدر الأعظم شهيداً في ساحة الوغى وهو ينافح عن حرمة الدين

(1) انظر: الدولة العثمانية، د.جمال عبدالهادي، ص74.

(2) المصدر السابق نفسه، ص74.

(3) انظر: تاريخ الدولة العلية، ص306.

في أحد المعارك ضد النمسا الصليبية عام 1102هـ (1).

وفاة السلطان سليمان الثاني:

في 26 رمضان سنة 1102هـ الموافق 23 يونيو 1691م توفي السلطان سليمان الثاني عن غير عقب وعمره 50 سنة بعد أن حكم ثلاث سنوات وثمانية أشهر ودفن في تربة جده السلطان سليمان الأول وتولى بعده أخوه (2).

سابعاً: السلطان احمد الثاني (1102-1106هـ/1690-1694م):

تولى الحكم عام 1102هـ بعد وفاة أخيه سليمان الثاني، واستشهد في زمنه الصدر الأعظم مصطفى كوبر يللي الذي كان عظيم النفع للدولة العثمانية، وتولى بعده الصدر الاعظم جي علي باشا عريجي وكان ضعيفاً، واحتلت البندقية بعض جزر بحر إيجه، ولم تطل أيام السلطان وتوفي عام 1106هـ/1694م وكان القتال في أيامه القصيرة عبارة عن مناوشات ، وتولى الحكم بعده ابن أخيه وهو مصطفى الثاني بن محمد الرابع (3).

ثامناً: السلطان مصطفى الثاني (1106-1115هـ/1694-1703م):

ولد عام 1074هـ وتولى الخلافة عام (1106هـ/1694م) وهو ابن السلطان محمد الرابع وفي عهده، بدأ تراجع المد الاسلامي عن ديار أوروبا الشرقية بسبب ضعف الايمان، وضعف روح الجهاد، وتسرب اسباب الهزيمة في كيان الامة، وقسوة الهجمات الصليبية على ديار الدولة العثمانية، وفي عهده تم توقيع معاهدة كار لوفتس جنوب غرب زغرب على نهر الدانوب عام 1110هـ/1699م، مع روسيا وطبقاً لشروط هذه المعاهدة انسحب العثمانيون من بلاد المجر،

(1) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال ، ص75.

(2) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص306.

(3) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي ، ص115.

وإقليم ترانسلفانيا، وهذا مؤشر سيء في تاريخ بعض حكام الدولة العثمانية، وهو انسحابهم في المعارك تاركين المسلمين بين يدي عدو نزعته من قلبه الشفقة والرحمة⁽¹⁾، وأصبحت كل الدول التي كانت تدفع الجزية عن يد وهي صاغرة ممتعة من دفعها وكانت الدول النصرانية تقف في وجه العثمانيين ، وكانت متفقة فيما بينها للوقوف في وجه تقدم الدولة العثمانية، والعمل على تقسيمها وذلك خوفاً من انتشار المد الاسلامي.

كان تنازل العثمانيين عن أراضيها بداية الانسحاب العثماني من أوروبا، كما أنه يسجل الانتقال الى عصر التفكك والاضمحلال السريع. وعلى أثر تدخل الانكشارية ومطالبتهم بعزل الصدر ورفض السلطان لذلك فقد قرروا عزله وتوفي بعد أربعة أشهر وكان عند وفاته في التاسعة والثلاثون من عمره ودفن رحمه الله.

تاسعاً: السلطان احمد الثالث (1115-1143هـ/1703-1730م):

في عهده ظلت راية الجهاد مرفوعة ، واستطاعت الدولة أن تعيد المورة وآزاق ، وواصلت جهادها ضد روسيا وأنزل بها ضربة كادت أن تكون قاصمة، حينما حاصر المجاهدون العثمانيون قيصر روسيا وخليته ومعهما 200.000 مجاهد كادوا يقعون في الأسر ولكن الخيانة تحت فتنة المال والنساء دفعت الصدر الأعظم الى رفع الحصار ، وخيانة الدولة، ووقع معاهدة (فلكرن) في جمادى الآخرة عام 1123هـ مع الروس، ترتب عليها إخلاء مدينة آزاق للصليبيين الروس وتعهد بعدم التدخل في شؤون القوزاق، ولهذا السبب عزل السلطان أحمد الثالث الصدر الأعظم بلطة جي باشا واستمر الجهاد ضد الروس، ورأت هولندا وإنجلترا إن مصلحتها إيقاف الحرب ولذلك تدخلوا، ووقعت معاهدة أدرنة عام 1125هـ/1716م⁽²⁾، وتنازلت فيها روسيا عن كل ما استولت عليه من سواحل البحر الأسود، ولكنها تخلت في الوقت نفسه عما كانت تدفعه الى حكام

(1) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال ، ص76.

(2) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال عبدالهادي، ص76.

القرم (1).

ومن ناحية الغرب انتصر العثمانيون على البنادقة، واستولوا على كريت وبعض الجزر الاخرى، فاستتجد البنادقة بالنمسا من الدولة العثمانية إعادة مأخذ من البنادقة إليهم فرفضت الدولة، وقامت الحرب بين الطرفين وانتصرت النمسا وسقطت بلغراد عام 1129هـ/1717م ثم جرى الصلح بعد ذلك في عام 1130هـ/1718م وتوسّطت بريطانيا وهولندا في الصلح. وعقد صلح بيساروفتزر، وبموجبه انتزع النمساويون بلغراد، وأكثر بلاد الصرب، وجزءاً من الأفلاق وتبقى سواحل دالماسيا (شرق الأدرياتيك) للبندقية، وتعود بلاد المورة للعثمانيين كما أتاح الصلح لرجال الدين الكاثوليك في أن يستعيدوا مزاياهم القديمة في الأراضي العثمانية، مما أتاح لهم وللنمسا التدخل في شؤون الدولة العثمانية باسم حمايتهم، وقد نص اتفاق منفصل على حرية التجارة لصالح تجار الدول الموقعة على المعاهدة. وهكذا حصلت النمسا على حق حماية التجار الأجانب داخل الدولة العثمانية(2). ولما رأى الروس ضعف العثمانيين طلبوا منهم السماح للتجار وزوار بيت المقدس بالمرور في أراضي الدولة العثمانية دون دفع أية رسوم فوافق العثمانيون على ذلك. واحتل العثمانيون بلاد أرمينيا بلاد الكرج، بينما احتل بطرس الأكبر بلاد داغستان وسواحل بحر الخرز الغربية بسبب ضعف الدولة الصفوية، وكادت الحرب أن تقع بين الطرفين لولا وساطة فرنسا بناءً على طلب روسيا، وبقي كل فريق في المناطق التي دخلها دون معارضة الآخر. غير ان الصفويين هبوا وقاتلوا العثمانيين، ولكنهم هزموا وفقدوا تبريز وهمدان وعدداً من القلاع، ثم جرى الصلح عام 1140هـ/1728م. وخلال هذه الفترة ثار الانكشاريون وعزلوا الخليفة ونصبوا مكانه ابن أخيه(3).

(1) انظر : الدولة العثمانية، د.اسماعيل باغي، ص117.

(2) انظر: في أصول التاريخ العثماني، ص156،157.

(3) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، اسماعيل سرهنك، ص207،208.

كان عدد قليل من العثمانيين قد نادى بالاصلاح للوصول الى الوسائل التي حققت بها أوروبا قوتها خاصة في التنظيم العسكري والاسلحة الحديثة. وكان الداماد ابراهيم باشا الذي تولى الصدارة العظمى في عهد السلطان احمد الثالث هو أول مسؤول عثماني يعترف بأهمية التعرف على أوروبا، لذا فإنه أقام اتصالات منتظمة بالسفراء الأوروبيين المقيمين بالآستانة، وأرسل السفراء العثمانيين الى العواصم الأوروبية، وبخاصة فيينا وباريس للمرة الأولى. وكانت مهمة هؤلاء السفراء لا تقتصر على توقيع الاتفاقات التجارية والدبلوماسية الخاصة بالمعاهدات التي سبق توقيعها ، بل أنه طلب منهم تزويد الدولة بمعلومات عن الدبلوماسية الأوروبية وقوة أوروبا العسكرية. وكان معنى ذلك فتح ثغرة في الستار الحديدي العثماني والاعتراف بالأمر الواقع الخاص بأنه لم يعد بإمكان العثمانيين تجاهل التطورات الداخلية التي كانت تحدث في أوروبا(1).

وقد بدأ التأثير بأوروبا في مجال بناء القصور والإسراف والبذخ اللذين شارك فيهما السلطان أحمد ذاته بنصيب كبير، مما جعل الأغنياء وعلية القوم يسعون الى اقتباس العادات الأوروبية الخاصة بالاثاث وتزيين الدور وبناء القصور وإنشاء الحدائق(2).

لقد بدأ ظهور تقليد الغرب في شهواتهم وإسرافهم تظهر للعيان وطبيعي أن تمضي فيهم سنة الله تعالى قال تعالى: {ولو أن أهل القرى آمنوا وأتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون} (سورة الأعراف : آية 96).
وقال تعالى : {وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً} (سورة الاسراء: آية 76).

وسجلت هذه الفترة بداية الحركة الأدبية العثمانية الحديثة فنشطت حركة الترجمة الى اللغة

(1) انظر: في أصول التاريخ الاسلامي، ص159.

(2) انظر: الدولة العثمانية، د. اسماعيل باغي ، ص119.

التركية ، كما أرسل السلطان أحمد مبعوثين الى فرنسا للاطلاع على المصانع ومنجزات الحضارة الفرنسية. كما تم إنشاء مكتب للطباعة في استانبول(1).

عاشراً: السلطان محمود الأول (1143-1168هـ/1730-1758م):

تولى الحكم بعد ان هدأت الأحوال بسبب اضطرابات الانكشارية فقرر السلطان محمود الأول استقدام مستشار أوروبي فرنسي للشؤون العسكرية واسمه الكسندر الكونت دي بونفال، وقد عهد إليه بإحياء فرقة المدفعية، وادخلت أنظمة جديدة للخدمة العسكرية على أسس فرنسية ونمسية بهدف جعل الخدمة العسكرية من جديد مهنة حقيقية وذلك بتوفير المرتبات والمعونات. واقترح توزيع فرق الانكشارية الى وحدات صغيرة يقودها ضابط شاب، غير أن الانكشارية عارضوا تنفيذ هذه الخطة وأوقفوها ، مما أدى الى تركيز بونفال على فرقة المدفعية وأهتم كذلك بصناعة المدافع والبارود والبنادق والألغام وعربات المدافع، وافتتح مدرسة للهندسة العسكرية، إلا أن الانكشارية عارضوا كل المشروعات، وعلاوة على ذلك أنشأ مصنع للورق، لكن هذه الاصلاحات سرعان ما اندثرت(2).

اتجهت الدولة العثمانية الى قتال الشيعة الصفوية، فتغلبت على طهماسب الذي طلب الصلح عام 1144هـ/1731م، وتخلى العثمانيين عن تبريز ، وهمدان ، ولورستان غير أن والي الشاه على خراسان وهو نادر شاه، لم يقبل بهذه المعاهدة. فسار الى أصفهان ، وعزل الشاه طهماسب وولى مكانه ابنه عباس، وعين عليه مجلس وصاية ، سار لحرب العثمانيين فانتصر عليهم، وحاصر بغداد، طلبت الدولة الصلح، وجرى الاتفاق عام 1149هـ/1736م في مدينة تفليس حيث أعلن نادر خان نفسه ملكاً على الفرس، واتفقوا على أن يرد العثمانيون كل مأخذه الى الشيعة

(1) انظر: الدولة العثمانية، د. اسماعيل باغي، ص119.

(2) انظر: في اصول التاريخ العثماني، ص162-163.

الحرب مع الدول الأوروبية:

أعلنت روسيا والنمسا الحرب على بولندا، واحتلتها روسيا ، ورجبت فرنسا التحالف مع الدولة العثمانية لإنقاذ بولندا من كل من النمسا وروسيا وأرضت النمسا فرنسا بمعاهدة فيينا واتفقت من جهة ثانية لقتال الدولة العثمانية، وبدأت روسيا القتال مع الدولة العثمانية، فتمكن العثمانيون من وقف تقدم الروس في إقليم البغدان، كما أوقفوا تقدم النمسا في البوسنة والصرب والأفلاق، وأنتصرت على الصرب ، وعلى جيوش النمسا التي انسحبت من الحرب ، وطلبت الصلح عن طريق فرنسا، وتم توقيع معاهدة الصلح في بلغراد عام 1152هـ/1739م، تنازلت فيه النمسا عن مدينة بلغراد وعن بلاد الصرب الأفلاق، وتعهدت روسيا بعدم بناء سفن في البحر الأسود وهدم قلاع ميناء آزوف(2).

السلطان عثمان الثالث (1168-1171هـ/1758-1761م):

تولى الحكم وعمره 58 سنة، وبويع في جامع أبي أيوب الأنصاري، وهنأه سفراء أوروبا ، وحكم ثلاث سنوات فقط لم يحدث فيه حروب ولا نزاعات خارجية واهتم بالاصلاحات الداخلية، وأصدر أوامر بمنع كل ما يخالف الشرع الشريف وقضى على الثورات والانتفاضات التي قامت في أنحاء الدولة وخاصة ثورات الأكراد(3) ويذكر عنه أنه كان يتحسس أحوال الرعية ليلاً متكرراً(4).

الحادي عشر:السلطان مصطفى الثالث(1171-1187هـ/1757-1773)

تولى الحكم وعمره اثنتان وأربعون سنة، وكان على دراية واسعة بإدارة الدولة فعين الوزير قوجه

(1) انظر: التاريخ الاسلامي (8) ، محمود شاکر ، ص110-112.

(2) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، اسماعيل سرهنك، ص208-212.

(3) انظر: الدولة العثمانية، د.اسماعيل ياغي، ص121.

(4) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال عبدالهادي، ص79.

راغب صدرًا أعظم لسعة أطلاعه وخبرته بشؤون البلاد. وقد استطاع محمد راغب باشا من إخماد ثورة عرب الشام الذي اعتدوا على قوافل الحجاج (1).

كان السلطان مصطفى يرى أن الخطر الداهم على الدولة العثمانية يتمثل في ظهور القوة الروسية الجديدة ويبدو أنه اطلع على المخطط الأسود الروسي لتفتيت الدولة العثمانية الذي وضعه بطرس الأكبر في وصيته (2) ولذلك أعد السلطان مصطفى الثالث لحرب روسيا ، فبدأ يعد التنظيمات المزمع تنفيذها بالجيش العثماني حتى يصبح قادراً على مواجهة الجيوش الأوروبية، لذا فقد تمكن الصدر الأعظم من عقد اتفاق مع حكومة بروسيا لمساعدة الدولة العثمانية عند الحاجة ضد النمسا وروسيا. وعملت على توسيع نطاق التجارة البحرية والبرية. وعمل على وضع مشروع فتح خليج لإيصال نهر دجلة بالآستانة وأن تستعمل الأنهار الطبيعية مجرى له ليسهل نقل الغلال من الولايات الى دار الخلافة، ويساعد على نشر التجارة، إلا أن المنية عاجلته قبل البدء في مشروعه عام 1176هـ/1762م. وخلفه في الصدارة حامد حمزة باشا ثم خلفه مصطفى باهر باشا 1177هـ/1763م ثم بعد سنة تولى الصدارة محسن زاده محمد باشا 1178هـ/1764م (3).

خاضت الدولة العثمانية حرباً مع روسيا بسبب اعتداءات القوزاق على مناطق الحدود، نجح ملك القرم في غارته وهدم عدداً من الضياع وذلك عام 1182هـ/1768 كما سار الصدر الأعظم بفك الحصار عن بعض المواقع التي يحاصرها الروس، ولكنه فشل فكان جزاؤه القتل، وهزم الصدر الذي أتى بعده، واحتل الروس إقليمي الأفلاق والبيغدان، وأخذ الروس يثيرون النصارى من الروم الأرثوذكس للقيام بثورات ضد الدولة ، فأثاروا نصارى شبه جزيرة المورة فقاموا بثورة، غير

(1) انظر: الدولة العثمانية، د. اسماعيل ياغي ، ص122.
(2) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص330،331،332.
(3) انظر: تاريخ الدولة العثمانية ، اسماعيل سرهنك، ص216.

أن الثورة قد أخدمت(1).

كما هاجم الروس مدينة طرابزون وفشلوا في احتلالها، ولكنها (روسيا) نجحت في اقتحام بلاد القرم والسيطرة عليها وذلك عام 1185هـ/1771م. ثم جرت مفاوضات الصلح ولكنها فشلت بسبب مطالب روسيا التعسفية، وعادت الحرب وانتصر العثمانيون(2).

الإهتمام بدعم الثورات الداخلية:

لقد ظهر التآمر الروسي الصليبي ضد ديار الدولة العثمانية واضحاً وقاموا بمحاولة تمزيق الدولة من الداخل ، فقد دفعوا والي مصر من قبل دولة الخلافة، وهو "علي بك الكبير" الذي لقب بشيخ البلد الى الخروج على الدولة العثمانية عام (1183هـ/1770م)، ففعل ، وأمر بأن يخطب باسمه على المنابر.

وفي جزيرة (باروس) تم لقاء بين الصليبيين الروس ومبعوثين من قبل (علي بك الكبير) وتم التخطيط الماكر لتدمير الدولة العثمانية من الداخل، يكون فيها علي بك الكبير هو مخلب القط ومعه طاهر العمر والي مدينة عكا من قبل العثمانيين وبناء عليه قاد علي بك أبناء مصر المسلمين لقتال القوات العثمانية في بلاد الشام ودخل "سورية" عنوة في عام 1185هـ، بل إنه دخل دمشق، وصيدا وحاصر "يافا" بمساعدة طاهر العمر، بل إن الروس حينما قامت قوات الدولة العثمانية بمحاصرة صيدا، عاونوا عميلهم في رفع الحصار ومدته بالأسلحة واستولوا على بيروت عام 1186هـ.

وجاء الوقت الذي أسر فيه علي بك الكبير، وتوفي في أسره، وقتل الخائن الآخر طاهر العمر بعد حصار عكا، وذلك على يد محمد بك الشهير بأبي الذهب(3).

(1) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي، ص122.

(2) انظر: الدولة العثمانية ، د. اسماعيل ياغي، ص122.

(3) انظر: الدولة العثمانية، د.جمال عبدالهادي، ص80.

إن الصليبية النصرانية عندما عجزت عن مقاتلة الدولة العثمانية في جبهات الوغى لجأت الى تفجير الدولة من الداخل عبر ضعفاء النفوس ممن ينتسبون الى الاسلام ويظهرون شعائره وأضاعوا مفهوم الولاء والبراء في بحر شهواتهم وأطماعهم وإلا كيف يكون ذلك والله يقول : {يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق} (سورة الممتحنة: آية 1).

وقوله تعالى :{لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين} (سورة آل عمران : آية 21).

إن المسلم الصادق مع نفسه وربه وأمته لا يقف مع الروس الأرثوذكس ضد المسلمين السنيين العثمانيين ويستحل دماءهم(1). إن أعداء الأمة المسلمة يلجأون دوماً الى إشعال نار الفتنة داخل ديار الاسلام لتدمير قوة الأمة البشرية والاقتصادية والاخلاقية لتصبح الأمة مؤهلة للسقوط بيد الأعداء(2)، لقد كان السلطان مصطفى الثالث من السلاطين المجاهدين وقد تصدى للهجمات الروسية الصليبية على الدولة، وأنزل بهم هزائم عدة وكان يرى بثاقب بصره وبعد نظره أن الدولة العثمانية بدأت في عصر التراجع والسقوط وظهرت تلك الرؤية في شعره:

ان الدنيا منهدمة لا تظن أنها تستقيم لنا
جميع مراتب الدولة بقيت في أيدي الاراذل
وان السعداء اليوم كلهم ادناء
ونحن متوكلون على الله جل جلاله

كان هذا السلطان مهتماً بالتاريخ الاسلامي عموماً وتاريخ الدولة العثمانية خصوصاً. لقد استمرت الحرب مع روسيا فترة طويلة حيث بدأت في عام 1768م وانتهت في 1774م

(1) انظر: الدولة العثمانية، د.جمال عبدالهادي، ص80.

(2) المصدر السابق نفسه، ص80.

وفقدت الدولة العثمانية اراضي واسعة ومهمة وبدأ ظهور الضعف والتأخر والتخلف الحقيقي في الدولة، ومرض السلطان مصطفى الثالث في حرب روسيا حزناً وتوفي وعمره يناهز 57 عاماً تقريباً⁽¹⁾. وتوفي الخليفة عام 1187هـ وتولى مكانه أخوه عبدالحميد الأول⁽²⁾.

الثاني عشر: السلطان عبدالحميد الأول (1187-1203هـ/1773-1788م)

تولى الحكم عام 1187هـ/1773م بعد وفاة أخيه مصطفى الثالث، وكان محجوراً في قصره مدة حكم أخيه مصطفى الثالث استطاعت روسيا أن تحقق نصراً على العثمانيين في مدينة فارنا في بلغاريا على البحر الأسود، وطلب الصدر الأعظم الصلح والمفاوضة، وتم ذلك في مدينة قينارجة في بلغاريا عام 1187هـ/1774م⁽³⁾ وأهم ما جاء فيها:

ازالة العداوة بين الدولة العثمانية وروسيا وحلول الصلح وصيانة الاتفاقات من التغيير والعفو عن الجرائم التي اقترفها رعايا الطرفين.

عدم حماية الرعايا الملتجئين او الفارين أو الخونة ضمن شروط.

اعتراف الطرفين بحرية بلاد القرم بلا استثناء واستقلالها، ولهم الحرية التامة بانتخاب خان لهم دون تدخل ولايؤدون ضريبة. وباعتبارهم مسلمين فإن أمورهم المذهبية تنظم من قبل السلطان بمقتضى الشريعة الاسلامية.

سحب القوات العثمانية من القرم وتسليم القلاع وعدم إرسال جنود أو محافظ عسكري.

حرية كل دولة في بناء القلاع والأبنية والتحصينات وإصلاح مايلزم منها.

تعيين سفير روسي في الآستانة من الدرجة الثانية، والاعتذار له رسمياً عن ما يحدث من خلل. تعهد الدولة العثمانية بصيانة الحقوق والكنائس النصرانية في أراضيها ومنح الرخصة من

(1) انظر: السلاطين العثمانيون، ص72.

(2) انظر: الدولة العثمانية، اسماعيل ياغي، ص123.

(3) المصدر السابق نفسه، ص123.

حرية زيارة رهبان روسيا للقدس والأماكن الأخرى التي تستحق الزيارة مرخص بها دون دفع جزية أو خراج ويعطون التسهيلات والحماية أثناء ذلك (1).

حرية الملاحة للروس في كافة الموانئ العثمانية في البحرين الأبيض المتوسط والأسود مضمونة وكذلك حرية اتجار الرعايا الروس في البلاد العثمانية براً وبحراً مكفولة وللتجار الروس حرية الاستيراد منها والتصدير إليها والإقامة فيها. ويحق لروسيا تعيين القناصل في كافة المواقع التي تراها مناسبة.

يجب على الدولة العثمانية التعهد ببذل جهدها في كفالة حكومات الولايات الأفريقية إذا ما رغبت الروس بعقد معاهدات تجارية فيها.

يحق للروس بناء كنيسة على الطريق العام في محلة بكل أوغلي في غلطة باستانبول غير الكنيسة المخصصة وتكون تحت صيانة سفير روسيا وتؤمن الصيانة الكاملة لها والحراسة التامة خوفاً من التدخل.

إعادة بعض المناطق للدولة العثمانية من روسيا بشروط منها العفو العام عن أهلها وحرية النصارى منهم من كافة الوجوه وبناء كنائس جديدة ومنح امتيازات للرهبان وحرية الهجرة للأعيان وعدم التعرض لهم وإعفائهم من تكاليف الحرب والجزية.

يرد الروس جزائر البحر الأبيض المتوسط التي هي تحت حكمهم للدولة العثمانية التي يجب أن تعفو عن أهلها وتعفيهم من الرسوم السنوية وتمنحهم الحرية الدينية وترخص لمن يريد منهم ترك وطنهم.

كما ذكرت بنود أخرى تتعلق ببعض المناطق في القرم وبتدابير الانسحاب وإخلاء الأفلاق والبوجاق والبغدان وبتسريح الأسرى وتعيين السفراء من أجل المصالحة وتعهدت الدولة العثمانية

(1) انظر: العثمانيون والروس، د. علي حسن، ص 83.

بتأدية خمسة عشر ألف كيساً لروسيا في مدة ثلاث سنين يدفع منها في كل سنة قسط وهو خمسة آلاف كيس (1).

وحين التمعن في هذه الشروط يمكن ملاحظة مايلي:

إنهاء السيطرة العثمانية على البحر الأسود وتهيئة الأسس الدبلوماسية المقابلة للتدخل الروسي في القضايا العثمانية الداخلية .

تمدد الحدود الروسية الى نهر بوغ الجنوبي واشتمالها آزوف وسهوب كرش ونيكال في النهاية الشرقية من شبه نهري الدينير وبوغ وسهوب وكينبورن.

أصبحت بلاد القرم مستقلة ورعاياها لا يلحقون الدولة العثمانية إلا دينياً فقط.

أصبح لروسيا حق بناء قناصل في أي مكان في الدولة العثمانية والملاحة الحرة في مياهها.

سمحت المعاهدة للروس بالحصول على الامتيازات ضمن البلاد العثمانية تشمل الأرثوذكس في الأفلاق والبغدان وجزر بحر إيجه وبالتالي تحولت روسيا الى حماية الارثوذكس في أي مكان في الدولة العثمانية (2).

ولم يكتف الروس الصليبيون بذلك ، بل واصلوا تأمرهم ، وفاجئوا الدولة العثمانية بدخول قواتهم بلاد القرم وهي جزء من ولايات الدولة العثمانية بسبعين ألف جندي غير مبالين بمعاهدة (كينارجه) (3).

وانبهرت ملكتهم كاترينا بهذا النصر وطافت ربوع القرم وأقيمت لها الزينات واقواس النصر التي كتب عليها (الطريق بيزنطة). وأثارت الدولة العثمانية من جديد فأرسل الباب العالي مذكرة الى السفير الروسي بالاستانة وذلك في صيف عام 1200هـ فيها عدة مطالب منها التنازل عن حماية

(1) انظر: العثمانيون والروس، ص84.

(2) انظر: العثمانيون والروس، ص85.

(3) انظر: الدولة العثمانية، د.جمال ، ص82.

بلاد الكرج التي تخضع للسيادة العثمانية وتسليم حاكم الفلاح العاصي للدولة ورفضت روسيا
المذكرة فأعلن الباب العالي الحرب وسجن السفير الروسي (1).

تحالف النمسا مع روسيا:

وكتبت كاترينا الى القائد العسكري بولتمكين بعدم انتظار العثمانيين والتقدم بإتجاه مدينتي بندر
وأوزي وتمكن نتيجة لذلك من دخول (أوزي) وعندها أعلنت النمسا الحرب على الدولة العثمانية
وحاول يوسف الثاني الامبراطور النمساوي احتلال بلغراد ولكنه عاد يجر أذيال الخيبة منسحباً الى
مدينة تمسوار والجيش العثماني يتعقبه حتى هزمه شر هزيمة.

وفاة السلطان عبدالحميد الأول وأثرها على الأحداث:

في هذه الآونة توفى السلطان عبدالحميد الأول ووهنت عزيمة الجند ودخل اليأس قلوبهم واستغل
الأعداء ماحدث وتضافرت جهودهم لإضعاف العثمانيين وتمكنوا من النصر في 31 تموز وفي 22
أيلول عام 1789م واستولى الروس على مدينة بندر الحصينة واحتلوا معظم الفلاخ والبغدان وبسارابيا
ودخل النمساويون بلغراد وبلاد الصرب التي ردت بعد ذلك بمقتضى معاهدة زشتوي (2).

(1) انظر: العثمانيون والروس، ص 86.

(2) انظر: العثمانيون والروس، ص 87.

المبحث السادس
السلطان سليم الثالث
(1203-1222هـ/1788-1807م)

تولى السلطة بعد وفاة عمه عبدالحميد الأول عام 1203هـ/1788م وبدأت مرحلة جديدة من مراحل الحرب بين الدولة العثمانية وأعداءها شرع في احياء الروح المعنوية في نفوس جنده واعتمد على تاريخ الدولة العثمانية وماقامت به من أعمال بطولية، ففي مراسيم تولية عرش الدولة قام السلطان بإلقاء خطبة حماسية أمام قادة الدولة أشاد فيها بما حقته الجيوش العثمانية من انتصارات في الماضي على أعدائها، وتكلم عن سبب هزائمهم المتأخرة أمام أعدائهم وبين بأنها بسبب ابتعادهم عن دينهم وعدم اتباع كتابهم وسنة نبيهم، وحثهم على ضرورة التضحية والجهاد ضد أعدائهم ، والاعتماد على الله في كل تصرفاتهم وطاعة أولي الأمر، ومقاومة الأعداء الذين استولوا على اراضي المسلمين وقتلوا وسجنوا الآلاف منهم حتى تستعيد الدولة بلاد القرم منهم(1).

أولاً: اصراره على الجهاد:

هذه الآمال عند السلطان سليم الثالث جعلته يرفض مساعي الصلح التي قام بها سفراء اسبانيا وفرنسا وبروسيا ، وطلب من الصدر الاعظم يوسف باشا اتخاذ الترتيبات اللازمة للتصدي لأعداء الدولة.

(1) انظر: تاريخ سياسي، دولة عليية عثمانية ، كامل باشا (250/2).

لقد أدرك السلطان المأساة التي يعيشها شعبه من جراء الهزائم المتوالية على الدولة العثمانية، ولكي يخفف من حدة الغضب والنفور، رفض السلطان مساعي الصلح وقرر التوجه بنفسه على رأس جيش نحو الدانوب.

وقام بزيادة مرتبات الجند وصرف مكافآت إضافية تزيد عما كانت عليه في عهد سلفه (1). ورأى السلطان العثماني ضرورة تقوية مركزه بتعيين صديقه القديم حسين باشا الكريدلي قائداً للأسطول العثماني ونقل خدمات القائد السابق حسن باشا الى قيادة الجيش البرية في مولدافيا وتعيينه حاكماً على مدينة "إسماعيل" وتكليفه في نفس الوقت بإعادة أوزي والتوجه بطريق البر نحو القرم (2).

وكان هذا التغيير في مناصب قيادة الجيش له أسبابه، فمن جهة كان القائد حسن باشا على خلاف مع الصدر الأعظم يوسف باشا عندما رأى أن إعلان الحرب على روسيا لم يكن في وقته المناسب وأنهم بحاجة الى الاستعداد التام قبل دخول الحرب، ومن جهة أخرى فإن إخفاق الجيش العثماني بقيادة حسن باشا في استعادة "أوزي" وعودته قبل الوقت المحدد قد أثر على نفسية السلطان فرأى ضرورة تغيير القيادة ولكن السبب المعقول والأقرب الى المنطق أن القائد الجديد كان من أصدقاء السلطان (3)، مما يجعل تعيينه في منصب الصدرية العظمى سنداً قوياً وتقوية لمركزه أمام أعدائه في الداخل والخارج (4).

أصبح السلطان سليم في موقف يحتم عليه المواجهة مع أعدائه ومما قام به في هذا الشأن تكليفه لصدره الأعظم يوسف باشا بالاهتمام باقليم ولاشيا وحماية بلغراد من أي هجوم في منطقة

(1) انظر: تاريخ نوري في بيان أحوال دولت العلية، ص 110.

(2) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية، ص 69، 68.

(3) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، اسماعيل سرهنك، ص 235.

(4) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية، ص 69.

الكوبان بهدف إثارة تثار القوقاز ضد روسيا ومساعدة الدولة العثمانية لاستعادة بلاد القرم.
استبشر الصدر الأعظم بثقة السلطان سليم الثالث فيه وظن كأن النصر قريب وكان يأمل أن يحقق أهداف الدولة المطلوبة منه(1).

ثانياً: هزيمة الجيوش العثمانية:

عززت القوات الروسية والنمساوية مواقعها ، واستتفرت جيوشها وأصبحت قواتهم قريبة من بلغراد مولدافيا ولم يستطيع الصدر الأعظم من إبعاد الأعداء عن بلغراد واضطر السلطان لعزله وعين حسن باشا بدله، لقد منى يوسف باشا بهزائم متتالية على يد القائدين الروسي "سواروف"، والنمساوي "كوبرق".

كان السلطان سليم الثالث حريص على استعادة القرم وتحقيق النصر على أعدائه، ورأى البدء بإعادة بناء الجيش وأصدر أوامره للصدر الأعظم باتخاذ اللازم نحو تطوير الجيش ومتابعة الجهود في سبيل الإصلاح وإرسال حملة عسكرية الى ساحة القتال، ورأى السلطان دعم هذه التوجهات بعقد معاهدة صداقة مع السويد تلتزم فيها الدولة العثمانية بدفع مبالغ نقدية سنوية محددة لمدة عشر سنوات مقابل أن تقاوم السويد روسيا من الناحية الشمالية، واتفقتا أيضاً على مواصلة الحرب معاً ضد روسيا وأن لايقوم أي منهما بعقد معاهدة سلام مع دولة اخرى دون علم الثانية(2).

ثالثاً: موقف الدول الأوروبية من هذه المعاهدات:

كانت مواقف الدول الأوروبية من هذه المعاهدات متباينة فبروسيا رحبت بهذه المعاهدة وذلك لأنها كانت دائماً تحت السلطان سليم الثالث على مواصلة الحرب خوفاً من أن تكون هي الأخرى

(1) المصدر السابق نفسه، ص69.

(2) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية، ص71.

من فرائس روسيا، وفرنسا لم تؤيد عقد المعاهدة على هذا الوضع لاتخدم السياسة الفرنسية وأهدافها.

أما بريطانيا فيه كما يقول الشاعر:

يعيطيك من طرف اللسان حلاوة

ويروغ منك كما يروغ الثعلب(1)

فهي وإن رضيت بالمعاهدة، ورغبت في بقاء الدولة العثمانية قوية، إلا أنها لاتفضل الوقوف جنباً الى جنب مع الدولة العثمانية ضد روسيا أو النمسا، ولاتفضل تقديم أي نوع من الدعم. هذه المواقف الأوروبية يجب أن لاتستغربها، فهي طبيعية، لأن علاقاتهم مع الدولة العثمانية علاقات مصالح ومطامع فقط، وإذا سعت بعض الدول الأوروبية الى بقاء الدولة العثمانية قوية الجانب، فذلك ليس حياً فيها ولكنه هدف لخدمة أغراض سياسية تتعلق بتوازن القوى في القارة الأوروبية وتتعلق بالرغبة في الحفاظ على مصالحهم الإقتصادية سواء في داخل الدولة العثمانية أو خارجها.

على الرغم من تأثير هذه المواقف الأوروبية على الاتجاه العام لسياسة الدولة العثمانية وتقدمها في المناطق الأوروبية، لم ييأس السلطان العثماني وكان يحذوه الأمل بنجاح المهمة في حال توجيه الجيش، فأصدر أمره بتحريك القوات العثمانية عبر البغدان والافلاق حتى وصلت مقدمات جيشه الى نهر "رمينيك" عند حدود النمسا وهناك حدث ما لم يكن في الحسبان حيث تمكن الجيشان الروسي والنمساوي من مباغته الجيش العثماني على غفلة وانتصر عليه وسميت تلك المواجهة بمعركة "يوزا" أو "رمينيك" نسبة الى النهر الذي وقعت عنده المعركة(2).

كان لهذه المعركة آثارها السيئة على الدولة العثمانية فلم يعد هناك فرصة لتنظيم الجيش،

(1) انظر: تاريخ دولت عثمانية، عبدالرحمن شرف، ص211،210.

(2) انظر: تاريخ دولت عثمانية، عبدالرحمن شرف، ص211،210.

فتوالت الهزائم على الدولة العثمانية وتزحزحت الى الوراء باتجاه شرق الدانوب، وأعطت النمساويين الفرصة لفك حصار بلغراد وفتح الطريق لقوات الحلفاء وطرد العثمانيين من أوروبا(1).

لقد كانت الحملات الصليبية على الأقاليم العثمانية خلال الشهور الأخير من عام 1789م من أضع ما شهدته المناطق الحدودية بين الطرفين ، ولذلك تميزت الفترة التي أعقبت هذه الحملات بحالتين مختلفتين:

الأولى: وتتمثل في قيام نشاط دبلوماسي وحركات دينية وسياسية في الأوساط الأوروبية تنذر بالخطر، مما جعل الدول القوية تبحث عن السلام وتتادي بإيقاف الحرب بين الدولة العثمانية وعدوتها روسيا والنمسا.

ولاحت الثورة الفرنسية في الأفق وبدأت أخطارها تظهر على مختلف الأصعدة في أوروبا وأوجدت شعوراً قوياً عند الدول الأوروبية ومعها روسيا بأن الوقت قد حان للتعاطف مع الدولة العثمانية خوفاً من استفحال الثورة النابليونية وهيمنة فرنسا على شؤون القارة الأوروبية(2).

والثانية: هي ماشهدته الفترة من تطورات واستعدادات عسكرية جديدة بسبب تلك الهزائم المتتالية التي لحقت بالدولة العثمانية قبل وبعد معركة "بوزا" والتي أدت الى إثارة السخط والغضب في أوساط الرعية حتى ارتفعت الأصوات بتصحيح الأوضاع وإقالة الصدر الأعظم من منصبه(3).

وتوالت الأحداث واستمرت الهزائم ، وضعفت الدولة العثمانية ، ومع ظهور الثورة الفرنسية رأت الدول الأوروبية ضرورة التوصل الى معاهدة مع الدولة العثمانية لجمع الشمل الأوروبي أمام الحركة النابليونية التوسعية، والأطماع الفرنسية التي أنستهم أطماعهم في اراضي الدولة العثمانية كمرحلة أولى، ونجحت الدول الأوروبية في وساطتها وتم عقد معاهدة "زشتوى المشهورة" في 22

(1) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية، ص73.

(2) المصدر السابق نفسه، ص74.

(3) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية، ص74.

من ذي الحجة عام 1205هـ الموافق 4 من أغسطس 1791م (1).

ولما تحقق لهم ذلك بقي عليهم المرحلة الثانية وهي وقف الحرب العثمانية الروسية التي بدون تحقيق ذلك سيكون موضوع المناطق في أوروبا معرضة للأخطار بسبب المغامرات النابليونية أو بسبب تفوق روسيا على الدولة العثمانية وبالتالي تهديداً لأوروبا (2).

وكان وضع الدولة العثمانية بسبب الأحداث التي تعرضت لها أثرت على قوتها وعلى سير حملاتها نحو أوروبا وجعلتها في موقف لايمانع من الموافقة على أي أمر يؤدي إلى السلام وبأي شروط، وكان تلك الأحداث مساعدة في مهمة الوسطاء، فتوصلوا بعد مفاوضات مع كل من روسيا والدولة العثمانية، إلى عقد معاهدة سلام بينها في مدينة ياش وذلك بتاريخ 15 جمادى الأولى عام 1206هـ، الموافق التاسع من شهر يناير عام 1792م.

كان من أهم بنود هذه المعاهدة:

- 1- تبادل أسرى الحرب والسماح للرعايا الذين يعيشون خارج دولتهم بسبب الأزمات السياسية ، بالعودة إلى بلدانهم الأصلية أو البقاء حسب رغباتهم.
- 2- تتنازل الدولة العثمانية لروسيا عن ميناء أزوف وبلاد القرم وشبه جزيرة طمان وبلاد القويان وبساربيا والأقاليم الواقعة بين نهري بجد والدينستر، ويكون النهر الأخير حداً فاصلاً بين الدولتين.
- 3- ترجع روسيا للدولة العثمانية مناطق: البغدان وكرمان وكيلي واسماعيل مقابل أن تقوم الدولة بإعفاء رعايا البغدان من الضرائب وعدم مطالبة روسيا بتعويضات حرب أو ماشابه ذلك.
- 4- يمنع الباب العالي رعايا دولته من الغارات على محافظتي تفليس وكاتالينا الروسييتين ، وعلى السفن الروسية في البحر المتوسط، وعليه القيام بدفع تعويضات لأي أضرار تحدث بعد

(1) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية، ص 82.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 83.

ذلك من قبل رعايا الدولة العثمانية(1).

وحققت بذلك المعاهدة وقف الحرب الروسية العثمانية، وحققت بذلك أهداف الدول الأوروبية وأهمها إيقاف الحرب في زمن كانت أوروبا تعيش فيه انطلاق الثورة النابليونية تخشى تطورها على أنظمة الحكم فيها، وهكذا ضاعت آمال الدولة العثمانية وضاعت معها تلك المناطق التي كانت تحت نفوذها حتى أصبح البحر الأسود تحت رحمة العلم الروسي وأصبحت موانئه العثمانية مثل أزوف وأوديسا وسيفاستبول قواعد للأسطول الروسي وأصبحت مصبات الأنهار العظيمة مثل الدانوب وبيج والدنيستر وبروت وحركتها الملاحية تحت تصرف روسيا.

وهكذا قلصت هذه المعاهدة حدود الدولة العثمانية في أوروبا وأعطت في نفس الوقت الصفة التنازلية الشرعية من مكتسباتها لاعدائها.

وهكذا خطت الدول الأوروبية خطوات ساهمت في القضاء على الكيان العثماني في أوروبا وكأنها بذلك تحقق المشروعات الكثيرة(2) التي نادى بها الساسة والمفكرون الأوروبيون ضد الدولة العثمانية منذ قرون طويلة، وكانت القوى الصليبية والقوى الاستعمارية والقوى اليهودية تعمل في مثابرة وتنظيم نحو الهدف المنشود وكأنها: (شركة عالمية يتبادل فيها المؤسسون الأوروبيون النظرات الشذراء ، وقد يختلفون معاً ولكنهم متفقون على آل عثمان، وكل منهم متحفز للنهش والقضاء والابتلاع)(3).

وإن كانت معاهدة ياش قد أنهت المواجهات الروسية العثمانية لفترة مؤقتة إلا أنها في حقيقة الأمر بداية لنهاية أكثر فاجعة من الأولى(4).

(1) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية، ص83.

(2) المصدر السابق نفسه، ص86.

(3) المسألة الشرقية للشاذلي، ص122.

(4) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية، ص86.

وبعد هدوء القتال انصرف سليم الثالث للإصلاحات الداخلية فبدأ بتنظيم الجيش للتخلص من الانكشارية الذين أصبحوا سبب كل فتنة واتجه نحو تقليد أوروبا التي تجاوزتهم كثيراً فأهتم بصناعة السفن والأسلحة خاصة المدافع على الطريقة الفرنسية، وشهد عهده بدايات التعليم العسكري الغربي.

ونظراً لإقدام السلطان سليم على الإصلاحات وإنشاء فرقة النظام الجديد، فقد ثار الجنود الانكشارية وساندتهم الأعيان ضد النظام الجديد، ورغم ان السلطان أصدر أمراً بإلغاء النظام العسكري الجديد، إلا أن الثوار قرروا عزل الخليفة وخلعه من الحكم (1) وتولي بعده ابن عمه مصطفى الرابع الحكم مرشح المحافظين الذي أصبح دمية في أيدي من عينوه على السلطنة ثم صدرت مراسيم سلطانية ألغت النظام الجديد وكل المدارس والمؤسسات والإصلاحات المرتبطة به، ورغم ذلك فقد حدثت مشاكل في عهده أدت الى الإطاحة به (2).

خامساً: الغزو الفرنسي الصليبي على الدولة العثمانية في مصر (1213هـ/1798م):

انتهاز أعداء الاسلام تدهور الدولة العثمانية فأستغلت فرنسا ذلك الضعف وأرسلت حملتها المشهورة بقيادة القائد المشهور نابليون بونابرت، كانت تلك الحملة صدى للثورة الفرنسية ومتأثرة بأفكارها الثورية. وقد أصطحب نابليون معه مجموعة كبيرة من العلماء الفرنسيين في حملته هذه بلغ عددهم (122) عالماً وهو عدد يزيد عن اضعاف العدد الذي أعتاد أن يصحبه في حملاته الأوروبية، وقد تأثر فكر هؤلاء العلماء في الغالب بالدور الفرنسي الذي يسعى لإصلاح الكنيسة الكاثوليكية ويعادي حركات الإصلاح البروتستانتية منذ بداية القرن السادس عشر، ثم تأثروا في الفترة السابقة لقدمهم الى الشرق بأفكار روسو وفولتير ومونتسكيو أبرز مفكري الثورة الفرنسية

(1) انظر: الدولة العثمانية ، د.اسماعيل ياغي، ص127.

(2) انظر: قراءة جديدة لسياسة محمد علي التوسعية، د. سليمان غانم، ص12.

والمعروفين بانتمائهم للمحافل الماسونية اليهودية من خلال مارفعوه من شعارات (الحرية ، الاخاء ، المساواة)، وهي أفكار واتجاهات تعادي في مجموعها الدين والأفكار المستمدة منه بشكل عام وبالتالي فإنه من السذاجة أن نقبل ما يروجه ككتاب التاريخ من أن الهدف الرئيسي لهذه الحملة كان قاصراً على ضرب المصالح البريطانية في الشرق فمثل هذا الهدف لا يحتاج الى هذا الحشد الهائل من العلماء⁽¹⁾، فكان الى جانبه هدف إقامة امبراطورية فرنسية في الشرق إرضاء لطموحات الطبقة البرجوازية فيها والتي تسلت الى الحكم في اعقاب الثورة، وإرضاء للكنيسة التي وإن كانت الثورة قد وجهت لها بعض الضربات بشكل أضعف دورها داخل فرنسا عن ذي قبل إلا أنها ظلت لها تأثيرها الواسع والفعال على كثيرين من أبناء الشعب الفرنسي، فضلاً عن الدور الذي كانت تقوم به في تدعيم النفوذ الفرنسي في المستعمرات وكذلك في الشرق الاسلامي. ومن هنا كانت أهداف الحملة خليطاً من أهداف اقتصادية وتوسعية وسياسية ودينية ، أو بالاحرى غزو عسكري وفكري، ولهذا اصطحب نابليون معه في حملته هذا الحشد الهائل من العلماء⁽²⁾.

(1) انظر: قراءة جديدة في تاريخ الدولة العثمانية ص141،142.

(2) المصدر السابق نفسه، ص141،142.

المبحث السابع جذور الحملة الفرنسية الصليبية

لاشك أن هؤلاء المستعمرين كانوا عاملين بطبيعة واحوال المسلمين في مصر من خلال وسائلهم المتعددة، منها ما قام به الرحالة الفرنسي (الجواسيس) الذي أكثروا من رحلاتهم خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، وكانوا على صلة بالعناصر القبطية المسيحية واليهودية وبعض عناصر المماليك في مصر، ودرسوا كافة الجوانب السياسية، والاقتصادية والفكرية والعسكرية بأدق التفاصيل ومما يدلنا على ذلك حرصهم الشديد في ترويج أفكارهم فترة بقاء الحملة ، وحتى بعد رحيلها وزرعهم للمحافل الماسونية اليهودية في مصر التي أصبحت على صلة وثيقة

بمحمد علي باشا فيما بعد، لقد كانت خطوات الحملة الفرنسية مدروسة بعناية شديدة قبل القوم ولم تكن مفاجئة وحتى اكتشاف حجر الرشيد الأثري وفك رموز اللغة الهيروغليفية للمصريين القدماء فإنه إذا كان مفاجئة -وهو أمر مازال يحتاج الى بحث- فإن العناية لهذا الحدث والترويج له وماتبعه من فك رموز لغة الفراعنة واستخدامه كان أمراً مدروساً بعناية كذلك، وكان يدور في إطار الأهداف الكلية لهذه الحملة المعلن منها وغير المعلن. ويشير المؤرخ المسلم عبدالرحمن الجبرتي الذي عاصر هذه الحملة الى هذه الأمور في معرض حديثه عن المعهد العلمي الذي انشأه الفرنسيون في حارة "الناصرية" فيقول: (وإذا حضر إليهم بعض المسلمين ممن يريدوا الفرجة لايمنعونه الدخول الى أعز أماكنهم ويتلقونه بالبشاشة والضحك وإظهار السرور بمجيئه إليهم خصوصاً إذا رأو فيه قابلية أو معرفة أو تطلعاً للنظر في المعارف والأقاليم والحيوانات والطيور والنباتات وتواريخ القدماء وسير الأمم وقصص الأنبياء وبتصاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم وحوادث أممهم مما يحير الأفكار)(1).

أولاً: سر قوة المسلمين:

كان الفرنسيون -والغربيون بصفة عامة- يدركون أن السر في قوة المسلمين يتمثل في جانبين هامين الأول هو تمسكه بالدين والثاني في وحدة بلادهم في ظل حكومة اسلامية مطاعة مهابة، وقد أكد رجال الحملة الفرنسية إدراكهم لهذين العاملين حين أعلن نابليون وبعض رجاله(2) اعتناقهم للاسلام واحترام تعاليمه وزواجهم من مسلمات كي يتخذوا من ذلك ذريعة للتقرب للعوام أملاً في الاستقرار، وقد بدأ ذلك واضحاً في المنشور الأول الذي أعلنه نابليون على شعب مصر حيث ذكر: (أيها المصريون قد قيل لكم أنني مانزلت لهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمغترين أنني ماقصدت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين، وأني

(1) انظر: عجائب الآثار في التراجم والأخبار (120/3).

(2) انظر: قراءة جديدة في تاريخ الدولة العثمانية، ص143.

أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم(1).

كما سعى رجال الحملة الى زعزعة الدين في نفوس الشيوخ والعلماء المسلمين بعرض نماذج من الحضارة الغربية عليهم، أما العامل الثاني وهو الرامي الى تمزيق وحدتهم فقد بدا واضحاً في سعي الفرنسيين لتجنيد قوة مسلحة من مسيحي مصر قادها "المعلم يعقوب" لمساعدة الحملة في ضرب الثورة الشعبية التي قادها العلماء ، والوقوف أمام قوات الخلافة العثمانية الاسلامية(2).

ثانياً: تفجير الجيوب الداخلية:

نجح الفرنسيون في استثارة العناصر القبطية المسيحية على معاونة الحملة بمختلف الوسائل ، واعتبر بعض الكتاب المسيحيين أن الفائدة التي جنتها مصر خلال سني الحملة الثلاث أكثر من القرون الطويلة للحكم العثماني وقد أشاد البعض من هؤلاء العملاء بدور الخسة والندالة الذي قام به المعلم يعقوب في تعاونه مع الفرنسيين ضد العثمانيين واعتبروه "تعاوناً يستحق بموجبه أن يقام له تمثال من ذهب في أكبر ميادين القاهرة ويكتب عليه أنه أول من نادى باستقلال مصر في العصر الحديث"(3). كان هذا الموقف من النصارى معادياً لرغبة الأغلبية المسلمة بنفس القدر مايمكن ادراكه من اتجاه أغلب المفكرين النصارى العدائي للأغلبية المسلمة في مصر المعاصرة والذي يبدو جلياً في تأييدهم لخيانة بلادهم طالما هي ضد الوجود الاسلامي، وحتى بمفهوم الوحدة الوطنية الذين يسعون للتمسح به فإن "المعلم يعقوب" يعد من أبرز الذين خانوا بلادهم. وعلى أية حال كانت هذه الحادثة بداية لما عرف في التاريخ المصري باسم الفتنة الطائفية(4).

لقد قامت الأقليات غير الاسلامية من النصارى واليونان بمعاونة الاحتلال الفرنسي وقد علق

(1) انظر: الصراع الفكري بين أجيال العصور الوسطى والعصر الحديث للعدوي، ص83.

(2) انظر: قراءة جديدة في تاريخ الدولة العثمانية، ص144.

(3) انظر: تاريخ الفكر المصري الحديث، د. لويس عوض (188-180/1).

(4) انظر: قراءة جديدة في تاريخ الدولة العثمانية، ص144.

على ذلك الاستاذ الدكتور عبدالعزيز الشناوي : (أسرفت بعض الطوائف غير الاسلامية في مصر في تأييد الفرنسيين اسرافاً وصل الى حد تكوين فرقة عسكرية من ابناء هذه الطوائف. وقام الضباط والجنود الفرنسيون بتدريبهم على النظم العسكرية الأوروبية وتزويدهم بالأسلحة الحديثة. ثم ألحقت هذه الفرق بجيش الاحتلال الفرنسي لسد النقص في عدده، نتيجة المعارك التي خاضها في مصر والشام وإخماد الثورات الشعبية، وقتك الطاعون وغيره من الأمراض الوبائية بالجنود الفرنسيين وقد نظر الشعب المصري الى هذه الفرق على أنها أدوات لدعم الاحتلال الفرنسي لمصر، وتزعم هذه الفرق المعلم "يعقوب حنا" إذ كون فرقاً عسكرية من الأقباط، وكانوا يرتدون زيّاً مشابهاً لزي الجنود الفرنسيين ، وقلده "كليبير" قيادة هذه الفرقة منحه رتبة أغا ثم رقى على عهد "مينو" الى رتبة لواء (جنرال) ومنحه رسمياً لقب القائد العام للفيالق القبطية بالجيش الفرنسي(1).

ورغم المقاومة الشديدة والحركة الجهادية بقيادة علماء الأزهر، فقد استطاعت القوات الفرنسية بمعاونة "المعلم يعقوب" المصري من احتلال مصر، وارتكبت من الفظائع ما يستلزم أن يفرد له صفحات من تاريخ هذه الفترة ، لترى الأجيال كم من القرى أحرقت، وكم الدور والأموال قد سرقت، وكم أعراض النساء الحرائر انتهكت وكم من الأسر قد شردت على يد فرنسا زعيمة الحرية والاخاء والمساواة والانسانية.

وبعد احتلال القاهرة واصل نابليون احتلاله لبقية مدن مصر، "وغزة" والرملة ، ويافا وقد حاول احتلال عكا، ولكن يقظة أهلها بقيادة أحمد باشا الجزار حالت بين نابليون الصليبي وبين مايشتهي.

وحينما وصل نابليون الصليبي الى عكا وأصدر بياناً الى يهود العالم مُطلقاً عليهم اسم "الورثة الشرعيين لفلسطين" لإقامة دولة يهودية على ارض فلسطين. ألا يكشف ذلك عن علاقة وثيقة بين

(1) الدولة العثمانية دولة اسلامية (938/2) ومابعدھا.

نابليون الذي تستر بالاسلام، واليهود الذين خططوا وقاموا بما تسمى الثورة الفرنسية(1)؟؟

ثالثاً: السلطان سليم الثالث يعلن الجهاد ضد فرنسا:

كان الهجوم الفرنسي على مصر يعتبر اول هجوم صليبي على ولاية عربية من ولايات الدولة العثمانية في التاريخ الحديث ، وعلى الفور أعلن السلطان سليم الثالث الجهاد على الفرنسيين الصليبيين (1213هـ/1798م) واستجاب لدعوته المسلمون في الحجاز، والشام، وشمال أفريقيا. فمن الحجاز خرجت جموع من المسلمين بقيادة محمد الكيلاني ، يقول الجبرتي في حوادث (شهر شعبان عام 1213هـ/8 يناير الى 5 فبراير عام 1799م): (لما وردت أخبار الفرنسيين الى الحجاز وأنهم ملكوا الديار المصرية، انزعج أهل الحجاز وضجوا بالحرم وأن هذا الشيخ الكيلاني صار يعظ الناس ويدعوهم الى الجهاد، ويحرضهم على نصره الحق والدين ، وفاتعظ جملة من الناس وبذلوا أموالهم وأنفسهم واجتمع نحو الستمائة من المجاهدين وركبوا البحر الى القيصر مع ما أنظم إليهم من أهل ينبع وخلافه وكان مسلموا الحجاز خصوماً أشد للجنرال "ديزيه" الذي عهد إليه "بونابرت" غزو الصعيد والقضاء على قوات الجهاد بقيادة "مراد بك" ، وقد صمموا على الظفر بإحدى الحسنين: الاستشهاد أو الانتصار واتخذوا شعاراً لهم الآية القرآنية: { انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون } (سورة البقرة: آية 41) وتكونت منهم ومن مسلمي الوجه القبلي في "مصر" وخاصة عرب "الهوراة"، وأهالي النوبة، وقوات "مراد بك" جبهة حربية اسلامية في مواجهة جبهة حربية نصرانية كانت تتألف من القوات الفرنسية، النهرية والبرية، والفيالق القبطية بقيادة المعلم "يعقوب يوحنا" في الجيش الفرنسي(2).

رابعاً: استجابة المهدي الدرناوي الليبي لنداء الجهاد ضد فرنسا:

(1) انظر: الدولة العثمانية ، د.جمال عبدالهادي، ص86.

(2) انظر: الدولة العثمانية دولة اسلامية (39/2).

حركته الغيرة الاسلامية والحمية الدينية فقام بدعوة مسلمي شرق ليبيا الى الجهاد في سبيل الله تعالى، فأقبل عليه الناس أفواجاً مثل قبائل أولاد علي، والهنادي وغيرهم، كما أنضم إليه سكان القرى التي مر بها وسار بهذه الجموع حتى بلغ دمنهور (1214هـ/ ابريل عام 1799م) وكانت تعسكر بها حامية فرنسية أبادها المهدي عن بكرة أبيها وكان لانتصار الدرنائي الليبي على الفرنسيين الكفار صدى كبير، مما دفع حاكم الاسكندرية العسكري الفرنسي الجنرال "مارمون" الذي أرسل نجدة مزودة بالمدفعية لتعقب المهدي ولكنها هزمت أيضاً؛ فأرسل قوات أخرى من رشيد، ودارت معركة "سنهور" ، وكان من أشد المعارك هولاً، ومن أعنف الوقائع التي واجهها الفرنسيون في "مصر"، واستمر القتال سبع ساعات، انتهت بانتصار المهدي الدرنائي وانسحاب الفرنسيين الى الرحمانية(1). وقيل أن المهدي الدرنائي ادعى المهديّة.

وقد علق على ذلك أحد المؤرخين بقوله:

"واعترف نابليون بأهمية العازل الديني بين الفرنسيين والشعب المسلم وخلص الى رأي أن الحرب ضد المسلمين تعتبر حرب الاستنزاف ضد الفرنسيين ولم يمكن التغلب عليها. وقال آخر : إن المصريين وصفوا "بونابرت" بأنه نصراني ابن نصراني"(2).

وبرغم كل وسائل التودد فقد أبدى المصريون عدم تقبلهم للفرنسيين ، وعبر الجبرتي عن هذه المشاعر حين اعتبر سني الاحتلال الفرنسي لمصر "أولي سني الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة وتضاعف الشرور وترادف الأمور وتوالي المحن واختلاف الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال وفساد التدبير وعموم الخراب وتواتر الأسباب {وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون}(3) (سورة هود، آية

(1) انظر: الدولة العثمانية ، د.جمال عبدالهادي ، ص90.

(2) المصدر السابق نفسه، ص90.

(3) عجائب الآثار (1/3).

وقد ذكر الاستاذ الدكتور الشناوي جملة حقائق تتعلق بالحملة الفرنسية على مصر:

- أن الشعب المصري بقيادة علماء الأزهر ينظرون الى الغزوة الفرنسية على انها غزوة صليبية تستهدف دينهم، وتستهد الخلافة الاسلامية.
- أن ماتسمى بثورة القاهرة الاولى والثورة الثانية، لم تكن في الحقيقة إلا حركة جهادية تستهدف إنهاء الحكم الفرنسي النصراني لمصر، وإعادة "مصر" الى حظيرة الخلافة العثمانية الاسلامية.
- أن العثمانيين والمماليك كانوا مسلمين، وأن مصر حينما كان يحمها المماليك ، إنما كانوا يحكمونها باسم السلطان العثماني المسلم.
- أن سكان الولايات العربية لم ينظروا الى السلطان العثماني على أنه سلطان المسلمين فحسب بل نظروا إليه على انه خليفة المسلمين(1).

خامساً: الانجليز وأطماعهم في مصر:

كانت بريطانيا تتابع الأطماع الفرنسية في مصر وغيرها بدقة متناهية وعندما تحركت الحملة الفرنسية ووصلت الى مصر أرسلت أسطولاً بقيادة الاميرال نيسلون لتعقب الحملة الفرنسية، وفاجأ نيسلون الأسطول الفرنسي وهو رابض في خليج أبي قير بعد أن أنزل قوات الحملة في الاسكندرية، وأشتبك معه في معركة ادت الى إغراقه في أول أغسطس 1718م ، وقد كان لمعركة ابي قير البحرية نتائج خطيرة من أهمها:

كبدت البحرية الفرنسية خسارة جسيمة قضت على كل أمل في إمكان إحيائها، فظل الانجليز أصحاب السيطرة في البحار.

فرض الإنجليز حصاراً شديداً على الشواطئ المصرية المطلة على البحر المتوسط حتى أصبح من المتعذر تماماً على فرنسا أن ترسل النجديات الى جيشها في مصر.

(1) انظر: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها (943/2).

اضطر الفرنسيون في مصر الى الاعتماد اعتماداً كلياً في تدبير شؤونهم وسد حاجاتهم في هذه البلاد على مواردها الداخلية وحدها، وكان لذلك أكبر الأثر في اتباع بونايرت لما عُرف "بالسياسة الاسلامية الوطنية" التي كان هدفها توفير اسباب الحياة للفرنسيين وترويض المصريين بشتى الأساليب على قبول حكم اجنبي عنهم ولقد اعتمدت السياسة الفرنسية ثلاثة دعائم:

1- النظاهر باحترام الدين الاسلامي والمحافظة على تقاليد أهل البلاد وعاداتهم.

2- محاولة انتزاع المصريين من أحضان الخلافة العثمانية .

3- إنشاء حكومة وطنية من "عقلاء" وأفاضل المصريين(1).

غير أن هذه السياسة فشلت فشلاً ذريعاً في تحقيق أهداف بونايرت، والدليل على ذلك تلك المقاومة الاسلامية الشديدة التي انطلقت تقاتل جنوده وإنما ساروا أو حلوا في الدلتا والصعيد، ثم الثورة التي قام بها المسلمون في القاهرة الاولى (حركة الجهاد الأولى).

وكان بونايرت وقت اندلاع المعركة خارج القاهرة ، فعاد إليها مسرعاً ونصب المدافع على تلال المقطم لتعاون مدافع القلعة في إطلاق القنابل على حي الأزهر مركز حركة الجهاد وشعلتها المتأججة.

ويؤخذ من رواية الجبرتي ومن رواية الفرنسيين أنفسهم أنه في اليوم الثاني للثورة (22 أكتوبر) حين شرع الثوار في مهاجمة مقر القيادة الفرنسية العامة بحي الأزكية كان الجنود الفرنسيون يهاجمون الجامع الأزهر ثم دخلوه وهم راكبون الخيول وسلبوا ماكان فيه من الودائع وألقوا الكتب والمصاحف على الأرض وداسوها بأرجلهم ونعالهم، وظل الجنود الفرنسيون يحتلون الأزهر حتى ذهب وفد من مشايخه الى بونايرت يطلبون منه الجلاء عنه فكان ذلك نهاية للثورة التي استمرت ثلاثة أيام (21-23 أكتوبر 1798م). وانتقم الفرنسيون من المسلمين في القاهرة وضواحيها ابشع انتقام، فنهبوا ديار حي الأزهر والأحياء المجاورة وأعدموا صغار المشايخ الذين حرضوا على الثورة

(1) انظر: العالم العربي في التاريخ الحديث، د. اسماعيل ياغي ، ص209.

وصادروا ممتلكاتهم، واحاطوا القاهرة وضواحيها بالحصون والقلاع والمعازل، وهدموا في سبيل ذلك الشيء الكثير من المنازل والقصور (1).

سادساً: العثمانيون وسياستهم الدولية:

كانت هزيمة الأسطول الفرنسي في موقعة ابي قير البحرية قد شجعت الباب العالي على مهاجمة الحملة الفرنسية في مصر، فأعلن الحرب على فرنسا وأصدر أوامره بإلقاء القبض على القائم بأعمال السفارة الفرنسية وجميع رعايا فرنسا في العاصمة العثمانية والقائهم في السجون. ولم تلبث وزارة الخارجية العثمانية أن دخلت مع إنجلترا من جهة ومع روسيا من جهة اخرى في مفاوضات أسفرت عن عقد محالفة دفاعية هجومية بين روسيا وتركيا (25 ديسمبر 1798م) وعن عقد محالفة اخرى بين إنجلترا وتركيا (5 يناير 1799م) ، وكان العثمانيون يقومون في بلاد الشام باستعدادات جهادية ضد الحملة الفرنسية في مصر، مما جعل بونابرت يتخذ قراراً بأن يسبق أعداءه في شن هجوم عليهم قبل أن يهاجموه، فكانت حملته على بلاد الشام (فبراير - يونيو 1799م) التي تمكنت من ضرب القوات العثمانية المتجمعة هناك، إلا أنها لم تستطع أن تحطم قوات أحمد باشا الجزار بسبب فشلها في الاستيلاء على عكا. وبعد عودة الحملة الى مصر انتصر بونابرت في معركة أبو قير البرية 25 يوليو 1799م على قوة عثمانية اتخذت طريقها في رودس الى مصر، وكان من أهم نتائج هذه الموقعة حصول بونابرت من القائد العثماني مصطفى باشا الذي وقع في الأسر على معلومات تفيد بأن حرباً عامة في أوروبا قد اندلعت ضد فرنسا، فغادر بونابرت مصر سراً الى بلاده تاركاً قيادة الحملة الى الجنرال كليبير (2).

وعلى العموم فبعد رحيل بونابرت الى فرنسا أقبل كليبير على تصريف الأمور بكل همة، فأعد تنظيم الحكومة وقسم القطر المصري الى ثمانية أقاليم إدارية، وأبقى الدواوين التي أنشأها بونابرت

(1) عجائب الآثار (18/3).

(2) انظر: العالم العربي في التاريخ الحديث، د.اسماعيل ياغي، ص211.

في الأقاليم، كما نظم شؤون تحصيل الضرائب وعني بضبط حسابات المديریات المختلفة الى جانب عنايته بسائر فروع الادارة والاهتمام بنشاط ديزيه العسكري في الصعيد إلا أن الضغوطات المطالبة بالعودة الى فرنسا أثرت على كليبير وبادر بالكتابة الى الصدر الأعظم في 17 سبتمبر 1799م ينفي رغبة فرنسا في انتزاع مصر من تركيا، ويذكر الأسباب التي جعلت فرنسا ترسل حملتها الى مصر وهي محاولة إلقاء الرعب في قلوب الانجليز وتهديد ممتلكاتهم في الهند وإرغامهم على قبول الصلح مع فرنسا، بالإضافة الى الانتقام مما لحق بالفرنسيين من أذى على أيدي المماليك، وتخليص مصر من سيطرة البكوات وإرجاعها الى تركيا، ثم طلب كليبير من الصدر الأعظم فتح باب المفاوضات من أجل جلاء الفرنسيين عن مصر (1). وقد جرت هذه المفاوضات بالفعل في مدينة العريش وأسفرت عما يسمى باتفاقية العريش (24 يناير 1800م) التي نصت على :

جلاء الفرنسيين عن مصر بكامل أسلحتهم وعتادهم ، وعودتهم الى فرنسا.

هدنة ثلاثة شهور قد تطول مدتها إذا لزم الأمر، ويتم خلالها نقل الحملة.

الحصول من الباب العالي أو حلفائه - أي الأنجليز وروسيا - على بلاده على أن تتعهد تركيا

وحلفاؤها بعدم التعرض لهذا الجيش بأي أذى.

غير أن الحكومة البريطانية عندما بلغتها أنباء مفاوضات العريش كانت قد أتخذت موقفاً من

شأنه تعطيل إتفاقية العريش عن إبرامها، إذ كانت تخشى من أن يعود جيش فرنسا المحاصر في

مصر الى ميادين القتال في أوروبا، فترجح كفة الجيوش الفرنسية ويختل ميزان الموقف العسكري

في القارة. ولما كان من المعتقد في ضوء رسائل الضباط والجنود الفرنسيين الى ذويهم في فرنسا،

والتي وقعت في ايدي رجال البحرية البريطانية أن الحملة الفرنسية تمضي ببطء داخل الأراضي

المصرية فقد فضلت حكومة لندن أن يبقى الفرنسيون في مصر أو يسلموا أنفسهم كأسرى حرب.

(1) انظر: العالم العربي في التاريخ الحديث، د.اسماعيل ياغي ، ص212.

ولذلك أصدرت في 15 ديسمبر 1799م أوامر صريحة إلى اللورد كيث القائد العام للأسطول البريطاني في البحر المتوسط برفض أي اتفاق أو معاهدة بشأن الجلاء عن مصر، طالما كان هذا الاتفاق لا ينص على ضرورة أن يسلم الفرنسيون أنفسهم كأسرى حرب تسليماً مطلقاً دون قيد أو شرط، فأعد كيث رسالة بهذا المعنى إلى كليبير وصلت في أوائل مارس 1800م.

وأمام هذا التحول المفاجئ لم يجد كليبير مفرّاً من وقف عملية الجلاء التي كان قد بدأها تنفيذاً لاتفاقية العريش، ثم أسرع في صبيحة يوم 20 مارس 1800م بالزحف على رأس جيشه لوقف تقدم العثمانيين الذين وصلت طلائعهم إلى المطرية على مسافة ساعتين من القاهرة، فوقعت معركة (عين شمس) التي امتد ميدانها من المطرية حتى جهات الصالحية، وهزم الفرنسيون فيها العثمانيون هزيمة شديدة. وفي أثناء معركة هليوبوليس كان فريق من جيش الصدر الأعظم وبعض عناصر المماليك قد تسللوا إلى داخل القاهرة وأثاروا أهلها على الفرنسيين، فكانت ثورة القاهرة الثانية التي استمرت مدة شهر تقريباً من 20 مارس إلى 20 أبريل سنة 1800م⁽¹⁾.

ولم يستطع كليبير إخماد الثورة إلا بعد إلتجائه إلى العنف، فدك القاهرة بالمدافع من كل جانب، وشدّد الضرب على حي بولاق حيث تركزت الثورة فاندلعت ألسنة النيران في كل مكان منه، والتهمت الحرائق عدداً كبيراً من الوكائل والخانات، فلم يجد سكان بولاق مفرّاً من التسليم، وتلاههم سكان الأحياء الأخرى، وتولى مشايخ الأزهر الوساطة وأخذوا من كليبير العفو الشامل والأمان، ولكنه مالبت أن غدر بالمسلمين بعد أن خمدت الثورة، وكان اقتصاصه منهم رهيباً شديداً فأعدم بعضهم وفرض غرامات فادحة على كثير من العلماء والأعيان، كما فرض المغارم على أهل القاهرة جميعاً، ولم يستثنى منهم الطبقات الشعبية الكادحة⁽²⁾، وعهد كليبير إلى المعلم "يعقوب" أن يفعل بالمسلمين مايشاء، ومما يذكر أن بطريك الأقباط لم يقر يعقوب على تصرفاته، وكثير

(1) انظر: العالم العربي في التاريخ الحديث، ص214.

(2) انظر: العالم العربي في التاريخ الحديث، ص215، 214.

مابذل له النصح بالعدول عن خطته، ولكن يعقوب كان يغلظ له القول وكان يدخل الكنيسة راكباً جواده ورافعاً سلاحه، ولم يزد إلا إمعاناً في تأييد الفرنسيين (1).

ولم يمض على إخماد ثورة القاهرة إلا شهرين حتى أغتيل كليبر في 24 يوليو 1800م بطعنة قاتلة من أحد طلبة الأزهر الشاميين، وهو سليمان الحلبي، ومن المعتقد أن السلطات العثمانية كانت لها يد في مصرع كليبر وفي 17 يونيو أحتفل الجيش الفرنسي احتفالاً رهيباً بتشييع رفات كليبر ، وبعد دفن الجثة أعدم سليمان الحلبي وآلت القيادة العامة للحملة الى الجنرال مينو باعتباره أكبر ضباط الحملة سناً (2) وكان هذا القائد من أنصار البقاء في مصر وخط سياسته استهدفت توطين الفرنسيين فيها إلا أن الضغوطات الداخلية والخارجية أضطرتته الى مغادرة مصر بعد الهجوم المشترك الذي قام به الانجليز والعثمانيون على الفرنسيين في مصر. لقد تضافرت عوامل عدة أرغمت المحتلين الفرنسيين على الخروج من مصر في النهاية، منها تحطيم أسطولهم في معركة ابي القير البحرية، وسيطرة الانجليز البحرية في البحر المتوسط، وتشديدهم الحصار على الشواطئ المصرية، مما أعجز الحكومة الفرنسية عن إرسال النجذات والإمدادات الى فرنسا في مصر، وانضمام الدولة العثمانية الى أعداء فرنسا، والانقسام الذي حدث في صفوف الحملة وبدأت بوادره منذ بدأ جيش بونابرت زحفه الشاق من الاسكندرية الى القاهرة، ثم استفحل أمره بعد رحيل بونابرت وخصوصاً عقب مصرع كليبر وإبان قيادة مينو للحملة، وجهاد الشعب المصري المسلم ضد الاحتلال الفرنسي الصليبي، ذلك الجهاد الذي تمثل في ثورتي القاهرة الاولى والثانية، وفي العمليات الجهادية التي اشتعلت في الدلتا ، وفي المقاومة التي اشتدت في الصعيد. ودون أدنى شك كان لجهاد مسلمي مصر للحكم الفرنسي بالغ الأثر في زعزعة أركانه، وفي عجز الفرنسيين عن بلوغ غايتهم وتنفيذ أهدافهم وانهييار آمالهم في تشييد تلك المستعمرة الجميلة التي كانوا يحلمون

(1) انظر: الدولة العثمانية، د.جمال عبدالهادي ، ص89.

(2) انظر: عجائب الآثار (30/3).

بإتخاذها نواة لامبراطوريتهم الاستعمارية الجديدة في مصر (1).

سابعاً: آثار الحملة الفرنسية على الأمة الإسلامية:

لقد كان لهذه الحملة آثاراً بالغة وسبباً من أسباب هزيمة الأمة الداخلية ولقد صور هذه الآثار على الأمة الاستاذ محمد قطب فقال: (ثم كانت الهزيمة الحربية التي وقعت بالمماليك على يد نابليون في إمبابة إيداناً بالهزيمة الداخلية؛ هزيمة العقيدة في داخل النفوس. لقد روع المسلمون بمدافع نابليون وبدت لهم سيوف المماليك هذراً فارغاً إزاء تلك المدافع الجديدة التي لم يكونوا يعرفونها أو يتصورون وجودها، في يد الاعداء. وانقلب ميزان القوى انقلاباً عنيفاً في نفوسهم فتلك هي المرة الأولى التي تنهزم فيها جيوش المسلمين عن جداره، وتتغلب جيوش الصليبيين لأنها تملك قوة حقيقية من العتاد والفن الحربي والمعرفة لايملكها المسلمون ولقد كان ممكناً مع ذلك كله ألا يتغير الميزان في داخل النفوس، كان ممكناً أن تصمد النفوس للهزيمة ريثما تتجمع للانقضاض من جديد كما حدث مرات كثيرة من قبل، ولكن الرصيد الداخلي للعقيدة في تلك الفترة لم يكن من القوة بحيث يصمد للصدمة ويتجمع من جديد. حقاً لقد قام الشعب بمقاومة باسلة للحملة الفرنسية، وثارَت القاهرة بزعامة العلماء وتأثيرهم الروحي وحدثت بطولات عجيبة. حقاً لقد حدث كل ذلك، ولكنه كان أشبه بالأعمال الفردية الفدائية، أما الكيان الحقيقي للدولة المسلمة المقاتلة التي تنظم القتال وتجيئ الجيوش وتقف للغزاة بوصفها (دولة الاسلام)، أما ذلك كله فكان قد ذاب في معركة إمبابة ولم يعد له وجود.

وأحس المسلمون بالهزيمة الحقيقية هي هزيمة الحرب، فقد وضع نابليون في فترة إقامته في مصر قانوناً جديداً يحكم به المسلمون غير شريعة الله، قانوناً مستمداً من التشريع الفرنسي، وحصر تشريع الله في أمور الأحوال الشخصية - من زواج وطلاق وميراث، وكانت تلك هي المرة الأولى في تاريخ المسلمين المرة الأولى التي يحكمهم فيها قانون غير قانون الله، يضعه وينفذه قوم

(1) انظر: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر، ص 188.

غير مسلمين ، لقد كان الصليبيون يدخلون الأراضي الاسلامية أحياناً، ويبقون في بعض الأحيان سنوات، بل وصل بهم الأمر قبل قبيل صلاح الدين أن يقيموا لهم دويلات على شاطئ البحر الأبيض في بلاد الشام، ولكنهم لم يجروا قط في أية مرة أن يضعوا قانوناً من عندهم يحكمون به المسلمين؛ فقد كانوا في كل مرة غزاة انتهبوا قطعة من الأرض ولم يكونوا قط دولة حاكمة مسيطرة في الأرض، وفي هذه المرة كانوا لأول مرة -دولة حاكمة في ارض الاسلام بعد أن أطاحوا بالدولة المسلمة وذوّبوها في ميدان القتال.

وكان هذا بدء الهزيمة الحقيقية؛ هزيمة العقيدة، وبدء انحسارها في عالم الواقع، وانحسارها -من ثم- في داخل النفوس، وفي ظل هذه الهزيمة وتلك كان الانبهار الذي أحدثته الحملة الفرنسية في نفوس المصريين؛ انبهار بقوة السلاح أولاً، وانبهار بالعلم الغربي الذي حمله رجال البعثة المرافقة للحملة، وانبهار بالمطبعة التي جاء بها نابليون الى مصر، وانبهار بالتنظيمات التي أحدثها، وفي كلمة واحدة انبهار بكل ماجاء من الغرب وكل ماليس بإسلام.

وكانت هذه هي الهزيمة الحقيقية الكاملة التي مهدت لكل ما أحدثته الاستعمار الصليبي بعد ذلك من تدمير مخرب في حياة المسلمين وعقيدتهم وأفكارهم ومشاعرهم وسلوكهم في واقع الحياة، لذلك لم يكن طرد الفرنسيين من مصر أو انسحابهم حدثاً حقيقياً في عالم الواقع بعد هذه الهزيمة الداخلية التي خلفتها الحملة في نفوس المسلمين(1).

لقد كانت للحملة الفرنسية أثر بالغ في مصر خصوصاً والشرق عموماً وستعرف ذلك في المباحث القادمة بإذن الله تعالى وكيف أستطاعت المحافل الماسونية اليهودية الفرنسية أن تشق طريقها لطعن الاسلام بخنجرها المسموم، لقد استطاع الفرنسيون أن يزرعوا أفكارهم ويجدوا لهم عملاء في المنطقة ، واستفادوا بعد خروجهم العسكري من الدور الخطير الذي قام به محمد علي باشا حاكم مصر فيما بعد. لقد كانت الحملة الفرنسية على مصر وخروجها وظهور شخصية

(1) انظر: هل نحن مسلمون ، ص 115-118.

محمد علي باشا في زمن السلطان سليم الثالث الذي تم عزله بسبب أنه أدخل أساليب الفرنجة وعوائدهم الى الجيش ولم يقف عند الاستفادة بالتقنية الحديثة، مما يشكل خطراً على عقائد الامة، وهذا ماورد في نص الفتوى التي أصدرها المفتي: (كل سلطان يدخل نظمات الإفرنج وعوائدهم ويجبر الرعية على اتباعها لا يكون صالحاً للملك) لكن يظل الأمر محاط بالغموض، بل إن دراسة تاريخ السلطان سليم الثالث تظهر لنا إنه كان حريصاً على إحياء فريضة الجهاد كما كانت على عهد أجداده وآبائه، فهل هذا هو السبب وراء المؤامرة التي أطاحت به في جمادى الأولى عام 1223هـ/28 يونيو 1808م(1).

المبحث الثامن

السلطان محمود الثاني

(1223-1255هـ/1808-1839م)

تولى الحكم وعمره أربع وعشرون سنة، استفاد من إقامته الجبرية مع سليم الثالث حيث أطلعه

(1) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال عبدالهادي، ص91.

الأخير على خطط الإصلاح. إلا أن السلطان الجديد أرغم في البداية على الانحناء أمام رغبات الانكشارية، فأمر بإلغاء كل الإصلاحات حتى يرضيهم الى أن تحين الفرصة لتطبيق وتنفيذ خطط الإصلاح. وكان محمود يتذرع بالصبر انتظاراً لساعة الخلاص من الانكشارية الذين هددوا كيان الدولة العثمانية ولكن الفرصة لم تتح له قبل مرور عدة سنوات، خاصة وأن عهده قد أمتلئ بالحروب والتطورات الهامة التي استنزفت معظم جهوده وكافة إمكانياته(1).

أولاً: الحرب مع روسيا:

عقد السلطان محمود الثاني صلحاً مع انجلترا عام 1224هـ/1809م وحاول أيضاً عقد اتفاق مماثل مع روسيا ولكنه فشل، واشتعلت نار الحرب بينهما، وهُزم العثمانيون واستولى الروس على بعض المواقع وعزل الصدر الأعظم ضياء يوسف باشا وتولى مكانه أحمد باشا الذي انتصر على الروس، وأجلاهم عن المواقع التي دخلوها وساءت العلاقات بين فرنسا وروسيا، وكادت تقع الحرب بينهما، فطلبت روسيا الصلح مع الدولة العثمانية، وعقدت بين الطرفين معاهدة بخارست عام 1237هـ/1812م والتي نصت على بقاء الأفلاق والبغدان وبلاد الصرب تابعة للدولة العثمانية. وقد مكن الصلح السلطان محمود من القيام ببعض الإصلاحات والقضاء على الثورات والتمردات في الدولة(2).

ولما علم الصربيون بمعاهدة بخارست، وإعادة خضوعهم للدولة العثمانية، قاموا بالثورة غير أن القوات العثمانية أخضعتهم بالقوة، وفر زعماء الحركة الى النمسا، ولكن أحدهم وهو ثيودور فتش أظهر الولاء للعثمانيين وخضع للسلطة العثمانية وحصل على امتيازات خاصة من الدولة(3).

إلغاء الإنكشارية:

(1) انظر: الدولة العثمانية ، د. اسماعيل ياغي، ص127، 128.

(2) تاريخ الدولة العثمانية، أحمد سرهنك، ص226-228.

(3) انظر: الدولة العثمانية، د. اسماعيل ياغي، ص128.

فسدت طبيعة الإنكشاريين وتغيرت أخلاقهم ، وتبدلت مهمتهم وأصبحوا مصدراً للبلاء للدولة والشعوب التابعة لها، وصاروا يتدخلون في شؤون الدولة وتعلقت إفئدتهم بشهوة السلطة وانغمسوا في الم لذات والمحرمات وشق عليهم أن ينفروا في برودة الشتاء وفرضوا العطايا السلطانية ومالوا الى النهب والسلب حين غزو البلاد وتركوا الغاية التي من أجلها وجدوا وغرقوا في شرب الخمر وأصبحت الهزائم تأتي من قبلهم بسبب تركهم للشريعة والعقيدة والمبادئ وبعدهم عن أسباب النصر الحقيقية، وقاموا بخلع وقتل السلاطين من أمثال عثمان الثاني، واستمر الإنكشاريون في عهد السلطان مراد الرابع سنوات عشر سائرين في طريق الضلال سادرين في غيهم وطغيانهم، فهم الذين نصّبوه فأصبح الأمر والنهي لهم، وهم الذين قاموا بقتل السلطان ابراهيم الأول خنقاً حينما حاول التخلص منهم، وهم الذين أربكوا الدولة إذ وضعوها في حالة من الفوضى بقتلهم السلاطين وتولية أولادهم الصغار السن من بعدهم كالسلطان محمد الرابع، فقام الأفرنج بإحتلال أجزاء من البلاد، فاضطر الصدر الأعظم والعلماء الى عزله. ثم ثارت الانكشارية في عهد السلطان سليم الثاني ودخلت جيوش الاعداء بعضاً من اراضي الدولة واحتلتها. وخلع الانكشارية السلاطين مصطفى الثاني، أحمد الثالث، مصطفى الرابع، الى أن قبيض الله للسلطان محمود الثاني عام 1241هـ للتخلص منهم(1).

فجمع السلطان مجموعة من أعيان الدولة وكبار ضباط الانكشارية في بيت المفتي، وقام الصدر الاعظم سليم أحمد باشا خطيباً فبين الحالة التي وصلت إليها الانكشارية من الضعف والانحطاط وبين ضرورة إدخال النظم العسكرية الحديثة، فأقتنع الحاضرون ثم أفتى المفتي بجواز العمل للقضاء على المتمردين. وقد أعلن الموافقة كل من حضر من ضباط الانكشارية من حيث الظاهر وأبطنوا خلاف ذلك ولما شعروا بقرب ضياع امتيازاتهم وبوضع حداً لتصرفاتهم أخذوا يستعدون للثورة واستجاب لهم بعض العوام. وفي 8 ذي القعدة عام 1241هـ بدأ بعض الانكشاريين

(1) انظر: تاريخ الدولة العثمانية ، د. علي حسون ، ص 107، 108.

بالتحرش بالجنود أثناء أدائهم تدريباتهم ثم بدأوا في عصيانهم فجمع السلطان العلماء وأخبرهم بنية المتمردين فشجعوه على استئصالهم فأصدر الأوامر للمدفعية حتى تستعد لقتالهم ملوحاً باللين والتساهل في الوقت نفسه خوفاً من تزايد لهيب شرورهم. وفي صباح 9 ذي القعدة تقدم السلطان ووراءه جنود المدفعية وتبعهم العلماء والطلبة الى ساحة (آت ميداني) حيث اجتمع العصاة هناك يثيرون الشغب وقيل إن السلطان سار معه شيخ الاسلام قاضي زادة طاهر أفندي والصدر الاعظم سليم باشا أمام الجموع التي كانت تزيد على 60.000 نفس ثم أحاطت المدفعية بالميدان واحتلت المرتفعات ووجهت قذائفها على الانكشارية فحاولوا الهجوم على المدافع ولكنها صبت حممها فوق رؤوسهم فأحتموا بثكناتهم هروباً من الموت، فأحرقت وهدمت فوقهم وكذلك تكايا البكتاشية، وبذلك انتصر عليهم. وفي اليوم التالي صدر مرسوم سلطاني قضى بإلغاء فنتهم وملابسهم واصطلاحاتهم واسمهم من جميع بلاد الدولة وإعدام من بقي منهم هارباً الى الولايات أو نفيه، ثم قلد حسين باشا الذي كانت له اليد الطولى في إبادتهم قائداً عاماً (سرعسكر) وبدأ بعدها نظام الجيش الجديد (1).

ثم أصبح السلطان محمود بعد ذلك حراً في تطوير جيشه، فترسم خطى الحضارة الغربية فأستبدل الطربوش الرومي بالعمامة ، وتزيا بالزي الأوروبي ، وأمر أن يكون هو الزي الرسمي لكل موظفي الدولة العسكريين منهم والمدنيين، وأسس وساماً دعاه وسام الافتخار (2) فكان أول من فعل ذلك من سلاطين آل عثمان (3).

وما قام به السلطان محمود من استبدال العمامة بالطربوش وفرض اللباس الأوروبي على كافة المجموعات العسكرية يدل على شعوره العميق بالهزيمة النفسية وسوف نتعرض لأسبابها إن شاء

(1) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د.علي حسون ،ص169.

(2) انظر: المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسية، عبدالله بن حمد، ص73.

(3) انظر: تاريخ الدولة العثمانية ، د.علي حسون ،ص169.

ثانياً: محمد باشا والي مصر:

كان محمد علي شخصية سيئة السمعة معروفاً بالقسوة وغلظة الكبد ترسله الدولة العثمانية لتأديب القرى التي تتأخر في دفع مايفرض عليها من المال، فيعسكر هو وأفراد حملته التأديبية حول القرية ينهبون ويسلبون ويفزعون الأمنين، حتى يرى أهل القرية أن الأفضل لهم أن يدفعوا الأموال المطلوبة وإن أبهظتهم وكان محباً للعظمة الى حد الجنون(1).

جاء محمد علي الى مصر على رأس فرقة من الروملي لإخراج الفرنسيين منها، واستطاع بمكره ودهاءه أن يكسب ثقة العلماء في مصر وسعى في القضاء على منافسيه على ولاية مصر بطرق ملتوية وماكرة وخبيثة حتى أصبح والياً على مصر ابتداءً من 20 ربيع الأول سنة 1220هـ الموافق 18 يونيو سنة 1805م(2).

وعلى الرغم من أن محمد علي قد ابدى حماساً شديداً لكي يصبح خادماً مطيعاً للسلطان(3)، وأبد في سبيل ذلك كثيراً من عبارات التذلل والخضوع للسلطان ودولته(4)، إلا أن السلطان كان على وشك أن يدرك أبعاد هذه العبارات، مظهراً بذلك تخوفه من هذا الوالي الجديد، فأمر بنقله عن ولاية مصر، إلا أن تدخل العلماء مرة أخرى قد جعل السلطان يصدر فرماناً آخر بتثبيتته على ولاية مصر في 24 شعبان سنة 1221هـ/ 6 نوفمبر 1806م(5).

ومن هنا بدأ محمد علي في تدعيم مركزه الشخصي وتثبيت الولاية في شخصه، وبالتالي في

(1) انظر: واقعا المعاصر لمحمد قطب، ص205.

(2) انظر: حروب محمد علي في الشام، د. عايض الروقي، ص32.

(3) انظر: قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا التوسعية، د. سليمان الغنام، ص17.

(4) وثيقة تركية رقم 1/50-248 في ربيع الأول 1230هـ، الرياض .

(5) انظر : تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص391.

سلالته وهناك اسئلة كثيرة تحتاج الى اجابة منها ما حقيقة الدور الذي قام به محمد علي من أجل المصالح الفرنسية والبريطانية؟ ومن الذي كان خلف القضاء على الدولة السعودية الأولى وعلى ضم الشام الى مصر؟ هذه أسئلة نحاول حلها من خلال الدراسة التاريخية الواعية.

ثالثاً: المؤرخ عبدالرحمن الجبرتي يصف محمد علي:

وصف المؤرخ الجبرتي محمد علي بأنه مخادع وكذاب يحلف الأيمان الكاذبة، ظالم لاعد له ولا ذمة يضمن السوء واستخدم العسف والجور في نفس الوقت الذي يعد فيه بالعدل، لا يخفف من عسفه وظلمه واستبداده استجداء شيخ(1). ولقد دعت هذه الصفات البعض بأن يصور محمد علي بأنه ميكافلي ، أو أنه تعلم على فكر ميكافلي (صاحب نظرية الغاية تبرر الوسيلة) ، ف قيل له - اي محمد علي- : مرة أن ميكافلي ألف كتاباً اسمه الامير، فكلف أحد النصارى المحيطين به، وقد أعتاد أن يكون أغلب مرافقيه من النصارى واليهود، واسمه أرئين بترجمة هذا الكتاب وأن يوافيه كل يوم بصفحة مترجمة، فلما وصل الى الصفحة العاشرة توقف عن المواصلة قائلاً بأنه يمتلك من الحيل مالم يخطر لمكيافلي على بال(2).

ولقد علق بعض الكتاب على ذلك بأن هذه الصفات التي رشحت محمد علي لأن يصبح والياً على مصر(3) وتلك الصفة القذرة من حب الزعامة والى حد الجنون، وقسوة القلب، والنظر الى الذات وعدم المبالاة بالاسلام هي التي تبحت عنها المحافل الماسونية لصناعة الأبطال الذين يدمرون والاسلام ودولة الخلافة من داخلها.

رابعاً: محمد علي والماسونية:

لم يكن من السهل على شاب قليل الخبرة وقليل المعرفة بمصر وطبيعتها أن يصل الى ما

(1) انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ، ص159.

(2) انظر: مصر في مطلع القرن التاسع عشر، د.محمد فؤاد شكري (857/2).

(3) انظر: قراءة جديدة في التاريخ العثماني ، ص160.

وصل إليه محمد علي مهما كانت قدرته أو ذكاؤه إلا إذا كان يستند إلى قوة تخطط له وتعينه على تحقيق أهدافه وتسخره في نفس الوقت لتحقيق أهدافها ، وبخاصة أنه كما ذكر عن نفسه (لا يصلح للولاية وليس من الوزراء ولا من الأمراء ولا من أكابر الدولة)⁽¹⁾ وهذه الصفات حقيقية له مهما كان غرضه من قولها، ولهذا نجد أنفسنا أمام العديد من التساؤلات، لماذا ثارت الفرقة الألبانية بالذات التي يحتل فيها هو الرجل الثاني دون بقية الفرق العثمانية وأبعدت "خسرو باشا" عن الولاية تحت دعوى تأخر رواتبهم؟ ولماذا أندفع العلماء لتعيين قائد القوة الألبانية الثائرة طاهر باشا قائماً نيوب عن الوالي المطرود ثم يقتل بعد عشرين يوماً؟ ولماذا يطرد الوالي الجديد أحمد باشا بعد توليه بيوم واحد فقط؟ ولماذا يساعد محمد علي خورشيد باشا في تولي الولاية ثم ينقلب عليه؟ وكيف استطاع محمد علي أن يفي برواتب الجند وبخاصة بعد استيلاء المماليك في الصعيد على مخصصات الأهالي هناك؟ ولماذا ولماذا؟ جوانب كثيرة يكتنفها الغموض!!!

وتشير كثير من الأدلة إلى أن هذه القوة -التي لم تكن ظاهرة- هي الحركة الماسونية التي انبثقت في مصر سنة 1798م علي يد رجال الحملة الفرنسية حيث مهد لها نابليون، ثم أسس خلفه كليبر ومعه مجموعة من ضباط الجيش الفرنسيين الماسونيين محفلاً في القاهرة سمي محفل إيزيسي، وأوجدوا له طريقة خاصة به هي الطريقة الممفيسية أو الطريقة الشرقية القديمة⁽²⁾. وقد تمكن هذا المحفل من أن يضم إليه بعض الأعضاء من المصريين وإن كانوا قلة، ثم أنحل هذا المحفل رسمياً في أعقاب اغتيال كليبر سنة 1800م، وظل أعضاؤه يعملون في الخفاء وبسرية. ويشير المنشور الأول الذي وزعه نابليون على المصريين إلى أنه قد سعى لنشر هذه الأفكار منذ بداية وصول الحملة فيذكر فيه (قولوا لهم - أي المصريين - أن جميع الناس متساوون عند

(1) المصدر السابق نفسه، ص 161.

(2) انظر: نهاية اليهود لمحمد عزت، ص 132.

الله وأن الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط(1) ويبدو تزعم الحملة الفرنسية للفكر الماسوني واضحاً منذ بدايتهم ولقد حاولوا فرض العادات الخبيثة التي استهجنها المسلمون في مصر كالبغاء والسفور وتشجيع النساء من الحرافيش ونساء الهوى على ارتكاب المحرمات بشكل علني واضح، حيث يعد هذا الأمر من بين أساليب انتشار الماسونية(2).

وتوحي بعض الدلائل على أنهم - أي الفرنسيين - قد نجحوا في ضم المصريين من المشايخ والعلماء من بينهم الشيخ حسن العطار الى المحفل الماسوني الذي أسسه كليبر سنة 1800م ، فبعد أن هرب الشيخ حسن العطار الى الصعيد في أعقاب قدوم الحملة كغيره من العلماء ثم عاد الى القاهرة على أثر دعوة الفرنسيين للعلماء اتصل على الفور برجال الحملة ونقل عنهم علومهم، وفي نفس الوقت تولى تعليمهم اللغة العربية(3) وقد اندمج الى حد كبير في علومهم ، وكثيراً ما تغزل في أشعاره بأصدقائه منهم(4). ولقد دعت هذه الأمور أن يوصف العطار بأنه من دعاة التجديد(5). وقد توثقت صلة الشيخ العطار بمحمد علي بعد توليه الولاية وأصبح من الركائز التي يعتمد عليها محمد علي في خطواته التجديدية في مصر وهو أمر يشير الى وجود صلة بين محمد علي والمحفل الماسوني المصري الذي تأسس إبان الحملة الفرنسية(6).

كما أن تطور الأحداث يشير الى تشبع محمد علي بالأفكار الماسونية التي كان مهياً لها بحكم تكوينه الطبيعي فينقل عنه قوله وهو يفاوض الفرنسيين على مسألة احتلال الجزائر : (ثقوا أن قراري ... لا ينبع من عاطفة دينية فأنتم تعرفونني وتعلمون أنني متحرر من هذه الاعتبارات التي

(1) انظر: قراءة جديدة في التاريخ العثماني، ص167.

(2) انظر: عجائب الآثار (161/3).

(3) انظر: الصراع الفكري بين أجيال العصور، ابراهيم العدوي، ص85.

(4) انظر: الجبرتي والفرنسيس ، د.صلاح العقاد، ص316.

(5) انظر: قراءة جديدة في التاريخ العثماني، ص169.

(6) انظر: قراءة جديدة في التاريخ العثماني، ص169.

ينقيد بها قومي ... قد تقولون أن مواطني حمير وثيران وهذه حقيقة أعلمها(1).

وقد شهد عصر محمد علي على تأسيس أكثر من محفل ماسوني في مصر فقد أنشأ الماسون

الإيطاليون محفلاً بالاسكندرية سنة 1830م، على الطريقة الاسكتلندية وغيرها كثير(2).

(إن الماسونية هي القنطرة التي عبرت عن طريقها الصهيونية العالمية، إذا أسسها تسعة من

اليهود بغية الوصول الى تحقيق الحلم الصهيوني المتمثل في انشاء حكومة يهودية عالمية تسيطر

على العالم، فأعدت خططها وبرامجها المحققة لأهدافها وأطلقت على نفسها اسم : (القوة الخفية)

واتخذت في ذلك السرية والعهود والمواثيق التي كانت تأخذها على العضو المنضم إليها وسيلة

ضغط عليه بحيث يصبح آلة توجهه كما تريد. وقد استشرى فساد الماسونية في المجتمعات الغربية

واستطاعت أن تجذب الكثيرين من الأعضاء عن طريق شعارها الظاهري: (الحرية ، الإخاء،

المساواة)(3) (الماسونيون هم أيدي اليهود التنفيذية لمخططات البطش ومؤامرات الاضطهاد

والإعدام والسحق السارية المفعول على جميع شعوب العالم)(4).

(الماسونية آلة صيد بيد اليهود، يصرعون بها كبار الساسة، ويخدعون الأمم الغافلة والشعوب

الجاهلة. الماسونية خطر كامن وراء الرموز والألفاظ والطلاسم، وخنجر غمده اليهود في قلب

الشعوب، وأقاموا لها عدواً من داخلها وعله من وسطها. الماسونية عقرب لدغ الشعوب قروناً،

متجلباً رداء الحرية والمساواة والإخاء)(5).

(فالماسونية ماهي إلا يهودية الأصل والمنبت ومادامت كذلك فهي تجيد المكر والخداع، وتتقن

أساليب التشكيك في العقائد، والنيل من الأنبياء والرسل عليهم السلام، وتشيع الإلحاد والكفر في

(1) المصدر السابق نفسه، ص170.

(2) المصدر السابق نفسه، ص170.

(3) انظر: الماسونية وموقف الاسلام منها، د. حمود الرجيلي، ص4،3.

(4) انظر: اليهود الماسونية، عبدالرحمن الدوسري، ص42.

(5) انظر : حقيقة الماسونية لمحمد علي الزعبي، ص70.

ربوع الأرض، وتدعو الى الإباحية والفساد والرجس، واليهود تاريخهم معروف في تحريف الكتب السماوية، وقتل الأنبياء، وإطفاء كل باقة من نور، إنهم أتباع الشيفات، وعبدة الذهب وأصحاب الاحتكار وجمع الأموال وغير ذلك من الرذائل التي اتصفوا بها. ولم يعد اليوم خافياً على أحد أن الماسونية منظمة يهودية يُراد منها تخريب العالم اجتماعياً، وأخلاقياً، ودينياً... وتمتد أذرعها المسمومة الى كل المبادئ والقيم بغية تدميرها والقضاء عليها(1).

لقد انتشرت المحافل الماسونية في مصر والشام وتركيا وكانت تعمل ليلاً ونهاراً من أجل تفتيت وإضعاف الدولة العثمانية بمعاولها الفاسدة التي لا تكل ولا تمل ولقد استطاعت المحافل الماسونية الفرنسية في مصر أن تجعل فرنسا تحتضن محمد علي يقول الاستاذ محمد قطب: (واحتضنته احتضاناً كاملاً لينفذ لها كل مخططاتها: ؛ فأنشأت له جيشاً مدرباً على أحدث الأساليب ومجهزاً بأحدث الأسلحة المتاحة يومئذ بإشراف سليمان باش الفرنسي(2)).

لقد كانت المصالح الفرنسية ترى دعم محمد علي ليتحقق لها أطماعه المستقبلية في حفظ وتقوية محافلها الماسونية ، وإضعاف الدولة العلية العثمانية، وزرع خنجرها المسموم في قلب الدولة العثمانية ولذلك أنشأت لمحمد علي اسطولاً بحرياً متقدماً متطوراً، وترسانة بحرية في دمياط، والقناطر الخيرية لتنظيم عملية الري في مصر، أو لمحمد علي، إنما كان لتنفيذ المخطط الصليبي الذي فشلت الحملة الفرنسية عن تنفيذه بسبب اضطرارها الى الخروج.

لقد قام محمد علي بدور مشبوه في نقل مصر من انتمائها الاسلامي الشامل الى شيء آخر يؤدي بها في النهاية الى الخروج عن شريعة الله وكانت تجربة محمد علي قدوة لمن بعده من أمثال مصطفى كمال أتاتورك وجمال عبدالناصر... الخ.

إن المسلم الحق لا يمكن أن يقوم بمثل هذا الدور لا واعياً ولا مستغفلاً ، لأن إسلامه يمنعه أن

(1) انظر: الماسونية وموقف الاسلام منها، د.حمود الرحيلي، ص18.

(2) انظر: واقعنا المعاصر، ص205.

لقد كان أعداء الاسلام يريدون القضاء على الدولة العثمانية، والقيام بتغريب العالم الاسلامي مع الاهتمام الخاص ببلد الأزهر ليقوم بتصدير أفكارهم الى بقية الشعوب الاسلامية، فأما القضاء على الدولة العثمانية فقد ساهم في إضعافها وإهدار طاقاتها، واسقاط هيبتها وتعدي على حرمانها وأما التقارب مع الأعداء والسير في فلكهم الفكري والحضاري والإنسلاخ التدريجي عن الانتماء العقدي والفكري والأخلاقي فقط قطع فيه شوطاً مدحه عليه حلفائه من الماسون الفرنسيين والبريطانيين وانهم أمام الغزو الفكري المنظم وقام بتنفيذ سياسة الابتعاث بإرسال الطلاب الشبان الى أوروبا ليتعلموا هناك، وكان هذا من الأمور الخطيرة المنافذ التي دخل التوجه العلماني من خلالها، فدخل ساحة التلعيمة ومن ثم في ساحة الحياة في مصر الاسلامية وأهمل الأزهر وشيوخه وعلمائه واهتم بإرسال الشبان الصغار بأعداد متزايدة الى أوروبا وهم في سن المراهقة، غير محصنين بشيء لينغمسوا في الشهوات، ويتأثروا بالشبهات ثم يرجعوا الى بلادهم ليكونوا رأس الحربة المتجهة الى الغرب، لقد أرس معهم مع البعثات أئمة يؤموا الطلاب في الصلاة ولكن ماذا عملوا الأئمة؟ لقد كان رفاة رافع الطهطاوي واحداً من أولئك الأئمة ولكنه عاد وهو واحد من دعاة التغريب ، وعندما استقبله أهله بالفرح يوم عاد من فرنسا بعد غيبة سنين؛ فأشاح عليهم في ازدياد ووسمهم بأنهم (فلاحون) لا يستحقون شرف استقباله(1).

ثم ألف كتابه الذي تحدث فيه عن أخبار (باريس) ودعا فيه الى تحرير المرأة الى السفور، والى الاختلاط ، وأزال عن الرقص المختلط وصمة الدنس، فقال إنه حركات رياضية موقعة على أنغام الموسيقى، فلا ينبغي النظر إليه على أنه عمل مذموم(2).

لقد استغرقت عملية الانتقال التدريجي ما يقرب من قرن من الزمان، ولكنها كات عملية مستمرة

(1) انظر: واقعنا المعاصر، ص 209.

(2) انظر: واقعنا المعاصر ، ص 209.

لا تتوقف ، بل تتوسع على الدوام (1).

لقد كان محمد علي ثعلباً ماكراً همه نفسه وأولاده من بعده ولذلك قام بأعمال شنيعة، وأفعال قبيحة في إضعاف الأمة، والقضاء على شوكتها وتنفيذ مخططات فرنسا وبريطانيا وحرص على أن يجمل صورته في أعين الغرب ويقفوا آثارهم في التحديث بل ويفكر كما قال عن نفسه (بعقل افرنجي وهو يلبس القبعة العثمانية)(2).

لقد قام محمد علي نيابة عن فرنسا وبريطانيا وروسيا والنمسا وغيرها من الدول الأوروبية بتوجيه ضربات موجعة للاتجاه الاسلامي في كل من مصر، والجزيرة العربية، والشام ، والخلافة العثمانية مما كان لها الأثر في تهيئة العالم الاسلامي للأطماع الغربية.

خامساً : محمد علي وضربه للاسلام في مصر:

بعد أن نجح محمد علي في توطيد نفسه في الحكم وأحاط نفسه ببطانة ومساعدين من نصارى الأروم والأرمن وكتبة من الأقباط واليهود، واستجلب لنفسه مماليك جعلهم حكاماً للأقاليم، وكان في كل ذلك مستتفراً لجموع المسلمين المصريين ومعبراً عن عدم الاهتمام أو الاكتراث بهم وبخاصة أن هؤلاء المساعدين قد أعانوه على سياسته الاستبدادية بين الفلاحين وصف الجبرتي ذلك بقوله: (فتح بابه للنصارى من الأروام والأرمن فترأسوا بذلك وعلت أسافلهم، كما أنه كان يحب السيطرة والتسلط ولا يأنس لمن يعارضه)(3).

وسلك محمد علي واتباعه من غير المسلمين سياسة من أبرز علاماتها الظلم والقهر والاستعباد ضد جموع الشعب المصري ، فجمع حجج الأرض من الفلاحين وفرض عليهم السخرة، أو دفع ضريبة بديلة وحرم عليهم أن يأكلوا شيئاً من كد أيديهم، وأبطل التجارة، وزاد في اسعار المعاش

(1) المصدر السابق نفسه، ص210.

(2) تجربة محمد علي الكبير، منير شفيق، ص38.

(3) عجائب الآثار (150/4).

أضعافاً مضاعفة، وفرض الضرائب التي لا يطيقون دفعها، وجعل كل نشاط اقتصادي يؤول إليه، ونقم على الناس (1)، وارجع الجبرتي ذلك الى ما يتسم به محمد علي من "داء الحسد والشره والطمع والتطلع لما في أيدي الناس وأرزاقهم" (2). وقد نتج عن هذه السياسة كره الفلاحين الشديد لمحمد علي وأعوانه، وهروبهم من الأراضي الزراعية، وترك قراهم فراراً من السياسة الظالمة، وأعرضوا عن الاشتراك في جيشه فقد بلغ عدد الفلاحين الفارين في عام واحد هو عام 1831م ستة آلاف فلاح (3).

أما في المدن وبخاصة في القاهرة فيذكر الجبرتي أن محمد علي حين كلف الناس بتعميرها (اجتمع على الناس عشرة أشياء من الرذائل وهي السخرة والعونة وأجرة الفعلة والذل والمهانة وتقطيع الثياب ودفع الدراهم وشماتة الاعداء وتعطيل معاشهم وأجرة الحمام) (4).

لقد كان الجبرتي معاصراً لسياسة الظلم التي مارسها محمد علي على الشعب المسلم في مصر الذي امتص حقوقه وخيراتاه وفتح للتجار الأوروبيين الباب على مصراعيه لدخول مصر والهيمنة على اقتصادها، وأصبحت مصر هي المزرعة التي تعتمد عليها أسواق أوروبا من المنتجات الزراعية وارتبطت مصر بأوروبا ارتباطاً حضارياً وتجارياً، وأصبح اعتماد طبقة التجار الناشئة في مصر على الاسواق الأوروبية من الناحية الاقتصادية وبالتالي السياسية ، الى جانب تمكين دعاة الثقافة الأوروبية من السيطرة على الحياة الفكرية بعد أن شل دعاة الاتجاه الاسلامي (5)، وأوقف مناهج التعليم القائمة على الدين تنفيذاً لسياسة نابليون الماسونية، وهو أمر أكده المؤرخ الانجليزي أرنولد تويني في قوله : (كان محمد علي ديكتاتوراً أمكنه تحويل الآراء النابليونية الى حقائق فعالة

(1) انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ، ص 179.

(2) عجائب الآثار (150/4).

(3) انظر: تاريخ الشرق العربي، د. عمر عبدالعزيز، ص 346.

(4) انظر: قراءة جديدة في التاريخ العثماني ، ص 180.

(5) انظر: تاريخ الشرق العربي، د. عمر عبدالعزيز، ص 322، 323 نقلاً عن قراءة جديدة.

في مصر(1).

لقد حقق الاستعمار الأوروبي هدفه في الاستفادة من المنشآت والاصلاحات المادية التي قام بها دميته محمد علي، أما شعب مصر المسلم فقد سيطر عليه اليأس ودفع ثمناً باهظاً يفوق حجم كل اصلاح وهو تحطيم هويته الحضارية التي صقلها الاسلام والتي ميزت دروه خلال العصور الاسلامية(2).

وفتح باب الدعوة الى الوطنية والقومية ومارس سياسة التضيق على دعاة الفكر الاسلامي من العلماء والمشايخ فكان هذا الاتجاه مسائراً لمساغيه الرامية الى الاستقلال بمصر وبالتالي إبعاده عن الارتباط بدولة الخلافة الاسلامية(3)، وقد لقي في اتجاهه هذا عوناً من المحافل الماسونية التي يعتبر هذا الاتجاه من صلب أهدافها.

ومن أبرز الذين عاونوه في هذا الاتجاه الشيخ حسن العطار سنة 776هـ/1835م الذي تشير الدلائل على انضمامه للمحفل الماسوني المصري، فقد كان العطار يري أن البلاد (لا بد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من المعارف مالميس فيه)، وكانت وجهته في هذا التغيير هو الاتجاه الكامل الى الثقافة الأوروبية بعد ان عجز - في رأيه- المشايخ والعلماء عن مواصلة جهود المسلمين الأوائل(4).

وتبع العطار في اتجاه تلميذه رفاة الطهطاوي (1801-1873م) حيث ابتعثه محمد علي الى فرنسا خمس سنوات (1826-1831م) عاد بعدها لنشر ما يزكي الفكرة الوطنية وغيرها من الافكار الاجتماعية التي عايشتها فرنسا والتي لم تكن تتلاءم مع أوضاع المجتمع المرتبط بالفكر

(1) انظر: أرنولد تويني عبدالرحمن الجبروتي وعصره، ص14.

(2) انظر: قراءة جديدة في التاريخ العثماني، ص182.

(3) انظر: مصر في مطلع القرن التاسع عشر، محمد فؤاد (1232/3).

(4) انظر: التيارات السياسية بين المجددين والمحافظين، بيومي، ص2.

الاسلامي، وقد بدت هذه الافكار في العديد من القصائد التي نظمها وكذلك الكتب التي ترجمها بعد توليه الاشراف على مدرسة الألسن⁽¹⁾، لقد تاثر الطهطاوي بتيارات الفكر الأوروبي من أقصى اليمين الى أقصى اليسار بشكل فاق تأثره بالفكر الاسلامي، حيث أبدى في عديد من جوانب فكره، وفي كافة مراحل حياته، إعجابه بأفكار الحرية والمساواة وضرورة الاعتماد على العقل ، لقد تبني ما دعا إليه نابليون إبان حملته الشهيرة، ولقد أظهر طهطاوي تأثراً وإعجاباً بآراء مونتسكيو، وتشبعه بالفكر الماسوني.

وتبع الطهطاوي كثيرون ممن وصلوا الدعوة الى الوطنية والى ضرورة الاتجاه الكامل الى الحضارة الغربية من امثال (علي مبارك) و(ابراهيم أدهم) و(صالح مجدي) و(محمد عثمان جلال) و(عبدالله أبو السعود) و(عبدالله فكري) وغيرهم ، وواصل الجميع هجومهم على التيار الاسلامي من كافة الجوانب⁽²⁾.

سادساً: حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وصراعها مع الدولة العثمانية:

M:

ولد الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن راشد التميمي سنة 1115هـ/1703م في بلدة العيننة الواقعة شمال الرياض بينها وبين الرياض مسيرة سبعين كيلومتراً، أو مايقارب ذلك من جهة الغرب⁽³⁾.

ونشأ على حب العلم، فطلبه منذ صغره وظهر منه نبوغاً وتميزاً، فحفظ القرآن الكريم ودرس الفقه الحنبلي والتفسير والحديث، وتلمذ على كتب ابن تيمية في الفقه والعقائد والرأي وأعجب بها

(1) انظر: التيارات السياسية بين المجددين والمحافظين ، ص23.

(2) انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، ص184.

(3) انظر: امام التوحيد محمد عبد الوهاب، احمد القطان ، ص35.

أيما إعجاب وتأثر بكتب ابن القيم ، وابن عروة الحنبلي وغيرهم من فحول هذا المنهل السلفي (1).
ورحل في طلب العلم الى مكة، والمدينة، والبصرة، والأحساء. وتعرض لفتن عديدة عندما جاهر
بآرائه في العراق ثم رجع بعد ذلك الى نجد.

وعندما رجع الى حريملاء ببلاد نجد بدأ دعوته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاشتغال
بالعلم والتعليم، والدعوة الى عقيدة التوحيد الصافية، وحذر من الشرك ومخاطره وأنواعه وأشكاله
وتعرض لمحاولة اغتيال من بعض السفهاء في حريملاء وانتقل بعد ذلك الى بلدته العيينة وتلقاه
أميرها بالترحيب وشجعه على أمر الدعوة، فأقام الشرع ونفذ الحدود، وهدم القباب، ولم يستمر في
حريملاء طويلاً بسبب ضغط أمير الاحساء على أمير حريملاء لقتل الشيخ محمد بن عبدالوهاب
، فخرج ماشياً على الأقدام الى الدرعية.

تحالفه مع محمد بن سعود:

استطاع محمد بن عبدالوهاب أن يتحالف مع الأمير محمد بن سعود الذي قام بماله ورجاله من
أجل دعوة التوحيد وكان هذا التحالف على اسس متينة واستطاع الشيخ أن يواصل دعوته للناس
بالتعليم والرسائل والوعظ واستمر على هذا الحال يعلم الناس ويكتب الرسائل ويدبجها بالحجج
والبراهين والأدلة على صحة دعواه، يدعو الى إزالة المنكر وهدم قباب القبور ، وسد ذرائع الشرك،
وتحقيق العبودية لله وحده (2) وظلت الدعوة مسالمة متأنية تطرق القلوب برفق وأناه، وتدعوا الى
الله بالحكمة والموعظة الحسنة، واستمر يعلم من يحضر دروسه ويوضح عقيدته، ويشرح مبادئ
دعوته للقاصي والداني ، ولكنه رأى أن اللين يقابل بالشدة، وأن الصدق يقابل بالكذب، والموعظة
الحسنة يرد عليها بالمؤامرات فلم يكن بد من دخول مرحلة الجهاد وتغيير المنكر بالقوة.

إذا لم يكن إلا الأسنه مركباً

(1) المصدر السابق نفسه، ص36.

(2) انظر: امام التوحيد الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ص46، 45.

فما حيلة المضطر إلا ركوبها(1)

وبدأ الشيخ يعاونه الأمير محمد بن سعود بإعداد العدة من الرجال والسلاح للخروج بجموع المجاهدين من الدرعية الى خارج حدودها لنشر الدعوة وتثبيت أركانها في الجزيرة وخارجها، وكان الشيخ يشرف بنفسه على إعداد الرجال، وتجهيز الجيوش وبعث السرايا، ويستمر مع ذلك على الدرس والتدريس، ومكاتبة الناس، واستقبال الضيوف، وتوديع الوفود فقد جمع الله له العلم والجاه، والعزة والتمكين بعد جهاد طويل(2) وقد كان له نظر سياسي ثاقب، وخبرة واسعة في أمور الحرب والسياسة(3).

واستمرت الحروب بين أنصار الدعوة وأعدائها سنين عديدة، وكان النصر حليف أصحاب الدعوة في أغلب المواقع وكانت القرى تسقط واحدة تلو الاخرى وفي عام 1178هـ/1773م فتحت الرياض بقيادة الامير عبدالعزيز ابن محمد بن سعود ، وفر منها حاكمها السابق دهام بن دواس، وكان حاكماً ظالماً غشوماً، اعتدى على الدعاة مراراً، ونقض العهود التي أبرمها مع القائمين على الدعوة وبعد فتح الرياض اتسعت رقعة الأرض التي تخضع للدعوة ، ودخل كثير من الناس في الدعوة مختارين، فقد أزيلت العوائق التي كانت تصدهم عنها، وانفرجت الامور بعد ضيق، وجاء اليسر بعد العسر، وكثرت الأموال، وهذأت الأحوال، وأمن الناس في ظل الدولة الاسلامية الفتية، التي حرم الناس من نعمة الأمن مدة غيابها(4).

وبعد وفاة الشيخ محمد عبدالوهاب واصلت الدعوة مسيرها وساندها آل سعود بقوة السلطان وتحولوا إلى الحجاز، التي كان يسيطر عليها الشريف غالب بن مساعد والذي شرع في شن

(1) انظر: استمرارية الدعوة، محمد السيد الوكيل (293/3).

(2) انظر: امام التوحيد محمد بن عبدالوهاب، ص53.

(3) المصدر السابق نفسه، ص78.

(4) انظر: استمرارية الدعوة ، د. محمد الوكيل (294/3).

هجمات على السعوديين، دينياً وعسكرياً. ودام الصراع بينهما حتى عام 1803م حين دخل السعوديون مكة من غير أن يتعرضوا لأية مقاومة من جانب الشريف غالب، الذي آثر الهروب إلى جدة وبعد عامين ضم السعوديون المدينة المنورة(1).

وامتد نفوذ الحركة السلفية على معظم الجزيرة العربية وشعرت بريطانيا بخطورة هذا النفوذ على مصالحها. لقد أصبحت الدولة السعودية الأولى يمتد نفوذها على الخليج العربي والبحر الأحمر، ودخل القواسم في الخليج العربي تحت نفوذها ووصل نفوذها إلى جنوب العراق وأصبحت تأثر على الطريق البري بين أوروبا والشرق، وفوق هذا وذاك فإن الأسس الدينية التي تركز عليها هذه الدولة قد قطع على بريطانيا إمكانية تطويعها أو عقد الاتفاقيات معها حيث كان العداء للنفوذ الأجنبي في المنطقة من أهم أهداف هذه الدولة(2)، لقد استطاع القواسم ومن خلفهم القوة السعودية من توجيه ضربات موجعة لأسطول الأنجليز في عام 1806م وأصبحت مياه الخليج تحت سيطرتهم(3) لقد بلغت الدولة في زمن سعود بن عبدالعزيز الأوج من الناحية السياسية إذ وصلت كربلاء في العراق، وإلى حوران في بلاد الشام، وخضعت لها الجزيرة كاملة باستثناء اليمن(4).

سابعاً: المؤامرة ضد حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب:

فكر شياطين الإنس من أبناء أوروبا في النتائج التي يصلون إليها لو استمرت الدولة السعودية الأولى ورأوا أن ذلك يقضي على مصالحهم في الشرق عموماً ولذلك لابد من تدمير هذه الدولة، فسلخوا مسالك شتى للقضاء على نفوذ الدعوة السلفية منها:

(1) انظر: العالم العربي في التاريخ الحديث، ص17.

(2) انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، ص156.

(3) المصدر السابق نفسه، ص158.

(4) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال، ص94.

أولاً: تأليب الرأي العام داخل ديار الإسلام ضد دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فقام الذين اعتقدوا بالبدع والخرافات على أنها من دين الإسلام بالتصدي لدعوة الشيخ ومقاومتها، وليست هذه المقاومة من جهة واحدة أو من طرف معين بل من كل الجهات ومن كل الأطراف، أتت من قبل المشايخ الذين يتمسكون بالنفوذ الذي يعطيهم إياه العامة وأهل الجهالة، ويبغون المحافظة على ما هم عليه من البدع والخرافات ظانين أنها من الدين، أتت من سدنة القبور، أتت من المستفيدين من صناديق النذور، أتت من الذين يعيشون على الأطفحة والأموال التي تقدم لهم في موالد الأموات والزيارات، وأتت أيضاً من الذين يعتقدون أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد أتى بدين جديد يخالف ما اعتادوا عليه، وأولئك كانوا منتشرين بأنحاء الدولة العثمانية كلها بل وفي العالم الإسلامي أجمع، حدث كل ذلك بعد أن شاع الإنجليز والفرنسيون وأعداء الإسلام الفتاوى التي استصدروها من علماء السوء بفساد ما يدعو إليه اتباع محمد بن عبد الوهاب (1).

ثانياً: الدس والوقيعه بين حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وقيادة الدولة العثمانية لقد ألقى الإنجليز والفرنسيون وغيرهم في روع السلطان محمود الثاني أن حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، تهدف إلى الاستقلال بجزيرة العرب، والانفصال عن الخلافة العثمانية، ثم توحيد العالم العربي، وانتزاع لواء الخلافة والقيادة من الدولة العثمانية، وإقامة خلافة عربية، واستجاب السلطان محمود الثاني لوشايات الأعداء وما كان له أن يفعل ذلك وكان اللائق به أن يشك في هذا النصح الكاذب ويرسل من أمناء الدولة من يتحقق في الأمر ولم ينتبه سلطان المسلمين إلى خطورة تصديق هذا الخبر المدسوس على حركة إسلامية صادقة وتجاوب مع اقتراحات الأعداء بوجوب القضاء عليها قبل أن يستفحل أمرها، وتكلف الدولة الكثير من الأموال والرجال للقضاء عليها (2).

(1) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال عبدالهادي، ص 94.

(2) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال عبدالهادي، ص 95.

وضعت الدولة العثمانية خطتها لمحاربة الدولة السعودية الأولى ورأت أن تلقي عبء هذه المهمة على كاهل الولاة في الأقطاء المجاورة، هادفة بذلك إلى غرضين: الأول القضاء على التوسع السعودي في المشرق العربي، والآخر: إضعاف هؤلاء الولاة واستنزاف مواردهم حتى يظلوا ضعافاً خاضعين للدولة خضوعاً تاماً، فاتجهت أول الأمر إلى والي بغداد، إذ كان أقرب الولاة إلى نجد، إلا أن ذلك الوالي كان مشغولاً بالارتباكات المحلية في ولايته، وكان جيشه من الضعف بحيث لا يقوى على مجابهة السعوديين، وفشل عدة مرات في صد هجماتهم على حدود العراق، فاتجهت الدولة إلى والي الشام لعله ينجح فيما فشل فيه والي والعراق، فكان نصيبه من الفشل أفدح من زميله ولما يئست الدولة من قدرة ولايتها في بغداد والشام⁽¹⁾ ولت وجهها شطر مصر فطلبت من واليها محمد علي عام 1807م أن يقوم بحملة على بلاد العرب "لتصفية الحرمين الشريفين واستخلاصهما" من أيدي السعوديين، واسترداد سلطة الدولة المشرفة على الزوال في جزيرة العرب. ولكن محمد علي لم يلب طلب الدولة إلا في عام 1811م بعد تخلصه من بكوات المماليك في مذبح القلعة⁽²⁾.

إن اتباع الدعوة السلفية لم يطلبوا الخلافة ولم يبدوا اعتراضهم على التبعية لها، ولكن الخلاف قد انحصر في أمرين أساسيين، الأول هو مطالبة السلفيين بضرورة التزام وفود الحجيج بمنهج الإسلام والإقلاع عن كل ما فيه خروج عليه، والأمر الثاني هو شعور الدولة العثمانية بالحرص والضعف أمام سيطرة الوهابيين على المدن المقدسة في الحجاز حيث أدركوا أن في ذلك إسقاطاً لهيبتهم ومكانتهم السياسية⁽³⁾.

وقد بين الجبرتي أن موقف الوهابيين من وفود حجيج الشام "بألا يأتوا إلا على الشرط الذي

(1) انظر: العالم العربي في التاريخ الحديث ، د. اسماعيل ياغي، ص171.

(2) المصدر السابق نفسه، ص172.

(3) انظر: قراءة جديدة في التاريخ العثماني، ص185.

اشترطوه عليهم وهو " أن يأتي بدون المحمل وما يصحبهم من الطبل والزمر والأسلحة وكل ما كان مخالفاً للشرع. فلما سمعوا ذلك رجعوا من غير حج ولم يتركوا مناكيرهم "(1) كما ذكر موقفاً مماثلاً من موكب الحج المصري(2).

واقصر مرسوم السلطان العثماني القاضي بطلب الحرب مع السعوديين من محمد علي، وبدافع من رسائل شريف جدة وكذلك بوحى وتشجيع من الإنجليز، على " استخلاص الحرمين والوصية بالرعية والتجار "(3)، وتكرر نفس الطلب بعد ذلك مجدداً الاقتصار على تخليص الحرمين الشريفين. وفي أعقاب نجاح القوات العسكرية في الاستيلاء على بلاد الحجاز، بعد أن هزمت وأخفقت عدة مرات أمام أتباع الشيخ محمد بن عبدالوهاب أرسل السلطان محمود الثاني مرسوماً إلى مصر يقرأ في المساجد باستعادته للحرمين الشريفين(4)، وهو أمر يوحى بأن السلطان العثماني ليس له هدف آخر سوى عودة الحجاز للسيادة العثمانية.

كان من الممكن أن تنتهي هذه الحرب إلى هذا الحد فقد سيطرت قوات محمد علي على مدن الحجاز، وعين محمد علي شريفاً جديداً على منطقة الحجاز التي اضطر للسفر إليها وقام بطرد الشريف غالب الذي ساند قواته وساعدها على دخول الحجاز(5)، كما أن قادة الدعوة السلفية السعوديين قد عرضوا عليه الصلح، ولكن محمد علي وضع شروطاً صعبة التحقيق لقبول الصلح وكذلك ضمن رده على طلب الصلح تهديداً يرويه الجبرتي فيقول: (وأما الصلح فلا نأباه بشروط وهو أن يدفع لنا كل ما صرفناه على العساكر من أول ابتداء الحرب الى وقت تاريخه، وان يأتي بكل ماأخذه واستلمه من الجواهر والذخائر التي كانت بالحجرة الشريفة ، وكذلك ثمن مااستهلك

(1) انظر: من أخبار نجد والحجاز، محمد اديب صالح، ص111.

(2) المصدر السابق نفسه، ص111، 112.

(3) قراءة جديدة في التاريخ العثماني، ص186.

(4) انظر: من أخبار الحجاز ونجد، محمد اديب غالب، ص110.

(5) المصدر السابق نفسه، ص110.

منها وأن يأتي بعد ذلك ويتلاقى معي وأتعاهد معه ويتم صلحنا بعد ذلك وإن أبي ذلك ولم يأت ...
فنحن ذاهبون إليه(1).

ثامناً: حقيقة حملة محمد علي على الحجاز ونجد:

إن الحرب بين محمد علي وأتباع الشيخ محمد بن عبدالوهاب لم تكن بين قوات يدين طرفاها بالاسلام، كما لم تكن حرباً عربية عربية كما يحاول البعض أن يصفها، بل إن هذه الحرب كانت بين قوة اسلامية ليست لها أية أطماع سياسة ولكنها أبدت غيرة وحرصاً على العودة الى المبادئ الاساسية للدين الاسلامي وهي القوة السعودية، كما أظهرت حماساً في دفع خطر المستعمرين (الكفار) عن الديار الاسلامية، أما القوة التي حاربتها والمرسلة من قبل والي مصر -والتي لم تكن مصرية بأي صورة من الصور؛ فأغلبها من الأرنؤوط وبعض الأتراك والنصارى وبعض الضباط الفرنسيين(2)، ولا يحمل أغلب قادتها من الاسلام سوى الاسم، ويصور لنا المؤرخ الجبرتي طبيعة هذه القوة من خلال تعليق من وصفه بالصلاح والورع، وهو شاهد عيان ، على هزيمة هذه القوات في البداية أمام أتباع الدعوة السلفية فيقول: (أين لنا النصر.. وأكثر عساكرنا على غير الملة! وفيهم من لا يتدين بدين، ولا ينتحل مذهبنا، وصحبتنا صناديق المسكرات ولا يسمع في عرضنا أذان ولا تقام به فريضة، لا يخطر في بالهم ولا خاطرهم شعائر الدين. والقوم (يقصد الوهابيون) إذا دخل الوقت أذن المؤذنون وينتظمون صفوفاً خلف أمام واحد بخشوع وخضوع، وإذا حان وقت الصلاة والحرب قائم، أذن المؤذن وصلوا صلاة الخوف فتتقدم طائفة الحرب وتتأخر الأخرى للصلاة وعساكرنا يتعجبون من ذلك لأنهم لم يسمعوها به فضلاً عن رؤيته. وينادون في معسكرهم هلموا الى حرب المشركين، المحلقين الذقون المستبشرين الزنا واللواط الشاربين الخمر، وكشفوا عن كثير من قتلى العسكر فوجدوهم غلفاً غير مختونين، ولما وصلوا بدمراً واستولوا عليها وعلى

(1) عجائب الآثار أخبار يوم آخر القعدة سنة 1328هـ، أديب غالب ، ص149.

(2) انظر: الدولة العثمانية، د.محمد انيس، ص233.

القرى والخيوف وبها خيار الناس وبها أهل العلم الصلحاء نهبهم وأخذوا نساؤهم وبناتهم وأولادهم وكتبهم(1).

إن محمد علي لم يكن متقيداً بشرع الله في حربه بل كان مخالفاً للشرع متعدياً على حدود الله تعالى غير مبالي بأحكام الاسلام فهذا جيشه يقتل ويدمر ويأخذ الأموال ويهتك الأعراض من هم المسلمين الموحدين.

فهذا علي ؓ في موقعة الجمل يقول لأصحابه: (لاتتبعوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ومن ألقى سلاحه فهو آمن)(2).

وقال: (. وإياكم والنساء وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراكم وإن الرجل ليتناول المرأة بالجريدة أو الهراوة فيعيّر بها هو وعقبه من بعده...)(3).

وعن أبي أمامة الباهلي ؓ قال: (شهدت صفين وكانوا لايجهزون على جريح، ولا يقتلون مولياً، ولا يسلبون قتيلاً ...)(4).

إن السلطان العثماني كان يكفيه خضوع الحجاز لحكمه ومهاجمة الدرعية لم تكن مطلباً ملحاً أو ضرورياً للدولة العثمانية، وكان محمد علي متشدداً في شروط الصلح مما يدل على حرصه على استمرار الحرب، لأن هدفه من هذه الحرب خدمة أطماعه التوسعية في إطار ما تسمح به أهداف السياسة البريطانية في المنطقة، بعد أن أصبحت الدولة السعودية تشكل خطراً بالغاً على الوجود البريطاني في المنطقة بأسرها سواء في البحر الأحمر أم في الخليج العربي أم في وصولها إلى الطريق البري عبر العراق، وأصبحت بريطانيا تحس بتهديد حقيقي لمصالحها في الشرق،

(1) انظر: قراءة جديدة في التاريخ العثماني، ص 188.

(2) رواه ابن ابي شيبة كتاب الجمل (263/15).

(3) نصب الرأية للزليعي (463/3).

(4) الحاكم بسند صحيح ووقفه الذهبي في المستدرك (155/2).

ولهذا فإن وصف هذه الحملة بأنها حملة صليبية في ثوب إسلامي يعد وصفاً حقيقياً⁽¹⁾.

عندما انهزم طوسون بن محمد علي أمام الأمير عبدالله بن سعود وتحطم نصف جيشه، خرج محمد علي بنفسه إلى الحجاز عام 1813م وقبض على شريف مكة (غالب بن مساعد واتهمه بالتآمر مع السعوديين، وصادر كل مايملك من أموال وأثاث ومتاع، وبذلك أصبح شريف مكة من موظفي محمد علي في الحجاز. ولم يلبث أن انتصر محمد علي في يناير 1815م على القوات السعودية في موقعة بسل⁽²⁾، وهي الموقعة التي يعتبرها البعض " من أكبر وقائع الحرب الوهابية، بل من أهم المعارك في تاريخ مصر الحربي "⁽³⁾.

ولم يمكث محمد علي في الجزيرة العربية ليتابع النصر الذي أحرزه، بل عاد إلى مصر تاركاً ابنه طوسون بالحجاز⁽⁴⁾، وسرعان ماتمكن طوسون من هزيمة السعوديين هزيمة جديدة لأول مرة، وأسرع بالزحف على القسم الشمالي من نجد فبلغ في زحفه مدينة الرس، ثم احتل الشبية وأصبح الطريق إلى الدرعية مفتوحاً أمامه وأسرع الأمير عبدالله بطلب فتح باب المفاوضات حقناً للدماء وحماية للمدن والقرى، ودارت المفاوضات بين الطرفين على مشروع الصلح بالشروط التالية:

1- إحتلال القوات المصرية الدرعية.

2- أن يضع الأمير عبدالله نفسه تحت تصرف طوسون باشا، فيسافر إلى الجهة التي يريده أن يسافر إليها.

3- أن يؤمن الأمير عبدالله سبل الحج، وأن يكون خاضعاً لحكم المدينة من قبل محمد علي إلى حين الموافقة على الصلح.

(1) انظر: قراءة جديدة في التاريخ العثماني ، ص189.

(2) انظر: الدولة السعودية الأولى، د. عبدالرحيم عبدالرحمن ، ص199-235.

(3) انظر: قراءة جديدة في التاريخ العثماني ، ص172.

(4) المصدر السابق نفسه، ص172.

4- ألا تصبح هذه الشروط - في حالة الاتفاق عليها - نافذة المفعول إلا بعد إقرارها من محمد علي.

غير أن هذه القوات لم تقبل من جانب الأمير عبدالله، وقرر إرسال وفد إلى مصر للتفاوض مع محمد علي مباشرة حول شروط الصلح، إلا أن الوفد فشل في مسعاه بسبب تشدد الباشا. وتأهب السعوديون للحرب والقتال، فأرسل محمد علي حملة جديدة عام 1816م بقيادة ابنه إبراهيم باشا(1).

وزحف إبراهيم باشا بقواته من الحجاز صوب نجد، ونجح في الاستيلاء على مدن عنيزة وبريدة وشقراء، وإخضاع كل منطقة القصيم وابتغ إبراهيم في زحفه سياسة الملاينة مع القبائل وهي سياسة كان من شأنها استمالة عدد كبير من أهل نجد، إذ كان يعقد دائماً المجالس ويمنح الهبات للناس، واتخذ في بداية الأمر أسلوباً استعطف به القبائل فمنع النهب والسلب، واستطاع بخبرائه العسكريين الفرنسيين أن يواصل زحفه حتى الدرعية التي ضرب الحصار عليها لمناعتها، وكان حصاراً طويلاً استمر من 6 إبريل إلى 9 سبتمبر 1818م، وانتهى باستسلام الأمير عبدالله بن سعود ودخول إبراهيم الدرعية، حيث أرسل من هناك الأمير السعودي في حراسة مشددة إلى مصر، ثم أرسل من القاهرة إلى استانبول(2)، لقد شهر بالأمير عبدالله في شوارع استانبول ثلاثة أيام كاملة ثم أمر بإعدامه شنقاً فرحمة الله على ذلك المظلوم(3) وستظهر حقيقة مقتله يوم الأشهاد. إن الذي دعا إلى الصلح صلح أهل الجزيرة من خلال رسالة وجهها الشيخ أحمد الحنبلي إلى طوسون لقد بينوا أنهم يعترفون بإمارة السلطان العثماني وأنهم لا يخرجون عن دولة الخلافة فلما إذن كان الإصرار على توجيه القوات إلى جزيرة العرب؟ وهكذا أزهقت أرواح المسلمين بأيدي

(1) انظر: الدولة السعودية الأولى، ص 339-345.
(2) انظر: العالم العربي في التاريخ الحديث، ص 174.
(3) المصدر السابق نفسه، ص 174.

بعضهم البعض، نتيجية كيد الأعداء. لقد قام أهل الجزيرة بمساندة مسلمي مصر عندما احتلها الفرنسيون فلماذا هذا الاعتداء المتعمد؟ إن محمد علي استطاع بواسطة الزعماء الذين ينسبون إلى الإسلام أن يقنع كثير من عوام الناس بأنهم يفعلون ذلك امتثالاً لأمر خليفة رسول الله، الذي له عليهم حق السمع والطاعة وأن الهدف من ذلك منع جزيرة العرب من الانفصال عن جسد دولة الخلافة(1).

إن قضية الولاء والبراء كانت غائبة تماماً عن محمد علي، بدليل أنه أعطى ولاءه لأعداء الإسلام وسمح لهم بأن يقودوه ويقودوا الأمة معه إلى حتفها، وهذه نتيجة عملية لوصول تاجر دخان ظل غير معروف النسب إلى سدة الحكم في بلاد المسلمين(2).

لقد كانت سعادة بريطانيا كبيرة عندما علمت بسقوط الدرعية، عاصمة الدولة السعودية الأولى، في أيدي قوات إبراهيم باشا(3)، فقد كانت هي الدولة السلفية التي دعمت القواسم في جهادهم ضد بريطانيا في الخليج العربي، مما يعني تهديد المصالح البريطانية في الهند كما أسلفنا(4)، وهنا يجدر بنا أن نسأل، خاصة في تلك الأحداث التي عاشها العالم الإسلامي في تاريخه الحديث، لنقول: لو أن جيوش محمد علي وجيوش الدولة العثمانية تعاونت مع الدولة السعودية الأولى بدلاً أن تحاربها، لتتقفا معاً في وجه الأطماع الأوروبية بشكل عام، وبريطانيا بوجه خاص، أنه لو تم ذلك لتغير وجه التاريخ، خاصة وأن الدولة السعودية دولة مسلمة أقامت دعائمها على المبدأ السلفي الصحيح، والعالم الإسلامي في تلك الفترة في أمس الحاجة إليها، وعلى أية حال فلقد أدركت بريطانيا مدى الاستفادة من هذه الظروف، فأسرعت بزف التهاني إلى إبراهيم باشا، من

(1) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال عبدالهادي، ص 96.

(2) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال عبدالهادي، ص 97.

(3) انظر: دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر (1/198).

(4) انظر: تاريخ الاحساء السياسي، د. محمد عرابي، ص 42-43.

مبدأ الاحتواء في ضوء المصالح الذاتية لها، وبعثت بالكابتن جورج فورستر سادلير (1) لتقديم التهئة لإبراهيم باشا لاستيلائه على الدرعية، ولمحاولة إيجاد قاعدة يمكن من خلالها التنسيق بين قوات الباشا البرية، والقوات البريطانية البحرية للقيام بعمل حربي مشترك ضد القواسم، أتباع الدولة السعودية الأولى (2).

إن العلاقة بين بريطانيا ومحمد علي قديمة وفي بداية حكمه دخل في مفاوضات معهم استمرت أربعة أشهر أكد فيها محمد علي جديته ورغبته المخلصة في الارتباط بهم بل وطلب وضع نفسه تحت حمايتهم وهو ما يؤكد تقرير فريزر الذي تولى التفاوض معه، الأمر الذي أدى - بعد اقتناعهم بذلك - الى تخليهم عن أصدقائهم من المماليك. وقد تضمن التقرير الذي أعده قائد الحملة فريزر الذي تفاوض مع رسل مع محمد علي والذي أرسله الى الجنرال مور في 16 اكتوبر سنة 1807م أهم جوانب هذه المفاوضات فقد جاء فيه : (أرجو أن تسمحوا لي بأن أبسط لكم ليكون ... موضع نظركم فحوى محادثة جرت بين باشا مصر والميجر جنرال "شيريوك" والكابتن "فيلوز" أثناء قيامهما بمهمتهما لدى سموه. ولدي ما يجعلني أعتقد أن هذه المحادثة ، ومن اتصالات خاصة كثيرة اخرى كانت لي معه، بأنه جاد وصادق فيما يقترحه. لقد أبدى محمد علي باشا والي مصر رغبته في أن يضع نفسه تحت الحماية البريطانية، ووعدهنا بإبلاغ مقترحاته الى الرؤساء في قيادة القوات البريطانية كي يقوم هؤلاء بإبلاغها الى الحكومة الإنجليزية للنظر فيها. ويتعهد محمد علي من جانبه بمنع الفرنسيين والأتراك أو أي جيش تابع لدولة أخرى من الدخول الى الاسكندرية من طريق البحر وبعد الاحتفاظ بالاسكندرية كصديق وحليف لبريطانيا العظمى ولكنه لامناص له من الانتظار أن تعاونه انجلترا بقواتها البحرية اذا وقع هجوم عليه من جهة البحر لأنه لا يملك سفناً حربية. ويوافق محمد علي باشا في الوقت نفسه على تزويد كل السفن البريطانية التي تقف على

(1) ج ج لوريمر: دليل الخليج التاريخي (1010-1009/2).

(2) انظر: حروب محمد علي في الشام، د. عايض الروقي، ص112.

بعد من الاسكندرية بما قد تحتاج إليه من ماء النيل عند إعطائها إشارة يصير الاتفاق عليها(1).
وقد علق القنصل الفرنسي دروفتي على ما بلغه من معلومات حول الاتفاق بين محمد علي
والانجليز الذي هو من نوع معاهدة بأن (مثل هذه المعاهدة عند إبرامها سوف تحقق الأغراض
التي توخاها الانجليز من إرسال حملتهم على مصر إن لم يفق أثرها من هذه الناحية كل ما كان
يتوقعه هؤلاء من إرسال هذه الحملة)(2).

ولم يشأ الانجليز الإعلان عن كل ما احتوته بنود هذه الاتفاقية في أعقاب توقيعها وإخلائهم
الاسكندرية وتسليمها الى باشا مصر حيث رأت بريطانيا ضرورة التريث في ذلك لما تحتويه من
إعلان العداء الواضح للدولة العثمانية، لمساندتها لحاكم يريد الاستقلال عنها في وقت كانت
الدبلوماسية الانجليزية لها مصالحها الكبرى مع دولة الخلافة والاستفادة منها ومن عميلها الجديد
لبسط نفوذها على المنطقة إن أمكن(3).

تاسعاً: ثورة اليونان:

كانت أوروبا حريصة على تمزيق الدولة العثمانية واتخذت لذلك الهدف وسائل متعددة منها؛
إثارت الفتن الطائفية والدينية وتفجير الثورات الداخلية بدعمها المادي والمعنوي كانت بلاد اليونان
تشكل جزءاً من ديار الاسلام، ويؤذن في مدنها وأريافها للصلوات الخمس في اليوم واللييلة لقرون
عديدة وكانت تحكم بشريعة الاسلام، وكان ذلك لا يروق لزعماء النصارى سواء من اليونان أو
غيرهم من الدول الأوروبية ولذلك شرعوا في تأسيس جمعيات سرية في داخل بلاد اليونان وفي
روسيا وغيرها هدفها إحياء الأمبراطورية البيزنطية القديمة على أن تكون تحت إدارة البطيركية
الأرثوذكسية الرومية في استانبول ولو أصبح كثير من البطارقة والقساوسة ورجال الدين أعضاء

(1) انظر: مصر في مطلع القرن التاسع عشر، د. محمد فؤادي شكري (856، 857/2).

(2) المصدر السابق نفسه (826/2).

(3) انظر: قراءة جديدة في التاريخ العثماني ، ص 174.

أصليين في هذه الجمعيات السرية المناهضة للدولة العثمانية⁽¹⁾ وقام رجال الدين بأستخدام نفوذهم على الشعب وتحريكهم للثورة ضد الدولة العثمانية وكان القساوسة ورجال الدين على صلات وثيقة بزعماء الدول الأوروبية وخصوصاً روسيا ونجد وثيقة تاريخية هامة تدل على هذا الاتصال من أجل التنسيق والتعاون على تدمير الدولة العثمانية وشعبها ومقوماتها: (وهذا نص رسالة البطريرك "جرجو ريوس" الى قيصر روسيا يبين له فيه كيفية هدم الدولة العثمانية من الداخل):

(من المستحيل سحق ، وتدمير الأتراك العثمانيين بالمواجهة العسكرية؛ لأن الأتراك العثمانيون ثوريون جداً ومقاومون، وواثقون من أنفسهم، وهم أصحاب عزة نفس واضحة، وهذه الخصال التي يتمتعون بها إنما تتبع من ارتباطهم بدينهم، ورضائهم بقضاء الله وقدره وتشبعهم بهذه العقيدة، وأيضاً من قوة تراثهم وتاريخهم، وطاعتهم ومؤازرتهم لسلطانهم وقادتهم واحترامهم لكبارهم. الأتراك العثمانيون أذكياء، وهم مجتهدون متجاوبون مع رؤسائهم الذين يوجهونهم ويقودونهم في الطريق الايجابي الصحيح مما يجعلهم قوة هائلة تُخشى منها؛ فهي تتميز بالقناعة والتصميم وشدة المراس والثبات عند المواجهة.

إن كل مزايا الأتراك العثمانيين هذه ، بل، وبطولاتهم وشجاعتهم إنما تأتي من قوة تماسكهم بدينهم وإرتباطهم بأعرافهم وتقاليدهم وصلابة أخلاقهم ، ولذا: أولاً: لا بد من كسر شعور الطاعة عندهم تجاه سلطانهم وقادتهم وتحطيم روحهم المعنوية وروابطهم الدينية؛ وأقصر طريق لتنفيذ هذا ، تعويدهم التعايش مع أفكار وسلوكيات غريبة لانتوائهم مع تراثهم الوطني والمعنوي.

ثانياً: لا بد من إغراء الأتراك العثمانيين لقبول المساعدات الخارجية التي يرفضونها من إحساسهم بعزتهم - وتعويدهم عليها؛ حتى لو أدى ذلك الى إعطائهم قوة وقدرة ظاهرتين فقط لمدة

(1) انظر: دور الكنيسة في هدم الدولة العثمانية، ثريا شاهين، ص57،56.

وفي اليوم الذي تهتز فيه معنوياتهم ، ستهتز قدراتهم الذاتية، فهذه المعنويات والروابط هي التي تدفعهم نحو النصر، إضافة الى قدراتهم الأخرى وكثرتهم العددية -التي تبدو في الشكل أكبر مما هي عليه في الواقع في السيطرة والحكم، ووجودهم في المجتمع الدولي.

كذلك يمكن هدمهم وتدميرهم بإعلاء أهمية وقيمة الأمور المادية في تصوراتهم وأذهانهم - أي إفسادهم بالإغراءات المادية، فإنه ليس بكاف إحراز انتصارات عليهم في ميدان الحرب العسكرية فقط، ولكن العكس هو الصحيح؛ لأن إذا اتبع طريق الحرب -وحده- لتصفية الدولة العثمانية ، ويكون سبباً في تنبهم وسرعة إيقاظهم ووصولهم لمعرفة حقيقة ما يخطط ويُنَّيت في الخفاء لهم ولوطنهم من تخريب وتدمير .

إن ما يجب علينا عمله هو إكمال هذه التخريبات في بنيتهم الذاتية والاجتماعية ومكانتهم الدولية دون أن يشعروا بشيء(1).

لقد كان البطريك "جرجو ريوس" بطريك استانبول عضواً فعالاً في خدمة الجمعية، وكان يستخدم كل موظفيه وكل نفوذه لتنفيذ أوامر الجمعية السرية التي تسعى لقيام دولة اليونان الكبرى وكان خطوات الجمعية كالتالي:

- 1- انشاء جمعيات سرية في كل مكان في الدولة العثمانية، والقيام بتسجيل أغنياء الروم - وأكثرهم نفوذاً- في هذه الجمعيات، كان هذا من أجل ضمان المساعدات المادية والمعنوية.
- 2- تعيين المشهورين من الهيلينيين من رجال الكنيسة ، رؤساء للجمعية.
- 3- تأسيس شركات تجارية لتأمين مصدر مالي للجمعية السرية.
- 4- الافادة من الشباب الهيليني الذي يدرس في أوروبا.

(1) دور الكنيسة في هدم الدولة العثمانية، ترجمة محمد حرب تأليف ثريا شاهين، ص 70 الى 72.

5- العمل على تأمين مساعدة الدول الكبرى (1).

وأمتدت شبكات الجمعية السرية في بلاد الموره وخارجها وعملت المكائد للتخلص من العوائق الداخلية وأعلنت تمردها عام 1821م وفي هذا التمرد ، قام جرمانوس أسقف باتراس -رئيس تنظيم الجمعية السرية في الموره- بحمل علم عليه صورة مريم بزعمه وأخذ يصيح (يا أيتها الأمة اليونانية! هيا أفيقي وأقتلي الأتراك) و...يدعو كل الروم للحرب ضد العثمانيين ، وفي هذا الوقت أيضاً كان التمرد قد بدأ يتسع نطاقه وانتشاره.

بدأ هذا التمرد عام 1821م ، مكتسباً شخصية وطنية ودينية وقاده رجال الدين.

وقد صرح مكاريوس رئيس جمهورية قبرص السابق في حوار أجراه معه الصحفي والمحامي التركي (نوزاد قراكيل) عام 1951م بقوله: (.. ربما تعلمون أن الكنيسة قادت تمرد اليونان -ضد العثمانيين- عام 1821م . وكان القساوسة هم الذين أخذوا بزمام المبادرة؛ أي أنهم أول من رفع راية التمرد، وعن طريقهم حصلت اليونان على استقلالها من الدولة العثمانية) (2) ثم قال: إن الحرية هي الفكرة المثلى للمسيحية (3). والحق أن هذا هو الواقع لقد كُلف القساوسة بإبلاغ القرى والقصبات بأن الهجوم على الاتراك -للقضاء عليهم- سيحدث ليلة عيد الفصح، وأخذوا يقسمون بعدم إفشاء هذا السر لأحد قبل موعده المحدد. علم العثمانيون من بعض أصدقائهم بهذا الموقف فانسحبوا -من قبيل الاحتياط- الى القلاع. ولكن لم تجد هذه القلاع مدداً فلم تقوَ على الصمود فسقطت واحدة تلو الأخرى في أيدي العصاة المتمردين.

وفي مدة قليلة - حوالي ثلاثة أسابيع- استطاع المتمردون خلالها السيطرة على المورة كلها، باستثناء المقاومة الشديدة التي أبداها العثمانيون في قلعة (تريبوليجة) -وهي مركز ولاية الموره-

(1) المصدر السابق نفسه، ص60.

(2) دور الكنيسة في هدم الدولة العثمانية، ص64.

(3) المصدر السابق نفسه، ص65.

وحيث استمرت هذه المقاومة شهوراً عديدة. وقد قتل الروم -بوحشية منقطعة النظير- العثمانيين الذين وقعوا في الأسر -اثناء هذا التمرد- وسلبوا أموالهم.

كان رجال الدين عُلصلة مستمرة وقوية بكبار رجال جمعية (الفكرة العظمى) ودائماً في تعاون وثيق معهم. وساعد القساوسة في الأديرة القوات الرومية في الأفلاق والبغدان، ودفعت لهم الكنيسة الأموال من صناديقها . كذلك سمح القساوسة للمتمردين باستخدام الأديرة مخازن للمدافع والبارود، كما سمحوا لهم باستخدامها (اي الأديرة) ملاجئ لهم.

وقد أرسل المطران باليابادرا رسالة الى القنصل الروسي قال له فيها: (من أجل التخلص من الأتراك تماماً يجب أن تقوم روسيا بمساعدة الشعب المتمردي)⁽¹⁾.

لعب بطريرك جريجوريوس دوراً كبيراً في تمرد الروم ضد الحكم العثماني كما ذكرنا سابقاً، ولكن لا بد أن نوضح هنا أن هذا البطريرك رغم أنه كان عضواً في جمعية مبدأ إقامة اليونان الكبرى أو مايسميه الروم باسم الفكرة العظمى، فقد خاف عندما أعلنت روسيا -حسب مقتضيات السياسة الروسية وقتها- أنها تستتكر عصيان الأرثوذكس. فأضطر البطريرك جريجوريوس الى اصدار مرسوم سماه باسم (بيان الحرمان) ضد المتمردين⁽²⁾.

استطاعت المخابرات العثمانية أن تأتي بمعلومات مؤكدة وموثقة مفادها (أن خطة إقامة دولة اليونان الأرثوذكسية الكبرى، قد أعدها البطريرك بنفسه)⁽³⁾.

وعندما وصلت الأخبار للسلطان محمود الثاني أصابته الدهشة وأصدر أوامره لتفتيش مقر البطريرك، واستطاع علي باشا أن يقوم بإعداد خطة مدهامة البطريركية بإحكام بالغ، أدت عند تنفيذها الى وقوع الوثائق المشار إليها في أيدي المسؤولين ورجال الحكومة.

(1) دور الكنيسة في هدم الدولة العثمانية، ص65.

(2) المصدر السابق نفسه، ص66.

(3) دور الكنيسة في هدم الدولة العثمانية، ص67.

كان من بين هذه الوثائق؛ تلك الخطابات الموجهة الى القساوسة الذين قادوا العصيان في الموره، والمعلومات الصادرة لاتخاذ التدابير اللازمة -للعصيان- في استانبول، والاستعدادات ، الترتيبات السرية التي تتكتم الدولة العثمانية عن أخبارها ثم سرّ بها أمراء الروم التابعين للكنيسة، والمراسلات والمعلومات التي وصلت الى البطريركية من سفارتي إنجلترا وفرنسا -خاصة معلومات مراحل الاستعداد الرومية في روسيا وأخبار الأسلحة المرسله من مركز الجمعية السرية في مدينة أوديسا، وبيانات ونداءات طلب المعونة الموجهة الى كل الأرثوذكس في جميع أنحاء العالم، وإيصالات دفع نقود المساعدات المالية، للبطريركية من أجل العصيان.

وقع كل هذا في أيدي الحكومة العثمانية ولم ينكر البطريرك أي شيء من هذا، حيث قال: إنه هو الذي قام بعمل كل شيء ، وقَبِلَ التهم الموجهة إليه، وكان له شركاء في الجريمة، وقد عرفتهم الحكومة.

وأصدر السلطان محمود الثاني فرماناً بعزل البطريرك جريجوريوس من منصبه، ثم إعدامه(1). وقد نفذ حكم الاعدام يوم عيد الفصح عند الروم الأرثوذكس ثم أصدر السلطان فرماناً آخر لانتخاب شخص يحل محل البطريرك السابق وسلم فرمان الى استافراكي بك ترجمان الديوان الهمايوني، فارتعدت جماعته هلعاً بعد توجيه استافراكي الى البطريركية ، وقرأ على المسؤولين ذلك فرمان، ثم انتخبوا (أويانيوس) بطريركاً(2).

وشرعت الحكومة العثمانية في إعدام بعض قادة التمرد، وقد أثر ذلك تأثيراً كبيراً في إعادة السكون حتى أن البطريرك أصبح واسطة بين المتمردين -في الموره- وبين الحكومة العثمانية. ووصل به الأمر الى أن يرسل مايسمى بـ"عرض حال" يطلب فيه الإذن بالدعوة الى الاستئمان "طلب الأمان". ولقد استجابت السلطات العثمانية لمساعي البطريرك الجديد، وتم العفو على كل

(1) انظر: دور الكنيسة في هدم الدولة العثمانية، ص73.

(2) المصدر السابق نفسه، ص74.

من أظهر الندم على مافعله ، فاستردوا أموالهم وأملاكهم؛ وأما الموتى فقد أخذ وارثوهم ما يستحقونه، واستمرت الكنائس في أداء أدوارها ، كما سارت الطقوس الدينية النصرانية كما هي عليه، كذلك تعهدت الحكومة براحة هؤلاء الناس واستقرارهم، وتم إبلاغ سفراء الدول الأجنبية بذلك؛ وبرغم كل هذا فقد استمرت الأحداث ولم تتوقف واضطرت الحكومة الى التدخل(1).

عاشراً : محمد علي باشا واليونان:

قام محمد علي بدوره في القضاء على الدعوة السلفية في الجزيرة وحن الوقت لإضعافه وتقليم أظافره ولذلك دفعت الدول الأوروبية السلطان محمود الثاني بالاستعانة بجيشه لإخماده فتنة التمرد في اليونان وأثارت الدول الأوروبية على محمد علي بقبوله المهمة وأوهمته بأنه سيكون أكبر زعيم في المنطقة ويمكن أن يؤدي به الأمر ليكون خليفة المسلمين بعد أن يضعف سلطان الخلافة وقبل محمد علي باشا عرض السلطان محمود الثاني بشرط أن يحصل على ولاية كل من كريت واليونان وبمجرد تلقيه خبر القبول -لهذا الشرط- أمر ابنه ابراهيم باشا بتولي مسألة الحرب الموره(2) وتحركت جيوش مصر بقيادة ابراهيم باشا ومستشاره سليمان باشا الفرنساوي بحراً من الاسكندرية عام 1239هـ/1823م باتجاه كريت وشبه جزيرة المورة مركز التمرد الصليبي ، وفتح نافرين عام 1240هـ/1824م، ودخل أثينا عام 1241هـ/1823م رغم معاونة القائد الانجليزي البحري اللورد كوشران الصليبيين اليونان؛ وبعد أن أجهضت القوة الاسلامية التمرد اليوناني الصليبي ابانت الصليبية الأوروبية عن وجهها الكالح، فأعلنت بسط حمايتها على بلاد اليونان. بل إن روسيا كانت تدعم التمرد اليوناني علناً، ورأت أن الفرصة سانحة لدخول استانبول وإعادتها الى عهدا السابق مركزاً للصليبية والوثنية ، ووقف الانجليز الى جانب روسيا(3).

(1) المصدر السابق نفسه، ص74.

(2) الدولة العثمانية، د. جمال عبدالهادي، ص98.

(3) المصدر السابق نفسه، ص99.

وأجبرت الدولة العثمانية معاهدة (آق كorman) في 28 صفر عام 1248هـ / 1832م وأهم بنودها:

يحق لروسيا الملاحة في البحر الاسود ومرور سفنها من المضائق العثمانية دون تفتيش، ورغم أن المعاهدة قد عقدت بسبب التمرد اليوناني الصليبي ، إلا أنها لم تذكر شيئاً عنه، وبعد قليل تقدمت إنجلترا بطلب الى الدولة العثمانية في 8 رجب 1244هـ / 1828م : (أن تتوسط الدولة العثمانية لأن هذا تدخل صريح في شؤونها الداخلية⁽¹⁾)، فكان هذا الرفض حجة تذرعت بها أوروبا لإعلان الحرب مرة أخرى.

اتفقت روسيا ، وفرنسا، وإنجلترا في 11 ذي الحجة على اجبار الدولة العثمانية لإعطاء اليونان استقلالها، بمعنى فصلها عن جسد الدولة الأم (الدولة العثمانية) ورفض السلطان العثماني، فأمرت الدول الأوروبية أساطيلها بالتوجه الى سواحل اليونان، وطلبت من ابراهيم باشا التوقف عن القتال فكان جوابه طبيعياً بأن يتلقى الأوامر من خليفة المسلمين أو من أبيه لا من غيرها، ومع ذلك توقف القتال عشرين يوماً ريثما تصل إليه التعليمات⁽²⁾.

ودخلت الجيوش الأوروبية المتحالفة الى مرفأ "توارين" دون أن ترفع أعلام الحرب؛ لذا فقد كان دخولها دخول خديعة وقامت هذه الأساطيل بمباغتت الأسطول العثماني المصري المشترك وغدرت به وأطلقت عليه النيران فهزمت هزيمة نكراء وأغرقت السفن - وهي مفاجأة لم يكن يتوقعها وبالتالي لم يعمل لها أي حساب- وبسبب هذه المعركة الغادرة انقلب الحال، فأصبحت القوات العثمانية في موضع الضعف والانهزام بعد أن كانت في موقع القوة والنصر. واستقبلت الشعوب الأوروبية هذه الحادثة بمظاهر الفرح والسرور⁽³⁾. لقد قتل من جيش محمد علي أكثر من ثلاثين

(1) الدولة العثمانية ، د. جمال ، ص100.

(2) المصدر السابق نفسه، ص100

(3) دور الكنيسة في هدم الدولة العثمانية، ص77.

ألف جندي وهكذا تحقق مخطط الأعداء فأضعفوا قوات محمد علي وفصلوا جزء من ديار الاسلام عن الدولة العثمانية، لقد قامت فرنسا وانجلترا بعمل مزدوج حيث شجعوا السلطان على إرسال جيش للقضاء على التمرد في بلاد اليونان ثم قضاوا على ذلك الجيش.

ولما رأى محمد علي باشا والي مصر ما حل به أمر ولده بالانسحاب وقامت القوات الفرنسية بأخذ أماكن جيش محمد علي المنسحب وقامت فرنسا وانجلترا بعقد مؤتمر قرروا فيه فصل بلاد اليونان عن الدولة العثمانية على أن يحكمها حاكم نصراني تختاره الدول الثلاثة⁽¹⁾ وصدق الله حيث يقول: { وإن كان مكروهم لتزول منه الجبال }.

وقال تعالى : { ولايزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا } وقوله تعالى: { لايرقبون في مؤمن إلا ولا نمة } لقد تأمر الأعداء بالاتفاق مع من ينتسبون الى الاسلام لاغتصاب واحتلال ديار الاسلام في عهد السلطان محمود الثاني⁽²⁾.

الحادي عشر : محمد علي باشا يحتل الشام ويحارب الدولة العثمانية:

رأى الساسة البريطانيون والفرنسيون أن السماح لمحمد علي بتوجيه جيوشه الى الشام ثم الاناضول يخدم مصالحهم للتصدي للنفوذ الروسي المتزايد في أملاك الدولة الخلافة العثمانية وقد لقي هذا التوجه ترحيباً من محمد علي لخدمة أهداف أسياده البريطانيين خصوصاً ومما يدعم وجهة النظر هذه أن انجلترا عارضت بشدة شروع محمد علي في تنفيذ العرض الفرنسي بغزوه للجزائر لحسابهم قبل هجومه على الشام بعام واحد، وهددوه بالهجوم على أسطوله وجيشه إذا هو أقدم على مثل هذه العملية الأمر الذي دعاه الى التراجع عن التنفيذ على الرغم من أنه كان قد عقد اتفاقية بهذا الخصوص مع الفرنسيين، وهو أمر يؤكد على أن محمد علي ترك احتلال الجزائر بسبب ضغط بريطانيا ومخططاتها وكان ذلك يساعد بريطانيا في عرقلت النفوذ الروسي

(1) انظر: الدولة العثمانية، ص101.

(2) المصدر السابق نفسه، د.جمال ، ص101.

المتزايد في المنطقة وعلى أية حال فقد حاول محمد علي أن يخفي حقيقة دوره وأن يتذرع بأسباب سطحية يبرر بها هجومه على الشام مثل إيواء "عبدالله باشا" والي عكا لستة آلاف من المصريين الفارين هرباً من التجنيد في جيش محمد علي خلال سنة 1831م فقط ورفضه اعادتهم، وكذلك قيام "عبدالله باشا" بعمليات ابتزاز للتجار التابعين للباشا. وكتب محمد علي الى الباب العالي يبلغه بقيامه بمهاجمة "عبدالله باشا" لهذا السبب ، ورد عليه الصدر الأعظم ما يدل الباحث على مدى الضعف الذي كانت عليه الدولة العلية وعدم قدرتها على التصدي لمحمد علي فقال : (إن شكوى بعض التجار لايمكن أن تسوغ تحكيم الحسام وإشعال النار والحرب، وأن ما ينشب من نزاع بين الباشوات المتجاورين لايمكن أن يسوى بإشهار السيف بل بتدخل الباب العالي)(1). ولم يقتنع محمد علي بما قاله الصدر الأعظم ودفع جيوشه بقيادة ابنه ابراهيم باشا وقام الموارنة بدعم جيش محمد علي والوقوف معه وكان الفرنسيون يشجعون الموارنة المسيحيين بالوقوف مع ابراهيم باشا وأمدوهم بالسلاح، وأعلن نصارى بلاد الشام، بأن إبراهيم باشا صديق لهم، وأبدوا استعداداً تاماً لمساعدته، كما أن ابراهيم باشا، قد ألغى كافة القيود المفروضة على النصارى واليهود فقط في كل بلد سيطر عليه تحت دعوى المساواة والحرية(2) وهي دلائل قوية في تأثر ابراهيم باشا بالمحفل الماسوني عليه ودور هذا المحفل -التابع لفرنسا- في دعم أطماعه وأطماع أبيه(3).

وعلى الرغم من أن جيش ابراهيم باشا قد تمكن من هزيمة الجيش العثماني واستطاع أن يستكمل سيطرته على الشام إلا أن العثمانيين قد تمكنوا من إثارة الأهالي ضد ابراهيم باشا مستغلين العديد من الاسباب سواء كانت دينية، أو اقتصادية خصوصاً بعد أن ضيق "ابراهيم باشا" الخناق على المسلمين في حين منح حريات واسعة للنصارى واليهود، وانتهى الامر بعقد اتفاقية

(1) انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، ص192.

(2) انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، ص192.

(3) انظر: الجامعة الاسلامية ، احمد الشوبكة ، ص101.

لندن سنة 1840م التي حددت الوجود المصري -لوالي مصر- في الشام بحياة محمد علي (1).
إن مراحل احتلال قوات محمد علي للشام أكدت اتجاهه المعادي للمسلمين والمساند للنصارى
واليهود، وأكدت أيضاً أنه كان منفذاً للأهداف البريطانية على الصعيد السياسي وكان منفذاً
للأهداف الفرنسية على الصعيد الثقافي في بلاد الشام.

لقد فتح ابراهيم باشا الباب على مصراعيه لدخول البعثات التبشيرية الفرنسية والأمريكية، وألغى
كافة القوانين الاستثنائية وجميع ما كان يسري على النصارى وحدهم، ويعتبر بعض الكتاب أن عام
1834م تحول تاريخي حيث عاد اليسوعيون، وتوسعت البعثات الأمريكية، وتم نقل مطبعة
الإرسالية الأمريكية من مالطة الى بيروت، وأسست مدرسة للبنات في بيروت على يد "إيلي
سميث" وزوجته (2)، وزودت بعض الأديرة بمطابع أخرى في إطار حرص الدول الأوروبية على
حصر المطابع في يد المسيحيين فقط (3) حتى تتمكن من تحقيق أهدافها في ظل عجز المسلمين
عن امتلاك وسيلة التعبير عن آرائهم أو نشر أفكارهم في هذا المجال (4).

لقد كان دخول جيوش محمد علي باشا الى الشام نقطة انطلاق لدور المبشرين، وأنه لولا
وقوف ابنه معهم لبقيت عقولهم مشلولة وأفكارهم آسنة، فقد تمكنت كلية "عين طورة" التي أعيد
افتتاحها -والتي مازالت قائمة لحد الآن- من القيام بدور كبير في تكوين كوادر من الكتاب
والمفكرين. وفي نفس الوقت طبق سياسة تعليمية بين المسلمين كان الهدف منها الدعوة الى
القومية بين أهالي الشام وجلب أحد الفرنسيين من مصر وهو (كلوت بك) (5) ليشرف على تطبيق
هذه السياسة بعد ان اكتسب خبرة تطبيقها في مصر، ووضع تحت يده مطبعة كاملة لنشر الكتب

(1) انظر: قراءة جديدة في التاريخ العثماني، ص193.

(2) انظر: قراءة جديدة في التاريخ العثماني، ص193.

(3) المصدر السابق نفسه، ص195.

(4) المصدر السابق نفسه، ص196.

(5) انظر: قراءة جديدة في التاريخ العثماني، ص196.

العربية لتعينه في تحقيق هدفه، وتمكن بكل هذه الأساليب -تشاركه الإرساليات التصيرية ورجال الكهنوت في الأديرة من أن يقلب أساليب التربية والتعليم في مدى سنوات قليلة، ويحقق أهداف المحافل الماسونية الفرنسية في حربها للإسلام والمسلمين (1).

بينما كانت جيوش محمد علي تمكن النصارى في بلاد الشام، وتضعف شوكة المسلمين بها، كانت جيوش فرنسا في عام 1830م تغتصب الجزائر بعد ماضعت الخلافة العثمانية ودخلت القوات الفرنسية بما يعادل 28 ألف مقاتل، وأسطولاً يضم مائة سفينة ، وثلاث سفن تحمل 27 ألف جندي بحري، وكانت الدول الأوروبية مؤيدة لهذا الاغتصاب السافر فقد حان توزيع تركت الرجل المريض وحل المسألة الشرقية بالطريقة الأوروبية.

وهنا نتساءل اين محمد علي باشا والي مصر عندما قام الفرنسيون باحتلال الجزائر؟ لماذا سكت ؟ هل لأن إمكانياته لاتسمح بدعم جهاد شعب الجزائر المسلم أو أنها بعيدة عنه؟ أو لأن السكوت ثمن ووعد من دول أوروبا ومنها فرنسا لمحمد علي بأن يظل والياً على مصر، ويتركوا له الفرصة لضم بلاد الشام، أو غير ذلك من الوعود الظلامية التي تحبك خلف الكواليس؟

لقد كان محمد علي مخلباً وخنجرأ مسموماً استعمله الأعداء في تنفيذ مخططاتهم ولذلك وقفوا معه في نهضته العلمية، والاقتصادية والعسكرية بعد أن أيقنوا بضعف الجانب العقدي والإسلامي لديه ولدى أعوانه وجنوده (2).

لقد ترتب على دور محمد علي في المنطقة بأسرها أن تنبعت الدول الأوروبية إلى مدى الضعف الذي أصبحت عليه الدولة العثمانية، وبالتالي استعدادها لتقسيم أراضيها حينما تنهياً الظروف السياسية (3).

(1)المصدر السابق نفسه، ص196.

(2) انظر: الدولة العثمانية ، د. جمال عبدالهادي ، ص103،102.

(3) انظر: قراءة جديدة في التاريخ العثماني، ص197.

وفي أعقاب هزيمة الجيوش العثمانية أمام جيوش محمد علي في الشام والأناضول اضطرت الدولة العثمانية للاستنجاد بروسيا بعد أن لمست أن " محمد علي " يحظى بتأييد بريطانيا وفرنسا، وعقدت معاهدة

" انكيار اسكله سي " سنة 1833م في أعقاب هدنة كوتاهيه، وكانت المعاهدة بمثابة تحالف دفاعي بين روسيا والعثمانيين، مما أدى إلى مسارعة كل من بريطانيا وفرنسا بالتصدي لمحمد علي خشية المزيد من التدخل الروسي، وفرضت عليه اتفاقية لندن سنة 1840م. وقد ترتب على هذه الأحداث إجهاض محاولة الإصلاح التي حاول السلطان محمود الثاني أن يقوم بها في الدولة العثمانية واضطرت الدولة العثمانية لقبول وصاية الدول الأوروبية في مقابل حمايتها من أطماع محمد علي⁽¹⁾. وهكذا كانت سياسة محمد علي خطوة مدروسة من قبل أعداء الإسلام لتهيئة المنطقة بأكملها لمرحلة استعمارية مازالت آثارها تعاني منها الأمة حتى اليوم. لقد استطاعت السياسة النصرانية الأوروبية أن تحقق أهدافها الأتية بواسطة عميلها المخلص محمد علي:

- 1- تحطيم الدولة السعودية الأولى التي كادت أن تكون خنجراً مسموماً في ظهر الأطماع البريطانية في الخليج العربي خصوصاً والمشرق عموماً.
- 2- فتح الأبواب على مصراعيها لإقامة مؤسسات معادية للدين الإسلامي والمسلمين في محافل ماسونية وإرساليات تبشيرية وأديرة وكنائس ومدارس في بذر بذور التيارات القومية المعادية للإسلام، وبت الأفكار المعادية لمصالح الأمة الإسلامية.
- 3- إتاحة الفرصة لشركات تجارية أوروبية تتحكم في الاقتصاد.
- 4- منح امتيازات واسعة للأوروبيين، ومنع أهالي مصر والشام من تلك الامتيازات.
- 5- خنق التيار الإسلامي الأصيل، وضيق على العلماء والفقهاء ولم يسمح للمسلمين أن يتكثروا من أجل أهدافهم النبيلة.

(1) المصدر السابق نفسه، ص 198.

6- أصبح محمد علي نموذجاً تحتذي به الدولة الأوروبية في صنع عملائها في داخل ديار المسلمين، كمصطفى كمال، وغيره.

وبعد أن حققت الدول الأوروبية أهدافها بواسطة عميلها محمد علي حان الوقت لإضعاف قوات محمد علي وتحجيمها، فقد تحققت أهدافهم، ووصلوا إلى مقاصدهم، فلا بد من إضعاف قوات محمد علي، ودخل الانجليز في صراع سافر مع قوات محمد علي واستطاعت بمساندة أهل الشام من هزيمة قوات محمد علي، والاستحواذ على الثغور الشامية وقتل في هذه المعارك ثلاثة أرباع قوات محمد علي .. من شعب مصر وبلاد الشام وأجبر محمد علي تحت ضغوط الإنجليز على توقيع المعاهدة:

1- يتنازل فيها عن حكم بلاد الشام، وأن يظل حكم مصر وراثياً له ولأبنائه.

2- أن يحدد الجيش المصري بثمانية عشر ألفاً.

3- أن لاتصنع مصر سفناً للأسطول.

4- أن لايعين والي مصر في الجيش ضابطاً أعلى من رتبة ملازم وأن يدفع للدولة العثمانية ثمانين ألف كيس سنوياً(1).

وشرعت فرنسا وانجلترا تثير الفتن الطائفية (من عام 1841م إلى 1860م) بين الأقليات غير المسلمة في لبنان، الهدف هو إنهاك قوة الدولة العثمانية التي أرسلت قوات لإنهاء الفتنة وكذلك إيجاد المبرر للتدخل الفرنسي والبريطاني في لبنان تمهيداً لتمزيقه واحتلاله(2).

واحتلت روسيا الأفلاق والبغدان وتم اتفاق عثمانى روسي بلطه ليمان قرب استانبول عام 1265 يونيو عام 1848م يبقى في الإقليمين جيشاً عثمانياً روسياً حتى يستقر الوضع، وما دخله الكفار الروس في ذلك؟

(1) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال ، ص108.

(2) المصدر السابق نفسه، ص108.

وبهذا المكر أصبح للنصارى وجود عسكري في ديار الإسلام { وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال }.

واشتد صراع الدول الأوروبية على تقسيم ولايات الدولة العثمانية تركة الرجل المريض (1) وكانت الدول الأكثر اهتماماً بمصير الدولة العثمانية ومصير أملاكها، هي:
1- بريطانيا التي أرادت تأمين طرق مواصلاتها إلى الشرق الأقصى والهند خصوصاً، وتأمين تجارتها معها، سواء عن طريق السويس والبحر الأحمر، أو عن طريق الخليج العربي ونهري دجلة والفرات.

2- روسيا القيصرية التي أرادت أن تجد لها منفذاً من البحر الأسود إلى المياه الدافئة بالبحر المتوسط، وذلك بالإستيلاء على القسطنطينية ومضايق البسفور والدردينيل، والتي أرادت كذلك أن يكون لها النفوذ الأكبر في شبه جزيرة البلقان لتؤسس بها دولة سلافية كبرى.

3- فرنسا التي أخذت على عاتقها من زمن مبكر حماية مصالح رعايا النصارى الكاثوليك في بلاد الشام بصفة عامة والمارونيين على الأخص في لبنان، والتي أرادت رعاية مصالحها في هذه المنطقة، ثم استعلاء نفوذها في أملاك الدول الأخرى في الساحل الشمالي الإفريقي، وبالتحديد في تونس والجزائر.

4- وفيما عدا الدول الثلاثة الرئيسية التي ذكرناها، فإن دولاً أخرى مثل النمسا وبروسيا، اهتمت بمصير الدولة العثمانية، التي باتت من المتوقع هلاكها وزوالها، فسميت لذلك برجل أوروبا المريض (2) لقد تضافرت عدة عوامل ساهمت في إبراز المسألة الشرقية إلى عالم الوجود منها:

1- أن الطريق الذي تستطيع روسيا بواسطته الوصول إلى المياه الدافئة، هو الطريق الذي يصل البحر الأسود ببحر مرمرة، ثم بحر إيجه، وأخيراً بالبحر المتوسط، أي بالمرور من مضيقي

(1) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال، ص 108.

(2) انظر: الدولة العثمانية، د. اسماعيل ياغي، ص 141.

البسفور والدردينيل، وهما في حوزة الإمبراطورية العثمانية. 2- إن الدولة العظمى التي يكون لها قواعد قوية في البحر الأسود، ويتسنى لها السيطرة على المضائق، تصبح ذات مركز ممتاز تتمكن بفضلها من بسط سلطانها على بلاد الحوض الشرقي للبحر المتوسط، وعلى طريق المواصلات والتجارة من البحر المتوسط الى الهند والشرق الأقصى. 3- إن الدولة التي تمد نفوذها الى البلقان، تفرض سيطرتها على الشعوب البلقانية بعد تقلص سلطان العثمانيين على هذه المنطقة، وتصبح كذلك ذات مركز ممتاز يمكنها من الاستيلاء على القسطنطينية نفسها، ويهدد باختلال التوازن الدولي في أوروبا(1).

وفي خلال الربع الأول من القرن التاسع عشر، كانت سياسة الدول -باستثناء روسيا وفرنسا- تدور حول المحافظة على كيان الامبراطورية العثمانية لأسباب ناشئة من وجود العوامل التي ذكرناها.

وكانت بريطانيا في مقدمة الدول المتمسكة بمبدأ المحافظة على كيان الامبراطورية العثمانية وقتئذ(2) وعندما بات ممكناً ملئ الفراغ الذي ينجم من تقلص النفوذ العثماني عن البلقان تخلت بريطانيا وسائر الدول عن مبدأ المحافظة على الدولة العثمانية وسعت الدول الأوروبية بالفعل لتصفية القسم الأكبر من هذه المسألة باستقلال دول البلقان. وكان من بين الدول البلقانية المستقلة حتى نهاية القرن التاسع عشر : اليونان ، ورومانيا، وبلغاريا والصرب(3).

(1) انظر: الدولة العثمانية ، د. عبدالعزيز الشناوي (194/1-232).

(2) انظر: الدولة العثمانية، د. اسماعيل ياغي، ص143.

(3) انظر: الدولة العثمانية، د. اسماعيل ياغي، ص144.

المبحث التاسع

السلطان عبدالمجيد الأول

(1255-1277هـ/1839-1860م)

كان السلطان عبدالمجيد الأول ، ضعيف البنية شديد الذكاء، واقعياً ورحيماً، وهو من أجلّ سلاطين آل عثمان قدراً، أحب الإصلاح، وأدخل التنظيمات الحديثة، ورغب في تطبيقها في الحال. كما أدخل إصلاحات جمة في الجيوش العثمانية . وترقت في أيامه العلوم والمعارف، واتسعت دائرة التجارة ، وشيدت الكثير من المباني الفاخرة، ومدّت في عهده أسلاك الهاتف وقضبان السكك الحديدية(1).

تولى الحكم بعد وفاة والده السلطان محمود الثاني سنة 1839م وكان عمره السادسة عشرة من عمره، فكان صغر سنه هذا فرصة لبعض الوزراء التغريبيين لإكمال مابدأه والده الراحل من إصلاحات على الطريقة الأوروبية ، والتمادي في استحداث الوسائل الغربية، ومن هؤلاء الوزراء الذين ظهروا في ثياب المصلحين ومسوح الصادقين (مصطفى رشيد باشا) الذي كان سفيراً للدولة

(1) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون ، ص198.

في (لندن) و (باريس)، ووصل الى منصب وزير الخارجية في أواخر عهد السلطان (محمود الثاني)، وكانت باكورة إصلاحاته استصدار مرسوم من السلطان عرف (بخط شريف جلاخانة) أي المرسوم المتوج بخط السلطان الذي صدر عن سراي الزهر عام 1839م وجاء فيه: (... لا يخفى على عموم الناس أن دولتنا العلية من مبدأ ظهورها وهي جارية على رعاية الأحكام القرآنية الجليلة والقوانين الشرعية المنيفة بتمامها ولذا كانت قوة سلطتنا السنوية ورفاهية وعمارته أهاليها وصلت حد الغاية، وقد انعكس الأمر منذ مائة وخمسين سنة بسبب عدم الانقياد والامتثال للشرع الشريف ولا للقوانين المنيفة بناءً على طروء الكوارث المتعاقبة والأسباب المتنوعة فتبدلت قوتها بالضعف وثرورتها بالفقر....)(1) ثم جاءت بيانات يمكن تلخيص بعضها فيما يلي:

1- صيانة حياة وشرف وممتلكات الرعايا بصورة كلية بغض النظر عن المعتقدات الدينية.

2- ضمان طريقة صحيحة لتوزيع وجباية الضرائب.

3- توخي العدل والإنصاف في فرض الجندية وتحديد أمدها .

4- المساواة في الحقوق والواجبات بين المسلم وغير المسلم(2).

وبدأ عهد جديد يسمى عهد التنظيمات الخيرية العثمانية التي كان من بينها احترام الحريات العامة والممتلكات والأشخاص بصرف النظر عن معتقداتهم الدينية، ونص فيه على مساواة جميع الأديان أمام القانون(3).

وفي جزيرة متلين اجتمع نفر من رجال الدين اليونانيين والأرمن واليهود، وهناك خطبهم "رضا باشا" -وهو من المنسوبين الى الإصلاح- باسم السلطان ، فقال : أيها المسلمون والنصارى

(1) انظر: الدولة العثمانية، د. علي حسون ، ص185.

(2) المصدر السابق نفسه، ص186.

(3) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية، د. علي الزهراني (266/2).

واليهود، إنكم رعية إمبراطور واحد وأبناء أب واحد ، إن السلطان يسوي بينكم جميعاً(1).
(ولم يلق الخط الشريف أو الدستور الذي ساندته "مصطفى رشيد" وقلة من المحيطين به ترحيباً
أو تأييداً من الرأي العام العثماني المسلم؛ فأعلن العلماء استنكارهم وتكفيرهم لـ"رشيد باشا" ،
وأعتبروا الخط الشريف منافياً للقرآن الكريم في مجمله وبخاصة في مساواته المسيحيين بالمسلمين،
ورأوا أن ذلك

-وبغض النظر عن النواحي الدينية- سيؤدي الى إثارة القلاقل بين رعايا السلطان.
وكان الهدف بالفعل هو ما خططت له الحركة الماسونية، وهو إثارة الشعور القومي لدى
الشعوب المسيحية ضد الدولة(2).

وبهذا المرسوم طعنت عقيدة الولاء والبراء في الصميم، ونحيت جملة هامة من أحكام الشريعة
الاسلامية فيما يتعلق بأهل الذمة وعلاقات المسلمين مع غيرهم(3).

ومما يستلفت النظر أن استصدار خط شريف كلخانة كان "الثن" الذي حصلت عليه بريطانيا
والدول الأوروبية من السلطان العثماني في مقابل تسوية النزاع بينه وبين والي مصر "محمد علي
باشا" الذي كان يريد الاستقلال والانفصال عن الدولة، أثناء أزمة العلاقات المصرية العثمانية
المعروفة (1255-1257هـ/1839-1841م) وينبغي ألا يفهم من ذلك أن الضغط الأوروبي بوجه
عام والبريطاني بوجه خاص، كان وحده منشأ حركة التنظيمات أو حركة التجديد والاصلاح
العثمانية، خلال القرن التاسع عشر، فقد أسهم في هذه الحركة عامل آخر، هو اقتناع الدولة
والمتأثرين بالثقافة والحضارة الأوروبية بضرورة إصلاح جهاز الدولة وتجديده على أساس اقتباس

(1) انظر: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها (253/1).

(2) انظر: قراءة جديدة في التاريخ العثماني ، ص 208.

(3) انظر: الانحرافات العقديّة والعلمية (267/2).

النظم الأوروبية أو استلها منها من غير مساس بالأحكام الشرعية(1).

(وبهذا التصريح الخطير الذي أصدرته الدولة لتتقرب من دول أوروبا ... مس السلطان التقاليد العثمانية في الشغاف، وتتاول الشريعة الإسلامية بالتحريف، فإن التقاليد والشريعة كلاهما لا يبيحان أن يتمتع المسلمون وغير المسلمين بنفس الحقوق في رعاية خليفة المسلمين ، لا بد أن يكون تمييز بين المسلمين بنفس الحقوق في نمة المسلمين ، فأما هذا التصريح الخطير فله دلالتة، فهو ينطق بأن رجال الدولة اعترفوا بأن التقاليد القديمة لم تعد ميزاناً صالحاً للحكم ، ولا بد من الأخذ بأساليب الغرب ولو تعارض مع الشرائع والسنن)(2).

وقد أنشأ رشيد باشا مجلساً للنواب ، ووضع للدولة قانوناً للعقوبات وفق الشرائع الحديثة واستقدام رجلاً فرنسياً ليضع قانوناً مدنياً حديثاً للدولة، واشتد في تطبيق قوانينه شدة حازمة ضمنت احترام الناس لها، وأعقب ذلك بإنشاء بنك جديد للدولة وأصدر أوراقاً مالية(3) ثم صدر مرسوم آخر عام 1856م أكد فيه السلطان عبدالمجيد الأول المبادئ التي سبق له أن أعلنها على لسان رشيد باشا، وزاد فيه عدة امتيازات وحصانات لرعايا الدولة غير المسلمين(4)، وعرف في التاريخ العثماني بالخط الهمايوني الذي كان أكثر جرأة من الأول وأكثر اندفاعاً نحو الاقتباس من الغرب وقد تضمن الخط الهمايوني مايلي:

إلغاء نظام الالتزام والقضاء على الرشوة والفساد.

المساواة في التجنيد بين المسلمين وغير المسلمين.

معاملة جميع رعايا الدولة معاملة متساوية مهما كانت اديانهم ومذاهبهم(5).

(1) انظر: الدولة العثمانية، د. اسماعيل ياغي ، ص154.

(2) انظر: الشرق الاسلامي ، حسين مؤنس ، ص256.

(3) صدرت بدون رصيد معدني وبالتالي فقدت قيمتها ولم ينصهم المستشارون الأجانب.

(4) انظر: الانحرافات العقديّة والعلمية (268/2).

(5) انظر: تاريخ العرب الحديث مجموعة علماء ، ص140.

المحافظة على الحقوق والامتيازات التي تمتع بها رؤساء الملل غير الاسلامية.
القضاء على حواجز نظام الملل، ليتمتع كل مواطني الامبراطورية بمواطنة عثمانية متساوية.
أن تصبح المسائل المدنية الخاصة بالرعايا المسيحيين من اختصاص مجلس مختلط من
الأهالي ورجال الدين المسيحيين يقوم الشعب بانتخابه بنفسه.
فتح معاهد التعليم أمام المسيحيين، لتفتح أمامهم وظائف الدولة .
السماح للأجانب بامتلاك الأراضي في الدولة كما وعد السلطان بالاستعانة برأس المال
والخبرات الأوروبية بهدف تطوير اقتصاد الدولة(1).

ويعتبر السلطان عبدالمجيد أول سلطان عثماني يضفي على حركة تغريب الدولة العثمانية صفة
الرسمية، إذ إنه أمر بتبني الدولة لهذه الحركة وأمر بإصدار فرماني التنظيمات عامي
1854م، 1856م وبهما بدأ في الدولة العثمانية ماسمي بعهد التنظيمات وهو اصطلاح يعني تنظيم
شؤون الدولة وفق المنهج الغربي، وبهذين الفرمانين تم استبعاد العمل بالشريعة الاسلامية ، وبدأت
الدولة في التقنين وإقامة المؤسسات(2).

والحق أن السلطان عبدالمجيد كان خاضعاً لتأثير وزيره "رشيد باشا" الذي وجد في الغرب مثله
وفي الماسونية فلسفته، ورشيد باشا هو الذي أعد الجيل التالي له من الوزراء ورجال الدولة،
وبمساعده أسهم هؤلاء في دفع عجلة التغريب التي بدأها هو(3).

وحيثما رأى المسلمون أن الدولة تساوي بهم النصارى واليهود، وتستبدل بالشريعة الحنيفة قوانين
النصارى، وتخلع الأزياء القديمة الشريفة لتتخذ زي النصارى، وأحسوا كذلك أن حكومة رشيد لا تكاد
تأتي أمراً إلا راعت فيه خاطر النصارى وحرصت أن لا تمسهم بأذى أو تتألمهم بضيم -نفروا من

(1) انظر: تاريخ العرب الحديث، ص140.

(2) انظر: الانحرافات العقديّة والعلمية (268/2).

(3) انظر: مذكرات السلطان عبد الحميد، ترجمة محمد حرب، ص3.

ذلك نفوراً عظيماً، ولم يجد السلطان ورجال دولته من بد في إسقاطه وعزله أمام مظاهر السخط الشعبي، وخوفهم من وثوب المسلمين وثورتهم (1).

غير أن عزل رشيد باشا لم يؤد إلى وقف حركة التغريب من استقدام المزيد من الانظمة والقوانين من الغرب بعد أن مهد لها الطريق ، وفتحت لها الأبواب، ومع أن هذه المعارضة لرشيد باشا ودستوره قد نجحت في إقصائه سنة 1841م، إلا أنه عاد بعد أربع سنوات في عام 1845م تسانده مجموعة من أعضاء المحافل الماسونية الذين ركزوا السير في طريق التحول العلماني... (2)، وعاد بعد ذلك ليتولى الصدارة العظمى سنة 1846م وعزل منها سنة 1858م (3).

وزدادت الأحوال سوءاً وانحطاطاً ، مما جعل رجال الدولة يفكرون حقيقة في التغيير والاصلاح فلا يجدون أمامهم غير الطريقة الأوروبية في الإصلاح، والوجهة التغريبية في التغيير التي بدء في اتخاذها، خصوصاً إذا علمنا أن كثيراً من رجال الدولة هؤلاء ممن بعثتهم الدولة للعمل في التمثيل السياسي الخارجي أو للدراسة العسكرية في الخارج، بعد أن خلت الساحة من ظهور مصلح إسلامي يعيد الأمور إلى نصابها، ويقطع الطريق على أنصار الغزو الفكري بتبني إصلاح جاد يعتمد على المنهج الإسلامي (4).

وكما قال الكاتب التركي الاستاذ "نجيب فاضل": ولخو الامبراطورية العثمانية طيلة ثلاثة قرون أو أربعة قرون من زعيم فكري أو مصلح اجتماعي كبير وأصيل، فقد ترك المجال للدبلوماسيين السطحيين المنبهرين بالغرب والمقلدين له... وكانت النتيجة فقدان الروح، وضمور العقل، وذبول الارادة ، وعموم الشلل (5).

(1) انظر: الشرق الإسلامي ، حسين مؤنس، ص256.

(2) انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، ص209.

(3) انظر: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها (181/1).

(4) انظر: الانحرافات العقديّة العلمية (270/2).

(5) انظر: السلطان عبدالحميد حياته وأحداث عصره، ص43.

وقد انتشرت أفكار الغزو الفكري بين الجمهور الاعظم من ساسة الترك وولاتهم، وركبوا متن التفرنج والتحلل من الدين ، حتى إن العلامة العراقي الألوسي لما زار والي كركوك علي باشا عام 1267هـ أثنى عليه وامتدحه بحب العلماء واکرامهم، وبالأخلاق الفاضلة ، ثم قال بعد ذلك : (والظاهر أنه غير منحل العقيدة، ولا منتحل شيئاً من الآراء الإفرنجية الجديدة، حيث إنه لم يسمع منه جليس حديث لوندرة وباريس! ويكفي اهل البلد اليوم رحمة أن واليها سالم من تلك الوصمة، وقلما تتال هذه الرحمة في هذا الزمن الذميم!) (1).

وقد استمر التيار التغريبي في محاولة إحكام السيطرة على جميع المجالات والأجهزة في الدولة العثمانية .

وعلى كل حال لقد كانت المعالم الرئيسية لحركة الاصلاح والتجديد العثمانية تدور حول نقاط ثلاثة هامة:

1- الاقتباس من الغرب فيما يتعلق بتنظيم الجيش وتسليمه في نظم الحكم والإدارة.

2- الاتجاه بالمجتمع العثماني نحو التشكيل العلماني .

3- الاتجاه نحو مركزية السلطة في استانبول والولايات (2).

كانت سنة صدور خط كلخانة حدثاً في الأوساط الأوروبية يسجله أحد المنصرين الفرنسيين بقوله: (كان عام 1839م عاماً عظيماً بالنسبة للتوغل الفرنسي في تركيا ... لقد كان بداية التنظيمات والسنة الأولى في الإصلاح ... ونحن رجال الدين سنبدأ بالاستفادة من هذه الليبرالية الخجولة، ونبدأ بإرسالية تبشيرية للتعليم الكاثوليكي) (3) وقال السيد إيتيان الذي ترأس هذه الارسالية : (هذه أول إمكانية لتعزيز انتصار الايمان الذي سنعلمه ، ذلك لأن القرآن يحرم حتى

(1) انظر: نشوة المدام في العودة الى مدينة السلام، ص103.

(2) انظر: الدولة العثمانية ، د.اسماعيل ياغي ، ص152.

(3) انظر: الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، د. قيس العزاوي، ص60.

ذلك الوقت التعليم (1). لقد سافرت أول إرسالية مكونة من سبعة رجال دين في 21/11/1839م الى استانبول .. الأخوات يفتحن داراً لليتامى وفضولاً للتدريس في نهاية 1840م يصل عدد التلاميذ الى 230، وعام 1842م يصل العدد الى 500(2).

وهكذا لم تضيع أوروبا المسيحية وكنيستها وقتاً طويلاً للاستفادة من ظروف التحديث والتنظيمات؛ فبعد سبعة عشر يوماً من صدور الخط، كانت الرسائل التبشيرية الأولى تغادر مارسيلى باتجاه العاصمة العثمانية، وهي تحمل أفكارها العدائية للمسلمين ولقرآنهم الكريم الذي تتهمه بتحريم التعليم انتقلت عدوى التنظيمات الى الولايات العثمانية العربية شبه المستقلة وبسرعة ففي تونس أصدر محمد باي (عهد الأمان) عام 1857م ، وبناء على القواعد التالية:

أولاً: الحرية:

إذ أن الانسان لا يستطيع بلوغ الفلاح إلا إذا كانت الحرية مضمونة له، وكان العدل سياجاً له ضد العدوان .

ثانياً: الأمان التام.

ثالثاً: المساواة التامة بين المسلمين وغير المسلمين أمام القانون:

وهذا متضمن في النقطة الثانية، لأن هذا الحق إنما هو ملك لجميع الناس، ويجب أن يكون للأجانب حقوق التونسيين، وأن يمارسوا الأعمال التجارية على أنواعها، وأن يكون لهم حق التملك (3) وسارت مصر على هذا المنوال ، وبصدور هذه القوانين في استانبول وتونس ومصر، تحول التحديث الذي كان رغبة أوروبا تدعمها بعض فئات نخبوية -الى قوانين رسمية يتعهد فيها السلطان بإجراء التنظيمات اللازمة لتغريب المجتمع الاسلامي . وتحول الصراع من كونه ضغطاً

(1) المصدر السابق نفسه، ص61.

(2) المصدر السابق نفسه، ص61.

(3) انظر: الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، ص61.

خارجياً على الدولة العثمانية الى الداخل أي الى صراع داخلي عنيف بين سلطة اختارت أو أجبرت على تغريب المؤسسات ومجتمع يرفض هذه المؤسسات مستعيناً بالعلماء والفقهاء والدعاة الذين واجهوا بقوة تيار التحديث من منطلق أنه مخالف للشريعة الإسلامية⁽¹⁾. إن من ابرز خصائص التنظيمات أنها:

1- كانت أولى الوثائق الرسمية التي لم تستمد مصدريتها من الشريعة الإسلامية ، بل اعتمدت مصدراً وضعياً للتشريع مستوحى من التجربة الدستورية الأوروبية، وقد احتوت على مفاهيم غربية مثل "وطن" التي تضمنها خط كلخانة بدلاً من "الأمة" فكانت والحالة هي أولى الخطوات نحو فصل الدين عن الدولة.

2- إن "إقرار الأمانة الكاملة" و "عهد الأمان" و"مجلس شورى النواب" أو المظاهر الأخرى المستوحاة من التجربة الغربية قد سمحت بإضفاء نوع من الشرعية على استمرار الحيف على العامة من ناحية، وفتحت الطريق لطبقة التجار الغربيين والمبشرين لإحاق المجتمع العثماني بقوانين السوق وبمعايير الفكر التبشيري من ناحية ثانية.

3- لقد تكلم خطا كلخانة وهمايون بدستور مدحت باشا عام 1876م. ولأول مرة في تاريخ الاسلام ودوله يجري العمل بدستور مأخوذ عن الدستور الفرنسي والبلجيكي والسويسري وهي دساتير وضعية علمانية.

لقد وضعت التنظيمات الدولة العثمانية رسمياً على طريق نهايتها كدولة اسلامية، فعلمنة القوانين، ووضع مؤسسات تعمل بقوانين وضعية، والابتعاد عن التشريع الاسلامي في مجالات التجارة والسياسة والاقتصاد، قد سحب من الدولة العثمانية شرعيتها في أنظار المسلمين ناهيك أن عدو الدولة أصبح داخلياً، فالتوغل الأوروبي في مستوياته الثقافية والاقتصادية والسياسية من ناحية، والمسلمون وعلماء الدين الذين يرتابون بمسلك الدولة من الناحية الثانية، سيبدأون صراعاً

(1) المصدر السابق نفسه، ص 62.

لن ينتهي حتى بعد نهاية الدولة العثمانية، بل استمر الى يومنا هذا(1).

إن من الأهمية بمكان أن نقوم ما حدث ولقد ترك السلطان عبدالحميد الثاني في مذكراته شهادته التاريخية، لقد حاول انقاذ الدولة العثمانية، بعد أن دارت عليها الدوائر وأحكم عليها الحصار، لقد كان سلطاناً واعياً لحقيقة الدعوات التحديثية التي اتخذت لها تسمية "الحركة الاصلاحية" تغطية لنواياها الحقيقية في ربط الدولة العثمانية بالغرب، وعن ذلك فحاربه الدستوريون ويهود الدونمة وعزلوه. وفي أواخر عهده كتب وهو سلطان مسلوب الإرادة يكشف حقيقة التجديد والإصلاح يقول: (التجديد الذي يطالبون به تحت اسم الاصلاح سيكون سبباً في اضمحلالنا. ترى لماذا يوصي أعداؤنا الذين عاهدوا الشيطان بهذه الوصية بالذات. لاشك أنهم يعلمون علم اليقين أن الإصلاح هو الداء وليس الدواء ، وأنه كفيل بالقضاء على هذه الامبراطورية إذا أردنا أن نتبنى بعض الاصلاحات، فعلياً أن نأخذ بالحسبان الظروف السائدة في البلاد، وأن لانقيس الأوضاع على اساس المستوى الفكري لحفنة قليلة من الموظفين، ويجب أن يكون في الحسبان شكوك طبقة العلماء في كل ما هو أوروبي. الأوروبيون يتوهمون أن السبيل الوحيد في الخلاص هو الأخذ بحضرتهم جملةً وتفصيلاً. لاشك أن طراز التطور عندنا هو غير ما عند الأوروبيين، علينا أن نتطور تحت ظروف طبيعية ومن تلقاء أنفسنا، وأن نستفيد من الظروف الخارجية في حالات خاصة. ومن الظلم الفادح أن نتهم بمعاداة كل شيء يأتي من الغرب)(2).

لقد أصاب ميزان العدل في تقويمه لحركة الاصلاح العثمانية وبين كيفية الاستفادة من حضارة الغرب وأرى من الفائدة للقارئ الكريم أن يتعرف على موقف الاسلام من الحضارة الغربية وغيرها من الحضارات الجاهلية الأخرى وكيف تكون الاستفادة من هذه الحضارات؟
إن الاستفادة من الحضارة الغربية الكافرة وغيرها على ثلاثة أنواع:

(1) انظر: الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، ص63.

(2) انظر: الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، ص76.

1- الاستفادة من الصناعات وأصولها والاكتشافات العلمية، والعلوم التجريبية والعسكرية والطبيعية، كالرياضيات والكيمياء والفيزياء، والهندسة والاحياء والفلك بعد أن تمحص وتصفى من شوائب المؤثرات الجاهلية، وتصاغ بقوالب إسلامية صافية، فهذه الأمور مابين: واجب (1) أخذه واقتباسه، وهو ما يحتاجه المسلمون حاجة ماسة، أو لاتقوم بعض الواجبات إلا به، كالسلاح، والنظم العسكرية، في مجالات الدعوة الى الله، والجهاد في سبيله... فكل ما يحتاجه المسلمون - من المباحات- في هذا المجال فيجب أخذه والاستفادة منه، والمسلمون أحق به.

كذلك مايتحقق به قيام الدول الاسلامية -من الوسائل المباحة- مع التحفظ الكامل والوعي التام، يجب الأخذ به، وإلا فتركه أولى. أو مباح (2) وهذا قليل لأن الله أوجب على المسلمين الأخذ بالأسباب والحيلة لاكتفاء والاستغناء عما في أيدي الكفار أياً كان.

الثاني: التقليد في العبادات والعقائد والمبادئ والمفاهيم والتصورات والآراء الفلسفية، حول الكون والحياة والانسان، والتي تتصل بالعقيدة، فهذه الأمور لاتفصيل فيها، فهي محرمة قطعاً، والاستمداد فيها من الكفار ردة أو كفر إذا اعتقد المقلد صحتها ودان بها، وعلى الأقل تكون حراماً مع جهل حقيقتها.

الثالث: التقليد في الأخلاق وإنماط السلوك والآداب والثقافة والفكر، والانتاج الفني، ونحو ذلك، فهذه الأمور لاتخلو إما أن تتعارض مع أصول الاسلام وقواعده أو توقع فيما نهى الشارع عن تقليد الكفار فيه، فهذا أمر محرم، أو تكون مم يجهل أمره وحكمه فهو على الأقل مكروه، أما الشيء الذي يعتبر فضيلة -في تلك الحضارة- وما أقله -فقد يكون مباحاً (3)- والله أعلم.

ولقد تحدث بعض العلماء والمفكرين المسلمين والمعاصرين حول التقليد وكيفية الاستفادة من

(1) انظر: مجلة المنار لمحمد رشيد (551،553/1).

(2) انظر: مجلة المنار لمحمد رشيد رضا (ج553/551).

(3) انظر: التقليد والتبعية، د. ناصر عبدالكريم الغفل، ص38.

مصطفى صادق الرافعي يقول : (واني أرى أنه لا ينبغي لأهل الأقطار العربية أن يقتبسوا من عناصر المدنية الغربية اقتباس التقليد، بل اقتباس التحقيق، بعد أن يعطوا كل شيء حقه من التمحيص. فإن التقليد لا يكون طبيعة إلا في الطبقات المنحطة!! على أننا لانريد من ذلك إلا نأخذ من القوم شيئاً ، فإن الفرق بعيد بين الأخذ من زخرف المدينة وأهواء النفس، وفنون الخيال ورونق الخبيث)(1).

حسن البنا يقول: (من الحق أن نعرف أننا بعدنا عن هدى الاسلام وأصوله، وقواعده، والاسلام لا يابى أن نقتبس النافع ، وأن نأخذ الحكمة أنى وجدناها ولكنه يابى كل الإباء أن نتشبه في كل شيء بمن ليسوا من دين الله على شيء، وأن نطرح عقائده وفرائضه وحدوده وأحكامه، لنجري وراء قوم فتنتهم الدنيا واستهوتهم الشياطين)(2).

أبو الأعلى المودودي يقول: إن كان هناك شيء ينبغي ويستحق أن تأخذه أمة من الأمم الأخرى فإنما هو نتاج أبحاثها العلمية، وثمرات قواها الفكرية ، ومعطياتها الاكتشافية ومناهجها العلمية التي تكون قد بلغت بها معارج الرقي في الدنيا . إن أي أمة في الأرض إذا كان في تاريخها أو في نظمها الاجتماعية أو في أخلاقها درس نافع، فمن الواجب أن نأخذه منها، ومن الواجب أن نستقصي أسباب رقيها وازدهارها بكل دقة وتمحيص، ونأخذ منها مانراه ملائماً لحاجتنا وظروفنا.

ولكننا إذا عرضنا عن هذه الأمور الجوهريّة ورحنا نأخذ من أمم الغرب ملابسها وطرقها للمعيشة وأدواتها للأكل والشرب، برغم أن فيها السر لنجاح تلك الأمم وريقيها فلا يكون ذلك إلا دليلاً على غباوتنا وبلادتنا وحماعتنا ، فهل لأحد عنده العقل أن يعتقد أن كل ما أحرزه الغرب من

(1) انظر: وحي القلم (203/3).

(2) رسائل الامام الشهيد حسن البنا، ص307، طبعة دار الاندلس.

التقدم والرقي في مختلف حقول الحياة، إنما أحرزه بالجاكيت والبنطلون وربطة العنق والقبعة والحذاء؟!!

أو أن من أسباب رقيه وتقدمه أنه يتتالو طعامه بالسكين والشوكة؟ أو أن أدواته للزينة والرفاهية والمساحيق والمعاجين والأصباغ هي التي قد رسمت به الى أوج الرقي والكمال؟!!

فإن لم يكن الأمر كذلك - والظاهر انه ليس كذلك - فما للتقدميين المتشدقين بالإصلاح عندنا لايندفعون أو مايندفعون إلا بهذه المظاهر (1)؟!!

الشيخ محمد الأمين الشنقيطي قال في (أضواء البيان) عارضاً موقف المسلمين من الحضارة الغربية:

(الاستقراء التام القطعي دل على أن الحضارة الغربية تشتمل على نافع وضار، أما النافع فيها فهو من الناحية المادية ، وتقدمها في جميع الميادين المادية أوضح من أن أبينه، وما تصمته من المنافع للانسان أعظم مما يدخل تحت التصور، فقد خدمت الانسان خدمات هائلة من حيث إنه جسد حيواني، وأما الضار منها فهو الإهمال بالكلية الناحية التي هي رأس كل خير ولاخير البتة في الدنيا بدونها، وهي التربية الروحية للانسان وتهذيب أخلاقه)(2).

ثم قال بعد أن ذكر حكم الانتفاع من النافع منها:

(وقد انتفع الرسول ρ بدلالة "ابي الأريقط الدؤلي" له في سفر الهجرة على الطريق مع أنه كافر، فاتضح من هذا الدليل أن الموقف الطبيعي للاسلام والمسلمين من الحضارة الغربية هو أن يجتهدوا في تحصيل ما أنتجته من النواحي المادية ويحذروا مما جنته من التمرد على خالق الكون جلا وعلا، فتصلح لهم الدنيا والآخرة. والمؤسف أن أغلبهم يعكسون القضية فيأخذون منها الانحطاط الخلقي، والانسلاخ من الدين والتباعد من طاعة خالق الكون، ولا يحصلون على نتيجة

(1) انظر: الاسلام في مواجهة التحديات المعاصرة للمودودي ، ص163-164.

(2) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (412/4).

مما فيها من النفع المادي، فخسروا الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين(1).

سيد قطب يقول: (ولقد كان رسول الله ﷺ يتشدد مع أصحابه -رضوان الله عليهم- في أمر التلقي في شأن العقيدة والمنهج بقدر ما يفسح لهم في الراي والتجربة في شؤون الحياة العلمية المتروكة للتجربة والمعرفة كشؤون الزرع وخطط القتال وأمثالها من المسائل العلمية البحتة التي لا علاقة لها بالتصور الاعتقادي، ولا بالنظام الاجتماعي، ولا بالارتباطات الخاصة بتنظيم حياة الانسان وفرق بين هذا وذلك بين ، فمنهج الحياة شيء، والعلوم البحتة والتجريبية والتطبيقية شيء آخر، والاسلام الذي جاء ليقود الحياة بمنهج الله ، هو الاسلام الذي وجه العقل للمعرفة والانتفاع بكل إبداع مادي في نطاق منهجه للحياة....)(2).

ثم أورد قصة عمر ، حين رأى معه النبي ﷺ ، شيئاً من التوراة وغضب عليه حتى رجع، الحديث وقوله ﷺ: (لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ...) الحديث. فقال: (هؤلاء هم أهل الكتاب .. وهذا هو هدي رسول الله ﷺ ، في التلقي عنهم في أمور تختص بالعقيدة والتصور ، أو بالشرعية والمنهج، ولا ضير وفق روح الاسلام وتوجيهه -من الانتفاع بجهود البشر كلهم في غير هذا من العلوم البحتة علماً وتطبيقاً، مع ربطها بالمنهج الايماني: من ناحية الشعور بها وكونها من تسخير الله للانسان، ومن ناحية توجيهها والانتفاع بها في خير البشرية، وتوفير الأمن له والرخاء ، وشكر الله على نعمة المعرفة ونعمة تسخير القوى والطاقات الكونية، شكره بالعبادة، وشكره بتوجيه هذه المعرفة وهذا التسخير لخير البشرية.

فأما التلقي عنهم في التصور الإيماني ، وفي تفسير الوجود ، وغاية الوجود الانساني، وفي منهج الحياة وانظمتها وشرائعها ، وفي منهج الأخلاق والسلوك -أيضاً- أما التلقي في شيء من هذا كله فهو الذي تغير وجه رسول الله ﷺ ، لأيسر شيء منه، وهو الذي حذر الله الأمة المسلمة

(1) انظر : التقليد والتبعية ، د. ناصر العقل، ص41.

(2) انظر: في ظلال القرآن ، سيد قطب (21/20/4).

عاقبته، وهو الكفر الصّراح(1).

إن موجة تقليد الغرب بدأت عارمة حين دبّ الضعف والوهن في الخلافة العثمانية وتكالبت قوى الهدم بتقويضها -في الداخل والخارج- وحين شعرت هذه الدولة الضعيفة بالنقص أمام الدول النصرانية الفتية، فأتجهت الدولة العثمانية الى تقليد تلك الدول وأخذت من إنتاجها الجديد؛ وقد وافق هـ ق هـ _____

-شّلل- في التفكير لدى المسلمين وبعد عن منهج الله الأصيل ، فاستمدت من الكفار ، دون وعي أو إدراك أو تفكير في أسباب تقدم تلك الدول الكافرة ودون أن تجد في اللحاق بها بالجد والاعتماد على القوة الذاتية، والجهود المسلمة....!(2)

وبدأت موجة التقليد الأعمى قوية عارمة تدفعها -بحمق وعنف - الالهواء والانحرافات في الداخل، والجهود الماكرة المخططة من الخارج، فأخذت البلاد الاسلامية تسلك هذا الطريق واحدة تلو الأخرى، ابتداء من تركيا فمصر والشام ثم تونس وإيران والهند.

والعجيب أن كل إتجاهات التقليد في العالم الإسلامي بدأت بالإحساس بالضعف العسكري والحاجة إلى تنظيم الجيوش في البلدان الإسلامية ومن ثم نشأت عقدة الاعتماد على الغرب والإعجاب بكل ما هو غربي وافد من بلاد الكفار مهما كان فاسداً وتافهاً، واحتقار كل ما هو شرقي مهما كان صالحاً وعظيماً(3).

لقد نهى الله - سبحانه وتعالى - في كتابه الكريم عن التقليد الأعمى، فمقته وحذر من مغبته، في آيات كثيرة، ومناسبات عديدة، وأساليب متنوعة، ولاسيما تقليد الكفار، فتارة بالنهي عن تبعيتهم وطاعتهم، وتارة بالتحذير منهم، ومن الاغترار بمكرهم والانصياع لآرائهم والتأثر بأعمالهم وسلوكهم

(1) انظر: التقليد والتبعية ، ص42.

(2) المصدر السابق نفسه، ص20.

(3) انظر: التقليد والتبعية ، ص21.

وأخلاقهم.

وتارة بذكر بعض خصالهم التي تنفّر المؤمنين منهم، ومن تقليدهم.
وأكثر ما يرد التحذير في القرآن من - اليهود - والمنافقين، ثم من عموم أهل الكتاب
والمشركين.

وقد بين الله - سبحانه وتعالى - في القرآن أن تقليد الكفار وطاعتهم منه ما هو ردة فقال: { إن
الذين أرتدوا على أديبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سؤل لهم وأملى لهم. ذلك بأنهم قالوا
للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر } (سورة محمد الآيتان 25-26).
وحيث جعل الله في شريعته الكمال فقد نهى عن اتباع غيرها من الأهواء والنظم البشرية، ونهى
عن اتباع الكفار والذين لا يعلمون فقال: { ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء
الذين لا يعلمون. إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي
المتقين } (سورة الجاثية: 18-19).

وقال تعالى في معرض التحذير من أهل الكتاب: { ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد
إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحق } (البقرة، آية: 109).
وقال: { ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم } (البقرة: 105).

وقال: { يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء } (المائدة، آية: 51).
وكذلك نهى عن طاعتهم واتباع أهوائهم وخصالهم السيئة فقال: { ولن ترضى عنك اليهود ولا
النصارى حتى تتبع ملتهم } (البقرة، آية: 120).
وقال: { يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين }
(آل عمران، آية: 100).

وقال: { ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك } (المائدة، آية: 49).

وبين خطر موالاتهم واتخاذهم بطانة، وأن ذلك فيه خطر عام يهدد مصالح الأمة وكيانها، فقال تعالى: { يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم لايألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر } (سورة آل عمران، آية: 18).

كما جاء النهي عن التقليد والتحذير منه بأسلوب القصة فإن الله سبحانه وتعالى - ذكر في القرآن الكريم الأمم الكافرة الغابرة وأخبارها ومواقفها العدائية ضدّ دعوة التوحيد ومسيرة الإيمان على مدار التاريخ، وما حصل لها من أنواع العقوبات والعذاب جزاء ضلالها وانحرافها، وهو بذلك يأمرنا بأخذ العبرة والعظة، وبالاعتبار بهم والاعتاظ بقصصهم والابتعاد عن تقليدهم، وتجنب سلوك نهجهم (1).

وذلك مثل قوله تعالى لمّا ذكر ما فعله بأهل الكتاب من المثلات { فاعتبروا يا أولي الأبصار } (الحشر، آية: 9).

وقال تعالى: { لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب } (سورة يوسف، آية: 111).

وقسم العلماء الآيات التي نهت عن تقليد الكفار في القرآن على قسمين:

قسم بين أن مخالفتهم في عامة الأمور أصلح للمسلمين، وهذا تدل عليه جميع الآيات.

وقسم بين أن مخالفتهم مطلوبة وواجبة شرعاً، وهذا تدل عليه بعض الآيات (2).

ووردت في السنة - عن رسول الله ρ - أحاديث عامة تنهى عن التقليد الأعمى، والتشبه الممقوت، وتحذر من مغبة ذلك فقال ρ في معرض النهي عن التشبه بكل مالم يشرعه أو يقره الإسلام، والنهي عن تقليد كل ما هو على غير سلوك المسلمين، مثل قوله ρ : " من تشبه بقوم فهو منهم " (3) كما وردت أحاديث كثيرة وصحيحة في النهي عن تقليد الكفار - عموماً - وأهل الكتاب، والمشركين، والمجوس، وأهل الجاهلية، فقال ρ في مناسبات عديدة:

(1) انظر: التقليد والتبعية، ص51.

(2) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية، ص17.

(3) سنن أبي داود، كتاب لباس الشهرة (367/2).

- " خالفوا اليهود " (1)
" خالفوا المشركين " (2)
" ولا تتشبهوا باليهود " (3)

وحين حذر ρ من تقليد الكفار وما ينتج عنه من خطر على عقيدة المسلمين وكيانهم، علل ذلك بما هم عليه من انحراف وضلال، فعن جابر τ قال : قال رسول الله ρ :
(لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وإنكم إما أن تصدقوا بباطل وإما أن تكذبوا بحق ، وإنه والله لو كان موسى حياً بين أظهركم، ما حل له إلا أن يتبعني) (4).
كما بين ρ -محذراً- ومشيراً الى ما سيحصل للمسلمين بتخليهم عن منهج الله واقتنائهم آثار اليهود والنصارى والأمم المنحرفة، وذلك فيما رواه أبو سعيد الخدري τ قال: قال رسول الله ρ:
(لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم قلنا يارسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟؟) (5).

إن من مقاصد الشريعة منع المسلمين من التقليد الأعمى، إذ أن الله أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وقد أكمل الله الشريعة للناس { اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً } (سورة المائدة: آية 30).
لقد جعل الله الشريعة مشتملة على كل المصالح في كل الأزمان والأمكنة ولكل الناس، فلا حاجة للاستمداد من الكفار أو تقليدهم وواضح ما يحدثه التقليد من خلل في شخصية المسلم، من الشعور بالنقص والصغار، والضعف والانهازمية، ثم البعد والعزوف عن منهج الله وشرعه، فقد

- (1) وردت في عدة أحاديث منها قوله ρ : (خالفوا اليهود فإنهم لا يصلون في نعالهم).
(2) في صحيح البخاري.
(3) سنن أبو داود ابواب الاستئذان.
(4) مسند الامام أحمد (338/2).
(5) البخاري ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب لتتبعن سنن من كان قبلكم ، المجلد الثالث، الجزء التاسع، ص83.

أثبتت التجربة أن الأعجاب بالكفار وتقليدهم سبب لحبهم والثقة المطلقة بهم والولاء لهم والتكر للاسلام ورجاله وابطاله وتراثه وقيمه وجهل ذلك كله وهذا ماحدث للدولة العثمانية وولاياتها التابعة لها في القرنين الماضيين، حين تخلوا عن رسالتهم وحين استسلموا لسلطان الغرب ونهلوا من سمه الزعاف(1).

إن الحكم الشرعي للتقليد يختلف باختلاف نوعه وكيفيته ومدى خطورته وأثره، كما يختلف باختلاف المقلد والمقلد، والعلاقة الشرعية بينهما، واعتقاد المقلد في تقليده لغير المسلمين. فيكون التقليد كفرة إذا كان في العقائد لأصول الإيمان وأصول العقيدة، أو الأحكام القطعية في الشريعة، أو مسائل الغيب الثابتة بالنص، وذلك كتقليد النصارى في عقيدة التثليث وتقليد الشيوعيين في إنكار النبوات والأديان.

وكتقليد الدول الكافرة في تعطيل حدود الله واعتقاد عدم صلاحية الشريعة الإسلامية للتطبيق، وغير ذلك.

ويكون التقليد فسقاً حين يكون في الأخلاق الفاسدة وارتكاب المنكرات والمعاصي كشرب المسكرات ونحوه.

ويكون حراماً مطلقاً، كموافقة الكفار في أعيادهم واحتفالاتهم وتقليدهم في ذلك.

ويكون مكروهاً كالتقليد غير المقصود ولا المتعمد في أمور الحياة العامة - إذا لم يمس العقيدة ولم يكن من خصائصهم وسماتهم.

وإذا خيف أن يؤدي التقليد إلى شيء من الأمور السابقة، - الكفر أو الفسوق أو الحرمة أو الكراهة - اتخذ الحكم ذاته، سداً للذريعة.

ويكون التقليد مباحاً بشروط وقيود، كالتقليد في الإنتاج المادي والعلوم الإنسانية والتجريبية البحتة، والتجارب العسكرية ونحوها، وذلك بعد صياغتها صياغة إسلامية وتنقيتها من شوائب (

(1) انظر: التقليد والتبعية، ص81.

(الجاهلية) وتجريدها من مصالح الكفار وبألا تتعارض مع المصالح الشرعية الدينية والدينية(1). إن النظرة الفاحصة في تاريخ الأمم واستقراء أحوالها تبين لنا أن التقليد بين أمة وأمة، وبين قوم وقوم، يحدث بينهما من التشابه والتفاعل والانصهار، ما يضعف التمايز والاستقلال في الأمة المقلّدة ويجعلها مهتزة الشخصية، واقتضت سنة الله في خلقه أن الأمة الضعيفة المغلوبة تعجب بالأمة القوية المهيمنة الغالبة(2) ومن ثم تقليدها فتكسب من أخلاقها وسلوكها وأساليب حياتها، إلى أن يصل الأمر إلى تقليدها في عقائدها وأفكارها وثقافتها وأدبها وفنونها، وبهذا تفقد الأمة المقلّدة مقوماتها الذاتية وحضاراتها - إن كانت ذات حضارة - وتعيش عالة على غيرها. وإذا لم تستدرك الأمة المغلوبة أمرها، وتتخلص بجهودها الذاتية وجهادها من وطأة التقليد الأعمى فإنه - ولا بد - أن ينتهي بها الأمر إلى الاضمحلال والاستعباد وزوال الشخصية تماماً، فتصاب بأمراض اجتماعية خطيرة من الذل والاستصغار والشعور بالنقص وعدم الثقة بالنفس، أضف إلى ذلك كله التبعية السياسية والاقتصادية والانهازامية في كل شيء وبالنسبة للأمم الربانية ذات الرسالة الإلهية - كالأمة الإسلامية - فإن تقليدها لغيرها يصرفها عن رسالتها ويصرف جهدها وطاقتها عن دين الله ويرهقها بالبدع والخرافات ومالم يشرعه الله من النظم والقوانين، والأمراض الخلقية مما يؤدي بها في النهاية إلى التخلي عن رسالتها ومن ثم الولاء للكفار والطواغيت وهذا إيذان ببطش الله وعقابه، كما ورد في قصص القرآن عن أمم كثيرة من هذا النوع، والأمة اليوم واقعة بما وقعت فيه تلك الأمم من التقليد الأعمى للكفار والتخلي عن رسالة الله والتبعية والولاء للكافرين في كل شئون الحياة، والحكم بغير ما أنزل الله واستباحة الزنى والربا والفجور، ومع هذا مازالت تمنُّ على الله بإسلامها(3).

(1) انظر: التقليد والتبعية، ص83.

(2) انظر: مقدمة ابن خلدون، فصل اقتداء المغلوب بالغالب، ص147.

(3) انظر: التقليد والتبعية ، ص114،115.

المبحث العاشر

السلطان عبدالعزيز

(1277-1293/1861-1876م)

تولى الحكم بعد أخيه في أواخر عام 1277هـ. وفي عهده تفجرت ثورة في جزيرة كريت وأخمدت عام 1283هـ/1863م. وتم فتح قناة السويس عام 1285هـ/1869م، وصدرت مجلة الأحكام العدلية وقانون التجارة البحرية في أوائل عهده، وزار أوروبا وفكر في الاستفادة من خلاف الدول الأوروبية فيما بينها، لكنه وجد أنها تتفق جميعها ضد الدولة لأنها دولة إسلامية، ولم يستطع الأوروبيون أن ينسوا الحقد الصليبي المغروس في نفوسهم، غير أنهم كانوا يختلفون فيما بينهم حسب مصالحهم الخاصة(1).

وكانت الدول الأوروبية عازمة على الضغط على الحكومة العثمانية للإستمرار في خطوات الإصلاح والنهوض المزعوم على النهج الغربي، والفكر الأوربي، والمبادئ العلمانية وأكد السلطان عبدالعزيز عزمه على مواصلة السير في الطريق الذي سلكه أبوه محمود الثاني وأخوه عبدالمجيد، فأبقى على كل أصحاب المناصب من المتكلفين بتنفيذ الإصلاحات. وكان من أهم الإصلاحات الإدارية في عهده صدور قانون الولايات عام (1281هـ/1864م)، وفي مجال الإدارة أيضاً أنشئت محكمة عليا قضائية (ديوان الأحكام العدلية). كما أنشئ عام (1285هـ/1868م)

(1) انظر: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص490-492.

مجلس للدولة على النسق الفرنسي سمي "شواري دولت" أي مجلس شوري الدولة، وكان من أهم اختصاصاته مناقشة الميزانية(1).

أما في مجال التعليم، فقد أسست مدرسة ثانوية عام 1285هـ/1868م هي مدرسة " غلطة سراي"، كان برنامج الدراسة فيها خيراً من برامج المدارس الثانوية الأخرى، وكانت كل المواد التي تدرس فيها باللغة الفرنسية فيما عدا اللغة التركية. وكانت الغاية من إنشائها هي تخريج طائفة من الشباب القادر على حمل عبء الوظائف العامة وكان هؤلاء الشباب من مختلف الديانات، فالأغلبية من المسلمين، ولكن كان بها اليونان والأرمن، وهم نصارى، كما كان بها أعداد من اليهود. والواقع أن الطلاب قد أقبلوا على هذه المدرسة حتى بلغ عددهم عام 1869م ستمائة طالب مسلمين ونصارى ويهود(2).

ورغم هذه الخطوات الإصلاحية التي تمت في عهد السلطان عبدالعزیز، إلا أن الدول الأوروبية لم تعتبرها كافية لتنهض دليلاً على أن الدولة العثمانية إنما تريد الإصلاح، وتعمل لتحسين رعاياها النصارى، ولإزالة المفاصد التي استشرت في نظام الإدارة والحكومة، وهي مفاصد كانت في نظر الكثير من المعاصرين الأوروبيين تهدد بانهايار الدولة في النهاية(3).

وكان رأي فريق كبير من الإنجليز وغيرهم من المعاصرين، أن زوال الدولة العثمانية قد بات ضرورياً، حيث إنها قد فشلت في الأخذ بأسباب الإصلاح الأوروبي، فقال لورد كلارندون وزير الخارجية البريطانية في عام 1865م: "إن الطريقة الوحيدة لإصلاح أحوال العثمانيين هي بإزالتهم من على سطح الأرض كلية"(4). وهذا يؤكد حقد النصارى على الدولة العثمانية المجاهدة لأنها

(1) انظر: الدولة العثمانية، د. اسماعيل ياغي، ص 159.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 159.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 159.

(4) انظر: الدولة العثمانية، د. اسماعيل ياغي، ص 159.

لقد فشلت الدولة العثمانية في الأخذ بأسباب الإصلاح الأوروبي لإنعدام كل صلة بين المبادئ الأوروبية وبين مبادئ الدولة العثمانية المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ρ (1).

عزل السلطان عبدالعزیز:

كان السلطان عبدالعزیز قد زار أوروبا، ورأى اتفاق وتآمر الدول الأوروبية على الدولة العثمانية، فحاول أن يستفيد من الخلاف القائم على المصالح بين دول أوروبا الغربية وروسيا لمصلحة الدولة العثمانية، فبدأ يكثّر من دعوة السفير الروسي، إلى استانبول فخافت الدول الأوروبية، وبدأت تشيع الشائعات عنه في التبذير والإسراف (2) واستطاع مدحت باشا أن يعزله ثم قام مع عصابته بقتله في عام (1293هـ/1876م) (3).

إن مدحت باشا كان من يهود الدونمة روجت له الدعاية الماسونية في أنحاء الشرق العربي والغربي على أنه البطل العظيم حامل لواء الإصلاح والحرية في السلطنة العثمانية، وسمّته (أبو الدستور). وسخّر له أبواب دعايتها من صحف ومجلات وإذاعات، فوصل بذلك إلى أعلى الرتب منها باشوية سوريا والعراق، ومنصب الصدر الأعظم الذي يعتبر أكبر الرتب في السلطنة العثمانية. ثم بدأ بعد ذلك يدس ويخرّب كما تملي عليه يهوديته وماسونيته، ويغمز دائماً بالتعاون مع الماسونية إلى مساوئ الحكم وخاصة حكم السلطان عبدالحميد عدوّ الماسونية الأكبر - الذي لم يترك ثقباً من بصيص أمل لليهود في فلسطين إلا وسّده، ثم أسس " مدحت باشا " ويهود الدونمة الماسونية العالمية حوله " جمعية الاتحاد والترقي " التي حملت نفس شعار الماسونية وجعلت مقرها بسلانيك وانكشفت جوانب من هذا اليهودي للسلطان عبدالحميد فألقى القبض عليه

(1) انظر: الدولة العثمانية، د.جمال عبدالهادي، ص110.

(2) المصدر السابق نفسه، ص110

(3) المصدر السابق نفسه، ص110.

وعزله ونفاه فيما بعد (1).

كان سبب مقتل السلطان عبدالعزيز :

- رفضه للذساتير الغربية برمتها، وكذلك العادات الغربية البعيدة عن البيئة الإسلامية، وتمكنه من إصلاح أحوال الدولة العثمانية إلى درجة كبيرة، وخاصة في المجال العسكري، حيث قوى الجيش، واستبدل الأسلحة القديمة بأخرى حديثة، واستورد مايلزم من السلاح من أفضل مصانع السلاح في أوروبا، ووضع التنسيقات العسكرية على الطراز الحديث، وشكّل الفرق العسكرية لأبناء العشائر والقبائل من كافة الولايات، وسلّح القلاع والحصون بأضخم وأحدث المدافع، فأصبحت مدفعية الدولة العثمانية يضرب بها المثل في التقدم، وأصلح دار المدفعية " الطوبخانة " وأدخل فيها المعدات والآلات الحديثة، حتى صار بإمكانها صنع كافة الأسلحة على الطراز الجديد، كما قام بإصلاحات في مجال البحرية وأحل الخبراء العثمانيين محل الخبراء الأجانب رغم اعتراض هؤلاء ودولهم، وأصبحت في عهده الدولة العثمانية من الدول البحرية الأولى في العالم، وعمل على إرسال البعثات البحرية إلى الخارج، واشترى المدرعات، وشيد عدة معامل لصنعها ولصنع الآلات والمراجل، وعادت دار صناعة " إزميت " إلى ما كان لها من مجد، كما أصلح الكثير من أحواض السفن، وأسس مجلة الأحكام العدلية، وعمل على احقاق الحق، وحوكم كبار الحكام، أمثال " خسرو باشا " و " عاكف باشا " و " طاهر باشا " وبذلك ظهر للعموم حبه للعدل والإصلاح وهذا لايرضي الدول الأوروبية ولا تقبل به لأنها تريد أن يسود الظلم حتى تنهار الدولة بسرعة وقام بإصلاحات مالية، وأمر بوضع ميزانية منضبطة وألغيت القوائم المالية، وسوّت بذلك الدولة جميع ديونها، وأصبحت المعاملة بالنفوذ وانتظمت الأحوال المالية، لقد هال الدول الأوروبية رؤية ماحدث على يد هذا السلطان في وقت قصير، فتعرقلت مخططاتهم في القضاء على الرجل

(1) انظر: اليهود والماسونية لبعدرالرحمن الدوسري، ص71،70.

المريض، لذا رأوا تدبير مؤامرة خلعه ثم قتله (1) إن جذور المؤامرة في مقتل السلطان عبدالعزيز ترجع إلى تخطيط مدروس من قبل القناصل وممثلي الدول الأوروبية في العاصمة العثمانية وقاموا بتنفيذها عن طريق عملائهم ممن تشربوا بأفكارهم من رجال الدولة وعلى رأسهم صنيعه الماسونية المدعو مدحت باشا (2) الذي اعترف أثناء محاكمته باشتراكه في عزل وقتل السلطان عبدالعزيز، وهذا أمر معروف تاريخياً ومدون في الوثائق (3).

المبحث الحادي عشر

السلطان مراد الخامس

(1293هـ) ومدة ولايته 93 يوماً

(1) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص 205، 206.

(2) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص 205.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 208.

هو ابن السلطان عبدالمجيد ولد في 25 رجب من عام 1256هـ الموافق 1840م وارتقى منصب الخلافة في 7 جمادي الأولى من عام 1293هـ(1).

كان على جانب كبير من الذكاء والثقافة التركية والغربية، كما أبدى اهتماماً بالأدب والعلوم والشؤون الأوروبية، وزار أوروبا والتقى ببعض الأوروبيين، وانخرط في سلك الماسونية، وكان على اتصال بنامق كامل أحد أعضاء الحركة وغيره، وكان ميالاً إلى الدستور والليبرالية والعلمانية(2) وكانت الحركة الماسونية هي التي دفعت به إلى السلطنة ولكنه أصيب باضطراب عقلي بعد أن أصابته الدهشة والفرع عند إيقاظه بعد منتصف الليل عند خلع السلطان عبدالعزيز ولما بلغه مقتل حسن الجركسي ظهرت عليه اضطرابات عصبية أثرت على جهازه الهضمي. وكانت صحته في تدهور مستمر في الوقت الذي كان مدحت باشا يحاول إعلان الدستور الوضعي بدلاً من الشرع أثناء مرضه ويدرس القوانين والنظم الغربية ويتصل بأعوانه حتى استطاع إعداده بشكل جاهز وقد قيل إن جنون السلطان ظهر للناس بشكل واضح فكان لا بد من خلعه وأعلن ذلك من قبل شيخ الإسلام عام 1876م وكان نص الفتوى: " إذا جنَّ إمام المسلمين جنوناً مطبقاً ففات المقصود من الإمامة فهل يصح حل الإمامة من عهده؟ الجواب: يصح والله أعلم: كتبه الفقير حسن خير الله عفي عنه "(3) وبعد عزله تعافى من مرضه العقلي، وأمضى باقي حياته في قصر "جراغان" حتى توفي عن عمر يناهز الرابعة والستين(4) لقد أثر الشباب من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي على مراد الخامس، فانتسب إلى المحفل الماسوني، وأدمن شرب الخمر وتشبع بالأفكار العلمانية

(1) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص 209.

(2) انظر: الدولة العثمانية، د. اسماعيل ياغي، ص 177، 178.

(3) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص 209.

(4) المصدر السابق نفسه، ص 210.

والفلسفة الغربية(1) وقد قال عنه السلطان عبدالحميد : " كان من طبيعته أن يندع لمن يبتسمون في وجهه، دون أن يفكر في المعقول وغير المعقول، حتى أنه بسبب ذلك لم يكن يخطر على باله، عدم لياقة اشتراكه، وهو خليفة المستقبل، في المحفل الماسوني، وتقدير المصيبة التي ستجتم عن ذلك، وقد استطاع بعض الأشخاص، ممن يدعون أنهم أنصار التجديد أن يحرضوه على إدمان الخمر، وزينوا له جوانب نستخف بها في الحياة الأوروبية "(2).

الفصل السادس

عصر السلطان عبدالحميد

المبحث الأول

السلطان عبدالحميد

(1293-1326هـ/1876-1909م)

السلطان عبدالحميد هو السلطان الرابع والثلاثون من سلاطين الدولة العثمانية. تولى عرش الدولة وهو في الرابعة والثلاثين من عمره. إذ ولد في 16 شعبان عام 1258هـ (1842م). ماتت والدته السلطان عبدالحميد وهو في العاشرة من عمره فاعتنت به الزوجة الثانية لأبيه وكانت عقيماً. فأحسن تربيته وحاولت أن تكون له أم، فبذلت له من حنانها كما أوصت بميراثها له. وقد تأثر السلطان عبدالحميد بهذه التربية وأعجب بوقارها وتدينها وصوتها الخفيض الهادي، وكان لهذا انعكاس على شخصيته طوال عمره.

تلقى عبدالحميد تعليماً منتظماً في القصر السلطاني على أيدي نخبة مختارة من أشهر رجالات

(1) المصدر السابق نفسه، ص210.

(2) انظر: والدي السلطان عبدالحميد ، ص178.

زمنه علماً وخلقاً. وقد تعلم من اللغات العربية والفارسية ، ودرس التاريخ وأحب الأدب، وتعمق في علم التصوف، ونظم بعض الأشعار باللغة التركية العثمانية(1).

وتدرب على استخدام الاسلحة وكان يتقن استخدام السيف، وإصابة الهدف بالمسدس، ومحافظ على الرياضة البدنية، وكان مهتماً بالسياسية العالمية ويتابع الأخبار عن موقع بلاده منها بعناية فائقة ودقة نادرة.

أولاً : زيارته الى أوروبا مع عمه السلطان عبدالعزيز :

قام السلطان عبدالعزيز بزيارة أوروبا يرفقه وفد عثمانى رفيع المستوى وكان من ضمنه الأمير عبدالحميد الذي ظهر أمام الأوروبيين بملابسه البسيطة وسيرته الحميدة في العفة(2) وقد استعد الأمير عبدالحميد لهذه الرحلة بمطالعات واسعة، فإنه كان دقيقاً في رؤيته، وفي حكمه على الأشياء التي رآها في الغرب، ولقد ألتقى الوفد العثماني بسياسة ذلك العصر في أوروبا مثل؛ نابليون الثالث في فرنسا، والملكة فكتوريا في إنجلترا، وليوبلد في الثاني في بلجيكا، وغيليوم الأول في ألمانيا، وفرنسوا جوزيف في النمسا(3) وقد سبقت تلك الرحلة زيارته مع السلطان عبدالعزيز الى مصر وانتبه أثناء وجوده في مصر الى الزيف الكاذب للبريق الأوروبي والأخذ هناك بالشكليات الأوروبية ، مما جعل مصر تستدين وتغرق في الديون، نتيجة انطلاق الوالي الخديوي اسماعيل باشا في إسرافه ومحاولته جعل مصر قطعة من أوروبا ، وأما رحلته الى أوروبا فقد استغرقت من 21 يونيو الى 7 أغسطس من عام 1867م. زار الوفد العثماني: فرنسا وإنكلترا وبلجيكا والدولة النمساوية المجرية.

وفي هذه الرحلة الأوروبية ، تفتح ذهن عبدالحميد الى أمور كثيرة، انعكست على فترة حكمه

(1) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، محمد حرب، ص31.

(2) المصدر السابق نفسه، ص33.

(3) المصدر السابق نفسه، ص33.

- 1- الحياة الأوروبية بكل مافيه من طرق معيشة غريبة وأخلاقيات مختلفة وشكليات.
 - 2- التطور الصناعي والعسكري وبخاصة في القوات البرية الفرنسية والألمانية وفي القوات البحرية البريطانية.
 - 3- الأعباء السياسية العالمية.
 - 4- تأثير القوى الأوروبية على سياسة الدولة العثمانية، وبخاصة تأثير نابليون الثالث على عمه السلطان عبدالعزيز، وضغط نابليون عليه، ليلتزم بمساندة الوزير علي باشا. رغم أن السلطان عبدالعزيز لم يكن يُشعر أحداً أنه تحت تأثير أي قوة غريبة(1).
- اقتنع الأمير عبدالحميد في هذه الرحلة : أن فرنسا دولة لهو، وإنكلترا دولة ثروة وزراعة وصناعة. أما ألمانيا فيه دولة نظام وعسكرية وإدارة وكان إعجابه بألمانيا كثيراً، لذلك عهد بتدريب الجيش العثماني إليها -عندما أصبح سلطاناً- ولقد تأثر الأمير عبدالحميد بهذه الرحلة ودفعه ذلك التأثير إلى الاهتمام بإدخال المخترعات الحديثة في دولته في مختلف نواحي الحياة: تعليمية وصناعية ووسائل إتصالات وعسكرية، والأمثلة على ذلك كثيرة منها: شراءه غواصتين وكان سلاح الغواصات جديداً. وأدخل التلغراف إلى بلاده من ماله الخاص، وأنشأ المدارس الحديثة، وأدخل فيها العلوم العصرية، وأدخل إلى البلاد أول سيارة وأول دراجة، وأخذ بنظام القياس المتري. لكنه وقف بحزم ضد سريان الفكر الغربي في البلاد(2).
- أثرت رحلة عبدالحميد إلى أوروبا أيضاً في اتباعه سياسة استقلالية تجاه أوروبا. ولم يعرف عن عبدالحميد تأثير أي حاكم أوروبي عليه، مهما كانت صداقته ومهما كانت درجة التقارب بين بلده وبين الدولة العثمانية.

(1) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص 56.

(2) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص 57.

ولفت انتباه عبدالحميد أثناء هذه الرحلة الحوار الذي كان يجريه فؤاد باشا الصدر الأعظم العثماني مع بعض الزعماء الأوروبيين:

سُئِلَ فؤاد باشا أثناء هذه الرحلة : بكم تبيعون جزيرة كريت؟

فرد الباشا قائلاً: (بالثمن الذي اشتريناها به). وكان يعني بذلك : أن العثمانيين حاربوا في سبيل الحفاظ على جزيرة كريت 27 عاماً كلها حروب.

وسُئِلَ فؤاد باشا أيضاً: (ماهي أقوى دولة في العالم الآن؟).

فرد قائلاً: (أقوى دولة الآن هي الدولة العثمانية. ذلك لأنكم تهدمونها من الخارج ونحن نهدمها من الداخل. ولم يستطع كلانا هدمها)(1).

تعلم عبدالحميد من هذا درس القدرة على إسكات القوى التي تود تحطيم الدولة العثمانية. وتعلم ذكاء الحوار السياسي وهو ما برع فيه بعد ذلك.

وكان عمر عبدالحميد أثناء هذه الرحلة 25 عاماً(2).

ثانياً: بيعته للخلافة وأعلان الدستور:

ببيع بالخلافة بعد أخيه مراد ، يوم الخميس 11 شعبان 1293هـ 31 أغسطس 1876م. وكان عمره آنذاك اربعاً وثلاثين سنة، وحضر لمبايعته الوزراء والأعيان وكبار الموظفين من مدنيين وعسكريين في سراي طوبقوبو. وهنأه بالخلافة كذلك رؤساء الطوائف المختلفة، وأطلقت المدافع بسائر أطراف السلطنة احتفالاً بهذه المناسبة. وأقيمت الزينات بجميع جهات استانبول ثلاثة أيام وأرسل الصدر الأعظم برقيات الى دول العالم لإعلامها بذلك(3).

وكان السلطان عبدالحميد قد عين مدحت باشا صدراً أعظم، ثم أعلن في 23 ديسمبر

(1) المصدر السابق نفسه، ص58.

(2) انظر: السلطان عبدالحميد ، ص58.

(3) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، ص183.

(1293هـ/1876م) الدستور الذي يضمن الحريات المدنية وينص على مبدأ الحكومة البرلمانية. هذا الدستور ، كان البرلمان يتكون من مجلسين: مجلس النواب أو المبعوثان ثم مجلس الأعيان أو الشيوخ(1).

وقد تعرض السلطان عبدالحميد في بداية حكمه الى استبداد الوزراء واشتداد سياستهم التغريبية بقيادة جمعية العثمانيين الجدد والتي كانت تضم النخبة المثقفة التي تأثرت بالغرب والتي استطاعت الأيدي الماسونية تجندهم لخدمة أهدافها، وقد بلغ من استبداد الوزراء بالحكم، أن كتب مدحت باشا، وهو في مقام الرئاسة لنخبة العثمانيين الجدد، الى السلطان عبدالحميد في أول عهده بالعرش (1877م): (لم يكن غرضنا من إعلان الدستور إلا قطع دابر الاستبداد، وتعيين ما لجلالتكم من الحقوق وما عليها من الواجبات، وتعيين وظائف الوزراء، وتأمين جميع الناس على حريتهم وحقوقهم، حتى تنهض البلاد الى مدارج الارتقاء، وإني أطيع أوامركم إذا لم تكن مخالفة لمنافع الأمة...)(2).

ويقول السلطان عبدالحميد في هذا: (ولقد وجدت مدحت باشا ينصب نفسه أمراً ووصياً عليّ. وكان في معاملته بعيداً عن المشروعية (الديمقراطية) وأقرب الى الاستبداد)(3). وكان مدحت باشا وأصحابه من الماسون يدمنون الخمر قال السلطان عبدالحميد في مذكراته: (...ومن المعروف أن أحرار ذلك العهد من شعراء وأدباء اجتمعوا مساء يوم صدور مرسوم القانون الأساسي في قصر مدحت باشا، لا ليتحدثوا في أمور الدولة ، بل في أمور السكر والعريضة، وهم يحتسون الخمر، ومدحت باشا يدمن الخمر منذ شبابه ومشهور عنه هذا وألقت نشوة الخمر بالنشوة التي بعثها إعلان القانون الاساسي وعندما نهض مدحت باشا من على مائدة

(1) المصدر السابق نفسه، ص178.

(2) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص59.

(3) المصدر السابق نفسه، ص60.

الأكل خرج مستنداً على أذرع الآخرين حتى لا يقع على الأرض. وبينما كان يغسل يديه قال لزوج أخته طوسون باشا وهو يؤرجح لسانه في فمه (بتأثير الخمر).

- ياباشا! من يستطيع الآن، وبعد كل ما وصلت إليه أن يبعثني عن منصبتي؟! من؟! قل لي كم عاماً سألني في الصدارة العظمى؟
رد عليه طوسون باشا قائلاً:

- إذا بقيتم على هذا الحال، فليس أكثر من أسبوع(1)!

لقد كان مدحت باشا في مجالس الخمر الخاص به يفشي أدق اسرار الدولة وكانت هذه الأسرار تنتشر في اليوم التالي بين أهالي استانبول. وفي إحدى الليالي تحدث مدحت باشا عن عزمه على إعلان الجمهورية في الدولة العثمانية وأنه سيصبح رئيساً للجمهورية العثمانية الجديدة ثم إمبراطوراً لها. تماماً مثلما حدث مع نابليون الثالث بفرنسا(2).

وكان مدحت باشا متهماً بقتل السلطان عبدالعزيز وشكل السلطان عبدالحميد لجنة للتحقيق في ذلك ثم قدم المتهمون الى المحكمة التي أدانتهم وحكم على مدحت باشا بالإعدام وتدخل السلطان عبدالحميد وخفض الحكم الى السجن ثم نفي الى الحجاز حيث مقر السجن العسكري هناك.
كان الدستور ينص على فصل السلطات من حيث الشكل لا المضمون، كما أن التغييرات التي طرأت على نظام الحكم طبقاً له كانت من قبيل التطور، فلم يفكر أحد في تقليص حق السلطان في السيادة، كما نص الدستور على أن شخص السلطان مصون لا تمس، وأنه لا يسأل أمام أحد عن أعماله، ومن ثم كان الدستور مرتين بشخصه(3). فله وحده حق تعيين وإقالة الوزراء، كما أنه هو الذي يعقد المعاهدات ويعلن الحرب ومعاهدات الصلح، وهو القائد العام للقوات المسلحة ومن

(1) انظر: مذكرات السلطان عبدالحميد ، محمد حرب ، ص77.

(2) المصدر السابق نفسه ، ص77.

(3) انظر: في أصول التاريخ العثماني، ص234.

حقه كذلك إصدار كافة القوانين في شتى المجالات دون الرجوع الى البرلمان. وهكذا ظل السـ _____ اطان عبدالحميد _____ د الثـ _____ اني (1293-1327هـ/1876-1909م) يتمتع بالسلطة التي سبق لأسلافه أن تمتعوا بها، بحيث إن مدحت باشا ذاته كان أول الضحايا. كما أن الصلاحيات الواسعة التي منحها الدستور للسلطان حددت من سلطة رئيس الوزراء بحيث لم يتيح له أن يلعب سوى دور ثانوي في تسيير دفة الحكم (1).

ونص الدستور على حرية اعضاء البرلمان في إبداء آرائهم وفي التصويت، وكان لا يمكن محاكمتهم إلا إذا تجاوزوا حدود قوانين المجلس، وحدد الدستور اللغة التركية العثمانية باعتبارها اللغة الرسمية للدولة التي يجري بها الحديث في كل الجلسات، كما نص أن يكون التصويت سرياً أو علنياً بحسب الظروف، وعلى أن يقر مجلس النواب الميزانية دون تدخل من جانب السلطان بعكس الحال فيما يتعلق بالقوانين العادية.

وأما بالنسبة لحقوق الأفراد فقد أعلن الدستور أن العثمنة هي السياسة الرسمية للدولة في إطار مبدأ المساواة الذي نصت عليه التنظيمات فقد خلع الدستور صفة العثمانية على كل رعايا الدولة ايا كان دينهم، ونص على تمتعهم بالحرية الشخصية، وعلى تساوي كل العثمانيين أمام القانون وعلى منحهم نفس الحقوق مع إلزامهم بنفس الواجبات. ونص الدستور كذلك على استقلال القضاء وأبقى على المحاكم الشرعية على أن يلجأ غير المسلمين لمحاكم الملل في المسائل المتعلقة بشؤونهم الدينية (2).

وقد أمر السلطان عبدالحميد بأن يوضع الدستور موضع التنفيذ، وبأن تجرى انتخابات عامة، كانت الاولى من نوعها في التاريخ العثماني ، وقد أسفرت تلك الانتخابات على تمثيل المسلمين

(1) انظر: في أصول التاريخ العثماني، ص 234.

(2) انظر: الدولة العثمانية ، د. اسماعيل ياغي ، ص 180.

بـ(71) مقعداً والنصارى بـ(44) مقعداً واليهود بـ(4) مقاعد واجتمع أول برلمان عثماني في 29 مارس عام 1877م (1294هـ) وكان مجلس الأعيان والشيوخ يتكون من 26 عضواً بالتعيين من بينهم 21 مسلماً، في حين كان مجلس النواب يتكون من مائة وعشرين عضواً. وقد قام بعض نواب العرب بدور هام خلال المناقشات، غير أن مجلس المبعوثان كانت مدته قصيرة؛ فقبل أن يتم المجلس دورة انعقاده الثانية، طلب النواب في 13 فبراير عام 1878م (1296هـ) أن يمثل ثلاثة من الوزراء أمام المجلس للدفاع عن أنفسهم من الاتهامات الموجهة إليهم، فما كان من السلطان عبدالحميد إلا أن عطل المجلس وأمر بعودة النواب إلى بلادهم، وقام بنفي وإبعاد البارزين منهم(1).

وبذلك بلغت مدة انعقاد المجلس خلال دورته الأولى والثانية عشرة شهور وخمسة وعشرين يوماً ولم يدع هذا المجلس للاجتماع ثانية لمدة ثلاثين عاماً، لم تفتح خلالها قاعة المجلس ولا مرة واحدة(2).

لقد كان السلطان عبدالحميد مضطراً في إعلان الدستور بسبب الضغوط التي مارسها عليه الماسون بقيادة مدحت باشا ولذلك عندما اتحيت له الفرصة قام بتعطيل المجلس. إن عبدالحميد الثاني كان ضد الديمقراطية والحكم بالدستور الذي يعرف في المصطلح العثماني باسم "المشروطية" أي الاشتراط على الحاكم بتحديد سلطاته، على اعتبار أن هذا فكر وافد من الغرب ولذلك كان ضد المنادين به ورائدهم مدحت باشا وانتقد وزيره هذا بقوله: (لم ير غير فوائد الحكم المشروطي في أوروبا، لكنه لم يدرس أسباب هذه المشروطية ولا تأثيراتها الأخرى. أقراص السلفات لاتصلح لكل مرض ولكل بنية. وأظن أن أصول المشروطية لا تصلح لكل شعب ولكل

(1) المصدر السابق نفسه، ص181.

(2) انظر: البلاد العربية والدولة العثمانية، ساطع الحصري، ص99-100.

بيئة قومية. كنت أظن أنها مفيدة أما الآن : فإني مقتنع بضررها"⁽¹⁾.

كان للسلطان حججه في هذا، منها سوء تصرف المنادين بالدستور في أول استجابة للسلطان لأفكارهم. من ذلك:

أن طلبت الحكومة من السلطان في وقت إعلان السلطان للدستور ، أن يوقع على بعض قرارات منها تعيين ولاية نصارى في ولايات، أغلب السكان من المسلمين ، وعلى قرار، بقبول طلبة من النصارى في الكلية الحربية العثمانية التي هي عماد الجيش العثماني ، فرفض السلطان التوقيع فما كان من مدحت باشا -وهو الوزير- إلا أن قال للسلطان: (إن مقصدنا من إعلان الدستور أن ننهي استبداد القصر، ويجب على جلالتم أن تعرف واجباتكم)⁽²⁾.

ومن الأسباب التي يسوقها السلطان عبدالحميد في رفضه للفكر الدستوري قوله: (إن الدولة العثمانية دولة تجمع شعوباً شتى، والمشروطية في دولة كهذه موت العنصر الأصلي في البلاد، وهل في البرلمان الانكليزي نائب هندي واحد؟ وهل في البرلمان الفرنسي نائب جزائري واحد؟)⁽³⁾. ولم يغير السلطان عبدالحميد موقفه تجاه الحكم الدستوري ، في دولته حتى بعد أن عزل عن العرش، وأخذ الناس يمارسون الحكم الدستوري، فيقول : (ماذا حدث عندما أعلنت المشروطية؟ هل قلت الديون؟ هل كثرت الطرق والموانئ والمدارس؟ هل أصبحت القوانين الآن أكثر تعقلاً ومنطقاً؟! وهل ساد الأمن الشخصي؟ هل الأهالي الآن أكثر رفاهية؟ هل تناقصت الوفيات وزاد المواليد؟ هل أصبح الرأي العام العالمي الآن بجانبنا أكثر من ذي قبل؟ الدواء النافع يصبح سماً زعافاً إذا كان في يد غير الأطباء. أو في أيدي من لا يعرفون أصول استعماله، وإني لجد آسف

(1) انظر: مذكرات السلطان عبدالحميد، محمد حرب، ص80.

(2) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص95.

(3) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص95.

فالأحداث قد أظهرت صدق كلامي(1).

ويبين السلطان عبدالحميد بأن موقفه ليس دائماً تجاه الحكم الدستوري، فالظروف التي كان يحكم فيها، إذا اختلفت، فستختلف وجهة نظره في الحكم الدستوري.
وفي هذا يقول : (ينبغي ألا يظن أن فكري واقتناعي دائماً ضد الحكم الذي يعتمد على أصول المشروعية) (2).

إن السلطان عبدالحميد مر عصره بظروف عصيبة، وإزمات شديدة، وتآمر عالمي على الدولة العثمانية من الداخل والخارج فشرع في إصلاح الدولة وفق التعاليم الاسلامية لمنع التدخل الأوروبي في شؤون الدولة وحرص على تطبيق الشريعة الاسلامية وقام بإبعاد الكتّاب والصحفيين عن العاصمة وقاوم كافة الاتجاهات الغربية المخالفة للحضارة الاسلامية المجيدة في ولايات الدولة واستطاع أن يشكل جهاز استخباراتي قوي لحماية الدولة من الداخل وجمع معلومات عن أعدائه في الخارج واهتم بفكرة الجامعة الاسلامية وحقق بها نتائج عظيمة واهتز الأوروبيون من هذا التفكير الاستراتيجي العميق وعملوا على تفتيتها.

لقد تكلم السلطان عبدالحميد عن جهاز مخابراته وبين الغرض منه فقال : (حسب العرف العثماني، يتعرف السلطان على تفكير الرعية وشكواها عن طريق جهاز الحكم، ومن ولاته وقضاته من جانب ، وعن طريق التكايا المنتشرة في ربوع البلاد بمشايخها ودرأويشها من جانب آخر، فيجمع كل هذه الأخبار ويدير البناء عليها.

جدّي السلطان محمود الثاني وسع دائرة مخابراته بإضافة الدراويش الرحل إليها. كان ذلك عندما ارتقيت العرش، وعلى ذلك استمر.

علمت ذات يوم من موسوروس باشا، سفيرنا في لندن، أن الصدر الأعظم السابق، السّر

(1) المصدر السابق نفسه، ص96

(2) المصدر السابق نفسه، ص96.

عسكر حسين عوني باشا، تسلم نقوداً من الانكليز. إذا كان الصدر الاعظم وهو يحكم البلاد باسم السلطان يخون دولته، فإن مخابراته لابد أن تبلغ القصر على أنه يؤدي عمله على الوجه الأكمل ، لذلك تكدرت وتأثرت في أثناء تلك الايام قابلني محمود باشا، وأدلى إلي ببعض معلومات عن بعض أعضاء "تركيا الفتاة" ، وكانت الاخبار التي قدمها لي هامة. سألته عن طريق حصوله عليها، فعرفت أنه أنشأ مخابرات خاصة، واحتوى -بالنقود- أقارباً لبعض الأشخاص من "تركيا الفتاة" ، وهؤلاء كانوا يقابلون أقاربهم ويسمعون منهم ثم يخبرونه، فيدفع لهم.

صحيح أنه زوج أختي، إلا أنه لا يصح أن يقيم أحد باشوات الدولة مخابرات مستقلة عن مخابرات الدولة. قلت له أن يحل جهازه هذا فوراً، وألا يعاود العمل بمثل هذا الأمر مرة أخرى، أحال إليّ جهازه هذا، وهو متضايق كثيراً.

لا يمكن للدولة أن تكون آمنة، إذا تمكنت الدول الكبرى أن تجند لخدمة أهدافها أشخاصاً في درجة وزير أعظم.

بناءً على هذا قررت إنشاء جهاز مخابرات يرتبط بشخصي مباشرة، وهذا هو الجهاز الذي يسميه أعدائي بالجورنالجية (الشرطة السرية = المخابرات).

وكان ضرورياً أن أعرف أن بين أعضاء جهاز الجورنالجية (المخابرات) المخلصين الحقيقيين أشخاصاً مفترين، لكني لم أصدق ولم آخذ بأي شيء يأتي من هذا الجهاز مطلقاً دون تحقق دقيق.

كان جدّي السلطان سليم (سليم الثالث) يصيح قائلاً: (إن أيدي الأجانب تتجول فوق كبدي، وعلينا أن نرسل السفراء الى الدول الأجنبية لنقل أساليب التقدم الأوروبي وعلينا إرسال الرسل الى الخارج، ولنعمل سريعاً على تعلّم ماوصلوا إليه.

كنت أحس أنا أيضاً بأيدي هؤلاء الأجانب، ليست فوق كبدي، وإنما في داخله. إنهم يشترون صدروي العظام ووزرائي ويستخدمونهم ضد بلادي. كيف يحدث هذا وهم الذين أنفقت عليهم من

خزانة الدولة ولا أستطيع معرفة ما يعملونه وما يديرون ويعدون؟
نعم ، أنا أسست جهاز الجورنالجييه (المخابرات). وأنا أدريته.

متى حدث هذا؟

بعد أن رأيت صدروي العظام يرتشون من الدول الأجنبية مقابل هدم دولتهم والتأمر على سلطانهم أسست هذا الجهاز لا ليكون أداة ضد المواطن، ولكن لكي يعرف ويتعقب هؤلاء الذين خانوا دولتي في الوقت الذي كانوا يتسلمون فيه رواتبهم من خزانها، وفي الوقت الذي كانت النعمة العثمانية تملؤهم حتى حُلوقهم(1)!!

لقد وجهت للسلطان عبدالحميد انتقادات عنيفة من قبل جمعية الاتحاد والترقي بسبب جهاز الاستخبارات الذي شكلته وفي الحقيقة إن ذلك الجهاز استطاع أن يحقق ايجابيات كبيرة للدولة العثمانية فعندما (... كان مثيرو الشغب والإرهابيون يثيرون الأرمن للتمرد ضد الدولة العثمانية كان الجنود يتصدون لهم وتُراق دماء كثيرة ... كان جهاز السلطان عبدالحميد -خلال ثلاثين سنة- يخبر السلطان فور ظهور كل حركة ولذلك تمكن السلطان من اخماد كل تمرد داخلي في حينه(2).

ثالثاً: تمردات وثورات في البلقان:

قام سكان الجبل الأسود والصرب بتحريض بلاد الهرسك للخروج عن الدولة العثمانية وكان ذلك في عام (1293هـ/1876م) واستطاع العثمانيون أخمادها، ورغب السلطان عبدالحميد في منع الدول الأوروبية من التدخل، فأصدر قراراً بفصل القضاء عن السلطة التنفيذية ، وتعيين القضاة بالانتخاب عن طريق الأهالي، والمساواة في الضرائب بين المسلمين والنصارى ... ولم يرض ذلك

(1) انظر : مذكرات السلطان عبدالحميد ، ص160.

(2) انظر: الدولة العثمانية، د. اسماعيل ياغي، ص189.

السكان، فعادوا الى الثورة التي قمعت أيضاً، ولكن النمسا التي كانت وراء الثورة وترغب في ضم البوسنة والهرسك إليها استمرت في تحريض السكان ضد الدولة العثمانية، فعملت النمسا مع روسيا وألمانيا وفرنسا وانكلترا على الطلب من السلطان بالقيام بإصلاحات فوافق عليها السلطان، ولكن نصارى البوسنة لم يتقبلوا بذلك. وهذا يدل على المطالبة بالإصلاحات ليست سوى مبررات واهية، وحقيقة الأمر أنهم يريدون التدخل في شؤون الدولة بشكل مباشر وغير مباشر لإضعافها والإطاحة بها(1).

كما قامت ثورة البلغار في نفس الوقت الذي قام فيه نصارى البوسنة والهرسك بثورتهم بدعم من النمسا والدول الأوروبية وخاصة روسيا، فقد تأسست جمعيات في بلاد البلغار لنشر النفوذ الروسي بين النصارى الأرثوذكس والصقالبة، وكانت تدعمها روسيا وتمدها بالسلاح، وتبذل هذه الجمعيات بدورها جهودها لإثارة سكان الصرب والبوسنة والهرسك، وتحرضهم على الثورة ضد العثمانيين. وعندما أنزلت الدولة العثمانية بعض الأسر الشركسية احتج البلغار على ذلك، فقاموا بثورة وساعدتهم روسيا والنمسا بالسلاح والأموال؛ فتمكنت الدولة العثمانية من القضاء على الثورة، فأخذت الدول الأوروبية تثير الشائعات عن المجازر التي ارتكبتها العثمانيون ضد النصارى والعكس هو الصحيح وبهذه الشائعات اثير الرأي العام الأوروبي ضد الدولة العثمانية، وطالبت الحكومات الأوروبية بإتخاذ إجراءات صارمة ضد العثمانيين ومنها الحصول البلغار على استقلال ذاتي وتعيين حاكم نصراني لهم(2).

وقام الروس والألمان والنمساويون بدفع الصرب والجبل الأسود للقيام بحرب ضد العثمانيين، وكانت روسيا ترغب في توسيع حدودها من جهة بلغاريا، والنمسا تريد توسعة حدودها من جهة البوسنة والهرسك، ووعدت هذه الدول أمير الصرب والجبل الأسود بالدعم. وشرع الجنود الروس

(1) انظر: الدولة العثمانية، د. اسماعيل ياغي، ص 189.

(2) انظر: الدولة العثمانية، د. اسماعيل ياغي، ص 189.

بالتدفق سراً على بلاد الصرب، والجبل الأسود، وتمكنت الدولة العثمانية من الانتصار على الصرب وحلفائهم، فتدخلت الدول الأوروبية وطلبت وقف القتال وإلا فالحرب الواسعة (1). واجتمع مندوبوا الدول الأوروبية في استانبول وقدموا اقتراحات للدولة من أهمها: تقسيم بلاد البلغار الى ولايتين ويكون ولايتها من النصارى، وأن تشكل لجنة دولية لتنفيذ القرارات، وأن تعطى هذه الامتيازات لإماراتي البوسنة والهرسك أيضاً، وأن تتنازل الدولة عن بعض الأراضي للصرب والجبل الأسود.

ولكن الدولة العثمانية رفضت هذه القرارات، وعقدت صلحاً منفرداً مع الصرب سحبت نتيجته جيوشها من بلاد الصرب، وأن يرفع العلم العثماني والصربي دليلاً على السيادة العثمانية (2). لقد كان السلطان عبدالحميد الثاني على يقين من أن هدف الدول الغربية هو السعي لسقوط الدولة العثمانية حيث قال في مذكراته: (رأيت أثناء مؤتمر الدول الكبرى الذي عقد في استانبول ما عزمتم عليه هذه الدول، وهي ليست كما يقولون تأمين حقوق الرعايا المسيحيين بل تأمين الاستقلال الذاتي لهؤلاء الرعايا. ثم العمل على استقلالهم التام، وبذلك يتم تقسيم الدولة العثمانية. كانوا يعملون على تقسيم هذا الهدف على صورتين:

الأولى: إثارة الأهالي المسيحيين، وتعكير صفاء الجو، وبهذا تتصدى هذه الدول لحمايتهم. والثانية: القول بالمشروعية، لإحداث الفرقة بيننا أنفسنا واستطاعوا أن يجدوا من بيننا أنصاراً يستخدمونهم في كلا الغايتين، وبكل أسف كان على خبز العدو شيء من السمن. فلم يستطع بعض الشباب العثماني المثقف أن يفرق بين التطبيق السهل والحكم الدستوري في بلاد تتمتع بوحدة قومية، وبين تعذر هذا الحكم في الدول التي لا تتمتع بوحدة قومية (3).

(1) المصدر السابق نفسه، ص 190.

(2) انظر: الدولة العثمانية، ص 190.

(3) انظر: مذكرات السلطان عبدالحميد، ص 145.

كانت روسيا ترغب في الوصول الى المياه الدافئة بسبب عوامل دينية واقتصادية وجغرافية وقد نص (بطرس الأكبر) (1627-1725م) في وصيته للروس (في الفقرات التاسعة والحادية عشرة والثالثة عشرة) على ضرورة الصراع الحضاري ضد العثمانيين ، الى أن تنتهي الدولة العثمانية من الوجود.

يقول (بطرس الأكبر) في الفقرة التاسعة من وصيته:

(نقترب من القسطنطينية والهند بقدر الإمكان فمن يملك القسطنطينية فقد ملك العالم. بناء على ذلك ينبغي ملازمة الحرب مع العثمانيين).

وفي الفقرة الحادية عشرة يقول: (نشارك النمسا فيما قصدناه من إخراج العثمانيين من أوروبا). وفي الفقرة الثالثة عشرة يقول: (وبعد التسلط على الممالك العثمانية، نجمع جيوشنا وتدخل أساطيلنا بحر البلطيق والبحر الأسود ونشرع في التفاوض مع فرنسا ودولة النمسا في قسمة العالم بيننا)(1).

إن روسيا أهتمت بتلك الوصية وفي عصر السلطان عبدالحميد الثاني كثرت الثورات بدعم من روسيا والدول الأوروبية في البلقان واليونان وغيرها من الاقاليم العثمانية ولم تكتفي بذلك بل عملت على قيام دول نصرانية مستقلة مثل رومانيا، وبلغاريا والصرب واليونان وبعد أن حقق العثمانيون انتصارات رائعة في البلقان استعدت روسيا للحرب ثم أعلنتها حرب لاهوادة فيها ضد الدولة العثمانية وانضمت رومانيا الى روسيا ودخل العثمانيون في حرب طاحنة مع الروس، وعبرت الجيوش الروسية نهر الدانوب واستولت على بعض المدن التابعة للعثمانيين ومنها "تيرنوه" و"نيقولبلي بل" التي تقع في بلغاريا حالياً كما استولى الروس على بعض النقاط المهمة والمعابر المؤدية الى البلقان، وقام السلطان عبدالحميد بتغيير كبير في قيادات الجيوش العثمانية للتصدي

(1) انظر: التحفة الحليمية ، ابراهيم حلمي بك، ص241.

للغزو الروسي، وقد حاول الروس الاستيلاء على مدينة (بلغنه) التي تقع في بلغاريا حالياً وهي من أهم المعابر الى البلقان، ولكن القائد العثماني الشجاع الغازي (عثمان باشا) تصدى لهم بكل شجاعة، فردهم على أعقابهم منهزمين، فأعادوا الهجوم مرة أخرى بقوات أكثر كثافة ومع ذلك نجح ذلك القائد العثماني الفذ في التصدي للروس مرة أخرى، مما جعل السلطان العثماني يصدر مرسوماً خاصاً في الثناء على ذلك القائد (1).

وأمام هذا الصمود حاول الروس التغيير من سياستهم في الاستيلاء على هذه المدينة واتبعوا سياسة الحصار لها، وحاولوا منع الإمدادات من الوصول الى الجيوش العثمانية فيها، وفي الوقت نفسه عززوا قواتهم وحضر القيصر الروسي بنفسه على المعركة القادمة وانضم أمير رومانيا الى روسيا وكان معه 100 ألف مقاتل، فأصبحت الكفة العسكرية في صالح الروس، حيث تجاوز عددهم 150 ألف مقاتل ففرضوا حصاراً على ثلاثة خطوط على القوات العثمانية، ومع هذا فإن العثمانيين المحاصرين بقيادة عثمان باشا صمدوا صمود الأبطال، ورغم أن عددهم كان قرابة 50 ألف مقاتل، فإنهم لم يكتفوا بذلك الصمود، بل أعدوا خطة رائعة لهجوم معاكس على خطوط العدو المحاصر لهم طالبين بذلك إما النصر وفك الحصار عنهم أو الشهادة.

وقاد عثمان باشا قواته التي انحدرت على الأعداء وهم يهللون ويكبرون، فسقطت أعداد منهم شهداء على أيدي قوات الروس، ومع ذلك فقد تمكنوا من اختراق الخط الأول للمحاصرين والخط الثاني، واستولوا على المدافع فيه، وأصيب القائد عثمان باشا ببعض الجراح عند الخط الثالث فسرت إشاعة قوية بين جنده باستشهاده ففت ذلك في عضدهم، وحاولوا الرجوع الى المدينة، ولكن بعض قوات الروس أصبحت بداخلها، وبذلك أصبح الجند العثمانيون في العراء بين نيران العدو المختلفة، فأضطروا الى الاستسلام للقوات الروسية. وكان ذلك في عام 1294هـ أو آخر سنة 1877م، وقد سلم القائد العثماني نفسه وهو جريح الى الروس الذين كانوا معجبين به ويشيدون

(1) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص418.

بشجاعته وإقدامه⁽¹⁾، حتى أن القائد العام للقوات الروسية قام بتهنئة عثمان باشا على دفاعه الرائع وأعاد له سيفه احتراماً لقدرته القتالية وصبره. وارسل عثمان باشا الى روسيا في شهر ديسمبر من نفس العام 1877م، واستقبله القيصر بكل مراسم الاحترام ولم يعامل "عثمان باشا" معاملة الأسير⁽²⁾.

وقد شجعت تلك الانتصارات الروسية الصرب في البلقان على التحرك ضد العثمانيين وقامت جيوشهم بالهجوم على المواقع العثمانية هناك، فأشغلتهم عن الروس، الذين كانوا في الوقت نفسه يسعون لاحتلال مناطق جديدة. وبالفعل تمكن الروس من الاستيلاء على صوفيا (عاصمة رومانيا حالياً) ولم يكتف الروس بهذا، بل توجهوا جنوباً ناحية العاصمة العثمانية القديمة، ووصلوا الى مواقع لا تبعد سوى خمسين كيلومتراً عن استانبول، وأصبح الموقف داخل الدولة العثمانية سيئاً الى أبعد الحدود.

وفي الوقت نفسه كانت تجري العديد من المعارك بين العثمانيين والروس في الجانب الآسيوي حيث وصل الروس الى الأناضول، ومع ذلك تمكن العثمانيون من هزيمتهم ومطاردتهم داخل الأراضي الروسية، وانتصر العثمانيون بقيادة احمد مختار باشا على الروس في أكثر من ست معارك، مما جعل السلطان عبدالحميد يصدر مرسوماً في الثناء عليه، وقد عاود الروس الهجوم في تلك المناطق مرة أخرى وتمكنوا سنة 1295هـ من إنزال الهزائم بالقوات العثمانية والاستيلاء على بعض المناطق في الأناضول نفسها⁽³⁾.

وأمام تلك الهزائم العثمانية في أوروبا وفي آسيا اضطرت الدولة العثمانية للدخول في هدنة مع الروس وقبول المفاوضات معهم، حيث وقعت بين الطرفين معاهدة سان ستيفاس عام 1878م.

(1) انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص419.

(2) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص141.

(3) انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص418.

عقدت هذه المعاهدة في 3 مارس عام 1878م. ووقعها "صفوت باشا" عن الدولة العثمانية وهو

بيكي. وكان لابد بالضرورة أن تحتوي هذه المعاهدة على شروط مجحفة بالدولة العثمانية(1).

معاهدة سان ستفانو 15 فبراير 1878م (1295هـ):

قدم المندوب الروسي شروطاً مسبقة، وطلب التوقيع عليها مباشرة وإلا تتقدم الجيوش الروسية وتحتل استانبول ، ولم يكن للعثمانيين من خيار سوى التوقيع. وتتص المعاهدة :

تعيين حدود للجبل الأسود لإنهاء النزاع، وتحصل هذه الإمارة على الاستقلال.

تستقل إمارة الصرب وتصاف إليها أراضي جديدة.

تستقل بلغاريا استقلالاً ذاتياً إدارياً، وتدفع مبلغاً محدداً الى الدولة العثمانية ويكون موظفو

الدولة والجند من النصارى فقط. وتعيين الحدود بمعرفة العثمانيين والروس. وينتخب الأمير من

قبل السكان ويخلي العثمانيون جنودهم نهائياً من بلغاريا.

تحصل دولة رومانيا على استقلالها التام.

يتعهد الباب العالي بحماية الأرمن والنصارى من الأكراد والشركس.

يقوم الباب العالي بإصلاح أوضاع النصارى في جزيرة كريت.

تدفع الدولة العثمانية غرامة حربية قدرها 245 مليون ليرة ذهبية، ويمكن لروسيا أن تتسلم

أراضي مقابل هذا المبلغ.

تبقى المضائق (البسفور والدردينيل) مفتوحة للسفن الروسية في السلم والحرب.

يمكن للمسلمين في بلغاريا أن يهاجروا الى حيث يريدون من أجزاء الدولة العثمانية(2).

وهكذا جرى تفتيت أملاك الدولة في أوروبا، وإن يكن تكبير بلغاريا قد أثار سخط الدول البلقانية

الأخرى: النمسا، اليونان، والصرب، كما استاءت بريطانيا لازدياد النفوذ الروسي في البلقان

(1) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص144.

(2) انظر: الدولة العثمانية، د. اسماعيل ياغي، ص192، 193.

واستعدت لمحاربة روسيا وحصلت من الدولة العثمانية على حق احتلال جزيرة قبرص (يونيو 1878م) وإدارتها على أن تبقى تابعة للدولة العثمانية، وذلك في مقابل تعهدها بالدفاع عن أملاك الدولة في آسيا في وجه أي مزيد من التهديدات الروسية، بشرط أن يتعهد السلطان من جانبه بإدخال الإصلاحات اللازمة في أملاكه الآسيوية بالتشاور مع بريطانيا ، وقد تعاهدت بريطانيا بالجلء عن قبرص في حالة جلاء الروس عن المناطق التي احتلوها في آسيا(1).

لم يكن السلطان عبدالحميد راضياً في الأصل بدخول هذه الحرب لذلك لم يصدق على المعاهدة وقام بجهود سياسية ودبلوماسية مكثفة، حتى أقنع بريطانيا في الوقوف بجانبه، وبذلك ضمن عقد مؤتمر آخر (مؤتمر برلين) لتخفيف آثار معاهدة سان ستفانوه من ناحية، وإخافة روسيا بمنافستها بريطانيا، لكي تصرف روسيا النظر عن الحرب، واستطاع تحقيق مكاسب للدولة، وقللت البنود الخسائر في المعاهدة الأولى.

ودلت أحداث المعاهدتين على عبقرية السلطان عبدالحميد السياسية، التي تمثلت في إحداث النفور بين دولة روسيا ودولة ألمانيا أيضاً(2).

يقول الامبراطور الألماني "غليوم الثاني" في مذكراته:

(جرى لي حديث مع أحد كبار القواد الذين ألحقوا بخدمة البلاط القيصري في عهد "الكسندر الثاني" قيصر روسيا، عن العلاقات بين البلاطين الروسي والألماني وبين الجيشين والبلدين فقلت لهذا القائد: إنني أرى انقلاباً محسوساً في هذه العلاقات. فقال لي : (الذنب في ذلك على مؤتمر برلين ! تلك غلطة كبرى ارتكبتها "بسمارك" فقد قضى على الصداقة القديمة التي كانت بيننا، وأزال الثقة بألمانيا من البلاط الروسي ومن الحكومة الروسية. وجعل الجيش يشعر بأنه جنى عليه جناية

(1) انظر: الدولة العثمانية، د. اسماعيل ياغي، ص193.

(2) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص145.

عظمى بعد الحرب الدموية التي خاص غمارها عام 1877م(1).

مؤتمر برلين (1305هـ/1887م):

حضر ذلك المؤتمر الدول الكبرى (انكلترا، فرنسا، ألمانيا والنمسا) ، وجرى البحث في هذا المؤتمر تعديل معاهدة سان ستفانو التي عقدت بين روسيا والدولة العثمانية، وذلك لمعارضة الدول المعنية لهذه المعاهدة لأنها لا تتفق مع مصالحها الاستراتيجية ... واتفق المؤتمر على تعديل معاهدة سان استفانو وعقدت معاهدة برلين والتي تناولت الشروط التالية:

- 1- استقلال بلغاريا وتعديل في حدودها، وتشكل في جنوب البلقان ولاية باسم الروميلي الشرقي تكون تحت سيادة الدولة العثمانية سياسياً وعسكرياً، ويحكمها نصراني، يعين لمدة خمس سنوات باتفاق الدولة وتبقى قوة لروسيا في بلغاريا والروميلي الشرقي وتحدد بخمسين الف جندي.
- 2- تقدمت حدود اليونان قليلاً الى الشمال مع العلم بأن اليونان لم تدخل في موضوع القتال، ولم تشمل معاهدة سان استفانو أي جزء منها.
- 3- ضم البوسنة والهرسك للنمسا.
- 4- ضم بسارابيا الى روسيا بعد إقتلاعها من رومانيا، وتضم مقاطعة دوبرجيه وبعض الجزر الى رومانيا ومنحها الاستقلال التام.
- 5- استقلال الصرب والجبل الاسود.
- 6- ضم مدن قارص وردهان وباطوم لروسيا.
- 7- قرر المؤتمر الإبقاء على الغرامة الحربية التي قررتها معاهدة سان استفانو على الدولة العثمانية ومقدارها 2.5 مليار ليرة ذهبية.
- 8- تعهد الباب العالي بأن يقبل بلا تمييز في الدين شهادة جميع رعاياه أمام المحاكم .

(1) انظر: مذكرات غليوم الثاني، ص 18-19.

9- الموافقة على تحسين أوضاع النصارى في جزيرة كريت (1).

وكان المستشار الألماني بسمارك هو الذي دعا الى عقد المؤتمر خشية أن يؤدي تصدي بريطانيا الى روسيا الى نشوب حرب أوروبية عامة وتهديد الاتحاد الألماني الذي جاهد كثيراً من أجل قيامه، فإنه دعا الدول العظمى الى المؤتمر في برلين لمراجعة صلح سان استيفانو وتسوية نتائج الحرب التركية الروسية (2).

وقد ذكر بعض المؤرخين (3) أن في كواليس مؤتمر برلين عرض بسمارك تقسيم الإمبراطورية العثمانية على مذبح السلام الأوروبي ، فعرض على بريطانيا مصر وعلى فرنسا تونس والشام وعلى النمسا البوسنة والهرسك وعلى روسيا البوغازين (البسفور والدردينيل) وغير ذلك من أملاك السلطان. غير أن هذه العروض لم تدرج في مقررات المؤتمر (4).

وهكذا فإن مؤتمر برلين من المعالم البارزة لتدهور الامبراطورية العثمانية التي أرغمت على التنازل عن مساحات واسعة من أملاكها. كما أنه يسجل تعهد بريطانيا وفرنسا بالمحافظة على ممتلكات الدولة العثمانية. غير أن بريطانيا وفرنسا قد كشفتنا عن نواياهما الاستعمارية ، فقد احتلت فرنسا تونس عام (1299هـ/1881م) نظير احتلال بريطانيا لقبرص واحتلت بريطانيا مصر عام (1300هـ/1882م) معلنة أن احتلالها مؤقت (5).

وهكذا كانت النتيجة من الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا ولمواجهة هذه الأوضاع المتردية كان على السلطان أن يتخذ لقب الخلافة لمواجهة التحديات الجديدة، وعمل على إنشاء الجامعة الاسلامية لكي يعمل على تكتل كافة المسلمين من حوله في الداخل والخارج.

(1) انظر: الدولة العثمانية، د. اسماعيل ياغي، ص 195.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 195.

(3) الدكتور اسماعيل ياغي، وأحمد مصطفى عبدالرحيم .

(4) انظر: في أصول التاريخ العثماني، ص 195.

(5) انظر : الدولة العثمانية، د. اسماعيل ياغي، ص 195.

ولاشك أن حركة الجامعة الإسلامية قد لاقت استحساناً وقبولاً لدى المسلمين الذين اعتقدوا أن ضعف الدولة العثمانية مرجعه ضعف الشعور الديني عند المسلمين ، الأمر الذي دفع فيه أعداء الإسلام للزحف على دار الإسلام ونهبها بلداً تلو الآخر (1).

المبحث الثاني

الجامعة الإسلامية

لم تظهر فكرة الجامعة الإسلامية، في معترك السياسة الدولية إلا في عهد السلطان عبدالحميد، وبالضبط بعد ارتقاء السلطان عبدالحميد عرش الدولة العثمانية عام 1876م. فبعد أن ألتقط السلطان عبدالحميد أنفاسه ووجد المتأثرين بالفكر الأوروبي من سلطاتهم، وتولى هو قيادة البلاد، قيادة حازمة اهتم السلطان عبدالحميد بفكرة الجامعة الإسلامية وقد تكلم في مذكراته عن ضرورة العمل على تدعيم أواصر الأخوة الإسلامية بين كل مسلمي العالم في الصين والهند وأواسط أفريقيا وغيرها، وحتى إيران وفي هذا يقول: (عدم وجود تفاهم مع إيران أمر جدير بالتأسف عليه وإذا أردنا أن نفوّت الفرصة على الانجليز وعلى الروس فإننا نرى فائدة تقارب إسلامي في هذا الأمر) (2) وتحدث عن علاقة الدولة العثمانية بإنجلترا التي تضع العراقيل أمام الوحدة العثمانية يقول عبدالحميد الثاني: (الإسلام والمسيحية نظرتان مختلفتان ولا يمكن الجمع بينهما في حضارة

(1) المصدر السابق نفسه، ص 196.

(2) انظر: مذكرات السلطان عبدالحميد ، ص 23.

واحدة) لذلك يرى أن (الإنجليز قد أفسدوا عقول المصريين، لأن البعض أصبح يقدم القومية على الدين. ويظن أنه يمكن مزج حضارة مصر بالحضارة الأوروبية، وإنجلترا تهدف من نشر الفكر القومي في البلاد الإسلامية الى هز عرشى ... وأن الفكر القومي قد تقدم تقدماً ملموساً في مصر. والمثقفون المصريون أصبحوا من حيث لا يشعرون ألعوبة في يد الإنجليز إنهم بذلك يهزون اقتدار الدولة الإسلامية ويهزون معها اعتبار الخلافة)(1).

ويقول عن السياسة الإنجليزية تجاه الخلافة: (قالت صحيفة ستاندرد الإنكليزية مانصه: (يجب أن تصبح الجزيرة العربية تحت الحماية الإنكليزية، ويجب على انكلترا أن تسيطر على مدن المسلمين المقدسة) ... إن إنجلترا تعمل لهدفين : إضعاف تأثير الإسلام وتقوية نفوذها وبالتالي .. لذلك أراد الإنجليز أن يكون الخديوي في مصر خليفة للمسلمين ولكن ليس هناك مسلم صادق واحد يقبل أن يكون الخديوي أميراً للمؤمنين لأنه بدأ دراسته في جنيف وأكملها في فيينا وتطبع بطابع الكفار)(2).

وعندما ظهر اقتراح انكلترا (لإعلان الشريف حسين أمير مكة خليفة المسلمين)(3) ويعترف السلطان عبدالحميد الثاني بأنه لم يكن لديه الطاقة ولا القوة لمحاربة الدول الأوروبية .. ولكن الدول الكبرى كانت ترتعد من سلاح الخلافة، وخوفهم من الخلافة جعلهم يتفقون على إنهاء الدولة العثمانية(4)، و(أن الدولة العثمانية تضم أجناساً متعددة من أتراك وعرب وألبان وبلغار ويونانيين وزنوج وعناصر أخرى، ورغم هذا فوحدة الإسلام تجعلنا أفراد أسرة واحدة)(5). ويُعبر عبدالحميد الثاني عن ثقته في وحدة العالم الإسلامي بقوله: (يجب تقوية روابطنا ببقية

(1) انظر: مذكرات السلطان عبدالحميد ، ص23.

(2) المصدر السابق نفسه، ص24.

(3) المصدر السابق نفسه، ص24.

(4) المصدر السابق نفسه، ص24.

(5) مذكرات السلطان عبدالحميد، ص24.

المسلمين في كل مكان، يجب أن نقرب من بعضنا البعض أكثر وأكثر، فلا أمل في المستقبل إلا بهذه الوحدة. ووقتها لم يحن بعد لكنه سيأتي. سيأتي اليوم الذي يتحد فيه كل المؤمنين وينهضون فيه نهضة واحدة ويقومون قومة رجل واحد وفيه يحطمون رقبة الكفار(1).

كانت فكرة الجامعة الاسلامية في نظر السلطان عبدالحميد يمكن بها أن يحقق أهدافاً منها:

-مواجهة أعداء الاسلام المثقفين بالثقافة الغربية، والذين توغلوا في المراكز الادارية والسياسية الحساسة، في أجهزة الدول الاسلامية عموماً، وفي أجهزة الدولة العثمانية خصوصاً، عند حدهم، عندما يجدون أن هناك سداً إسلامياً ضخماً وقوياً يقف أمامهم.

- محاولة إيقاف الدول الاستعمارية الأوروبية وروسيا، عند حدها عندما تجد أن المسلمين ، قد تكتلوا في صف واحد، وقد فطنوا الى أطماعهم الاستعمارية ووقفوا ضدها بالوحدة الاسلامية.

- إثبات أن المسلمين يمكن أن يكونوا قوة سياسية عالمية، يحسب له حسابها في مواجهة الغزو الثقافي والفكري والعقدي الروسي -الأوروبي النصراني.

- تأخذ الوحدة الاسلامية الجديدة دورها في التأثير على السياسة العالمية(2).

- تستعيد الدولة العثمانية بوصفها دولة الخلافة قوتها وبذلك يمكن إعادة تقويتها، وتجهيزها بالأجهزة العلمية الحديثة، في الميادين كافة وبذلك تستعيد هيبتها وتكون درساً تاريخياً. يقول : (إن العمل على تقوية الكيان السياسي والاجتماعي الاسلامي، أفضل من إلقائه أرضاً، وتكوين كيان غريب فكرياً واجتماعياً على نفس الأرض)(3).

- إحياء منصب الخلافة، ليكون أداة قوية، وليس صورياً كما حدث لفترة . وبذلك لا يكون السلطان وحده فقط هو الذي يقف في مواجهة أطماع الغرب وعملائه في الداخل، وإنما هي وحدة

(1) المصدر السابق نفسه، ص24.

(2) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص168.

(3) المصدر السابق نفسه، ص169.

شعورية بين شعوب المسلمين جميعاً. يكون هو الرمز والموجه والموحد.

والى هذا اشار المؤرخ البريطاني (آرنولد توينبي) في قوله: (إن السلطان عبدالحميد ، كان يهدف من سياسته الاسلامية، تجميع مسلمي العالم تحت راية واحدة، وهذا لايعني إلا هجمة مضادة، يقوم بها المسلمون ضد هجمة العالم الغربي التي استهدفت عالم المسلمين)(1).

ولذلك استخدم السلطان عبدالحميد ، كل الإمكانيات المتاحة في ذلك الوقت، من اتخاذ الدعاة من مختلف جنسيات العالم الاسلامي، من العلماء والمبرزين، في مجالات السياسة، والدعاة الذين يمكن أن يذهبوا الى أرجاء العالم الاسلامي المختلفة، للالتقاء بالشعوب الاسلامية وفهم ما عندهم وإبلاغهم بأراء وتوجيهات السلطان الخليفة ونشر العلوم الاسلامية، ومراكز الدراسات الإسلامية، في الداخل والخارج، وطبع الكتب الاسلامية الأساسية، ومحاولة اتخاذ اللغة العربية لأول مرة في تاريخ الدولة العثمانية، لغة للدولة أو مايسمى بالتعبير المعاصر "تعريب" الدولة العثمانية، والعناية بالمساجد والجوامع من تجديد وترميم وبناء الجديد منها، والقيام بحملات تبرع لإحياء المساجد في العالم، والاهتمام بالمواصلات لربط أجزاء الدولة العثمانية، واستمالة زعماء القبائل العربية، وإنشاء مدرسة في عاصمة الخلافة، لتعليم أولاد رؤساء العشائر والقبائل، وتدريبهم على الإدارة ، واستمالة شيوخ الطرق الصوفية، والاستفادة من الصحافة الاسلامية في الدعاية للجامعة الاسلامية، واتخاذ بعض الصحف وسيلة للدعاية لهذه الجامعة، والعمل على تطوير النهضة العلمية والتقنية في الدولة العثمانية، وتحديث الدولة فيما هو ضروري(2).

ولقد ألفت مجموعة من العلماء ودعاة الأمة الاسلامية الى دعوة الجامعة الاسلامية من أمثال جمال الدين الأفغاني، ومصطفى كامل من مصر، وأبي الهدى الصيادي من سوريا، وعبدالرشيد إبراهيم من سيبيريا، والحركة السنوسية في ليبيا وغيرها.

(1) المصدر السابق نفسه، ص169.

(2) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص172.

أيد جمال الدين الأفغاني ، دعوة السلطان عبدالحميد الى الجامعة الاسلامية وقدم مشروعات أكبر بكثير من طموح السلطان. ولم يكن السلطان يأمل في أكثر من وحدة هدف بين الشعوب الاسلامية ، ووحدة حركة بينهما. وهي وحدة شعورية عملية، في نفس الوقت، تكون الخلافة فيها ذات هيبة وقوة لكن الأفغاني عرض على السلطان مشروعاً، يرمي الى توحيد أهل السنة مع الشيعة وكانت نظرة السلطان عبدالحميد لا ترمي في هذا الصدد أكثر من توحيد الحركة السياسية بين الفريقين لمواجهة الاستعمار العالمي(1).

واستفاد السلطان عبدالحميد كثيراً من الأفغاني، في الدعاية الى الجامعة الاسلامية، رغم الاختلاف بين فكر السلطان وفكر الأفغاني ، ومن أسباب الاختلاف: إيمان الأفغاني بقضية وحدة المسلمين، وتأييده في نفس الوقت للثوار ضد السلطان عبدالحميد ، من القوميين الأتراك والعثمانيين عامة.

دعوة الأفغاني لوحدة الشعوب الإسلامية، بحيث تكون كالبنيان الواحد، وبقلب واحد ، في مواجهة الدول الأوروبية الرامية الى تقسيم الدولة العثمانية العاملة على انهيارها ، وفي نفس الوقت، لم يتعرض الأفغاني للاستعمار الفرنسي، ولو بكلمة تنديد. في وقت احتاج فيه السلطان عبدالحميد الى مقاومة الفرنسيين في شمال أفريقيا(2).

تنديد جمال الدين بالاستعمار الإنكليزي في حين يذكر السلطان عبدالحميد أن المخابرات العثمانية، حصلت على خطة أعدت في وزارة الخارجية الانكليزية، واشترك فيها جمال الدين الأفغاني وبلنت الانكليزي وتقضي هذه الخطة بإقصاء الخلافة عن السلطان عبدالحميد وعن العثمانيين عموماً. وبلنت هذا سياسي إنكليزي يعمل في وزارة الخارجية الانكليزية، ومؤلف كتاب

(1) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص181.

(2) المصدر السابق نفسه، ص182.

"مستقبل الاسلام" ودعا فيه صراحة الى العمل على نزع الخلافة من العثمانيين، وتقليدها للعرب وقد رد مصطفى كامل باشا زعيم الحركة الوطنية في مصر على "بلنت" في كتاب مصطفى كامل باشا المشهور (المسألة الشرقية) قائلاً: (وبالجملة فإن حضرة مؤلف كتاب مستقبل الاسلام يرى - وماهو إلا مترجم عن آمال بني جنسه- أن الأليق بالاسلام أن ينصب أنكلترا دولة له بل إن الخليفة يجب أن يكون إنكليزياً)⁽¹⁾.

رغم الأطماع الروسية والحروب الروسية ، ضد الدولة العثمانية واقتطاع الروس لأجزاء من الأراضي العثمانية، فقد كان موقف السيد جمال الدين الأفغاني من مبدأ التوسع الروسي غربياً على مفهوم الجامعة الاسلامية، لأنه يعترف بما للروس من مصالح حيوية وإستراتيجية في الهند، تدفعهم لاحتلالها. وأن ليس لدى الافغاني اعتراض على هذا الاحتلال إذا حدث، بل ينصح الروس باتباع أسلم السبل وأسهلها لتنفيذه، وذلك بأن يستعينوا بدولة فارس، وبلاد الأفغان ، لفتح أبواب الهند، شريطة أن تسهمهما في الغنيمة وتشركهما في المنفعة.

الخلاف العقدي الذي ظهر بين العلماء في استانبول وبين جمال الدين الأفغاني وظهر كتاب الشيخ (خليل فوزي الفيليبياوي) المعنون (السيوف القواطع) للرد على عقيدة الأفغاني وسكوت الأفغاني عن هذا ، وعدم دفاعه عن نفسه. والكتاب باللغة العربية، ومترجم وقتها الى اللغة التركية.

مال السلطان عبدالحميد، الى تركيز كل السلطات في يده بعد أن ذاق الأمرين من وزرائه وضباط جيشه وصدروه العظام المتأثرين بالفكر الغربي ، والذين هدفوا الى إقامة ديمقراطية أوروبية، تضم مجلساً منتخباً يمثل كل شعوب الدولة العثمانية، ومعارضة السلطان عبدالحميد لهذا بحجة أن عدد النواب المسلمين سيكون حوالي نصف العدد الكلي للبرلمان. في حين أن جمال الدين الأفغاني يميل الى الديمقراطية، وعدم تركيز السلطات في يد شخص واحد بعينه، وميل

(1) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص183.

الأفغاني الى الحرية في التعبير عن الرأي (1).

ولقد ذكر السلطان عبدالحميد في مذكراته بأن جمال الدين الأفغاني مهرج وله علاقة بالمخابرات الإنكليزية: (وقعت في يدي خطة أعدها في وزارة الخارجية الإنكليزية مهرج اسمه جمال الدين الأفغاني وإنكليزي يُدعى بلنت قالوا فيها بإقصاء الخلافة عن الأتراك. واقترحا على الإنكليز إعلان الشريف حسين أمير مكة خليفة على المسلمين.

كنت أعرف جمال الدين الأفغاني عن قرب. كان في مصر، وكان رجلاً خطيراً. اقترح عليّ ذات مرة -وهو يدّعي المهدية- أن يشير جميع مسلمي آسيا الوسطى. وكنت أعرف أنه غير قادر على هذا. وكان رجل الإنكليز، ومن المحتمل جداً أن يكون الإنكليز قد أعدوا هذا الرجل لاختباري فرفضت فوراً، فاتحد مع بلنت.

استدعيته الى استانبول عن طريق أبي الهدى الصيادي الحلبي، الذي كان يلقي الاحترام في كل البلاد العربية.

قام بالتوسط في هذا كل من منيف باشا، حامي الأفغان القديم، والأديب الشاعر عبدالحق

حامد. جاء جمال الدين الأفغاني الى استانبول، ولم أسمح له مرة أخرى بالخروج منها... (2).

أما رأي جمال الدين الأفغاني في السلطان عبدالحميد فإنه يقول: (إن السلطان عبدالحميد لو وزن مع أربعة من نوابغ رجال العصر لرجحهم ذكاء ودهاء وسياسة، خصوصاً في تسخير جليسه، ولا عجب إذا رأيناه يذلل لك مايقام لملكه من الصعاب من دول الغرب، ويخرج المناوئ له من حضرته راضياً عنه وعن سيرته وسيره، مقتنعاً بحجته سواء من ذلك الملك والأمير والوزير والسفير... (3).

(1) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص 184.

(2) انظر: مذكرات السلطان عبدالحميد، ص 148.

(3) انظر: جمال الدين الأفغاني المصلح المفترى عليه، د. محسن عبدالحميد، ص 137.

وقال : (ورأيته يعلم دقائق الأمور السياسية ومرامي الدول الغربية وهو معد لكل هوة تطراً على الملك، مخرجاً وسلاماً، وأعظم مآدهشني ، مآعده من خفي الوسائل وأمضى العوامل ، كي لا تتفق أوروبا على عمل خطير في الممالك العثمانية، ويربها عياناً محسوساً أن تجزئة السلطنة العثمانية لا يمكن إلا بخراب يعم الممالك الأوروبية بأسرها)(1).

ويقول: (أما مارأيته من يقظة السلطان ورشده وحذره وإعداده العدة اللازمة لإبطال مكائد أوروبا وحسن نواياه واستعداده للنهوض بالدولة الذي فيه نهضة المسلمين عموماً، فقد دفعني الى مد يدي له فبايعته بالخلافة والملك، عالماً علم اليقين ، أن الممالك الاسلامية في الشرق لا تسلم من شرك أوروبا، ولا من السعي وراء اضعافها وتجزئتها ، وفي الأخير ازدرائها واحدة بعد أخرى، إلا بيقظة وانتباه عمومي وانضواء تحت راية الخليفة الأعظم...)(2).

إن جمال الدين الأفغاني أمره محير فهناك من يدافع عنه وهناك من يتهمه بالعمالة والإنضمام الى المحافل الماسونية فمثلاً، كتاب دعوة جمال الدين الأفغاني في ميزان الاسلام للمؤلف مصطفى فوزي عبداللطيف غزال يرى أنه كان من عوامل الهدم في الأمة في تاريخها الحديث، إما كتاب جمال الدين الأفغاني المصلح المفترى عليه للدكتور محسن عبدالحميد فيراه من المصلحين.

ثانياً : الطرق الصوفية:

استهدف السلطان عبدالحميد الطرق الصوفية في كسب ولائها للدولة العثمانية، والدعوة الى فكرة الجامعة الاسلامية، واستطاع أن يكون رابطة بين مقر الخلافة -استانبول- وبين تكايا ومراكز تجمع الطرق الصوفية في كل أنحاء العالم الاسلامي واتخذ من حركة التصوف في العالم الاسلامي وسيلة للدعاية للجامعة الاسلامية، كما اتخذ من الزهاد من غير المتصوفة وسيلة ايضاً للدعوة لفكر التجمع الاسلامي ، وتكونت في عاصمة الخلافة لجنة مركزية ، مكونة من العلماء

(1) المصدر السابق نفسه، ص 137.

(2) انظر: جمال الدين الأفغاني المصلح المفترى عليه، ص 137.

وشيوخ الطرق الصوفية حيث عملوا مستشارين للسلطان في شؤون الجامعة الاسلامية: الشيخ (أحمد أسعد) وكيل الفراشة الشريفة في الحجاز، والشيخ (أبو الهدى الصيادي) شيخ الطريقة الرفاعية، والشيخ (محمد ظافر الطرابلسي) شيخ الطريقة المدنية، والشيخ -رحمه الله- أحد علماء الحرم المكي، كانوا أبرز أعضاء هذه اللجنة المركزية للجامعة الاسلامية، وكان معهم غيرهم، وكانت الدولة العثمانية تنتشر فيها هيئات فرعية في كافة الأقاليم خاضعة لهذه اللجنة، ومن أهمها التي كانت في مكة تحت إشراف شريف مكة ومهمتها نشر مفهوم الجامعة الاسلامية في موسم الحج بين الحجاج، وأخرى في بغداد، وتقوم بنفس المهمة بين اتباع الطريقة القادرية، الذين يأتون بكثرة من الشمال الأفريقي لزيارة الشيخ عبدالقادر الكيلاني مؤسس الطريقة، وقد قدرت أعداد هؤلاء في إحدى السنوات بحوالي (25.000) نسمة. وكانت لجنة بغداد تمل على تهيئة القادمين لحمل فكرة الجامعة الاسلامية، ولمقاومة الاستعمار الفرنسي في شمال أفريقيا ووصفت المخابرات الفرنسية ما قام به هؤلاء القادمون من أهل الشمال الأفريقي من بغداد، من أعمال ضد الفرنسيين وضد الاستعمار الفرنسي بأنها: (استفزازات بعض رجال الدين التابعين للطريقة القادرية)(1).

وللجنة المركزية للجامعة الاسلامية في استانبول، فرع أفريقي يعمل في شمال أفريقيا، وهو يعمل في سرية تامة، مهمته تنسيق العمل بين الجماعات الدينية هناك، لمقاومة الاحتلال الفرنسي، وهذه الجماعات هي: (الشاذلية والقادرية والمدنية) (2).

وبلغ من نفوذ هذه الحركة وهيبتها: أن وصفتها إدارة المخابرات الفرنسية في شمال أفريقيا بقولها: (ويمكن للسلطان عبدالحميد -بصفته رئيساً للجامعة الاسلامية- أن يجمع من خلال ارتباطاته الوثيقة بالجماعات الدينية في شمال أفريقيا- جيشاً محلياً منظماً، يتمكن -إذا لزم

(1) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص196.

(2) المصدر السابق نفسه، ص197.

الأمر - أن يقاوم به أي قوة أجنبية(1).

ولم تستطع المخابرات الفرنسية أن تكشف وسائل التنظيم للطرق الصوفية التابعة للخلافة الإسلامية في شمال أفريقيا وكل ما استطاعت عمله، هو محاولتها إضعاف هيبة السلطان عبدالحميد في نفوس مسلمي شمال أفريقيا، ومحاولة هذه السلطات ضرب سياسة الجامعة الإسلامية. وذلك باتباع سياسة فرنسية تقوم على:

إغراء بعض شيوخ الطرق الصوفية بالمال وبالمركز، للوقوف مع فرنسا وسياستها في شمال أفريقيا.

منع الحجيج من الحج، حتى لا يلتقوا بدعاة الجامعة الإسلامية بالسبل المناسبة. بمعنى : عدم إعلان منع الحج، واتخاذ أسباب صحية لتخويف الناس منه، مثل نشر أخبار عن وجود الكوليرا(2) وأرسل السلطان عبدالحميد مجموعة من الزهاد والمتصوفة الى الهند، لتعمل على القضاء على المحاولات الانكليزية الداعية الى سلب الخلافة من العثمانيين، لإعطائها الى العرب. واتصلت هذه القافلة أيضاً ببعض حكام الجزيرة العربية لاسيما الحجاز(3).

وهناك اتصالات بين السلطان عبدالحميد بوصفه رئيساً للجامعة الإسلامية ، وخليفة المسلمين ، وسلطان الدولة العثمانية ، وبين تجمعات الطرق الصوفية وشيوخها في تركستان، وفي جنوب أفريقيا، وفي الصين. بعضها كشف عنها النقاب ، وأكثرها لم تكشف عنه الوثائق بشكل كافٍ بعد(4).

لقد نجح السلطان عبدالحميد الثاني في جمع الطرق الصوفية إلا أنه فضل السكوت عن كثير

(1) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص197.

(2) المصدر السابق نفسه، ص198.

(3) المصدر السابق نفسه، ص198.

(4) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص198.

من انحرافات العقدية بحيث أن الطرق الصوفية في تلك المرحلة أنحرفت عن كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ إلا ما رحم الله ولذلك أضعفت الأمة وساهمت في سقوط الخلافة الإسلامية العثمانية السنية سنين ذلك بإذن الله تعالى في أسباب السقوط.

ثالثاً: تعريب الدولة:

كان السلطان عبدالحميد يرى -منذ أن تولى الحكم- ضرورة اتخاذ اللغة العربية لغة رسمية للدولة العثمانية. وفي هذا يقول: (اللغة العربية لغة جميلة. لبيتنا كنا اتخذناها لغة رسمية للدولة من قبل. لقد اقترحت على (خير الـدين باشا -التونسي- عندما كان صدرأ أعظم أن تكون اللغة العربية هي اللغة الرسمية، لكن سعيد باشا كبير أمناء القصر أعترض على اقتراحي هذا. وقال : (إذا عرّبنا الدولة فلن يبقى -العنصر التركي- شيء بعد ذلك.

كان (سعيد باشا) رجلاً فارغاً، وكلامه فارغاً. ما دخل هذه المسألة بالعنصر التركي؟! المسألة غير هذه تماماً. هذه مسألة ، وتلك مسألة أخرى إتخاذنا للغة العربية لغة رسمية للدولة من شأنه - على الاقل- أن يزيد ارتباطنا بالعرب(1).

إن السلطان عبدالحميد الثاني كان يشكو وخصوصاً في بداية حكمه من أن الوزراء وأمناء القصر السلطاني ، كانوا يختلفون عنه في التفكير ، وأنهم متأثرون بالغرب وبالأفكار القومية والغربية وكانوا يشكلون ضغط على القصر ، سواء في عهد والده السلطان عبدالحميد، وفي عهد عمه السلطان عبدالعزيز ، أو في عهده هو. لم يقتصر الأمر في معارضة اقتراح السلطان عبدالحميد بتعريب الدولة العثمانية على الوزراء المتأثرين بالغرب فقط: بل تعداه الى معارضة من بعض علماء الدين(2).

(1) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص 199.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 200.

إن من الأخطاء التي وقعت فيها الدولة العثمانية عدم تعريب الدولة وشعبها بلغة القرآن الكريم والشرع الحكيم.

يقول الاستاذ محمد قطب: (ولو تصورنا أن دولة الخلافة قد استعربت ، وتكلمت اللغة العربية التي نزل بها هذا الدين فلا شك أن عوامل الوحدة داخل الدولة كانت تصبح أقوى وأقدر على مقاومة عبث العابثين، فضلاً عما يتيح تعلم العربية من المعرفة الصحيحة بحقائق هذا الدين من مصادره المباشرة: كتاب الله وسنة رسوله p ، مما كان الحكام والعامّة كلاهما في حاجة إليه، على الرغم من كل ماترجم الى التركية وما ألف أصلاً بالتركية حول هذا الدين)(1).

رابعاً: مراقبته للمدارس ونظرتة للمرأة وسفور المرأة:

عندما تولى السلطان عبدالحميد السلطنة رأى أن المدارس، ونظام التعليم، أصبح متأثراً بالفكر الغربي، وأن التيار القومي: هو التيار السائد في هذه المدارس، فتدخل في شؤونها ووجهها -من خلال نظرتة السياسية- الى الدراسات الاسلامية. فأمر بالآتي:

- استبعاد مادة الأدب والتاريخ العام من البرامج الدراسية لكونها وسيلة من وسائل الأدب الغربي، والتاريخ القومي للشعوب الأخرى مما يؤثر على أجيال المسلمين سلباً.
 - وضع دروس الفقه والتفسير والأخلاق في برامج الدراسة.
 - الاقتصار فقط على تدريس التاريخ الاسلامي بما فيه العثماني.
- وجعل السلطان عبدالحميد مدارس الدولة تحت رقابته الشخصية ووجهها لخدمة الجامعة الاسلامية(2).

وأهتم بالمرأة وجعل للفتيات داراً للمعلمات ومنع اختلاطهن بالرجال وفي هذا يذكر السلطان في

(1) انظر: واقعنا المعاصر، ص153.

(2) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص201.

معرض الدفاع عن نفسه أمام اتهام جمعية الاتحاد والترقي له بأنه عدو العقل والعلم بأنه : (لو كنت عدواً للعقل والعلم فهل كنت أفتح الجامعة؟ لو كنت هكذا عدواً للعلم ، فهل كنت أنشئ لفتياتنا اللواتي لا يختلطن بالرجال ، داراً للمعلمات؟!)(1).

وقام بمحاربة سفور المرأة في الدولة العثمانية، وهاجم تسرب أخلاق الغرب، الى بعض النساء العثمانيات، ففي صحف استانبول في 3 اكتوبر 1883م ظهر بيان حكومي موجه الى الشعب يعكس وجهة نظر السلطان شخصياً في رداء المرأة.

يقول هذا البيان: (إن بعض النساء العثمانيات اللاتي يخرجن الى الشوارع في الأوقات الأخيرة، يرتدين ملابس مخالفة للشرع. وإن السلطان قد ابلى الحكومة بضرورة اتخاذ التدابير اللازمة للقضاء على هذه الظاهرة. كما أبلى السلطان الحكومة ايضاً بضرورة عودة النساء الى ارتداء الحجاب الشرعي الكامل بالنقاب إذا خرجن الى الشوارع). وبناءً على هذا فقد اجتمع مجلس الوزراء واتخذ القرارات التالية:

- (تعطى مهلة شهر واحد يمنع بعده سير النساء في الشوارع إلا إذا ارتدين الحجاب الاسلامي القديم. وينبغي أن يكون هذا الحجاب خالياً من كل زينة ومن كل تطريز.
- يُلغى ارتداء النساء النقاب المصنوع من القماش الخفيف أو الشفاف. وبالتالي ضرورة العودة الى النقاب الشرعي الذي لايبين خطوط الوجه.
- على الشرطة -بعد مضي شهر على نشر هذا البيان- ضمان تطبيق ما جاء فيه من قرارات بشكل حاسم، وعلى قوات الضبطية التعاون مع الشرطة في هذا.
- صدّق السلطان على هذا البيان بقراراته الحكومية.
- ينشر هذا البيان في الصحف ويعلق في الشوارع)(2).

(1) المصدر السابق نفسه، ص99.

(2) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص100.

وفي اليوم التالي لنشر هذا البيان ، أي في 4 أكتوبر قالت جريدة (وَقْتُ) الصادرة في استانبول

: (إن المجتمع العثماني عموماً يصوّب هذا القرار ويراه نافعا)(1).

وكان السلطان عبدالحميد يرى : (أن المرأة لا تتساوى مع الرجل من حيث القوامة) ويقول: (مادام القرآن يقول بهذا، فالمسألة منتهية ولا داعي للتحديث عن مساواة المرأة بالرجل).

ويرى : (إن فكرة هذه المساواة إنما جاءت من الغرب)(2).

كما كان يدافع عن تعدد الزوجات، في وقت كان الإعلام العثماني يثير هذه القضية معترضاً عليها. ويقول السلطان: (لماذا يعترض بعض المثقفين على هذا الأمر، ولماذا لا يعترضون على وجوده في أماكن أخرى غير الدولة العثمانية، في بعض أماكن أوروبا وأمريكا؟) ويؤكد السلطان :

إن مبدأ تعدد الزوجات مباح في الإسلام فماذا يعني الاعتراض عليه؟(3).

لقد كان السلطان عبدالحميد مع تعليم المرأة ولذلك أنشأ داراً للمعلمات، لتخريج معلمات للبنات كما كان ضد الاختلاط بين الرجل والمرأة وضد سفور المرأة ولم يكن في عهده للمرأة رأي في شؤون الدولة مهما كانت هذه الشؤون وإنما دور المرأة في البيت وتربية الأجيال وكان يعامل المرأة معاملة كريمة نادرة فهذه زوجة أبيه التي احتضنته وقامت بتربيته، عندما تولى السلطان العرش ، أعلن زوجة أبيه التي ربته (والدة السلطان) بمعنى الملكة في المفهوم الحديث. وكانت الملكة في القصر العثماني ، هي أم السلطان وليست زوجته كما في الدول الأخرى. ومع كل هذا، ففي اليوم التالي لتتصيب السلطان عبدالحميد على عرش الدولة العثمانية، قابل زوجة أبيه وهي التي أحبها حباً بالغاً، وقبل يدها وقال لها:

(بحنانك لم اشعر بفقد أمي . وأنت في نظري أمي لاتفرقين عنها. ولقد جعلتك السلطنة

(1) انظر: موسوعة أتاتورك (59،60/1).

(2) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص100.

(3) المصدر السابق نفسه، ص101.

الوالدة.. يعني أن الكلمة في هذا القصر لك. لكنني أرجو
-وأنا مصر على هذا الرجاء- ألا تتدخلني بأي شكل من الأشكال في أي عمل من أعمال الدولة،
كَبُرَ أم صغر(1).

خامساً: مدرسة العشائر:

أنشأ السلطان عبدالحميد في استانبول ، باعتبارها مقر الخلافة ومركز السلطنة (مدرسة العشائر العربية) من أجل تعليم وإعداد أولاً العشائر العربية، من ولايات حلب، وسورية ، وبغداد، والبصرة، والموصل، وديار بكر، وطرابلس الغرب واليمن، والحجاز، وبنغازي والقدس، ودير الزور .
وكانت مدة الدراسة في مدرسة العشائر العربية في استانبول خمس سنوات، وهي داخلية، تتكفل الدولة العثمانية بكل مصاريف الطلاب، ولكل طالب "إجازة صلة الرحم" وهي إجازة مرة كل سنتين. وسفر الطالب فيها على نفقة الدولة:

وبرنامج مدرسة العشائر العربية، في استانبول كان كالآتي:

السنة الأولى: القرآن الكريم - الأبجدية - العلوم الدينية- القراءة التركية- إملاء- تدريب عسكري.

السنة الثانية: القرآن الكريم - التجويد - العلوم الدينية- الإملاء - الحساب- القراءة التركية - تحسين الخط، تدريب عسكري .

السنة الثالثة: القرآن الكريم - التجويد - العلوم الدينية - الإملاء - حسن الخط- الحساب - الجغرافيا - الفرنسية - التدريب .

السنة الرابعة: القرآن الكريم - التجويد - العلوم الدينية - الصرف العربي- اللغة الفارسية - الكتابة والنحو التركي - الجغرافيا - الحساب - حسن الخط الفرنسي- التدريب.

السنة الخامسة: القرآن الكريم - التجويد - العلوم الدينية - النحو العربي- اللغة الفارسية -

(1) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص98.

التاريخ العثماني - القواعد العثمانية - الكتابة والقراءة التركية - المكالمة التركية - الجغرافيا -
الحساب - الهندسة - حسن الخط - المعلومات المتنوعة - حفظ الصحة - أصول إمساك الدفاتر
- اللغة الفرنسية - حسن الخط الفرنسي - الرسم - التدريب (1).

وكان المتخرجون من هذه المدرسة ، يدخلون المدارس العسكرية العالية. ويحصلون بعد ذلك
على رتب عالية. كما يمكنهم كذلك أن يدخلوا المدرسة الملكية -وهي مدنية- يدرسون فيها سنة
ويحصلون بعدها على رتبة قائمقام، ثم يعودون الى بلادهم (2).

كما أنشأ السلطان عبدالحميد (معهد تدريب الوعاظ والمرشدين) أقيم لإعداد الدعاة للدعوة
الاسلامية، وللجامعة الاسلامية ثم يتخرجون فينطلقون الى مختلف أرجاء العالم الاسلامي يدعون
للاسلام، ويدعون للخلافة، ويدعون للجامعة الاسلامية (3).

ولقد كانت نظرة السلطان عبدالحميد بعيدة وثاقبة ولذلك اهتم بمسلمين الصين.

خرجت الصحافة في استانبول ، بخر مفاده أن عدد من مسلمي الصين متحمسون ، يحبون
العلم ويرغبون الاستفادة من المعارف الاسلامية، وأن لديهم مؤسسات تعليمية ومدارس، وأن في
بكين وحدها ثمانية وثلاثين مسجداً وجامعاً، يؤدي المسلمون فيها الصلاة، ويدعون فيها للخليفة
المسلمين السلطان عبدالحميد الثاني ، وأن خطبة الجمعة في مساجد وجوامع بكين تُقرأ باللغة
العربية، ثم تترجم الى اللغة الصينية، وأن الدعاء للسلطان عبدالحميد بصفته خليفة المسلمين لا
يقتصر على بكين فقط، بل ويمتد الى كل مساجد الصين وجوامعها (4).

تأسست في بكين - عاصمة الصين - جامعة أطلق عليها المسلمون الصينيون اسم (دار العلوم

(1) انظر: تاريخ التربية التركية، عثمان أركين، ص614-615، 618، 1180، على التوالي.

(2) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص202.

(3) انظر: الانقلاب العثماني، مصطفى طوران، ص37.

(4) انظر: جريدة ترجمان حقيقت رسالة من الصين 1325/12/26هـ.

الحميدية) نسبة الى السلطان الخليفة عبدالحميد الثاني، أو بتعبير السفير الفرنسي في استانبول اسم (الجامعة الحميدية في بكين) وذلك في تقرير له الى وزارة خارجيته في باريس. وقد حضر افتتاح هذه الجامعة ، الآلاف من المسلمين الصينيين. وحضره ايضاً مفتي المسلمين في بكين ، والكثير من علماء المسلمين هناك.

وفي مراسم الافتتاح ، ألقى الختبة باللغة العربية، ودعا الختيب للسلطان الخليفة عبدالحميد. وقام مفتي بكين بترجمة الختبة والدعاء الى اللغة الصينية. و(بكى أغلب المسلمين الحاضرين بكاءً حاراً بدافع فرحتهم) و(إن مسلمي الصين مترابطون فيما بينهم ترابطاً واضحاً برياط الدين المتين. وإن إيراد الختبة باللغة العربية لغة المسلمين الدينية، ورفع علم الدولة العثمانية على باب هذه الجامعة، قد أثر تأثيراً بالغاً في هؤلاء الناس الطيبي القلب، وحرك الدموع في اعينهم)⁽¹⁾.

سادساً: خط سكة حديد الحجاز:

عمل السلطان عبدالحميد على كسب الشعوب الاسلامية عن طريق الاهتمام بكل مؤسساتها الدينية والعلمية والتبرع لها بالأموال والمنح ورصد المبالغ الطائلة لاصلاح الحرمين وترميم المساجد وزخرفتها وأخذ السلطان يستميل إليه مسلمين العرب بكل الوسائل فكون له من العرب حرساً خاصاً وعين بعض الموالين له منهم في وظائف كبرى منهم (عزت باشا العابد) -من أهل الشام- الذي نجح في أن ينال أكبر حظوة عند السلطان عبدالحميد وأصبح مستشاره في الشؤون العربية. وقد لعب دوراً هاماً في مشروع سكة حديد الحجاز الممتدة من دمشق الى المدينة المنورة وهو بهذا المشروع الذي اعتبره السلطان عبدالحميد وسيلة من الوسائل التي أدت لأعلاء شأن الخلافة ونشر فكرة الجامعة الاسلامية.

وأبدى السلطان عبدالحميد اهتماماً بالغاً بإنشاء الخطوط الحديدية في مختلف أنحاء الدولة العثمانية مستهدفاً من ورائها تحقيق ثلاثة أغراض هي:

(1) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص205.

ربط أجزاء الدولة المتباعدة مما ساعد على نجاح فكرة الوحدة العثمانية والجامعة الإسلامية والسيطرة الكاملة على الولايات التي تتطلب تقوية قبضة الدولة عليها.

إجبار تلك الولايات على الاندماج في الدولة والخضوع للقوانين العسكرية التي تنص على وجوب الاشتراك في الدفاع عن الخلافة بتقديم المال والرجال.

تسهيل مهمة الدفاع عن الدولة في أية جبهة من الجبهات التي تتعرض للعدوان لأن مد الخطوط الحديدية ساعد على سرعة توزيع القوات العثمانية وإيصالها الى الجبهات(1).

وكانت سكك حديد الحجاز من أهم الخطوط الحديدية التي أنشأت في عهد السلطان عبدالحميد ففي سنة 1900م بدأ بتشديد خط حديدي من دمشق الى المدينة للاستعاضة به عن طريق القوافل الذي كان يستغرق من المسافرين حوالي أربعين يوماً، وطريق البحر الذي يستغرق حوالي اثني عشر يوماً من ساحل الشام الى الحجاز، وكان يستغرق من المسافرين أربعة أو خمسة أيام على الأكثر ولم يكن الغرض من إنشاء هذا الخط مجرد خدمة حجاج بيت الله الحرام وتسهيل وصولهم الى مكة والمدينة وإنما كان السلطان عبدالحميد يرمي من ورائه أيضاً الى أهداف سياسية وعسكرية فمن الناحية السياسية خلق المشروع في أنحاء العالم الاسلامي حماسة دينية كبيرة إذ نشر السلطان على المسلمين في كافة أنحاء الأرض بياناً يناشدهم فيه المساهمة بالتبرع لإنشاء هذا الخط(2)، وقد افتتح السلطان عبدالحميد قائمة التبرعات بمبلغ (خمسين الف ذهباً عثمانياً من جيبه الخاص) وتقرر دفع (مائة ألف) ذهب عثمانى من صندوق المنافع، وأسست الجمعيات الخيرية وتسبق المسلمون من كل جهة للإعانة على إنشائها بالأنفس والأموال(3).

وتبرع للمشروع الشخصيات الهامة في الدولة ، مثل الصدر الأعظم ووزير الحربية (حسين

(1) انظر: صحوة الرجل المريض، د. موفق بني المرجة، ص113.

(2) انظر: صحوة الرجل المريض، ص113.

(3) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص222.

باشا) ووزير التجارة والأشغال (ذهني باشا)، ورئيس لجنة المشروعات (عزت باشا).

وتبارى موظفو الشركات في التبرع، مثل موظفي شركة البواخر العثمانية. وكذلك موظفو الدولة العموميين، والولايات مثل ولاية بيروت ودمشق وحلب وبورصة وغيرها.

وشارك القصر الحاكم في مصر، في حملة التبرعات، وشكلت في مصر لجنة الدعاية للمشروع وجمع التبرعات له برئاسة (أحمد باشا المنشاوي). كما شاركت الصحافة المصرية في حملة سكة حديد الحجاز بحماس ومثال على ذلك جريدة المؤيد. وجمعت جريدة (اللواء) المصرية تبرعات للمشروع بلغت -حتى عام 1904م- ثلاثة آلاف ليرة عثمانية. وكان يرأسها مصطفى كامل باشا، كما جمع (علي كامل) مبلغ (2000) ليرة عثمانية للمشروع حتى عام 1901م.

وأسهم في هذه الحملة، جريدة (المنار) وجريدة (الرائد المصري) وشكلت لجان تبرع للمشروع في كل من القاهرة والاسكندرية وغيرها من مدن مصر.

وكان مسلموا الهند أكثر مسلمي العالم حماساً وعاطفة وتبرعاً للمشروع. وقد تبرع أمير حيدر آباد بالهند بإنشاء محطة المدينة المنورة في المشروع كما تبرع شاه إيران بمبلغ (50.000) ليرة عثمانية.

ورغم احتياج المشروع لبعض الفنيين الأجانب في إقامة الجسور والأنفاق، فإنهم لم يستخدموا إلا إذا اشتدت الحاجة إليهم، مع العلم بأن الأجانب لم يشتركوا إطلاقاً في المشروع، ابتداءً من محطة الأخضر -على بعد 760 كليومتراً جنوب دمشق- وحتى نهاية المشروع. ذلك لأن لجنة المشروع استغنت عنهم واستبدلتهم بفنيين مصريين.

وبلغ عدد العمال غير المهرة عام 1907م (7500) عاملاً. وبلغ إجمالي تكاليف المشروع (4.283.000) ليرة عثمانية. وتم إنشاء المشروع في زمن وتكاليف أقل مما لو تعلمه الشركات الأجنبية في أراضي الدولة العثمانية⁽¹⁾ وفي أغسطس سنة 1908م وصل الخط الحديدي إلى

(1) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص224.

المدينة المنورة وكان مفروضاً أن يتم مده بعد ذلك الى مكة لكن حدث أن توقف العمل فيه لأن شريف مكة -وهو الحسين بن علي- خشي على سلطاته في الحجاز من بطش الدولة العثمانية فنهض لعرقلة مد المشروع الى مكة وكانت مقر إمارته وقوته. فبقيت نهاية الخط عند المدينة المنورة حتى إذا قامت الحرب الكبرى الأولى عمل الانكليز بالتحالف مع القوات العربية التي انضمت إليهم بقيادة فيصل بن الحسين بن علي على تخريب سكة حديد الحجاز ولا تزال هذه السكة معطلة حتى اليوم والمأمول أن تبذل الجهود لاصلاحها حتى تعود الى العمل في تيسير سفر حجاج بيت الله الحرام(1).

وقد وصف السفير البريطاني في القسطنطينية في تقريره السنوي (1) العام 1907م أهمية الخط الحجازي فقال: (إن بين حوادث السنوات العشر الأخيرة عناصر بارزة في الموقف السياسي العام، أهمها خطة السلطان الماهرة التي استطاع أن يظهر بها أمام ثلاثمائة مليون من المسلمين في ثوب الخليفة الذي هو الرئيس الوحي للمسلمين ، وأن يقيم لهم البرهان على قوة شعوره الديني وغيرته الدينية، ببناء سكة حديد الحجاز التي ستمهد الطريق في القريب العاجل أمام كل مسلم للقيام بفريضة الحج الى الأماكن المقدسة في مكة والمدينة). فلا غرو إذا ما لمسنا حنق الانكليز على ذلك الخط الحديدي وافتعالهم الأزمات لإعاقته، وانتهازهم أول فرصة لتعطيله ونسفه. لقطع الطريق على القوات العثمانية(2).

وكان أول قطار قد وصل الى محطة سكة الحديد في المدينة المنورة من دمشق الشام يوم 22 آب (أغسطس) 1908م وكان بمثابة تحقيق حلم من الأحلام بالنسبة لمئات الملايين من المسلمين في أنحاء العالم كافة، فقد اختصر القطار في رحلته التي استغرقت ثلاثة أيام وقطع فيها 814 ميلاً مشقات رحلة كانت تستغرق في السابق اكثر من خمسة أسابيع كما خفقت في ذلك اليوم

(1) انظر: صحوة الرجل المريض، ص114.

(2)

التاريخي قلوب أولئك الذين كانوا مشتاقين الى القيام بأداء فريضة الحج المقدسة(1).

كانت سياسة عبدالحميد الاسلامية محضة، فاراد أن يجمع قلوب المسلمين حواليه باعتباره خليفة المسلمين جميعاً فكان مد خط السكة الحديدي بين الشام والحجاز من الوسائل الجميلة في تحقيق هدفه المنشود(2).

كان كرومر المعتمد البريطاني في مصر(1301-1325هـ/1883-1907م) من أوائل من ألب أوروبا على الجامعة الاسلامية، وحرص على أن يتحدث في تقاريره السنوية عن الجامعة الاسلامية ببغض شديد وفي الوقت نفسه نشرت جريدة الأهرام (المصرية) تصريحات مثيرة لوزير فرنسي هو (هانوتو) هاجم فيها الجامعة الاسلامية . وكانت مهاجمة الجامعة الاسلامية تستتبع بالتالي بمهاجمة الدولة العثمانية حتى تتفرق الوحدة التي تجمع من حولها الدول الاسلامية لتواجه النفوذ الاستعماري الزاحف الذي قد رسم مخططه على أساس التهام هذه الوحدات والحيلولة دون إلتقائها مرة أخرى في أي نوع من الوحدة ليستديم سيطرته عليها(3)؛ فاتخذوا لذلك عدة أعمال أساسية :

تعميق الدعوات الاقليمية والخاصة بالوطنية والأرض والأمة والعرق.

خلف جو فكري عام لمحاربة الوحدة الاسلامية وتصفيتها.

وكل هذا مقدمة لإلغاء الخلافة العثمانية نهائياً وبالتعاون مع الصهيونية العالمية(4) ويهود الدونمة وأذئابهم من جمعيات تركيا الفتاة، والاتحاد والترقي،... سياسة التودد والاستمالة! انتهج السلطان عبدالحميد الثاني سياسة التودد الى الشخصيات ذات النفوذ في الأوساط

(1) انظر: صحوة الرجل المريض، ص114.

(2) المصدر السابق نفسه، ص114.

(3) انظر: حاضر العالم الاسلامين، د.جميل المصري (101/1).

(4) المصدر السابق نفسه (101/1).

الشعبية في مختلف البقاع، فهو من ناحية كان يظهر احترامه لأهل العلم، ويعلي من قدرهم، ومن أجل ذلك جعل مجلس المشايخ، ورتب رواتب أعضائه، وكان حسن النية مع مرشديهم، وكان أرباب العلم ذوي رتب عالية عنده، وكان يتودد الى الشخصيات المهمة والتي تشجع وتقف مع فكرة الجامعة الاسلامية، مثل (مصطفى كامل باش) في مصر، ويعفو عن أخطاء البارزين -إذا كانوا يحسنون النية معه، ماداموا مقتنعين ومساندين لفكرة الجامعة الاسلامية- مثل (نامق كمال). وكان يختار بعض طلاب مدرسة العشائر العربية من أبناء العائلات الأصلية العريقة ذات النفوذ والسطوة والسمعة الطيبة من أبناء زعماء العرب. وقد توسعت هذه المدرسة فيما بعد وأخذت من أبناء الأكراد والألبان وحرص على الاتصال بزعماء وشيوخ وأمراء قبائل العرب بواسطة الرسائل والرسول لتقوية روابط الود والمحبة والأخوة الاسلامية، وكان على معرفة تامة بعمل الانجليز الذين اتصلوا بالشيوخ مثل (شريف مكة) و(الشيخ حميد الدين) في اليمن، وشيخ عسير وبعض شيوخ من أجل تحريضهم على الدولة العثمانية وتشجيعهم بالخروج على طاعة الخليفة، والانفصال عن الدولة العثمانية.

وعمل على إبطال مخططات الانكليز ومؤامراتهم الخبيثة، ولم يتوان عن حجز من يشك في ولائهم للدولة العثمانية ويلزمهم بالبقاء تحت رقابة الدولة في استانبول تحت مسميات المناصب والمرتببات، حتى تأمن الدولة مؤامراتهم، كما فعل مع شريف مكة عندما عينه عضواً في مجلس شورى الدولة في استانبول، ليمنعه من العودة الى مكة وقد عبر السلطان عبدالحميد عن رأيه في الشريف حسين، أثناء حديثه مع الصدر الأعظم فريد باشا. قال السلطان عبدالحميد: (إن الشريف حسين لا يحبنا. إنه الآن هادئ وساكن، لكن الله وحده يعلم ماذا يمكن أن يفعله الشريف غداً). لذلك تأخر قيام الثورة العربية بقيادة الشريف حسين الى ما بعد خلع الاتحاديين للسلطان عبدالحميد.

فلما حكم حزب الاتحاد والترقي الماسوني، أعاد الشريف حسين الى مكة واستطاع بعد ذلك أن

يتحالف مع الانكليز ويحدث فجوة كبيرة بين مسلمي العرب والأترك (1).

سابعاً: إبطاله مخططات الأعداء:

شرعت بريطانيا منذ الربع الأول من القرن التاسع عشر في تحريض الأكراد ضد الدولة العثمانية، بهدف إيجاد عداء عثماني كردي من ناحية، وانفصال الأكراد بدولة تقطع من الدولة العثمانية من ناحية أخرى.

وعندما قامت شركة الهند البريطانية زاد اهتمام الانكليز بالعراق، وقامت على العمل لإيجاد حركة قومية بين الأكراد وتجول مندوبون بريطانيون بين عشائر الأكراد في العراق في محاولة لتوحيد العشائر الكردية ضد الدولة العثمانية وكانت المخابرات العثمانية تتابع الأمور بدقة متناهية ووضع السلطان عبدالحميد خطة مضادة للعمل التدميري الانكليزي فقام بالتالي:

- قامت الدولة العثمانية بحماية المواطنين الأكراد من هجمات الأرمن الدموية ضدهم.
- أرسل الى عشائر الأكراد وفوداً من علماء المسلمين للنصح والإرشاد والدعوة الى الاجتماع تحت دعوة الجامعة الاسلامية ، وأدت هذه الوفود دورها في إيقاظ الأكراد تجاه الاطماع الغربية.
- اتخذ السلطان عبدالحميد إجراءات يضمن بها ارتباط أمراء الأكراد به وبالدولة.
- أسس الوحدات العسكرية الحميدية في شرق الأناضول من الأكراد، للوقوف أمام الاعتداءات الأرمنية .
- كان موقف الدولة قوياً ضد أطماع الأرمن في إقامة دولة تقطع من أراضيها، وبذلك شعر الأكراد المقيمون في نفس المنطقة بالأمان (2).
- عملت الدولة على كشف مخططات الانكليز الهادفة الى تفتيت الدولة العثمانية تحت مسمى حرية القوميات في تأسيس كل قومية دولة مختصة بها.

(1) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص227.

(2) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص131،132.

استطاع السلطان عبدالحميد أن يضيق على النفوذ البريطاني في اليمن ويحقق نجاحاً ظاهراً في صراعه مع الانكليز في تلك المنطقة، فقد أنشأ فرقة عسكرية في اليمن قوامها ثمانية آلاف جندي، لإعادة اليمن الى الدولة العثمانية مرة أخرى ووصل اهتمامه باليمن الى إرسال مشاهير قادته ليقودوا هذه الفرقة مثل (أحمد مختار باشا) و(أحمد فوزي باشا) و(حسين حلمي باشا) و(توفيق باشا) والمشير(عثمان باشا)، و(اسماعيل حقي باشا) وقد حاول الانكليز إنكفاء نيران التمرد في اليمن ضد الدولة العثمانية ولكن السياسة الحكيمة التي سار عليها السلطان عبدالحميد كفلت له النجاح في اليمن(1).

وكانت العقلية العثمانية تسعى لمد خط سكة الحديد من الحجاز الى اليمن وهذا ماتثبته الوثائق العثمانية التي دلت على وجود تخطيط ودراسة عميقة لهذا المشروع الكبير(2).

ثامناً: الاطماع الإيطالية في ليبيا:

كانت إيطاليا تحلم بضم شمال أفريقيا، لأنها تراه ميراث إيطالي هكذا صرح رئيس وزرائها (ماتريني)(3). لكن فرنسا احتلت تونس وانكلترا احتلت مصر، ولم يبق أمام إيطاليا إلا ليبيا. رسمت إيطاليا سياستها في ليبيا على ثلاث مراحل:

الأولى: الحلول السلمية، بإنشاء المدارس والبنوك وغيرها من "مؤسسات خدمية".

الثانية: العمل على أن تعترف الدول بآمال إيطاليا في احتلال ليبيا ، بالطرق الدبلوماسية.

الثالثة: إعلان الحرب على الدولة العثمانية والاحتلال الفعلي .

وكانت السياسة الإيطالية لاتفقت النظر الى تحركاتها، بعكس السياسة البريطانية أو الفرنسية في ذلك الوقت وكان الإيطاليون يتحركون "بحكمة" و"هدوء" شديدين دون إثارة حساسية العثمانيين.

(1) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص224.

(2)

(3) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص138.

وكان السلطان عبدالحميد متيقضاً لتلك الأطماع الإيطالية وطلب معلومات من مصادر مختلفة عن نشاط الإيطاليين في "ليبيا" وأهدافهم، فجاءته المعلومات تقول: (إن للإيطاليين بمدارسهم وبنوكهم ومؤسساتهم الخيرية التي يقيمونها في الولايات العثمانية، سواء في ليبيا أو في ألبانيا، هدفاً أخيراً هو تحقيق أطماع إيطاليا في الاستيلاء على كل من :

1- طرابلس الغرب.

2- ألبانيا.

3- مناطق الأناضول الواقعة على البحر الأبيض المتوسط: أزمير - الاسكندرون - أنطاكيا).
قام السلطان عبدالحميد الثاني بإتخاذ التدابير اللازمة أمام الأطماع الإيطالية ولما شعر أنه سيواجه اعتداءً إيطالياً مسلحاً على ليبيا، قام بإمداد القوات العثمانية في ليبيا بـ (15.000) جندي لتقويتها وظل يقظاً حساساً تجاه التحركات الإيطالية، ويتابعها شخصياً وبدقة، ويطالع كل ما يتعلق بالشؤون الليبية بنفسه بواسطة سفير الدولة العثمانية في روما، ووالي طرابلس مما جعل الإيطاليون يضطرون الى تأجيل احتلال ليبيا وتم لهم ذلك في عهد جمعية الاتحاد والترقي⁽¹⁾ وسنأتي على ذلك بالتفصيل بإذن الله في الكتاب السابع الذي يتحدث عن الحركة السنوسية وأثرها الدعوي والجهادي في إفريقيا.

إن فكرة الجامعة الاسلامية كان لها صدى بعيد في العالم الاسلامي لعدة أسباب منها:
كانت الدول الأوروبية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تتنافس على الاستعمار في الشرق وحدث سلسلة اعتداءات على الشعوب الاسلامية فاحتلت فرنسا تونس (1881م) واحتلت انكلترا مصر (1882م)، وتدخلت فرنسا في شؤون مراكش حتى استطاعت أن تعلن عليها الحماية (1912م) مقسمة أراضيها مع اسبانيا وكذلك توغل الاستعمار الأوروبي في بلاد أفريقية اسلامية كالسودان ونيجريا وزنجبار وغيرها.

(1) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص139.

تقدمت وسائل النقل والاتصالات بين العالم الاسلامي وانتشرت الحركة الصحافية في مصر وتركيا والجزائر والهند وفارس وأوسط آسيا وجاوة (اندونيسيا) وكانت الصحف تعالج موضوع الاستعمار وأطماع الدول الأوروبية في العالم الاسلامي وتنتشر أخبار الأوروبيين المتكررة في الهجوم على ديار الاسلام، فنتأثر القلوب، وتهيج النفوس، وتتفاعل مشاعر وعواطف المسلمين مع إخوانهم المنكوبين.

كانت جهود العلماء ودعواتهم في وجوب إحياء مجد الاسلام فقد انتشرت في ربوع العالم الاسلامي الدعوة الى وحدة الصف وإزداد الشعور بأن العدوان، الغربي بغير انقطاع على الشعوب الاسلامية مما يزيد ارتباطاً وتماسكاً وبأن الوقت قد حان لتلتحم الشعوب الاسلامية وتنضوي تحت راية الخلافة العثمانية وغير ذلك من الاسباب(1).

إن السلطان عبدالحميد الثاني نجح في إحياء شعور المسلمين بأهمية التمسك والسعي لتوحيد صفوف الأمة تحت راية الخلافة العثمانية وبذلك يستطيع أن يحقق هدفين:

الأول : تثبيت دولة الخلافة في الداخل ضد الحملات القومية التغريبية الماسونية اليهودية الاستعمارية النصرانية.

الثانية: وفي الخارج تلتف حول راية الخلافة جموع المسلمين الخاضعين للدول الأوروبية كروسيا وبريطانيا وفرنسا. وبذلك يستطيع أن يجابه تلك الدول ويهددها بإثارة المسلمين وإعلانه الجهاد عليها في جميع أنحاء العالم الاسلامي(2).

(1) انظر: صحوة الرجل المريض، ص112.

(2) المصدر السابق نفسه، ص113.

المبحث الثالث

السلطان عبدالحميد واليهود

إن حقيقة الصراع بين السلطان عبدالحميد الثاني واليهود من أهم الأحداث في تاريخ السلطان المسلم الغيور عبدالحميد الثاني.

إن امر اليهود وعداؤهم للإسلام يعود جذوره الى ظهور الاسلام منذ أن أنتصر الاسلام وأجلاهم رسول الله ρ عن المدينة المنورة لخيانتهم المتكررة وعداوتهم الدائمة ومن ثم عن سائر الجزيرة العربية في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب وهم يكيّدون له وقد تظاهر بعضهم بالاسلام وبث السموم في جسم الامة الاسلامية عبر تاريخها الطويل وما عبدالله ابن سبأ

والقرامطة والحشاشين والراوندية والدعوات الهدامة التي ظهرت في تاريخ المسلمين عنهم ببعيد. لقد أهدى تثار بلاد القرم للسلطان سليمان القانوني في القرن الخامس عشر الميلادي فتاة يهودية روسية كانوا قد سبوا في إحدى غزواتهم فتزوجها السلطان سليمان القانوني وأنجبت له بنتاً فما إن كبرت تلك البنت حتى سعت أمها اليهودية من اللقيط الكرواتي رستم باشا ثم إمعاناً منها في الغدر تمكنت من قتل الصدر الأعظم ابراهيم باشا ونصبت صهرها اللقيط بدلاً عنه ثم قامت بتدبير مؤامرة اخرى استطاعت بها أن تتخلص من ولي العهد مصطفى ابن السلطان سليمان من زوجته الأولى ونصبت ابنها سليم الثاني ولياً للعهد.

في ذلك الزمن كان اليهود قد تعرضوا للاضطهاد في الأندلس وروسيا وتشرد الكثير منهم هرباً من محاكم التفتيش فتقدمت تلك اليهودية من السلطان وسعت لديه بالحصول على إذن لهم بالهجرة الى البلاد، وبالفعل فقد استقر قسم منهم في إزمير⁽¹⁾ ومنطقة أدرنة، ومدينة بورصه والمناطق الشمالية والغربية من الاناضول ، وبعد استقرارهم في الدولة العثمانية، طبقت الحكومة عليهم أحكام الشريعة الاسلامية حيث تمتعوا في ظلها بقدر كبير من الاستقلال الذاتي، وفي الواقع أن يهود إسبانيا لم يجدوا المأوى فقط في تركيا العثمانية بل وجدوا الرفاهية والحرية التامة بحيث أصبح لهم التسلسل الهرمي في الدولة، إذ تغلغوا في المراكز الحساسة منها مثل دون جوزيف ناسي، وغيرهم وتمتع يهود إسبانيا بشيء كبير من الاستقلال وأصبح رئيس الحاخاميين مخول له السلطة في الشؤون الدينية والحقوق المدنية بحيث أن مراسم وقرارات هذا الحاخام كانت تصدق من قبل الحكومة الى درجة تحولت الى قانون يخص اليهود⁽²⁾.

وتجدر الإشارة في هذا المجال ، أن علي باشا وزير الخارجية (أصبح فيما بعد الصدر الأعظم ، قد شارك في بعثته الدبلوماسية عدد من اليهود في عام 1865م المرسلة الى الاقطار الأوروبية

(1) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص241.

(2) انظر: اليهود والدولة العثمانية، د. احمد النعيمي، ص37.

المسيحية(1).

إن اليهود تمتعوا بكافة الامتيازات والحصانات بموجب قوانين رعايا الدولة(2) ووجدوا السلم والأمان وحرية الوجود الكامل في الدولة العثمانية(3).

أولاً: يهود الدونمة:

هناك مفاهيم عديدة لكلمة الدونمة، إذ إن الكلمة من الناحية اللغوية مشتقة من الكلمة التركية (دونمك) التي تعني الرجوع أو العودة أو الارتداد. أما المفهوم الاجتماعي لهذه الكلمة فإنه يعني المرتد أو المتذبذب، بينما تعني هذه الكلمة من الناحية الدينية مذهباً دينياً جديداً، دعا إليه الحاخام ساباتاي زيفي، أما المفهوم السياسي لهذه الكلمة فإنه يعني اليهود المسلمين الذين لهم كيانهم الخاص(4)، وقد أطلق المعنى الخاص بالدونمة منذ القرن السابع عشر على اليهود الذين يعيشون في المدن الاسلامية وخاصة في ولاية سلانيك وأطلق العثمانيون اسم الدونمة على اليهود لغرض بيان وتوضيح العودة من اليهودية الى الاسلام ثم أصبح علماً على فئة من يهود الاندلس الذين لجؤوا الى الدولة العثمانية وتظاهروا باعتناق العقيدة الاسلامية(5).

إن مؤسس فرقة الدونمة هو شبتاي زيفي الذي ادعى بأنه المسيح المنتظر في القرن السابع عشر، حيث انتشرت في تلك الايام شائعة تقول أن المسيح سيظهر في عام 1648م كي يقود اليهود في صورة المسيح وأنه سوف يحكم العالم في فلسطين ، ويجعل القدس عاصمة الدولة

(1) المصدر السابق نفسه، ص37.

(2) المصدر السابق نفسه، ص38.

(3) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص39.

(4) انظر: يهود الدونمة، د. احمد النعيمي، ص8.

(5) انظر: صحوة الرجل المريض، ص242.

اليهودية المزعومة(1) وكانت فكرة المسيح المنتظر دائعة عندئذ في المجتمع اليهودي ، وكانت الأوساط اليهودية القديمة تؤمن بقرب ظهور هذا المسيح. ولذلك صادفت دعوة شبتي تأييداً كبيراً بين يهود فلسطين ومصر وشرق أوروبا ، بل أيدها كثير من اليهود وأصحاب الأموال لأغراض سياسية ومالية(2).

وذاع أمر شبتي في أوروبا وبولندا وألمانيا وهولندا وإنكلترا وإيطاليا وشمال أفريقيا وغيرها. وفي أزمير أخذ يلتقي بالوفود اليهودية التي جاءت من أدنة وصوفيا واليونان وألمانيا، حيث قلده هذه الوفود تاج "ملك الملوك" ثم قام شبتي بتقسيم العالم الى ثمانية وثلاثين جزءاً ، وعين لكل منها ملكاً، اعتقاداً منه بأنه سيحكم العالم كله من فلسطين، حيث كان يقول في هذا المجال: (أنا سليل سليمان بن داود حاكم البشر وأعتبر القدس قصراً لي)(3).

وقام شبتي بشطب اسم السلطان محمد الرابع من الخطب التي كانت تلقى في كنيس اليهود وجعل أسمه محل اسم السلطان، وسمى نفسه (سلطان السلاطين) و(سليمان بن داود) مما لفت انتباه الحكومة العثمانية(4).

وأصبح شبتي مصدر قلق لكثير من حاخامين اليهود ورفعوا ضده شكوى الى السلطان ، أكدوا فيها أن شبتي ينوي القيام بحركة تمردية في سبيل تأسيس دولة يهودية في فلسطين(5). ونتيجة لإشتداد فتنة شبتي زيفي، أصدر الوزير القوي أحمد كوبرولو أوامره بإلقاء القبض عليه، وأودعه الوزير في السجن، وظل فيه لمدة شهرين ثم نقل الى قلعة جزيرة غاليبولي على

(1) انظر: يهود الدونمة، ص16.

(2) انظر: يهود الدونمة، ص21.

(3) المصدر السابق نفسه، ص27.

(4) المصدر السابق نفسه، ص27.

(5) المصدر السابق نفسه، ص34.

الدردييل ، وسمح لزوجته وكاتبه الخاص أن يتخذا لهما سكناً معه وأصبح له مجلس كمجلس الأمراء، لايدخل عليه إلا بإذن مسبق وينتظر الذين يريدون أن يتمتعوا برؤيته أياماً من أجل ذلك وأخذت زوجته تسلك سلوك الأميرات مع القادمين عليها والقاديات حيث كانت وفود يهودية من أنحاء العالم قادمين لزيارته(1).

حوكم شبتاي في سراي أدرنة، حيث شكل السلطان هيئة علمية إدارية برئاسة نائب الصدر الأعظم وعضوية كل من (شيخ الاسلام) يحيى أفندي منقري زادة وواحد من كبار العلماء وهو إمام القصر محمد أفندي وانلي، وقام بدور المترجم من الإسبانية الى التركية الطبيب مصطفى حياتي(2).

أكد قاضي المحكمة، أن المسألة تعد بالنسبة للدولة العثمانية، وعلى مسمع من السلطان الذي جلس في غرفة مجاورة (وبواسطة الترجمان قيل لسبتاي تدعي أنك المسيح فأرنا معجزتك سنجدك من ثيابك ونجعلك هدفاً لسهام المهرة من رجالنا فأن لم تغرز السهام في جسمك فسيقبل السلطان ادعاءك. فهم شبتاي ما قيل له فأنكر ما أسند إليه وقال إنهم تقولوا عليه (3)، فعرض عليه الإسلام فدخل فيه تحت اسم محمد عزيز أفندي(4) وطلب من السلطات العثمانية أن تسمح له بدعوة اليهود الى الاسلام، فأذنت له وانتهزها فرصة فأطلق بين اليهود يواصل دعوته الى الايمان به ويحثهم على ضرورة تجمعهم معلنين في ظاهرهم الاسلام مبطنين يهوديتهم المنحرفة(5).

وظل شبتاي وأنصاره يتبعون دينهم الموسوي سراً، ويمارسون العمل للصهيونية في الخفاء،

(1) انظر: يهود الدونمة، ص36.

(2) المصدر السابق نفسه، ص36.

(3) يهود الدونمة، مصطفى طوران ، ترجمة كمال خوجة نقل منه د.علي حسون ، ص243.

(4) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د.علي حسون ، ص243.

(5) انظر: يهود الدونمة، ص36.

ويظهرون الاخلاص للاسلام في العلن والصلاح والتقوى أمام الأتراك، وكان يقول لأتباعه إنه كالنبي موسى الذي اضطر أن يبقى مدة من الزمن في قصور الفراعنة(1) وفي ظل هذه الظروف ألقى القبض على شبتي مع مجموعة من أتباعه في كنيس (قوري جشمه) الكائنة في داخل المعبد بسبب أنه كان مرتدياً زياً يهودياً وهو محاط بالنساء يشربون الخمر وينشدون الأناشيد اليهودية، وقراءة المزامير مع عدد من اليهود فضلاً عن اتهامه بدعوته المسلمين الى ترك دينهم والإيمان به، ولولا تدخل شيخ الاسلام لقطع رأسه، حيث اعترض على إعدامه قائلاً: (لو أعدم هذا المحتال سيكون سبباً لحدوث خرافة في الإنسانية ، حيث يدعي مريدوه بعروجه الى السماء كعيسى عليه السلام)(2). فأكتفى بنفيه الى مدينة دولسجنو في ألبانيا وذلك في صيف عام 1673م، وتوفى بعد خمس سنوات من نفيه وظلت عقيدة الشاباتائية موجودة لدى فرق سالونيك، وتقنن أتباعه في ممارسة المكر والتعصب والتجرد من المبادئ، والأخلاق(3).

وقد نظم شبتي زيفي عقيدة الدونمة في ثماني عشرة مادة وفي الحقيقة تعد المادة السادسة عشرة والسابعة عشرة أهم سمات الدونمة، إذ تشير المادة (16): (يجب أن تطبق عادات الأتراك بدقة لصرف أنظارهم عنكم ويجب ألا يظهر أحد من الأتباع تضايقه من صيام رمضان ومن الأضحية ولمن ينفذ كل شيء يجب تنفيذه أمام الملاء)(4). أما المادة (17) فإنها تشير الى الآتي: (إن مناكحتهم (يعني المسلمين) ممنوعة قطعاً)(5).

إن شبتي يعد أول يهودي بشر بعودة بني اسرائيل الى فلسطين ، وفي حقيقة الأمر، عدت

(1) المصدر السابق نفسه، ص41.

(2) المصدر السابق نفسه، ص42.

(3) المصدر السابق نفسه، ص43.

(4) انظر: يهود الدونمة، ص45.

(5) المصدر السابق نفسه، ص45.

حركة زيفي حركة سياسية ضد سلطة الدولة العثمانية أكبر من كونها حركة دينية(1).
لقد أسهمت هذه الطائفة في هدم القيم الاسلامية في المجتمع العثماني وعملت على نشر الإلحاد
والأفكار الغربية وانتشار الماسونية والدعوة لهتك حجاب المرأة المسلمة واختلاطها مع الرجال
وخاصة في المدارس وكان الكثير من رجال الاتحاد والترقي يساهم في بعض نشاطاتها وأفراحها.
وقام يهود الدونما بدور فعال في نصرته القوى المعادية للسلطان عبدالحميد والتي تحركت من
سلانيك لعزله وهم الذين سمموا أفكار الضباط الشباب ولايزالون حتى وقتنا الحاضر يسعون لذلك
ولهم صحف ودور نشر وتغلغلوا في الاقتصاد العثماني وكل مناحي الحياة في الدولة
العثمانية(2).

وقد استطاعوا أن يأتروا في جمعية الاتحاد والترقي، وكان السلطان عبدالحميد الثاني عارفاً
بحقيقة الدونمة ويؤكد هذه الحقيقة الجنرال جواد رفعت ألتخان، حيث يقول في هذا الصدد: (إن
الشخص الوحيد في تاريخ الترك جمعيه، الذي عرف حقيقة الصهيونية والشبتائية وأضرارهما على
الترك والاسلام وخطرها تماماً، وكافح معهما مدة طويلة بصورة جدية لتحديد شرورهم هو السلطان
التركي العظيم كافح هذه المنظمات الخطيرة لمدة ثلاث وثلاثين سنة بذكاء وعزم وبإرادة مدهشة
جداً كالأبطال)(3).

وفي حقيقة الأمر، أهتم عبدالحميد بإبقاء الدونمة في ولاية سالونيك ، وعدم وصولهم الى
الاستانة، بغية عدم السيطرة عليها والتجنب من تحركاتهم ، ونتيجة للموقف الجاد من عبدالحميد
إزاء فرقة الدونمة اتبعوا إستراتيجية مضادة له، حيث تحركوا ضده على مستوى الرأي العام

(1) المصدر السابق نفسه، ص46.

(2) انظر: تاريخ الدولة العثمانية ، د. علي حسون، ص46.

(3) انظر: السلطان عبدالحميد والخلافة الاسلامية للجندي ، ص107.

العثماني والجيش (1).

ونتيجة لموقف عبدالحميد من الدونمة، قام يهود الدونمة بالتعاون مع المحافظ الماسونية للإطاحة به، وقد استخدم هؤلاء شعارات معينة كالحرية والديمقراطية وإزاحة المستبد عبدالحميد، وعلى هذا الأساس قاموا بنشر الشقاق والتمرد في الدولة العثمانية بين صفوف الجيش . وكانت الغاية من هذا هي تحقيق المشروع الاستيطاني الصهيوني باستيطان فلسطين. وكان يهود الدونمة يشكلون اللبنة الأولى لتنفيذ المخططات اليهودية العالمية (2).

ثانياً: السلطان عبدالحميد وزعيم اليهودية العالمية (هرتزل):

استطاع زعيم الحركة اليهودية الصهيونية العالمية (تيودر هرتزل) أن يتحصل على تاييد أوروبي للمسألة اليهودية من الدول (ألمانيا، وبريطانيا وفرنسا) وجعل من هذه الدول قوة ضغط على الدولة العثمانية تمهيداً لمقابلة السلطان عبدالحميد، وطلب فلسطين منه وكانت الدولة العثمانية تعاني من مشاكل مالية متعددة، إذ كانت الأحوال الاقتصادية في البلاد على درجة من السوء بحيث فرضت الدول الأوروبية الدائنة وجود بعثة مالية أوروبية في تركيا العثمانية للإشراف على أوضاعها الاقتصادية ضماناً لديونها ، الأمر الذي دفع عبدالحميد الثاني أن يجد حلاً لهذه المعضلة.

كانت هذه الثغرة هي السبيل الوحيد أمام هرتزل، كي يؤثر على سياسة عبدالحميد الثاني تجاه اليهود. وفي هذا الصدد يقول هرتزل في مذكراته: (علينا أن ننفق عشرين مليون ليرة تركية لإصلاح الأوضاع المالية في تركيا ... مليونان منها ثمناً لفلسطين والباقي لتحرير تركيا العثمانية بتسديد ديونها تمهيداً للتخلص من البعثة الأوروبية ... ومن ثم نقوم بتمويل السلطان بعد ذلك بأي

(1) انظر: يهود الدونمة، ص 81.

(2) انظر: الحركة الاسلامية الحديثة في تركيا لمحمد مصطفى، ص 69، 68.

قروض جديدة يطلبها(1).

لقد أجرى هرتزل إتصالات مكثفة مع المسؤولين في ألمانيا والنمسا وروسيا وإيطاليا وإنكلترا وكانت الغاية من هذه الاتصالات هي إجراء حوار مع عبدالحميد الثاني. وفي هذا الصدد فقد نصح لاندو منذ 21 شباط 1896م الصديق اليهودي لهرتزل أن يقوم بواسطة صديقه نيولنسكي رئيس تحرير (بريد الشرق). وفي هذا المجال يقول هرتزل: (إن نحن حصلنا على فلسطين ، سندفع لتركيا كثيراً أو سنقدم عطايا كثيرة لمن .. لمن يتوسط لنا. ومقابل هذا نحن مستعدون أن نسوي أوضاع تركيا المالية. سنأخذ الأراضي التي يمتلكها السلطان ضمن القانون المدني، مع أنه ربما لم يكن هناك فرق بين السلطة الملكية والممتلكات الخاصة)(2).

وقام هرتزل بزيارة الى القسطنطينية وذلك في حزيران عام 1896م ، ورافقه في هذه الزيارة نيولنسكي ، الذي كانت له علاقة ودية مع السلطان عبدالحميد، ونتيجة لذلك فقد نقل بيولنسكي آراء هرتزل الى قصر يلدز، وقد دارت محاوره بين نيولنسكي والسلطان عبدالحميد إذ قال السلطان له: (هل بإمكان اليهود أن يستقروا في مقاطعة أخرى غير فلسطين؟ أجاب نيولنسكي قائلاً: (تعتبر فلسطين هي المهد الأول لليهود، فعليه فإن اليهود لهم الرغبة في العودة إليها)، ورد السلطان قائلاً: (إن فلسطين لاتعتبر مهداً لليهود فقط، وإنما تعتبر مهداً لكافة الأديان الأخرى). أجاب نيولنسكي قائلاً: (في حالة عدم استرجاع فلسطين من قبل اليهود فإنهم سوف يحاولون الذهاب وبكل بساطة الى الأرجنتين)(3).

وقام السلطان عبدالحميد بإرسال رسالة الى هرتزل بواسطة صديقه نيولنسكي جاء فيها: (انصح صديقك هرتزل، أن لايتخذ خطوات جديدة حول هذا الموضوع ، لأنني لاسطيع أن أتنازل عن

(1) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص116.

(2) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص117.

(3) المصدر السابق نفسه، ص120.

شبر واحد من الأراضي المقدسة، لأنها ليست ملكي، بل هي ملك شعبي. وقد قاتل أسلافي من أجل هذه الأرض، ورووها بدمائهم؛ فليحتفظ اليهود بملايينهم. إذا مزقت دولتي، من الممكن الحصول على فلسطين بدون مقابل، ولكن لزم أن يبدأ التمزيق أولاً في جثتنا ولكن لا أوافق على تشريح جثتي وأنا على قيد الحياة(1).

وفي هذا الصدد يقول عبدالحميد في مذكراته:

(ومن المناسب أن نقوم باستغلال الأراضي الخالية في الدولة، وهذا يعني من جانب آخر، أنه كان علينا أن ننهج إتباع سياسة تهجير خاصة، ولكننا لانجد أن هجرة اليهود مناسبة، لأن غايتنا هي استيطان عناصر تنتمي الى دين أسلافنا وتقاليدنا حتى لا يستطيعوا من الهيمنة على زمام الأمور في الدولة)(2).

وبعد إخفاق جهود هرتزل في واسطة نيولونسكي، اتجه هرتزل الى قصر وليم الثاني أمبراطور ألمانيا، ولاسيما أنه كان صديقاً لعبدالحميد، بالاضافة الى كون وليم الثاني هو الحليف الوحيد للعثمانيين في أوروبا(3) إلا أن مساعيه لم تكلل بالنجاح يقول المؤرخ التركي نظام الدين نظيف في كتابه (إعلان الحرية والسلطان عبدالحميد الثاني): (....عندما رد طلب الوفد اليهودي - المسند من قبل الامبراطور وليم- في الحصول على وطن لهم، أي: عندما خاب هرتزل في مسعاه إشتد العداء ضد (يلدز) وهذا ماكان يتوقعه عبدالحميد، لأن اليهود قوم يتقنون العمل المنظم، وكانت لديهم قوى عديدة تضمن لهم النجاح في مسعاهم، فالمال متوفر لديهم وكانوا يسيطرون على أهم العلاقات التجارية الدولية، وكانت صحافة أوروبا في قبضتهم، فكان في

(1) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص 120.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 120.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 121.

مقدرهم اطلاق العواصف التي يريدونها لدى الرأي العام متى شاءوا....(1).

يرد المورخ التركي قائلاً: (بدأوا أولاً بتحريك الصحافة العالمية، ثم أخذوا بتوحيد أعداء عبدالحميد الذين نشأوا في ذلك المجتمع العثماني الخليط، نجد، أنصار المشروطية يتخذون طابعاً منظماً وهجومياً، علماً بأنهم كانوا حتى ذلك الوقت متفرقين ويعملون دون نظام ودون تنسيق، إذ لم يكن صعباً عليهم توحيد أعداء عبدالحميد الذين نشأوا في ذلك المجتمع العثماني الخليط. وقد أخذ (المشرق الأعظم الماسوني الإيطالي) على عاتقه هذه المهمة في التوحيد والتنسيق لأنه كان أقرب مركز ماسوني للامبراطورية العثمانية. ولعبت المحافل الإيطالية وخاصة محفل (ريزوتا) في سلانيك دوراً ملحوظاً...)(2).

إزاء هذا الاخفاق قرر هرتزل أن يستخدم وسائل أخرى لاستمالة عبدالحميد الثاني، حيث عرض نفسه عن طريق نيولنسكي خدمته بواسطة القضية الأرمنية(3) وفي هذا الصدد يقول هرتزل: (طلب مني السلطان أن أقوم بخدمة له، وهي أن أؤثر على الصحف الأوروبية ، بغية قيام الأخيرة بالتحدث عن القضية الأرمنية بلهجة أقل عداء للأتراك، أخبرت نيولنسكي حالاً باستعدادي للقيام بهذه المهمة، ولكنني أكدت على إعطائي فكرة وافية عن الوضع الأرمني : من هم الأشخاص في لندن الذين يجب أن أقنعهم بما يريدون ، وأي الصحف يجب أن نستميلها لجهتنا وغير ذلك)(4). وعلى هذا الأساس، فقد نشطت الدبلوماسية الصهيونية لاقتناع الأرمن بالتخلي عن ثورتهم. ونتيجة لذلك فقد اتصل هرتزل مع سالزبوري والمسؤولين الانكليز بغية استخدامهم للضغط على الأرمن، كما نشط اليهود في مدن أوروبية أخرى مثل فرنسا للقيام بنفس الدور. إلا أن دبلوماسية

(1) انظر: السلطان عبدالحميد حياته وأحداث عهده، محمد أورخان، ص 281، 282.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 282.

(3) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص 132.

(4) انظر: اليهود والدولة العثمانية ، ص 137.

هرتزل قد أخفقت بسبب عدم تحمس بريطانيا، لأن ذلك كان يعني تأييد سياسة عبدالحميد، الأمر الذي يؤدي في إثارة الرأي العام البريطاني ضد الحكومة(1).

وقد حاول هرتزل لقاء عبدالحميد الثاني ، ولأسيما أثناء الزيارة الثانية للامبراطور وليم الثاني الى القسطنطينية، إلا أن موظفي قصر يلدز منعه من ذلك. واستمر هرتزل في محاولاته المستمرة حتى تكلفت جهوده بالنجاح بعد سنتين (1899-1901م) من الاحتكاك المباشر مع الموظفين الكبار لقصر يلدز من مقابلة عبدالحميد، حيث قابل السلطان لمدة ساعتين وقد اقترح هرتزل قيام البنوك اليهودية الغنية في أوروبا بمساعدة الدولة العثمانية لقاء السماح بالاستيطان في فلسطين، بالإضافة الى ذلك فإنه قد أكد لعبدالحميد أنه سوف يخفف الديون العامة للدولة العثمانية وذلك منذ عام 1881م ، وقد وعد هرتزل عبدالحميد أن يحتفظ بمناقشاته السرية معه(2).

كان السلطان عبدالحميد في خلال مقابله مع هرتزل مستمعاً أكثر منه متكلماً وكا يرخي لهرتزل في الكلام كي يدفعه أن يتحدث بكل ما يخطر في مخيلته من أفكار ومشروعات ومطالب. وقد أدى هذا الأمر الى أن يعتقد هرتزل بأنه نجح في مهمته هذه. ولكنه أدرك في نهاية الأمر بأنه قد أخفق مع عبدالحميد وأنه أخذ يسير في طريق مسدود معه(3).

وبعد إخفاق جهود هرتزل عند عبدالحميد الثاني، تحدث هرتزل قائلاً: (في حالة منح السلطان فلسطين لليهود ، سنأخذ على عاتقنا تنظيم الأوضاع المالية، اما في القارة الأوروبية فإننا سنقوم بإيجاد حصن منيع ضد آسيا، وسوف نبني حضارة ضد التخلف، كما سنبقي في جميع أنحاء أوروبا بغية ضمان وجودنا)(4).

(1) المصدر السابق نفسه، ص138.

(2) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص141.

(3) المصدر السابق نفسه، ص143.

(4) المصدر السابق نفسه، ص143.

وفي الحقيقة كان عبدالحميد يرى أنه من الضروري عدم توطين اليهود في فلسطين ، كي يحتفظ العنصر العربي بتفوقه الطبيعي. وفي هذا الصدد يقول: (... ولكن لدينا عدد كافٍ من اليهود ، فإذا كنا نريد أن يبقى العنصر العربي متفوقاً، علينا أن نصرف النظر عن فكرة توطين المهاجرين في فلسطين وإلا فإن اليهود إذا استوطنوا أرضاً تملكوا كافة قدراتها خلال وقت قصير، ولذا نكون قد حكمنا على إخواننا في الدين بالموت المحتم(1).

وكانت الدولة العثمانية تسعى في أحيان كثيرة الى أبعاد اليهود العثمانيين عن أفكار هرتزل والحركة الصهيونية، ومع ذلك فإنها في أحيان أخرى كانت تستخدم لغة التهديد معهم. وفي هذا الصدد أوضح علي فروخ بك الوسائل الاعلامية الاجنبية، وبصراحة تامة: (إنه لبعيد من الصواب أن يقوم الصهاينة على خلق صعوبات للحكومة العثمانية، بغية إرغامها على تحقيق مصالحها. ولكن هذه الصعوبات سوف تؤدي في نهاية الأمر الى إلحاق الأذى بوجودهم السلمي والسعيد في الدولة العثمانية... وهذه النقطة واضحة بالنسبة لعلاقة العثمانيين مع رعايا الأرمن، لأن قلة من المتمردين الذين قاموا على ارتكاب الخطأ والحماقة معتمدين الى الارشاد الميكافلي قد أدى في نهاية الأمر أن يندما على مافعلوه ، من دون التوصل على أية نتيجة(2).

وعلى الرغم ، من اخفاق جهود هرتزل عند السلطان عبدالحميد، كتب هرتزل قائلاً: (يجب تملك الأرض بواسطة اليهود بطريقة تدريجية دون حاجة الى استخدام العنف، سنحاول أن نشجع الفقراء من السكان الأصليين على التروح الى البلدان المجاورة بتأمين أعمال لهم هناك مع خطر تشغيلهم في بلدنا إن الاستيلاء على الأرض سيتم بواسطة العملاء السريين للشركة اليهودية التي تتولى بعد ذلك بيع الأرض لليهود. علاوة على ذلك تقوم الشركة اليهودية بالإشراف على التجارة

(1) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص146.

(2) المصدر السابق نفسه، ص146.

في بيع العقارات وشرائها، على أن يقتصر بيعها على اليهود وحدهم(1).

وكتب هرتزل قائلاً: (أقر على ضوء حديثي مع السلطان عبدالحميد الثاني أنه لا يمكن الاستفادة من تركيا إلا إذا تغيرت حالتها السياسية أو عن طريق الزج بها في حروب تهزم فيها، أو عن طريق الزج بها في مشكلات دولية أو بالطريقتين معاً في آن واحد)(2).

إن عبدالحميد كان يعرف أهداف الصهيونية، حيث قال في مذكراته السياسية: (لن يستطيع رئيس الصهاينة هرتزل أن يقنعني بأفكاره وقد يكون قوله : ستحل المشكلة اليهودية يوم يقوي فيه اليهودي على قيادة محرائه بيده، صحيحاً في رأيه ، أنه يسعى لتأمين ارض لإخوانه اليهود، لكنه ينسى أن الذكاء ليس كافياً لحل جميع المشاكل .. لن يكتفي الصهاينة بممارسة الأعمال الزراعية في فلسطين بل يريدون أموراً مثل تشكيل حكومة وانتخاب ممثلين، إنني أدرك أطماعهم جيداً، لكن اليهود سطحيون في ظنهم أنني سأقبل بمحاولاتهم. وكما أنني أقدر في رعايانا من اليهود خدماتهم لدى الباب العالي فإني أعادي أمانهم وأطماعهم في فلسطين)(3).

وعن القدس يقول عبدالحميد الثاني: (لماذا نترك القدس ...إنها أرضنا في كل وقت وفي كل زمان وستبقى كذلك، فهي من مدننا المقدسة، وتقع في أرض إسلامية ، لا بد أن تظل القدس لنا)(4).

لقد كان غرض السلطان عبدالحميد في استماعه الى (تيودور هرتزل) معرفة الآتي:
حقيقة الخطط اليهودية.
معرفة قوة اليهود العالمية ومدى قوتها.

(1) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص148.

(2) المصدر السابق نفسه، ص147.

(3) المصدر السابق نفسه، ص148.

(4) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص57.

إنقاذ الدولة العثمانية من مخاطر اليهود (1).

وشرع السلطان عبدالحميد في توجيه أجهزة الاستخبارات الداخلية والخارجية لمتابعة اليهود وكتابة التقرير عنهم وأصدر إرادتين سنتين الأولى في 28 يونيو 1890م والأخرى في 7 يونيو 1890م. في الأولى (رفض قبول اليهود في الممالك الشاهسانية) والأخرى: (على مجلس الوزراء دراسة تفرعات المسألة واتخاذ قرار جدي وحاسم في شأنها) (2).

واتخذ السلطان عبدالحميد الثاني كل التدابير اللازمة في سبيل عدم بيع الأراضي الى اليهود في فلسطين ، وفي سبيل ذلك عمل جاهداً على عدم إعطاء أي امتياز لليهود من شأنه أن يؤدي الى تغلب اليهود على أرض فلسطين. ولا بد في هذه الحالة أن تتكاتف جهود المنظمات الصهيونية بغية إبعاد السلطان عبدالحميد الثاني من الحكم. ويعزز هذا القول هرتزل عندما قال: (إني أفقد الأمل في تحقيق أماني اليهود في فلسطين، وإن اليهود لن يستطيعوا دخول الأرض الموعودة، مادام السلطان عبدالحميد قائماً في الحكم، مستمراً فيه) (3).

وتحركات الصهيونية العالمية، لتدعم أعداء السلطان عبدالحميد الثاني ، وهم المتمردون الأرمن، والقوميون في البلقان، وحركة حزب الاتحاد والترقي، والوقوف مع كل حركة انفصالية عن الدولة العثمانية (4).

(1) المصدر السابق نفسه، ص56.

(2) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص88.

(3) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص158.

(4) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني لمحمد حرب، ص234.

المبحث الرابع

السلطان عبدالحميد وجمعية الاتحاد والترقي

كان الشباب العثماني المثقف في النصف الثاني من القرن التاسع عشر قد تأثر بأفكار الثورة الفرنسية، التي حققت حكماً ديمقراطياً في فرنسا وأتت بأفكار القومية والعلمانية والتحرر من حكم الفرد، وكذلك تأثر بالحركة القومية الايطالية التي قادها (ماتزيني) بنظمها وخلاياها، وكانت الدولة العثمانية قد تعرضت لحملات عسكرية واعلامية ، غرضها إضعاف الدولة ومن ثم العمل على تفتيتها وكانت الدول الأوروبية تتخذ من أوضاع النصارى في الدولة حجة للتدخل، وفي هذه الظروف وبالضبط في عام 1865م، كان ستة من الشباب العثمانيين المثقفين يُسْرُونَ عن أنفسهم في حديقة في ضواحي أستانبول تسمى (غابة بلغراد). تحدث هؤلاء الشباب في موضوعات سياسية، وخرجوا بفكرة تكوين جمعية سرية، على نمط جمعية (إيطاليا الفتاة) التي أسسها الزعيم الايطالي (ماتزيني) عام 1831م، بهدف الوحدة الايطالية تحت راية الجمهورية، أطلق هؤلاء الشباب على جمعيتهم هذه اسم (اتفاق الحمية) ومن ضمن هؤلاء الشبان الشاعر الذي أصبح فيما بعد واسع الشهرة: نامق كمال. ورأوا أن العمل لا بد أن يكون في شكل تعريف الشعب بحقوقه السياسية، وحصوله عليها، وبالتالي فإن رغبة الشعوب النصرانية في الاستقلال بمناطقها عن الدولة، لن تجد لها ما يبررها من تدخل أجنبي بحجة مساندة الأقليات الدينية، وكانوا يرون أن إنقاذ الدولة من حالة التردّي التي وصلت إليها يكون، بإيجاد نظام سياسي ديمقراطي وكان في فرنسا

في تلك الفترة مصطفى باشا الأمير المصري الذي نازع فؤاد باشا رغبة في تولي عرش مصر وفي فرنسا أعلن الأمير أنه ضمن التيار المنادي بالدستور في الدولة العثمانية، وقدم نفسه بعبارة ممثل حزب تركيا الفتاة وأعجب هذا الاسم المجتمعات الأوروبية المعنية فشاع اسم "حزب تركيا الفتاة" في أوروبا.

ألتحق ثلاثة من الاعلاميين الثوريين العثمانيين هم : نامق كمال، ومحمد ضياء وعلي سعاوي، بالأمير المصري مصطفى فاضل في باريس وكونوا منظمة أسموها جمعية "العثمانيين الجدد". وكان أبرز شخصيات جمعية العثمانيين الجدد إعلاميين وشعراء وأدباء وعلى رأسهم نامق كمال وعلي سعاوي. وكان من أشهر تلك الشخصيات تأثيراً على الساحة الأوروبية نامق كمال الذي تتقف ثقافة إسلامية، وكما تأثر بفلاسفة الثورة الفرنسية، مثل (روسو). وله حياة أدبية واسعة وكتابات امتدت عبر ربع قرن عبر عن أفكاره من خلال الشعر ، والإعلام ، والكتابة والتاريخ وكانت كتاباته تسعى للإجابة عن ثلاثة أسئلة هي:

1- ماهي أسباب انحطاط الدولة العثمانية؟

2- ماهي الطرق التي يمكن بها أن نوقف هذا الانحطاط؟

3- ماهي الإصلاحات اللازم عملها في هذا السبيل؟

كما يمكن ادراج إجابات نامق كمال في ثلاث نقاط رئيسية هي :

1- أسباب انحطاط الدولة العثمانية، أسباب اقتصادية، سياسية.

2- التربية، وهي الطريق التي يمكن أن يوقف بها هذا الانحطاط.

3- الإصلاح الرئيسي الواجب عمله، هو : البدء بإقامة نظام دولة مركزية دستورية.

وكان نامق كمال يرى أن حركة التنظيمات العثمانية، استبدلت بسلطة السلاطين سلطة الباب العالي، أي صدور العظام الوزراء. لذلك فإن النظام الذي جاءت به التنظيمات، نظام أقل من النظام العثماني القديم. لذلك لم تستطع التنظيمات أن تحقق نهضة اقتصادية في الدولة. وفتحت

هذ التنظيمات الباب على مصراعيه لتدخل الدول الأوروبية في الشؤون العثمانية الداخلية.

وقد قال نامق كمال بفكرة الحقوق الطبيعية التي هي الأساس الفلسفي للحضارة الغربية المعاصرة، وقدم نامق كمال - مشروعاً للدستور العثماني، الى مدحت باشا وكان متأثراً بالدستور الفرنسي (دستور نابليون الثالث عام 1852م). ورأى نامق كمال أن هذا هو المناسب تماماً لظروف الدولة العثمانية في ذلك الوقت وكان نامق كمال صديقاً لمدحت باشا ولذلك تأثر بقرار السلطان عبدالحميد في عزله وقد تحدث السلطان عبدالحميد عن نامق كمال في مذكراته: (كان كمال بك أكثر من لفت انتباهي من بين عدة أشخاص أطلقوا على أنفسهم "العثمانيون الجدد". كان إنساناً مضطرباً جداً. لانتوافق حياته العائلية مع حياته الخاصة، ولانتوافق حياته القلمية مع حياته الفكرية.

يمكن أن تجزم بأن إنساناً ما، يستطيع عمل أمر ما، أو لا يستطيع. لكنك لاتستطيع القطع بهذا بشكل من الأشكال، وأنت تفكر في كمال بك. ذلك لأنه هو نفسه لايعرف نفسه تستطيع القول أنه واحد من الأشخاص النادرين، الذين يحيون حياتين مزدوجتين ، كل حياة تختلف عن الأخرى حسب مزاجه. من يعرفونه عن قرب، يعرفون أنه: عندما كان على وئام مع السراي كتب (التاريخ العثماني) وعندما فسدت هذه العلاقة، يعرفون أنه قطع رأس التتين بقوله: (كلب هو الذي يأمن لخدمة صياد غير منصف). إنه إنسان متقلب. ربما كان إنساناً مخلصاً جداً، يمكنك خلال ساعات أن تجعله يفكر مثلك، ولا يمكنك معرفة عدد الساعات أو الأيام التي سيحمل فيها هذه الأفكار(1).

بعد أن وجد السلطان عبدالحميد أن جماعة العثمانيين الجدد بقيادة مدحت باشا تمارس ضغطاً متواصلاً لقبول أفكارها، وأجبرته على دخول الحرب العثمانية الروسية، عمل على تشتيت أعضاء هذه الجمعية؛ فبدأ بنفي كبيرها وهو الصدر الأعظم مدحت باشا. بعد ذلك مباشرة، قامت ضد

(1) مذكرات السلطان عبدالحميد، ص47.

السلطان مؤامرتان لخلعه. واحدة : بقيادة علي سعاوي وهو من أعضاء هذه الجمعية. والآخرى: ماسونية قامت بها جمعية كلانتي سكاليري - عزيز.

والمؤمرتان مدعومتان من إنكلترا، وفشلت كلاهما، لكنهما جعلت السلطان يتشدد في مراقبة الفكر الوافد والمتأثرين به، وقامت أثناء ذلك أيضاً خلية سرية، من طلاب المدرسة الحربية، في استانبول من أصحاب الفكر الجديد، هدفها مقاومة حكم السلطان عبدالحميد ، حيث استطاع أحد أعضاء جمعية (كلاني-عزيز بك) الماسونية وهو (علي شفتي بك) الفرار الى نابولي، والى جنيف، حيث أصدر بين عامي 1879م و1881م، جريدة مناهضة للحكم العثماني، بعنوان (استقبال) بمعنى المستقبل.

وفي عام 1889م تأسست منظمة طلابية في المدرسة العسكرية الطبية في استانبول، حيث كان بعض الأساتذة هناك يحرضون الطلاب بشكل أو بآخر للقيام بمعارضة الحكم، ونشر أفكار العثمانيين الجدد بين الطلاب ، وكان المؤسس لهذه المنظمة إبراهيم تيمو الروماني الذي تأثر بالمحافل الماسونية الإيطالية. وأطلق على هذه المنظمة الاتحاد العثماني واختاروا يوم الاحتفال بذكرى الثورة الفرنسية المئوية، تاريخاً لإنشاء منظماتهم وجعلوا من أهدافهم مقاومة حكم السلطان عبدالحميد، وتكوين دولة مناسبة لأفكار العصر السياسية، تتخذ من الدول الغربية نموذجاً لها، مثل إنكلترا وفرنسا ألمانيا، والمناداة بالدستور والحرية والديمقراطية⁽¹⁾.

ومن المدرسة العسكرية الطبية ، سرت أفكار جمعية (الاتحاد العثماني) الى مختلف المدارس العليا الأخرى. وكانت خلايا جمعية الاتحاد هذه سرية على نظام جمعية (الكاربوناري) الإيطالية. ولم تكن الجمعية متعجلة، لا في الدعاية لأفكارها، ولا في الحركة ضد السلطان. حتى إن أحمد رضا بك قد وصل الى منصب مدير ادارة المعارف في منطقة بوصة، وسافر عام 1889م الى باريس بحجة حضور معرض باريس الدولي، ووصل الى هناك، وأعلن أنه لن يرجع الى بلاده.

(1) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص 279.

ومكث في فرنسا حوالي ست سنوات، لم تصدر عنه حركة معارضة جديرة بالتسجيل، الى حين أصدر جريدته (مشورات) عام 1895م.

ويذكر مؤسس جمعية الاتحاد -وهو إبراهيم تيمو- أنه كان بمضي أوقاته في الخارج -حتى عام 1895م- بمحاولة كسب أعضاء جدد لمنظمتهم ، لتربيتهم تربية ثورية، ويعقد الاجتماعات السرية، وقراءة الأعمال الأدبية التي ألفها أعضاء جمعية العثمانيين الجدد، مثل نامق كمال وضياء باشا وقراءة منشورات على شفقتي بك -عضو كلانتي الماسونية- وكان فاراً في أوروبا(1).

ونتيجة للمراسلات السرية بين أعضاء جمعية الاتحاد العثماني السرية في الداخل وفي الخارج تم الاتفاق على وحدة العمل العسكري والمدني ضد السلطان ، وعلى اعتماد اسم (جمعية الاتحاد والترقي) للجناحين المعارضين، العسكري والمدني، اللذين يعملان في إطار الجمعية.

كان اسم الجمعية في الأوساط العسكرية هو (الاتحاد العثماني). وكان أحمد رضا بك -ممثل الجناح المدني- متأثراً بأفكار الفيلسوف (أوغست كانت) وكان دستور هذا الفيلسوف هو: (الانتظام والترقي) . فأخذ أحمد رضا كلمة (الترقي) استلهاماً من دستور "كانت" واحتفظ العسكريون بسمى (الاتحاد)، واتفق الجميع أن تكون جمعيتهم باسم (الاتحاد والترقي)(2).

لقد تغلغت خلايا (الاتحاد والترقي) في وحدات الجيش، وبين موظفي الدولة من المدنيين، واتحدا في العمل الموحد بعد اتفاق جناحيهما العسكري والمدني في باريس، للعمل الفعلي ضد السلطان عبدالحميد. واستطاعت الجمعية بالفعل إجبار السلطان في 24 يوليو 1908م على إعلان الدستور الذي كان قد أمر سابقاً عام 1877م بوقف العمل به(3).

وكان الفكر السياسي لجمعية الاتحاد والترقي يؤكد على المفاهيم الطورانية على المستويين

(1) انظر: مذكرات إبراهيم تيمو، ص9.

(2) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص281،280.

(3) المصدر السابق نفسه ، ص281.

الداخلي والخارجي، والطورانية تسمية تشير الى وطن الأتراك الأصلي ونسبته الى جبل توران الواقع في المنطقة الشمالية الشرقية في إيران (1) وكان داخل حركة الاتحاد والترقي اتجاهاً قوياً يؤكد أن الترك هم من أقدم أمم الأرض وأعرقها مجدداً وأسبقها الى الحضارة، وأنهم هم والجنس المغولي واحد في الأصل، ويلزم أن يعودوا واحداً ويسمون ذلك بالجامعة الطورانية ولم يقتصر فيها على الترك الذين في سيبيريا وتركستان والصين وفارس والقوقاز والأناضول وروسيا وكان شعارهم عدم التدين وإهمال الجامعة الإسلامية إلا إذا كانت تخدم القومية الطورانية، فتكون عندئذ وسيلة لاغاية وهذا يعني أن هذا الاتجاه يدعو الى إحياء عقائد الترك الوثنية السابقة على أسلافهم، كالوثن التركي القديم (بوزقورت) أو الذئب الأبيض - الأسود الذي صوروه على طابع البريد ووضعوا له الأناشيد وألزموا الجيش أن يصطف لإنشادها عند كل غروب، وكأنهم يحلون تحية الذئب محل الصلاة، مبالغة منهم في إقامة الشعور العرقي محل الشعور الإسلامي.

ويستشهد هؤلاء برجالاتهم في التاريخ أمثال: أتلاو وطغرك، جنكيزخان وتيمورلنك. وقد تطرف هذا الاتجاه في الطورانية، إذ قالوا: (نحن أتراك فكعبتنا طوران). وهم يتغنون بمدائح جنكيز، ويعجبون بفتوحات المغول، ولا ينكرون شيئاً من أعمالهم، وينظمون الأناشيد للأحداث في وصف الوقائع الجنكيزية ليطبعوهم على الإعجاب ويرفعوا مستوى نفوسهم بزعيمهم ويمثل هذا الاتجاه كل من فياكوك الب (2) ويوسف أقتور وجلال ساهر ويحيى كمال وحمدالله صبحي ومحمد أمين بك الشاعر، وكثير من الأدباء والمفكرين وأكثر الطلبة والنشئ الجديد. وكان تأثير اليهود على الطورانية أمر واضح وفي هذا الصدد يقول نيازي بركس في كتابه (المعاصرة في تركيا): (أن لليهود الأوروبيين واليهود المحليين) في الدولة العثمانية في القرنين التاسع عشر والعشرين دوراً ضخماً في إرساء تيار القومية الطورانية فالعلماء اليهود في الغرب

(1) أنظر: اليهود والدولة العثمانية، ص 163.

(2) أنظر: اليهود والدولة العثمانية، ص 165.

مثل لومالي دافيد وليون كاهون وارمينيوس فاميري تصدوا للكتابة عن أصول الفكرة القومية الطورانية كما أن اليهود المحليين في الدولة العثمانية، مثل كراسوا (قراصو) ومؤييز كوهين وابارهام غالانتي ، كان لهم ضلع في جمعية الاتحاد والترقي وبمجرد أن نجحت هذه الجمعية في الإطاحة بحكم عبدالحميد ومن ثم الاستيلاء على السلطة تقدم الصهاينة الى الاتحاديين برغبتهم في أن تعترف الجمعية بفلسطين وطناً قومياً لليهود...)(1).

وقد ذكر نيازي بركس في كتابه السابق اسم اليهودي مؤييز كوهين الذي وصفه رينيه بيلو قائلاً:

1- إن كوهين هو من مؤسي الفكر القومي الطوراني في الدولة العثمانية.

2- إن كتاب مؤييز كوهين هو الكتاب المقدس للسياسة الطورانية(2).

كان اليهودي مؤييز كوهين نشطاً جداً في التعريف بحركة الاتحاد والترقي في الصحف الأوروبية، فقد كان يعرف بجانب العبرية والتركية، عدة لغات أوروبية، وبدأ هذا بمقال باللغة الفرنسية يحمل عنوان (الأترك يبحثون عن روح قومي)(3).

لقد أسهم مؤييز كوهين في التخطيط للسياسة العنصرية الطورانية التي سارت عليها جميعة الاتحاد والترقي وهي السياسة التي شقت شعوب الدولة العثمانية وأوجدت بينها العداوة والبغضاء . وكان هذا اليهودي لا يكل ولا يمل في نشر الفكر القومي التركي لتفتيت الدولة العثمانية. وكتب ثلاثة كتب اعتمدت عند جمعية الاتحاد والترقي وهي: (ماذا يمكن أن يكسب الأترك من هذه الحرب) و(الطوران) و(سياسة التتريك). كما أسهم هذا الكاتب اليهودي في الكتابة للفكر الكمالي

(1) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص119.

(2) المصدر السابق نفسه، ص119.

(3) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص120.

بكتابة (الكالمية) وكتابة (الروح التركية) الذي أرخ فيه التطور العنصر التركي (1).
لقد قامت جمعية الاتحاد والترقي على إثارة المشاعر القومية عند الأتراك، تحت حلم الطورانية،
وقد نادت بمفاهيم جديدة مثل الوطن والدستور والحرية، وكانت هذه المفاهيم غريبة على
العثمانيين، وقد ضمت في صفوفها مجموعة من الشباب المثقفين الأتراك، بالإضافة الى يهود
الدونمة وكانت الغاية منها الإطاحة بحكم عبدالحميد الثاني (2).

المبحث الخامس

الإطاحة بحكم السلطان عبدالحميد الثاني

كان السلطان عبدالحميد الثاني شديد الحذر من جمعية الاتحاد والترقي المدعومة باليهود

(1) المصدر السابق نفسه، ص122.

(2) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص168.

والمحافل الماسونية، والدول الغربية واستطاع جهاز مخابرات السلطان عبدالحميد أن يتعرف على هذه الحركة ويجمع المعلومات عنها؛ إلا أن هذه الحركة كانت قوية، وقد جاءت مراقبة عبدالحميد لأعضاء هذه الحركة في وقت متأخر ، حيث دفعوا الأهالي الى مظاهرات صاخبة في سلانيك ومناستر واسكوب وسوسن مطالبين بإعادة الدستور، بالإضافة الى أن المتظاهرين هددوا بالزحف على القسطنطينية. الأمر الذي أدى بالسلطان الى الرضوخ على مطالب المتظاهرين حيث قام بإعلان الدستور وإحياء البرلمان وذلك في 24 تموز 1908م، وكانت هناك عدة أسباب جعلت من جمعية الاتحاد والترقي أن تبقى السلطان عبدالحميد الثاني في تلك الفترة على العرش منها:

- 1- لم تكن في حوزة الاتحاد والترقي القوة الكافية بعزله في عام 1908م.
- 2- اتباع عبدالحميد الثاني سياسة المرونة معهم، وذلك بتنفيذ رغباتهم بإعادة الدستور.
- 3- ولاء العثمانيين لشخص السلطان عبدالحميد. وهذه النقطة واضحة، حيث أن لجنة الاتحاد والترقي لم تكن لها الجرأة الكافية على نشر دعايتها ضد السلطان عبدالحميد الثاني بين الجنود ، لأن هؤلاء كانوا يبجلون السلطان(1).

إن الصهيونية العالمية لم تقتصر على الانقلاب الدستوري لعام 1908م، بل تعاونت مع جمعية الاتحاد والترقي لتحقيق مكاسب أخرى في فلسطين ، وعليه كان لابد من التخلص من السلطان عبدالحميد الثاني نهائياً ولذلك دبرت أحداث في 31 أبريل 1909م في استانبول وترتب على أثرها، اضطراب كبير قتل فيه بعض عسكر جمعية الاتحاد والترقي؛ عرف الحادث في التاريخ باسم حادث 31 مارت.

وقد حدث هذا الاضطراب الكبير في العاصمة بتخطيط أوروبي يهودي، مع رجال الاتحاد الترقي وتحرك على أثره عسكر الاتحاد والترقي من سلانيك ودخل استانبول، وبهذا تم عزل خليفة المسلمين السلطان عبدالحميد الثاني من كل سلطاته المدنية والدينية. ثم وجهت إليه جمعية

(1) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص168.

- 1- تدبير حادث 31 مارت.
- 2- إحراق المصاحف.
- 3- الإسراف.
- 4- الظلم وسفك الدماء (1).

مع أن جمعية الاتحاد والترقي العثمانية، تبنت الأفكار الغربية المضادة للاسلام وللفكر الاسلامي؛ لكنها استغلت الدين عند مخاطبتها للناس للتأثير فيهم، وكسب أنصار لهم في معركتهم ضد السلطان عبدالحميد الثاني. وقد نجحوا في ذلك.

تقول الجمعية في بياناتها الى العثمانيين: (أيها العثمانيون: إن مقصدنا هو سلامة الدولة والخلافة، ولم يعد أحد يجهل هذا). (وبعون الباري وهمة الاخوان) و(أيها المسلمون: كفانا أن نقوم بدور المتفرج على سلطان جبار، عديم الايمان، يسحق القرآن تحت أقدامه، وكذلك يسحق الضمير والايمان) و(استيقظوا ياأمة محمد) و(الشجاعة الشجاعة يامسلمون الشجاعة منا والعون من الله. نصر من الله وفتح قريب) و(أيها المسلم الموحد! اقرأ باسم ربك) و(انهض أيها المسلم الموحد! وانقذ دينك، وإيمانك من يد الظالمين. وأنقذ بذلك نفسك! فهنا شيطان جبار يحمل فوق رأسه تاجاً. وفي يده دينك وإيمانك. فأنقذ دينك منه وإيمانك أيها الموحد) و(ياأيها المسلمون: إن السلطان عبدالحميد

شرعاً- ليس بسلطان، ولا خليفة! ومن لا يصدق قولنا هذا : فلينظر في الكتاب والسنة. لقد أبرزت جمعيتنا بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وأوامر الله وأوامر الرسول الموجهة الى الحكومة والأهالي.

لكن السلطان عبدالحميد، أشاح بوجهه بعيداً عن أوامر الله ، وأوامر الرسول . وبالتالي : أثبت

(1)انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص50.

ظلمه ولم يخجل من الاعتراض على الله؛ لذلك ينبغي على شعبنا، أن يلجأ الى السلاح ضده وإذا لم يفعل الشعب هذا، فليتحمل إذاً وزر ما عليه السلطان عبدالحميد من ظلم (1).

لقد كان الفكر الحاكم في اتجاهات جمعية (الاتحاد والترقي)، هو : الماسونية وهي لاتعترف بالأديان، والفلسفة الوضعية (العقلانية وهي تنفي الدين) والعلمانية (وهي تبعد الدين عن الحياة)، ومع ذلك استخدم الثوار الاتحاديون الدين لمحاربة السلطان عبدالحميد الثاني وافتروا عليه باسم الدين (2).

إن التهم التي وجهت للسلطان عبدالحميد الثاني لاتثبت أمام البحث العلمي، والحجج، والبراهين الدالة على برائته الكلية مما ينسب إليه، فقد أثبتت الأدلة على عدم علم السلطان عبدالحميد بحادث 31 مارت، كما أنه (من المحال إحراق السلطان عبدالحميد للمصاحف، فهو سلطان معروف بتقواه، ولم يعرف عنه تركه للصلاة وأهماله للتعبد، كما أنه معروف بعدم اسرافه ولأنه لايعرف الاسراف فقد كان المال يتوفر معه دائماً ولذلك فقد أزاح من على كاهل الدولة أعباء كثيرة من ماله الخاص). وعن ظلمه وسفكه للدماء فلم يعرف عن السلطان عبدالحميد هذا، وسفك الدماء لم يكن أبداً ضمن سياسته (3).

ولم لا يغيب عن بال الانقلابيين الضغط على مفتي الاسلام محمد ضياء الدين بإصدار فتوى الخلع ففي يوم الثلاثاء السابع والعشرين من شهر نيسان عام 1909م اجتمع 240 عضواً من مجلس الأعيان في جلسة مشتركة وقرروا بالاتفاق خلع السلطان عبدالحميد الثاني وكتب مسودة الفتوى لشيخ نائب حمدي افندي المالي لكن أمين الفتوى نوري أفندي الذي دعى للاجتماع رفض هذه المسودة وهدد بالاستقالة من منصبه ان لم يجر تعديل عليها وأيده في التعديل عدد من

(1) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص283، 282.

(2) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص283.

(3) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص50.

انصاره من النواب فعدل القسم الأخير على أن يقرر مجلس المبعوثان عرض التنازل عن العرش أو خلعه.

وإليكم نص الفتوى:

(الموقع عليها من شيخ الاسلام محمد ضياء الدين أفندي ووافق عليها مجلس المبعوثان بالإجماع "إذا قام أمام المسلمين زيد فجعل دينه طي واخراج المسائل الشرعية المهمة من الكتب الشرعية وجمع الكتب المذكورة والتبذير والإسراف من بيت المال واتفاقية خلاف المسوغات الشرعية وقتل وحبس وتغريب الرعية بلا سبب شرعي وسائر المظالم الاخرى ثم اقسام على الرجوع عن غيه ثم عاد فحنث وأصر على أحداث فتنة ليخل بها وضع المسلمين كافة فورد من المسلمين من كافة الاقطار الاسلامية بالتركرار مايشعر باعتبار زيد هذا مخلوعاً فلوحظ ان في بقائه ضرراً محققاً وفي زواله صلاحاً فهل يجب على أهل الحل والعقد وأولياء الأمور أن يعرضوا على زيد المذكور التنازل عن الخلافة والسلطنة أو خلعه من قبلهم. الجواب: نعم يجب(1).

قرأت هذه الفتوى في الاجتماع المشترك للمجلس الملي فصرخ النواب الاتحاديون نريد خلعه وبعد مداوات تم الموافقة على خلع السلطان عبدالحميد الثاني(2).

وبتكليف من جمعية الاتحاد والترقي تم تكوين لجنة لإبلاغ خليفة المسلمين وسلطان الدولة العثمانية عبدالحميد الثاني بقرار خلع. وكانت هذه اللجنة تتألف من:

1- إيمانويل قراصو: وهو يهودي أسباني. كان من أوائل المشتركين في حركة تركيا الفتاة وكان مسؤولاً أمام جمعية الاتحاد والترقي عن إثارة الشغب وتحريضه ضد السلطان عبدالحميد الثاني وتأمين التخابر بين سلانيك واستانبول فيما يتعلق بالاتصالات الحركة. وقراصو هذا محام، عملت جمعية الاتحاد والترقي بنجاح على تعيينه في المجلس النيابي العثماني نائباً عن سلانيك مرة وعن

(1) انظر: صحوة الرجل المريض، ص410.

(2) المصدر السابق نفسه، ص410.

استانبول مرتين. وصفته المصادر الانكليزية بأنه من قادة الاتحاد والترقي. عمل أثناء الحرب مفتشاً للاعاشة ، واستطاع أثناء وجوده في هذا المنصب أن يجمع أموالاً كثيرة لحسابه الخاص، ولعب دوراً هاماً في احتلال إيطاليا لليبيا نظير مبلغ من المال دفعته إليه إيطاليا. واضطر نتيجة لخيانته للدولة أن يهرب الى إيطاليا ويحصل على حق المواطنة الإيطالية واستقر في ترينسا حيث مات عام 1934م. وكان أثناء وجوده في الدولة العثمانية الاستاذ الأعظم لمحفل مقدونيا ريزولتا الماسوني.

2- آرام : وهو أرمني عضو في مجلس الأعيان العثماني.

3- أسعد طوبطاني: وهو ألباني ، نائب في مجلس المبعوثان عن منطقة دراج.

4- عارف حكمت: وهو فريق بحري وعضو مجلس الأعيان، وهو كرجبي العراق (1).

يروى السلطان عبدالحميد في مذكراته تفاصيل هذه الحادثة فيقول: (إن ما يحزنني ليس الابعاد عن السلطة، ولكنها المعاملة غير المحترمة التي ألقاها بعد كلمات أسعد باشا هذه والتي خرجت عن كل حدود الأدب ، حيث قلت لهم: إنني أنحني للشريعة ولقرار مجلس المبعوثان ذلك تقدير العزيز العليم، سوى إني أؤكد بأنه لم يكن لي أدنى علاقة لا من بعيد ولا من قريب بالاحداث التي تفجرت في 31 مارت ثم أردف قائلاً: (إن المسؤولية التي تحملتموها ثقيلة جداً). ثم أشار عبدالحميد الى قرصو قائلاً: (ما هو عمل هذا اليهودي في مقام الخلافة (2)؟ وبأي قصد جنتم بهذا الرجل أمامي؟) (3).

لقد اعتبر اليهود والماسونيون هذا اليوم عيداً لهم، وابتهجوا به وساروا بمظاهرة كبيرة في مدينة سلانيك، ولم يكتف الماسونيون بذلك بل طبعوا صورة هذه المظاهرات في بطاقات بريدية لتباع في

(1) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص 51.

(2) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص 219.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 220.

أسواق تركيا العثمانية ولمدة طويلة. لقد كان الاتحاديون يفتخرون دائماً بأنهم ماسونيون. وقد أدلى رفيق مانياسي زادة بتصريحات الى صحيفة تمبس والفرنسية في باريس عقب نجاح انقلاب حركة الاتحاد والترقي، حيث جاء فيها: (لقد كانت للمساعدات المالية والمعنوية التي تلقيناها من الجمعية الماسونية الايطالية التي أمدتنا بالعون العظيم نظراً لارتباطنا الوثيق بها)(1).

إن هذه العلاقة بين الصهيونية والماسونية، وضحها السلطان عبدالحميد الثاني في الرسالة التي وجهها الى الشيخ محمود أبي الشامات شيخه في الطريقة الشاذلية بعد خلعه وذلك في سنة 1329هـ (2) وقد جاء في هذه الرسالة:

(إن هؤلاء الاتحاديون قد أصروا عليّ بأن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة (فلسطين) ورغم اصرارهم، لم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف، وأخيراً وعدوا بتقديم مائة وخمسين مليون ليرة انكليزية ذهباً، فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية أيضاً، وأجبتهم بهذا الجواب القطعي: (إنكم لو دفعتم ملئ الدنيا ذهباً، فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي، لقد خدمت الملة الاسلامية والأمة المحمدية مايزيد على ثلاثين سنة فلم أسود صحائف المسلمين). وبعد جوابي هذا اتفقوا على خلعي، وأبلغوني أنهم سيعدوني الى سلانك، فقبلت بهذا التكليف الأخير. هذا وحمدت المولى وأحمدته أنني لم أقبل بأن الطخ العالم الاسلامي بهذا العار الأبدي الناشئ عن تكليفهم بإقامة دولة يهودية في الأراضي المقدسة! فلسطين)(3).

وفي مقال نشرت في جريدة (بويوك ضوغو) التركية في 2 مايو عام 1947م العدد 61 يقول (محرم فوزي طوغاي) تحت عنوان (فلسطين والمسألة اليهودية) الآتي:
(منع السلطان عبدالحميد تحقيق هدف إنشاء دولة يهودية في فلسطين، وكلف هذا لمنع

(1) المصدر السابق نفسه، ص 221.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 223.

(3) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص 223.

السلطان عبدالحميد غالباً وأودى بعرشه، وأدى هذا فيما بعد الى انهيار الدولة العثمانية كلها). رغم أنه كان يدرك -كما قال نظام الدين لبه دنلي أوغلو- في دراسته عن دور اليهود في هدم الدولة العثمانية أن: (اليهود يمتلكون قوى كثيرة تستطيع النجاح في العمل المنظم ، فالمال كان عندهم والعلاقات التجارية الدولية كانت في أيديهم. كما كانوا يمتلكون الصحافة الأوروبية والمحافل الماسونية)(1).

إن بعض أقطاب حركة الاتحاد والترقي اكتشفوا فيما بعد أنهم قد وقعوا تحت تأثير الماسونية والصهيونية، فهذا أنور باشا الذي لعب دوراً مهماً في إنقلاب عام 1908م، يقول في حديث له مع جمال باشا أحد أركان جمعية الاتحاد والترقي: (أتعرف يا جمال ما هو ذنبنا؟ وبعد تحسر عميق قال : (نحن لم نعرف السلطان عبدالحميد ، فأصبحنا آلة بيد الصهيونية، واستثمرتنا الماسونية العالمية، نحن بذلنا جهودنا للصهيونية فهذا ذنبنا الحقيقي)(2).

وفي هذا المعنى، يقول أيوب صبري قائد الاتحاديين العسكريين: (لقد وقعنا في شرك اليهود ، عندما نفذنا رغبات اليهود عن طريق الماسونيين لقاء صفيحتين من الليرات الذهبية في الوقت الذي عرض فيه اليهود ثلاثين مليون ليرة ذهبية على السلطان عبدالحميد لتنفيذ مطالبهم، إلا إنه لم يقبل بذلك)(3).

ويقول في هذا الصدد برنارد لويس: (لقد تعاون الاخوة الماسونيون واليهود بصورة سرية على إزالة السلطان عبدالحميد، لأنه كان معارضاً قوياً لليهود، إذ رفض بشدة إعطاء أي شبر أرض لليهود في فلسطين)(4).

(1) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص 88.

(2) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص 228.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 229.

(4) المصدر السابق نفسه، ص 229.

وقد علق نجم الدين أربكان المجاهد الكبير زعيم حزب الرفاه في تركيا على هذا الموضوع قائلاً: (إن الحركة الماسونية سعت سعياً شديداً لعزل السلطان عبدالحميد، ونجحت في سعيها وأن أول محفل فتح في تركيا العثمانية كان على يد أميل قره صو وهو صهيوني وقد انصم إليه ضباط منطقة سالونيك...) (1).

وبعد إبعاد عبدالحميد الثاني من السلطة، عبرت الصحف اليهودية في سلانيك عن غببتها في الخلاص من (مضطهد اسرائيل) كما وصفته هذه الصحف. وفي هذا الصدد يقول لوثر : (وبعد إبعاد عبدالحميد من السلطة ، عبرت الصحف اليهودية في سلانيك عن غببتها، وأخذت تزف البشائر بالخلاص من (مضطهد اسرائيل) الذي رفض استجابة طلب هرتزل لمرتين، والذي وضع جواز السفر الأحمر الذي يقابل عندنا قانون الأجانب) (2).

واستمرت الحملات الاعلامية المنظمة تشهراً تشهيراً عنيفاً بالسلطان عبدالحميد الثاني استهدف أعداء الاسلام من تلك الحملات:

- 1- الدفاع عن أعضاء الاتحاد والترقي، مبررين تصرفهم في إنهاء حكم السلطان عبدالحميد كي تسترد الدولة مكانتها.
- 2- تغطية فشل الاتحاد والترقي في حكم الدولة، فقد لجأ رجال الاتحاد والترقي الى القوة والاستبداد ، وأثاروا الفرقة بين سكان البلاد.
- 3- إبراز صورة مشرقة لعهد الطاغية الملحد مصطفى كمال آتاتورك وأعوانه، وتبرير تصرفات عملاء اليهود والانكليز والدول الغربية في إلغاء الخلافة والسلطنة وإعلان الجمهورية التركية.
- 4- رغبة الصهاينة في تدمير سيرة السلطان عبدالحميد الثاني إنتقاماً منه لسياسته المعادية

(1) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص 229.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 230.

لأهدافهم في فلسطين(1).

وحقيقة الأمر أنه لولا أصالة الدولة العثمانية وعراققتها وشموخها لأصبحت هباءً منبثاً، وطويت صفحاتها في القرن الثامن عشر او القرن التاسع عشر، ولكنها ظلت تقاوم عوادي الزمن أكثر من قرنين ونتيجة للزحف الاستعماري ، والكيد اليهودي ، والنخر الماسوني ، والضعف الشديد الذي انتاب الدولة ، وهو ضعيف لم يكن للسلطان عبدالحميد مسؤولاً عنه غدت ممتلكات الدولة نهباً بين الدول الأوروبية الاستعمارية التي كانت تخطط منذ زمن بعيد للقضاء على الدولة(2).

(1) انظر: الدولة العثمانية ، د. الشناوي (1023-1018/2).

(2) المصدر السابق نفسه (1061/2).

المبحث السادس

حكم الاتحاديين ونهاية الدولة العثمانية

تولى السلطنة والخلافة بعد السلطان عبدالحميد الثاني أخوه محمد رشاد إلا أنه في الحقيقة لايملك أي سلطة فعلية وإنما السلطة أصبحت بيد جمعية الاتحاد والترقي وغدت الحكومة العثمانية تركية في مضمونها، قومية في عصبيتها ، بينما كانت من قبل عثمانية في مضمونها وإسلامية في رابطتها. فقد تأثرت هذه الجمعية بقوة الأفكار القومية الطورانية التي تدعو الى تحرير كافة الاتراك. مدعين أن الشعوب الاسلامية في الأناضول وآسيا الوسطى تشكل أمة واحدة، وهي الأفكار التي تطورت أخيراً بمجهودات بعض كتاب الجمعية وعلى رأسها مؤيد كوهين اليهودي، والكتاب التركي الشهير ضيا كوك آلب؛ فاتبعت سياسة التتريك وذلك بجعل اللغة التركية هي اللغة الرسمية الوحيدة أن كانت تقف اللغة العربية الى جانبها. فتأججت حركة الدعوة الى القومية العربية، في مواجهة حركة التتريك.

كۆن العرب حزب اللامركزية وتعني أن تأخذ الولايات غير التركية استقلالاً ذاتياً وتبقي خاضعة خارجياً لاستانبول -كما كونوا جمعيات سرية مثل الجمعية القحطانية برئاسة عبدالكريم الخليل

والضابط عزيز علي المصري، والجمعية العربية الفتاة التي تشكلت في باريس عام 1329هـ على منهج جمعية تركيا الفتاة ومن قبل طلاب يدرسون هناك تشبعوا بالأفكار الغربية وخاصة مبادئ العصبية القومية واستعمل بعضهم المصطلحات الماسونية وكان قصدهم: استقلال العرب التام، وقد نقلوا مقرهم من باريس الى بيروت ثم الى دمشق حيث ازداد عدد الأعضاء وخاصة من النصارى العرب.

وتكونت الجمعية الاصطلاحية في بيروت عام 1331هـ وتعاونت مع جمعية النهضة اللبنانية في المهجر فقدمتا رسالة مشتركة الى حكومة فرنسا عام 1331هـ التمستا فيها منها احتلال سوريا ولبنان بينما اتجه بعض مثقفي العراق نحو الانكليز وأيد بعضهم إقامة إشراف بريطاني على برامج الإصلاح، بل وحتى الى بسط الحماية البريطانية على البلاد(1).

ولما بطش الاتحاديون بأعضاء الجمعيات العربية، قامت العربية الفتاة بعقد مؤتمر عربي في باريس سنة 1332هـ/1913م، وقد هيا الفرنسيون المكان المناسب لعقد الاجتماع وقرر المؤتمرين :

- 1- ضرورة تنفيذ الإصلاح بسرعة.
 - 2- اشراك العرب بالإدارة المركزية.
 - 3- جعل اللغة العربية لغة رسمية في كافة الولايات العربية .
 - 4- جعل الخدمة العسكرية محلية بالنسبة للعرب إلا حين الضرورة .
 - 5- التعاطف مع مطالب الأرمن .
- وأكد الأعضاء بأن حركتهم لا دينية وتعادل عدد النصارى مع عدد المسلمين في المؤتمر وكان برئاسة عبدالحميد الزهراوي(2).

(1) انظر: تاريخ الدولة العثمانية ، د. علي حسون، ص249.

(2) انظر: حاضر العالم الاسلامي ، د. جميل المصري (109/1).

وقد علقت فرنسا آمالاً كبيرة على المؤتمر وكان لها العديد من الانصار في داخله ثم قامت بنشر مقرراته.

ولما قامت الحرب العالمية الأولى (1333-1337هـ/1914-1948م) دخلت تركيا الحرب الى جانب دول الوسط (ألمانيا والنمسا) في حين تمكن الانكليز (بمراسلات الحسين مكماهون) من جر العرب الى جانب الحلفاء (بريطانيا وفرنسا وروسيا) فسادت فكرة القومية العربية ووقع الصدام بين العرب والترك (1).

وسقطت تركيا بعد هزيمتها في الحرب واحتل الحلفاء واليونان أجزاء منها ووقعت الاستانة تحت سيطرة الانكليز وأصبح الخليفة كالأسير فيها.

إن خلع السلطان عبدالحميد وقيام جمعية الاتحاد والترقي في الحكم كانت خطوة أساسية نحو تحقيق المخطط الذي تم أثناء الحرب وبعد الحرب في مراحل نلخصها فيما يلي:

1- اتفاق الحلفاء على تقسيم العالم الاسلامي الخاضع للدولة العثمانية بين الحلفاء، تجلى ذلك في معاهدة سايكس بيكو سنة 1334هـ/1916م السري في الوقت الذي وعد فيه العرب بالاستقلال. وأهم ماتضمنته هذه المعاهدة:

• أن يكون جنوب العراق لبريطانيا، وساحل سوريا الشمالي (لبنان والساحل الشمالي من سوريا) لفرنسا.

• تتكون دولتنا عربيتان شمال العراق وأواسط بلاد الشام وجنوبها، يكون النفوذ في الأولى التي تشمل شمال العراق وشرق الأردن لبريطانيا، والنفوذ في الثانية التي تشكل أواسط سوريا والجزيرة الفراتية لفرنسا.

• تكون فلسطين دولية.

(1) المصدر السابق نفسه (110/1).

- تكون الآستانة والمضائق (البسفور والدردينيل) لروسيا(1).
- 2- وعد بلفور الذي أصدرته بريطانيا للصهيونية في 11/2 /1917م (محرم 1326هـ) بأن تكون فلسطين وطناً قومياً لليهود.
- 3- تسليم تركيا لأبشع حركة تغريب وتدمير للقيم الإسلامية بنقلها من دولة ذات طابع إسلامي إلى دولة غربية الطابع، فيمكن القول بأن الفترة التي بدأت في تركيا بخلع السلطان عبدالحميد وتولي الاتحاديين للحكم هي الفترة التي اجتمعت فيها إرادة الحاكمين والاستعمار على تصفية الدولة العثمانية وإبراز طابع الجامعة الطورانية وإبلاغ العلاقة بين الترك والعرب أشد مراحلها عنفاً وقسوة مما مهد إلى زوال الدولة والتهام الغرب للأجزاء العربية ومنح اليهود وعد بلفور الذي يعطيهم الحق في إقامة دولة فلسطين(2).
- فقد قام الاتحاديون بتوجيه الدولة وجهة قومية لا دينية، ولما احتل الانجليز استانبول (الاستانة) وأصبح الخليفة شبه أسير في أيديهم، وأصبح المندوب السامي البريطاني والجنرال هازنجتون (القائد العام لقوات الحلفاء في استانبول) هما أصحاب السيادة الفعلية(3).
- وكانت اللعبة العالمية للقضاء على الخلافة العثمانية نهائياً تستدعي اصطناع بطل تتراجع أمامه جيوش الحلفاء الجرارة وتعلق الأمة الإسلامية اليائسة فيه أملها الكبير وحلمها المنشود، وفي أوج عظمتها وانتفاخه ينقض على الرمق الباقي في جسم الأمة فينهشه ويجهز عليها وهذا أفضل قطعاً من كل الـ "مائة مشروع لتقسيم تركيا" وهدم الإسلام(4).
- وتمت صناعة البطل بواسطة المخابرات الانجليزية بنجاح باهر، وظهر مصطفى كمال بمظهر

(1) انظر: حاضر العالم الاسلامي (110/1)

(2) المصدر السابق نفسه (110/1)

(3) المصدر السابق نفسه (111/1).

(4) انظر: العلمانية، د. سفر الحوالي، ص569.

المنقذ لشرف الدولة من الحلفاء واليونان الذين احتلوا أزمير بتمكين من بريطانيا سنة 1338هـ وتوغلوا في حقد صليبي دفين في الأناضول، فقام مصطفى كمال باستثارة روح الجهاد في الأتراك ورفع القرآن ورد اليونانيين على أعقابهم، وتراجعت أمامه قوات الحلفاء بدون أن يستعمل أسلحته وأخلت أمامه المواقع وبدأ مصطفى كمال يطفوا على السطح تدريجياً فقد ابتهج العالم الإسلامي وأطلق عليه لقب الغازي ومدحه الشعراء وأشاد به الخطباء

فأحمد شوقي قرنه بخالد بن الوليد في أول بيت من قصيدة مشهورة (1)

الله أكبر كم في الفتح من عجب

يا خالد الترك جدد خالد العرب

ثم يجعله في مصاف صلاح الدين الأيوبي حين يقول:

حذوت حرب الصلاحيين في زمن

فيه القتال بلا شرع ولا أدب

وشبه انتصاره بانتصار بدر فيقول:

يوم كبدر فخيّل الحق راقصه

على الصعيد وخیل الله في السحب

تهيئة أيها الغازي وتهنئة

بأية الفتح تبقى آية الحقب (2)

فكان الناس إذا قارنوا كفاح مصطفى كمال المظفر باستسلام الخليفة وحيد الدين محمد السادس القابع في الاستانة مستكيناً لما يجري عليه من الذل، كبر في نظرهم الأول بمقدار ما يهون الثاني،

(1) انظر: حاضر العالم الإسلامي (111/1).

(2) انظر: حاضر العالم الإسلامي (111/1).

وزاد في سخطهم على الخليفة ما تناقلته الصحف بإهدار دم مصطفى كمال واعتباره عاصياً متمرداً. ولم يكن مصطفى كمال في نظرهم إلا بطلاً مكافحاً يغامر بنفسه لاستعادة مجد الخلافة، الذي خيل إليهم أن الخليفة يمرغه في التراب تحت أقدام الجيوش المحتلة.

ولكنه لم يلبث غير قليل حتى ظهر على حقيقته صنيعه لأعداء الإسلام من اليهود والنصارى وخاصة انجلترا التي رأت أن الغاء الخلافة ليس بالأمر الهين وإن ذلك لا يمكن أن يتم دون اصطناع بطل وإعطائه صورة عظيمة وإظهار هالة حوله وتصويره وكأن الكرامات تجري على يديه وعندها يمكن توجيه الطعنة على يديه بلا ألم عميق إذ الشعور قد تخدّر من نشوة الانتصارات الزائفة، فالخلفاء أنفسهم هم الذين اصطنعوا القلاقل وطلبوا من السلطان إخمادها واقترحوا اسم مصطفى كمال لتلك المهمة ليصبح محط آمال الناس وموضع تقدير ضباط الجيش فتصاعد مكانته وهيبته وتدهور سمعة الخليفة وينحط مركز الخلافة في أعين الناس، فألغى الانجليزية لاتدرك بسهولة(1).

لقد استطاعت المخابرات الانجليزية أن تجد ضالتها المنشودة في شخصية مصطفى كمال وكانت تلك العلاقة بين المخابرات الإنجليزية ومصطفى كمال بواسطة رجل المخابرات الانجليزي (أرمسترونج) الذي تعززت علاقته في فلسطين وسورية، عندما كان مصطفى كمال قائداً هناك في الجيش العثماني.

نجد أرمسترونج في كتابه عن مصطفى كمال يضع إصبعه بصراحة على بداية العقد النفسية عند مصطفى كمال حينما يشير إلى الزواج الثاني لوالدته من أحد الروديسيين الميسورين، وانقطاعه عن زيارتها ولجوئه إلى أصحابه من الرهبان المقدونيين، الذين تلقفوه فلقنوه مبادئ اللغة الفرنسية، مع صديقه المقدوني " فتحي ". فإلتهما كتب فولتير وروسو ومؤلفات هوبز وجون ستيورات ميل وغيرها من الكتب الممنوعة، حتى أصبح ينظم الشعر الملتهب بمشاعر القومية

(1) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، ص 277.

ويخطب في ملئه بالكلية العسكرية، فيحدثهم عن فساد السلطان، قبل أن يتجاوز العشرين من العمر، ثم انتقل إلى استانبول وانغمس في ملاحيتها وحاناتها، وراح يشرب ويقامر ويغازل، قبل أن يسجن لانضمامه إلى (جمعية وطن) (1).

ويشهد ارمسترونج بعلاقة الاتحاد والترقي بالدونمة والماسونية في معرض تأريخه لحياة مصطفى كمال فيذكر كيف (دعي لحضور أحد اجتماعاتها في بيوت بعض اليهود المنتمين للجنسية الايطالية، والجمعيات الماسونية الايطالية إذ أن جنسيتهم هذه تحميهم بحكم المعاهدات والامتيازات الأجنبية وقد دأب الاتحاديون على الاحتماء بحصانة اليهود، فكانوا يجتمعون في بيوتهم آمنين من كل خطر، وكان بعضهم كفتحي المقدوني صديق كمال القديم، قد انضم إلى جماعة الماسون (البنائين الأحرار) ويروي كيف استعانوا على تأليف جمعيتهم الثورية وتنظيمها باقتباس أساليب المنظمات الماسونية، وصاروا يتلقون الإعانات المالية الوفيرة من مختلف الجهات ويتصلون باللاجئين السياسيين الذين نفاهم السلطان إلى خارج البلاد.

ويكشف ارمسترونج كيف وقع الاختيار على مصطفى كمال وحده، من دون بقية أقرانه، لتنفيذ آخر خطوة في الخطة البريطانية فيقول: (ان طبيعته كانت تميل إلى أن يكون الأمر النهائي، فلم يظهر أي احترام لزعماء الاتحاديين، وتشاجر مع : أنور وجمال وجاويد اليهودي الأصل، ونيازي الألماني المتوحش، وطلعت الدب الكبير، الذي كان موظفاً صغيراً في مصلحة البريد.

وبعد أن تحول مصطفى كمال من مجرد ضابط صغير ثائر على الأوضاع إلى قائد عسكري يملك رصيلاً من الأمجاد والانتصارات لقبته بـ(الغازي) بفضل نفوذ رجال الاستخبارات البريطانية، ويذكرنا أرمسترونج صفحة جديدة من حياته الخاصة بعد كشفه عن مجونه وفسقه، وأهليته لنسف الخلافة الاسلامية، فيتطرق إلى زواجه الاسطوري من (لطيفة) تلك الفتاة الاميرية الموسرة التي عادت لتوها من باريس لتقدم خبراتها الادارية وثقافتها العصرية وإجادتها لعدة لغات فضلاً عن

(1) انظر: صحوة الرجل المريض، ص266،265.

أنوثتها وسحرها مع قصر أبيها الفاخر في أزمير الى الغازي مصطفى كمال ، الذي أوقعته في حبائلها بتمنعها ودلالها فتخلص من (فكرية) التي أرسلها الى ميونخ للعلاج من المرض الذي نقله إليها، ثم دبر أمر انتحارها كما تخلص من (صالحة) ليقوم بزواج خاطف من (لطيفة) بعد أفسد حياة (سعادت) وعشرات البنات والنساء والغلمان وغيرها، كما تؤكد ذلك الوثائق التي تركها أحد زملائه من الضباط المتقاعدين(1). وقد كانت لطيفة نفسها ضحية من ضحاياه، فيما بعد، حيث طلقها بقرار وزاري ، وتركها فريسة للأمراض والأوجاع، بعد تحذيرها للصمت من كل شذوذه، ولم تبق بجانبه إلا (عفت) ، تلك الفنانة التي كانت له معلمة ومؤرخة، حتى استطاعت أن تقود ذلك الوحش -على حد تعبير - بأسلوب الخضوع والعبودية له.

ولكن (لطيفة) هانم أشاكي كيل لك يمنعها قانون حماية مطصفي كمال من أي هجوم أو نقد من التلميح بين سطور مذكراتها التي نشرتها صحيفة (الحرية) التركية في حزيران (يونيو) عام 1973 من تسليط بعض الأضواء على حياة آتاتورك الخاصة وأفراطه في الشرب، محاولة إلقاء المسؤولية على اصحابه وزملائه أمثال: (قلج علي) و(نوري جنكر) ، و(رجب هدى) الذي كانوا يعتمدون اهدار وقته وهم مجموعة من القتلة والأشقياء المعروفين الذين ضمهم الى حاشيته ولحراسته وأصبح بعضهم يرفع الكلفة معه الى أبعد الحدود بعد تنفيذهم للعديد من المهمات الاجرامية التي كلفهم بها للتخلص من بعض خصومه(2).

إن تلك الأخلاق العفنة التي اشتهر بها مصطفى كمال لاتستغرب منه خصوصاً عندما نعلم أن أصله من يهود الدونمة.

فقد جاء في دائرة المعارف اليهودية : (لقد أكد الكثير من اليهود سلانيك أن كمال آتاتورك كان أصله من الدونمة، وهذا هو أيضاً رأي الاسلاميين المعارضين لكمال آتاتورك، ولكن الحكومة

(1) انظر: صحوة الرجل المريض، ص267.

(2) المصدر السابق نفسه، ص267.

تكرر ذلك(1).

ويعلق تويني على نسب مصطفى كمال قائلاً: (إن دماً يهودياً يجري في عروق الأسرة الكمالية. فقد كانت سلانك مهبط اليهود أيام محنتهم. وقد درؤوا عقائدهم باعتناق الاسلام . ولكن طبائع مصطفى كمال ولون عينه وتكوينه الجسمي يبعده عن أن يكون متأثراً بدماء يهودية)(2).

ويقول أسامة عيناى : (أن الدونمة يعتزون كثيراً بأتوتورك ويعتقدون اعتقاداً راسخاً أنه منهم وحثهم في ذلك أن أتاتورك أسفر عن نيته ضد الاسلام حين تولى الحكم)(3).

إن افعال مصطفى كمال دلت على بغضه للاسلام فيما بعد، فبينما كان في عام 1337هـ عندما انتصر على اليونان في أنقرة يعلن أمام الشعب: (إن كل التدابير التي ستتخذ لا يقصد منها غير الاحتفاظ بالسلطنة والخلافة وتحرير السلطان والبلاد من الرق الأجنبي)(4)، نجده بعد أن تمكن من العباد والبلاد في عام 1341هـ/1923م تعلن الجمعية الوطنية التركية بزعامته عن قيام الجمهورية التركية وانتخب مصطفى كمال أول رئيس لها، وتظاهر بالاحتفاظ مؤقتاً بالخلافة فاختر عبدالمجيد بن السلطان عبدالعزيز خليفة بدلاً من محمد السادس الذي غادر البلاد على بارجة بريطانية الى مالطة ولم يمارس السلطان عبدالمجيد أي سلطات للحكم(5).

كان الخليفة عبدالمجيد رجلاً مهذباً مثقفاً كما يليق بسلالة بني عثمان، وقد اصبح في نظر الاتراك الصلة الحية بالتراث والتاريخ العثماني الاسلامي ، وكانت جماهير استانبول تهرع لإلقاء نظرة عليه وتحيته كل جمعة وهو في طريقه لأداء الفريضة، وكان الخليفة مدركاً تمام الإدراك مكانة منصبه السامية، وعراقة السلالة التي ينتمي إليها، فكان مرة يرتدي عمامة محمد الفاتح

(1) انظر: يهود الدونمة، د.النعيمي، ص 87 الى 89.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 90.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 94.

(4) انظر: حاضر العالم الاسلامي (112/1).

(5) انظر: حاضر العالم الاسلامي (112/1).

استشاط مصطفى كمال غيظاً فما كان ليطيع أن يرى أو يسمع عن محبة الناس وتعلقهم بآل عثمان وبالخلافة والسلطنة، فمنع الخليفة من الخروج للصلاة ثم خفض مخصصاته للنصف وحكم مصطفى كمال البلاد بالحديد والنار، وضمن تأييد الدول العظمى لسياسته التعسفية.

دعا مصطفى كمال الجمعية التأسيسية إلى اجتماع في 3 آذار/ مارس 1924م، وكان على ثقة تامة من أن أحداً في الجمعية التأسيسية - التي لم يبق منها سوى اسمها - لن يجروا على معارضته، وطرح على الجمعية مشروع قرار بإلغاء الخلافة التي أسماها " هذا الورم من القرون الوسطى "(1)، وقد أجاز القرار الذي شمل نفي الخليفة في اليوم التالي دون مناقشة، وانطفت على يد مصطفى كمال شعلة الخلافة التي كان المسلمون طيلة القرون يستمدون من بقائها رمز وحدتهم واستمرار كيانهم(2).

لقد كان مصطفى كمال ينفذ مخططاً مرسوماً له في المعاهدات التي عقدت مع الدول الغربية، فقد فرضت معاهدة لوزان سنة 1340هـ/1923م على تركيا فقبلت شروط الصلح والمعروفة بشروط كرزون الأربع " وهو رئيس الوفد الانجليزي في مؤتمر لوزان " وهي:

1- قطع كل صلة لتركيا بالإسلام.

2- إلغاء الخلافة الإسلامية إلغاءً تاماً.

3- إخراج الخليفة وأنصار الخلافة والإسلام من البلاد ومصادرة أموال الخليفة.

4- اتخاذ دستور مدني بدلاً من دستور تركيا القديم(3).

وعم الاستياء الشديد العالم الإسلامي، فشوقي الذي مدحه سابقاً بكى الخلافة فقال:

(1) انظر: التاريخ العثماني في شعر أحمد شوقي لمحمد ابو غدة ، ص 110.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 110.

(3) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص 287.

عادت أغاني العرس رَجَعَ نواح

وَتُعَيْتِ بَيْنَ مَعَالِمِ الْأَفْرَاحِ

كُفِنَتْ فِي لَيْلِ الزَّفَافِ بِثُوبِهِ

وَدُفِنَتْ عِنْدَ تَبَلُّجِ الْإِصْبَاحِ

صَجَّتْ عَلَيْكَ مَآذِنُ وَمَنَابِرِ

وَبَكَيْتِ عَلَيْكَ مَمَالِكُ وَنَوَاحِ

الهِندُ وَالهِمَّةُ، وَمِصْرَ حَزِينَةَ

تَبْكِي عَلَيْكَ بِمَدْمَعِ سَحَاحِ

وَالشَّامُ تَسْأَلُ، وَالْعِرَاقُ وَفَارِسُ

أَمَّا مِنَ الْأَرْضِ الْخِلَافَةُ مَا حِ

يَا لِلرِّجَالِ لِحُرَّةٍ مُؤَوَّدَةِ

قُتِلَتْ بِغَيْرِ جَرِيرَةٍ وَجُنَاحِ

ثم انبرى شوقي بوجه التقرير والنقد الشديد الى اتاتورك الذي يريد بجرة قلم وبالحديد والنار أن ينقل الاتراك رغم أنوفهم من آسيا الى أوروبا ، ومن جذورهم العميقة في الشرق الى الانتظار على أبواب الغرب:

بَكَتِ الصَّلَاةُ وَتِلْكَ فِتْنَةٌ عَابَتْ

بِالْشَّرْعِ عَرَبِيْدِ الْقَضَاءِ وَقَاحِ

أَفْتَى خُرْعَبَلَةً وَقَالَ ضَلَالَةَ

وَأَتَى بِكْفَرٍ فِي الْبِلَادِ بُوَاكِ

إِنَّ الذِّينَ جَرَى عَلَيْهِمْ فِقْهُهُ

نَقَلَ الشَّرَائِعَ وَالْعُقَاةَ وَالْقُرَى

وَالنَّاسَ نَقَلَ كِتَابَ فِي السَّاحِ

تَرَكَتَهُ كَالشَّبِيحِ الْمُؤَلَّةِ أُمَهُ

لَمْ تَسَلْ بَعْدُ عِبَادَةَ الْأَشْبَاحِ

غَرَّتْهُ طَاعَاتِ الْجُمُوعِ وَدَوْلَةِ

وَجَدَ السَّوَادَ لَهَا هَوَى الْمَرْتَاةِ (1)

ولم يترك شوقي أن يبين سبب ظهور هؤلاء المتسلطين الى جهل الشعوب واستسلامها للطغاة المستبدين فقال:

مَجْدُ الْأُمُورِ زَوَالُهُ فِي زَلَّةٍ

لَا تَرْتَجِ لَا سَمَكٌ بِالْأُمُورِ خُلُوداً

خَلَعْتَهُ دُونَ الْمُسْلِمِينَ عِصَابَةً

لَمْ يَجْعَلُوا لِلْمُسْلِمِينَ وَجُوداً

يَقْضُونَ ذَلِكَ عَنِ سَوَادِ غَافِلٍ

خُلِقَ السَّوَادُ مَضَلَّلاً وَمَسْئُوداً

إِلَيَّ نَظَرْتَ إِلَى الشُّعُوبِ فَلَمْ أَجِدْ

كَالْجَهْلِ دَاءً لِلشُّعُوبِ مُبِيداً

وَإِذَا سَبَى الْفَرْدُ الْمَسْلُوطَ مَجْلِساً

أَلْفَيْتَ أَحْرَارَ الرِّجَالِ عِبِيداً (2)

(1) انظر : التاريخ العثماني في شعر أحمد شوقي، ص 112.

(2) انظر: الشوقيات ديوان احمد شوقي (112/1).

لقد نفذ مصطفى كمال المخطط كاملاً وابتعد عن الخطوط الإسلامية ودخلت تركيا لعمليات التغريب البشعة؛ فألغيت وزارة الأوقاف سنة 1343هـ/1924م، وعهد بشؤونها الى وزارة المعارف. وفي عام 1344هـ/1925م أغلقت المساجد وقضت الحكومة في قسوة بالغة على كل تيار ديني وواجهت كل نقد ديني لتدبيرها بالعنف. وفي عام (1350-1351هـ/1931-1932م) حددت عدد المساجد ولم تسمح بغير مسجد واحد في كل دائرة من الأرض يبلغ محيطها 500متر وأعلن أن الروح الإسلامية تعوق التقدم.

وتمادى مصطفى كمال في تهجمه على المساجد فخفض عدد الواعظين الذين تدفع لهم الدولة أجورهم الى ثلاثمائة واعظ ، وأمرهم أن يفسحوا في خطبة الجمعة مجالاً واسعاً للتحديث على الشؤون الزراعية والصناعية وسياسة الدولة وكيل المديح له. وأغلق أشهر جامعين في استانبول وحول أولهما وهو مسجد آيا صوفيا الى متحف، وحول ثانيهما وهو مسجد الفاتح الى مستودع.

أما الشريعة الإسلامية فقد استبدلت وحل محلها قانون مدني أخذته حكومة تركيا عن القانون السويسري عام 1345هـ/1926م. وغيرت التقويم الهجري واستخدمت التقويم الجريغوري الغربي، فأصبح عام 1342هـ ملغياً في كل أنحاء تركيا وحل محله عام 1926م.

• وفي دستور عام 1347هـ/1928م أغفل النص على أن تركيا دولة إسلامية، وغير نص القسم الذي يقسمه رجال الدولة عند توليهم لمناصبهم، فأصبحوا يقسمون بشرفهم على تأدية الواجب بدلاً من أن يحلفوا بالله كما كان عليه الأمر من قبل.

• وفي عام 1935م غيرت الحكومة العطلة الرسمية فلم يعد الجمعة، بل أصبحت العطلة الرسمية للدولة يوم الاحد، وأصبحت عطلة نهاية الاسبوع تبدأ منذ ظهر يوم السبت وتستمر حتى صباح يوم الاثنين.

• وأهملت الحكومة التعليم الديني كلية في المدارس الخاصة، ثم تم إلغاءه بل أن كلية الشريعة في جامعة استانبول بدأت تقلل من أعداد طلابها التي أغلقت عام 1352هـ/1933م.

• وامعنت حكومة مصطفى كمال في حركة التغريب فأصدرت قراراً بإلغاء لبس الطربوش

وأمرت بلبس القبعة تشبهاً بالدول الأوروبية(1).

• وفي عام 1348هـ/1929م بدأت الحكومة تفرض إجبارياً استخدام الأحرف اللاتينية في كتابة اللغة التركية بدلاً من الأحرف العربية. وبدأت الصحف والكتب تصدر بالأحرف اللاتينية وحذفت من الكليات التعليم باللغة العربية واللغة الفارسية، وحرّم استعمال الحرف العربي لطبع المؤلفات التركية واما الكتب التي سبق لمطابع استانبول أن طبعتها في العهود السالفة، فقد صدرت الى مصر، وفارس، والهند، وهكذا قطعت حكومة تركيا ما بين تركيا وماضيها الاسلامي من ناحية، وما بينها وبين المسلمين في سائر البلدان العربية والاسلامية من ناحية اخرى(2).

• وأخذ أتاتورك ينفخ في الشعب التركي روح القومية، واستغل مانادى به بعض المؤرخين من أن لغة السومريين أصحاب الحضارة القديمة في بلاد ما بين النهرين كانت ذات صلة باللغة التركية فقال: بأن الأتراك هم أصحاب أقدم حضارة في العالم ليعوضهم عما أفقدهم إياه من قيم بعد أن حارب كل نشاط إسلامي وخلع مصطفى كمال على نفسه (أتاتورك) ومعناه أبو الأتراك(3).

• وعملت حكومته على الاهتمام بكل ما هو أوروبي فازدهرت الفنون واقامت التماثيل لأتاتورك في ميادين المدن الكبرى كلها، وزاد الاهتمام بالرسم والموسيقى ووفد الى تركيا عدد كبير من الفنانين اغلبهم من فرنسا والنمسا(4).

• وعملت حكومته على إلغاء حجاب المرأة وأمرت بالسفور ، وألغى قوامة الرجل على المرأة وأطلق لها العنان باسم الحرية والمساواة، وشجع الحفلات الراقصة والمسارح المختلطة والرقص.

(1) انظر: حاضر العالم الاسلامي (115/1).

(2) المصدر السابق نفسه (115/1).

(3) انظر: حاضر العالم الاسلامي (115/1).

(4) انظر : المسألة الشرقية للدسوقي ، ص428-432.

• وفي زواجه من لطيفة هانم ابنه أحد أغنياء أزمير الذين كانوا على صلة كبيرة مع اليهود من سكان أزمير، أجرى مراسم الزواج على الطريقة الغربية كي يشجع على نبذ العادات الإسلامية واصطحبها وطاف بها أرجاء البلاد وهي بادية المفاتن تختلط مع الرجال وترتدي أحدث الأزياء المعينة على التبرج الصارخ(1).

• وأمر بترجمة القرآن الى اللغة التركية ففقد كل معانيه ومدلولاته، وأمر أن يكون الأذان باللغة التركية(2).

• عمل على تغيير المناهج الدراسية وأعيد كتابة التاريخ من أجل إبراز الماضي التركي القومي، وجرى تنقية اللغة التركية من الكلمات العربية والفارسية، وأستبدلت بكلمات أوروبية أو حثية قديمة. • وأعلنت الدولة عزمها في التوجيه نحو أوروبا وانفصلت عن العالم الإسلامي والعربي، وامعنت حكومتها من استدبار الإسلام حتى حاربت بقسوة أي محاولة ترمي الى إحياء المبادئ الإسلامية(3).

وكان خطوات مصطفى كمال هذه بعيدة الأثر في مصر وأفغانستان وإيران والهند الإسلامية، وتركستان وفي كل مكان من العالم الإسلامي، إذ أتاحت الفرصة لدعاة التغريب وخدام الثقافة الاستعمارية أن ينفذوا الى مكان الصدارة وأن يضربوا المثل بتركيا في مجال التقدم والنهضة المزعومة، فقد هللت له صحف مصر -الاهرام، والسياسة والمقطم- ذات الاتجاهات المضادة للإسلام، والمدعومة النفوذ الغربي واليهودي والماسوني.

لقد بررت تلك الصحف تصرفات كمال أتاتورك ووافقت عما ابتدعه، ونشرت له أقوال: (ليس لتركيا الجديدة علاقة بالدين). وأنه -اي مصطفى كمال- : (ألقى القرآن ذات يوم في بده فقال :

(1) انظر: حاضر العالم الإسلامي (116/1).

(2) المصدر السابق نفسه (116/1).

(3) انظر: الاتجاهات الوطنية لمحمد حسين (100/2).

ان ارتقاء الشعوب لا يصلح أن ينفذ بقوانين وقواعد سنت في العصور الغابرة).

لقد كانت حكومة تركيا العلمانية الكمالية -هي كما وصفها الأمير شكيب أرسلان- ليست حكومة دينية من طراز فرنسا والانكلترا فحسب، بل هي دولة مضادة للدين كالحكومة البلشفية في روسيا سواء بسواء، إذ أنه حتى الدول اللادينية في الغرب بثوراتها المعروفة لم تتدخل في حروف الاناجيل وزي رجال الدين وطقوسهم الخاصة وتلغى الكنائس (1).

وكان للاعلام اليهودي دور كبير في الترويج لهذه الردة ، مثلما كان له دوره البارز في تشجيع أتاتورك على البطش بأية معارضة اسلامية ، وكانت تزين له أن مايقوم به من المذابح والوحشية ضد المسلمين ليست سوى معارك بطولية، كما كانت منبراً لكل دعوات التشبه بالغرب الصليبي والمناداة بالحرية الفاجرة للمرأة التركية، والترويج لفنون الانحلال الخلقي معتبرة أن شرب الخمر والمقامرة والزنا ليست إلا مظاهر للتمدن والتحضر (2).

إن الحقيقة المرة أن مصطفى كمال أصبح نموذجاً صارخاً للحكام في العالم الاسلامي وكان لأسلوبه الاستبدادي الفذ أثره في سياسات من جاء بعده منهم، كما أنه أعطى الاستعمار الغربي مبرراً كافياً للقضاء على الاسلام فإن فرنسا مثلاً بررت حرصها على تنصير بلاد شمال الأفريقي وأخراجها من دينها وعقيدتها واسلامها بأنه لايجب عليها أن تحافظ على الاسلام أكثر من الأتراك المسلمين أنفسهم (3).

لقد أصبح مصطفى كمال زعيماً روحياً لكثير من الحكام الذين باعوا آخرتهم بدنياهم الزائلة. قاد المسلمون ثورات مسلحة ضد الحكم العلماني التركي المعادي للاسلام وظهرت أهم الثورات في المنطقة الجنوبية الشرقية عام 1344هـ، ثم في منيمين عام 1349هـ وقد قمعها الكماليون بشدة

(1) انظر : العلمانية ، د. سفر الحوالي ، ص573.

(2) انظر: حاضر العالم الاسلامي (117/1).

(3) انظر: العلمانية، د.سفر الحوالي، ص573.

منقطعة النظير وذهب ضحيتها عدد كبير من العلماء، وأهملت المنطقة اقتصادياً وعلمياً.

وقامت حركة النور بزعامة الشيخ بديع الزمان سعيد النورس وتلاميذه من بعده، وقد كتب العديد من الرسائل الإسلامية تحت عنوان (رسائل النور) في سبيل التوعية الإسلامية ومقاومة مبادئ الكماليين والعلمانية، ولم تعد حركته إلى حمل السلاح واقتصر جهادها على اللسان. وقد حاول أتاتورك استمالته وناقشه واستنكر دعوته الناس إلى الصلاة مدعياً أنها تثير الفرقة بين أعضاء المجلس فاجابه:

(إن أعظم حقيقة تتجلى بعد الإسلام إنما هي في الصلاة، وإن الذي لا يصلي خائن وحكم الخائن مردود)(1).

فسجنه ثم نفاه بعد أن اتهمه بمؤامرة لقلب نظام الحكم، ولكن دعوته استمرت في الانتشار سراً بين صفوف الجامعيين ومعسكرات الجيش ودوائر الدولة، ومثل للمحاكمة مرة أخرى بتهمة أتاتورك بالدجال، فوقف أمام المحكمة وقال:

(إنني لأعجب كيف يتهم أناس يتبادلون فيما بينهم تحية القرآن وبيانه ومعجزاته باتباعهم للسياسة والجمعيات السرية، على حين يحق للمارقين الافتراء على القرآن وحقائقه في وقاحة وإصرار، ثم يعد ذلك أمراً مقدساً لأنه حرية. أما نور القرآن الذي يأبى إلا أن يشع في أفئدة ملايين المسلمين المرتبطين بدستوره، فهو خطورة ينهال عليها جميع ألفاظ الشر والخبث والسياسة... أسمعوا يا من بعتم دينكم بدنياكم وتكستم في الكفر المطلق: إنني أقول بمنتهى ما أعطاني الله من قوة إفعلوا ما يمكنكم فعله فغاية ما نتمناه أن نجعل رؤسنا فداءً لأصغر حقيقة من حقائق الإسلام....)(2).

فأعيد إلى منفاه وبقي حتى عام 1367 هـ حين بدأت الحكومة تضطر للاستجابة لمطالب

(1) انظر: حاضر العالم الإسلامي (117/1).

(2) انظر: حاضر العالم الإسلامي (122/1).

الشعب المسلم بخصوص النشاط الديني (1).

لقد تجلت سياسة أتاتورك العلمانية في برنامج حزبه (حزب الشعب الجمهوري) لعام 1349هـ مرة وعام 1355هـ مرة ثانية والتي نص عليها الدستور التركي وهي المبادئ الستة التي رسمت بشكل ستة أسهم على علم الحزب وهي : القومية ، الجمهورية ، الشعبية ، العلمانية، الثورة، سلطة الدولة(2).

توفي أتاتورك عام 1356هـ بعد أن حقق علمانية تركيا رغم أنف المسلمين. لقد أصيب مصطفى كمال بمرض قبل وفاته بسنين بمرض عضال في الكلية لم تعرف كنهته. وكان يتعرض لآلام مبرحة مزمنة لاتطاق، كانت السبب في إدمانه على شرب الخمر مما أدى الى إصابته بتليف الكبد والتهاب في أعصابه الطرفية وتعرضه لحالات من الكآبة والانطواء -وقد تدهور في المستويات العليا للمخ- لذلك كان هذا الديكتاتور مثلاً فريداً في القسوة والتتكيل والأناية المدمرة(3).

المبحث السابع

بشائر إسلامية في تركيا العلمانية

بعد وفاة أتاتورك عام 1356هـ تولى الرئاسة رفيقه على الدرب العلماني عصمت اينونو وسار على نهج سياسة أتاتوك. وعند نشوب الحرب العالمية الثانية ألزمت تركيا الحياد ثم دخلت في نهاية الحرب الى جانب الحلفاء وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، تقاربت تركيا من الولايات المتحدة ودخلت في المعاهدات معها، وأقامت أمريكا على الأراضي التركية قواعد عسكرية، وظهرت الأزمات الاقتصادية العنيفة التي تزايد خطرهما يوماً بعد يوم ، وازداد التضخم المالي.

(1) المصدر السابق نفسه (122/1).

(2) المصدر السابق نفسه (116/1).

(3) انظر: المسألة الشرقية ، محمد ثابت الشاذلي ، ص242.

وسمحت الدولة بتشكيل أحزاب علمانية جديدة فنشأ الحزب الديمقراطي عام 1366هـ من انشقاق داخل صفوف حزب الشعب الجمهوري نفسه، وفاز في الانتخابات بدغدغة عواطف الناس، وقد تبنى السياسة الأمريكية وأصبح رئيسه جلال بايار رئيساً للجمهورية عام 1374هـ، كما أصبح عدنان مندرس رئيساً للوزراء، وأصبح منصب رئيس الوزراء يفوق في الأهمية من منصب رئيس الجمهورية.

وبقيت الأزمات والكوارث الاقتصادية في تردٍ مستمر وتوجهت الانتقادات للحزب الحاكم، فحل الحزب القومي الذي ظهر عام 1368هـ بحجة معارضته المبادئ الكمالية ولكنه تشكل باسم آخر هو الحزب القومي الجمهوري، وفرضت غرامات فادحة على الصحفيين الذين يحطون من قدر الحكومة، وضيق على اساتذة الجامعات والقضاة والموظفين المدنيين بصورة عامة، وفرضت قيود على الاجتماعات عام 1376هـ.

ووجه الحزب الديمقراطي التهمة الى كثير من الابرياء بالاشتراك بما سمي:(مؤامرة الضباط التسعة) واتهمهم بالارتداد عن مبادئ العلمانية والميل الى جانب المنظمات الدينية الاسلامية وقد حصل بالفعل بعض التراجع عن بعض العداء ضد الاسلام بفعل الضغط الاسلامي(1).

حتى إن حزب الشعب الجمهوري، بدأ يغير من اتجاهاته العلمانية منذ الانتقال الى ظاهرة التعدد الحزبي، حيث وافق الحزب على إنشاء كلية الالهيّات، ومعهد العلوم الاسلامية في أنقرة. واعتمد الحزب الديمقراطي على الجماعات الاسلامية في انتخابات 14 أيار 1950م، وكان سبباً رئيسياً في فوزه على حزب الشعب الجمهوري، وفضلاً عن ذلك، اعتمدت أحزاب أخرى على الجماعات السالفة الذكر، مثل حزب العدالة في المدة الواقعة بين 1961-1980م.

وأما حزب الطريق المستقيم؛ فإنه استمد قوته في الثمانينات من الرأي العام الاسلامي. وركب حزب العمل القومي بزعامة ألب أرسلان توركش الموجة الاسلامية وغيّر مفهومه عن

(1) انظر: حاضر العالم الاسلامي (120/1).

العلمانية، وبدأ بالنقرب من الرأي العام الاسلامي وكان شعار هذا الحزب في انتخابات عام 1987م (دليلنا القرآن، وهدفنا الطوران)(1).

إلا أن العمل الاسلامي المنظم الذي شق طريقه في تلك الأمواج العلمانية المتلاطمة يظهر جلياً مع ظهور حزب السلامة الوطني.

كانت الحركة الاسلامية في تركيا قبل ظهور حزب السلامة الوطني تتكون من :

• المتصوفة المناوئة للحركة الكمالية، وهؤلاء حافظوا على التراث الاسلامي بمفهومه الخاص بهم، وواصلوا تحفيظ القرآن سراً وكان هدف هذه الحركة هو الحفاظ على العبادات الاسلامية في نفوس الرأي العام التركي، وفي هذا المجال قاموا بتكوين جمعيات للإنفاق على طلاب مدارس الأئمة والخطباء للإكثار منهم، وتعويض النقص الذي نتج عن اختفاء الدعاة الاسلاميين عندما اصطدم بهم الحزب الكمالي.

• حركة الإمام المصلح الكبير سعيد النورسي والتي تعرف بحركة النور والتي تركزت جهودها على الدعوة الى الايمان بالله واليوم الآخر ومحاربة المادية الملحدة والاهتمام بتربية الأجيال وابتعد الكثير من اتباعها عن السياسة(2).

عندما تحصلت تركيا على نوع من الحريات تقدم الاسلاميون المؤمنون بضرورة خوض المعترك السياسي بتأسيس حزب النظام الوطني في كانون الثاني عام 1970م، حيث قام على تأسيسه يونس عارف. وقد جاء دعم هذا الحزب بصورة رئيسية من التجار الصغار والحرفيين والرجال المتدينين في الأناضول، وتوسع الحزب في مدة قصيرة جداً وبدأ يشكل تهديداً خطيراً للأحزاب العلمانية وقد جاء في بيان التأسيس مايلي: (أما اليوم : فإن أمتنا العظيمة التي هي امتداد لأولئك

(1) انظر: الحركة الاسلامية الحديثة في تركيا، د. احمد النعيمي، ص184-187.

(2) انظر: المعالم الرئيسية للأسس التاريخية والفكرية لحزب السلامة، عبدالحميد حرب ، ص435. ندوة اتجاهات الفكر الاسلامي المعاصر البحرين 1985.

الفاتحين الذين قهروا الجيوش الصليبية قبل ألف سنة، والذين فتحوا استانبول قبل 500 سنة، أولئك الذين قرعوا أبواب فينا قبل 400 سنة.. وخاضوا حرب الاستقلال قبل خمسين سنة. هذه الأمة العريقة تحاول اليوم أن تنهض من كبوتها تجدد عهدا وقوتها مع حزبها الأصيل (حزب النظام الوطني) إن حزب النظام الوطني سيعيد لأمتنا مجدها التليد، الأمة التي تملك رصيذاً هائلاً من الأخلاق والفضائل يضاف الى رصيدها التاريخي، والى رصيدها الذي يمثل الحاضر المتمثل في الشباب الواعي المؤمن بقضيته وقضية وطنه(1).

وقدم حزب النظام برنامج عمله في منظومة من الأفكار يمكن إنجازها في الآتي:
جميع المؤسسات الهامة في تركيا في أيد غريبة غير وطنية، والأمر الطبيعي والواجب القومي يقضي بأن تعود هذه المؤسسات الى أصحابها.

عاش الناس أربعين سنة والقوى الخارجية المؤثرة تحاول إبعادهم عن محورهم الحقيقي الى محور غريب، فوقع الناس في ضيق وعنت شديدين، ولابد من إرجاع الناس الى طبيعتهم ومحورهم الاصيل (فطرة الله) حتى يستقيم أمرهم ويتخلصوا من عقائدهم.

إن التسميات المعاصرة مثل اليمين واليسار والوسط هي من اختراع الماسونية والصهيونية، وكلها مؤسسات تابعة لغرض واحد وهو أن تتحرف تركيا عن خطها الحضاري الذي عمره ألف سنة، وانه لابد من التخلص من هذه الأسماء الغريبة والعودة الى الخط الاصيل الذي يصل الماضي التليد بالغد المشرق.

إن حزب النظام الوطني لايشبه الأحزاب الأخرى، فجميع الأحزاب تقوم على أساس التسلط وشهوة الحكم، ونحن نقوم على أساس جديد يبتغي مرضات الله والعمل في سبيل الوطن.

إن نظام التعليم في تركيا فاسد وضعته شرذمة من الحاقدين من الصليبيين واليهود بشكل لايناسب الأمة، فهو يسقط من حسابه كل قيمة معنوية أو أخلاقية أو دينية غايته فصل تركيا عن

(1) انظر: الحركات الاسلامية الحديثة في تركيا، ص126.

ماضيها الاسلامي وسلخها عن دينها وقيمتها، وبهذه الطريقة فقط يستطيعون أن يقتلوا الجيل ويدمروا البلاد، لقد مرت خمسون سنة ونحن نسمع أن تركيا جزء من أوروبا، وأن النهضة لا بد أن تقوم على أنقاض الدين كما حصل في الغرب، متناسين أن الاسلام يختلف عن الكنيسة ودولة القس.

في الوقت الذي تمنع الدولة فيه توزيع الكتب على المعاهد الاسلامية العالية وتحاول إغلاق معاهد الأئمة والخطابة ومدارس تعليم القرآن، تتفق الملايين على المسارح والممثلين وثنماً للمشروبات التي توزع في السفارات وفي الوقت الذي تعترض الدولة على الطالبات اللواتي يلبسن الحجاب على رؤوسهن، تدرس في كتب اللاهوت في كل مكان دونما رقابة أو ضجة وهذا يعني أن حزب النظام الوطني أكد العودة الى الاسلام الحقيقي(1).

إن اليهود والعلمانيين في تركيا لم يتحملوا هذا الصوت الفتى الذي يتدفق بالحيوية والنشاط ويحركه في قضاياها الإيمان العميق بالاسلام وبضرورة رجوع الشعب التركي إليه، ولذلك تحرك الجيش التركي في آذار 1971م بسبب نشاط حزب العمال وأحال قضية حزب النظام الوطني الى المحكمة الدستورية التي أصدرت قراراً جائراً بحل الحزب في 21 مارس 1971م(2).

وقد جاء في قرار محكمة أمن الدولة العليا مايلي:

إن المبادئ التي قام عليها الحزب وتصرفاته تخالف الدستور التركي.

العمل على إلغاء العلمانية في البلاد، وإقامة حكومة إسلامية.

قلب جميع الأسس الاقتصادية والاجتماعية والحقوقية التي تقوم عليها البلاد.

العمل ضد مبادئ أتاتورك.

(1) انظر: الحركات الاسلامية الحديثة في تركيا ، ص 127.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 128.

وجاء في الحكم المحكمة أيضاً أنه لا يحق لأي شخص من شخصيات الحزب أن تعمل من خلال أي حزب سياسي آخر ، ولا أن يؤسسوا أي حزب جديد، ولا أن يرشحوا أنفسهم لأي انتخابات قادمة ولو بشكل مستقلين لمدة خمس سنوات. وهذا يعني أن المدة بين نشوء الحزب وإغلاقه كانت ستة عشر شهراً فقط(1).

وفي تلك الأحداث الساخنة والمشادة العنيفة بين الاسلام والعلمانية في تركيا ظهر المجاهد الكبير نجم الدين أربكان يخوض المعارك الفكرية مع العلمانيين ففي 2 آب عام 1972م وقبل تأسيس حزب السلامة الوطني تحدث أربكان في المجلس الوطني فقال: (في رأينا أن التوضيح المهم الأكثر ملاءمة لجعل الدستور، دستوراً ديمقراطياً، لابد أن تكون هناك مواد دستورية مناسبة قبل تحديد الحركات وحقوق الفكر والمعتقد، وهكذا من الممكن إيجاد مناخ للتطبيقات الحالية والتي تتعارض مع المبادئ الأساسية للدستور، وفي مثل هذه الحالة ، على المرء أن يتكلم عن وجود فكر الحرية والمعتقد، وأن دولتنا لتسعى وتنمو، ومن ثم لتأخذ مكانتها بين الأقطار الحضارية في العالم)(2).

كان أربكان يرى أن النظام الديمقراطي لا يعد ديمقراطياً بدون الحقوق وحرية الفكر والمعتقد ، وكان يقصد من وراء ذلك الحرية التامة لاستخدام نشر الأفكار الاسلامية، وقد فسرت كل من صحيفتي (جمهورية) و(ملايت) العلمانيتين تصريحات وأقوال أربكان بأنها ذريعة لاستخدام الدين لأغراض سياسية(3).

لقد هاجم نجم الدين أربكان العلمانية واستفاد من الثغرات الموجودة في الدستور التركي ورد

(1) المصدر السابق نفسه، ص128.

(2) انظر: الحركة الاسلامية الحديثة في تركيا ، د. النعيمي ، ص128.

(3) المصدر السابق نفسه، ص128.

على الحملة الاعلامية العلمانية الموجهة ضد اطروحاته فقال: (إن مصطلحات القومية، والديمقراطية والعلمانية والاجتماعية، والتي تقوم عليها شخصية الدولة، واستناداً الى المادة الثانية من الدستور، إن هذا من الممكن توضيحه بأن هذه المادة لاتسمح بإستخدام وتفسير المعارضة في الممارسة، وفي هذا المجال وبصورة خاصة مصطلح القومية بحاجة الى توضيح ، وهذا يعني أنها بحاجة الى تحديدها بطريقة تقوم على احترام جميع القيم الروحية لقوميتنا من حيث التاريخ والتقاليد(1).

وأضاف نجم الدين قائلاً: (الدين هو معتقد أساسي ونظام فكري للأفراد، وهذا يعني الاعتراف بحق الحرية والوجود والاعتراف بحقوق المعتقد للفرد. إن تحريم الشخص من هذه الأسس هو ضد الروح والمبادئ الاساسية للدستور خاصة الفقرة (1) من المادة (19) والمادة (20) من الدستور(2).

بعد هدوء جو العنف والقلق السياسي في السياسة الداخلية التركية من جراء الأحكام العرفية؛ قام أربكان بلم شعث حزب النظام الوطني وأسس حزباً جديداً أطلق عليه حزب السلامة الوطني. استطاع حزب السلامة الوطني خلال مدة قصيرة لانتجاوز ثمانية أشهر من تنظيم قواعد في 67 محافظة ، وأعلن نجم الدين أربكان بأن نجاح حزبه خلال هذه المدة يعود الى تعاطف الرأي العام المحلي مع الحزب الذي ينادي بأهمية الأخلاق الدينية والمواقف المعنوية، وعلى هذا الأساس فقد أكد حزب السلامة الوطني في برنامجه على ما يأتي:

(قيام تجمع يعتمد الفضيلة والأخلاق ويعطي القيمة المعنوية للإنسان مثلما نصت عليه المادتان العاشرة والرابعة عشرة من الدستور والتي تؤكد على القيمة المعنوية للإنسان على أساس من

(1) انظر: الحركة الاسلامية الحديثة في تركيا، ص128.

(2) انظر: المعالم الرئيسية للأسس التاريخية لحزب السلامة الوطني ، ص435.

أهم أعمال حزب السلامة:

- عندما شعر حزب السلامة بقوته، وصار جزءاً من الحياة السياسية في تركيا شرع منظروا الحزب بشن حملة إعلامية منظمة على أسس العلمانية في تركيا وبينوا للناس إن الإطار السياسي لتركيا الجديدة يناقض المبادئ السياسية للإسلام ويقضي الإسلام بتوحيد السلطات السياسية والدينية تحت سيطرة الدين، وفي هذا المعنى، فإن العلمانية، والنظام العلماني ضد الإسلام، والشريعة والدين وخاصة تطبيقها في تركيا، فإنها صممت لضمان الزندقة(2).

ويردف هؤلاء: " إن الخونة والكذابين هم وحدهم الذين يقولون بأن الدين والسياسة شيئان منفصلان، لأن المسلمين لايفضلون شؤون الدنيا عن شؤون السماء. لقد أصبح واضحاً بأن التشريع ليس من حق الإنسان. أما إذا وضع القوانين أو ادعى بأنه يفعل ذلك، فإن علمه هذا يعد خطيئة .. إن خالق القوانين الإسلامية هو نفسه خالق الإنسان، لقد خلق الله الإنسان وفق هذه القوانين. إن القوانين الإنسانية لا تتناسب وطبيعة الإنسان. إن الإسلام نظام يصلح لكل زمان، إنه يمثل كلا من الدين والدولة. إن القرآن لم ينزل ليقرأ في القبور أو يغلق عليه في أماكن العبادة. لقد أنزل القرآن ليحكم(3).

إن المجاهد الكبير نجم الدين أربكان شق طريقه بصعوبة في محاربته للعلمانية بالحجة والبرهان ولقد عبر عن آرائه بصراحة خلال مباحثاته مع ضياء الحق حاكم باكستان سابقاً - رحمه الله - مؤكداً أن دخول الإسلام في كافة جوانب الحياة هو الشرط الوحيد لقيام دولة إسلامية، وفي هذا المجال قال نجم الدين أربكان: " قبل كل شيء يجب أن تكون الدولة إسلامية، إذا لم يكن الأمر

(1) انظر : الحركة الإسلامية الحديثة ، د. النعيمي ، ص130.

(2) المصدر السابق نفسه، ص131.

(3) المصدر السابق نفسه، ص132.

كذلك، فإن الدين الإسلامي في خطر" (1).

إن حزب السلامة الوطني لم يحاول أن يتخذ موقف الهجوم المباشر على الديمقراطية في انتخابات عام 1973م، إلا أنهم عبروا عن مشاعرهم الحقيقية عن ذلك في عام 1980م، حيث بدأوا ينتقدون الديمقراطية مؤكدين أنها تتعارض مع مبادئ الإسلام (2).

وفي هذا المجال أكد حزب السلامة أن " الديمقراطية مؤامرة غربية لقيادة الجبهة بموجب الأساليب الغربية والمسيحية. إنه انتصار للمسيحية ضد الإسلام، لذلك يجب تطبيق القوانين الإلهية إذ لا يمكن للإنسان تشريع قوانين يمكن تطبيقها" (3).

وبالإمكان تلخيص وجهة نظر حزب السلامة الوطني عن الرأسمالية والاشتراكية، في مقالة لنجيب فاضل جاء فيها:

" نحن نقسم طريق الخلاص إلى مجموعتين: الأولى هي طريقة الإسلام في الخلاص، والثانية يمكن تصنيفها كنظم وراثية والتي لاتوصل إلى الخلاص. إن المجموعة الثانية لاتعتمد على التعاليم الإلهية وتتاقض نفسها باعتمادها على قوانين من صنع الإنسان مثل الشيوعية والرأسمالية والاشتراكية والديمقراطية. لقد تم التأكيد أيضاً على أن الله قد أمرنا أن نحكم طبقاً لتعاليم القرآن الكريم، وليس حسب آرائنا الخاصة. إذا حكم الناس حسب نظام التصويت، فإنهم لن يكونوا بحاجة إلى كلام الله. في المجتمعات التي تحل فيها كل القضايا وفق لنظام التصويت، لا ينتشر الإسلام (4).

أما فيما يتعلق بموقف الحزب من الولايات المتحدة، فقد عارض الحزب الوجود الأمريكي في

(1) انظر: الحركة الإسلامية الحديثة ، ص132.

(2) المصدر السابق نفسه، ص135.

(3) المصدر السابق نفسه، ص135.

(4) انظر: الحركات الإسلامية الحديثة في تركيا، د. النعيمي ، ص135.

الأراضي التركية، كما عارض استخدام الولايات المتحدة الأراضي التركية في استخدامها ضد دول منطقة الشرق الأوسط. ونتيجة لهذا فقد انتقد الحزب حكومة ديمريل في أواخر عام 1979م بسبب زيادة النشاط العسكري الأمريكي في تركيا، حيث قدم استجواباً إلى مجلس النواب التركي مطالباً فيه محاسبة حكومة ديمريل بسبب هذا النشاط الأمريكي، وقد دلت على قيام طائرتين بالهبوط في مطار مالقا وهما تحملان 180 عسكرياً مع أحدث المعدات الحربية، مؤكداً أن هذا يشكل تهديداً لأمن المنطقة.

وفي الحقيقة استطاع الحزب أن يشكل رأي عام مناهض للغرب والولايات المتحدة، عن طريق المشكلة القبرصية والتي قام فيها أربكان بدور رئيسي في إقناع القيادات العسكرية بإنزال قواتها في الجزيرة. فقد تولى القيادة مدة غياب أجويد في زيارة لدول أوروبا الشمالية. ولقد عمل الحزب بقيادة أربكان على إفشال جميع الخطط والمشاريع اليونانية في بحر أيجة، وفي هذا المجال يقول أربكان: (سنتحرك وفق أسس العدل والحق لا وفق الأسس التي تحددها الأقطار الأوروبية الكبيرة)(1).

وفيما يتعلق بالسوق الأوروبية المشتركة يقول أربكان: (إن تركيا يجب أن لا تكون في السوق الأوروبية المشتركة للدول الغربية، وإنما في السوق المشتركة للدول الشرقية، إن تركيا متخلفة بالنسبة للغربيين، ولكنها متقدمة بالنسبة للشرقيين. إذا دخلت تركيا السوق المشتركة في الأوضاع السائدة اليوم، فإنما مستعمرة)(2).

لقد كان لحزب السلامة تأثير كبير في الشارع التركي وعمل على إعادة الهوية الإسلامية ونازل بحجج الإسلام وبراهينه الأنظمة الاشتراكية والرأسمالية وكان زعيمه نجم الدين أربكان يتحدث بعزة الإسلام ويوضح للشعب التركي خطورة الانحراف عن منهج الله ويوجه صواريخه إلى أعداء

(1) انظر: الاحزاب السياسية في تركيا، حسين فاضل كاظم، ص192.
(2) انظر: الحركات الإسلامية الحديثة في تركيا، د. النعيمي، ص137.

الاسلام وفي هذا المجال، يقوم لنا نجم الدين أربكان النظامين الإشتراكي والرأسمالي وفيما يتعلق بالأول يقول أربكان: (أنه فكر يهدد الحريات، ويضر بالكيان القومي، ويركز على مصادر أجنبية)⁽¹⁾، أما فيما يتعلق بالثاني، يقول أربكان: (الفكر الرأسمالي هو فكر يقوم على الربا، ومصدره أجنبي أيضاً، أما حزب السلامة فيمضي في طريقه رافعاً راية الاخلاق والأصالة. إن النظام الرأسمالي والنظام الاشتراكي لا يقتصران على ميدان الاقتصاد، وإنما يمتد تأثيرهما الى الميدانين الاجتماعي والمعنوي، ورغم اختلاف النظامين في الظاهر، فكلاهما مادي، وكلاهما يعمل على النهوض بالجانب المادي في مقابل انحطاط الأخلاق والمعنويات، وكلاهما يزداد ارتفاعاً مادياً مع هبوط الثقافة والأخلاق)⁽²⁾.

إن غاية حزب السلامة هو الوصول الى فهم "تركيا الكبرى" وحرص على التمسك بالماضي العثماني المجيد وبيّن للناس أهمية الالتزام بالاسلام واتباع سياسة تؤدي في مداها البعيد القضاء على مبادئ أتاتورك العلماني، وهو في نفس الوقت يدعو الى عدم التعاون مع العناصر غير الاسلامية في تركيا، وهو في نفس الوقت يعارض الشيوعية بعنف، ويؤكد على أن أفضل طريق لإنتشار المبادئ الاسلامية هو توفير الحياة الحرة للمواطن التركي.

ودعا أربكان الى ضرورة تطوير علاقات تركيا مع العالم الاسلامي في المجالات كافة، حيث قال: (وأن لاتظل هذه العلاقات صورية، وإنما يجب أن تكون علاقات فعلية متطورة، حيث إن في العالم مايقرب من خمسين دولة إسلامية يبلغ سكانها ملياراً، وهذه الدول الاسلامية سوق طبيعية قوية لإنتاجنا)⁽³⁾.

(1) انظر: يقظة الاسلام في تركيا، أنور الجندي، ص 29-30.

(2) انظر: يقظة الاسلام في تركيا، ص 30.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 30.

وعلى هذا الاساس ، فقد انتقد اربكان كل من الصهيونية والماسونية(1) حيث قال في هذا المجال: (إن الصهيونية والماسونية حاولا عزل تركيا عن العالم الاسلامي، ومؤامراتهم مستمرة، ذلك أن المعركة بين الاسلام في تركيا والصهيونية قد اتخذت أشكالاً عدة وهي حرب طويلة المدى، ومستمرة منذ خمسة قرون، منذ فتح السلطان محمد الفاتح القسطنطينية وعمل على فتح رومية، ولكن هذا الصراع في المائة سنة الأخيرة، أخذ شكل مخطط أعد له سلفاً، فاستطاعت بعض القوى عام 1839م أن تؤثر في جسم الدولة الفكري، وتدخل القوانين الوضعية البعيدة عن الاسلام بوساطة المنظمات اليهودية الماسونية، وقسم العمل اليهودي في تركيا إلى ثلاث مراحل مدتها ثلاثون سنة، وهي عبارة عن تنفيذ فكرة لتيويود وهرتزل بإسقاط الدولة الإسلامية في تركيا، أما المرحلة الثانية، فقد استمرت عشرين سنة، وكان لإبعاد تركيا عن الإسلام، ثم نشأ حزب الإتحاد والترقي، وكانت له علاقة باليهود والماسونية، ومن ثم استطاع إسقاط السلطان عبدالحميد، وبدأ في إبعاد تركيا عن النمط الإسلامي وتغريبها بطرق عديدة أهمها العلمانية التي كانت تعني في تركيا بالتحديد اضطهاد المسلمين)(2).

وقد خاض حزب السلامة الوطني الانتخابات العامة لعام 1973م حيث حصل على 11.9% من الأصوات، أي بواقع 1.24 مليون من أصوات الناخبين، ونتيجة لذلك فقد مثل نفسه في المجلس الوطني التركي بواقع 45 مقعداً(3).

وقد أعلن أربكان عشية انتخابات 1973م: "إننا سنعيد عهد الرسول p، كما أعلن أربكان بعد الانتخابات أن شعار حزبه هو - المفتاح - وهذا ما سيؤهل للحزب فتح الطريق المغلقة أمامه،

(1) انظر: الحركات الاسلامية الحديثة في تركيا، د. النعيمي، ص141.

(2) انظر: الصحوة الاسلامية منطلق الأصالة وإعادة بناء الأمة على طريق الله، الجندي، ص117.

(3) انظر: الحركات الاسلامية الحديثة في تركيا، د. النعيمي، ص142.

ويكون مفتاح كل الحكومات الائتلافية" (1).

ونتيجة لذلك فقد تكونت أول حكومة ائتلافية، ضمت حزب الشعب الجمهوري، وحزب السلامة الوطني، وذلك في 25 كانون الثاني 1974م، حيث ضمت الوزارة ثمانية عشر وزيراً من أعضاء حزب الشعب الجمهوري، وسبعة أعضاء من حزب السلامة. وبفضل الله تعالى ثم جهود حزب السلامة الوطني بقيادة أربكان، مثلت تركيا ولأول مرة في آذار 1974م في مؤتمر القمة الإسلامي، وقد اختير وزير الداخلية التركي " وهو من حزب السلامة الوطني " في هذا المؤتمر.

إن نشاط حزب السلامة الوطني خلال السبعينات أدى إلى خرق المظاهر العلمانية في تركيا، حيث انتشرت بعض المظاهر الإسلامية وخاصة في شهر رمضان، كما تم التوسع في المدارس الإسلامية، حيث سمح لها بتدريب الأئمة والوعاظ، وأصبحت هذه المدارس تعلم حوالي 10% من الطلاب في المدارس الثانوية بما فيهم 50.000 من العنصر النسائي في تركيا، وفي الحقيقة وصل التصويت الإسلامي بين 10% - 15%، وقد اعتبر العلمانيون هذه النسبة بمثابة خطر على المدنية التركية(2).

وبتأثير من حزب السلامة الوطني، وطلاب النور في تركيا خرجت إلى حيز الوجود سلسلة " ألف كتاب " التي دعمتها وزارة التربية، وتناولت هذه السلسلة الثقافية التركية بمعيار إسلامي وأخذ حزب السلامة يعمق المفاهيم الإسلامية في المجلس الوطني التركي الكبير وهاجمت الصحف الإسلامية في تركيا كمال أتاتورك وأطلقت عليه اسم " الدجال " وضغط حزب السلامة الوطني على رئاسة الشؤون الدينية حتى أصدرت بياناً في حزيران 1973م أكدت فيه على دعوة المرأة التركية إلى الحجاب.

(1) انظر: الحركات الإسلامية الحديثة في تركيا، د. النعيمي ، ص143.

(2) المصدر السابق نفسه، ص145.

وحيثما سافر أربكان إلى السعودية عام 1974م - وكان وقتئذ نائباً لرئيس الوزراء - بدأ زيارته للكعبة، وفي الرسالة التي كتبها للملك فيصل -رحمه الله-، ذكر مايلي: " إن معرفة الشعب والحجاج للمشاريع التي ستقام في المناطق الشرقية والجنوبية الشرقية بالقروض التي ستمنحونها لتركيا تعد من الأمور الهامة، إن دعمكم لموقفي في تركيا سيفتح لتركيا مرحلة جديدة في العالم الإسلامي، ومساعدتكم لنا في هذا المجال سوف تدعم هذه المرحلة "(1).

واستطاع أربكان أن يمرر قانوناً في البرلمان يسمح بموجبه للأتراك السفر براً إلى الحج، وكان ذلك ممنوعاً(2).

لقد كانت خطوات حزب السلامة الوطني جريئة في المجتمع التركي ولذلك لم يتحمل الجيش التركي خدام العلمانية في تركيا هذه الأعمال الحميدة ولذلك تدخل الجيش بانقلابه الذي قضى على التعددية والحرية السياسية في 12 أيلول 1980م. وقد سبق هذا الانقلاب مظاهرات كبيرة في مدينة قونيا يوم 6 أيلول، ونادى المتظاهرون بتأسيس دولة إسلامية، وقام أنصار حزب السلامة بالاستهزاء بكل ما يؤمن به أتاتورك والمؤسسة العسكرية. وقد هتف هؤلاء الذين جاءوا من جميع أنحاء البلاد بالشعارات الدينية، وطالبوا باستخدام الشريعة الإسلامية في التعامل السياسي الداخلي، ومنعوا عزف النشيد الوطني(3).

واحتج المتظاهرون على ضم القدس، ونادوا بقطع العلاقات مع إسرائيل، ودعوة إسرائيل المنادة بالقدس الحرة، كما دعى إربكان في هذه التظاهرة إلى بدء الصراع لإنهاء العقلية الغربية الزائفة والتي تحكم تركيا. وقد كتب المتظاهرون الشعارات باللغة العربية، وقام هؤلاء بحرق العلم الصهيوني والأمريكي والسوفيتي ونادى المتظاهرون بشعار " الموت لليهود " ولاسيما أن مدينة

(1) انظر: الحركات الإسلامية الحديثة في تركيا، د. محمد مصطفى، ص 207.

(2) انظر: الحركات الإسلامية الحديثة في تركيا، د. النعيمي، ص 147.

(3) انظر: الحركات الإسلامية الحديثة في تركيا، د. النعيمي، ص 151.

قونيا تضم أعداداً من طائفة اليهود والتي يبلغ عددها 20.000 يهودي ونادى المتظاهرون أيضاً: " جاء دور القانون الديني وانتهت الهمجية، الشريعة أو الموت، إن الدولة الملحدة يجب أن تدمر، وإن القرآن هو دستورنا، نريد دولة إسلامية بدون الحدود والطبقات " (1).

كانت شعبية حزب السلامة الوطني ترتقي، لأنه التزم القضايا الإسلامية علناً خصوصاً في العامين 1979م، 1980م واضطر الحزب الجمهوري وحزب العدالة بإرضاء حزب السلامة الوطني، وقدمتا تنازلات للاتجاه الإسلامي، طمعاً في المساعدات الاقتصادية من الأقطار الإسلامية والحاجة الملحة إلى بترولها.

لم يستحي قادة الجيش التركي بعد انقلابهم العسكري أن يقولوا بأن سبب تدخلهم من أجل وقف المد الإسلامي.

اتخذ الانقلابيون قراراً بحظر جميع الأحزاب السياسية وحجز قادتها وتقديمهم للمحاكمة وكان من الطبيعي أن يحاكم حزب السلامة الوطني وأن توجه التهم لزعيمة أربكان وزملائه المجاهدين وكانت كل التهم تدور حول حرص حزب السلامة على إعادة دولة الإسلام لتركيا والتخلص من الأفكار العلمانية والمبادئ الكمالية، إن الغطرسة التركية العلمانية أعلنت بكل وقاحة على لسان الجنرال إيغرن رئيس أركان الجيش التركي بأن لها من القوة بحيث تستطيع أن تقطع لسان كل من يتهجم على أتاتورك (2).

لقد استطاع حزب السلامة الوطني أن يدخل بعض التغييرات في السلوك السياسي الداخلي التركي، من بين ذلك " تحقيق الأذان في الجوامع وباللغة العربية، وفرض قراءة القرآن الكريم في محطات الإذاعة والتلفزيون، وكان ذلك محرماً منذ مجئ المفسد الكبير مصطفى كمال إلى الحكم. لقد أصبح أربكان مع حزبه المجاهد معلماً من معالم الحركة الإسلامية المعاصرة في تركيا ولقد

(1) المصدر السابق نفسه، ص151.

(2) انظر: الحركات الإسلامية الحديثة في تركيا، د. النعيمي، ص150.

أثرت حركة حزب السلامة في الأوساط الإسلامية والطرق الصوفية والزوايا التقليدية ووجدت من التيار الإسلامي التقليدي من يناصرها ويقف بجانبها ويدعمها وحكمت المحكمة العسكرية الظالمة في عام 1983 على المجاهد أربكان لمدة أربعة أعوام وعلى 22 عضواً من أعضاء حزب السلامة الوطني بالسجن لمدد تصل إلى ثلاثة أعوام ونصف (1).

وقام الجيش التركي بتسريح كل من تشم منه رائحة إسلامية وأعلن إيفرن في حملته التي استهدفت الإسلاميين داخل القوات المسلحة بأن هؤلاء المسلمين " كان هدفهم الوصول إلى المراتب العليا في القوات المسلحة، ماذا سيحدث لو أنهم أمسكوا بزمام الجيش؟ " (2) وأضاف قائلاً: " قد يحولون البلاد إلى أي نوع من الأنظمة التي يريدون، هل هذا نشاط ديني أم خيانة " (3).

وبدأت القيادة العسكرية في تركيا تبحث عن حل لمشاكلها السياسية وإرضاء الضغوط الأوروبية التي اتهمت تركيا بخرق حقوق الإنسان ويجب عليها إعادة الديمقراطية من جديد، فشكلت لجان جديدة لصنع دستور للبلاد بحيث يعطي الرئيس التركي الحق في فرض حالة الطوارئ، وحل البرلمان، والدعوة إلى انتخابات جديدة، وبذلك يكون باستطاعت العلمانيين قطع محاولات الإسلاميين المستمرة للقضاء على الدستور العلماني، وعدلت القوانين بحيث تكون للقيادة العسكرية حق الاحتفاظ ببعض السيطرة على الحياة السياسية في تركيا.

وبعد إعلان الدستور الجديد في عام 1982 تكونت أحزاب سياسية وظهر حزب الرفاه وهو امتداد طبيعي لفكر السلامة الوطني وبدأت العناصر الإسلامية تتوافد على هذا الحزب الجديد والذي تعرض لمعارضة الجيش والضغط عليه لمنعه من دخول انتخابات عام 1983م، إلا أنه

(1) المصدر السابق نفسه، ص 156.

(2) انظر: الحركات الإسلامية الحديثة في تركيا، د. النعيمي، ص 165.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 165.

خاض الانتخابات وحصل على نسبة 5% من الأصوات (1). إضافة إلى ذلك، اشترك حزب الرفاه في انتخابات تشرين أول 1987م، حيث فاز 7.06% من الأصوات (2).

وبدأت الجماعات الإسلامية تتمحور حول حزب الرفاه وشرع حزب الرفاه في قيادة الحركة الإسلامية في كافة المدن التركية، وحتى المحافظات الكبرى والقرى المتباعدة الأطراف، وانتعشت الحركة الإسلامية مع استلام أوزال السلطة وهو المتعاطف مع الإسلام في تركيا خاصة وأن أعداداً كبيرة من قيادة حزبه -حزب الوطن الأم- من الوجوه الإسلامية المعروفة في تركيا ودخلت كوادراً قيادية هامة من حزب السلامة المنحل إلى حزب الوطن الأم الذي نجح في انتخابات عام 1983م بأغلبية كبيرة، وشجعت حكومة أوزال نشاط المساجد والمدارس الدينية واهتم وزير الدولة المشرف على الشؤون الدينية (كاظم اكصوي) بدورات تعليم القرآن الكريم والتي كانت في بداية الثمانينات 200 دورة رسمية ووصلت إلى 3000 دورة في عام 1987م ونشطت الطرق الدينية، وقام كاظم اكصوي بجعل بعض المؤسسات الدينية والبنوك مثل بنك الأوقاف من أهم المراكز التي تغذي الحركة الإسلامية في تركيا (3).

واستمر حزب الرفاه في جهاده السلمي والتوغل المتزن في أعماق الشعب المسلم التركي الذي لاتزال أعمال حزب السلامة في ذاكرته ووجدانه والتي أعادت للمجتمع التركي وجوده وحضوره الإسلامي واستطاع حزب الرفاه الذي هو امتداد لحزب السلامة في مارس عام 1994م أن يتحصل على أهم وأكبر البلديات في تركيا، وعلى فوزه بانتخابات ديسمبر عام 1995م كأكبر حزب في البلاد، تسلم على أثرها السلطة في إئتلاف حكومي مع حزب الطريق القويم في يونيو 1996م (4) وأصبح المجاهد الكبير نجم الدين أربكان رئيس الوزراء وقام بإصلاحات اقتصادية رائعة وارتفعت الرواتب في فترة وجيزة، وتقدم مندفعاً كالسهم نحو الدعوة لإقامة سوق إسلامية

-
- (1) انظر: الحركات الإسلامية الحديثة في تركيا، ص 179.
 - (2) انظر: الحركات الإسلامية الحديثة في تركيا، د. النعيمي، ص 179.
 - (3) المصدر السابق نفسه، ص 183.
 - (4) انظر: تحديات سياسية تواجه الحركة الإسلامية، مصطفى الطحان، ص 118.

مشتركة ورفض دخول تركيا السوق الأوروبية المشتركة، فكانت دعوة الى قيام أمم إسلامية متحدة، ومجلس إسلامي مشترك، وضرب ممثلوا حزب الرفاه في البلديات وعلى مستوى الدولة أروع الأمثلة في النزاهة والعفة وطهارة اليد والمقدرة على التخطيط واهتمت مؤسسات الحزب بتقديم وتحسين أداء الخدمات للمواطنين وتعاطف الشعب التركي مع حزب الرفاه حتى كثير من المومسات أعطين أصواتهن لحزب الرفاه الذي عمل على إيجاد فرص للعمل الشريف لهن وترك بيوت الدعارة والفساد والرجوع الى الله بالتوبة والمغفرة.

ولقد عالج ممثل الرفاه والذي تولى بلدية استانبول مشاكل العاصمة بكل جدارة وتضاعفت ميزانية البلدية بعد أن كانت دائماً تشتكي من العجز المالي بسبب الاختلاس.

لم يرضى اليهود والعلمانيون عن هذه المكاسب العظيمة التي حققتها الحركة الإسلامية في تركيا فدفَعوا قادة الجيش لممارسة ضغوطهم على الأحزاب حتى قضوا على التحالف بين حزب الطريق القويم وحزب الرفاه وتقدم حزب علماني متطرف مدعوم بقوة العسكر ورجال الاقتصاد العلمانيين وقدموا حزب الرفاه الى المحكمة الدستورية التي حكمت بحل حزب الرفاه ومصادرة أملاكه عام 1997م ولا يزال الاسلاميون في تركيا يديرون صراعهم مع اليهود والعلمانيين وأعداء الاسلام بكل جدارة وشجاعة ونكاه واني على يقين راسخ لا يتزعزع ان الحركة الإسلامية في تركيا ستصل الى الحكم وتطبق شرع الله بإذن الله، لأن كل المؤشرات والسنن تقول بذلك.

واختم بالتجربة الإسلامية في تركيا هذا الحوار للأستاذ والمجاهد الكبير الذي نخر أعمدة العلمانية في تركيا البرفسور نجم الدين أربكان، سأله صحفي مسلم مشهور بقوله: إن المشاركة في العملية الانتخابية أمر لا يجوز من الناحية الشرعية.. وهي مساهمة في تقوية النظام الجاهلي الذي يعتمد مثل هذه الأساليب .. فرد أربكان: ماذا نفعل إذن...؟ هل كان بإمكاننا أن نحقق المكاسب الكبرى على صعيد الحريات الشخصية والعامة.. ونؤسس هذه المئات من المدارس الإسلامية.. ونرفع أصواتنا في البرلمان لتعديل المواد الدستورية التي تحد من الحريات الدينية، ونعيد للناس ثقتهم بأنفسهم وبتدينهم، ونحاصر الشر بأنواعه حتى يكاد ينحسر عن بلادنا، بغير هذه الوسائل التي ترفع من مستوى أداء الجميع أفراداً وجماعات وتدفع الجميع لتحمل مسؤولياتهم في إعادة البناء..(1)؟

إن التيار الإسلامي في تركيا لا يزال في نمو متصاعد على الرغم من ضخامة مخططات

(1) انظر: تحديات سياسية تواجه الحركة الإسلامية ، ص 87.

الأعداء المحيطين به، وجسامة الأخطار التي يواجهها من اليمين واليسار على السواء وإنما لمنتظرون تحقيق وعد الله تعالى في قوله : {فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض} (سورة الرعد: آية 17).

وقوله تعالى: {إن الله لا يصلح عمل المفسدين} (سورة يونس: آية 81).
وقوله تعالى: {ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون} (سورة التوبة: آية 32).

المبحث الثامن

اسباب سقوط الدولة العثمانية

M

إن اسباب سقوط الدولة العثمانية كثيرة جامعها هو الابتعاد عن تحكيم شرع الله تعالى الذي جلب للأفراد والأمة تعاسة وضنكاً في الدنيا، وإن آثار الابتعاد عن شرع الله لتبدوا على الحياة في

وإن الفتن تظل تتوالى وتترى على الناس حتى تمس جميع شؤون حياتهم.

قال تعالى : { فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة ، أو يصيبهم عذاب أليم { (سورة النور : الآية 63).

لقد كان في ابتعاد أواخر سلاطين الدولة العثمانية عن شرع الله تعالى آثاره على الأمة الإسلامية؛ فتجد الإنسان المنغمس في حياة المادة والجاهلية مصاب بالقلق والحيرة والخوف والجبين يحسب كل صيحة عليه، يخشى من النصارى ولا يستطيع أن يقف أمامهم وقفة عز وشموخ واستعلاء، وإذا تشجع في معركة من المعارك ضعف قلبه أمام الأعداء من أثر المعاصي في قلبه، وأصبح في ضنك من العيش: {ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً} (سورة طه: آية 124).

وقد أصيبت الشعوب الإسلامية في مراحل الدولة العثمانية الأخيرة بالتبدل وفقد الاحساس بالذات، وضعف ضميرها الروحي، فلا أمر بمعروف تأمر به ولا نهى عن منكر تنهى عنه، وأصابهم ما أصاب بنو اسرائيل عندما تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال تعالى: { لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كانوا لا يتنهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون}. (سورة المائدة، آية 78-79).

فإن أي أمة لاتعظم شرع الله أمراً ونهياً تسقط كما سقط بنو اسرائيل قال رسول الله ﷺ : (كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً، ولتقصرنه على الحق قصراً أو ليضربن الله بقلوب بعضكم بعضاً، ثم ليلعنكم كما لعنهم)(1).

لقد تحققت في الدولة العثمانية سنة الله في تغيير النفوس من الطاعة والانقياد الى المخالفة والتمرد على أحكام الله. {ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم}

(1) ابوداود، كتاب الملاحم، باب الأمر بالمعروف رقم الحديث 4670.

كما أن الشعوب التي ترضخ تحت الحكام الذين تباعدوا عن شرع الله تذل وتهان حتى تقوم أمام من خالف أمر الله وتطلب العون من اخوانهم في العقيدة.

إن انحراف سلاطين الدولة العثمانية المتأخرين عن شرع الله وتفريط الشعوب الإسلامية الخاضعة لهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أثر في تلك الشعوب، وكثرة الاعتداءات الداخلية بين الناس وتعرضت النفوس للهلاك، والأموال للنهب، والأعراض للاغتصاب بسبب تعطل أحكام الله فيما بينهم، ونشبت حروب وفتن ، وبلايا تولدت على أثرها عداوة وبغضاء لم تزل عنهم حتى بعد زوالهم، وأصبحت شوكة الأعداء من الروس والانكليز والبلغار والصرب وغيرهم تقوى وتحصلوا على مكاسب كبيرة، وغاب نصر الله عن السلاطين والأمة العثمانية، وحرموا التمكين ، وأصبحوا في خوف وفزع من أعدائهم، وتوالت المصائب ، وضاعت الديار، وتسلبت الكفار.

إن من سنن الله تعالى المستخرجة من حقائق الدين والتاريخ أنه إذا عُصي الله تعالى ممن يعرفونه سلط الله عليهم من لا يعرفونه؛ ولذلك سلط الله النصارى على المسلمين في الدولة العثمانية.

إن الذنوب التي يهلك الله بها الدولة ، ويعذب بها الأمم قسمان:

1- معاندة الرسل والكفر بما جاؤوا به.

2- كفر النعم بالبطر والأشر، وغمط الحق واحتقار الناس وظلم الضعفاء ومحبة الأقوياء والإسراف في الفسق والفجور، والغرور بالغني والثروة فهذا كله من الكفر بنعمة الله ، واستعمالها في غير ما يرضيه من نفع الناس والعدل العام، والنوع الثاني من الذنوب هو الذي مارسه أواخر سلاطين الدولة العثمانية وأمرؤهم(1).

(1) انظر: دولة الموحدين لعلي محمد الصلابي، ص170.

إن الدولة العثمانية في بداية أمرها كانت تسير على شرع الله في كل صغيرة وكبيرة، ملتزمة بمنهج أهل السنة في مسيرتها الدعوية والجهادية آخذة بشروط التمكين وأسبابه كما جاءت في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة أما في أواخر عهدها فقد انحرفت عن شروط التمكين ، وابتعدت عن أسبابه المادية والمعنوية قال تعالى: {وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون وأقيموا الصلاة وأتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون} (سورة النور: آية 56،55).

فكانت الدولة الاسلامية العثمانية في بداية أمرها مستوعبة لتلك الشروط أما في أواخر عهدها فقد أصاب تلك الشروط انحرافاً عن مفاهيمها الأصلية فمثلاً:

أولاً: من لوازم الإيمان الصحيح الولاء والبراء:

فكانت الدولة في عصورها المتقدمة عاملة بقول الله تعالى : {لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقية ويحذركم الله نفسه والى الله المصير} (سورة آل عمران: آية 28).

وقول الله تعالى : {يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين } (سورة المائدة: آية 51).

ويقول رسول الله ﷺ: (أوثق عرى الايمان المولاة في الله والمعادة في الله والحب في الله والبغض

في الله)(1).

أما في عصورها المتأخرة وخصوصاً في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين فقد أصيب مفهوم الولاء والبراء بالانحراف ، نتيجة للجهل الذريع الذي خيم على أغلب أقاليم الدولة العثمانية والبلدان الاسلامية، ولغياب العلماء الريانيين الذين ينيرون للأمة دروبها، ويأخذون بزمامها الى

(1) صحيح الجامع الصغير (343/2، ح2536).

الطريق المستقيم وكان الحكام والسلاطين يصانعون الأعداء من الكافرين ويتولنهم من دون المؤمنين؛ حيث كان هؤلاء الكافرون على جانب عظيم من القوة المادية، والمسلمون في المقابل على العكس تماماً من الضعف؛ فقد ساعد الواقع الأليم الذي كان يعيشه المسلمون على زعزعة هذه العقيدة(1).

فالواقع المليء بكافة صور الانحطاط من فقر وضعف وجهل ومرض وخرافة في مقابل الواقع الأوروبي مثلاً كان عاملاً من عوامل إضعاف عقيدة الولاء والبراء، ومع ذلك لايجوز لنا أبداً أن نبرر لهؤلاء المنبهرين انبهارهم بواقع الكافرين؛ إذ لو كان إيمانهم صادقاً ، وعقيدتهم راسخة لم تجرفهم أهواء الكافرين ولم تتقاذفهم أمواج المادة والقوة، كما كان حال الجيل الأول رضي الله عنهم الذي استعلى بدينه وعقيدته على قوة الكافرين وجبروتهم حتى في وقت الهزيمة ، ولحظة الفشل كما قال الله تبارك وتعالى: {ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين}(سورة آل عمران:آية 139).

ومع هذا فإن هذه العقيدة على مستوى شعوب الأمة كانت متوهجة في النفوس ، مستقرة في العقول ؛ فقد كان المسلم في الشمال الأفريقي يحب أخاه المسلم في الشام ويبغض جاره النصراني وهكذا في كل الأقطار والبلدان وكان المسلم يحس بإخوانه في كل مكان بما يقع لإخوانه في الدين من اعتداءات ونكبات، ويشارك بعضهم مع إخوانهم لجهاد المعتدين، والنفير في سبيل الله. فكانوا الى حد كبير كما وصفهم الرسول μ كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى(2).

وقد بينا مناصرة مسلمي الحجاز وليبيا لأخوانهم في مصر عندما احتلها الفرنسيون في عام 1213هـ/1798م وكيف تفاعل المسلمون مع دعوة السلطان عبدالحميد الثاني الى فكرة الجامعة

(1) انظر: الانحرافات العقديّة والعلمية لعلي الزهراني (142/1).

(2) البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم (438/10) رقم 6011.

الاسلامية ودعوته لاتحاد المسلمين في العالم في مقابل التسلط الأوروبي والروسي وغيرهما، وقد أثمرت هذه الدعوة الى حد كبير ، وتجاوب معها المسلمون في كل مكان على اختلاف لغاتهم وألوانهم وبلادهم؛ وليس أدل على ذلك من تبرع المسلمين في أقطار العالم لإنشاء خط سكة حديد بين بغداد والحجاز بثلاث نفقات الخط.

إن الشعور بالتربط الديني بين المسلمين كان قوياً على الرغم من كثرة الانحرافات التي توجي بالفرقة والاختلاف كالمذاهب الكلامية والفقهية، والطرق الصوفية، وكانت عقيدة الولاء والبراء سليمة الى حد كبير في نفوس العامة؛ لذلك كبر على أعداء الاسلام من اليهود والنصارى أن يروا في تلك العقيدة جداراً صلباً وحاجزاً قوياً يقف أمام مخططاتهم ومحاولاتهم في القضاء على المسلمين ودينهم. ولذا أخذوا يعملون على تحطيم ذلك الجدار وتذويب ذلك الحاجز عن طريق صنائعهم وعملائهم في البلاد الاسلامية وفي الدولة العثمانية ممن بأيديهم مقاليد الأمور من السلاطين والباشوات. كما حدث مع السلطان العثماني محمود الثاني المتوفى عام 1839م الذي تزعم حركة الاصلاح المقلدة للمنهج الأوروبي، حيث عمل على مسح عقيدة الولاء والبراء وحاول طمسها في النفوس، ويتجلى هذا الاتجاه الخطير في قول السلطان نفسه (...إنني لا أريد -ابتداء من الآن - أن يميز المسلمون إلا في المسجد، والمسيحيون إلا في الكنيسة واليهود في المعبد، إنني أريد مادام يتوجه الجميع نحوي بالتحية أن يتمتع الجميع بالمساواة في الحقوق وبحماية الأبوية ومن هنا نعمت المسيحية وغيرها في الدولة في ذلك العصر بحرية واسعة النطاق(1).

وفي هذا العصر انتشرت المدارس اليونانية والأرمنية والكاثوليكية انتشاراً واسعاً بفضل رعاية السلطان وتشجيعه(2).

وقد ثار رجال إحدى الحاميات العثمانية ضد احتمال إلزامهم أن يضعوا على صدورهم الحزامين

(1) انظر: حركة الإصلاح في عصر السلطان محمود الثاني ، د. البحراري، ص214.

(2) المصدر السابق نفسه، ص214.

المتقاطعين على شكل صايب على النسق النمساوي، وطرد الثوار الباشا المرسل من قبل السلطان (1).

وقد سمح السلطان لرعاياه المسيحيين بارتداء الطربوش بدلاً من القلنسوة القديمة، وبذلك خلصهم من الرمز المميز لهم، وكان لذلك رنة فرح شديدة عندهم، وقد حاول فرض الطربوش الأحمر على العلماء بدلاً من العمامة، فلما أبوا عليه ذلك تراجع مغطياً موقفه بإعلان الجهاد ضد الروس (2).

والأدهى من ذلك ما (حدث من استعانة الدولة العثمانية بضباط دانوا بالولاء لروسيا من قبل ، وظلت الدولة غافلة عن هذه الحقيقة، وبالتالي كان لروسيا عيون في جيش السلطان الجديد تزودها بأدق المعلومات والخطط) (3). وكم من هزيمة ساحقة تلقتها الدولة العثمانية من روسيا، وكان من أسبابها تسرب المعلومات الهامة عن طريق هؤلاء.

هذا مثال بارز على ضعف عقيدة الولاء والبراء لدى بعض سلاطين العثمانيين وعدم الاهتمام بها.

أما الباشا محمد علي والي مصر، فقد فتن بالغرب ، وتابع سياستهم، وسار على خطاهم ، وما فتئ خلال حكمه الطويل الذي بلغ خمسة وأربعين عاماً تقريباً يتولي الكفار ويصانعهم، ويعلي من شأنهم ويقوم باتباعهم والاقْتِباس من نظمهم وقوانينهم ، والسير في ركابهم، مع شدة بطشه وتتكيله بالمسلمين، واستهانته بهم؛ فقد تخطى عقيدة الولاء والبراء وضربها في الصميم، ليرضي أسياده الصليبيين وليخضع أمته وشعبه المسلم للمخططات اليهودية فقد اعتاد محمد علي باشا أن يكون أغلب المحيطين به من النصارى واليهود، الذين تغلغلوا في حكومته وبلاطه، خصوصاً نصارى

(1) انظر: حركة الإصلاح في عصر السلطان محمود الثاني ، د. البحر اوي، ص 258.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 261.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 247.

الأرمن من أعداء الملة الذين هم خاصته وجلساؤه وأهل مشروته، وشركاؤه في اختلاس أموال الدولة ونهب خيراتها(1).

وفتح البلاد على مصرعيها لأفواج النصارى الصليبيين للبحث والتنقيب ، واكتشاف الآثار، ودراسة الأماكن دراسة دقيقة بل ومساعدته لهم وتذليله الصعاب في طريقهم(2).

لقد قام النصارى بدراسة مراكز الثروة، ودراسة المواقع دراسة تخطيطية ، مما افادهم ولاشك في احتلال مصر فيما بعد عام 1882م خصوصاً إذا علمنا أن كثيراً من هؤلاء المنقبين كانوا من الانكليز ، وكانت هناك أهداف أخر لم يفطن لها كثير من الباحثين وترك الحديث لأحد المستشرقين في كتابه (الشرق الأدنى؛ مجتمعه وثقافته): (إننا في كل بلد اسلامي دخلناه، نبشنا الأرض لنستخرج حضارات ما قبل الاسلام ، ولسنا نطمع بطبيعة الحال أن يرتد مسلم الى عقائد ما قبل الاسلام، ولكن يكفيننا تذبذب ولائه بين الاسلام وبين تلك الحضارات...)(3).

وعلى ضوء ماسبق من أهداف نستطيع أن نفسر أهتمامات هؤلاء النصارى بشق البلاد طولاً وعرضاً ، وإنفاقهم الأموال الطائلة في كشف الآثار وتعريتها بدءاً بالفرنسيين ثم الانكليز الذين ساروا على خط واحد في تنفيذ هذه الأهداف الخبيثة(4).

يقول الاستاذ محمد قطب: (ولكن المخطط الخبيث الذي حملة الصليبيون معهم وهم يجوسون خلال الديار كان هونبش الأرض الاسلامية لاستخراج الحضارات، تمهيداً لاقتلاعهم نهائياً من الولاء للاسلام)(5).

وقدم محمد علي خدمة لمخططات الأعداء بضرب الاتجاه الاسلامي السلفي في الجزيرة العربية

(1) انظر: الانحرافات العقديّة والعلمية (165/1).

(2) المصدر السابق نفسه (170/1).

(3) انظر: واقفنا المعاصر، ص202.

(4) انظر: الانحرافات العقديّة والعلمية (171/1).

(5) انظر: واقفنا المعاصر ، ص202.

تظاهراً بطاعة السلطان العثماني الذي فقد السيطرة على بلاد الحرمين الشريفين، واتخذ من ذلك ستاراً لتنفيذ مخططات بريطانيا وفرنسا اللتين رأتا الوجود السعودي يشكل خطراً على مصالحهما، خصوصاً في الخليج العربي والبحر الأحمر (1).

وقد كان على رأس تلك الجيوش التي وجهها محمد علي ضباط فرنسيون وبعض النصارى (2). وقد سرّت فرنسا بذلك العمل الحربي المدمر، وكذلك بريطانيا وأبلغت فرنسا محمد علي عن طريق قنصلها في القاهرة أنها ممنونة مما رأته من اقتداره على نشر أعلام التمدن في البلاد الشرقية (3).

وضايق محمد علي باشا العلماء والفقهاء والأزهريين في لقمة العيش وسيطر على الأوقاف التابعة للأزهر وضمها للدولة وبالتالي أحكم السيطرة على المشايخ القائمين على التعليم من رجال الأزهر (4) وحتى الكتاتيب التي تعلم القرآن الكريم والعلوم الأولية للناشئة من أبناء المسلمين، لم تنج من غائلة محمد علي؛ فقد ذكر الجبرتي -رحمه الله- أن كثيراً من المكاتب أغلقت بسبب تعطل أوقافها واستيلاء محمد علي عليها (5).

وذكر الشيخ محمد عبده أن ما أبقاه محمد علي من أوقاف الأزهر والأوقاف الأخرى لا يساوي جزءاً من الألف من إيرادها. وأنه أخذ من أوقاف الجامع الأزهر ما لوبقي الى اليوم (في عهد الشيخ محمد عبده) وكانت غلته لاتقل عن نصف مليون جنيه في السنة، وقرر له بذلك مايساوي أربعة آلاف جنيه في السنة بينما نجده قد اندفع نحو التغريب وارسال البعثات كما ذكرنا في البحث.

(1) انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، ص 189.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 187.

(3) انظر: الانحرافات العقديّة والعلمية (174/1).

(4) انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، ص 179.

(5) انظر: عجائب الآثار (478/3).

إن هذه السياسة التدميرية التي نهجها محمد علي والتي فرضت قهراً على المسلمين كانت تنفيذاً للمخطط الصليبي الذي عجزت الحملة الفرنسية عن تنفيذه بسبب اضطرارها للرحيل، وهو أمر أكده المؤرخ الانكليزي أرنولد توينبي في قوله: (كان محمد علي ديكتاتوراً أمكنه تحويل الآراء النابليونية الى حقائق فعالة في مصر)(1).

لاشك أن محمد علي باشا كان صنيعاً من صنائع الغرب وعميلاً من عملائهم، سواء كان وصوله الى سدة الحكم نتيجة تخطيط صليبي على الأخص تخطيط فرنسي أو كان نتيجة لدهاء محمد علي ومكره وثقافته أو كان للأميرين معاً ، فإن هذا كله لا يغير من الأمر شيئاً، ولا ينفى أن محمد علي قد أحنته الدول الغربية، وأخذت تقوده في ركابها ، وخصوصاً وأن فيه من الصفات والخلال التي ينشدها المستعمرون دائماً كجنون العظمة، وغلظة القلب وفضاظة الطبع ورقة الديانة أو عدمها(2).

وقد عمل محمد علي طوال سنوات حكمه على القضاء على عقيدة الولاء والبراء ، واستخدم سياسة العسف والارهاب والتتكيل في أنحاء مملكته لينتزع هذه العقيدة من قلوب المسلمين، ويقضي عليها قضاءً مبرماً(3).

ومع عظم الهالة التي أحيط بها محمد علي من قبل المستشرقين ومن اقتفى أثرهم من المؤرخين القوميين والعلمانيين حول ما قام به من إصلاحات في كثير من المجالات التعليمية والاقتصادية والعسكرية إلا أنه من الثابت من سيرة محمد علي أنه يكره مسلمي مصر ويحتقرهم ويزدرهم أيما أزدراء ، وليس أدل من ذلك إلا قوله : (ثقوا أن قراري ... لا ينبع من عاطفة دينية فأنتم تعرفونني وتعلمون أنني متحرر من هذه الاعترافات التي يتقيد بها قومي ..وقد تقولون أن مواطني حمير

(1) انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ، ص182.

(2) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (181/1).

(3) المصدر السابق نفسه (181/1).

وثيران وهذه حقيقة أعلمها(1).

وقد كان محمد علي باشا متواطئاً مع الفرنسيين عند احتلالهم للجزائر، حتى لقد هم -بعد أن جاءت الأوامر بالطبع- أن يقوم بنفسه باحتلال الجزائر خدمة للفرنسيين وعملاً لحسابهم الخاص إلا أن أسياده رفضوا تلك الفكرة التي تهيج المسلمين وتثيرهم بعد أن ينكشف أمر عميلهم؛ لذا بادروا إلى إلغائها، واكتفى محمد علي بتزويد الفرنسيين في الجزائر بالغلّال(2).

ويذهب الدكتور سليمان الغنام إلى أن بريطانيا لما عملت بعزم محمد علي ثارت ثائرتها وهددته بنفس أسطوله إن هو فكر في ذلك.

هذه وقفة مع باشة من باشوات الدولة العثمانية عمل على إضعاف عقيدة الولاء والبراء لدى الأمة المسلمة بشكل مباشر تمثل في سياسة العسف والارهاب، وبشكل غير مباشر اتخذ التغريب له مساراً، لقد استحق محمد علي أن يكون رائد التغريب في العالم الإسلامي العربي التابع للدولة العثمانية وسار أولاده وأحفادهم من بعده على نفس السياسة، فقد ظلوا يتعهدون غراس التغريب والعلمنة، ويسيروا في نفس الطريق ويتسابقون إلى كسب ولاء الغرب، وخطب وده(3).

إن فئة سلاطين الدولة العثمانية وباشواتها أمعنوا في موالات الكافرين وألقوا إليهم بالمودة، وركنوا إليهم واتخذوهم بطانة من دون المؤمنين وعملوا على إضعاف عقيدة الولاء والبراء في الأمة وأصابوها في الصميم، وبذلك تميعت شخصية الدولة العثمانية وهويتها وفقدت أبرز مقوماتها وسهل بعد ذلك على أعدائها أن يحتووها ثم مزقوها شر ممزق.

ثانياً: انحصار مفهوم العبادة:

إن من شروط التمكين التي قام بها العثمانيون الأوائل تحقيق مفهوم العبودية الشامل كما

(1) انظر: الانحرافات العقديّة والعلمية (188/1).

(2) انظر: الشرق الإسلامي، حسين مؤنس، ص311.

(3) انظر: الانحرافات العقديّة والعلمية (189/1).

مفهومه من القرآن الكريم والسنة النبوية ، وكما أخذوه عن السلف الصالح رضوان الله عليهم .
ففهموا أن الدين كله عبادة، لذا كانت العبادة بمفهومها الواسع هي الغاية الحقيقية التي خلق الله
الخلق لأجلها كما قال تعالى: {وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون} (سورة الذاريات: آية 56).
وكانت هي دعوة الرسل جميعاً من لدن نوح عليه السلام الى نبينا محمد μ لأقوامهم: {ياقوم اعبدوا
الله مالكم من إله غيره} (سورة الأعراف: الآيات 85، 73، 65، 59).
وقال تعالى: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت} (سورة النحل : آية
36).

وقال تعالى: {وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فأعبدون} (سورة
الأنبياء: آية 25).

لقد فهم العثمانيون الأوائل العبادة بمفهومها الشامل الذي أراده الله عز وجل، وهي أن تشمل كل
نشاط في حياة الإنسان: {قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين & لا شريك له
وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين} (سورة الأنعام: الآية 163، 162).

فأصبحت حياتهم حافلة بالأعمال العظيمة من تقوية الدولة المسلمة وتربية دائمة لرعاياها،
وتعليم القرآن ، والعلم، وجهاد الكافرين والمنافقين، وقيام على أمور المسلمين ، وتنفيذ لأهداف
التمكين ولذلك نجد العلامة الشيخ شمس الدين آق يجمع بين دوره في توجيه الأمة وتعليمها
وتوظيف علم النبات والطب والصيدلة لمصلحة المسلمين ، لقد كان هذا الشيخ يتعبد المولى عز
وجل بالعلم الديني والدنيوي وكانت له بحوثه في علم النبات ومعالجة الأمراض المعدية وألف في
ذلك كتاباً ، وأهتم أيضاً بمعالجة مرض السرطان وكان مجاهداً في صفوف جيش محمد الفاتح،
مربياً لعوام العثمانيين على طاعة الله تعالى ومهتماً بتزكيتهم وأمر بالمعروف ونهاياً عن المنكر
وكان نعم المربي والناصح لمحمد الفاتح، فبعد أن فتحت القسطنطينية جاء محمد الفاتح يدخل في
الخلوة مع الشيخ فمنعه الشيخ شمس الدين وقال لمحمد الفاتح: (إنك إذا دخلت الخلوة تجد لذة

تسقط عندها السلطنة من عينيك، فتختل أمورها ، فيمقت الله علينا ذلك والغرض من الخلوة تحصيل العدالة ، فعليك أن تفعل كذا وكذا وذكر له شيئاً من النصائح إن هذا الفهم الجميل هو الذي سارت به الدولة العثمانية عندما كان للعلماء الربانيين صدارة التوجيه والإرشاد والتعليم، ولذلك نجد نهوضاً شاملاً في عصر السلطان محمد الفاتح في كافة شؤون الحياة التربوية والسياسية، والاقتصادية والعسكرية، والاجتماعية والعلمية كل ذلك النهوض مستمد من مفهوم العبودية الشامل الذي فهموه من الشريعة الغراء ولذلك نجد في الدولة العثمانية في عصر مجدها وقوتها تفوقاً في كافة المجالات فمثلاً في الجغرافيا يظهر اسم الرئيس بييري في زمن السلطانين سليم الأول، وسليمان القانوني، وكان الرئيس بييري، قائداً للبحرية العثمانية، وعالماً جغرافياً فذاً، ولد عام 1465م وتوفي عام (1554م)، كان هذا العالم الجغرافي رائداً من رواد رسم الخرائط في الأدب الجغرافي العثماني وله في هذا المضمار خريطتان هامتان، الأولى لإسبانيا وغرب أفريقيا والمحيط الأطلسي والسواحل الشرقية من الأمريكيتين.. وهذه، قدّمتها إلى السلطان سليم الأول في مصر عام 1517م، وموجودة الآن في متحف طوبقبو في إستانبول (60×85سم) وعليها توقيع الرئيس.

والأخرى لسواحل الأطلسي من جرونلاند إلى فلوريدا (68×69سم) وموجودة الآن في متحف طوبقبو بإستانبول أيضاً.

والجدير بالذكر أن الخريطة التي رسمها الرئيس بييري لأميركا هي أقدم خريطة لها. في 26 أغسطس عام 1956م عقدت في جامعة جورج تاون بالولايات المتحدة الأميركية ندوة إذاعية عن خرائط الرئيس بييري، اتفق كل الجغرافيين المشتركين فيها بأن خرائط الرئيس بييري لأميركا : (اكتشاف خارق للعادة).

وقد كان الرئيس بييري على معرفة بوجود أميركا قبل اكتشافها، ويقول في كتاب البحرية : (إن بحر المغرب - يقصد المحيط الأطلسي - بحر عظيم، يمتد بعرض 2000 ميل تجاه الغرب من

بوغار سبته. وفي طرق هذا البحر العظيم توجد قارة هي قارة أنتيليا (، وتعبير قارة أنتيليا هي الدنيا أو أميركا. وقد كتب الرئيس أن هذه القارة اكتشفت عام (870هـ/1465م) أي قبل اكتشاف كولومبس لأمريكا بحوالي 27 سنة(1).

لقد ترك ريس بييري كتاباً في البحرية أشار بما فيه من معلومات وخرائط دقيقة، دهشت المعاصرين من علماء الجغرافيا في أميركا وأوروبا، معلومات وخرائط أثبت العالم المعاصر صحتها.

وقد ذكر الراهب الجزويتي لاين هام مدير مركز الأرصاد في ويستون من يدل على عبقرية القائد العثماني ريس بييري في علم الجغرافيا حيث يقول: (خرائط الرئيس بييري صحيحة بدرجة مذهلة للعقل، خاصة أنها تظهر بوضوح أماكن لم تكن قد اكتشفت حتى أيامه في القرن السادس عشر الميلادي .. إن الجانب المذهل في مكانة بييري، هو رسمه لجبال أنتاركتيكا بتفاصيلها فيما رسمه من خرائط، مع أن هذه الجبال، لم يكن أحد قد تمكن من اكتشافها إلا في عام 1952م أي في النصف الثاني من القرن العشرين، وكيف؟ بعد استخدام الأجهزة المتقدمة العاكسة للصوت، أما قبل القائد العثماني الرئيس بييري، يعني حتى القرن السادس عشر الميلادي، لم يكن أحد يعرف أن أنتاركتيكا موجودة، إذ كانت مغطاة بالجليد طوال عصور التاريخ)(2).

والمعروف أن أنتاركتيكا هي القارة السادسة والواقعة في نصف الكرة الأرضية الجنوبي، لم يقتصر الذهول على الراهب لين هام فقط، بل تعداه إلى كثير من العلماء والكتاب لقد قارن بعض العلماء صور الأرض التي تم التقاطها من مركبات الفضاء (في القرن العشرين) بالخرائط التي رسمها القائد البحري العثماني الرئيس بييري في البدايات المبكرة للقرن السادس عشر اتضح التشابه

(1) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص382.

(2) المصدر السابق نفسه، ص383.

المذهل بين صور مركبات الفضاء وبين خرائط بييري (1).

إن النهوض في الدولة العثمانية في عصورها الزاهية كان في كافة المستويات العلمية، والشعبية، والحكومية والعسكرية وكانت حركة الدولة والأمة تعبيراً صادقاً لمفهوم العبودية الشامل، أما في العصور المتأخرة للدولة العثمانية فقد انحصر مفهوم العبادة في صور الشعائر التعبدية التي أصبحت تؤدي كعادة موروثه ليس لها من أثر في حياة ممارسيها، اللهم إلا ماتستغرقه من زمن لأدائها. (وتم عزل العبادة عن بقية الإسلام حتى كأن الإسلام منحصر فيها دون بقية الأجزاء كالجهاد مثلاً، وأحكام المعاملات أو العلاقات المالية ومع أن أكثر الناس إن لم نقل كلهم يعلمون أن الإسلام ليس هو العبادات المفروضة فحسب، فإنهم أهملوا الجوانب الأخرى، وغضوا النظر عنها وأنزلوا مرتبتها. ودعا فريق من المرشدين إلى الإعراض عما سوى هذه العبادات، فالجهاد وإنكار المنكر ورد الطغيان والاستعمار ومقاومة الظلم والعمل في جميع ما ينفع المسلمين من الأمور العامة، كل ذلك في نظر هذا الفريق من الناس وما أكثرهم في عصور الانحطاط - فضول يشغل عن الله وعبادته ... وبينما كانت مقاييس الصلاح والتقوى في الإسلام شاملة لجميع الواجبات التي أوجبها الإسلام من عبادات خاصة، وجهاد وعلم وعدل وعمل نافع للناس واستقامة في المعاملة وإحسان، كل ذلك مقروناً بتوحيد الله والإخلاص له أصبحت مقاييس التقوى محصورة في العبادات) (2).

وهكذا أعانت هذه الفكرة التي عزلت العبادة عن بقية أجزاء النظام الإسلامي الشامل على ضعف الوعي السياسي، والاجتماعي والأخلاقي.

ولقد تسبب هذا الانحصر في مفهوم العبادة في سلبيات من أهمها:

- صارت الشعائر التعبدية تؤدي بصورة تقليدية، عديمة الأثر والفائدة حين عزلت عن بقية

(1) العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص 384.

(2) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (100/1).

أمور الإسلام فلا تؤدي هذه الشعائر دورها في حياة الإنسان وقد عزلت عن بقية جوانب العبادة الأخرى، فالصلاة التي يخبر الله عزوجل عنها بقوله: { إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر } (سورة العنكبوت : 45). لم تعد ذات أثر واقعي في حياة مؤديها من الناس حيث لم تعد تنهاتهم عن الفحشاء والمنكر، وما كان لها أن تحدث ذلك الأثر وقد حصرت العبادة في أداء الشعائر التعبدية فحسب.

- تهاون الناس في بقية جوانب العبادات الأخرى.

إذ هي عندهم ليست من العبادة في شيء. حين نرى من المسلمين من يصلي الفروض جماعة في المسجد، ثم يخرج ويحلف عن عتبة المسجد كاذباً، ويغش في بيعه وشرائه، ويحتال في معاملاته، ويأكل الربا أضعافاً مضاعفة، ويقع في أعراض الناس، ثم تراه سادراً في ذلك مرتاح الضمير، هادئ خاطر، قد أسكت وخزات ضميره وتأنيب نفسه بما نقره من ركعات.

- العناية بالجانب الفردي الشخصي، وإهمال الجوانب الاجتماعية فنجد أن المسلمين قد " عنوا بالآداب الفردية والمتعلقة بذات الإنسان أكثر من عنايتهم بالآداب الاجتماعية المتعلقة بالآخرين، فقد يكون المسلم في ذاته نظيفاً ولكنه لايبالي أن يلقي القمامة في طريق المسلمين، ناسياً أن " إمطة الأذى عن الطريق من شعب الإيمان " كما ورد في الحديث(1)، وقد يكون المسلم مراعيّاً لأحكام الطهارة وشروط النظافة في نفسه، ولكنه لايبالي أن يلوث للناس طرقهم وأماكن جلوسهم وأن يخل بالآداب الاجتماعية التي أمر الإسلام بها "(2).

ونتيجة لكون مفهوم العبادة انحصر في الشعائر وحدها وخرجت منها بقية الأعمال، فاهتم الناس بشؤونهم الخاصة وأهملوا شئونهم العامة، ونمت روح الفردية على حساب الروح الاجتماعية. - إقامة العبادة مقام العمل، والاكتفاء برسومها وشعائرها وبما أحدث فيها من بدع عن اتخاذ

(1) مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان (63/1).

(2) انظر: المجتمع الإسلامي المعاصر لمحمد المبارك، ص66.

" قراءة القرآن وتلاوته لفظاً أصبح بديلاً عن العمل بما فيه، من آيات الجهاد والنظر إلى الكون والتفكير فيما خلق الله وإقامة العدل والميزان بالقسط، والحكم بما أنزل الله واستثمار مافي الكون من نعم الله مع أن ذلك كله عبادة... وبينما كان الرسول μ يستعد لقتال المشركين كل الاستعداد كما أمره الله ويدعو الله ويبتهل إليه لينصره إذا بالمسلمين في هذه العصور الأخيرة يجعلون الصلاة والدعاء - المأثور منه والمبتدع المخترع - بديلاً عن الأسباب فيلتمسون الرزق والشفاء والنصر لا بأسبابها المشروعة التي جعلها الله سبباً وطريقاً إليها، بأدعية خاصة يقتصرون على تلاوتها، وربما اخترعوا لذلك رقى وتمايم وحجباً، وزيارات لأمكنة خاصة وأوراداً ابتدعوها ... (1).

ولقد نتج عن هذا الانحصار الخطير في مفهوم العبادة أن خرجت جميع الأعمال الأخرى عن دائرة العبادة، فخرج العمل السياسي بما يشتمل عليه من رقابة الأمة على أعمال الحاكم، وتقديم النصيحة إليه، والسهر على تطبيق الشريعة وأجراء العدل في حياة الناس.

وما أجمل مقاله سيد قطب في توضيحه لحقيقة العبادة واستنكاره لمن يحصرها في الشعائر التعبدية: (إن الواقع أنه لو كان حقيقة العبادة هي مجرد الشعائر التعبدية ما استحقت كل هذا الموكب الكريم من الرسل والرسالات، وما استحقت كل هذه الجهود المضنية التي بذلها الرسل صلوات الله وسلامه عليهم - وما استحقت كل هذه العذابات والآلام التي تعرض لها الدعوة والمؤمنون على مدار الزمان! إنما استحق كل هذا الثمن الباهظ هو إخراج البشر جملة من الدينونة للعباد، وردهم إلى الدينونة لله وحده في كل أمر وفي كل شأن، وفي منهج حياتهم كله للدنيا وللاخرة سواء) (2). وهذا هو معنى العبادة الشامل الذي وعاه العثمانيون الأوائل، فطبّقوه في حياتهم، وعملوا به في واقع الأرض، فدانت لهم الممالك، وخضعت أمامهم الطواغيت، ومكن الله

(1) انظر: المجتمع الإسلامي المعاصر، ص 69.

(2) انظر: ظلال القرآن (1938/4).

لهم في الأرض، ورفعوا راية الإسلام خفاقة فوق بقاع شاسعة من المعمورة ويوم تبدل ذلك المفهوم وانحصر في دائرة الشعائر، فترت الهمم وضعفت العزائم عن القيام بأمر الإسلام كاملة فوق الضعف ثم السقوط.

إن ما حل بالدولة العثمانية من هزائم عسكرية، وأزمات اقتصادية، وانحرافات خلقية، ومصائب اجتماعية، وتلوثات فكرية، وجفاف روحي، وتأخر حضاري، كان من أسبابه إفراغ الإسلام من محتواه الأصيل، وضياع مفهوم العبادة الشامل.

" فيوم كانت : { وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة } عبادة لم يجروا أحد على احتلال أراضي المسلمين واستلاب خيراتهم ويوم كان " طلب العلم فريضة " لم يكن هناك تخلف علمي، بل كانت الأمة المسلمة هي أمة العلم، التي تعلمت أوروبا في مدارسها وجامعاتها!
ويوم كانت { فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه } عبادة، كانت المجتمعات الإسلامية أغنى مجتمعات الأرض!

ويوم كانت " كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته " عبادة، وكان ولي الأمر يستشعر أنه راع ومسئول عن رعيته، لم يكن للفقراء في المجتمع الإسلامي قضية، لأن العلاج الرباني لمشكلة الفقر كان يطبق في المجتمع الإسلامي عبادة لله! ويوم كانت { وعاشروهن بالمعروف } عبادة، لم تكن للمرأة المسلمة قضية، لأن كل الحقوق والضمانات التي أمر الله لها بها كانت تؤدي إليها طاعة لله، وعبادة لله! .. (1).

لقد كان الانحراف عن مفهوم العبادة الشامل من أسباب إفساح المجال في العصور المتأخرة للدولة العثمانية لشيوع المذهب العلماني، وهيمنة الشعارات العلمانية على كثير من الأقاليم التابعة للدولة العثمانية.

ثالثاً: انتشار مظاهر الشرك والبدع والخرافات:

(1) انظر: مفاهيم يجب أن تصحح لمحمد قطب ، ص 249.

إن الدولة العثمانية في القرنين الأخيرين كانت غارقة في كثير من مظاهر الشرك والبدع والخرافات، وحدث انحراف في توحيد الألوهية انحرافاً رهيباً، وغشيها موج من الظلام والجهل حجب عنها حقيقة الدين وطمس فيها نور التوحيد وعدل بها عن صراطه المستقيم (1).

يوم كانت الدولة العثمانية محققة للتوحيد، وتمارس مفهوم العبادة الشامل، وتحارب الشرك كانت في ذروة التمكين والعز والنصرة من الله تعالى، فهذا السلطان مراد الأول وهو في سكرات الموت بعدما طعنه جندي صربي يودع الدنيا بمعاني عميقة في التوحيد، وكلمات جامعة على التوحيد المنافي للشرك فيقول " لايسعني حين رحيلي إلا أن أشكر الله إنه علام الغيوب المتقبل دعاء الفقير، أشهد أن لا إله إلا الله، وليس يستحق الشكر والثناء إلا هو، لقد أوشكت حياتي على النهاية ورأيت نصر جند الإسلام، أطيعوا ابني يزيد، ولا تعذبوا الأسرى ولا تؤذوهم ولا تسلبوهم وأودعكم منذ هذه اللحظة وأودع جيشنا الظافر العظيم إلى رحمة الله فهو الذي يحفظ دولتنا من كل سوء" (2).

أما السلطان مراد الثاني فقد ترك وصيته : (فليأت يوم يرى الناس فيه ترابي) (3). لقد كان قلقاً يخشى أن يدفن في قبر ضخم، وكان يريد ألا يبني شيئاً على مكان دفنه. لقد كان السلاطين الأوائل تتفجر معاني التوحيد في كلماتهم وتنعكس على أعمالهم وانتشرت تلك المفاهيم في الشعب العثماني قاطبة، أما في العصور المتأخرة فقد تغير الحال، ومع تضافر الأدلة وتواترها ووضوحها في النهي عن كل السبل المفضية إلى الشرك وتحذير النبي ﷺ وتشديده في ذلك قبل وفاته، كقوله ﷺ في الصحيحين: (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما فعلوا).

(1) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (271/1).

(2) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص 391.

(3) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص 346.

قالت عائشة رضي الله عنها: ولولا ذلك لأبرز قبره، ولكن كره أن يتخذ مسجداً⁽¹⁾، وقوله ρ: "لعن الله زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج"⁽²⁾.

وقال ρ قبل أن يموت بخمس: "إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك"⁽³⁾.

وقوله ρ: "اللهم لاتجعل قبوري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد"⁽⁴⁾، وقوله ρ: "لاتجلسوا على القبور، ولا تصلوا إليها"⁽⁵⁾.

وحين ذكرت له بعض نسائه كنيسة رأيتها في أرض الحبشة فيها تصاوير، قال ρ: "إن أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً، ثم صوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله"⁽⁶⁾.

ونهيته ρ أن يجصص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه، وجاء في رواية أخرى النهي عن الكتابة على القبور⁽⁷⁾ وفي أواخر الدولة العثمانية كثر على غير العادة تشيد القباب وتبنى الأضرحة وإقامة المشاهد، وتحديث المزارات حتى لكأن هذه النصوص جاءت تأمر بالبناء على القبور، وتذكر فضله وتحث عليه.

وزاد الأمر سوءاً أن بعض الفقهاء أفتوا بجواز بناء القباب على القبور إذا كان الميت فاضلاً، واحتجوا بقولهم: إن بعض السلف استحسَن ذلك، وزاد الطين بلة أنهم أودعوا تلك الآراء الفاسدة

-
- (1) البخاري، كتاب الجنائز، باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور رقم 1330.
 - (2) الترمذي، كتاب الجنائز، باب ما جاء أن يتخذ على القبر مسجداً، رقم 320.
 - (3) مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد، رقم 532.
 - (4) رواه مالك في الموطأ (172/1).
 - (5) مسلم، كتاب الجنائز، باب النهي عن الجلوس على القبور، رقم 972.
 - (6) البخاري: كتاب الصلاة، باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية رقم 427.
 - (7) الترمذي، كتاب الجنائز، باب ما جاء في كراهية تجصيص القبور، صححه الألباني رقم 757.

في مصانفتهم التي يعكف على دراستها الطلاب (1).

وأول من أحدث هذه المشاهد الشركية، والمزارات الوثنية في الأمة هم الشيعة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية بعد أن تحدث عن دور اليهود في نشأة التشيع: " فظهرت بدعة التشيع التي هي مفتاح باب الشرك، ثم لما تمكنت الزنادقة أمروا ببناء المشاهد وتعطيل المساجد، محتجين بأنه لاتصلى الجمعة والجماعة إلا خلف إمام معصوم، ورووا في إنارة المشاهد وتعظيمها والدعاء عندها من الأكاذيب مالم أجد مثله فيما وقفت عليه من أكاذيب من أهل الكتاب حتى صنف كبيرهم ابن النعمان (2) كتاباً في (مناسك حج المشاهد) وكذبوا فيه على النبي ﷺ وأهل بيته أكاذيب بدلوا بها دينه، وغيروا ملته، وابتدعوا الشرك المنافي للتوحيد" (3).

وانتقل هذا الوباء العظيم وبدأ في نخر الدولة العثمانية، وتعاضم شره، ووقع ما حذر منه النبي ﷺ من الشرك العظيم.

وقد تجلت مظاهر الشرك ووسائله في تلك الفترة في الصور التالية:

- بناء المساجد والقباب والمشاهد على الأضرحة والقبور في أقاليم الدولة، بل انتشر ذلك في العالم الإسلامي كله وللأسف الشديد نجد الدولة العثمانية في العصور المتأخرة تشجع على تلك المشاهد والأضرحة المنتشرة في العالم الإسلامي فمثلاً أعفت الدولة أهالي البصرة من الرسوم والتكاليف، احتراماً لصاحب الحضرة الشريفة، يعني الزبير بن العوام رضي الله عنه، وأن العثمانيين بنوا على ضريحه مسجداً، وقامت والدة السلطان عبدالعزيز بترميم القبر، وتكبير المسجد، وفي سنة 1293 هـ ورد أمر من السلطان عبدالحميد الثاني بتعمير هذه المراقد الشريفة على نظارة والي البصرة (ناصر باشا السعدون).

(1) الانحرافات العقديّة والعلمية (272، 273/1).

(2) من كبار الشيعة الاسماعيلية في مصر.

(3) انظر: مجموع الفتاوى (162/27).

ثم في سنة 1305هـ أمر السلطان عبدالحميد أيضاً بتبليغ القبب وتعمير المسجد، وأمر أيضاً بكسوتين للضريحين (الزبير وعتبة بن غزوان) من الحرير الأحمر المفخر المطرز بالفضة وأمر أيضاً بوضع مباحر وقماقم من الفضة عند الضريحين الكريمين⁽¹⁾ وكانت جميع الأقاليم الإسلامية، في الحجاز واليمن وأفريقيا ومصر والمغرب العربي والعراق والشام وتركيا وإيران، وبلاد ماوراء النهر والهند وغيرها تتسابق في بناء الأضرحة والقباب وتتنافس في تعظيمها والاحتفاء بها، إذ البناء على القبور هو مادرج عليه أهل ذلك العصر، وهو الشرف الذي يتوق إليه الكثيرون. لقد أولع العثمانيون في عصورهم المتأخرة بالبناء على كل ما يعظمه الناس في ذلك العصر سواء أكان ما يعظمونه قبوراً أو آثاراً لأنبياء أو غير ذلك.

وأصبحت تلك المشاهد والأضرحة محلاً للاستغاثة والاستعانة بأصحابها وانتشرت عقائد شركية كالذبح لغير وجه الله والنذر للأضرحة، والاستشفاء وطلب البراءة من الأضرحة والاعتصام بها، وأصبحت الأضرحة والقبور تهيمن على حياة الناس وهكذا طغت هذه الأضرحة على حياة الناس، وأصبحت مهيمنة على شئونهم، وشغلت تفكيرهم، وتبوأت في نفوسهم وقلوبهم أعلى مكانة، وكانت رحي تلك الهيمنة تدور على الغلو والشرك بالأموات، والتعلق بهم من دون الله عزوجل فلا يبرمون من أمورهم صغيرة ولا كبيرة إلا بعد الرجوع إلى تلك الأضرحة، ودعاء أصحابها واستشارتهم، وهم لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، فكيف لغيرهم، وقد كان العلماء وللأسف الشديد يتقدمون العامة ويسنون لهم السنن السيئة في تعظيم الأضرحة والمقامات والولوع بها ويزرعون الهيبة في نفوسهم بما كانوا يقومون به.

وقد تمادى الناس في الشرك والضلال وأمعنوا في الوثنية ومحاربة التوحيد فلم يكتفوا بالمقبورين والأحياء، بل أشركوا بالأشجار والأحجار، ووصل الأمر إلى اعتقاد العامة في بغداد في مدفع قديم في ساحة الميدان من بقايا أسلحة السلطان مراد العثماني التي استخدمها في حربه مع الفرس،

(1) انظر: الانحرافات العقديّة والعلمية (294/1).

لإخراجهم من بغداد حيث كانوا يقدمون إليه النذور، ويطلبون منه إطلاق ألسنة أطفالهم وهو يعرف عند " طوب أبي خزامة "، مما حدا بالعلامة محمود شكري الألوسي إلى التصدي لهذه الخرافة الشنيعة بكتابة رسالة يزجر بها هؤلاء الجاهلين أسماها ب (القول الأنفع في الردع عن زيارة المدفع) (1).

واعتماد الناس في أواخر الدولة العثمانية أن يحلفوا بغير الله عزوجل من المخلوقين، وكان يسهل عليهم الحلف بالله كاذباً، عامداً متعمداً، ولكنه لايجرؤ أبداً أن يحلف بما عظمه من المخلوقين إلا صادقاً.

- انتشار البدع والخرافات:

كان السلاطين الأوائل في الدولة العثمانية ينفرون من البدع وأهلها ويحاربونها فهذا السلطان محمد الفاتح في وصيته يقول لمن بعده: " جانب البدع وأهلها وباعد الذين يحرضونك عليها " أما في العصور المتأخرة من الدولة العثمانية فإن البدع انتشرت انتشاراً ذريعاً، وأصبحت حياة رعايا الدولة ممزوجة بها، فقلما تخلو منها عبادة، أو عمل أو شأن من شؤون الحياة سواء في الجنائز والمآثم والأعراس والضيافات والولائم، وبدع الموالد عند المتصوفة المنحرفين وهكذا أصبحت البدع ترى في كل مكان تكاد تحتل منزلة الصدارة من حياة الناس يعمل بها الجاهلون ويأيدها العالمون، وأصبحت السنة بدعة والبدعة سنة (2) وتغير مفهوم الدين والعلم من منهج كامل وشامل لجميع مجالات الحياة إلى طقوس غريبة ورسوم بالية يتشبثون بها، ويحسبون أنهم مهتدون وتحول صحيح البخاري بما حواه من منهج للنبي μ إلى تقليد بال رتيب، يتلى في الأزمات، ويقرأ في الحروب، طلباً للنصر ودحر الأعداء (3).

(1) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (367/1).

(2) انظر: مشكلات الجيل في ضوء الاسلام، ص 373.

(3) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (380/1).

لقد أضحّت السنة في تلك الفترة غريبة جداً، بعد أن غمرها طوفان البدع العظيم، وصار الناس متشبثين بالبدع على أنها من صميم الدين، ويأبون التفريط فيها مطلقاً، في الوقت الذي كانوا يفرضون فيه في كثير من أحكام الإسلام، ويكافحون من أجلها، ويتعاهدون عليها، ويرون أنهم خدموا الدين، ونفعوا المسلمين (1).

- انتشار الخرافات:

في أواخر الدولة العثمانية فشت الخرافات والأساطير في جموع المسلمين بشكل منقطع النظير، وأضحّت كحقائق مسلمة لا تقبل النقاش مطلقاً، وليس ذلك فحسب، وإنما غدت عند كثير منهم أموراً مقدسة لا يجوز التهاون بها، فضلاً عن التشكيك في صحتها.

ومن الخرافات في الأستانة أنه جامع خوجة مصطفى باشا محاط بزنجير مربوط طوفه بشجرة سرو قديمة، ولهذا الزنجير خرافة يتناقلها الجهلاء مؤداها أن كل من أنكر شيئاً حقيقياً، وجلس تحت هذا الزنجير، فهو يسقط على رأسه، وإذا كان صادقاً في إنكاره، فالزنجير لا يتحرك (2) لقد كانت الأمة في تلك الفترة غارقة في عبادة الأضرحة، والتعلق بها من دون الله عزوجل، ووقعت فريسة لكثير من مظاهر الشرك والعلو والبدع والخرافات، التي ملأت حياتها، وشغلت أوقاتها، وقتلت طاقاتها، وصرفت جهودها عن طريقها الصحيح، فعجزت عن النهوض من كبوتها، ولم تستطع أن تعالج أسباب انحطاطها؟ وانهزمت أمام جيوش الأعداء ووهنت عن مقاومة مخططاتهم ومؤامراتهم وكانت النتيجة ضياع الدولة العثمانية.

رابعاً: الصوفية المنحرفة:

إن أعظم انحراف وقع في تاريخ الأمة الإسلامية ظهور الصوفية المنحرفة كقوة منظمة في المجتمع الإسلامي تحمل عقائد وأفكار وعبادات بعيدة عن كتاب الله وسنة رسوله μ وقد قوى عود

(1) المصدر السابق نفسه (428/1).

(2) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (432/1).

الصوفية المنحرفة واشتدت شوكتها في أواخر العصر العثماني بسبب عوامل متعددة منها:

1- الأحوال السيئة التي كانت تعيشها الأمة الإسلامية، والواقع المرير الذي كان يعيشه المسلمون في تلك الفترة، من انتشار التخلف والظلم والطغيان والفقر والمرض والجهل، كل ذلك جعل الناس يرمون في أحضان الصوفية المنحرفة، التي لاتقوم بأكثر من الترتيب عليهم، والتحذير لهم، وجعلهم يعيشون في غير واقعهم الذي فروا منه.

2- كان اضطراب الأمن وانعدامه سمة من سمات العصور المتأخرة، حيث كانت تزهد الأرواح لأسباب تافهة بل دون سبب في بعض الأحيان، وفي هذه الأجواء الحالكة، والظروف العصيبة، كان أرباب التصوف يحيون حياة هادئة يرفرف عليها الأمن والاطمئنان بعيدة عن المصائب والفتن التي فتكت بالناس.

" قد كان الفقراء أروح بالاً وأكثر طمأنينة من الفلاحين في حقولهم والتجار في متاجرهم والصناع في مصانعهم، فقد كانوا في أمن من تطبيق القوانين ... وكانوا في أغلب فترات الظلم الفادح في نجاة من هذه الشرور كلها، لأن الجنود كانوا يخافون بأسهم، ويخشون سلطانهم الروحي، ويؤمنون باتصالهم بالله، فيتزلفون إليهم ويطلبون الرضا منهم، فأقبل بعض الناس على دخول الطريق مدفوعاً بما سيصيبه في رحاب الزوايا من اطمئنان البال واستقرار الحال "(1).

3- الترف في معيشة ارباب الفرق: " كان الفقراء فوق النجاة من ضغط الحياة يومذاك لايجهدون أنفسهم في احتراف عمل يكسبون قوتهم من ورائه، بل كانوا يعيشون في الزوايا، طاعمين كاسين، على نفقة المحسنين والأثرياء بدعوى التفرغ للذكر والانقطاع للتهجد والتجرد لعبادة الله. ومن أطرف مفارقة هذا العصر أن يكون هؤلاء الزهاد الذين يدعون التقشف والقناعة بالتافه من شؤون العيش، أرغد عيشاً وأترف حياة من الفلاحين والتجار وأرباب الحرف ..."(2).

(1) انظر: التصوف في مصر أبان العصر العثماني، د. الطويل، ص154، 152.

(2) المصدر السابق نفسه، ص154.

4- حب الأتراك العثمانيين للدروشة والتصوف: " كان الأتراك يحبون التصوف ويميلون إلى

تقديس أهل الإيمان بصدق ولايتهم "(1).

" لقد كانت الصوفية قد أخذت تنتشر في المجتمع العباسي، ولكنها كانت ركناً منعزلاً عن المجتمع، أما في ظل الدولة العثمانية، وفي تركيا بالذات، فقد صارت هي المجتمع وصارت هي الدين، وانتشرت - في القرنين الأخيرين بصفة خاصة - تلك القولة العجيبة: من لاشيخ له فيشخه الشيطان! وأصراً بحت

- بالنسبة للعامة بصورة عامة - هي مدخلهم إلى الدين وهي مجال ممارستهم للدين "(2).

وقد كان كثير من سلاطين آل عثمان يقومون برعاية الصوفية، ويفيضون عليها من عطفهم وحدهم، حتى جاء السلطان عبدالحميد إلى السلطنة في ظروف عصيبة، والمؤامرات تحاك للأمة، والكوارث والمحن تحيط بها من كل مكان، ودعاة القومية يبثون دعوتهم في سائر البلاد، فدعا إلى الجامعة الإسلامية والرابطة الدينية، وكانت الصوفية بجميع أصنافها وطرقها تشكل ثقلًا في الدعوة إلى الجامعة الإسلامية.

لقد كان ذلك العصر، عصر الصوفية التي أطبقت على العالم الإسلامي من أدناه إلى أقصاه

ولم تبقى مدينة ولا قرية إلا دخلتها إلا إذا استثنينا نجد وملحقاتها(3).

لقد سيطرت الصوفية المنحرفة على العالم الإسلامي في تلك الفترة، ووقع جمهور من المسلمين في أسرها، وعظم سلطان المتصوفة في ذينك القرنين، وبلغ مبلغاً عظيماً، لو لم يكن من قوته ونفوذه إلا هيمنته على الجماهير الغفيرة في طول البلاد وعرضها لكفى، فكيف إذا تبنته الدولة

(1) انظر: التصوف في مصر أبان العصر العثماني، ص154.

(2) انظر: واقعنا المعاصر، ص155.

(3) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (447/1).

وناصره الحكام(1).

وكانت نظرة المتصوفة المنحرفة تحترم البطالة وتبيح التسول، وتصطنع الضيق، وتسعى إلى مواطن الذل، وتغتبط بالهوان وكانت نظرتهم إلى الأخذ بالأسباب منحرفة جداً " فما أخيب التاجر الذي يصرف وقته في تجارته، والزارع الذي ينفق جهده في زراعته، والصانع الذي يبذل نشاطه في صناعته، وما أفضل من سافر منهم طلباً لكسب أو رغبة في مال، فإن الرزق في طلب صاحبه دائر، والمرزوق في طلب رزقه حائر، وبسكون أحدهما يتحرك الآخر..".

وفسدت لدى كثير من المتصوفة عقيدة القضاء والقدر وأصبحت عندهم عقيدة سلبية مخذلة لقد كتب أحد المستشرقين الألمان وهو يؤرخ لحال المسلمين في عصورهم الأخيرة يقول: " طبيعة المسلم التسليم لإرادة الله والرضا بقضائه وقدره والخضوع بكل ما يملك للواحد القهار. وكان لهذه الطاعة أثران مختلفان: ففي العصر الإسلامي الأول لعبت دوراً كبيراً في الحروب إذ حققت نصراً متواصلاً لأنها دفعت في الجندي روح الفداء وفي العصور الأخيرة كانت سبباً في الجمود الذي خيم على العالم الإسلامي فقذف به إلى الإنحدار وعزله وطواه عن تيارات الأحداث العالمية "(2). إن هذا الرجل وهو كافر أدرك هذه الحقيقة: حقيقة الفرق بين الإيمان بالقدر كما فهمه السلف وبين الإيمان الذي ابتدعه الخلف متأثرين بالمتصوفة، فالذنب ليس ذنب العقيدة بل ذنب المعتقدين بها، وقد صاغ ذلك شاعر الإسلام محمد إقبال شعراً فقال:

من القرآن قد تركوا المساعي

وبالقرآن قد ملكوا الثريا

إلى التقدير ردوا كل سعي

وكان زماعهم قدراً خفياً

(1) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (448/1).

(2) انظر: الاسلام قوة الغد العالمية، باول شمتز، ص78.

فما كرهوه صار لهم رضياً (1)

وقد استغل نابليون بونابرت تلك الفكرة المنحرفة عن القضاء والقدر لما احتلت جيوشه الصليبية أرض مصر، فكان يصدر منشوراته بتذكير المسلمين بأن ما وقع لهم من الاحتلال والأسر كان بقدر من الله، فمن حاول الاعتراض على ما وقع فكأنما يعترض على القضاء والقدر (2).
لقد كانت مفاهيم التصوف المنحرف تنخر في كيان الدولة العثمانية، وكان العالم الصليبي ينطلق في مجالات العلم وميادين المعرفة آخذاً بأسباب القوة والتقدم والرقي ويدير المؤامرات والدسائس لتفتت الدولة العثمانية ومن ثم الهيمنة على العالم الإسلامي.
وكان المتصوفة المنحرفون مقبلين على استماع الملاهي والمعازف ويتعلمون الموسيقى وكانت مجالسهم مليئة بالطبول والنايات والأعلام والرايات وكانت كثير من الطرق المنحرفة لاتخلو حلقات الذكر من الدف حتى قال أبو الهدى الصيادي وهو من خواص السلطان عبدالحميد الثاني، ومن أنصار الجامعة الإسلامية:

اضرب الدف وجانب جاهلاً

حكمة الشرع لمعنى مادري

كل ما حرك قلباً ساكناً

ودعا العقل منه معتبراً

وأجال الروح في برزخها

تذكر الله وتبغي مظهراً

فهو بر والذي يفعله

فعل البر والله يرى

إن في الدف وفي رنته

(1) انظر: العلمانية، سفر الحوالي، ص 519.

(2) انظر: الانحرافات العقديّة والعلمية (467/1).

صوته ذكر وفي بحثه
أنه تذكر أوقات السرى
نضرب الدف ومنه عندنا
ذاكراً نسمعه لن يفتر (1)

وقد كان للسمع عند جمهور المتصوفة منزلة عظيمة: يقول أبو الهدى الصيادي: " من لم يحركه السماع فهو ناقص مائل عن لطف الاعتدال بعيد عن نور الروحانية، زائد في غلظة الطبع وكثافته، بل هو أبلد من الجمال والطيور وسائر البهائم، فإن جميعها تتأثر بالانغمات الموزونة ... وبالجملة فالسمع يثمر حالة في القلب وتسمى وجداً، ويثمر الوجد تحريك الأطراف، إما بحركة غير موزونة فتسمى الاضطراب، وإما بحركة موزونة فتسمى التصفيق والرقص" (2).

وياليت أولئك المتصوفة اقتصروا على الولوج بالطرب والسماع والغناء، ولكنهم جعلوه إلى الله قربة، وعدوه طاعة تلين بها القلوب، وتشف بها الأرواح.

وما أحسن ماقاله العلامة الحافظ ابن القيم الجوزية عن هؤلاء المتصوفة حيث يقول: " فلو رأيتهم عند ذياك السماع، وقد خشعت منهم الأصوات، وهدأت منهم الحركات، وعكفت قلوبهم بكليتها عليه، وانصبت انصبابة واحدة إليه، فتمايلوا له ولا كتمايل النشوان، وتكسروا في حركاتهم ورقصهم، رأيت تكسر المخانيث والنسوان؟.

ويحق لهم ذلك، وقد خالط خمرة النفوس، ففعل فيها أعظم ماتفعله حميا الكؤوس، فلغير الله، بل للشيطان، قلوب هناك تمزق، وأثواب في غير طاعة تتفق، حتى إذا عمل السكر فيهم عمله، وبلغ الشيطان منهم أمنيته وأمله، واستفزه بصوته وحيله، وأجلب عليهم برجله وخيله، وخز في صدورهم وخزاً، وأزهم إلى ضرب الأرض بالأقدام أزا فطوراً تجعلهم كالحمير حول المدار، وتارة

(1) انظر: رياضة الأسماع في أحكام الذكر والسماع للصيادي ، ص45.

(2) انظر: رياضة الأسماع في أحكام الذكر والسماع، ص78.

كالذباب ترقص وسط الديار، فيارحمة للسقوف والأرض من دك تلك الأقدام، ويا سوأتا من أشباه الحمير والأنعام، وياشمامة أعداء الإسلام، بالذين يزعمون أنهم خواص الإسلام، قضوا حياتهم لذة وطرباً، واتخذوا دينهم لهواً ولعباً، مزامير الشيطان أحب إليهم من سماع سور القرآن، لو سمع أحدهم القرآن من أوله إلى آخره لما حرك له ساكناً، ولا أزعج له قاطناً، ولا أثار فيه وجداً ولا قدح فيه من لواعج الأشواق إلى الله زنداً، حتى إذا تلي عليه قرآن الشيطان وولج زموره سمعه، تفجرت ينابيع الوجد من قلبه على عينيه فجرت، وعلى أقدامه فرقصت، وعلى يديه فصفقت، وعلى سائر أعضائه فاهتزت وطربت، وعلى أنفاسه فتصاعدت، وعلى زفراته فتزايدت، وعلى نيران أشواقه فاشتعلت .. ولقد أحسن القائل:

تلي الكتاب فأطرقوا لاختيفة
 لكنه إطراق ساه لاهي
 وأتى الغناء فكالحمير تناهقوا
 والله مارقصوا لأجل الله
 دف ومزمار ونغمة شادن
 فمتى رأيت عبادة بملاهي
 ثقل الكتاب عليهم لما رأوا
 تقييده بأوامر ونواهي
 سمعوا له رعداً وبرقاً إذ حوى
 زجراً وتخويفاً بفعل مناهي
 ورأوه أعظم قاطع للنفس عن
 شهواتها ياذبحها المتناهي
 وأتى السماع موافقاً أغراضها

وهكذا أصبحت حياة المتصوفة المنحرفين في اللهو والسخافة وأضاعوا أوقاتهم وأعمارهم في مجالس الذكر والسماع والملاهي، وأصبحت حياتهم من أولها إلى آخرها تدور حول الذكر في صورته المنحرفة، وضاعت عبادة السعي في مناكب الأرض وطلب الرزق، والجهاد، وطلب العلم ونشره، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكلها أمور تشغل عن الذكر وتصد عنه، ومن ثم ينبغي على المسلم أن لا يشتغل بها وأن يعيش حياته على الذكر بالسماع والغناء والرقص.

ودخل في عالم التصوف المنحرف تقديس الأشخاص الأموات منهم والأحياء ونسبوا إليهم خوارق العادات والكرامات، وعاشوا في الأوهام، وعالم الخيال وأصيب الناس بالوهن والعجز والانحطاط، واتسعت هوة التخلف والسقوط، وكانت أوربا الصليبية تواصل صعودها في سلم الحضارة المادية وتعد جيوشها للزحف على العالم الإسلامي الغارق أهله في دنيا الخرافات والأوهام، والاتكال على الخوارق والكرامات.

وفي الوقت الذي كانت فيه الأمة تعاني أشد المعاناة من الضعف والانحطاط، وتدور عليها المؤمرات من الأعداء وتحاك لها الدسائس، كان كثير من علمائها طوع مشيئة شيوخهم من المتصوفة المنحرفين الذين أشاعوا روح الذل والخنوع في الأمة والذلة والهوان وغير ذلك من الأمراض المنحرفة، وتركت كثير من الطرق الصوفية المنحرفة الجهاد لمقارعة الأعداء، وأصبح الأولياء في عرف الناس هم المجاذيب والمجانين والمعتوهين، ولاشك أن هناك بينهم نسبة كبيرة من الدجالين والمحترفين، استغلوا ما للمجاذيب من مكانة مقدسة في نفوس الناس، فاندسوا في صفوفهم، ليصبحوا ضمن رابطة الأولياء، من الذين لالوم عليهم ولا عتاب، مهما ارتكبوا من الموبقات، وجأهروا بالفواحش والآثام، وكان الكثير منهم يتعامل مع الجن فكان طبيعياً تنفذ سهام الأعداء، وتنجح مخططاتهم، وتحتل جيوشهم أرضنا، وتستباح بيضتنا، ولقد حفلت الصوفية ببحر

(1) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (506/1).

زأخر من العقائد المنحرفة والضالة ولعل أآر العقائد من آمن بها كآثر من المتصوفة المنحرفين كعقيدة وحدة الوجود والحلول، لقد احتضن المتصوفة المنحرفين هذه العقائد، وعملوا على نشرها ، وألفوا مؤلفات من أجلها واعتبروها الحقيقة التي كشفت لهم سرها وستر عن الآخرين.

وكان تدريس كتابي (فصوص الحكم) و(الفتوحات المكية) لـ(ابن عربي) وغيرها من كتب المتصوفة التي تطفح بعقيدتي وحدة الوجود والحلول هو شعار كبار العلماء من المتصوفة وغيرهم، وهو المنزلة العلمية التي لا يتبوؤها إلا الخاصة منهم، والمستوى العلمي الذي لا يرقى إليه إلا فحول العلماء(1).

لقد لقيت هذه العقائد المنحرفة رواجاً واسعاً بين المتصوفة المنحرفين في تلك الفترة الحرجة التي كانت تمر بها الأمة الإسلامية، فكان كثير منهم يؤمن بعقيدة وحدة الوجود، التي لا يمكن للحياة في ظلها أن تفسد، ويحيق الدمار بالعالم ، وتبطل الأديان بالكلية، فلا يبقى معها دين ولا جهاد، ولا عداء بين مسلم وكافر ، فالكل واحد، والوجود واحد، وإن تعددت المظاهر ، نسأل الله السلامة في الدين.

واستخفاف كثير منهم بالشرائع، وإلغائهم التكاليف أو إسقاطهم لها، واستهانتهم بأوامر الدين ونواهيه، تحت مسمى الولاية والحزب والجدب والشهود ولقد كان واقع الصوفية حجة قوية استندت إليها حركات التغريب التي نخرت الدولة العثمانية.

خامساً: نشاط الفرق المنحرفة:

كالشيعية الأثنى عشرية، والدروز والنصيرية ، والإسماعيلية والقاديانية والبهائية وغيرها من الفرق الضالة المحسوبة على الإسلام.

لقد كانت تلك الفرق قد استفحل أمرها، خصوصاً مع مجيء الاستعمار الصليبي الذي طوق الأمة الإسلامية، فكانوا على عادتهم دائماً مع أعداء المسلمين عوناً لهم وجنداً مخلصين تحت

(1) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (556/1).

ففي الماضي كانوا أكبر عون للتتار والصليبيين ضد المسلمين، وهاهم يسيرون على نفس المنهج الممزوج بالخيانة والتآمر لحساب أعداء الأمة وقد مر بنا في هذا الكتاب دور الصفوية الأتية عشيرة الشيعة في محاربة الدولة العثمانية على مر عصورها، وحين احتل الفرنسيون سوريا وانطلقت الحركات الجهادية ضدهم كان الاسماعيلية في سليمة وغيرها يقاتلون جنباً الى جنب مع الفرنسيين كما فعلوا مع المجاهد (ابراهيم هنانو) ومن معه من المجاهدين (1).

أما طائفتا النصيرية والدروز فقد كانتا على مر التاريخ والعصور مصدراً لإثارة القلاقل وزعزعة الأمن والثورات المستمرة ضد الحكم الاسلامي، وعوناً للأعداء من الصليبيين المستعمرين وغيرهم. وفي القرن الثالث عشر الهجري تقاوم أمر النصيرية وتعاضم خطرهم في بلاد الشام مما حدا بـ(يوسف باشا) والي الشام أن يقود جيشاً بنفسه ويقاتلهم حيث (انتصر عليهم وسبي نساؤهم وأولادهم ، وكان قد خيرهم بين الدخول في الاسلام أو الخروج من بلادهم فامتنعوا وحاربوا وانخذلوا وبيعت نساؤهم وأولادهم، فلما شاهدوا ذلك أظهروا الاسلام تقية، فعفا عنهم وعمل بظاهر الحديث وتركهم في البلاد....)(2).

وقد قاموا بثورة كبيرة عام 1834م وهاجموا مدينة اللاذقية ونهبوها وفتكوا بأهلها. وقد حاول السلطان عبدالحميد الثاني أن يعيدهم الى حظيرة الاسلام وأرسل رجلاً من خاصته اسمه (ضيا باشا) جعله متصرفاً على لواء اللاذقية في بداية القرن الرابع عشر الهجري فأنشأ لهم المساجد والمدارس، فأخذوا يتعلمون ويصلون ويصومون، وأقنع الدولة بأنهم مسلمون فلم يعصوا له أمراً، وبعد أن ترك هذا المتصرف منصبه خربت المدارس وحرقت الجوامع أو دنست (3).

(1) انظر: الأعلام (42/1).

(2) انظر: حلية البشر (1600/3).

(3) انظر: خطط الشام (260/1).

وهذا من تفریط المسلمين تجاههم وكم خدعت تلك العقيدة الخطيرة (التقية) المسلمين حكماً ومحكومين علماء ومتعلمين ، فأين علماء السنّة الذين لا تنطلي عليهم دسائس الباطنيين؟ إن تاريخ النصيريين ، تاريخ أسود ملطخ بالدماء ضد أهل السنة، وكانوا دائماً خنجراً مسموماً في جنب الأمة الاسلامية، يتآمرون ضدها في الخفاء، ويظهرون لها العداة كلما وجدوا لذلك سبيلاً، والتاريخ يشهد بأنهم كانوا دائماً في تحالف مع أعداء الاسلام.

وكان أمير الدرور بشير الشهابي المتوفى سنة 1266هـ يقف بجنوده بجانب جيش محمد علي عند احتلاله للشام، مما سهل على جيش محمد علي هزيمة الجيش العثماني في حمص، وعبر جبال طوروس، وأوغلت جيوشه في قلب بلاد الترك، وكان هناك مراسلات بين نابليون والدرور عند حصار الفرنسيين (عكا)(1).

أما البهائية فقد نشأت عام 1260هـ/1844م تحت رعاية الاستعمار الروسي واليهودية العالمية والاستعمار الانكليز بهدف إفساد العقيدة الاسلامية، وتفكيك وحدة المسلمين وصرْفهم عن قضاياهم الأساسية، وقد ادعى البهاء المهديّة، ثم ادعى النبوة ، ثم ادعى الربوبية والألوهية(2). إن من المؤلم حقاً تهاون الدولة العثمانية في القضاء على تلك النحلة الخبيثة وتطبيق فيهم حكم الله وشرعه في أمثالهم.

وأما القاديانية فهي نحلة تنسب الى (غلام أحمد القادياني)، نسبت الى قرية قاديان من إقليم البنجاب في الهند (المتوفى سنة 1326هـ) وهي: (حركة نشأت بتخطيط من الاستعمار الانكليزي في القارة الهندية بهدف إبعاد المسلمين عن دينهم وعن فريضة الجهاد بشكل خاص، حتى لا يواجهوا المستعمر باسم الاسلام)(3).

(1) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (577/1).

(2) المصدر السابق نفسه (589/1).

(3) انظر: الموسوعة الميسرة للأديان ، ص389.

وقد ادعى القادياني النبوة ثم الألوهية، وقد كان من أبرز ملامح دعوة (غلام احمد القادياني) (ميله الشديد للإنكليز وخدمته لأغراضهم في بلاد الهند، وإبطال عقيدة الجهاد لهم، وثأؤه عليهم، وحث اتباعه على نصرتهم في كل مكان...) (1).

ويقول القادياني: (ولا يجوز عندي أن يسلك رعايا الهند من المسلمين البغاة وأن يرفعوا على هذه الدولة المحسنة سيوفهم أو يعينوا أحداً في هذا الأمر ويُعان على شيء أحد من المخالفين بالقول أو الفعل أو الإشارة أو المال أو التدابير المفسدة، بل هذه الأمور حرام قطعي ومن أرادها فقد عصى الله ورسوله وضل ضلالاً مبيناً) (2).

لقد كانت تلك الفرق مصدراً لإثارة القلاقل والفتن وإحداث الفوضى في داخل الدولة العثمانية وكذلك في تجمعات المسلمين كالهند وغيرها وكانت تلك الفرق لا تكل ولا تمل في تأمرها المستمر مع أعداء الاسلام وفي خيانة المسلمين في أخرج الأوقات، وأحلك الظروف، لقد اكتوت الأمة بشرور تلك الفرق عندما ضعفت عقيدة أهل السنة في كيان الدولة القائمة عليها وفي نفوس رعاياها من أهل السنة.

سادساً: غياب القيادة الربانية:

إن القيادة الربانية من أسباب نهوض الأمة والتمكين لها، لأن قادة الأمة هم عصب حياتها، وبمنزلة الرأس من جسدها، فإذا صلح القادة صلحت الأمة، وإذا فسد القادة صار هذا الفساد الى الأمة، ولقد فطن أعداء الاسلام لأهمية القيادة الربانية في حياة الأمة ولذلك حرصوا كل الحرص على ألا يمكنوا القيادات الربانية من امتلاك نواصي الأمور وأزمة الحكم في الأمة الاسلامية ففي خطة لويس التاسع أوصى بـ(عدم تمكين البلاد الاسلامية والعربية من أن يقوم بها حاكم صالح) كما أوصى بـ(العمل على إفساد أنظمة الحكم في البلاد الاسلامية بالرشوة، والفساد، والنساء، حتى

(1) انظر: عقيدة ختم النبوة، د. عثمان عبدالمنعم، ص 209.

(2) انظر: عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية، د. أحمد حمدن، ص 255.

تتفصل القاعدة عن القمة(1).

وصرح القائد المستشرق البريطاني (مونتجو مري وات) في (جريدة التايمز اللندنية) قائلاً: (إذا وجد القائد المناسب الذي يتكلم الكلام المناسب عن الاسلام، فإن من الممكن لهذا الدين أن يظهر كإحدى القوى السياسية العظمى في العالم مرة أخرى)(2).

وقال المستشرق الصهيوني (برنارد لويس) تحت عنوان (عودة الاسلام) في دراسة نشرها عام 1976م: (إن غياب القيادة العصرية المثقفة: القيادة التي تخدم الاسلام بما يقتضيه العصر من علم وتنظيم ، إن غياب هذه القيادة قد قيدت حركة الاسلام كقوة منتصرة ، ومنع غياب هذه القيادات الحركات الاسلامية من أن تكون منافساً خطيراً على السلطة في العالم الاسلامي، لكن هذه الحركات يمكن أن تتحول الى قوى سياسية هائلة إذا تهيأ لها هذا النوع من القيادة)(3).

إن الباحث في الدولة العثمانية يجد أن القيادة الربانية كانت موجودة في عصورها المتقدمة وخصوصاً عند فتح القسطنطينية فوجد القادة الربانيين في المجال الجهادي والمجال المدني ونلاحظ الصفات المشتركة بينهم، كسلامة المعتقد، والعلم الشرعي، والثقة بالله ، والقُدوة، والصدق والكفاءة، والشجاعة، والمروءة، والزهد، وحب التضحية، وحسن الاختيار للمعاونين، والتواضع وقبول التضحية، والحلم والصبر ، وعلو الهمة، والتميز بخفة الروح والدعابة، والحزم والإرادة القوية، والعدل والاحترام المتبادل ، والقدرة على حل المشكلات، والقدرة على التعليم وإعداد القادة، وغير ذلك من الصفات.

لقد قاد محمد الفاتح الأمة في زمنه قيادة ربانية، وقد جرى الايمان في قلبه وعروقه، وانعكست ثماره على جوارحه، وتفجرت صفات التقوى في أعماله وسكناته وأحواله، وانتقل بدولته وشعبه نحو

(1) انظر: قادة الغرب يقولون ، جلال العالم ، ص 63.

(2) المصدر السابق نفسه ، ص 25.

(3) انظر : التمكين للأمة الاسلامية ، ص 185.

الأهداف المرسومة بخطوات ثابتة وكان العلماء الربانيون هم قلب القيادة في الدولة وعقلها المفكر، ولذلك سارت الأمة والدولة العثمانية على بصيرة وهدى وعلم (1) وأما في العصور المتأخرة يجد الباحث أنحرافاً خطيراً في القيادة العثمانية على المستوى العسكري والعلمي، فمثلاً وصل إلى الصدارة العظمى مدحت باشا الماسوني، ووالى ولاية مصر محمد علي باشا العلماء والفقهاء وإن المرء ليعجب من اختيار العلماء لرجل مثل (محمد علي باشا) ليتولى أمورهم، وإصرارهم عليه في تولي الحكم، أما كان أحدهم أولى به من عسكري جاهل مغرور ويبدو إن العلماء فقدوا ثقتهم في علمهم وتهيّبوا النزول إلى الميدان، وتحمل المسؤوليات العظام؛ لأنهم قد ألفوا الركون إلى حلقات العلم وتأليف الكتب، ولم يعودوا قادرين على القيام بغير ذلك من مهمات ومسؤوليات؟

ومن الأمور المحزنة التي كانت تقع بين العلماء حدوث المنافسات والضغائن بينهم واستعانة بعضهم بالحكام واستعداد السلطة عليهم، ومتى ما حدث ذلك فإنها تسنح الفرصة للطغاة لإنزال ضرباتهم الموجعة لتقويض صف العلماء كالخلاف الذي وقع بين الشيخ (عبدالله الشرقاوي) شيخ الأزهر، وبين بعض المشايخ الآخرين حيث ترتب على ذلك الخلاف صدور الأمر من محمد علي باشا إلى الشيخ الشرقاوي بلزوم داره وعدم الخروج منها ولا حتى إلى صلاة الجمعة، وسبب ذلك كما يقول الجبرتي: (أمور وضغائن ومنافسات بينه وبين إخوانه ... فأغروا به الباشا ففعل به ما ذكر فامتثل الأمر ولم يجد ناصراً وأهمل أمره) (2).

ويصف الشيخ مصطفى صبري حال العلماء الذين ابتعدوا عن أمور الحكم ونصح الحكام، وماهي نظرة العلمانيين للعلماء فقال: (والذين جردوا الدين في ديارنا عن السياسة كانوا هم وإخوانهم لا يرون الاشتغال بالسياسة لعلماء الدين، بحجة أنه لا ينبغي لهم وينقص من كرامتهم، ومرادهم حكر السياسة وحصرها لأنفسهم، ومخادعة العلماء بتزليلهم منزلة العجزة، فيقبلون

(1) انظر: فقه التمكين في القرآن الكريم لعلي الصلابي، ص 328.

(2) انظر: عجائب الآثار (134/3).

أيديهم، ويخيلون لهم بذلك أنهم محترمون عندهم، ثم يفعلون مايشاؤون لدين الناس ودنياهم، محررين عن احتمال أن يجيء من العلماء أمر بمعروف أو نهى عن منكر، إلا ما بعد من فضول اللسان، أو مايكمن في القلب، وذلك أضعف الإيمان.

فالعلماء المعتزلون عن السياسة ، كأنهم تواطئوا مع كل الساسة، صالحهم وظالمهم، على أن يكون الأمر بأيديهم ويكون لهم منهم رواتب الإنعام والاحترام، كالخليفة المتنازل عن السلطة وعن كل نفوذ سياسي (...)(1).

لقد أخذ العلماء في أواخر الدولة العثمانية الى الأرض واتبعوا أهواءهم، وضعفوا عن القيام بواجباتهم، فكانوا بذلك قدوة سيئة للجماهير التي ترمقهم وترقيهم عن قرب ولقد غرق الكثير منهم في متاع الدنيا وأترفوا فيها، وكملت أفواههم بدون سيف أو سوط ولكن بإغداق العطايا عليهم من قبل الباشوات والحكام، ووضعهم في المناصب العالية ذات المرتبات الجزيلة والمزايا العظيمة التي تكون كفيلة بإسكات أصواتهم وكبح ثورتهم واعتراضهم(2).

(لقد كان علماء الدين دائماً في تاريخ هذه الأمة هم قادتها وموجهيها، وهم ملجأها كذلك إذا حزبهم أمر ، وملاذها عند الفزع.. تتجهم إليهم لتتلقى علم الدين منهم، وتتجه إليهم ليشيروا عليها في أمورها الهامة، وتتجه إليهم إذا وقع عليهم ظلم من الحكام والولاة ليسعوا الى رفع الظلم عنهم ، بتذكير أولئك الحكام والولاة بربهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر... وكان العلماء يضطهدون من قبل ذوي السلطان أحياناً، ويلقون في السجون أحياناً، ويؤذون في ابدانهم وأموالهم وكراماتهم أحياناً ولكنهم يصمدون لهذا كان ، تقديراً لمسئلياتهم أمام الله....

وكما كان العلماء هم قادة الأمة ومرشديها في الأمور السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والروحية، وكانوا كذلك دعائها الى الجهاد كلما حدث على الأمة عدوان .. يذكرونها بالله

(1) انظر: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر (84/2).

(2) انظر: الانحرافات العقديّة والعلمية (605/1).

واليوم الآخر، وبالجنة التي تنتظر المجاهدين الصادقين، وكانوا يشاركون في الجهاد بأنفسهم، بل يقودون الجيوش بأنفسهم في بعض الأحيان.

تلك كانت مهمة علماء الدين ، والدين حي في النفوس ... وفي التاريخ نماذج عديدة لعلماء أرضوا ربهم وأدوا أمانتهم وجاهدوا في الله حق جهاده، وصبروا على ما أصابهم في سبيل الله فما ضعفوا وما استكانوا .. فأين كان العلماء في تلك الفترة التي نحن بصددنا من التاريخ؟

هل كانوا في مكان القيادة الذين عهدتهم الأمة فيه الى عهد ليس ببعيد...؟

هل كانوا حماة الأمة من العدوان؟ وحماها من الظلم الواقع عليهم من ذوي السلطان؟

هل كانوا هم الذين يطالبون للأمة بحقوقها السياسية وحقوقها الاجتماعية وحقوقها الاقتصادية؟

هل كانوا هم الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقومون الى الامام الجائر

فيأمرونه وينهونه، قتلهم أم لم يقتلهم؟

أم كان كثير منهم قد استعبدوا أنفسهم للسلطان، ومشوا في ركابه ، يتملقونه ويباركون مظلومة

فيمدونه في الغي، بينما البقية الصالحة منهم قد قبعت في بيوتها ، أو أنزوت في الدرس والكتاب

، تحسب أن مهمتها قد أنتهت إذا لقت الناس العلم.. وما تريد أن نظلمهم فقد كان منهم -ولاشك-

من صدع بكلمة الحق، ومنهم من ألقى بالمنصب تحت قدميه حين أحس أنه يستعبده لأولي

السلطان أو يلجمه عن كلمة الحق.. ولكنهم قلة قليلة بين الكثرة الغالية التي راحت تلهث وراء

المتاع الأراضى، أو تقبع داخل الدرس والكتاب، على ما فيها من جوانب القصور..(1).

وكان من الطبيعي أن تصاب العلوم الدينية في هذه الفترة بالجمود والتحجر نتيجة لعدة عوامل

أعطت اثرها عبر القرون المتوالية، ومن هذه العوامل:

1- الاهتمام بالمختصرات:

قام بعض العلماء باختصار المؤلفات الطويلة بغية تسهيل حفظها لطلبة العلم، حيث غدا

(1) انظر: واقعنا المعاصر ، ص327.

الحفظ هو الغاية عند العلماء والطلاب حيث ضعفت ملكة الفهم والاستنباط عندهم: (فأصبح الفقهاء ينقلون أقوال من قبلهم، ويختصرون مؤلفاتهم في متون موجزة، ويأخذون هذه الأقوال مجردة عن أدلتها من الكتاب والسنة، مكتفين بنسبتها الى أصحابها)(1).

يقول الشيخ عبدالحميد بن باديس ناقداً للطريقة في تدريس الفقه: (واقصرنا على قراءة الفروع الفقهية مجردة بلا نظر، جافة بلا حكمة، وراء أسوار من الألفاظ المختصرة تقني الأعمار قبل الوصول إليها)(2).

ويذكر الإمام الشوكاني اهتمام الناس في عصره بهذه المختصرات والخطورة التي تنطوي على ذلك فيقول: (قد جعلوا غاية مطالبهم ونهاية مقاصدهم العلم بمختصر من مختصرات الفقه التي هي مشتتة على ما هو من علم الرأي والرواية والرأي أغلب، ولم يرفعوا الى غير ذلك رأساً من جميع أنواع العلوم ، فصاروا جاهلين بالكتاب والسنة وعلمهما جهلاً شديداً ، لأنه تقرر عندهم أن حكم الشريعة منحصر في ذلك المختصر، وأن ما عداه فضلة أو فضول ، فاشتد شغفهم به وتكالبهم عليه، ورجبوا عما عداه، وزهدوا فيه زهداً شديداً)(3).

2- الشروح والحواشي والتقارير:

يقول الشوكاني -رحمه الله- الذي دَرَسَ وَدَرَسَ الكثير من هذه الشروح والحواشي في مختلف العلوم الدينية واللغوية منتقداً لها: (مع أن فيها جميعاً ما لا تدعوا إليه الحاجة بل غالبها كذلك ولاسيما تلك التدقيقات التي في شروحها وحواشيها فإنها عن علم الكتاب والسنة بمعزل)(4). لقد كانت المؤلفات على كثرتها من شروح وحواشي وغير ذلك من الأغلال التي كبلت العقول

(1) انظر : المجتمع الاسلامي المعاصر، ص56.

(2) انظر: ابن باديس حياته وآثاره (108/1).

(3) انظر: أدب الطلب، ص59.

(4) انظر: البدر الطالع بمحاسن مابعد القرن السابع (86/1).

وأدت الى جمود العلوم عبر قرون عديدة وكانت توجد بعض الحواشي والشروح المفيدة، ولكنها لاتكاد تذكر، وكانت مناهج التعليم في تلك الفترة بعيدة كل البعد عن منهج أهل السنة والجماعة وكانت المعاهد الاسلامية كلها تقريباً بعيدة عن ذلك المنهج الاسلامي الأصيل.

فالأزهر مثلاً وهو المعهد الاسلامي الكبير والجامعة العتيقة كان مركزاً لعلوم المتكلمين البعيدة عن روح الاسلام ومبادئه يقول أحد الدارسين في الأزهر عن علم الكلام:

(ومن العلوم التي لم أنتفع بدراستها في الأزهر على الإطلاق علم الكلام، فقد درسته بالأزهر عدة سنوات، ولكني لم أعرف منه شيئاً عن الله ذا بال، وإنما انغمست في اصطلاحات زادت تفكيري غموضاً واضطراباً حتى تمنيت إيمان العوام...)(1).

لقد أصاب المناهج الاسلامية في تلك الفترة بالاضافة الى الجمود موجة من الجفاف حيث: (أن العصور المتأخرة بعدت بعداً كبيراً عن روح الاسلام واهتمت بالجسم والمادة حتى أصبحت الدراسات الاسلامية دراسة لا حياة فيها ولا روح، وجرت عدوى هذه الدراسات الى جميع أبواب الفقه حتى الأبواب التي كانت يجب أن تكون دراسة الروح أهم عنصر فيها...)(2).

3- الإجازات:

من عوامل تدهور الحياة العلمية في تلك الفترة التساهل في منح الإجازات ؛ فكانت تعطى في العصر المتأخر للدولة العثمانية جزافاً، إذ كان يكفي أن يقرأ الطالب أوائل كتاب أو كتابين مما يدرسه الأستاذ حتى ينال إجازة بجميع مروياته، وكثير ما أعطيت لمن طلبوها من أهل البلاد القاصية عن طريق المراسلة. فكان العالم في القاهرة يبعث الى طالب في مكة بالإجازة دون أن يراه أو يختبره(3).

(1) انظر: الانحرافات العقديّة والعلمية (42،43/2).

(2) انظر: المجتمع الاسلامي المعاصر ، ص210.

(3) انظر : الانحرافات العقديّة والعلمية (59/2).

فكانت ذلك التساهل من الأمور التي شغلت المسلمين عن تحصيل العلوم كما كان ينبغي، وهكذا كان التساهل في منح الإجازات عاملاً مهماً من عوامل انحدار المستوى التعليمي، وضعف العلوم الشرعية، حيث أضحي الهدف عند كثير من المنتسبين الى العلم، حيازة أكبر عدد من هذه الإجازات الصورية التي لم يكن لها في كثير من الأحيان أي رصيد علمي في الواقع(1).

4- وراثة المنصب العلمي:

أصبحت المناصب العلمية في أواخر الدولة العثمانية بالوراثة في الأمور العلمية المهمة كالتدريس والفتوى والإمامة وحتى القضاء، فقد صارت تلك المناصب تورث بموت من كانوا يتولونها، تماماً كما تورث الدور والضياع والأموال، فكثير ما كان يحدث ان يموت شيخ يدرس عليه، فلا يوارى في التراب حتى ينتقل منصبه وكرسیه الى ولده أو أخيه أو أحد أقاربه وقد يكون الوارث قليل الفهم مزجي البضاعة في العلم ولكن لابد للتصدر للإقراء والتدريس وعدم إخلاء الكرسي الذي قد يتربع عليه غريب عن أهل المتوفى حتى ولو كان جديراً بخلافته في منصبه الذي رحل عنه(2).

يقول المؤرخ التركي أحمد جودت المتوفى عام 1312هـ(3) متحدثاً عن تلك الظاهرة السيئة في الدولة العثمانية: (وصار أبناء الصدور والقضاة ينالون وظيفة التدريس وهم أحداث وأطفال، ويترقون لذلك في الوظائف ، حتى إن الواحد منهم لتأتيه نوبته في المولوية(4) وما طر شاربه ولا اخضر عذاره. وكان ينال التدريس أيضاً كل ذي وجاهة واعتبار حتى صارت المراتب والمناصب العلمية تؤخذ بالارث، فسهل على الوزراء ورجال الدولة تقليدها لأبنائهم وغيرهم، فازدحم عليها

(1) المصدر السابق نفسه (64/2).

(2) المصدر السابق نفسه (64/2).

(3) كان وزيراً في البلاط العثماني وكتب تاريخ جودت بالتركية في 12 مجلداً.

(4) المولوية : ثاني رتبة في القضاء العثماني بعد رتبة قاضي العسكر.

الغوغاء وصار الجهال يموج بعضهم في بعض، وألتبس الأمر وفسد أي فساد(1).

ويقول : (محمد كرد علي) في حديثه عن الأحوال العلمية في الشام وترديها في العصر العثماني: (وقد قويت في هذا العصر قاعدة خبر الأب للابن ، وكان المفتي (ابو السعود) من مشايخ الاسلام في الاستانة أول من ابتدعها وأخرجها للناس، فأصبح التدريس والتولية والخطابة والإمامة وغيرها من المسالك الدينية توسد الى الجهلة بدعوى أن آبائهم كانوا علماء، وهم يجب أن يرثوا وظائفهم ومناصبهم وإن كانوا جهلة كما ورثوا حوانيتهم وعقارهم وفرشهم وكتبهم، بل بلغت الحال بالدولة إذ ذاك أن كانت تولي القضاء الأميين، وكم من أمي غدا في (دمشق) و(حلب) و(القدس) و(بيروت) قاضي القضاة، أما في الأقاليم فربما كان الأميون أكثر من غيرهم...)(2).

لقد كانت لتلك العادة السيئة آثار وخيمة في انحدار مستوى التعليم ، وضعف الحياة العلمية عند المسلمين ، وذلك بتوارث تلك المناصب الدينية، وحكرها في أسر معينة وبالتالي أثرت تلك العادة في إيجاد علماء ربانيين متجردين لدين الله تعالى همهم احقاق العدل، ونصرة المظلوم، وإعزاز الدين.

سابعاً: رفض فتح باب الاجتهاد:

في أواخر الدولة العثمانية أصبحت الدعوى بفتح باب الاجتهاد تهمة كبيرة تصل الى الرمي بالكبائر، وتصل عند بعض المقلدين والجامدين الى حد الكفر، وكان من التهم التي وجهها خصوم الدعوة السلفية الى علمائها دعوى الاجتهاد، وكانت تهمة شديدة في ذلك الزمن مع أن أحد منهم لم يقل بذلك، وكانت الدعوة الى قفل باب الاجتهاد توارثها المتعصبون على مر العصور واصبح حرصهم في أواخر الدولة العثمانية ظاهراً وناقحوا من أجل عدم فتحه، ومقاومة كل من يحوم حوله مما شجع المتغربون بالسعي الدؤوب لاستيراد المبادئ والنظم من أوروبا ولقد ترتب على

(1) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (68/2).

(2) انظر: خطط الشام (70/3).

إغلاق باب الاجتهاد آثار خطيرة لاتزال أضرارها تتحرر في حياة المسلمين الى يومنا هذا.

(فحين يتوقف الاجتهاد مع وجود دواعيه ومتطلباته..فماذا يحدث؟

يحدث أحد أمرين : إما أن تجمد الحياة وتتوقف عن النمو، لأنها محكومة بقوالب لم تعد تلائمها. وإما أن تخرج على القوالب المصنوبة، وتخرج في ذات الوقت من ظل الشريعة، لأن هذا الظلم لم يمد بالاجتهاد حتى يعطيها.

وقد حدث الأمران معاً ، الواحد تلو الآخر .. الجمود أولاً ثم الخروج بعد ذلك من دائرة

الشريعة(1).

لقد عانت الأمة من قفل باب الاجتهاد وكانت الدولة العثمانية في أواخر عهدها لم تعطي هذا الباب حقه وكانت عجلة الحياة أسرع وأقوى من الجامدين والمقلدين الذين ردوا كل جديد، وخرج الأمر من أيديهم : (وهكذا توقفت الحركة العقلية عند المسلمين إزاء كل جديد تلده الحياة، والحياة ولود لا تتوقف عن الولادة أبداً، فهي تلد كل يوم جديداً لم تكن تعرفه الإنسانية من قبل... وكان من هذا أن مضى الناس -من غير المسلمين- يواجهون كل جديد، ويتعاملون معه، ويستولدون منه جديداً .. وهكذا سار الناس -من غير المسلمين- قدماً في الحياة ووقف المسلمون حيث هم لا يبرحون مكانهم الذي كان عليه الآباء والأجداد من بضعة قرون(2). واستمر التعصب المذهبي في إضعاف المستوى التعليمي ، وانحدار العلوم وجمودها وتكبير العقول والأفهام والحجر عليها. بالإضافة الى ماتسبب فيه من تفريق كلمة المسلمين وإفساد ذات بينهم، وزرع العداة والشقاق بين أفرادهم وجماعاتهم، وبعد أن تحزبوا طوائف وجماعات، كل طائفة تتاصر مذهبها، وتعادي غيرها من أجله، وفي تلك الفترة تفاقم هذا التعصب وعم الاقطار الاسلامية ولم يسلم منه قطر ولا مصر؛ فالجامع الأزهر كان ميداناً رحباً للصراعات المذهبية خصوصاً بين الشوافع والأحناف وذلك من

(1) انظر: واقعنا المعاصر ، ص159.

(2) انظر: سد باب الاجتهاد وماترتب عليه ، د. عبدالكريم الخطيب، ص144.

أجل التنافس الشديد على مشيخة الأزهر (1).

إن العصبية المذهبية أوجدت حواجز كثيفة بين المسلمين في القرون الأخيرة، فأضعفت شعورهم بوحدتهم الإسلامية اجتماعياً وسياسياً ، وأروت فيما بينهم من العداوات ما شغلهم عن أعداء الإسلام على اختلاف أنواعهم، وعن الأخطار المحدقة بالمسلمين والإسلام... (2).

لقد كان التعصب المذهبي منحرفاً عن منهج الله تعالى وزاد هذا الانحراف عمقاً في حجر العقول ، وجمود العلوم، وتفتيت الصف الإسلامي مما كان له أعظم الأثر في ضعف الدولة العثمانية وانحطاطها، وانشغالها بمشاكلها الداخلية في الوقت التي كانت المؤمرات قد احاطت بها وشرع الصليبيون في الأجهاز على الرجل المريض.

ثامناً: انتشار الظلم في الدولة:

إن الظلم في الدولة كالمرض في الإنسان يعجل في موته بعد أن يقضي المدة المقدره له وهو مريض، وبانتهاء هذه المدة يحين أجل موته، فكذلك الظلم في الأمة والدولة يعجل في هلاكها بما يحدثه فيها من آثار مدمرة تؤدي الى هلاكها واضمحلالها خلال مدة معينة يعلمها الله هي الأجل المقدر لها ، أي الذي قدره الله لهما بموجب سنته العامة التي وضعها لأجال الأمم بناء على ما يكون فيها من عوامل البقاء كالعدل، أو من عوامل الهلاك كالظلم التي يظهر أثرها وهو هلاكها بعد مضي مدة محددة يعلمها الله (3). قال تعالى: {ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون} (سورة الأعراف: آية 34). قال الألوسي في تفسيره لهذه الآية: {ولكل أمة أجل}. أي ولكل أمة من الأمم الهالكة أجل، أي : وقت معين مضروب لاستئصالهم (4). ولكن

(1) انظر: عجائب الآثار (242/2).

(2) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (86/2).

(3) انظر: السنن الإلهية ، د. عبدالكريم زيدان ، ص121.

(4) انظر : تفسير الألوسي (112/8).

هلاک الأمم وإن کان شیئاً مؤكداً ولكن وقت حلوله مجهول لنا، أي أننا نعلم يقيناً أن الأمة الظالمة تهلك حتماً بسبب ظلمها حسب سنة الله تعالى في الظلم والظالمين، ولكننا لا نعرف وقت هلاكها بالضبط، فلا يمكن لأحد أن يحدد الأيام ولا بالسنين، وهو محدد عند الله تعالى (1).

إن سنة الله مطردة في هلاك الأمم الظالمة، قال تعالى: {ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد} وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادهم غير تنبيب وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد} (سورة هود: الآيات 100-102).

إن الآية الكريمة تبين أن عذاب الله ليس مقتصر على من تقدم من الأمم الظالمة، بل إن سنته تعالى في أخذ كل الظالمين سنة واحدة فلا ينبغي أن يظن أحد أن هذا الهلاك قاصرٌ بأولئك الظلمة السابقين، لأن الله تعالى لما حكى أحوالهم قال: {كذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة}. فبين الله تعالى أن كل من شارك أولئك المتقدمين في أفعالهم التي أدت إلى هلاكهم فلا بد أن يشاركهم في ذلك الأخذ الأليم الشديد؛ فالآية تحذر من وخامة الظلم إن الدولة الكافرة قد تكون عادلة بمعنى أن حكامها لا يظلمون الناس والناس أنفسهم لا يتظالمون فيما بينهم، فهذه الدولة مع كفرها تبقى، إذ ليس من سنته تعالى إهلاك الدولة بكفرها فقط، ولكن إذا انضم إلى كفرها ظلم حكامها للرعية وتظالم الناس فيما بينهم (2). قال تعالى: {وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون} (سورة هود: آية 117).

قال الإمام الرازي في تفسيره: (إن المراد من الظلم في هذه الآية الشرك. والمعنى أن الله تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين، إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم يعامل

(1) انظر: السنن الإلهية، ص 121.

(2) انظر: السنن الإلهية، ص 122.

بعضهم بعضاً على الصلاح، وعدم الفساد(1).

وفي تفسير القرطبي قوله تعالى: {بظلم} أي: بشرك وكفر {وأهلها مصلحون} أي: فيما بينهم في تعاطي الحقوق، ومعنى الآية: إن الله تعالى لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان وقوم لوط باللواط(2).

قال ابن تيمية في هلاك الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة: (وأمر الناس إنما تستقيم مع العدل الذي يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق، وإن لم تشترك في إثم، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة، ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولاتدوم مع الظلم والاسلام. وذلك أن العدل نظام كل شيء فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت، وإن لم تقم بالعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزي به في الآخرة(3).

لقد قام بعض الباشوات بأفعال قبيحة وسفكوا الدماء واغتصبوا الأموال؛ فهذا إبراهيم باشا المعروف بدالي أحد وزراء السلطان مراد الثالث وكان أمير الأمراء في ديار بكر بأسرها؛ ففتك فيها وظلم أهلها وأظهر من أنواع الظلم أشياء مستكرهة جداً، منها الاعتداء على الأعراض، ونهب الأموال، وفعل الأفاعيل العظيمة ولما وصل الأمر للسلطان وعقد مجلس القضاء وهاب الناس أن يشهد عليه ولم يستطع القاضي أن يدقق في الدعوة لأن أخته كانت عند السلطان مراد مقبولة جداً، وانصرف خصماًؤه، وقرره السلطان في ديار بكر فذهب إليها ناوياً على إهلاك كل من اشتكى عليه، وأهلك منهم خلقاً تحت العذاب ووصل الأمر إلى أن ثار عليه أهل البلد وقاموا عليه قومة رجل واحد فتحصن في القلعة وصار يقذف القذائف بالمدافع على أهل المدينة حتى قتل

(1) انظر: تفسير الرازي (16/18).

(2) انظر: تفسير القرطبي (114/9).

(3) انظر: رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن تيمية، ص 40.

منهم خلقاً كثيراً(1).

وما قام به الباشا محمد علي من ظلم أهل مصر وأهل الشام، والحجاز معروف وقد ذكرناه في هذا الكتاب، وقد أشد ظلم الاتراك للعرب، والاكراد، والألبان مع مجيء الاتحاد والترقي للحكم، بل قامت تلك العصابة بظلم الناس في داخل تركيا وخارجها وقد ذكرنا ما تعرض له السلطان عبدالحميد الثاني من ظلمهم، وعسفهم، وجورهم؛ فجرت فيهم سنة الله التي لا تتبدل ولا تتغير ولا تجامل، فانقم من الظالمين وجعل بأسهم فيما بينهم وزالت دولة الخلافة العثمانية من الوجود.

تاسعاً: الترف والانغماس في الشهوات:

قال تعالى: ﴿فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين﴾ (سورة هود: آية 116). وقوله تعالى: ﴿واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه﴾. أراد بالذين ظلموا: تاركي النهي عن المنكرات، أي لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإنما اهتموا بالمتع والترف والانغماس في الشهوات والتطلع الى الزعامة والحفاظ عليها والسعي لها وطلب أسباب العيش الهنيء(2).

وقد مضت سنة الله في المترفين الذين ابطرتهم النعمة وابتعدوا عن شرع الله تعالى بالهلاك والعذاب.

قال تعالى: ﴿وكم قصمنا من قرية كان ظلمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين﴾ & فلما أحسوا بأسنا إذا هم يركضون & لا تركضوا وارجعوا الى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون}.
ومن سنة الله تعالى جعل هلاك الأمة بفسق مترفيها، قال تعالى: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً﴾ (سورة الاسراء: آية 16).

(1) انظر: المختار المصون من أعلام القرون (916،917/2).
(2) انظر: السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد ، ص186.

وجاء في تفسيرها: (وإذا دنا وقت هلاكها أمرنا بالطاعة مترفياً أي متنعماً وجبارياً وملوكها ففسقوا فيها، فحق عليها القول فأهلكناها. وإنما خص الله تعالى المترفين بالذكر مع توجه الأمر بالطاعة الى الجميع؛ لأنهم أئمة الفسق ورؤساء الضلال، وما وقع من سوءهم إنما وقع باتباعهم وإغوائهم ، فكان توجه الأمر إليهم أكد)(1).

وحدث في زمن السلطان محمد بن إبراهيم : (زينت دار الخلافة ثلاثة أيام وكان السلطان محمد إذ ذاك ببلدة سلستره بروم ايلي فكتب الى قائم مقام الوزير بالقسطنطينية عبدي باشا النيشاني أنه يريد القدوم الى دار المملكة وأنه لم يتفق له رؤية زينة بها مدة عمره وأمره بالنداء لتهيئة زينة اخرى إذا قدم فوق النداء قبل قدوم السلطان باربعين يوماً وتهيأ الناس للزينة ثم قدم السلطان فشرعوا في التزيين وبذلوا جهدهم في التأنيق فيها وانتفق أهل العصر على أنه لم يقع مثل هذه الزينة في دور من الأدوار، وكنت الفقير إذ ذاك بقسطنطينية وشاهدتها ولم يبق شيء من دواعي الطرب إلا صرفت إليه الهمم ووجهت إليه البواعث، واستغرقت الناس في اللذة والسرور، واستوعب جميع آلات النشاط والحبور، وفشت المناهي وعلمت العقلاء أن هذا الأمر كان غلطاً وأن ارتكابه كان جرم عظيم، وما أحسب ذلك إلا نهاية السلطنة وخاتمة كتاب السعادة والميمنة، ثم طراً الانحطاط وشوهد النقصان وتبدل الريح بعدها بالخسران...)(2).

وفي سنة تسعين وتسعمائة للهجرة احتفل السلطان مراد بن سليم الثاني بختان ولده السلطان محمد وضع لذلك فرحاً لم يقع في زمن أحد من الخلفاء والملوك وامتدت الولائم والفرحة واللهو والطرب مدة خمسة وأربعين يوماً وجلس للفرجة في دار إبراهيم باشا بمحلة آت ميدان وأغدق النعم العظيمة ورأيت في تاريخ الكبرى أنه جعل صواني صغاراً من ذهب وفضة وملاً الذهب بالفضة

(1) انظر: تفسير الألوسي (42/15).

(2) انظر: المختار المصون من أعلام القرون (1163، 1164/2).

والفضة بالذهب وألقى في ذلك لأرباب الملاهي وغيرهم من طالبي الإحسان (1).

وهذا انحراف خطير عن المنهج الذي سارت عليه الدولة في زمن قوتها وصولتها وتمكينها وكانت من وصايا محمد الفاتح لولي عهده (واحرص اموال بيت المال من أن تتبدد)، (ولا تصرف أموال الدولة في ترف أو لهو وأكثر من قدر اللزوم؛ فإن ذلك من أعظم أسباب الهلاك)، فكان من الطبيعي بعد هذا الانحراف الخطير والأنغماس في الترف واللهو والشهوات أن تزول الدولة بعد ضياع مقومات بقائها.

عاشراً: الاختلاف والفرقة:

إن سنة الله تعالى ماضية في الأمم والشعوب لا تتبدل ولا تتغير ولا تجامل ، وجعل الله سبحانه وتعالى من اسباب هلاك الأمم الاختلاف وقال p: (فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا) وفي رواية (فأهلكوا) (2).

وعند ابن حبان والحاكم عن ابن مسعود : فإنما أهلك من كان قبلكم الاختلاف (3).
قال ابن حجر العسقلاني: وفي الحديث والذي قبله الحض على الجماعة والألفة والتحذير من الفرقة والاختلاف (4).

وقال ابن تيمية -رحمه الله- : (وأمرنا الله تعالى بالاجتماع والائتلاف ونهانا عن التفرق والاختلاف) (5).

والاختلاف المهلك للأمة هو الاختلاف المذموم، وهو الذي يؤدي الى تفريقها وتشتتها وانعدام

(1) المصدر السابق نفسه (1154، 1155/2).

(2) انظر: صحيح البخاري بشرح العسقلاني (101، 102/9).

(3) المصدر السابق نفسه (102/9).

(4) المصدر السابق نفسه (102/9).

(5) انظر: مجموع الفتاوى (116/19).

التناصر فيما بين المختلفين كل طرق يعتقد ببطلان ما عند الطرف الآخر، وقد يؤول الأمر الى استباحة قتال بعضهم بعضاً(1).

(وإنما كان الاختلاف علة لهلاك الأمة كما جاء في حديث رسول الله ρ ، لأن الاختلاف المذموم الذي ذكرنا بعض أوصافه يجعل الأمة فرقة شتى مما يضعف الأمة، لأن قوتها وهي مجتمعة أكبر من قوتها وهي متفرقة، وهذا الضعف العام الذي يصيب الأمة بمجموعها يجزئ العدو عليها فيطمع فيهاجمها، ويحتل أراضيها ويستولي عليها ويستعبدتها ويمسح شخصيتها وفي ذلك انقراضها وهلاكها(2).

إن من الدروس المهمة في هذه الدراسة التاريخية أن توقي الهلاك بتوقي الاختلاف المذموم، لأن الاختلاف كان سبباً من الأسباب في ضياع الدولة العثمانية وهلاكها واندثارها. وإن من أخطر مانعاني منه الآن الخلاف في صفوف الإسلاميين القائمين بواجب الدعوة الى الله تعالى، وهذا الخلاف يؤدي الى ضعف الأمة إذا لم تأخذ بسبل الوقاية منه.

يقول الشيخ عبدالكريم زيدان:(والاختلاف كما يضعف الأمة ويهلكها يضعف الجماعة المسلمة التي تنهض بواجب الدعوة الى الله ثم يهلكها ولهذا كان شر ماتبتلى به الجماعة المسلمة وقوع الاختلاف المذموم فيما بينها بحيث يجعلها فرقة شتى، بحيث ترى كل فرقة أنها على حق وصواب وأن غيرها على خطأ وضلال، وتعتقد كل فرقة أنها هي التي تعلم لمصلحة الدعوة . وهيئات أن تكون الفرقة والتشتت والاختلاف المذموم في مصلحة الدعوة أو أن مصلحة الدعوة تأتي عن طريق التفريق، ولكن الشيطان هو الذي يزين الفرقة والتفريق في أعين المتفرقين المختلفين فيجعلهم يعتقدون أن اختلافهم وتفرقهم في مصلحة الدعوة.

والاختلاف في الجماعة لا يقف تأثيره عند حد إضعاف الجماعة وإنما يضعف تأثيرها في

(1) انظر: السنن الإلهية ، ص139.

(2) المصدر السابق نفسه، ص139.

الناس، وتجعل المعرضين ينفثون باطلهم في الناس ويقولون: جماعة سوء تأمر الناس بأحكام الاسلام، والاسلام يدعو الى الألفة والاجتماع وينهى عن الاختلاف، وهي تخالفه إذ هي متفرقة مختلفة فيما بينها، كل فرقة تغيب الأخرى وتدعي أنها وحدها على الحق. ثم يؤول الأمر الى انحسار تأثير الجماعة في المجتمع ثم اضمحلالها واندثارها وقيام جماعات جديدة مكانها هي فرق المنفصلين عنها، ووقائع التاريخ البعيد والقريب تؤيد ما نقول(1).

لقد ابتليت الدولة العثمانية خصوصاً في أواخر عهدها بالاختلاف والتفريق بين الزعماء والسلطين ، فقد حاول بعض الحكام المحليين الاستقلال الذاتي عن الحكومة المركزية بإطالة فترة حكمهم ومحاولة تأسيس أسر محلية (الممليك في العراق، آل العظم في سوريا، المعنيون والشهابيون في لبنان، ومحمد علي في مصر، ظاهر العمر في فلسطين، أحمد الجزار في عكا، علي بك الكبير في مصر، القرامليون في ليبيا)(2) وهذا الصراع بين الحكام المحليين والدولة العثمانية ساهم في اضعافها ثم زوالها وسقوطها ولقد ذكر بعض المؤرخين أسباب السقوط وحدث لهم تخليط بين الأسباب في السقوط وبين الآثار المترتبة عن الابتعاد عن شرع الله تعالى.

إن الحديث عن الضعف السياسي والحربي والاقتصادي والعلمي والاخلاقي والاجتماعي وكيفية القضاء على هذا الضعف والحديث عن الاستعمار والغزو الفكري والتنصير وكيفية مقاومتها لا يزيد عن محاولة القضاء على تلك الأعراض المزعجة، ولكن لا يمكنه أبداً أن ينهض بالأمة التي أصيبت بالخواء العقدي وما لم يتم محاربة الأسباب الحقيقية والقضاء عليها فإنه لا يمكن بحال من الأحوال القضاء على تلك الآثار الخطيرة.

إن الآثار كانت متشابكة ومتداخلة ، يؤثر كل منها في الآخر تأثيراً عكسياً، فالضعف السياسي مثلاً يؤثر في الضعف الاقتصادي، ويتأثر به ، وهكذا.

(1) انظر : السنن الإلهية ، ص141، 140.

(2) انظر: العالم العربي في التاريخ الحديث، د. اسماعيل ياغي، ص94.

إن كثيراً من المحاولات التي بذلت في العالم الإسلامي من أجل إعادة دولة الإسلام، وعزته وقوته ركزت على الآثار ولم تعالج الأسباب الحقيقية الذي كانت خلف ضياع الدولة العثمانية وضعف الأمة، وانحطاطها.

إن جهود النصارى، واليهود، والعلمانية ماكانت لتؤثر في الدولة العثمانية إلا بعد أن انحرقت عن شرع الله وفقدت شروط التمكين ، وأهملت أسبابه المادية والمعنوية قال تعالى: {لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ماكان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون} (سورة يوسف: آية 111).

نتائج البحث

تعرض التاريخ العثماني لحمات التشويه والتزوير والتشكيك من قبل اليهود والنصارى والعلمانيين.

سار مؤرخو العرب والأترك في ركب الاتجاه المعادي لفترة الخلافة العثمانية.

احتضنت القوى الأوروبية الاتجاه المناهض للخلافة الإسلامية وقامت بدعم المؤرخين في مصر والشام الى تأصيل الاطار القومي وتعميقه من أمثال البستاني واليازجي وجورج زيدان واديب اسحاق وسليم نقاش وشبلي شميل، وسلامة موسى، وغيرهم.

استطاعت المحافل الماسونية أن تهيمن على عقول زعماء التوجه القومي في داخل الشعوب الإسلامية، وخضع أولئك الزعماء لتوجيه المحافل الماسونية أكثر من خضوعهم لمطالب شعوبهم وبخاصة موقفها من الدين الإسلامي.

اعتمد المؤرخون الذين عملوا على تشوية الدولة العثمانية على تزوير الحقائق، والكذب والبهتان والتشكيك والدس ولقد غلبت على تلك الكتب والدراسات طابع الحقد الأعمى، والدوافع المنحرفة ،

قام مجموعة من علماء التاريخ العثماني من أبناء الأمة بالردود على تلك الاتهامات والدفاع عن الدولة العثمانية من أهمها وأبرزها تلك الكتابة التي قام بها الدكتور عبدالعزيز الشناوي في ثلاثة مجلدات ضخمة تحت عنوان الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، وما قدمه الدكتور محمد حرب من كتب مهمة مثل؛ العثمانيون في التاريخ والحضارة ، والسلطان محمد الفاتح فاتح القسطنطينية وقاهر الروم، وما كتبه الدكتور موفق بني المرجة، صحوة الرجل المريض.

ترجع أصول الأتراك الى منطقة ماوراء النهر والتي تسمى اليوم تركستان والتي تمتد من هضبة منغوليا وشمال الصين شرقاً الى بحر قزوين غرباً، ومن السهول السيبيرية شمالاً الى شبه القارة الهندية وفارس جنوباً ، استوطنت عشائر الغز وقبائلها الكبرى في تلك المناطق وعرفوا بالترك أو الأتراك.

دخل الأتراك في الإسلام في عام 22هـ في زمن عثمان بن عفان .

أصبحت قبائل الأتراك بعد دخولها في الإسلام ضمن رعايا الدولة الإسلامية وازداد عددهم في بلاط الخلفاء والأمراء العباسيين وشرعوا في تولي المناصب القيادية والإدارية في الدولة؛ فكان منهم الجند والقادة والكتّاب.

استطاع السلاجقة (وهم اترك) أن يقوموا بتأسيس دولة تركية كبرى ضمت خراسان وماوراء النهر وإيران والعراق وبلاد الشام وآسيا الصغرى.

ساند السلاجقة الخلافة العباسية في بغداد ونصروا مذهبها السني بعد أن أوشكت على الانهيار بين النفوذ البويهي الشيعي في إيران والعراق، والنفوذ العبيدي (الفاطمي) في مصر والشام ففضى السلاجقة على النفوذ البويهي تماماً وتصدوا للخلافة العبيدية (الفاطمية).

استطاع طغرل بك الزعيم السلجوقي أن يسقط الدولة البويهية في عام 447هـ في بغداد وأن يقضي على الفتن وأزال من على أبواب المساجد سب الصحابة، وقتل شيخ الروافض ابي عبدالله

تولى زعامة السلاجقة ألب أرسلان بعد وفاة عمه طغرل بك وكان قائداً ماهراً مقداماً، وهو الذي انتصر على جيوش امبراطور الروم في معركة ملاذكرد في عام 463هـ وكان ذلك الانتصار نقطة تحول في التاريخ الاسلامي لأنها سهلت على اضعاف نفوذ الروم في معظم أقاليم آسيا الصغرى، وهي المناطق المهمة التي كانت تركز عليها الامبراطورية البيزنطية.

تولى زعامة السلاجقة بعد ألب أرسلان ابنه ملكشاه واتسعت الدولة السلجوقية في عهده لتبلغ أقصى أمتداد لها من أفغانستان شرقاً الى آسيا الصغرى غرباً وبلاد الشام جنوباً.

يعتبر نظام الملك من أعظم وزراء السلاجقة ، واشتهر بضبطه لأمر الدولة وحبه للعلم والعلماء، وكثرة انفاقه، واعماله في الخير، وبناء المدارس لتعليم المسلمين.

تضافرت عوامل عديدة في سقوط سلطنة السلجوقية مهدت بدورها لسقوط الخلافة العباسية منها؛ الصراع داخل البيت السلجوقي، تدخل النساء في شؤون الحكم ، ضعف الخلفاء العباسيين، المكر الباطني الذي تمثل في اغتيال سلاطين السلاجقة وزعمائهم وقاداتهم.

قدمت دولة السلاجقة أعمال جليلة للاسلام منها؛ كان لهم دور في تأخير زوال الدولة العباسية، حوالي قرنين من الزمان، منعت الدولة العبيدية في مصر من تحقيق أغراضها التوسعية ، كانت جهود السلاجقة تمهيداً لتوحيد المشرق الاسلامي والذي تم على يد صلاح الدين الأيوبي تحت راية الخلافة العباسية السنية، قاموا بنشر العلم والأمن والاستقرار في الأقاليم التي تحت نفوذهم، وقفوا في وجه التحركات الصليبية من جانب الامبراطورية البيزنطية، وحاولوا صد خطر المغولي الى حد كبير، ورفعوا من شأن المذهب السني وعلمائه.

ينتسب العثمانيون الى قبيلة تركمانية كانت تعيش في كردستان، وتزاول حرفة الرعي.

هاجر سليمان جد عثمان في عام 617هـ مع قبيلته من كردستان الى بلاد الأناضول فأستقر في مدينة اخلاط في شرق تركيا حالياً.

تولى زعامة قبيلة سليمان بعد وفاته ابنه أرطغرل الذي واصل تحركه نحو الشمال الغربي من الأناضول، وفي طريقه وجد صراعاً مسلحاً بين السلاجقة المسلمين والروم النصارى، فأنضم الى المسلمين وكان تدخله في الوقت المناسب سبباً في تحقيق نصر السلاجقة.

اقتطع القائد الاسلامي السلجوقي اطغرل ومجموعته أرضاً من الحدود الغربية للأناضول بجوار الثغور في الروم، وأتاح لهم فرصة توسيعها على حساب الروم.

تولى عثمان الأول قيادة قومه بعد وفاة أبيه وسار على نهج سياسة أبيه السابقة في التوسع في اراضي الروم.

كان عثمان الأول يتميز بصفات رفيعة منها؛ الشجاعة، والحكمة، والاخلاص، والصبر، والجاذبية الإيمانية، والعدل، والوفاء، والتجرد لله في فتوحاته، وحبه للعلم والعلماء.

كانت حياة عثمان الأول مؤسس الدولة العثمانية، جهاداً ودعوة في سبيل الله وكان علماء الدين يحيطون به ويشرفون على التخطيط الإداري والتنفيذ الشرعي في الإمامة ولقد حفظ لنا التاريخ وصية عثمان لابنه أورخان وهو على فراش الموت وكانت تلك الوصية فيها دلالة حضارية ومنهجية شرعية سارت عليها الدولة العثمانية فيما بعد.

تولى السلطان أورخان الحكم بعد وفاة والده عام 726هـ وسار على نفس سياسة والده في الحكم والفتوحات، وحرص على تحقيق بشارة رسول الله ﷺ في فتح القسطنطينية ووضع خطة استراتيجية تستهدف الى محاصرة العاصمة البيزنطية من الغرب والشرق في آن واحد.

إن من أهم الأعمال التي ترتبط بحياة السلطان أورخان، تأسيسه للجيش الاسلامي، وحرصه على إدخال نظاماً خاصاً للجيش، فقام بتقسيم الجيش الى وحدات تتكون كل وحدة من عشرة أشخاص، أو مائة شخص، أو ألف شخص، وخصص خمس الغنائم للانفاق منها على الجيش، وجعله جيشاً دائماً بعد أن كان لا يجتمع إلا وقت الحرب، وأنشأ له مراكز خاصة يتم تدريبه فيها.

أهتم أورخان بتوطيد أركان دولته والى الأعمال الاصلاحية والعمرائية ونظم شؤون الادارة وقوى

الجيش وبنى المساجد وأنشأ المعاهد العلمية، وأشرف عليها خيرة العلماء والمعلمون وكانوا يحظون بقدر كبير من الاحترام في الدولة.

تولى الحكم بعد السلطان أورخان السلطان مراد الأول عام 761هـ وكان مراد الأول شجاعاً مجاهداً كريماً متديناً، وكان محباً للنظام متمسكاً به، عادلاً مع رعاياه وجنوده، شغوفاً بالغزوات وبناء المساجد والمدارس والملاجئ وكان بجانبه مجموعة من خيرة القادة والخبراء والعسكريين شكل منهم مجلساً لشورته، وتوسع في آسيا الصغرى وأوروبا في وقت واحد.

استطاع مراد الأول أن يفتح أدرنة في عام 762هـ واتخذ من هذه المدينة عاصمة للدولة العثمانية من عام 762هـ، وبذلك انتقلت العاصمة الى أوروبا، وأصبحت أدرنة عاصمة إسلامية. كان السلطان مراد الأول يعلم أنه يقاتل في سبيل الله وأن النصر من عنده ولذلك كان كثير الدعاء والإلحاح على الله والتضرع إليه والتوكل عليه ومن دعاه الخاشع نستدل على معرفة السلطان مراد لربه وتحقيقه لمعاني العبودية واستشهد في معركة قوصوة ضد الصرب. قاد السلطان مراد الشعب العثماني ثلاثين سنة بكل حكمة ومهارة لا يضاويه فيها أحد من ساسة عصره.

تولى بايزيد الحكم بعد أبيه مراد عام 791هـ وكان شجاعاً شهماً كريماً متحمساً للفتوحات الإسلامية، ولذلك أهتم اهتماماً كبيراً بالشؤون العسكرية واستهدف الإمارات المسيحية في الأناضول وخلال عام أصبحت تابعة للدولة العثمانية، وكان بايزيد مثل البرق في تحركاته بين الجبهتين البلقانية والأناضولية ولذلك أطلق عليه لقب (الصاعقة).

انهزم بايزيد أمام جيوش تيمورلنك بسبب اندفاعه وعجلته وعدم احسانه لاختيار المكان الذي نزل به جيشه.

تعرضت الدولة العثمانية لخطر داخلي ونشبت الحرب الأهلية في الدولة بين أبناء بايزيد على العرش واستمرت هذه الحرب عشر سنوات وكانت هذه المرحلة في تاريخ الدولة العثمانية مرحلة

اختبار وابتلاء سبقت التمكين الفعلي المتمثل في فتح القسطنطينية. استطاع السلطان محمد جلبي أن يقضي على الحرب الأهلية بسبب ما أوتي من الحزم والكياسة وبعد النظر وتغلب على أخوته واحداً واحداً حتى خلع له الأمر وتفرد بالسلطان وقضى سني حكمه العثماني في إعادة بناء الدولة وتوطيد أركانها ويعتبره بعض المؤرخين المؤسس الثاني للدولة العثمانية.

استطاع السلطان محمد جلبي أن يقضي على حركة الشيخ بدر الديني الذي كان يدعو إلى المساواة في الأموال، والأمتعة والأديان ولا يفرق بين مسلم وغير مسلم في العقيدة. كان السلطان محمد جلبي محباً للشعر والأدب والفنون وقيل هو أول سلطان عثماني أرسل الهدية السنوية إلى أمير مكة.

تولى أمر السلطنة مراد الثاني عام 824هـ بعد وفاة أبيه محمد جلبي وكان محباً للجهاد ، والدعوة إلى الإسلام، وكان شاعراً ومحباً للعلماء والشعراء.

تولى محمد الفاتح حكم الدولة العثمانية بعد وفاة والده في عام 855هـ وكان عمره آنذاك 22 سنة وقد تميز بشخصية فذة جمعت بين القوة والعدل، كما فاق أقرانه منذ حدثته في كثير من العلوم التي كان يتلقاها في مدرسة الأمراء وخاصة معرفته لكثير من لغات عصره وميله الشديد لدراسة كتب التاريخ.

كانت من أهم أعمال السلطان محمد الثاني فتحه للقسطنطينية وكان لذلك الفتح أثر عظيم على العالم الإسلامي والأوروبي وكان لفتح القسطنطينية أسباب مادية ومعنوية وشروط أخذ بها. حرص العثمانيون على تحكيم شرع الله وظهرت آثاره الدنيوية والأخروية على المجتمع العثماني منها؛ الاستخلاف والتمكين ، الأمن والاستقرار ، النصر والفتح، العز والشرف، انتشار الفضائل وانزواء الرذائل وغير ذلك من الآثار.

من أهم الصفات القيادية في شخصية محمد الفاتح، الحزم والشجاعة والذكاء، العزيمة

والإصرار، العدالة، عدم الاغترار بقوة النفس وكثرة الجند وسعة السلطان، الأخلص، العلم. من أعمال محمد الفاتح الحضارية؛ بناءه للمدارس والمعاهد، والعلماء والشعراء والأدباء والترجمة، والعمران والبناء والمستشفيات واهتمامه بالتجارة والصناعة، والتنظيمات الإدارية، والجيش والبحرية والعدل.

ترك محمد الفاتح وصية عبرت اصدق التعبير عن منهجه في الحياة، وقيمه ومبادئه التي آمن بها.

يعتبر الشيخان محمد بن حمزة المشهور ب (أق شمس الدين) ، وأحمد الكوراني من الشيوخ الذين كان لهم أثر على محمد الفاتح.

بعد وفاة السلطان محمد الفاتح تولى ابنه بايزيد الثاني (886هـ) وكان سلطاناً وديعاً ، نشأ محباً للأدب ، متفقهاً في علوم الشريعة الاسلامية شغوفاً بعلم الفلك.

دخل بايزيد الثاني في صراع مع أخيه جم، واشتبك مع المماليك في معارك على الحدود الشامية، وحاول أن يساعد مسلمي الأندلس في محنتهم الشديدة.

تولى الحكم السلطان سليم الأول بعد بايزيد الثاني، وكان يحب الأدب والشعر الفارسي والتاريخ ورغم قسوته فإنه كان يميل الى صحبة رجال العلم وكان يصطحب المؤرخين والشعراء الى ميدان القتال ليسجلوا تطورات المعارك وينشدوا القصائد التي تحكي امجاد الماضي.

كان للسلطان سليم الأول الفضل بعد الله في إضعاف النفوذ الشيعي في العراق وبلاد فارس وحقق على الصفويين الشيعة الروافض انتصاراً عظيماً في معركة جالديران.

كانت نتيجة الصراع بين الدولة العثمانية والصفوية؛ ضم شمال العراق، وديار بكر الى الدولة العثمانية ، أمن العثمانيون حدود دولتهم الشرقية ، سيطرة المذهب السني في آسيا الصغرى بعد أن قضى على اتباع وأعوان اسماعيل الصفوي.

استفاد البرتغاليون من صراع الصفويين مع الدولة العثمانية وحاولوا أن يفرضوا على البحار

الشرقية حصاراً عاماً على كل الطرق القديمة بين الشرق والغرب. دخل السرور على الأوروبيين بسبب الحروب بين العثمانيين والصفويين وعمل الأوروبيون على الوقوف مع الشيعة الصفوية ضد الدولة العثمانية لإرباكها حتى لا تستطيع أن تستمر في زحفها على أوروبا.

استطاع العثمانيون أن يحققوا انتصاراً ساحقاً على المماليك في معركة غزة ثم معركة الريدانية وازاحوا دولة المماليك بعد ذلك من الوجود.

بعد مقتل السلطان الغوري ونائبه طومان باي بادر شريف مكة (بركات بن محمد) الى تقديم السمع والطاعة الى السلطان سليم الأول وسلمه مفاتيح الكعبة وبذلك أصبح السلطان سليم خادماً للحرمين الشريفين.

دخلت اليمن تحت النفوذ العثماني بعد سقوط دولة المماليك وكانت تمثل بعداً استراتيجياً وتعتبر مفتاح البحر الأحمر وفي سلامتها سلامة للأماكن المقدسة في الحجاز، واستفاد العثمانيون من وجودهم في اليمن فقاموا بحملات بحرية الى الخليج بقصد تخليصه من الضغط البرتغالي.

بعد أن ضم العثمانيون بلاد مصر والشام ودخلت البلاد العربية تحت نطاق الحكم العثماني، واجهت الدولة العثمانية البرتغاليين بشجاعة نادرة، فتمكنت من استرداد بعض الموانئ الاسلامية في البحر الأحمر مثل : مصوع وزيلع، كما تمكنت من إرسال قوة بحرية بقيادة مير علي بك الى الساحل الأفريقي فتم تحرير مقديشو وممبسة ومنيت الجيوش البرتغالية بخسائر عظيمة.

في عهد السلطان سليمان القانوني (927-974هـ) تمكنت الدولة العثمانية من ابعاد البرتغاليين عن البحر الأحمر ومهاجمتهم في المراكز التي استقروا بها في الخليج العربي.

تمكن العثمانيون من صد البرتغال وإيقافهم بعيداً عن المماليك الاسلامية والحد من نشاطهم ونجحت الدولة العثمانية في تأمين البحر الأحمر وحماية الأماكن المقدسة من التوسع البرتغالي المبني على اهداف استعمارية وغايات دينية ومحاولات للتأثير على الاسلام والمسلمين بطرق

كانت نتيجة الصراع العثماني البرتغالي؛ أن احتفظ العثمانيون بالاماكن المقدسة وطريق الحج، وحماية الحدود البرية من هجمات البرتغاليين طيلة القرن السادس عشر، واستمرار الطرق التجارية التي تربط الهند واندونيسيا بالشرق الادنى عبر الخليج العربي والبحر الأحمر. فتحت رودس في زمن السلطان سليمان القانوني واستطاع سليمان القانوني أن يحاصر فينا، ودخل في سياسة التقارب مع فرنسا. اهتمت الدولة العثمانية بالشمال الأفريقي ووقفت مع حركة الجهاد البحري وقدمت لهم كافة المساعدات المادية والمعنوية. دخلت الجزائر تحت نفوذ الدولة العثمانية منذ زمن السلطان سليم الأول وظهر في ساحة الجهاد في الشمال الأفريقي قائدان عظيمان هما الأخوان عروج، وخير الدين بربروسا. نجح خير الدين في وضع دعائم قوية لدولة فتية في الجزائر وكانت المساعدات العثمانية تصله باستمرار من السلطان سليمان القانوني واستطاع خير الدين أن يوجه ضرباته القوية للسواحل الاسبانية وكانت جهوده مثمرة في إنقاذ آلاف المسلمين من اسبانيا. كان للوجود العثماني في الجزائر أثر على موقف الملك البرتغالي في المغرب إذ تراجع عن القيام بعمليات عسكرية فيه. بعد ان أصبح خير الدين بربروسا قائداً للاسطول العثماني اهتم بالحوض الشرقي للبحر المتوسط وتولى حكم الجزائر القائد حسن آغا الطوشي الذي انهمك في توطيد الأمن ، ووضع الأسس للإدارة المستقرة وحاول جمع أطراف البلاد حول السلطة المركزية الجزائرية. استطاع حسن آغا الطوشي أن يهزم الجيوش الصليبية بقيادة شارل الخامس على أراضي الجزائر وكانت لتلك الهزيمة أثرها على الامبراطورية الاسبانية ، وعلى ملكها شارلكان وعلى مستوى الأحداث العالمية.

نزلت أنباء هزيمة شارلكان نزول الصاعقة على أوروبا وتطورت الأحداث بسرعة على المستوى الأوروبي.

لم يعد شارل الخامس قادراً على التفكير في حملة أخرى ضد الجزائر وطغى شبح خير الدين وحسن آغا على العامة والخاصة .

ظهر في الشمال الأفريقي قادة عظام ساهموا في حركة الجهاد ضد الأسبان والنصارى في البحر المتوسط من أشهرهم؛ حسن خير الدين بربروسا، وصالح راييس، وقلج علي.

حاولت الدولة العثمانية أن تكون علاقات استراتيجية مع الدولة السعدية إلا أنها فشلت في بعض الأحيان وخصوصاً في زمن السلطان محمد الشيخ السعدي ومحمد المتوكل .

إن من الأعمال العظيمة التي قامت بها الدولة السعدية في زمن السلطان عبدالملك انتصارهم الرائع والعظيم على نصارى البرتغال في معركة الملوك الثلاثة، والتي تسمى في كتب التاريخ معركة القصر الكبير، أو معركة وادي المخازن.

كان انتصار المغاربة في معركة وادي المخازن بسبب عدة أمور منها؛ القيادة الحكيمة التي تمثلت في قيادة السلطان عبدالملك وأخيه ابي العباس، والتفاف الشعب المغربي حول قيادته، ورغبة المسلمين في الذود عن دينهم وعقيدتهم وأعراضهم ، والعمل على تضميد الجراح بسبب سقوط غرناطة، وضياع الأندلس، واشتراك خبراء من العثمانيين تميزوا بالمهارة في الرمي بالمدفعية مما جعل المدفعية المغربية تتفوق على المدفعية المغربية النصرانية.

تولى حكم الدولة السعدية السلطان أحمد المنصور بعد استشهاد أخية عبدالملك في معركة وادي المخازن.

بوفاة قلج علي في الجزائر نظم البيليربك الذي جعل من حكام الجزائر ملوكاً والسعي السلطة والنفوذ واستعيض عنه بنظام الباشوية مثلها في ذلك تونس وطرابلس.

لم تستطع الدولة العثمانية أن تضم المغرب الأقصى بسبب، ظهور الجزائر في محاولاتهم لضم

كان العثمانيون لديهم رغبة جامحة في استرداد الأندلس إلا أنهم لم يحققوا هدفهم المنشود، بسبب موقف الدولة السعدية من جهة، وتصرف بعض الانكشاريين من جهة أخرى، وجبهات المشرق من جهة ثالثة.

اتفق المؤرخون على أن عظمة الدولة العثمانية قد انتهت بوفاة السلطان العثماني سليمان القانوني عام (974هـ) وكانت مقدمات ضعف الدولة قد اتضحت في عهد السلطان سليمان. تولى الحكم بعد سليمان القانوني سليم الثاني الذي لم يكن مؤهلاً لحفظ فتوحات والده السلطان سليمان ولولا وجود الوزير الفذ والمجاهد الكبير والسياسي القدير محمد باشا الصقلي لانهارت الدولة. وكان ذلك من فضل الله على الأمة.

انهزم العثمانيون في معركة ليبانتوا عام 979هـ/1571م وكانت النتيجة لتلك المعركة مخيبة لآمال العثمانيين، فقد زال خطر السيادة العثمانية في البحر المتوسط وكان ذلك الإنكسار نقطة تحول نحو توقف عصر الإزدهار لقوة الدولة البحرية.

كانت معركة ليبانتو فرصة مواتية لإظهار طمع فرنسا نحو المغرب الإسلامي ، إذ بمجرد انتشار خبر هزيمة الأسطول العثماني في تلك المعركة قدم ملك فرنسا شارل التاسع مشروعاً الى السلطان العثماني ، وذلك بواسطة سفيره في استانبول ، يتضمن طلب الترخيص لحكومته في بسط نفوذها على الجزائر، بدعوة الدفاع عن حمى الاسلام والمسلمين بها.

عمل السلطان سليم الثاني على تخليص تونس من هيمنة الإسبان واستطاع العثمانيون بقيادة قلع علي وسان باشا أن يفتحوا تونس في عام 982هـ.

قضى ضياع تونس من الاسبان على آمالهم في أفريقيا وضعفت سيطرتها تدريجياً حتى اقتصرت على بعض الموانئ مثل مليلة ووهران والمرسى الكبير وتبدد حلم الاسبان نحو إقامة دولة اسبانية في شمال أفريقيا وضاع بين الرمال.

أرسل السلطان سليم الثاني حملة كبرى الى اليمن واستطاعت أن تخلص عدن وصنعاء من هيمنة الزيود.

تحولت سياسة الدولة العثمانية بعد معركة ليبانتو 979هـ الى أن تكون الأولوية للمحافظة على الأماكن المقدسة الاسلامية أولاً ثم البحر الأحمر والخليج العربي كحزام أمني حول هذه الأماكن وتطلب ذلك منها اسطولاً قادراً على أن يقاوم البرتغاليين.

استطاعت الدولة العثمانية أن تبني درعاً قوياً، حمى الأماكن المقدسة الاسلامية من الهجمات المسيحية، ومع ذلك الدرع فقط احتفظ السلطان بحرس عثمانى خاص في مكة المكرمة والمدينة المنورة وينبع.

تولى الحكم بعد وفاة سليم الثاني ابنه مراد الثالث وكان مهتماً بفنون العلم والأدب والشعر وكان يتقن اللغات الثلاثة التركية، والعربية والفارسية وحاول منع الخمر إلا أن الانكشاريين اضطروه لرفع أمره وهذا يدل على ظهور ضعف الدولة .

تولى الحكم بعد مراد الثالث محمد الثالث ورغم حالة الضعف والتدهور التي كانت قد بدأت تعتري الدولة إلا أن راية الجهاد ظلت مرفوعة وقام هذا السلطان بدخول ميادين الوغى بنفسه وكان الشيخ سعد الدين أفندي ممن شجعه على الخروج بنفسه لقيادة الجيوش وقال للسلطان : (أنا معك أسير حتى أخلص نفسي من الذنوب ، فإنني بها أسير).

تولى الحكم بعد محمد الثالث ابنه احمد الأول وكان عمره 14 سنة ولم يجلس احد قبله من السلاطين العثمانيين في هذه السن على العرش وكانت أحوال الدولة مرتبكة جداً لانشغالها بحروب النمسا في أوروبا وحرب إيران والثورات الداخلية في آسيا فآتم مابداً به أبوه من تجهيزات حربية، وكان في غاية التقوى، وكان رجلاً مثابراً في الطاعات، وبيأشر أمور الدولة بنفسه، وكان متواضعاً في ملابسه، وكان كثير الاستشارة لأهل العلم والمعرفة ، والقيادة وكان شديد الحب للنبي p.

بعد وفاة السلطان أحمد الأول، تولى الحكم سلاطين ضعاف منهم مصطفى الأول، وعثمان

الأول، ومراد الرابع، وإبراهيم بن أحمد، ومحمد الرابع، وسليمان الثاني، وأحمد الثاني، ومصطفى الثاني، وأحمد الثالث، ومحمود الأول، وعثمان الثالث، ومصطفى الثالث، وعبد الحميد الأول. تولى السلطان سليم الثالث الحكم بعد وفاة عمه عبد الحميد الأول عام 1203 هـ وبدأت مرحلة جديدة من مراحل الحرب بين الدولة العثمانية وأعدائها وشرع في إحياء الروح المعنوية في نفوس جنده.

استطاعت الجيوش الروسية والنمساوية أن تهزم الجيش العثماني فكان لتلك الهزيمة آثارها على الدولة العثمانية وتوالت الهزائم على العثمانيين وتزحزحت القوات العثمانية إلى الوراء باتجاه شرق الدانوب، وأعطت النمساويين الفرصة لفك حصار بلغراد وفتح الطريق لقوات الحلفاء وطرد العثمانيين من أوروبا.

بعد هدوء القتال انصرف سليم الثالث للإصلاحات الداخلية فبدأ بتنظيم الجيش للتخلص من الانكشارية الذين أصبحوا سبب كل فتنة واتجه نحو تقليد أوروبا إلا أنه عزل من السلطنة. انتهز الفرنسيون تدهور الدولة العثمانية وضعفها، فأرسلت حملتها المشهورة بقيادة القائد المشهور نابليون بوناپرت، وكانت تلك الحملة صدى للثورة الفرنسية ومتأثرة بأفكارها الثورية. سعى رجال الحملة الفرنسية إلى زعزعة الدين في نفوس الشيوخ والعلماء وعوام المسلمين بعرض نماذج من الحضارة الغربية عليهم.

نجح الفرنسيون في استثارة العناصر القبطية المسيحية لمعاونة الحملة بمختلف الوسائل. كان الهجوم الفرنسي على مصر يعتبر أول هجوم صليبي على ولاية عربية من ولايات الدولة العثمانية في التاريخ الحديث، وعلى الفور أعلن السلطان سليم الثالث الجهاد على الفرنسيين الصليبيين واستجاب لدعوته المسلمون في الحجاز، والشام، وشمال أفريقيا.

كانت بريطانيا تتابع الأطماع الفرنسية في مصر وغيرها بدقة متناهية وعندما تحركت الحملة الفرنسية، ووصلت إلى مصر أرسلت أسطولاً بقيادة الاميرال نيسلون لتعقب الحملة الفرنسية

واستطاع الأسطول الانجليزي أن يدمر الأسطول الفرنسي في معركة أبي قير البحرية.

كانت هزيمة الأسطول الفرنسي في موقعة أبي قير البحرية قد شجعت الدولة العثمانية على مهاجمة الحملة الفرنسية في مصر، فأعلن الحرب على فرنسا وأصدر أوامره بإلقاء القبض على القائم بأعمال السفارة الفرنسية وجميع رعايا فرنسا في استتبول والقائم في السجون.

اضطرت الحملة الفرنسية إلى مغادرة مصر بسبب الهجوم المشترك الذي قام به الانجليز والعثمانيون على الفرنسيين في مصر وقد تضافرت عوامل عدة أرغمت المحتلين الفرنسيين على الخروج من مصر في النهاية، منها تحطيم اسطولهم في معركة أبي قير البحرية وسيطرة الانجليز البحرية في البحر المتوسط، وتشديدهم الحصار على الشواطئ المصرية، مما أعجز الحكومة الفرنسية عن إرسال النجدة والإمدادات إلى فرنسا في مصر.

كان للحملة الفرنسية أثر بالغ في مصر خصوصاً والشرق عموماً واستطاعت المحافل الماسونية اليهودية الفرنسية أن تشق طريقها لطعن الإسلام بخنجرها المسموم، واستطاع الفرنسيون أن يزرعوا أفكارهم ويجدوا لهم عملاء في المنطقة، واستفادوا بعد خروجهم العسكري من الدور الخطير الذي قام به محمد علي باشا حاكم مصر فيما بعد.

تولى الحكم السلطان محمود الثاني في عام 1223هـ واستطاع أن يتخلص من الإنكشارية وأزالها من الوجود وأصبح بعد ذلك حراً في تطوير جيشه، فترسم خطى الحضارة الغربية واستبدل الطربوش الرومي بالعمامة، وتزيا بالزي الأوربي، وأمر أن يكون هو الزي الرسمي لكل موظفي الدولة.

في تلك الفترة الحرجة من التاريخ العثماني انتشرت المحافل الماسونية في مصر والشام وتركيا وكانت تعمل ليلاً ونهاراً من أجل تفتيت وإضعاف الدولة العثمانية بمعاولها الفاسدة التي لا تكل ولا تمل.

كانت المحافل الفرنسية ترى دعم محمد علي ليتحقق لها أطماعه المستقبلية في حفظ وتقوية

محافظها الماسونية، وإضعاف الدولة العلية العثمانية وزرع خنجرها المسموم في قلب الدولة العثمانية ولذلك أنشأت لمحمد علي أسطولاً بحرياً متقدماً متطوراً، وترسانة بحرية في دمياط.

قام محمد علي بدور مشبوه في نقل مصر من انتمائها الإسلامي الشامل إلى شيء آخر يؤدي بها في النهاية إلى الخروج عن شريعة الله وكانت تجربة محمد علي قدوة لمن بعده من أمثال مصطفى كمال أتاتورك وجمال عبدالناصر .. الخ.

قام محمد علي نيابة عن فرنسا وبريطانيا وروسيا والنمسا وغيرها من الدول الأوروبية بتوجيه ضربات موجعة للاتجاه الإسلامي في كل من مصر، والجزيرة العربية، والشام، والخلافة العثمانية مما كان لها الأثر في تهيئة العالم الإسلامي للأطماع الغربية.

كان محمد علي مخلباً وخنجرًا مسموماً استعمله الأعداء في تنفيذ مخططاتهم ولذلك وقفوا معه في نهضته العلمية، والاقتصادية والعسكرية بعد أن أيقنوا بضعف الجانب العقدي والإسلامي لديه ولدى أعوانه وجنوده.

ترتب على دور محمد علي في المنطقة بأسرها أن تنبهدت الدول الأوروبية إلى مدى الضعف الذي أصبحت عليه الدولة العثمانية، وبالتالي استعدادها لتقسيم أراضيها حينما تنهياً الظروف السياسية.

تولى الحكم في الدولة العثمانية بعد وفاة السلطان محمود الثاني ابنه عبدالمجيد الأول وكان ضعيف البنية، شديد الذكاء واقعياً ورحيماً وهو من أجلّ سلاطين آل عثمان قدراً.

كان السلطان عبدالمجيد خاضعاً لتأثير وزيره رشيد باشا الذي وجد في الغرب مثله وفي الماسونية فلسفته، ورشيد باشا هو الذي أعد الجيل التالي له من الوزراء ورجال الدولة، وبمساعده أسهم هؤلاء في دفع عجلة التغريب التي بدأها هو.

كانت حركة الإصلاح والتجديد العثماني تدور حول نقاط ثلاثة هامة: الاقتباس من الغرب فيما يتعلق بتنظيم الجيش وتسليمه في نظم الحكم والإدارة، الاتجاه بالمجتمع العثماني نحو التشكيل

العلماني، الاتجاه نحو مركزية السلطة في استانبول والولايات. تكلم خطأ كلخانة وهمايون بدستور مدحت باشا عام 1876م ولأول مرة في تاريخ الإسلام ودوله يجري العمل بدستور مأخوذ عن الدستور الفرنسي والبلجيكي والسويسري وهي دساتير وضعية علمانية.

وضعت حركة التنظيمات الدولة العثمانية رسمياً على طريق نهايتها كدولة اسلامية، فعلمنت القوانين، ووضعت مؤسسات تعمل بقوانين وضعية، والابتعاد عن التشريع الإسلامي في مجالات التجارة والسياسة والاقتصاد، قد سحب من الدولة العثمانية شرعيتها في أنظار المسلمين. إن النظرة الفاحصة في تاريخ الأمم واستقراء أحوالها تبين لنا أن التقليد بين أمة وأمة، وبين قوم وقوم يحدث بينهما من التشابه والتفاعل والانصهار، ما يضعف التمايز والاستقلال في الأمة المقلدة ويجعلها مهتزة الشخصية.

اقتضت سنة الله في خلقه أن الأمة الضعيفة المغلوبة تعجب بالأمة القوية المهيمنة الغالبة ومن ثم تقليدها فتكسب من أخلاقها وسلوكها وأساليب حياتها، إلى أن يصل الأمر إلى تقليدها في عقائدها وأفكارها وثقافتها وأدبها وفنونها، وبهذا تفقد الأمة المقلدة مقوماتها الذاتية وحضاراتها - إن كانت ذات حضارة - وتعيش عالة على غيرها.

تولى الحكم في الدولة العثمانية السلطان عبدالعزيز ابن محمود الثاني عام 1277هـ وكانت الدول الأوروبية عازمة على الضغط على الحكومة العثمانية للإستمرار في خطوات الإصلاح والنهوض المزعوم على النهج الغربي، والفكر الأوربي والمبادئ العلمانية وكان السلطان عبدالعزيز يرفض الدساتير الغربية والعادات البعيدة عن البيئة الإسلامية وحاول النهوض بالمجتمع الإسلامي العثماني فدبرت مؤامرة لقتله بواسطة القناصل وممثلي الدول الأوروبية في العاصمة وقاموا بتنفيذها عن طريق عملائهم ممن تشربوا بأفكارهم من رجال الدولة وعلى رأسهم صنيعه الماسونية المدعو مدحت باشا.

تولى الحكم بعد السلطان عبدالعزيز ابن أخيه مراد الخامس الذي كان منخرطاً في سلك الماسونية، وكان ميالاً إلى الدستور والليبرالية والعلمانية وكانت الحركة الماسونية هي التي دفعت به إلى السلطنة ولكنه أصيب باضطراب عقلي بعد أن أصابته الدهشة والفرع بسبب مقتل عمه عبدالعزيز وظهرت عليه اضطرابات عصبية أثرت على جهازه الهضمي، وكانت صحته في تدهور مستمر، فكان لأبد من خلعه وأعلن ذلك من قبل شيخ الإسلام.

تولى حكم الدولة العثمانية بعد مراد الخامس السلطان عبدالحميد الثاني في عام 1293هـ وضغط عليه من قبل مدحت باشا فأعلن الدستور، ومارس الوزراء استبدادهم واشتدت سياستهم التغريبية بقيادة جمعية العثمانيين الجدد والتي كانت تضم النخبة المثقفة التي تأثرت بالغرب وعندما حانت الفرصة للسلطان عبدالحميد ألغى الدستور وشرّد زعماء التغريب وعمل على إضعاف سلطاتهم، وشرع في إصلاح الدولة وفق التعاليم الإسلامية وحرص على تطبيق الشريعة الإسلامية.

عمل السلطان عبدالحميد على تشكيل جهاز استخباراتي قوي لحماية الدولة من الداخل وجمع معلومات على أعدائه من الخارج، وأخمد ثورات في البلقان وتمردات داخلية وكان جهاز الاستخبارات من الوسائل المهمة عند السلطان في القضاء على التمردات الداخلية في حينها. دخلت الدولة العثمانية في حرب ضروس مع روسيا وانهزمت أمامها واضطرت لعقد معاهدة سان ستفانو معها ثم بعد ذلك كان مؤتمر برلين في ألمانيا.

ظهرت فكرة الجامعة الإسلامية في معترك السياسة في زمن السلطان عبدالحميد الذي اهتم بهذه الفكرة من دعم أواصر الأخوة بين المسلمين في كل مكان حتى تستطيع الأمة أن تقف ضد الأطماع الصليبية.

شرع السلطان عبدالحميد في تنفيذ مخططه للوصول إلى الجامعة الإسلامية بواسطة وسائل متعددة منها، الاتصال بالدعاة، وتنظيم الطرق الصوفية، والعمل على تعريب الدولة، وإقامة مدرسة

العشائر، وإقامة خط سكة حديد الحجاز، وإبطال مخططات الأعداء. حاول السلطان عبدالحميد التضييق على يهود الدونمة عندما علم قوتهم ومؤامراتهم ضد الإسلام ولذلك قام يهود الدونمة بوضع خطة إستراتيجية مضادة له حيث تحركوا ضده على مستوى الرأي العام العثماني والجيش وقاموا بدعم المحافل الماسونية للإطاحة به، واستخدموا شعارات الحرية، والديمقراطية وإزاحة المستبد، وعلى هذا الأساس قاموا بنشر الشقاق والتمرد في الدولة وبين صفوف الجيش، وكان يهود الدونمة يشكلون اللبنة الأولى لتنفيذ المخططات اليهودية العالمية التي تعمل على تحقيق المشروع الاستيطاني الصهيوني في فلسطين. كان السلطان عبدالحميد العائق القوي أمام مخططات حكماء صهيون فعملوا على ترغيبه بالمال فلم يستطيعوا وكان يتخذ التدابير اللازمة في سبيل عدم بيع الأراضي إلى اليهود في فلسطين ولم يعط اليهود أي امتياز من شأنه أن يؤدي إلى تغلب اليهود على أراضي فلسطين. تحركت الصهيونية العالمية، لتدعيم أعداء السلطان عبدالحميد، وهم المتمردون الأرمن، والقوميون البلقان، وحركة حزب الاتحاد والترقي، والوقوف مع كل حركة انفصالية عن الدولة العثمانية.

استطاعت جمعية الاتحاد والترقي أن تعزل السلطان عبدالحميد الثاني عن الحكم وقد تحصلت على دعم من الدول الأوروبية، واليهود والمحافل الماسونية للوصول إلى هذا الهدف. كانت جمعية الاتحاد والترقي لاتستطيع مقاومة الحلفاء بعد هزيمتها في الحرب العالمية الثانية، واضطر زعمائها إلى الفرار إلى المانيا وروسيا.

استطاع الانجليز واليهود أن يدفعوا بمصطفى كمال نحو زعامة الدولة العثمانية وقام الأخير بتنفيذ مخططاً مرسوماً انتهى بتحقيق شروط كرزون الأربع وهي: قطع كل صلة لتركيا بالإسلام، إلغاء الخلافة الإسلامية إلغاءً تاماً، إخراج الخليفة وأنصار الخلافة والإسلام من البلاد، ومصادرة أموال الخليفة، اتخاذ دستور مدني بدلاً من دستور تركيا القديم.

عمل مصطفى كمال على سلخ تركيا من عقيدتها وإسلامها، وحارب التدين، وضيق على الدعاة، ودعا إلى السفور والاختلاط، إلا أن صوت الحق في تركيا قاوم العلمانية بشدة وطهرت حركة سعيد النورسي وحزب السلامة الذي أصبح فيما بعد حزب الرفاه ولازال الصراع بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والرشد والغي، على أشده في تركيا.

إن أسباب سقوط الدولة العثمانية كثيرة جامعها هو الابتعاد عن تحكيم شرع الله تعالى الذي جلب للأفراد والأمة تعاسة وضنكاً في الدنيا، وإن آثار الابتعاد عن شرع الله ظهرت في وجهتها الدينية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية.

إن انحراف سلاطين الدولة العثمانية المتأخرين عن شرع الله وتفريط الشعوب الإسلامية الخاضعة لهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أثر في تلك الشعوب، وكثرة الاعتداءات الداخلية بين الناس، وتعرضت النفوس للهلاك، والأموال للنهب، والأعراض للاغتصاب بسبب تعطل أحكام الله فيما بينهم، ونشبت حروب وفتن، وبلايا تولدت على أثرها عداوة وبغضاء لم تنزل عنهم حتى بعد زوالهم.

إن من سنن الله تعالى المستخرجة من حقائق التاريخ أنه إذا عصى الله تعالى ممن يعرفونه سلط الله عليهم من لا يعرفونه ولذلك سلط النصارى على المسلمين، وغاب النصر عن الأمة وحرمت من التمكين، وأصبحت في فزع وخوف وتوالت عليها المصائب، وضاعت الديار، وتسلبت الكفار.

لقد أصيبت الأمة بانحراف شديد في مفاهيم دينها، كعقيدة الولاء والبراء، ومفهوم العبادة، وانتشرت مظاهر الشرك والبدع والخرافات.

إن من أعظم الإنحرافات التي وقعت في تاريخ الأمة الإسلامية ظهور الصوفية المنحرفة كقوة منظمة في المجتمع الإسلامي تحمل عقائداً وأفكاراً وعبادات بعيدة عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وقد قوى عود الصوفية المنحرفة واشتدت شوكتها في أواخر العصر العثماني.

كانت الفرق المنحرفة قد استفحل أمرها، خصوصاً مع مجيء الاستعمار الصليبي الذي طوق الأمة الإسلامية، فكانوا على عاداتهم دائماً مع أعداء المسلمين عوناً لهم وجنداً مخلصين لقيادتهم ومن أشهر هذه الفرق، الشيعة الاثني عشرية، والدروز والنصيرية، والإسماعيلية، والقاديانية والبهائية وغيرها من الفرق الضالة المحسوبة على الإسلام.

أصبح كثير من العلماء ألعوبة بيد الحكام الجائرين، وتسابقوا للحصول على الوظائف والمراتب وغاب دورهم المطلوب منهم، وكان من الطبيعي أن تصاب العلوم الدينية في نهاية الدولة العثمانية بالجمود والتحجر، واهتم العلماء بالمختصرات، والشروح والحواشي والتقارير وتباعدوا عن روح الإسلام الحقيقية المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، ورفض كثير من العلماء فتح باب الاجتهاد، وأصبحت الدعوة لفتح بابة تهمة كبيرة تصل إلى الرمي بالكبائر، وتصل عند بعض المقلدين والجامدين إلى حد الكفر.

انتشر الظلم في الدولة العثمانية، والظلم كالمرض في الإنسان يعجل بموته بعد أن يقضى المدة المقدره له وهو مريض، وبانتهاء هذه المدة يحين أجل موته، فكذلك الظلم في الأمة والدولة يعجل في هلاكها بما يحدثه فيها من آثار مدمرة تؤدي إلى هلاكها واضمحلالها خلال مدة معينة يعلمها الله هي الأجل المقدر لها ولذلك زالت الدولة العثمانية من الوجود، وكذلك مما يعجل بزوال الدول انغماسها في الشهوات والترف وشدة الاختلاف والتفرق.

لقد ترتب عن ابتعاد الأمة عن شرع ربها آثار خطيرة، كالضعف السياسي، والحربي، والاقتصادي، والعلمي، والأخلاقي، والاجتماعي وفقدت الأمة قدرتها على المقاومة، والقضاء على أعدائها، فاستعمرت، وغزيت فكراً، نتيجة لفقدائها لشروط التمكين وابتعادها عن أسبابه المادية والمعنوية وجعلها بسنن الله في نهوض الأمم وسقوطها.

قال تعالى: { ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون } (سورة الأعراف، الآية: 196).

138. إن هذا المجهود المتواضع قابل للنقد والتوجيه وماهي إلا محاولة متواضعة هدفها معرفة

عوامل نهوض الأمة وأسباب سقوطها وبين الناقد قول الشاعر:

إن تجد عيباً فسد الخلا

جلّ من لا عيب فيه وعلا

وأسأل الله العلي العظيم رب العرش الكريم أن يتقبل هذا الجهد قبولاً حسناً وأن يبارك فيه وأن يجعله من أعمال الصالحة التي أتقرب بها إليه وأن لا يحرم اخواني الذين أعانوني على اكماله من الأجر والثوبة وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى: { ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم }.

ويقول الشاعر:

أنا الفقير إلى رب البريات

أنا المسكين في مجموع حالاتي

أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي

والخير أن يأتينا من عنده يأتي

لا استطيع لنفسي جلب منفعة

ولاعن النفس لي دفع المضرات

والفقر لي وصف ذات لازم أبداً

كما الغنى أبداً وصف له ذاتي

وهذه الحال حال الخلق أجمعهم

وكلهم عنده عبد له آتي

" سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت استغفرك وأتوب إليك "،

" وآخر

دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ".

المصادر والمراجع

(أ)

أخبار الأمراء والملوك السلجوقية، د.محمد نور الدين .

أعيد التاريخ نفسه، محمد العبد، المنتدى الاسلامي ، طبعة 1411هـ.

إعلام الموقعين عن رب العالمين ، الإمام ابن القيم ، مراجعة وتعليق طه عبدالرؤوف سعد،

دار الجيل، بيروت - لبنان.

أوروبا في العصور الوسطى، سعيد عاشور، الطبعة السادسة، مكتبة الأنجلو المصرية

1975م.

اقتصاديات الحرب في الاسلام، د. غازي التمام، مكتبة الرشد الرياض، الطبعة الأولى

1411هـ/1991م.

أطوار العلاقات المغربية العثمانية، ابراهيم شحاتة، منشأة المعارف، الاسكندرية ، الطبعة الأولى 1980م.

امام التوحيد محمد عبدالوهاب، أحمد القطان، مكتبة السندس الكويت، الطبعة الثانية 1409هـ، 1988م.

استمرارية الدعوة، محمد السيد الوكيل، دار المجتمع المدينة، السعودية، الطبعة الأولى 1414هـ، 1994م.

أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الشنقيطي، مطبعة المدني عام 1384- الطبعة الأولى.

اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم لإبن تيمية، تحقيق محمد حامد الفقي الطبعة الثانية عام 1369هـ مطبعة السنة المحمدية.

ابن باديس حياته وآثاره: د. عمار الطالبي، دار الغرب الإسلامي، بيروت الطبعة الثانية 1403هـ - 1983م.

(ب)

البداية والنهاية، أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي، دار الريان، الطبعة الأولى، 1408هـ - 1988م.

البطولة والفداء عند الصوفية، أسعد الخطيب، دار الفكر، سورية - دمشق.

البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، لمحمد بن علي الشوكاني، دار المعرفة، بيروت.

بدر التمام في اختصار الاعتصام، اختصره أبي عبدالفتاح محمد السعيد الجزائري، دار الحنان الإسلامية، الطبعة الأولى 1411هـ، 1991م، الإمارات العربية المتحدة.

بدائع الزهور في وقائع الدهور، محمد بن أحمد ابن اياس، القاهرة مطابع الشعب، 1960.

بداية الحكم المغربي من السودان الغربي، محمد الغربي، الدار الوطنية للتوزيع والنشر، طبعة

عام 1982م.

البرق اليماني في الفتح العثماني، دار اليمامة، الرياض، قطب الدين محمد بن أحمد المكي،
الطبعة الأولى 1387هـ - 1967م.

البلاد العربية والدولة العثمانية، ساطع الحصري، بيروت 1960م.

(ت)

تاريخ الترك في آسيا الوسطى، بارتولد ترجمة أحمد السعيد القاهرة، مطبعة الأنجلو المصرية
1378هـ/1958م.

تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري، دمشق، دار الفكر 1399هـ/1979م.

تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك، تحقيق الدكتور احسان حقي، دار النفائس،
الطبعة السادسة، 1408هـ - 1988م.

تاريخ الإسلام، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية،
1411هـ - 1991م.

تاريخ دولة آل سلجوق، لمحمد الاصبهاني، القاهرة، دار الآفاق الجديدة، بيروت الطبعة الثانية
1978م.

تاريخ سلاطين آل عثمان، تحقيق بسام الجابي، تأليف يوسف آصاف، دار البصائر، الطبعة
الثالثة 1405هـ - 1985م.

تاريخ العرب الحديث، رأفت الشيخ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.

تاريخ العرب الحديث، تأليف د. جميل بيفون، د. شحادة الناظور، الاستاذ عكاشة، الطبعة
الأولى 1412هـ/1992م، دار الأمل للنشر والتوزيع.

التقليد والتبعية وأثرها في كيان الأمة الإسلامية، ناصر العقل، دار المسلم، الطبعة الثانية
1414هـ.

تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، المكتبة الإسلامي الطبعة الثالثة 1415 هـ 1994م.
التاريخ العثماني في شعر أحمد شوقي بقلم محمد زاهد عبدالفتاح أبو غدة، دار الرائد كندا،
الطبعة الأولى 1417 هـ/1996م.

تاريخ سلاطين آل عثمان، للقرماني، الطبعة الأولى 1405 هـ/1985م، دار البصائر دمشق
سوريا.

تاريخ المشرق العربي، عمر عبدالعزيز عمر، دار المعرفة الجامعية، اسكندرية.
تجربة محمد علي الكبير، دروس في التغيير والنهوض، منير شفيق، دار الفلاح للنشر،
بيروت لبنان، الطبعة الأولى بيروت 1997م - 1418 هـ.
التراجع الحضاري في العالم الإسلامي د. علي عبدالحليم، دار الوفاء، الطبعة، 1414 هـ/
1994م.

تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، الطبعة الثانية، بيروت.
تفسير القرآن العظيم، ابن كثير أبو الفداء أسماعيل، تحقيق: عبدالعزيز غنيم، وحمد أحمد
عاشور، ومحمد ابراهيم البناء، مطبعة الشعب القاهرة - مصر.
تفسير الطبري المسمى جامع البيان عن تأويل القرآن، لابن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت
- لبنان، 1405 هـ.

تفسير السعدي، المسمى تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبدالرحمن بن
ناصر السعدي، المؤسسة السعدية بالرياض 1977م.
تركيا والسياسة العربية: أمين شاکر وسعيد العريان ومحمد عطا.
تفسير القرطبي، لأبي عبدالله القرطبي.
تفسير النسفي مدارك التنزيل وحقائق التأويل للإمام أبي البركات عبدالله بن أحمد بن محمود
النسفي.

تاريخ الدولة العثمانية، يلماز أوزنتونا، ترجمه إلى العربية عدنان محمود سلمان، د. محمود الأنصاري، المجلد الأول. منشورات مؤسسة فيصل للتمويل تركيا استانبول 1988م.
تطبيق الشريعة الإسلامية، د. عبدالله الطريقي، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى 1415هـ/1995م.

التيارات السياسية في الخليج العربي، صلاح العقاد، القاهرة، المطبعة الفنية الحديثة، 1974م.
تاريخ الجزائر الحديث، محمد خير فارس، دار الشروق الطبعة الثانية، 1979م.
الأتراك العثمانيون في افريقيا، عزيز سامح، دار النهضة العربية، ترجمة محمود عامر، الطبعة الأولى 1409هـ/1989م.

تاريخ الجزائر العام، عبدالرحمن الجيلالي، دار الثقافة بيروت، الطبعة الرابعة، 1980م.
تاريخ افريقيا الشمالية، شارل اندري جوليان، الدار التونسية للنشر، تونس 1978م، تعريب محمد مزالي.

تاريخ المغرب، لمحمد عبود، دار الطباعة المغربية الطبعة الثانية.
تاريخ الفكر المصري الحديث - لويس عوض، ط1 القاهرة سنة 1979م.
التيارات السياسية الاجتماعية بين المجددين والمحافظين د. زكريا سليمان موسى، دراسة فكر الشيخ محمد عبده، القاهرة سنة 1983م.

تاريخ الاحساء السياسي، د. محمد عرابي، منشورات ذات السلاسل الكويت، 1400هـ/1980م.

التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية، إبراهيم حلمي بك.
الاتجاهات الوطنية، لمحمد حسين، بيروت، 1972م.
التصوف في مصر إبان العصر العثماني د. توفيق الطويل. مطبعة الاعتماد بمصر ط 1365هـ / 1946م.

جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين، زيادة أبو غنيمة، دار الفرقان، الطبعة الأولى 1403هـ/1983م.

جمال الدين الأفغاني المصلح المفترى عليه، د. محسن عبدالحميد، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1403هـ/1983م.

جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس في مطلع العصر الحديث، د. نبيل عبدالحى رضوان، مكتبة الطالب الجامعي، الطبعة الأولى 1408هـ/1988م.

الجبرتي والفرنسيس، د. صلاح العقاد، ندوة الجبرتي القاهرة 1976م.

(ح)

حاضر العالم الإسلامي، د. جميل عبدالله محمد المصري، جامعة المدينة المنورة. حروب البلقان والحركة العربية في المشرق العربي العثماني د. عايض بن خزّام الروقي، 1416هـ/1996م.

حروب محمد علي في الشام وأثرها في شبه الجزيرة العربية، د. عايض بن خزّام الروقي، 1414هـ، مركز بحوث الدراسات الإسلامية، مكة المكرمة.

حركة الجامعة الإسلامية، أحمد فهد بركات، مكتبة المنار، الأردن الطبعة الأولى 1984م/1404هـ.

الحكم والتحاكم في خطاب الوحي، عبدالعزيز مصطفى كامل، دار طيبة، الطبعة الأولى 1415هـ/1995م.

الحكومة الإسلامية للمودودي، ترجمة أحمد إدريس، نشر المختار الإسلامي، للطباعة والنشر القاهرة، الطبعة الأولى 1397هـ/1977م.

الحسبة في العصر المملوكي د. حيد الصافح، دار الاعلام الدولي، الطبعة الأولى 1414هـ/

حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا، احمد توفيق مدني الطبعة الثانية، 1984م.
حقائق الأخبار عن دول البحار، اسماعيل سرهنك، المطبعة الاميرية، ببولاق، مصر الطبعة
الأولى 1312هـ.

الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، محمد العمروسي دار الغرب الإسلامي، بيروت،
الطبعة الثانية، 1982م.

حقيقة الماسونية لمحمد الزعبي، دار العربية، بيروت 1974م.

الحركة الإسلامية الحديثة في تركيا د. أحمد النعيمي، دار البشير، عمان، الأردن، الطبعة
الأولى 1413هـ/1993م.

حركة الإصلاح في عصر السلطان محمود الثاني، د. البحرأوي، دار التراث، القاهرة الطبعة
الأولى 1398هـ/1978م.

(خ)

خراسان، محمود شاكر، الطبعة الأولى، بيروت، المكتب الإسلامي، 1398هـ/1978م.

خير الدين بربوس، بسام العسلي، دار النفائس الطبعة الثالثة: 1406هـ/1986م.

الخلافة والملك للمودودي، تعريب أحمد إدريس، دار القلم، الطبعة الأولى سنة
1398هـ/1978م.

خليفة من خياط تاريخه، تحقيق د. أكرم ضياء العمري، الطبعة الثانية دار القلم بيروت
ومؤسسة الرسالة 1397هـ/1977م.

خلاصة تاريخ الأندلس، دار مكتبة الحياة، بيروت، شكيب أرسلان.

خطط الشام، محمد كرد علي، دار العلم للملايين، بيروت، 1390هـ.

(د)

- الدولة العثمانية والشرق العربي، محمد انيس، القاهرة، مكتبة الأنجلول المصرية.
دور الكنيسة في هدم الدولة العثمانية، تأليف ثريا شاهين، ترجمة الدكتور محمد حرب، دار
المنارة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 1418هـ/1997م.
دعوة جمال الدين الأفغاني في ميزان الإسلام، مصطفى فوزي عبداللطيف غزال، دار طيبة،
الطبعة الأولى 1403هـ/1983م.
الدولة العثمانية، دولة إسلامية مفترى عليها، د. عبدالعزيز الشناوي، مكتبة الانجلو المصرية،
مطابع جامعة القاهرة عام 1980م.
الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، د. اسماعيل مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى
1416هـ/1996م.
الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، قيس جواد العزاوي، مركز دراسات الإسلام
والعالم، الطبعة الأولى 1414هـ/1994م.
الدولة العثمانية، أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ، د. جمال عبدالهادي، د. وفاء محمد
رفعت جمعة، علي أحمد لبن، دار الوفاء، الطبعة الأولى، 1414هـ/1994م.
دراسات متميزة في العلاقات بين الشرق والغرب على مر العصور، يوسف الثقفي، دار الثقة،
الطبعة الثانية، 1411هـ.
دراسات في التاريخ المصري، أحمد سيد د. أ-ج، والسيد رجب حراز، القاهرة، دار النهضة،
1976م.
الدولة السعودية الأولى، عبدالرحيم عبدالرحمن.
دولة الموحدين، علي محمد الصلابي، دار البيارق عمان-الأردن، 1998م، الطبعة الأولى.
(ر)
الرسالة الخالدة، عبدالرحمن عزام، القاهرة 1946م.

رسائل البناء، حسن البناء، دار الأندلس.
رياضة الإسماع في أحكام الذكر والسماع، محمد أبو الهدى الصيادي، مطبعة التمدن بمصر
1903م.

(ز)

زاد المعاد في هدى خير العباد، لابن القيم الجوزية.

(س)

السلوك، أحمد بن علي المقرئ، الطبعة الثانية، القاهرة 1376هـ/1956م.
السلطين في المشرق العربي، د. عصام محمد شبارو، طبعة 1994م، دار النهضة العربية،
بيروت-لبنان.

سير أعلام النبلاء، الذهبي، مؤسسة الرسالة، الطبعة السابعة، 1410هـ/1990م.
السلطان عبدالحميد الثاني، د. محمد حرب، دار القلم دمشق، الطبعة الأولى،
1410هـ/1990م.

الإسلام في آسيا منذ الغزو المغولي د. محمد نصر مهنا، الطبعة الأولى، 1990/1991،
المكتب الجامعي الحديث، طبعة أولى، 1990م.

السلطان محمد الفاتح، فاتح القسطنطينية وقاهر الروم، عبدالسلام عبدالعزيز فهمي، دار القلم،
دمشق، الطبعة الرابعة، 1407هـ/1987م.

السلطين العثمانيون، كتاب مصور، طبع في تونس.

الإسلام وأوضاعنا القانونية، عبدالقادر عودة، الناشر المختار الإسلامي، القاهرة، الطبعة
الخامسة سنة 1397هـ.

سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث، تحقيق، عزت عبيد الدعاس، حمص الناشر: محمد
السيد.

سنن الترمذي، لأبي عيسى الترمذي، تحقيق أحمد شاكر مصطفى الحلبي، القاهرة. الإسلام في مواجهة التحديات: أبو الأعلى المودودي، الطبعة الأولى عام 1391هـ، دار القلم. سد باب الاجتهاد وماترتب عليه، عبدالكريم الخطيب، دار الأصالة الطبعة الأولى، 1405هـ/1984م.

السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، عبدالكريم زيدان.

(ش)

الشعوب الإسلامية، الأتراك العثمانيون، الفرس، مسلمو الهند، د. عبدالعزيز سليمان نوار، دار النهضة العربية، طبعة 1411هـ/1991م.

شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي دار الآفاق الجديدة بيروت. الشرق الإسلامي في العصر الحديث، حسن مؤنس مطبوعة حجازي القاهرة الطبعة الثانية، 1938م.

الشوقيات، ديوان أحمد شوقي، دار العودة، بيروت 1986م.

(ص)

صحوة الرجل المريض، د. موفق بني مرجه، دار البيارق، الطبعة الثامنة، 1417هـ/1996. صحيح البخاري، للإمام محمد بن إسماعيل.

صحيح مسلم، للإمام أبي الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى 1412هـ/1991م.

صراع المسلمين مع البرتغال في البحر الأحمر، غسان علي الرمال، جدة، دار العلم، 1406هـ.

الصراع الفكري بين أجيال العصور الوسطى والعصر الحديث كما صورته الجبرتي، د. أحمد العدوي، أبحاث ندوة الجبرتي، القاهرة، سنة 1976م.

طبقات الشافعية الكبرى، لتاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي،
تحقيق عبدالفتاح محمد، محمود محمد الطناحي، دار احياء الكتب العربية.

(ع)

العثمانيون في التاريخ والحضارة، د. محمد حرب، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى
1409هـ/1989م.

العالم العربي في التاريخ الحديث، د. اسماعيل أحمد ياغي، مكتبة العبيكان،
1418هـ/1997م.

العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، سفر عبدالرحمن الحوالي،
طبعة 1408هـ/1987م.

العثمانيون والروس، د. علي حسون، المكتب الإسلامي الطبعة الأولى، 1402هـ/1982م.
العبر وديوان المبتدأ والخبر، عبدالرحمن ابن خلدون.

علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر، المكتبة العصرية،
صيدا-لبنان، ط 1969م. عبدالقادر احمد اليوسف.

علاقة ساحل عمان ببريطانيا، دراسة وثائقية، عبدالعزيز عبدالغني ابراهيم، الرياض، مطبوعات
دار الملك عبدالعزيز، 1402هـ/1982م.

عجائب الآثار في الترجمة والأخبار، دار فارس- بيروت لعبدالرحمن الجبرتي.

عقيدة ختم النبوة المحمدية، د. أحمد سعدان حمدان، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى،
1405هـ/1985م.

عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية، د. عثمان عبدالمنعم، مكتبة الأزهر 1978م.

(ف)

الفتوح الإسلامية عبر العصور، د. عبدالعزيز العمري، دار اشبيلية، الرياض، الطبعة الأولى،
1418هـ/1997م.

الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام، عبدالله التل، المكتب الإسلامي.
في أصول التاريخ العثماني، أحمد عبدالرحيم مصطفى، دار الشروق، الطبعة الثانية،
1986م/1406هـ.

في ضلال القرآن الكريم، سيد قطب، دار الشروق.
الفوائد لابن القيم.

فتح القسطنطينية وسير السلطان محمد الفاتح ومحمد مصطفى.
فتح القسطنطينية وسيرة السلطان محمد الفاتح، محمد صفوت، منشورات الفاخرية، الرياض
ودار الكتاب العربي، بيروت بدون تاريخ.

فقه التمكين في القرآن الكريم، لعلي محمد الصلابي، رسالة دكتوراه لم تطبع بعد.
فقه التمكين عند دولة المرابطين، علي محمد الصلابي، دار البيارق عمان، بيروت، طبعة
أولى 1998م.

فتح العثمانيين عدن وانتقال التوازن الدولي من البر إلى البحر، محمد عبداللطيف البحراري،
دار التراث، القاهرة، الطبعة الأولى، 1979م.

فلسفة التاريخ العثماني، محمد جميل بيهم، أسباب انحطاط الامبراطورية العثمانية وزوالها -
شركة فرج الله للمطبوعات، بيروت، 1954م.

(ق)

قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، د. زكريا سليمان بيومي، الطبعة الأولى، 1411هـ/1991م،
عالم المعرفة.

قيام الدولة العثمانية، د. عبداللطيف عبدالله دهيش، الطبعة الثانية، 1416هـ/1995م، مكتبة
ومطبعة النهضة الحديثة، مكة المكرمة.

(ك)

الكامل في التاريخ، علي بن محمد بن أبي الكرم بن عبدالكريم، القاهرة.
الكشوف الجغرافية البرتغالية والاسبانية، مقالة في كتاب الصراع بين العرب والاستعمار، شوقي
عبدالله الجمل، القاهرة، 1415هـ/1995م.

(ل)

ليبيا بين الماضي والحاضر، حسن سليمان محمود، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، 1962م.
ليبيا منذ الفتح العثماني، اتوري، روسي، تعريب خليفة التليسي، دار الثقافة، الطبعة الأولى
1974م.

(م)

معركة نهاوند، شوقي أبو خليل.
مرآة الزمان لسبط بن الجوزي.
الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، نجيب زيب، دار الأمير، الطبعة الأولى،
1415هـ/1995م.
مذكرات السلطان عبدالحميد، تقديم د. محمد حرب، دار القلم، الطبعة الثالثة،
1412هـ/1991م.
موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية د. حسان علي حلاق، دار الجامعة، الطبعة
الثالثة، 1986م.

موقف اوربا من الدولة العثمانية، د. يوسف علي الثقفي، الطبعة الأولى، 1417هـ.
المختار المصون من أعلام القرون، محمد بن حسن بن عقيل موسى دار الأندلس الخضراء

- للنشر والتوزيع جدة، الطبعة الأولى، 1415هـ/1995م.
- المسألة الشرقية، دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية، محمود ثابت الشاذلي، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى 1409هـ/1989م.
- محمد الفاتح، د. سالم الرشيد، الارشاد، جدة، الطبعة الثالثة 1410هـ/1989م.
- معجم المؤلفين، تراجم مصنفى الكتب العربية، تأليف عمر رضا كحالة، احياء التراث العربي. المشرق العربي والمغرب العربي د. عبدالعزيز قائد المسعودي، جامعة صنعاء، دار الكتب الثقافية، صنعاء، الطبعة الأولى 1993م.
- مجموع الفتاوى، جمع وترتيب عبدالرحمن القاسم.
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، خالد السبت، المنتدى الإسلامي.
- معارج القبول شرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد، تأليف الشيخ الحافظ أحمد حكيم رحمه الله، تعليق عمر محمود، دار ابن القيم للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 1410هـ/1990م.
- مسند الإمام أحمد، المكتب الإسلامي، بيروت، 1405هـ/1985م.
- المجتمع المدني في عهد النبوة " الجهاد ضد المشركين، الطبعة الأولى 1404هـ. مواقف حاسمة، محمد عبدالله عنان.
- منهج الرسول في غرس الروح الجهادية في نفوس أصحابه، د. السيد محمد السيد نوح، الطبعة الأولى 1411هـ/1990م، نشرته جامعة الإمارات العربية.
- المغرب العربي في بداية العصور الحديثة، صلاح العقاد، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة الطبعة الثالثة، 1969م.
- المغرب العربي الكبير، شوقي عطا الله الجمل، طبعة أولى، 1977م، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة.

المجتمع الإسلامي المعاصر، محمد المبارك، دار الفكر بيروت، ط 1390هـ/1971م.

مشكلات الجيل في ضوء الإسلام، محمد المجذوب ط 1390هـ.

المغرب في عهد الدولة السعودية، عبدالكريم كريم، شركة الطبع والنشر، الدار البيضاء،
المغرب، 1977م.

المغرب العربي الكبير، جلال يحيى.

محنة المورسيكوس في اسبانيا، لمحمد قشتيلو، مطبعة الشويخ، تطوان، 1980م.

الموسوعة الميسرة في الأديان، لندوة الشباب العالمي، جدة.

المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسية، عبدالله بن حمد الشبانه، دار طيبة، الطبعة الثالثة،
1417هـ/1997م.

مصر في مطلع القرن التاسع عشر، د. محمد فؤادي شكري، القاهرة سنة 1958م.

الماسونية وموقف الإسلام منها، د. حمود أحمد الرحيلي، دار العاصمة. السعودية، طبعة أولى
1415هـ.

من أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي، محمد أديب غالب، دار اليمامة السعودية ط 1
سنة 1975م.

المعالم الرئيسية للأسس التاريخية والفكرية لحزب السلامة، محمد عبدالحميد حرب، ندوة
اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر البحرين.

مفاهيم يجب أن تصحح، لمحمد قطب، دار الشروق، القاهرة، الطبعة السابعة،
1412هـ/1992م.

المجتمع الاسلامي المعاصر، محمد المبارك، دار الفكر ، بيروت ط 1390هـ/ 1971م.

مشكلات الجيل في ضوء الاسلام ، محمد المجذوب ط 1390هـ.

(ن)

الانحرافات العقيدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين وآثارهما في حياة الأمة، تأليف علي بن نجيب الزهراني، دار طيبة مكة، دار آل عمّار الشارقة، الطبعة الثانية، 1418هـ/1998م.

النظام السياسي في الإسلام د. محمد ابو فارس، دار الفرقان، عمان، الأردن، الطبعة الثانية 1407هـ/1986م.

النجوم الزاهرة، لجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تعزي الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1391هـ/1971م.

النفوذ البرتغالي في الخليج العربي، نوال صيرفي، الرياض مطبوعات دار الملك عبدالعزيز، 1403هـ/1983م.

نشوة المدام في العودة إلى مدينة السلام: أبو الثناء الألوسي. مطبعة ولاية بغداد، 1293هـ.

(و)

واقعنا المعاصر، محمد قطب، الطبعة الثانية، 1408هـ/1988م. مؤسسة المدينة المنورة. الولاء والبراء في الإسلام، محمد سعيد القحطاني، دار طيبة، مكة الرياض، الطبعة السادسة، 1413هـ.

وادي المخازن، شوقي ابو خليل.

وحي القلم، مصطفى صادق الرفاعي، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية.

والدي السلطان عبدالحميد، مذكرات الأميرة عائشة، دار البشير، الطبعة الأولى، 1411هـ/1991م.

(ي)

اليهودية والماسونية، عبدالرحمن الدوسري، دار السنة، الطبعة الأولى، 1414هـ/1994م، السعودية.

اليهود والدولة العثمانية، د. أحمد نوري النعيمي، مؤسسة الرسالة دار البشير، الطبعة الأولى
1417هـ/1997م.

يهود الدونمة، دراسة في الأصول والعقائد والمواقف د. أحمد نوري النعيمي، مؤسسة الرسالة،
الطبعة الأولى، 1415هـ/1995م.

فهرس الكتاب

- الاهداء..... 2
- المقدمة..... 3
- المدخل: المناهج المعاصرة في كتابة تاريخ الدولة العثمانية..... 15
- تمهيد..... 15
- الفصل الأول: جذور الأتراك وأصولهم..... 25

- 25 المبحث الأول: أصل الأتراك ومواطنهم.....
- 26 - اتصالهم بالعالم الإسلامي.....
- 29 المبحث الثاني: قيام الدولة السلجوقية.....
- 31 أولاً: السلطان محمد الملقب آلب أرسلان أي الأسد الشجاع.....
- 36 ثانياً: ملكشاه وفشله في توحيد الخلافة والسلطنة.....
- 39 ثالثاً: نظام الملك.....
- 40 - ضبطه لأمر الدولة.....
- 41 - حبه للعلم واحترامه للعلماء وتواضعه.....
- 47 المبحث الثالث: نهاية الدولة السلجوقية.....
- 51 الفصل الثاني: قيام الدولة العثمانية وفتوحاتها.....
- 53 المبحث الأول: عثمان مؤسس الدولة العثمانية.....
- 55 أولاً: أهم الصفات القيادية في عثمان الأول.....
- 60 ثانياً: الدستور الذي سار عليه العثمانيون.....
- 91 المبحث الثاني: السلطان أورخان بن عثمان.....
- 92 أولاً: تأسيس الجيش الجديد.....
- 97 ثانياً: سياسة أورخان الداخلية والخارجية.....
- 99 ثالثاً: العوامل التي ساعدت السلطان أورخان في تحقيق أهدافه.....
- 101 المبحث الثالث: السلطان مراد الأول.....
- 102 أولاً: تحالف صليبي ضد مراد.....
- 103 - أول معاهدة بين الدولة العثمانية والمسيحية.....
- 103 - معركة قوصوه.....

- ثانياً: استشهاد السلطان مراد.....104
- 105..... - الكلمات الأخيرة للسلطان مراد
- 105..... - دعاء السلطان مراد قبل إندلاع معركة قوصه
- 111..... المبحث الرابع: السلطان بايزيد الأول
- 111..... أولاً: سياسته مع الصرب
- 112..... ثانياً: اخضاع بلغاريا للسيادة العثمانية
- 112..... ثالثاً: التكتل الدولي المسيحي الصليبي ضد الدولة العثمانية
- 115..... رابعاً: حصار القسطنطينية
- 116..... خامساً: الصدام بين تيمورلنك وبايزيد
- 118..... سادساً: انهيار الدولة العثمانية
- 119..... سابعاً: الحروب الداخلية
- 119..... المبحث الخامس: السلطان محمد الأول
- 131..... المبحث السادس: مراد الثاني
- 138..... أولاً: مراد الثاني وحبه للشعراء والعلماء وفعل الخير
- 139..... ثانياً: وفاته ووصيته
- 141..... الفصل الثالث: محمد الفاتح وفتح القسطنطينية
- 141..... المبحث الأول: السلطان محمد الفاتح
- 143..... أولاً: فتح القسطنطينية
- 148..... ثانياً: الإعداد للفتح
- 149..... - اهتمام السلطان بجمع الأسلحة اللازمة
- 150..... - الإهتمام بالأسطول

- 150 - عقد المعاهدات.....
- 151 ثانياً: الهجوم.....
- 155 ثالثاً: مفاوضات بين محمد الفاتح وقسطنطين.....
- 156 رابعاً: عزل قائد الأسطول العثماني وشجاعة محمد الفاتح.....
- 158 خامساً: عبقرية حربية فذة.....
- 161 سادساً: اجتماع بين الملك قسطنطين ومعاونه.....
- 162 سابعاً: الحرب النفسية العثمانية.....
- 165 - مفاجأة عسكرية عثمانية.....
- 167 ثامناً: المفاوضات الأخيرة بين محمد الفاتح وقسطنطين.....
- 168 تاسعاً: محمد الفاتح يعقد اجتماع لمجلس الشورى.....
- 171 عاشراً: محمد الفاتح يوجه تعليماته ويتابع جنوده بنفسه.....
- 174 الحادي عشر: فتح من الله ونصر قريب.....
- 178 الثاني عشر: معاملة محمد الفاتح للنصارى المغلوبين.....
- 181 المبحث الثاني: الفاتح المعنوي للقسطنطينية الشيخ آق شمس الدين.....
- 185 الشيخ شمس الدين يخشى على السلطان الغرور.....
- 189 المبحث الثالث: أثر فتح القسطنطينية على العالم الأوروبي والإسلامي.....
- 193 - من رسالة الفاتح إلى سلطان مصر.....
- 197 - رسالة السلطان محمد الفاتح إلى شريف مكة.....
- 199 المبحث الرابع: أسباب فتح القسطنطينية.....
- 204 - أثر تحكيم شرع الله على الدولة العثمانية زمن محمد الفاتح.....
- 206 أولاً : إنها قدر سابق.....

- 206.....ثانياً: إنها لا تتحول ولا تتبدل
- 207.....ثالثاً: إنها ماضية لا تتوقف
- 207.....رابعاً: إنها لا تخالف ولا تنفع مخالفتها
- 207.....خامساً: لا ينتفع بها المعاندون ولكن يتعظ بها المتقون
- 207.....سادساً: إنها تسرى على البر والفاجر
- 208.....-آثار الحكم بما أنزل الله الدنيوية والآخروية
- 208.....أولاً: الاستخلاف والتمكين
- 209.....ثانياً: الأمن الاستقرار
- 210.....ثالثاً: النصر والفتح
- 211.....رابعاً: العز والشرف
- 213.....خامساً: انتشار الفضائل وانزواء الرذائل
- 215.....المبحث الخامس: أهم صفات محمد الفاتح
- 221.....المبحث السادس: شيء من أعماله الحضارية
- 221.....- اهتمامه بالمدارس والمعاهد
- 223.....- اهتمام السلطان محمد الفاتح بالعلماء
- 225.....- اهتمامه بالشعراء والأدباء
- 226.....- اهتمامه بالترجمة
- 227.....- اهتمامه بالعمران والبناء والمستشفيات
- 228.....- الاهتمام بالتجارة والصناعة
- 229.....- الاهتمام بالتنظيمات الإدارية
- 231.....- اهتمامه بالجيش والبحرية



- 233.....اهتمامه بالعدل -
- 237.....المبحث السابع: وصية السلطان محمد الفاتح لأبنيه.
- 262.....- وفاة السلطان محمد الفاتح وأثرها على الغرب والشرق.
- 267.....الفصل الثالث : السلاطين الأقوياء بعد محمد الفاتح.
- 267.....المبحث الأول : السلطان بايزيد الثاني.
- 267.....أولاً: الصراع على السلطة مع أخيه.
- 269.....ثانياً: موقف السلطان بايزيد من المماليك.
- 269.....ثالثاً: السلطان بايزيد الثاني والدبلوماسية الغربية.
- 270.....رابعاً: وقوفه مع مسلمي الأندلس.
- 291.....المبحث الثاني: السلطان سليم الأول.
- 293.....أولاً: محاربة الدولة الصفوية الشيعية.
- 304.....ثانياً: ضم دولة المماليك.
- 311.....- مسألة انتقال الخلافة.
- 312.....- اسباب انهيار الدولة المملوكية.
- 313.....- خضوع الحجاز للعثمانيين.
- 314.....- اليمن.
- 315.....ثالثاً: الصراع العثماني البرتغالي.
- 327.....المبحث الثالث : السلطان سليمان القانوني.
- 327.....أولاً: الفتن التي واجهته في بداية حكمه.
- 329.....ثانياً: فتح رودس.
- 329.....ثالثاً: قتال المجر وحصار فينا.

- رابعاً: سياسة التقارب العثماني الفرنسي.....
- 335.....المبحث الرابع: الدولة العثمانية وشمال أفريقيا.....
- 336.....أولاً: أصل الأخوين عروج وخيرالدين.....
- 338.....ثانياً: دور الأخوين في الجهاد ضد الغزو النصراني.....
- 340.....ثالثاً: التحالف مع العثمانيين.....
- 343.....رابعاً: سكان مدينة الجزائر يرسلون رسالة استغاثة للسلطان سليم.....
- 345.....خامساً: استجابة السلطان سليم الأول لأهل الجزائر.....
- 347.....سادساً: التحديات التي أمام خيرالدين.....
- 350.....سابعاً: سفر خير الدين الى استانبول.....
- 354.....ثامناً: أثر الجهاد خيرالدين على المغرب الأقصى.....
- 356.....تاسعاً: استيلاء شارل الخامس على تونس.....
- 357.....عاشراً: عودة خير الدين الى الجزائر.....
- 358.....-الدبلوماسية البرتغالية وتفتيت وحدة الصف في الشمال الأفريقي.....
- 361.....المبحث الخامس: المجاهد الكبير حسن آغا الطوشي.....
- 368.....- مصير شارلكان
- 370.....- وفاة حسن آغا الطوشي.....
- 371.....المبحث السادس: المجاهد حسن خير الدين ببروسة
- 373.....أولاً: آخر أيام خيرالدين ببروسة.....
- 377.....ثانياً: عزل حسن بن خير الدين عن الجزائر.....
- 379.....ثالثاً: رسالة السلطان سليمان القانوني الى حاكم فاس محمد السعدي.....
- 382.....رابعاً: مرسوم السلطان العثماني بتقليد صالح رايس.....

- 383.....المبحث السابع: سياسة صالح الرايس
- 385.....- تمهيده للعمل المشترك في استرداد الاندلس
- 386.....أولاً: مقتل بوحسون الوطاسي
- 387.....ثانياً: التعاون البرتغالي الاسباني السعودي ضد العثمانيين
- 390.....ثالثاً: المخابرات العثمانية تكتشف المؤامرة
- 391.....رابعاً: وفاة صالح ريس
- 392.....خامساً: احتلال محمد الشيخ السعودي لتلمسان
- 394.....سادساً: مقتل محمد الشيخ
- 394.....- دعوة حسن بن خير الدين الى الجزائر
- 394.....سابعاً: الثورات الداخلية في المغرب الأقصى
- 396.....ثامناً: مقتل حاكم وهران الكوديت
- 397.....المبحث الثامن: سياسة حسن بن خير الدين في التضييق على الاسبان
- 399.....- سياسة المولى عبدالله
- 401.....أولاً: الاسطول العثماني يهاجم جربة في تونس
- 401.....ثانياً: اعتقال حسن خيرالدين وأرساله الى استانبول
- 402.....ثالثاً: عودة حسن بن خير الدين الى الجزائر
- 404.....رابعاً: الصراع على مالطة
- 405.....خامساً: حسن بن خير الدين القائد العام للأسطول العثماني
- 406.....سادساً: قلع علي تولى بيلر بك الجزائر
- 406.....سابعاً: إعادة تونس للحكم العثماني
- 408.....ثامناً: ثورة مسلمي الأندلس



- 409.....تاسعاً: خيانة السلطان السعدي الغالب بالله لمسلمي الأندلس
- 410.....عاشراً: قلج علي يقف موقف الأبطال مع مسلمي الأندلس
- 415.....المبحث التاسع: المتوكل على الله ابن عبد الله الغالب السعدي
- 417.....أولاً: تحالف محمد المتوكل السعدي مع ملك البرتغال
- 418.....ثانياً: معركة وادي المخازن
- 419.....ثالثاً: حشود النصارى
- 419.....رابعاً: الجيش المغربي
- 422.....خامساً: قوى الطرفين (البرتغالي النصراني والاسلامي المغربي)
- 427.....سادساً: أسباب نصر وادي المخازن
- 429.....سابعاً: نتائج المعركة
- 433.....ثامناً: اقتراح عثماني على السعديين
- 435.....تاسعاً: جهاد الوالي الجزائري وتغير الأوضاع
- 437.....عاشراً: انتهاء نظام البيلبريك في الجزائر
- 441.....الفصل الرابع: بداية اضمحلال الدولة العثمانية
- 443.....المبحث الأول: السلطان سليم الثاني
- 443.....أولاً: تجديد الهدنة مع فرنسا
- 445.....ثانياً: حاكم خوازم يطلب الحماية من السلطان سليم الثاني
- 447.....ثالثاً: فتح قبرص
- 448.....رابعاً: معركة ليبانتي
- 450.....خامساً: إحتدام المعركة
- 450.....سادساً: أثر ليبانتو على أوروبا والدولة العثمانية

- 452.....سابعاً: ظهور أطماع فرنسا في الشمال الأفريقي
- 453.....ثامناً: إعادة بناء الأسطول العثماني
- 454.....تاسعاً: احتلال تونس
- 454.....عاشراً: قلج علي واستعداداته الحربية
- 455.....الحادي عشر: السلطان سليم يصدر أوامره لإعادة تونس
- 458.....الثاني عشر: السلطان سليم يرسل حملة كبرى الى اليمن
- 459.....الثالث عشر: الاستيلاء على عدن
- 460.....الرابع عشر: دخول صنعاء
- 462.....الخامس عشر: دفاع عن السلطان سليم ووفاته
- 467.....المبحث الثاني : السلطان مراد الثالث
- 467.....أولاً: منعه للخمر
- 468.....ثانياً: وضع الحماية على بولونيا وتجديد الامتيازات
- 469.....ثالثاً: الصراع مع الشيعة الصفوية
- 469.....رابعاً: تمرد وعصيان على أيدي الانكشارية
- 470.....خامساً: مقتل الصدر الأعظم صوقلي محمد باشا
- 470.....سادساً: اليهود والسلطان مراد الثالث
- 471.....سابعاً: وفاة السلطان مراد الثالث
- 473.....المبحث الثالث: السلطان محمد خان الثالث
- 474.....أولاً: الشيخ سعد الدين أفندي
- 475.....ثانياً: من شعره
- 475.....ثالثاً: وفاته



- المبحث الرابع: السلطان احمد الأول.....
- أولاً: الحرب مع النمسا والدول الأوروبية.....477
- ثانياً: تجديد الامتيازات.....478
- ثالثاً: الحرب مع الشيعة الصفوية (الفرس).....480
- رابعاً: الحركات الانفصالية.....482
- خامساً: حركة فخر الدين بن المعنى الثاني الدرزي.....483
- نبذة عن الدروز.....483
- سادساً: وفاة السلطان أحمد الأول.....486
- المبحث الخامس: بعض السلاطين الضعاف.....487
- أولاً: السلطان مصطفى الأول.....487
- ثانياً: السلطان عثمان الثاني.....487
- ثالثاً: مراد الرابع.....488
- الحرب مع الشيعة الصفوية.....489
- رابعاً: السلطان ابراهيم بن أحمد.....490
- الحرب ضد البنادقة.....491
- خامساً: السلطان محمد الرابع.....492
- سادساً: السلطان سليمان خان الثاني.....493
- وفاة السلطان سليمان الثاني.....495
- سابعاً: السلطان احمد الثاني.....495
- ثامناً: السلطان مصطفى الثاني.....495
- تاسعاً: السلطان احمد الثالث.....496

- الداماد ابراهيم باشا والحضارة الغربية.....500
- عاشراً: السلطان محمود الأول.....501
- الحرب مع الدول الأوروبية.....501
- السلطان عثمان الثالث.....502
- الحادي عشر: السلطان مصطفى الثالث.....504
- الاهتمام بدعم الثورات الداخلية.....506
- الثاني عشر: السلطان عبدالحميد الأول.....510
- تحالف النمسا مع روسيا.....510
- وفاة السلطان عبدالحميد الأول وأثرها على الأحداث.....511
- المبحث السادس: السلطان سليم الثالث.....511
- أولاً: إصراره على الجهاد.....513
- ثانياً: هزيمة الجيوش العثمانية.....514
- ثالثاً: موقف الدول الأوروبية من هذه المعاهدات.....519
- رابعاً: الإصلاح الداخلي والمعارضة.....512
- خامساً: الغزو الفرنسي الصليبي على الدولة العثمانية في مصر.....523
- المبحث السابع: جذور الحملة الفرنسية الصليبية.....524
- أولاً: سر قوة المسلمين.....525
- ثانياً: تفجير الجيوب الداخلية.....527
- ثالثاً: السلطان سليم الثالث يعلن الجهاد ضد فرنسا.....528
- رابعاً: استجابة المهدي الدرناوي الليبي لنداء الجهاد ضد فرنسا.....530
- خامساً: الانكليز وأطماعهم.....

- سادساً: العثمانيون وسياستهم الدولية.....
- 537..... سابعاً: آثار الحملة الفرنسية على الأمة الاسلامية.....
- 541..... المبحث الثامن: السلطان محمود الثاني.....
- 541..... أولاً: الحرب مع روسيا.....
- 542..... - إلغاء الإنكشارية.....
- 545..... ثانياً: محمد علي باشا والي مصر.....
- 546..... ثالثاً: المؤرخ عبدالرحمن الجبرتي يصف محمد علي.....
- 547..... رابعاً: محمد علي والماسونية.....
- 554..... خامساً: محمد علي وضربه للاسلام في مصر.....
- 558..... سادساً: حركة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وصراعها مع الدولة العثمانية.....
- 559..... - تحالفه مع محمد بن سعود.....
- 562..... سابعاً: المؤامرة ضد حركة الشيخ محمد بن عبدالوهاب.....
- 566..... ثامناً: حقيقة حملة محمد علي على الحجاز ونجد.....
- 574..... تاسعاً: ثورة اليونان.....
- 581..... عاشراً: محمد علي باشا واليونان.....
- 584..... الحادي عشر: محمد علي باشا يحتل الشام ويحارب الدولة العثمانية.....
- 595..... المبحث التاسع: السلطان عبدالمجيد الأول.....
- 621..... المبحث العاشر: السلطان عبدالعزيز.....
- 623..... - عزل السلطان عبدالعزيز.....
- 624..... - سبب مقتل السلطان عبدالعزيز.....
- 627..... المبحث الحادي عشر: السلطان مراد الخامس.....

- 629..... الفصل الخامس : عصر السلطان عبدالحميد
- 629..... المبحث الأول: السلطان عبدالحميد
- 630..... أولاً: زيارته الى أوروبا مع عمه عبدالعزيز
- 633..... ثانياً: بيعته للخلافة وأعلان الدستور
- 643..... ثالثاً: تمردات وثورات في البلقان
- 645..... رابعاً: الحرب الروسية العثمانية
- 649..... - معاهدة سان ستفانو
- 652..... - مؤتمر برلين
- 655..... المبحث الثاني : الجامعة الاسلامية
- 659..... أولاً: جمال الدين الأفغاني والسلطان عبدالحميد
- 664..... ثانياً: الطرق الصوفية
- 667..... ثالثاً: تعريب الدولة
- 669..... رابعاً: مراقبته للمدارس ونظرتة للمرأة ومحاربتة للسفور
- 672..... خامساً: مدرسة العشائر
- 675..... سادساً: خط سكة حديد الحجاز
- 682..... سابعاً: إبطال مخططات الأعداء
- 684..... ثامناً: الاطماع الايطالية في ليبيا
- 689..... المبحث الثالث: السلطان عبدالحميد واليهود
- 691..... أولاً: يهود الدونمة
- 697..... ثانياً: السلطان عبدالحميد وزعيم اليهودية العالمية هرتزل
- 707..... المبحث الرابع : السلطان عبدالحميد وجمعية الاتحاد والترقي

717.....	المبحث الخامس: الإطاحة بحكم السلطان عبدالحميد الثاني
729.....	المبحث السادس : حكم الاتحاديين ونهاية الدولة العثمانية
749.....	المبحث السابع: بشائر إسلامية في تركيا العلمانية
758.....	- أهم أعمال حزب السلامة
773.....	اسباب سقوط الدولة العثمانية
839.....	نتائج البحث
867.....	المصادر والمراجع
889.....	فهرس الكتاب

إن هذا الجهد المتواضع يسلط الأضواء على المجهود العظيم الذي قام به العثمانيون نصرته لدين الله، وحباً في الشهادة في سبيله، ويهتم بإبراز عوامل النهوض التي ساهمت في بناء الدولة العثمانية وحضارتها الاسلامية ، سواء كانت تلك العوامل متمثلة في صفات القادة، أو الأمة، أو المنهج الذي سارت عليه الدولة، ويدافع عن التاريخ العثماني الإسلامي الذي تعرض للتزوير ، والتشكيك والبهتان من قبل اليهود والنصارى والعلمانيين ، ويركز على أسباب السقوط التي تعرضت لها الدولة في تاريخها الطويل من المنظور القرآني، ليبين للقارئ الكريم أن أسباب السقوط عديدة منها؛ انحراف الأمة عن مفاهيم دينها؛ كعقيدة الولاء والبراء، ومفهوم العبادة، وانتشار مظاهر الشرك والبدع، والخرافات في عموم الأمة ويتحدث عن غياب القيادة الربانية كسبب في ضياع الأمة وخصوصاً عندما يصبح علمائها ألعوبة بيد الحكام الجائرين، ويتسابقون على الوظائف والمراتب وغاب دورهم المطلوب منهم، وكيف أصيبت العلوم الاسلامية في نهاية الدولة العثمانية بالجمود والتحجر؟ وكيف تباعد العلماء وأبناء الأمة عن روح الاسلام الحقيقية المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؟

ويصل إلى حقيقة مهمة وسنة من سنن الله في المجتمعات الاسلامية؛ وهي أن جهود النصارى واليهود، والعلمانيين ماكانت لتؤثر في الدولة العثمانية إلا بعد أن أنحرفت عن شرع الله وفقدت شروط التمكين ؛ وأهملت أسبابه المادية والمعنوية.

إن هذه الجولة التاريخية العثمانية تعيننا على التفكير والتأمل في أحوال الأمم والشعوب والدول قال تعالى: ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ماكان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ (سورة يوسف : آية 111).

الفقير الى عفو ربه ومغفرته ورحمته

المؤلف